وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب

موسوعة

السياسة والحرب في بلاد الشام

الجزء الأول

تقديم: العماد علي حبيب

اللواء الركن المجاز
أ. الدكتور
إبراهيم مصطفى المحمود





موسوعة

السياسة والحرب

في بلاد الشام

الجزء الأول


الهيئة العامة
السورية للكتاب

اللواء الركن المجاز
أ. الدكتـور
إبراهيم مصطفى المحمود

موسوعـة

السياسة والحرب

في بلاد الشام

الجزء الأول

تقديم : العماد علي حبيب

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب
وزارة الثقافة - دمشق ٢٠١١م



موسوعة لسياسة و لحرب في بلاد لشام / إبرهيم مـصطفى لمحمـود ؛ تقـديم علي حبيب .- دمشق: لهيئـة لعامـة لـسورية للكتـاب، ٢٠١١م.- ج١

(٥١٢ ص) ؛ ٢٤ سم .

(تاريخ سورية. درسات ونصوص؛ ٨)

١- ٣٥٥,٤ م ح م م ٢- ٩٥٦ م ح م م

٣- لعنون ٤- لمحمود ٥- لسلسلة

مكتبة لأسد

تاريخ سورية (دراسات ونصوص)

«٨»



إهــداء

إلى الشهداء الذين رووا بدمائهم تراب الوطن

وإلى الأبطال الذين يذودون عن حياض البلاد . .


الهيئة العامة
السورية للكتاب

تقديم

العماد علي حبيب

إن تاريخ الشعوب مرآة تعكس مناهج الأسلاف، لتعليل الأحداث الماضية. وإبراز أسبابها، وبيان الطرائق والوسائط التي استخدمها الأجداد لتحقيق إرادتهم في امتلاك أسباب الوجود والتطور ؛ فتاريخ الشعوب سر وجودها، وأحداثه منبع آلامها وآمالها، أما فهمه ودراسة تجاربه واستنباط قوانينها وأحكامها، فهو الذي يحدد نجاحها مستقبلاً أو إخفاقها.

وتأسيساً على ما سبق ينبلج النبراس، وتخلق القدوة لمن يريد أن يعتبر من الأجيال الصاعدة، وفي تاريخ الشعب العربي ملاحم خالدة ينبثق منها ومض الإبداع وشذى البطولة، مما يجعلها معيناً لا ينضب لكل ذي بصر وبصيرة، لأنه مرآة الأحداث الجسيمة التي غيرت الكثير من مجريات الأحداث منذ وجد هذا الشعب إلى يومنا هذا.

إن مسارح الأعمال الحربية الرئيسة في العالم بقيت هي نفسها في أيامنا هذه، مع بعض التعديلات التي استوجبها تطور وسائط الصراع المسلح، وتطور طرائقه التي أحدثت ثورة في قدرات الجيوش الحديثة، ولا غرو في أن مسارح الأعمال الحربية بما فيها من جبال وتلال وهضاب ووديان وسهول وأنهار وبحيرات وغابات وصحارى، هي عوامل دائمة التأثير على طرائق خوض الصراع المسلح ووسائطه.

لقد بقيت لفلسطين استراتيجيتها التي كانت لها زمن خالد بن الوليد ضمن مسرح أعمال بلاد الشام الحربية، وبقيت لهذا المسرح الرقعة نفسها التي كانت له في أيام صلاح الدين الأيوبي أيضاً... لقد أعدنا تجربة صلاح الدين الأيوبي، عندما هيأ مصر والشام، ووحد قيادتها، للقضاء على غزو الفرنجة، عندما خضنا حرب تشرين التحريرية، لأن مسرح الأعمال الحربية هو نفسه، وتوحيد القيادة الاستراتيجية هي نفسها أيضاً، من هذا ينبثق البرهان، وتولد الحجة على أهمية دراسة التاريخ السياسي والعسكري.

عندما قصدني المؤلف عارضاً علي مخطوطة موسوعته / السياسة والحرب في بلاد الشام / خشيت من أمور قد تكون عائقاً أمام الباحث، وهي ثقل المهمة وجلالها، وقلة المراجع وندرتها، وما تتطلبه من الصبر والقدرة، لكن معرفتي بالمؤلف طالباً متميزاً في الكلية الحربية، وضابطاً في القوات المسلحة، ولاسيما لقاءنا ليلاً في معركة السلطان يعقوب في لبنان، وهو ما شرحه المؤلف في موسوعته. كما استأذنني في اعتماد كتابي معركة السلطان يعقوب ليكون مرجعاً أساساً لمعركة السلطان يعقوب عام ١٩٨٢م، فلبيت له ذلك.

لقد قرأت (موسوعة السياسة والحرب في بلاد الشام) بإمعان فوجدتها سفراً جامعاً لموضوع بحثه، كما وجدت فيه بعثاً لعظمة الأسلاف الميامين الذين وقفوا في أحلك الظروف ليذودوا عن حياض الوطن، وشاملاً للحروب القديمة والحديثة والمعاصرة في بلاد الشام، ولشد ما كان إعجابي في عودة المؤلف إلى مخطوطات العيني والذهبي والنويري والسرخسي، وابن الفرات، وابن محزمة، وابن منكلي وغيرهم الكثير، ودراسته للأسفار القديمة لابن الأثير الجزري، وابن كثير القرشي، وابن خلدون، وابن العديم، وابن خلِّكان، وابن واصل، وتمحيصه لمؤلفات (أبو الفداء، والمقريزي، والديار بكري، والأصفهاني، والبغدادي، والهرثمي).

ولم يغب عن المؤلف العودة إلى مراجع استدلالية من أمهات الموسوعات، ومنها الموسوعة السوفييتية الكبرى، وموسوعة المعرفة السويسرية، وموسوعة قصة الحضارة، والموسوعة العسكرية، وموسوعة تاريخ الحضارات العام وغيرها، إضافة إلى زهاء ثلاثمئة مصدرٍ ومرجعٍ قديمٍ وحديثٍ ومعاصرٍ.

إن أكثر ما يميز هذا السِفْر هو منهجيته العلمية، التي أظهر بها الترتيب الزمني للأعمال القتالية العربية ضد الغزاة عبر القرون، كما أظهر البنية التنظيمية للقوات العربية المسلحة، ثم جلا المؤلف وأوضح الطرائق والوسائط التي استخدمها العرب والغزاة في كل حرب أو معركة قديماً وحديثاً، فظهر من كل ذلك الخصائص التي ميزت استراتيجية العرب وتكتيكهم، مُظهراً الدروس والاستنتاجات والعبر التي تهم شعبنا وقواتنا المسلحة حاضراً ومستقبلاً.

كتب علي الهروي في كتابه (التذكرة الهروية في الحيل الحربية) مايلي:

«يُستحب للقائد أن يُكثر من قراءة كتب الحروب والغزوات، والوقائع، ومقاتل الفرسان وَحيل القتال»[1].

كذلك قال نابليون بونابرت: «إن معرفة الأجزاء العليا من الحرب لا تكتسب إلا بالخبرة، وبدراسة تاريخ الحروب، ومعارك كبار القادة...»

أعد قراءة معاركهم الثمانية والتسعين واحذُ حذوهم.. تلك هي الوسيلة لتغدو قائداً عظيماً.

---

(١) علي بن أبي بكر الهروي المكنى (أبي الحسن) – أصله من هراة في أفغانستان ولكنه ولد في الموصل، وتوفي في حلب سنة ٦١١ للهجرة الموافق سنة ١٢١٥م – التذكرة الهروية في الحيل الحربية – تحقيق مطيع المرابط – منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي – دمشق ١٩٧٢م – ص٩٤

وهكذا تنبثق أهيمة هذا السفر، فبدراسته تكتسب خبرات حروب وعمليات ومعارك، ولاسيما أنها جرت في مسرح عمليات بلاد الشام، الذي هو مسرح عملياتنا، لنصبح أكثر قدرة وخبرة للذود عن حياض الوطن.

إن الحرب التي تشنها علينا قوى البغي والعدوان، هي حرب عدوانية استعمارية، تهدف إلى احتلال الأوطان، وسرقة خيراتها، واستنزاف مواردها بذريعة مكافحة الإرهاب، وتحقيق الديمقراطية وذرائع واهية باطلة أخرى.

لقد وجدت أن الباحث قد ذلل الصعاب في هذه الموسوعة، كي يأخذ هذا السفر مكانه المرموق في المكتبة العربية فهو بذلك لاجرم جدير.

العماد

علي حبيب

مُقَدَّمَة

إن نشأة التاريخ العربي علماً مدوناً، ومجموعاً من مصادره الشفوية والكتابية. بجاهليته وإسلامه، **ترجع إلى القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي**، وهو في نشأته هذه كان عربياً أصيلاً، وجديداً بفكره، وبتقويمه الزمني، وبأهدافه.

وكان هذا التاريخ في مطالعه التدوينية الأولى، يحوي نوعين من الأخبار:

أولهما: أخبار الجاهلية، أو تاريخ العرب قبل الإسلام، وغيرهم من الأقوام المعاصرة **لهم**.

وثانيهما: الأخبار المدَّونة في التاريخ العربي الإسلامي الأول، وإلى هذه الأخبار بالذات ترجع بدايات التاريخ العربي الأصيل.

وزبدة القول: لم يصل القرن الثالث للهجرة إلى نهايته، حتى كانت الأبواب الرئيسة للتاريخ العربي قد رُسِمَتْ فانطلقَ في دروب فسيحة فيما تلا ذلك من قرون.

وإذا ما جرت موازنة خطوات المنهج العلمي للبحث التاريخي الحديث، مع ما كان يقوم به المؤرخون العرب، يتضح المنهج الذي ساروا عليه، ومدى علميته، **وليُبدأ بالخطوة الأولى** وهي اختيار موضوع الدراسة أو البحث، ويجب أن يكون جديداً، ومسألةً هامةً لُمجمل سَيِّر التاريخ العام، وللأجيال المتوالية.

والخطوة الثانية في المنهجية التاريخية العلمية، هي جمع المصادر، ولابُدَّ من التأكيد هنا على أن عدداً من المؤرخين العرب **قد أولوا المكان في دراساتهم** التاريخية اهتماماً كبيراً، فربطوا بذلك بين الجغرافية والتاريخ، على غرار ما

يجري اليوم. ومن الأمثلة على ذلك **المسعودي** في كتابيه « **مُروج الذهب ومعادن الجوهر**، و«**التنبيه والإشراف**»، **وابن العديم** في كتابه «**زبدة الحلب في تاريخ حلب**»، **وابن خلدون**، وغيرهم وعندما انتظمت دواوين الدولة العربية، اعتمد المؤرخون على وثائقها، مثل **اليعقوبي** (٩٠٥م)، والعماد **الأصفهاني (١٢٠١م) في كتابه «البرق الشامي»**.

والخطوة الثالثة هي النقد التاريخي،حيث تعد الطريقة النقدية العماد الأول في المنهجية العلمية للبحث التاريخي المعاصر.

ولم يقتصر المؤرخون العرب في نقدهم للخبر على التجريح والتعديل فقط، وإنما اعتمدوا أيضاً المحاكمة المنطقية، أو طريقة الموازنة بين مصدرين للمعلومات، والموازنة الزمنية بين خبرين، وتمكنوا بذلك من إظهار زيف بعض الوثائق والأخبار.

وقد أكد ابن خلدون ضرورة النقد وأهميته في التاريخ، عندما أوضح الأسباب التي تجعل الكذب يتطرق إلى الخبر.

أما الخطوة الرابعة فهي التركيب في المنهجية التاريخية العربية

وفي الحقيقة، يتفاوت المؤرخون العرب في تقصِّيهم للأسباب، وفي تفسيرهم للحوادث، إلا أنهم أدركوا في الجملة أهمية العوامل الاقتصادية، والجغرافية، والنفسية، والاجتماعية، والفكرية في دفع الأحداث، وسعى بعض المؤرخين لتكوين تركيب فلسفي لمعنى التاريخ ككُل، ومن هؤلاء **المُطَهر بن طاهر المقدسي** (٩٦٦ م) في مقدمة كتابه «البدء والتاريخ»، **وأبو طالب عبد الجبار الأندلسي** (١١٣٤ م) في أرجوزته التاريخية، **وابن خلدون** في مقدمته التي قال عنها الفيلسوف **توينبي** (١٩٧٥ م): «**إنها أعظم عمل من نوعه أبدعه العقل البشري**».

والخطوة الخامسة هي أسلوب المؤرخين العرب في الصياغة والأداء، حيث كتب معظم المؤرخين العرب مؤلفاتهم بلغة عربية بيّنة وبليغة.

وإن الصناعة البديعية في الأسلوب التاريخي تسيء للتاريخ، إذ تبعد صاحبه عن الحقيقة والدقة، وتوقعه في التكرار، ويصبح «المقصود مغموراً في تضاعيف ضمائر الأسجاع»، كما جاء في «نقد الفتح البنداري» (ت ٦٤٣هـ /١٢٤٥ م) **للعماد الأصفهاني**.

ونحن لا نتعصب للغة العربية إذا قلنا إنها تعتبر الآن تراثاً للإنسانية جمعاء، فهي اللغة الوحيدة بين جميع لغات العالم التي ما تزال حية منذ أكثر من ١٥٠٠ سنة، ولقد استطاعت في فترة زمنية مهمة (٤٠٠ عام) أن تستوعب حضارات الأمم القديمة في فترة كان العالم تائهاً في دياجير الظلمة ودهارير الجهل[١].

كما أننا لا نبالغ إذا قلنا إن المصادر التاريخية العربية هي أكثر المصادر التاريخية العالمية دقة وإيضاحاً على الإطلاق، إذ إنَّ مدلولات مفرداتها ما تزال تُعطي المعاني نفسها التي كانت تعطيها لحظة كتابتها، فالمصادر التاريخية الإنكليزية - مثلاً - لا يستطيع الإنكليزي المعاصر أن يفهمها بل هو بحاجة إلى ترجمتها ! بينما المصادر التاريخية العربية فيستطيع أي عربي الآن فهمها مباشرة، بل حتى الشعر العربي القديم والذي كان ديوان العرب - أي مادة التأريخ الأساسية لهم - ما يزال في متناول فهم القارئ العربي المعاصر.

وهكذا فهم أول من وضع وأبدع أُصول منهج البحث العلمي الحديث، وأول من أدرك الصلة الوثيقة بين علم التاريخ والعلوم الأخرى ولاسيَّما علم الاجتماع، وعلم الاقتصاد.

واليوم وبعد زهاء ألف سنة من الحوادث التي تضمنتها تلك الكتب التاريخية يُطلُّ القرن الواحد والعشرون، والعرب تذروهم رياح الفرقة، وتجتاحهم عواصف الغزاة. في عالم أصبح كثور جريح هائج في قارب صغير في لُجَّةِ إعصار.

والسبب في ذلك يكمن في ابتعاد بعض الشعوب عن مبادئ الحق والخير والجمال، وفي تمسكها بتعصبٍ أعمى لدين أو مذهب، بما يخرجها عن جوهر هذا الدين أو ذاك من مبادئ سامية. مثل (المحافظون الجدد).

والسبب الآخر هو انسياق شعب وراء إيديولوجية ظاهرها براق، وجوهرها إجرام، مثل انحراف الألمان والطليان وانقيادهم خلف الإيديولوجيتين النازية

---

(١) دهارير: جمع دهر.

والفاشية، وظهور زعيمين أرعنين هما **هتلر وموسيليني**، اللذين وصل بهما الغرور إلى إعماء البصر وضلال البصيرة، مما كان سبباً أولاً في نشوب الحرب العالمية الثانية. أو وصول زعيم أخرق إلى حكم دولة كبرى، مثل الرئيس **جورج بوش الابن**، ومعه المحافظون الجدد الذين قادوا الولايات المتحدة الأمريكية، إلى تنفيذ أبشع ما وصلت إليه البشرية من قتل وتدمير وفتنة بين الناس، ﴿ **وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ** ﴾[1].

إنَّ نظرة شمولية إلى ما تعيشه البشرية الآن لتدل على أن الأمم كافة تسير بسرعات متفاوتة، لكسب قصب السبق في ميادين الحضارة كلها، ففي نهاية الحرب العالمية الثانية كانت **اليابان وألمانيا** خرائب مدمرة، وكانتا تبدوان وكأنهما لن تقوم لهما قائمة، حيث كانتا في واقع اقتصادي واجتماعي مرير مقيد باتفاقات استسلامية مهينة، تمنعهما من مجرد التفكير في البناء والتطور.

وها هي اليابان وبعد أقل من نصف قرن تسير بسرعة مذهلة في ميادين العلوم والحضارة كافة، لتغدوَ دولة ذات فتوح علمية كبرى، فمن المعروف الآن أنها الدولة الأولى في العالم في ميادين الإلكترونيات، وبعد (٦٥) عاماً من استسلام اليابان من دون قيد أو شرط، استثمرت فيها اليابان الزمن للتطور الذي أحرزته، فاستغلت الظروف الدولية لتعديل دستورها الذي فرضه الأمريكيون عليها، والذي ينص في مادته التاسعة على: **(تخلي اليابان إلى الأبد عن شن الحرب)**، وأصبحت اليابان قادرة على المشاركة في العمليات العسكرية في الخارج حتى أصبحت إحدى المهمات الرئيسة لقوات الدفاع الذاتي، وهو الاسم الرسمي لجيش اليابان، وتم تعديل اسم وكالة الدفاع إلى وزارة الدفاع، وهكذا خلعت اليابان بذلك مسوح « الدستور السلمي»، لتبدأ في مطلع عام ٢٠٠٧م ميدان الصراع الدولي المسلح، **أما ألمانيا وبعد تحطيمها وتقسيمها، فقد توحدت بشطريها**، لتصبح قوة اقتصادية كبرى متينة البنيان، ولها فتوحها الخاصة في ميادين العلوم أيضاً.

بعد الحرب العالمية الثانية شهد القرن العشرون تحولات كبرى في الخرائط السياسية العالمية، وفي البنى الاقتصادية الدولية، **فالصين الشعبية**

---

(١) سورة البقرة – آية ١٩١.

انتقلت من شعب خدّره المستعمر البريطاني بالأفيون، مترنح بين جائحاتِ الجوع والموت، وكل عوامل التخلف فقراً وجهلاً ومرضاً، إلى أمة تقف لتنضو عنها أسمالها الخَلِقَة فقد بنت اقتصادها،حتى صارت القوة الاقتصادية الثانية في العالم وهي المرشحة الأولى كي تتبوأ وتحتل عرش العالم اقتصادياً،في غضون بضع سنين، وأصبحت قوة يحسب لها ألف حساب، بامتلاكها وسائط التدمير الشامل، وبتطورها في ميادين العلوم الأخرى.

ويبدو من نظرة شاملة إلى خارطة العالم أن أكثر المناطق تخلفاً وفقراً وعدم قدرة على التحكم في مسار مستقبلها، هي المناطق التي تكثر فيها الكيانات والحدود والأنظمة، وينضوي في ذلك جنوب شرق آسيا، والوطن العربي، وباقي قارة أفريقيا، وأمريكا الجنوبية بمعظم دولها.

ويبدو لنا أنه إن شاءت القوى العظمى الحالية أم لم تشأ فإن ذُرا الحضارة ستنتقل حتماً إلى بقاع أخرى، نأمل أن يكون وطننا العربي منها، ولعلَّ بضع عقود قادمة ستكون خير مصداق ودليل إلى ما ذهبنا إليه.

ودليلنا على ذلك أنه عندما ارتد التيار المغولي الدموي، خلَّف وراءه في بلاد إيران وما حولها، وفي بلاد الرافدين وبلاد الشام اقتصاداً مضطرباً، وقنوات للري مطمورة، ومدارس ودوراً للكتب رماداً تذروه الرياح، وحكومات معدمة ضعيفة ومنقسمة على نفسها، كما هلك أكثر من نصف سكانها.

فتحولت هذه البلاد إلى الانغماس الأبيقوري في الملذات، والهزال الجسمي والعقلي، وخور العزيمة والعجز الحربي والانقسام الديني، والالتجاء إلى المراسم الغامضة، والفساد السياسي والفوضى الشاملة.

وهكذا انقلبت آسيا الغربية من زعيمة للعالم قوة وعلماً إلى الفقر المدقع والخراب الشامل. وها هي آسيا اليوم تتقدم بخطى واثقة وحثيثة بقواها البشرية والاقتصادية الهائلة، لتتربع على عرش حضارة العالم، وبهكذا تَحوُّلٍ تتهيأ الظروف الدولية الملائمة لوحدة العرب، كما تهيأت لغيرهم مثل الألمان والطليان والصينيين.

وللرد على كل المشككين والأعداء للوحدة العربية نقول: إن هناك علاقة مابين الحامل والمحمول في الفلسفة، ومابين الضرورة والإمكان في المنطق، فإذا اعتبرنا أن

الوحدة ضرورة، وأن الظروف المحلية والدولية لا تسمح بقيامها، نقول: إن انتفاء الإمكان آنياً لا ينفي الضرورة، وأكبر مثال على ذلك إذا كان شخص ما مصاباً بمرض السكري فهو بحاجة إلى الأنسولين إن توفر أو لم يتوفر.

وقد ترافق أفول نجم القرن التاسع عشر، وإطلالة القرن العشرين، بظهور تيارات رئيسة ثلاثة في الوطن العربي وهي: التيار القومي، والتيار الديني، والتيار الأممي.

وقد عملت القُوى الطامعة من الغزاة والمستعمرين على اختلاق الشقاق لاستمرار الفراق بين هذه التيارات، فزادت فيما يفرق وحاولت أن تقتل ما يجمع مع أننا نجد مؤمناً بالديانة الإسلامية، أو المسيحية، وهو في الوقت نفسه ينتمي إلى الأمة العربية؛ لأن القومية العربية هي هوية الإنسان العربي، بما يميزه عن أبناء الأمم الأخرى.

إنَّ التنوع في الانتماء الديني يجب أن يكون مصدراً للاعتزاز بقدسية الأرض العربية، التي انتقاها الخالق لتكون مهبط الرسالات ومهد الأنبياء، وأمام هذا الواقع الديني والحضاري تكون الأمة العربية هي الحاضنة لجميع أبنائها على تنوع انتماءاتهم الدينية.

ولا غرو في أن أرض السياسة هي الجغرافية، وأن سماءها التاريخ، ومن هذين المنطلقين المتكاملين يمكن فهم الأحداث، ووضعها في زمانها ومكانها الصحيحين، ومع ذلك ما زالت التيارات السياسية في الوطن العربي تذروها رياح الفرقة، بعوامل بعضها واقعي (مرفوض)، ومعظمها خارجي (مفروض)، مع أن التهديد الخارجي واقع بالقوة المسلحة، الذي لن يستثني أحداً.

ولحرف الرأي العام العالمي عمَّا يرتكب من جرائم إبادة، لجأت أمريكا وإسرائيل وغيرها إلى طرائق خبيثة منها:

١- إثارة النعرات الإثنية والطائفية بكل الوسائط والطرائق.

٢- إنشاء وسائل إعلام مرئية ومقروءة ومسموعة مأجورة.

٣- اللجوء إلى الاغتيالات.

٤- طريقة اختلاق الشروخ بين الأنظمة والشعوب، وبين الطوائف والأعراق.

٥- **رشوة السياسيين العملاء من العرب وغيرهم.**

٦- **صَرَف الرأي العام العالمي إلى جوائح صحية خطيرة** مثل جائحة سارس ثم جائحة أنفلونزا الطيور، وانفلونزا الخنازير، وجنون البقر.

٧- **لجأت أمريكا وإسرائيل إلى تحويل الغضب العربي** ضد دول أخرى مثل الدنمارك، وذلك بعد أن قام اليهودي الصهيوني (دانيال بابيس) بالتخطيط والتمويل لنشر رسوم تسيء إلى الرسول ( ).

٨- **ثم اعتمد العدو على الفتنة بين الأديان والمذاهب .**

٩- **خلق البلابل الاقتصادية عالمياً وإقليمياً.**

إنَّ معظم الصراعات التي يشهدها كوكبنا هذا إنما مردها إلى الانحرافات التي أصابت المعتقدات السياسية، والاقتصادية والثقافية والاجتماعية

وأطل القرن الواحد والعشرون حاملاً سرعةً مذهلةً في تطور العلوم المادية وغيرها، مترافقة مع تفاوت مذهل في مستويات البنى التحتية والفوقية بين الأمم، لأنه مازال هناك أكثر من ثلث البشرية أميين، ومعظمهم عراة جياع ومرضى، فكأنهم قد حكموا بالإعدام دون ذنبٍ قبل آجالهم.

إن وجود (إسرائيل) هو وجود بالغير وليس وجوداً بالذات، أي أنها أداة وليست ذاتاً، وعلى الرغم من إظهار كثير من الباحثين إن إسرائيل هي التي تتحكم في الدول الكبرى ولاسيّما أمريكا، لكن الحقيقة **[أنها وجود بغيره وليست وجوداً بذاته].**

وما سلوك بعض الدول الكبرى لصالح إسرائيل إلا انعكاس لمصالح متلاقية مشتركة، والبرهان هو نشوءها وأسبابه ثم حروب ١٩٤٨م، ١٩٥٦م، ١٩٦٧م، ١٩٨٢م، ١٩٩٠م، ١٩٩١م، وغزو أمريكا العراق عام ٢٠٠٣م، والعدوان على لبنان عام ٢٠٠٦م.

إن التاريخ السياسي العسكري تجربة ناضجة، نستطيع به دراسة مقدمات الحرب، ومجرياتها، وطرائق ووسائط خوضها، ونتائجها، بهدوء ورصانة كي نستمد منها الدروس والعبر.

لقد استحوذ الوطن العربي وعلى امتداد تاريخ الحضارة وحقبها اهتماماً كبيراً، بسبب موقعهِ الجغرافي الاستراتيجي، وإمكاناته الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، وقد عانى الشعب العربي الكثير من ألوان العذاب نتيجة للحروب، والغزوات التي تعرض لها، والتي كان دافعها الأساس، وسببها الأول الأطماع الاستعمارية في خيرات هذا الوطن.

ولا جرم في أن الوطن العربي كان وما يزال مثار أطماع الغزاة، التي نراها ماثلةً للعيان، في فلسطين والعراق والصومال والسودان وغيرها، وفي الوقت نفسه مازال الشعب العربي يَدُقُّ بابَ الحرية ويدكُّ معاقل الاحتلالِ بسواعد الأبطالِ وبدماءِ الشهداءِ التي تُبذل فداءً للوطن.

ولا بد لأية أمةٍ تُريد التحكمَ بمسارِ مستقبلها، من أن تقرأ وتتفهم ماضيها، وأن تدرس الخبرات التاريخية الثمينة، لأنها كنزٌ صاغه الأجداد بعبقرياتهم و بدمائهم، ومنه تُستكشف القوانين التي تتحكم في الحاضر والمستقبل.

إن دراسة التاريخ السياسي والحربي للعرب، يجعل الأجيال الحاضرة والقادمة، أكثر قُدرة على وضعِ الخُططِ المُحكمةِ للحاضرِ والمستقبل أيضاً، ومنه يُحدد الشعبُ نوعَ التربيةَ التي يختارها لأبنائه، ليُوجِّهوا التوجيه الصحيحَ لتحقيقِ الأهدافِ الوطنيةِ والقوميةِ، لأننا في التاريخِ الحربي للوطنِ ننفذُ إلى أعماقِ الأحداثِ، ونصلُ إلى إدراكِ العواملِ الأساسيةِ التي غَيرَّتَ وتغير مجرى التاريخ، وإن إدراكنا لكل ما مر ذكره يجعلنا أكثر قدرة على التحكم في مسار مستقبلنا.

ومهما تشابهت أحداث الماضي بأحداث الحاضر، فإنها ليست تكراراً معاصراً، وحديثاً لوقائع التاريخ القديم، **إلا أن صراعات الحياة البشرية محكومة بقوانين عامة**، لذلك كان الوعي بهذه القوانين أمراً ضرورياً، لفهم واقع الصراعات المعاصرة والمستقبلية، وتقدير احتياجاتها، وضروراتها، مما يخلق البصيرة النافذة لمستقبلها وتطورها، ومن ثم تكون إرادة الشعبِ مُحققةً علمياً وعملياً، في خلق الأدوات والوسائط واختراعها، وفي إبداع الطرائق الناجعة

لخوض الصراع المسلح، ذوداً عن حياض الوطن، لجعل نهاية هذه الصراعات في مصلحة الشعب المتقدم لنيل حقه تحت الشمس.

والشعبُ العربيُ من أكثر شعوبِ الأرضِ عراقةً وفي الوقت نفسه أكثرها حاجةً لنفضِ غبارِ الزمنِ عن تاريخهِ، وإعادةِ دراستهِ وتدوينهِ، بالطرائق العلمية والعملية الحديثة الجدية والمجدية.

ولاشك أن جذور التقاليد السياسية العسكرية عند العرب تمتد عميقاً في التاريخ، ومن هُنا تَأتي أهميةُ بحثِ هذهِ المسائل المطروحةِ، بالإضافةِ إلى أهميتها من الناحية الإدراكية والعملية البحتة على حد سواء، فقبل كل شيء لا بد من الإشارة إلى أن العديد من الدول العربية [**وعلى سبيل المثال سورية] حافظت على موقعها الاستراتيجي، الذي احتلته في عهد صلاح الدين الأيوبي**، على مسرح الأعمال القتالية في بلاد الشام، **ويتميز هذا المسرح من حيث الجوهر بالخصائص نفسها، التي تُعَدُّ ضَرورِيةً في أثناءِ تخطيط الأعمال القتالية، وتنفيذها في الظروف الحديثة.**

وقد أَولى القائدُ العربيُ خالد بن الوليد أهميةً كبيرةً لدراسةِ مسرح الأعمال القتالية ومعرفته، واصفاً ذلك على النحو التالي: «قَتَلَتْ أرضٌ جاهِلَها وقَتَلَ أرضاً عالِمها».

كما أنَّ معرفةَ التاريخ العسكري، وفهم كيف كانت تقاتل الأجيال السالفة من وجهة نظر إعداد الكوادر العسكرية الحديثة مهم جداً، إذ من المعروف [على سبيل المثال] أن **نابليون بونابرت كانَ يصطحب معهُ دائماً كتباً تتعلق بالتاريخ العسكري**، كما أنه أشار إلى أن معرفة أفضل نماذج الفن العسكري لا يمكن أن تتحقق إلا من خلال دراسة الخبرة الماضية للحروب والمعارك.

ومن المؤكد أن القوات العربية المسلحة تحتاج، كما يبين التطبيق العسكري، ودراسةُ خبرة الإعداد القتالي لعدد من الدول العربية، إلى مثل هذه المراجع.

ويسمحُ بحثُ واستقصاءُ فن الحرب لهذه الحقبة أو تلك بالتحديد الصحيح للقوانين، والاتجاهات الأساسية لفن الحرب، وتحقيق البناء العسكري، مع الأخذ بعين الاعتبار الخبرة التاريخية، والتقاليد العسكرية.

لقد أسمينا هذا السفر **(موسوعة السياسة والحرب في بلاد الشام)**، وذلك بإطلاق اسم الكل على الجزء مجازاً، فهذا المجلد هو الجزء الثالث من موسوعة تتناول موضوعات، وقد صدر منها حتى الآن ثلاثة أجزاء هي؛ موسوعة [السياسة والحرب عند العرب] و[موسوعة المرأة في التراث العربي والإسلامي]، [موسوعة السياسة والحرب في بلاد الشام]، ونحن في صدد إصدار الأجزاء التالية:

١- الجزء الثاني من موسوعة المرأة في التراث العربي والإسلامي.

٢- موسوعة الأمن المائي والغذائي.

٣- موسوعات جغرافية أخرى.

ونحن قد قسّمنا الموسوعة إلى **أبواب سبعة** حيث بحثنا في **الباب الأول**، السياسة والحرب عبر فتوح بلاد الشام، وبحثنا في **الباب الثاني** السياسة والحرب في بلاد الشام في حروب الفرنجة والمغول، أما **الباب الثالث** فقد بحثنا به السياسة والحرب في بلاد الشام في فترة ما بين الحربين العالميتين، ثم جاء **الباب الرابع** الذي يدرس المرحلة من النكبة إلى الاستنزاف، وأفردنا **الباب الخامس** لحرب تشرين التحريرية، وكذلك **الباب السادس** فقد بحث ثمانينيات القرن العشرين، **والباب السابع** خصص لدراسة العقدين الأخيرين.

وختاماً لابد من توجيه الشكر الجزيل إلى كل من ساهم في أن ترى هذه الموسوعة الجديدة النور.

والله وليُّ التّوفيق

الشآم ٢٠١١ م

اللواء الركن المجاز

أ. الدكتور

إبراهيم مصطفى المحمود



الباب الأول

السياسة والحرب

في فتح بلاد الشام


الهيئة العامة
السورية للكتاب

الفصل الأول

المعارك الأولى

أولاً - إمبراطورية الروم قبل الإسلام وبعده:

لقد اعتمدنا مصطلح **(إمبراطورية الروم)** بدلاً من الإمبراطورية البيزنطية، لأنها التسمية الأولى التي أطلقها العرب على تلك الإمبراطورية قبل الإسلام وبعده، والتي حلا لسكان تلك الإمبراطورية وأباطرتها استخدامها للتعريف بأنفسهم كذلك. أما (الإمبراطورية البيزنطية) فهي تسمية لا يميل إليها إلا نفر من الكتاب الأوربيين المحدثين على حين نادى فريق آخر منهم باستخدام الإمبراطورية الرومانية الشرقية، بدلاً من البيزنطية، **إن المصطلح العربي (إمبراطورية الروم)** أكثر سلامة من حيث المنظور التاريخي في العصور الوسطى، وأشد بعداً من مظاهر الخلاف والاعتراض في التسميات الحديثة[١] كمعارضة **الدكتور محمد مصطفى زيادة إذ يقول:** (إن لفظ الروم وصاحب الروم خطأ). إن دراسة الفتوح العربية دراسة علمية وموضوعية شاملة، تدلنا على أن المدينة «يثرب» كانت بعد الإسلام مقراً تصدر منه الأوامر لجميع القادة الفاتحين في العراق والشام ومصر وغير ذلك. إذاً «فالقيادة العليا» كانت الخليفة والصحابة وذوو الرأي، ولا غرو في أنه يحق أن نعتبر الخليفة (قائداً أعلى للقوات) في جميع الجبهات.

---

(١) إبراهيم أحمد العدوي – الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم – نشر مطبعة الأنجلو المصرية ط٢ – ١٩٥٢، ص٢٨.

أما عن تسمية: جبهات، فقد كانت الجيوش العربية تقاتل على أكثر من جبهة واحدة في وقت واحد محققة اختراقاً مذهلاً، فسمينا كل اتجاه جبهة، بالنسبة إلى جهته من المدينة، ولا بُدَّ للباحث في حروب العرب في الجبهة الشمالية من الإلمام بلمحة عن إمبراطورية الروم، ولاسيَّما الجانب العسكري منها، ثم الانتقال إلى بحث فتح الشام وعملية عملية معركة معركة، من أول العمليات في المسرح الشمالي حتى نهايتها، وإن من يود الإطلاع الأعمق على التاريخ العسكري البيزنطي، يمكنه الرجوع إلى المصادر التي سنذكرها مباشرة في الفقرة التالية:

أ - حركة التأليف العسكري في إمبراطورية الروم:

اهتمت إمبراطورية الروم، بدراسة أدوات القتال ووسائل تنظيم الجيش والفنون الاستراتيجية بعناية واتزان طوال القرون الوسطى، وقد ظهر منها سلسلة متصلة الحلقات من الكتاب العسكريين، كما أن كثيراً من مؤرخيها كانوا يأخذون، بطرف من الاهتمام، الشؤون العسكرية، ومن كتاباتهم نستطيع أن نتعقب على كر الأيام تطور تاريخ العسكرية الرومية. مع وجود بضع ثغرات معينة ففي القرون البواكر، نجد الإيطالي **(فيجينوس)** الذي ظهر في القرن الرابع، كما نجد الباحث النظري المتحذلق **(أوربيكوس)** الذي ظهر في أواخر القرن الخامس. ثم **(بروكوبيتوس)** في القرن السادس، وهو قبل كل شيء مؤرخ عسكري. كما أن الإمبراطور **(موريقوس)** كتب بعد ذلك في بضع عشرات من السنين بحثاً بعنوان (Strategican) وهو دراسة قيمة في أحوال جيش ذلك الزمان.

وحوالي عام (٩٠٠) قدّم الإمبراطور (لاوون السادس)، أحد الأباطرة القلائل الذين لم يتولوا قط قيادة الجند بأنفسهم، بحثاً مستفيضاً في جميع الشؤون العسكرية أسماه (التاكتيكا) Tactica أي فنون الحرب[١].

---

(١) ستيفن رنسيمان – الحضارة البيزنطية ت: عبد العزيز جاويد، مراجعة زكي علي، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٨م، ص٥٨.

ويقول الأستاذ أومان في كتابه «الإمبراطورية البيزنطية»: «كتب ليو كتاباً مختصراً عن فن الحرب وبعض الرسائل الدينية، وكتاباً عن التنبؤات، وهو مجموعة من الألغاز السياسية، كانت محل حيرة الشرق وإعجابه زمناً طويلاً. والكتاب الأول المشار إليه يتناول تاريخ النظام الحربي والأساليب الحربية وفن الحرب النظري زمن ليو. **وحوالي عام ٩٦٠ أهدى أحد قواد (نيقور فوروس فوقاس)** إلى مليكه كتيباً يعالج شؤون الحرب على الجبهة الشرقية، ثم أُردف بكتاب آخرَ عن نفس الموضوع لمؤلف غير معروف. وفي القرن الحادي عشر دوّن **الجندي العجوز (كيكومينوس)** كتاباً لابنه، بأسلوب استطرادي غير مركز، وضع فيه ثمرة خبراته، ويعتبر (نورمان بينز) كتاب كيكومينوس أنه كتاب تعاليم موجه إلى ابن الكاتب، صدر في القرن الثاني عشر، ومن جملة الكتب السابقة وغيرها، نستطيع أن نستنتج أن الانحلال كانَ قدْ دبَّ آنذاك فعلاً في أوصال الجيش الرومي.

ب - تنظيم الجيش الرومي:

قبل القرن السادس:

كان الحرس البريتوري (الإمبراطوري) ينصِّب الأباطرة ويخلعهم في القرن الثالث للميلاد، كما أن الولاة الكبار للمقاطعات، والذين كانت تحت أمرتهم فيالق بأكملها كانوا في حالة توازن دائم يكاد لا ينتهي وحاول كل من «**دقلديانوس**» ومن بعده **قسطنطين** إدخال بعض الإصلاحات، فأقاموا قوة نظامية للثغور من جند وراثيين يتناولون أجورهم أيضاً، وهم يمثلون قوة الحدود (Limitanei)، ثم أنشؤوا جيشاً مركزياً سريع الحركة، وهو جيش الردفاء (comitatenses) بقيادة الإمبراطور. وهو جيش كان يستطاع دفعه عاجلاً إلى أية نقطة. وقد عمت البلاد مظاهر الإكراه التي توسل بها الاستبداد الشديد، للحصول على المواد اللازمة لبقاء الدولة، أمثال ذلك إكراه الرجل من أصحاب الأطيان على أن يقوم بجمع الجند وجباية الضرائب للدولة بدون

مقابل في النواحي المجاورة له، وإكراه الفلاح على أن يعيش قناً مربوطاً إلى الأرض التي يعمل بها[١]. بيد أن ذلك الجيش تقاعس عن مبتكرات زمانه في المعدات وفنون الحرب، فجندي الكتيبة الثقيلة لم يعد نداً صالحاً لملاقاة الفارس البربري، وكان انتصار يوليانوس على الجرمان عند استراسبورج في ٣٥٧م آخر انتصار أحرزته المشاة الرومانية.... وبعد ذلك بإحدى وعشرين سنة حدثت كارثة قرب أدرنة، أظهر فيها المشاة الرومان ضعفهم وقلة حيلتهم إزاء خيالة (القوط). فظهرت ضرورة الفرسان فعلاً، وزيِد سلاح الفرسان، وعندئذ صارت الحاجة والطلب أعظم من العرض.

أعاد (ثيودسيوس الأول) بناء الإمبراطورية، بأسرع ما يمكن، صمم على استدعاء فرسان من البرابرة، أو قبائل بأجمعها كانوا ينضوون في الحرب مع الرومان تحت سيطرة أمرائهم، لكن ذلك السلاح الإضافي كان ذا حدّين، إذ سرعان ما قضى عليهم كما قضى على إمبراطورية فارس من قبل...... أجل إن القوات الحليفة ربما تصدُّ أتيلاً، على أن زعماءهم وقد أصبحوا قواداً رومانيين عظماء كانوا على قوة لا قبل للدولة بها، فكانوا برابرة من أمثال **ريكير وأدواكر** يتصرفون بالتاج الإمبراطوري بملء هواهم، حتى قرروا أنه من الأيسر لهم ألا يكون هناك أي إمبراطور في إيطاليا. أما في الشرق فبعد إخفاق **(جانياس)** القوطي، لم تعد قوة الأسرة الإمبراطورية تتجاوز مجرد إيقاف الجند المخالفين عند حدهم حتى جاء الأوان الذي تمكن فيه **(لاوون الأول)** و**(زينون)** من التحكم بالبلاد عبر استدعاء جند من قبائل الإمبراطورية الأشد ضراوة لموازنتهم والاستعانة بأيزوريين وأرمنيين من التلال الآسيوية[٢].

---

(١) هـ. أ. ل فشر: تاريخ أوربا في العصور الوسطى – ت: محمد مصطفى زيادة والباز العريني – دار المعارف – مصر – ١٩٥٤، ص١٢٢.

(٢) رينسمان: ستيف – الحضارة البيزنطية – ت: عبد العزيز توفيق جاويد، مصدر سابق، ص١٥٦.

ويقول أومان: لقد كان ليو الأول إمبراطوراً استفاد من مزايا الأيزوريين الحربية وهم سكان آسية الصغرى الجبليون، فقد أضاف عدة فرق منهم إلى جيش الشرق، ولكن صهره وخليفته (زينو) وهو أيزوري المولد سار قدماً في تنفيذ هدف الخطة، فاتخذ جنده من الأرمن وغيرهم من سكان الحدود الرومانية الشرقية، بالإضافة إلى أنه ترك لخليفته **(أناستاسيوس)** جيشاً كانت العناصر الوطنية فيه تتفوق عددياً على الخلفاء البرابرة الذين كانوا يتألفون حينها من أعداد متساوية من التيوتون والهون[١].

جـ - إمبراطورية الروم في القرن السادس:

أصبح جند المحالفين يلتزمون نطاقاً محدداً بما يمليه العقل والمصلحة في القرن السادس، فقد كان يوازنهم آنذاك الخيالة الثقيلة من آسيا الصغرى، وهم الكاتافراكي (catcpharaci) الذين أبدا **بروكوبيوس** عظيم إعجابه بهم، وكانت هذه الجند الراكبة (cuirassiers) المسلحة بالقسي هي التي ظفرت بكل انتصارات **(يوستيناس)**. بيد أن جند المحالفين تركت ورائهم نظاماً سيئاً للتجنيد انتشر في الجيش بأكمله، ذلك أن القائد هو الذي كان يجمع جنده ويعولهم، وليست الحكومة المركزية، أما الفرق أو الكتائب التي تحمل أسماء نظامية فكانت مجهولة آنذاك، فكان كل جيش يسمى باسم قائده وكانوا جميعاً يسمون باسم مرتزقة الجرايات أو التموين:(bucellarac) بوكلاري[٢].

إن عدم إناطة أي قدر كبير من السلطة أو مقدار ضخم من المال بأي قائد من القواد. **زاد النظام سوءاً ولا سيما ما جرت به عادة (يوستيناس)** وكانت نتيجة ذلك أن حروبه كان يعرقلها على الدوام التمرد والتذمر. كما أن انتصاراته كانت راجعة إلى عبقرية قائديه: (بليساريوس)، والخصي

---

(١) أومان – الامبراطورية البيزنطية، ت مصطفى طه بدر، القاهرة، دار الفكر العربي عام ١٩٥٣م ط١، ص٤٩.

(٢) ستيفن – رنسيمان – الحضارة البيزنطية، مصدر سابق، ص١٦١.

(نارسيس) ثم تمخض العسر المالي الذي لزم السنوات الأخيرة لحكم يوستينانوس وعهد يوستبنوس الثاني عن نقص في عدد المرتزقة الأجانب، فلم تعد مالية الدولة تستطيع القيام بنفقات الجند المحالفين وربما أدى ذلك إلى إنقاص عدد الجيش الإمبراطوري، إلاّ أنّ الإمبراطورين الذين جاءا بعدهما وهما: طيريوس، وموريقوس، تمكنا من إلغاء نظام مرتزقة الجرايات.

وفي البحث المسمى (strategi) وصف لنظام الجيش الجديد، وكانت الوحدة هي السرية التي يعبّرون عنها بأسماء mumerus, arithmas, tagma حيث لم يكن التحويل من اللاتينية إلى اليونانية تاماً حتى ذلك العهد. كما أن نداءات التدريب كانت مختلطة بوجه خاص، وكانت السرية مكونة من ثلاثمئة أو أربعمئة جندي يقودهم رائد (cames) أو تربيون (tribune) فإذا اجتمعت ست سرايا أو سبع أو ثمان تكونت منها كتيبة (Mairx) بقيادة قائد كتيبة (Marak) أو دوق (Dux) وكانوا يحتفظون بسر الأعداد قصداً، حتى لا يستطيع الأعداء تقدير حجم الجيش، وكان تجميع السرايا من اختصاص القائد العام عندما تدور رحى الحرب، ولم تكن هناك فرق مستديمة، إلا فرق مرتزقة الجرايات (البوكلاري) والجند المحالفين (Faderati) والجند المختارين (Dptimti) وهم بقايا المرتزقة الأجانب الذين كانوا – يشكلون جزءاً من الحرس الإمبراطوري. وفضلاً عن ذلك فقد فكر موريقيوس في خطة لإنشاء قوة محلية مرابطة تقتضي أن يتعلم كل رجل حر الرماية، وأن يمتلك قوساً ورمحاً حتى يستطيع الدفاع عن إقليمه وقت الغزو، ويستطيع أحدنا أن يقول: إلى أي حدٍ نفذت هذه الخطة؟. ولكن الذي لا شك فيه أن المواطنين كانوا يستدعون للخدمة في قلاع الثغور ليقوموا بواجب الدفاع وكان الجيش الذي أعاد تنظيمه **(قيبريوس، وموريقيوس)**، هو الذي اقتاد هرقل إلى ساحات النصر في حروبه الطويلة مع فارس، وهو الذي اجترفه اندفاع العرب[(١)].

---

(١) د. إبراهيم مصطفى المحمود، موسوعة السياسة والحرب عند العرب، ط١، مؤسسة النوري، دمشق ص١٥٧.

اشتد ساعد الفرس لما أطل القرن السادس فبدؤوا يقتطعون أجزاء الدولة الرومية **فقطعوا** معظم آسيا الصغرى بالإضافة إلى الشام ومصر، وأخذوا يستعدون للمضي إلى شمال إفريقية. فلم يكن للإمبراطورية الرومانية بد من أن تبذل ما تبقي في كيانها الواهن من قوة لتدفع خطرهم، حتى إذا تمكنت من ذلك على يد **هرقل**، لم يبق لها بعد ذلك من القوة ما يقيمها على أرجلها، إذ كانت الحروب قد كلفتها الثمن الغالي، فبدأت تعتصر دماء من بقي لها من الرعايا حتى كادت توردهم موارد التلف فبدؤوا يحتجون ويعترضون، فلجأ الحكام إلى العنف يقضون به على ما بدا لهم من بوادر الاضطراب، فاشتد الحقد وتأصلت الكراهية بين الحاكم والمحكوم، حتى تناول كل مرافق الحياة، فشبَّت الفتنة وأهوى الحاكم على رأس المحكوم سياط الظلم، وأبى المحكوم أن يجيب أو يطيع، فعظم الاضطهاد وسالت الدماء، واشتعلت بعض نواحي الدولة كمصر وإفريقية بهذه النار الحامية، فأتت على ما فيها وحققت إفريقيا ما قاله (**كوريبوس**) فيها عندما وصفها بقوله: «إن إفريقية التي كان يتصاعد منها الدخان كانت تختفي بين ألسنة النيران».

د - الإمبراطورية الرومية في النصف الأول من القرن السابع للميلاد:

أعمال هراكلوس (هرقل) التنظيمية: حين اعتلى هرقل العرش كانت الدولة في حالة خراب تام (٦٤١ - ٦١٠) وهو أحد كبار أباطرة بيزنطة. فالخزينة فارغة والأوضاع الاقتصادية سيئة إلى أبعد الحدود، والجهاز الإداري تنخره أمراض كثيرة، والى جانب هذا كان الجيش الذي يعتمد على الجنود المرتزقة غير قادر على القيام بمهامه لعدم وجود المال اللازم ولعدم توفر عناصر المرتزقة التي تقبل الانخراط فيه. وكانت المقاطعات المركزية والهامة خاضعة لحكم الأعداء، فالسلاف والآفاريون كانوا قد استقروا في البلقان، والفرس يتمتعون بمراكز قوية في قلب آسية الصغرى، ولم يكن ينقذ الإمبراطورية من الهلاك إلا جبهة داخلية منظمة متماسكة قوية. كانت عناصر التجديد من سياسية واجتماعية وثقافية متوفرة في بيزنطة نفسها، وقد رأى هيراكلوس أول الأمر

أنه من الخير أن ينقل مركز حكمه من القسطنطينية إلى قرطاجة لكي يتمكّن من مواجهة أعدائه الجدد، ولكنه لم يتمكن من تنفيذ فكرته بسبب معارضة البطريرك سرجيوس لها من جهة. والأثر السيء الذي تركته هذه الفكرة في نفوس سكان القسطنطينية من جهة أخرى.

- الحرب مع السلاف والآفاريين:

بدأت تستقر في البلقان جماعات من السلاف في نهاية القرن السادس، وحيث فشل الإمبراطور (موريس) في حملاته على الدانوب، في مطلع القرن السابع، بدأ الاحتلال السلافي للبلقان يأخذ شكلاً واسعاً. فأخذت أعداد كبيرة جداً من قبائل السلاف والآفاريين تزحف على شبه جزيرة البلقان، وتنتشر من شواطئ الأدرياتيك في الغرب حتى بحر إيجة في الجنوب والشرق. وبعد غارات عنيفة وعمليات سلب ونهب واسعة النطاق، عاد الآفاريون إلى المنطقة الواقعة شمال الدانوب، ولكن السلاف كانوا قد استقروا في البلقان وتملكوا أراضيه وأقصوا النفوذ البيزنطي عنه. وقد احتل هؤلاء السلاف جميع مكدونيا كما احتلوا مويزيا (Moesia) ودقوا بأيديهم أسوار القسطنطينية نفسها وقد قاموا بهجمات عنيفة على تيسالونيكا (Thessalanicx)، هذه المنطقة التي طالما تعرضت لهجمات السلاف والآفاريين واعتداءاتهم. واستمرت الموجة السلافية في سيرها حتى وصلت إلى بلاد اليونان الوسطى ومنطقة البيلوبونيز (pelopanes) التي تليها، وانتقلت منهما إلى بعض الجزر اليونانية وصولاً إلى كريت.... كانت الموجة السلافية عارمة أيضاً في زحفها باتجاه دالماسيا (Dalmatia). وقد تمكن السلافيون عام ٦١٤ من تخريب سالونا (Salonx) عاصمة دالماسيا، خراباً تاماً، مما هدد بزوال النفوذ البيزنطي عن الأقسام الغربية من شبه جزيرة البلقان أيضاً، وقد سقطت بيد السلاف مدن أخرى كثيرة[١] إلى جانب

---

(١) د. إبراهيم مصطفى المحمود، موسوعة السياسة والحرب عند العرب، مصدر سابق، ص١٧٧.

سالونا كالمدن التي تعرف حالياً باسم بلغراد وصوفيا وغيرهما، ولم يبق لبيزنطة في البلقان إلا بعض المراكز القليلة. وقد تبع الغزو السلافي للبلقان قيام تغيرات هامة فيها. وظهرت آثار الغزو هذه في جميع أنحاء شبه الجزيرة البلقانية. أما في المقاطعات اليونانية التي وقعت تحت سيطرة السلاف كمنطقة البليوبونيز، والتي ظلت تحت نفوذ السلاف لمدة مئتي سنة، فإن التأثير السلافي لم يكن قوياً ولمْ يُتح له أن يُصبِغَ اليونان بصبغته، وقد تمكنت السلطات البيزنطية في اليونان من أن تسترجع بالتدريج ما وقع تحت حكم السلاف، كما استطاعت أن تحتفظ بالطابع القومي للأرض اليونانية، لقد ظل الجزء الأكبر من البلقان سلافياً، ولم تستطع الدولة الرومية أن تعيده، على الرغم من كل ما بذلته من جهود.

- الحرب مع الفرس (هجوم فارس):

إن الهجمات البيزنطية المعاكسة في سورية وأرمينية انتهت بالفشل. **على الرغم مما حققته بيزنطة من فوز على الفرس عام ٦١١ إذ أجبرتهم على الانسحاب من (قيسارية)**، ولم تحقق ما عُلِّقَ عليها من آمال. وقد منيت الجيوش الإمبراطورية بهزيمة كبيرة **عام ٦١٣** أمام الفرس في موقعة قرب أنطاكية مما شد الفرس على تقوية مركزهم في أغلب الجبهات التي كانوا يحاربون فيها ضد البيزنطيين، فتقدموا باتجاه الجنوب واحتلوا **دمشق** ثم ساروا شمالاً إلى **كيليكيا** واحتلوا قلعة **طرطوس** الحصينة كما تمكنوا من طرد البيزنطيين من أرمينية. ولعل أقسى الضربات المعنوية الموجهة إلى الروم هي احتلال الفرس لمدينة **القدس** بعد أن حاصروها لمدة ثلاثة أسابيع. **وفي سنة ٦١٥** عاود الفرس هجماتهم على آسيا الصغرى وتوالت هجمات بعض فرق جيشهم حتى وصلت حدود البوسفور..... وهكذا أطبق أعداء بيزنطة على العاصمة من جهتين، فقد سار الفرس باتجاه القسطنطينية من جهة الشرق، بينما سار الأفاريون والسلاف من جهة الشمال، وكاد في هذه الفترة أن يقع الإمبراطور نفسه ضحية مؤامرة دبرها الأفاريون حين كان مجتمعاً

مع رئيسهم[1] للمفاوضة مع هيراكليا **وذلك سنة ٦١٧. وفي ربيع عام ٦١٩ بدأ غزو الفرس** لمصر التي كانت أغنى مقاطعات الإمبراطورية البيزنطية. وقد أدى هذا الغزو إلى إنقاص مؤن العاصمة ولاسيَّما الذرة التي كانت تُستورد من مصر في الغالب. وبدا أن الفرس سيسترجعون أمجاد الإمبراطورية الأخمينية، وهكذا أصبح معظم الشرق في قبضة الفرس.

الإعداد للحرب مع الفرس: أراد هيراكليوس، بعد هذا، أن يتفرغ لحروبه في آسيا فوقع معاهدة صلح مع الآفاريين ودفع لهم أتاوة كبيرة وذلك لكي يتمكن من نقل جنوده من الميادين الأوربية إلى الميدان الآسيوي، وفي الخامس من نيسان عام ٦٢٢م، وبعد أن أقيم له حفل ديني كبير غادر هيراكليوس العاصمة إلى آسيا الصغرى، حيث بقي الصيف بكامله يدرب جنوده، ويقوم هو بدراسة التكتيك العسكري ويقوي معلوماته العسكرية بتقوية خيالته التي كانت تزداد شأناً في الجيش البيزنطي، كما أنشأ قوة من الرماة راكبة الخيول.

القتال في أرمينية: وقد بدأ القتال الفعلي في خريف عام ٦٢٢م حين تمكن هيراكليوس بمناورة عسكرية بارعة من أن يشق طريقه إلى أرمينية وقد أجبر هذا، الفرس على ترك مواقعهم في الممرات الجبلية في آسيا الصغرى ليلحقوا بالجيش الإمبراطوري وقد تقابل الجيشان البيزنطي والفارسي على أرض أرمينية، وجرت بينهما معركة كبيرة انتهت بفوز كبير للبيزنطيين على خصومهم الفرس الذين كانوا بقيادة القائد الفارسي المشهور (شهر – براز). وهكذا حقق هيراكليوس أول أهدافه وحرر آسية الصغرى من الفرس الذين كانوا يحتلون بعض مقاطعاتها.

حاول خان الآفاريين أن ينقض الصلح، في أثناء غياب الإمبراطور عن العاصمة، فعاد **هيراكليوس** بسرعة إلى العاصمة وزاد في الجزية التي كان يدفعها للآفاريين، وأرسل بعض أمرائه كرهائن عندهم، حتى يتمكن من متابعة

---

(١) كان رئيس الآفار يعرف بلقب خان.

حروبه ضد أعدائه الفرس. وقد استطاع في آذار عام ٦٢٣ أن يعاود حروبه ضد فارس، بعد أن رتب أموره مع الآفاريين. وعلى الرغم من أن الفرس كانوا قد كُسروا أمام بيزنطة في السنة الفائتة. فقد رفض **كسرى فارس** أن يقبل بتوقيع هدنة مع البيزنطيين، وأرسل رسالة كلها شتائم **لهيراكليوس**، كما ضمنها أبشع السباب للديانة النصرانية، قطع **هيراكليوس** (كابادوكيا) في طريقه إلى أرمينية مرة أخرى واحتل مدينة (دفين) Dvin، وهدمها بكاملها كما هدم مدناً أخرى، وهكذا تقدم هرقل طارداً جيوش كسرى في أذربيجان وأرمينية، واستولى **عام ٦٢٣ - ٦٢٤** على مدينة «**غنزك**»[(١)] Gonzak **عاصمة أول إمبراطور ساساني (أردشير)** والمركز الديني الهام بالنسبة للفرس. واضطر كسرى للهرب من (**غنزك**) وسقطت المدينة بأيدي البيزنطيين، فهدموا معبد النار، أهم معابد الديانة الزرداشتية، انتقاماً لما فعله الفرس حينما هاجموا القدس فنهبوها. بعد هذا انسحب هيراكليوس بعد أن أسر أعداداً كبيرة من الفرس ليقضي الشتاء وراء منطقة الأراكس، وفي هذه المنطقة اتصل هيراكليوس ببعض القبائل القوقازية النصرانية وتمكن من أن يقنع الكثيرين من أفراد هذه القبائل بالانضمام إلى جيشه. وفي السنة التالية قضى هيراكليوس معظم وقته في أرمينية يرد على الهجمات الضارية التي شنها ضده الفرس من جديد، وقد حاول أن يخترق الحدود الفارسية مرة أخرى ولكنه فشل في ذلك. فحاول عام ٦٢٥ م، ولكنه لم يتمكن أيضاً في هذه المرة من أن يصل إلى أرض عدوه من جهة كيليكيا، فلم يحقق نصراً حاسماً يفتح لجيوشه أبواب فارس مرة أخرى[(٢)].

---

(١) آرثر كريستنسن – إيران في عهد الساسانيين (تعريب يحيى الخشاب + عبد الوهاب عزام) ط١، القاهرة، ١٩٥٨، ص٤١٣.

(٢) د. إبراهيم مصطفى المحمود، موسوعة السياسة والحرب عند العرب، مصدر سابق، ص١٧٩.

- **هجوم فارسي معاكس فاشل:**

قويت معنويات الفرس بعد هذه المحاولة الرومية الفاشلة فعادوا للهجوم على بيزنطة. وفي عام ٦٢٦ واجهت القسطنطينية خطراً مزدوجاً بهجوم الفرس والآفار عليها، وكان هذا جل ما يخشاه هيراكليوس، لذلك كان يحاول دوماً أن يشتري ود الآفاريين بدفع الأتاوة لهم حتى لا يضطر أن يخوض حرباً مزدوجة ضد خصمين في وقت واحد.

سار القائد الفارسي (**شهر – براز**) على رأس جيش قوي عبر آسيا الصغرى **واحتل (خلقدونية)** وعسكر بجنوده على ضفاف البوسفور. وبعد هذا بقليل سار (**خان الآفاريين**) على رأس قوة من القبائل الآفارية والسلاف والبلغار واتجهوا صوب القسطنطينية من جهة البر والبحر. حاول البطريرك (سرجيوس)، بطريرك القسطنطينية، أن يلهب حماسة الشعب الدينية، فأخذ يلقي المواعظ الدينية ويقيم المواكب والصلوات، بينما كانت حامية القسطنطينية تقوم بدور بطولي في الدفاع عن العاصمة. وقد ساعد البيزنطيين في هذه المعركة قوة أسطولهم البحري. وفي العاشر من آب سنة **٦٢٦م** تمكن الأسطول البيزنطي من كسر أسطول السلاف مما أدى إلى إصابة جنودهم البريين بهزيمة منكرة أمام القوى البيزنطية. وقد انتهت المعركة بقتل عدد كبير من جنود الآفاريين وحلفائهم، وتراجعت قواتهم تراجعاً فوضوياً زاد في خسائرهم، وقد ساعد انكسار الآفاريين على فشل الهجوم الفارسي، فاضطر (**شهر – براز**) للجلاء عن (خلقدونيا) وتراجع بقسم من الجيش إلى سورية تاركاً وراءه مساعده في القيادة (**شاهين**) الذي كسر على يد أخ الإمبراطور هيراكليوس المسمى بـــ (ثيودور). **واستعد البيزنطيون مرة أخرى لشن هجماتهم المعاكسة**. وهكذا انتهت الأيام الحرجة من حياة بيزنطة.

أولاً معركة نينوى:

كان الإمبراطور هيراكليوس مع جيشه بعيداً في (لازيكا) Lazica، **حين كانت العاصمة محاصرة ومهددة**، فعقد تحالفاً مع الخزر، كما فعل في الماضي

مع القبائل القوقازية، وأصبح التحالف البيزنطي - الخزري مظهراً أساسياً من مظاهر السياسة الإمبراطورية في الشرق، وحين أصبح الخزر حلفاء بيزنطة، حاربوا الفرس إلى جانبها في الجبهة الأرمنية والقوقازية. وفي خريف عام ٦٢٧ بدأ **هيراكليوس** زحفه نحو الجنوب باتجاه أراضي أعدائه، وكان عليه في هذا الزحف أن يعتمد على قواته الخاصة، لا على مساعدة الخزر الذين لم يتحملوا مشاق المعارك السابقة، فانسحبوا إلى بلادهم، ولكن بالرغم من هذا ففي مطلع شهر كانون الأول، كان هيراكليوس على أبواب «**نينوى**». وفي هذا الموقع خاض جيشا بيزنطة وفارس موقعة كبيرة قررت مصير الصراع بينهما فقد قضى البيزنطيون على معظم الجيش الفارسي، وسجلوا انتصاراً ضخماً على أعدائهم. وتابع **هيراكليوس**، بعد هذا النصر، زحفه فاحتل في مطلع عام ٦٢٨ مدينة (داستا غيرد Dastagerd)، المدينة المحببة جداً إلى كسرى الفارسي. وفر **كسرى** من المدينة، وفي ربيع ٦٢٨ تطورت الحوادث داخل فارس تطوراً جعل القتال أمراً غير ضروري. فقد خلع كسرى وقُتِل وأُجْلِسَ على العرش ابنه (كافاز شيرو - Shiro Javaze) (قباذ).

عقد كسرى الجديد معاهدة مع البيزنطيين قبل فيها بما أملوه عليه من شروط. وهذه المعاهدة ضمنت لبيزنطة عودة ما كان يخصها من أراض كأرمينيا والجزء الروماني من منطقة ما بين النهرين وسورية ومصر، التي عادت جميعاً تتبع بيزنطة، كما كان الحال في السابق. وبعد شهور قليلة وحين كان الملك الفارسي (**شيرو**) على فراش موته عُيِّنَ الإمبراطور البيزنطي وصياً على ولده الصغير. وهكذا انقلبت الحال فبعد أن كان كسرى يدعو هيراكليوس بعبده، أعلن شيرو أن هيراكليوس هو سيد ابنه وسيد فارس. وبعد غياب ست سنوات عن العاصمة عاد **هيراكليوس** إلى القسطنطينية، فاستقبله رجال الدين وأعضاء مجلس الشيوخ، والشعب الذين كانوا حاملين أغصان الزيتون والشموع المضاءة ومنشدين له أناشيد النصر. وساروا إلى شاطئ آسيا الصغرى ليشاركوا في موكب الإمبراطور عند دخوله العاصمة. وبعد استراحة قصيرة في العاصمة ذهب **هيراكليوس** إلى القدس، ووسط مظاهر

الاحتفال، أعاد تنصيب الصليب المقدس الذي استرجعه من الفرس، وأضفى بهذا الشكل الصيغة الدينية على حروبه ضد الفرس.

- **انتصار بيزنطة:**

وهكذا، حطمت بيزنطة العدوين اللذين ارتعدت منهما لفترة من الزمن. بعد حروب طاحنة ضد الفرس والآفاريين فقد حطمت معركة نينوى قوة فارس(١) وتهاوى جبروت الآفاريين بعد فشلهم في حصار القسطنطينية وهزيمتهم التي أعقبت فشل هذا الحصار. وقد كان لهزيمة الآفاريين أثر كبير تجاوز نطاق حدود بيزنطة، إذ إن القبائل التي كانت خاضعة لحكمهم أخذت تتمرد عليهم ولاسيَّما السلاف الذين ثاروا ضد الآفاريين وأسسوا لأنفسهم مملكة تحت حكم زعيمهم سامو (Sami).

ثارت القبائل البلغارية التي كانت تسكن شمال البحر الأسود وبحر الخزر، على الآفاريين أيضاً، وبعد ثورة السلاف ببضع سنوات، وسلموا أمر قيادتهم في ثورتهم هذه إلى زعيم منهم اسمه (كورفات) Kurvat وقد ساعد البيزنطيون كورفات في نضاله ضد الآفاريين وعقد هيراكليوس تحالفاً معه، وأعطاه لقب (قائد بيزنطي) وعمده عضواً في الكنيسة النصرانية(٢) وهكذا فقد دفعت فارس ثمن أحلامها في منفذ على البحر المتوسط تكمل به سيطرتها التجارية، بسيطرة رومية شبه كاملة عليها بعد أن أوشكت أن تثبت قدمها الأولى على ساحل المتوسط(٣).

---

(١) نورمان بينز، الإمبراطورية البيزنطية – ترجمة د. حسين مؤنس + د. محمد يوسف زايد – القاهرة – ١٩٥٠. ص١٢٢.

(٢) د. نبيه عاقل، الإمبراطورية البيزنطية، ص٩٣.، مصدر سابق + د. إبراهيم مصطفى المحمود، موسوعة السياسة والحرب عند العرب، مصدر سابق، ص١٨١.

(٣) إبراهيم العدوي – الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم، نشر المطبعة الأنجلو المصرية، ط٢، القاهرة ١٩٥٢م، ص٣١.

هـ - دومة الجندل وذات أطلاح:

تقع دومة الجندل في الطرف الشمالي الغربي للجزيرة العربية مما يلي الشام وعلى بعد ست عشرة ليلة من المدينة وخمس ليال من دمشق وسبب هذه الغزوة أن استخبارات الرسول العربي ( ) حصلت على معلومات مفادها أن قبائل دومة الجندل قد أخذت في التجمع لغزو المدينة وأنها تخيف الناس وتقطع الطرقات وتظلم من يمر فيها. فقرر الرسول القائد ( ) تأديبهم وجرد حملة قوامها ألف مقاتل وسار بهم إلى دومة الجندل بعد أن استخلف (سباع بن عُرفطة الغفاري) على المدينة حتى عودته. سار الجيش الإسلامي وعلى رأسه الرسول القائد بأقصى سرعة لكي يأخذ الأعداء على حين غرة، وزيادة في التمويه العملياتي، كان يسير في الليل ويعسكر متخفياً في النهار، وعندما علم الأعراب المتحشدون بقرب وصول الجيش الإسلامي إلى مكان تجمعهم. انتابهم الرعب، فتفرقوا بسرعة تاركين منازلهم ومواشيهم قبل يوم واحد من وصول الجيش الإسلامي إليهم. عسكر الجيش الإسلامي في دومة الجندل وأرسل الدوريات الاستطلاعية لاقتفاء أثر الأعراب الذين كانوا محتشدين، فلم يعثر لهم على أثر، ولم تجد هذه الدوريات إلا رجلاً واحد أتوا به إلى الرسول العربي، فسأله عن قومه فأخبره خبرهم، وعرض عليه الإسلام، فأسلم وانضوى تحت راية الثورة الإسلامية[١].

وهكذا حققت غزوة دومة الجندل أهدافها، وعاد الرسول العربي إلى المدينة بعد غياب دام خمسين يوماً. وقد حدثت الغزوة في المحرم من السنة الرابعة للهجرة[٢]. ويقول العماد أول مصطفى طلاس: (لا شك في أن الرسول القائد قد

---

(١) البلاذري، فتوح البلدان، دار النشر للجامعيين ط١٩٥٧م، نشر الدكتور صلاح المنجد، ص٨٢ - ٨٤.

(٢) ذكر الواقدي أنها في ربيع الأول على رأس ٤٩ شهراً أي في السنة الخامسة في شهر ربيع الأول ، وكذلك ذكر الطبري نقلاً عن الواقدي ، وكذلك ابن الأثير في الكامل ج٢/٦٤- الطبري ٥٦٤/٢ ، المغازي للواقدي ٤٠٢/١.

هدف من هذه الغزوة الاقتراب من الشام لكي يرهب قيصر، ويخيف الرومان الذين كانوا يحتلون سورية). وتعتبر دومة الجندل أول إطلالات العرب المسلمين العسكرية على فلسطين لتحريرها من الاحتلال الروماني.

يذكر الواقدي في (مغازي رسول الله) أن سرية كعب بن عمير التي سارت إلى (ذات أطلاح) من أراضي الشام، كانت عبارة عن دورية قوامها خمسة عشر رجلاً مهمتها الأساسية الدعوة إلى الدين الجديد ثم استطلاع أوضاع العدو، ولما وصلوا إلى «ذات أطلاح» وجدوا أن عدد الأعداء كبير، ومع ذلك فقد اشتبكوا وثبتوا في لقاء العدو حتى استشهدوا جميعاً إلا واحداً استطاع أن يعود إلى المدينة ويخبر الرسول القائد بأخبار الدورية. وأراد الرسول العربي أن يجهز حملة كبيرة بعد ذلك لكنه عرف بهروب الأعداء واختفائهم فعدل عن رأيه.

ثانياً - معركة مؤتة ٥ هـ:

لقد تدرج العرب المسلمون في أعمالهم العسكرية التحريرية في مناطق الحدود بين الشام والحجاز، عاملين على نشر دينهم ونفوذهم السياسي والعسكري، لا يدخرون في ذلك وسعاً، ولا تفوتهم فرصة. وكانت الحملة التي سيروها إلى مؤتة، في شهر جمادى الأول للسنة الثامنة للهجرة (أيلول عام ٦٢٩م)، الحملة الثالثة التي طرقت ديار الروم، ولئن وقفت الحملتان الأوليتان في منطقة الحدود، ولم تتوغلا في الأراضي المعمورة، فقد بزتهما هذه الحملة، وواصلت تقدمها حتى بلغت قرية مؤتة، والمعروف أنها كانت تقصدها بالذات[(١)].

وصف مؤتة: مؤتة، اسم قرية، ما تزال قائمة في جنوب شرقي الأردن الغربي، وتقع شرقي البحر الميت وجنوبي الكرك وتبعد عنها ١١كم، وعلى مقربة

---

(١) راجع أسباب الفتوح – باب الحرب عند العرب في الجبهة الشمالية. في موسوعة السياسة والحرب عند العرب، للمؤلف، ص١٨٣.

من قرية مؤتة الحاضرة إلى شرقيها، المزار، ويبعد عنها نحو (١كم)، وفي المزار قبور الشهداء الذين سقطوا في معركة مؤتة، وهم زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة، وقبورهم معروفة تزار حتى الآن، ولم يبق من المشهد المؤسس لهذه الأضرحة سوى قوس كبير تحيط به جدران فيها محراب من الجنوب وعلى بعض حجارة الجدران المتساقطة كتابة عربية تقرأ بعض حروفها بصعوبة، ويظهر أنها البسملة وبعض آيات الكتاب الكريم، ويُظن أن هذا البناء أقيم في مكان المعركة تذكاراً لها، ويقال إنه أنشى في عهد الملك الظاهر بيبرس أو في عهد صلاح الدين بن أيوب، أي في بعض مراحل الحروب الصليبية، وقد جاس الصليبيون تلك الجهات[١].

أ - أسباب حملة مؤتة:

ويقول بعض رواة السيرة أن السبب في بعث مؤتة هو قتل شرحبيل بن عمرو الغساني، عامل بني غسان في مؤتة، رسولاً للمسلمين اسمه **الحارث بن عمير الأزدي، أوفده النبي بكتاب** إلى الحارث بن أبي شمر الغساني، صاحب بصرى، خلافاً للأصول والقواعد المتبعة في احترام الرسل وكان الحارث بن عمير (أي رسول النبي) يحمل كتاباً خاصاً، فلما نزل مؤتة أخذه شرحبيل وضرب عنقه ولم يقتل من رسل النبي غيره – ولم يشر المؤرخون إلى ما انطوى عليه هذا الكتاب ولم يذكروا شيئاً مما تضمنه خلافاً لعادتهم، يضاف إلى هذا، أن ابن هشام لم يورد سبباً لبعث هذه الحملة، وليس من عادته أن يغفل ذكر الأسباب، وكذلك فعل ابن اسحق.

ب - قوة الحملة وطريقها:

تألفت الحملة من ثلاثة آلاف مقاتل، ولّى النبي مولاه (زيداً بن حارثة) قيادتها، وقال: إن أصيب زيد **فجعفر بن أبي طالب** فإن أصيب، **فعبد الله بن**

---

(١) أمين سعيد، حروب الإسلام والإمبراطورية الرومية – مطبعة عيسى البابي الحلبي – مصر – ١٩٣٥، ط١، ص٤٦.

رواحة، فإن أصيب فليرتض الناس رجلاً من بينهم يولونه عليهم[1] أي أنه كان يعرف صعوبة العمل الذي يقدم عليه وخطورته، وكان في هذه الحملة عدد من أقطاب الصحابة وكبارهم، وأمر النبي زيداً حين سفره، أن يقصد المكان الذي قتل فيه الحارس بن عمير (أي مؤتة) ليدعو من هناك إلى الإسلام، فإن أجابوه فهو المقصود، وإن أبوا فليستعين بالله وليقاتلهم. **وقال له**: (أوصيك بتقوى الله وبمن معك خيراً. اغزوا باسم الله، في سبيل الله من كفر بالله، ولا تغدروا، ولا تقتلوا وليداً ولا امرأة ولا كبيراً ولا فانياً ولا منعزلاً بصومعة، ولا تقربوا نخلاً ولا تقطعوا شجراً ولا تهدموا بناءً)[2].

غادرت الحملة سالكة طريق القوافل، الطريق السلطاني، بين الشام والحجاز، فاجتازت (تبوك) حتى نزلوا (معان) فنزلت الحملة فيها، وتبعد عن المدينة ٨٤٣ كم من جهة الشمال وهي أول بلاد الشراة.

جـ - استعدادات الروم وحلفائهم:

جمع شرحبيل بن عمرو الغساني، عامل مؤتة القوى للقاء، وهو الذي قتل الرسول الحارث بن عمير الأزدي، وأوقد هذه الحرب، قد جمع. ويقدر بعض المؤرخين القوى التي اجتمعت في مؤتة لقتال المسلمين بمئتي ألف مِن الروم ومَن حالفهم مِن العرب ونرى في هذا الرقم كثيراً من المبالغة، لأن جمع هذا الجيش لا يتيسر في أسبوع أو أسبوعين، بل لابُدَّ من شهر، يضاف إلى هذا، أنه ما كانت هنالك ضرورة تقتضي بحشد مثل هذه القوى الكبرى، ويلوح لنا أن الجيش الذي احتشد بمؤتة ما كان

---

(١) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، مطبعة الاستقامة بالقاهرة سنة ١٩٣٩ ج٢ – ص٣١٩.

(٢) أمين سعيد، حروب الإسلام والإمبراطورية الرومية، مطبعة عيسى البابي الحلبي، مصر ١٩٣٥، ص٤٨.

يزيد عن بضعة آلاف، ويؤيد هذا قلة عدد قتلى المسلمين في تلك المعركة، فما زاد عن[1] ١٢ قتيلاً، ولو كان هناك مئتا ألف يقاتلونهم لما سلم منهم إلا القليل فعلم قائد الحملة وهو في معان.

ولكن مما لاشك فيه أن قوة الخصم كانت تعادل أضعاف عدد العرب المسلمين في هذه المعركة. حار العرب المسلمون فيما يفعلونه **فكانوا بين رأيين:** رأي يقول بالتوكل على الله والمضي في القتال ورأي يقول بالتريث، ومكاتبة المدينة وإبلاغها خبر العدو وما أعده من قوى ومعدات وانتظار تعليماتها والسير بمقتضى هذه التعليمات عند وصولها[2] وتشاوروا وأطالوا، وأخيراً اتفقت كلمتهم على مواصلة التقدم والزحف من دون استشارة المدينة أو طلب نجدات منها، فساروا من معان إلى مؤتة ولا تقل المسافة عن ٨٠٠ كيلومتر، فالتقوا بالعدو في قرية مشارف (ولم نعثر على أثر لهذه القرية في الوقت الحاضر، وربما كانوا يعتبرون تلك الجهات منتهى الحدود بين الحجاز والشام فأطلقوا اسم مشارف على المرتفعات البسيطة هناك. وربما أبدل اسمها بالمزار، بعد من دفن فيها من الصحابة، إذ كان لابُدَّ من وجود قرية هناك بهذا الاسم وإلا فلا يعقل أن يطلق اسم المزار على هذه القرية قبل أن تشاد فيها أضرحة القواد).

والعرب يطلقون اسم المزار على القرى التي فيها أضرحة مقدسة. مثال ذلك قرية في جبل عجلون يطلق عليها اسم (المزار) وتعرف أيضاً بمزار أبي عبيدة عامر بن الجراح بطل الفتوحات الكبرى في الشام، وليس من شك في أن هذا الاسم أطلق على هذه القرية أيضاً بعد أن دفن أبو عبيدة في الثغور على بعد غير قليل منها.

---

(١) أمين سعيد، حروب الإسلام والإمبراطورية الرومية، مطبعة عيسى البابي الحلبي، مصر سنة ١٩٣٥،ص٥١.

(٢) محمد كرد علي – خطط الشام ١٩٦٩م، ج١، ص٧٣.

د - المعركة :

لا جرم في أن الموقف الذي فرض على العرب في هذه الموقعة كان من أخطر المواقف العسكرية، إذ كانت موازين القوى تميل بشكل هائل لصالح العدو بالإضافة إلى عامل الأرض والزمن، مع العلم أنه لم يصل، حتى ذلك الوقت، جواب القائد الأعلى (الرسول) عن الرسالة المبعوثة نظراً لطول المسافة ووسائل نقل ذلك الزمن التي يقدر الخبراء حاجتها إلى ستة أيام على أسرع الخيول.

وأيقن القائد زيد أنه أمام معركة لا محالة، ولكنه قرر الدخول في القتال، وهدفه ليس تدمير العدو، ولكنه هدف استراتيجي يرفع مكانة العرب المسلمين في الجزيرة العربية عبر تجرئهم على إمبراطورية الروم. لذلك أمر القائد زيد بأن ينحاز العرب المسلمون إلى قرية مؤتة، ثم اتخذ العرب ترتيباً قتالياً مناسباً بأن قسم الجيش إلى خمسة أقسام هي (المقدمة والقلب والميمنة) بقيادة قطبة بن قتادة. (والميسرة) بقيادة عباية بن مالك (والساقة)[١].

كان القائد زيد بن حارثة من أعظم أولئك الشباب قيادة فقد كان الرسول لا يخرجه إلى القتال في سرية إلا جعله أميراً عليها.

زيد بن حارثة قائد مجرب، فباختياره موقع مؤتة، ومضة عبقرية، لأن تضاريس مؤتة الوعرة تؤمن للقوات العربية القليلة حصناً طبيعياً بالإضافة إلى قربها من الصحراء إن اقتضى الموقف الانسحاب. فلهذين السببين اختار زيد مؤتة مسرحاً لأعماله الحربية في غزوته هذه. بعد أن قام العدو بالهجوم بكل قواته، اتخذ زيد قراره بالهجوم أيضاً، وهو على رأس المقدمة، وقاتل القائد مع جيشه قتال الأبطال حتى استشهد، فتسلم القيادة خلفه **جعفر بن أبي طالب** فعمد هذا القائد العربي إلى شيء يبث الشجاعة في نفوس جنده، فاقتحم على فرس له شقراء، فعقرها ثم قاتل حتى استشهد، وبهذه الطريقة أثار

---

(١) ريزنيتشكنو – التكتيك ترجمة العميد عبد الرزاق الدردري، ط٢ – وزارة الدفاع، دمشق، ١٩٦٧م، ص٥١٩.

مشاعر جنده الذين كانوا يعيشون معركة من أصعب المعارك في تاريخ العرب، ثم تسلم القيادة **عبد الله بن رواحة**، فأخذ الراية ثم تقدم بها وهو على فرس يستنزل نفسه بالشعر قائلاً:

يا نفس إن لم تقتلي تموتي	**هذا حمام الموت قد صليت**
وما تمنيت فقد أعطيت	**إن تفعلي فعلهما هديت**

وقاد هجمة ثالثة على العدو حتى استشهد، فأخذ القيادة (ثابت بن أرقم) بتسلمه الراية، ثم صاح: يا معشر المسلمين: اصطلحوا على رجل منكم، فقالوا أنت، فقال: ما أنا بفاعل، فاصطلح الناس على خالد بن الوليد.

حين تسلم خالد بن الوليد القيادة، قدر الموقف تقديراً دقيقاً ووجد أن الغزوة قد حققت هدفها وأن الاستمرار في القتال معناه هلاك المقاتلين العرب فقرر الانسحاب، فكأنه منذ ألف وثلاثمئة سنة ونيف قد أوحى بمفهوم الانسحاب لمجموعة فرق، فالانسحاب في أحدث التعاريف العسكرية المعاصرة هو: (نوع من الأعمال القتالية تلجأ إليه القوات بغرض إعادة تجميع خطوط ملائمة أو احتلالها أو للتخلص من ضربات العدو المتحملة)[١].

وبدأ العرب بالانسحاب بعد أن نظموا أنفسهم مع حلول الظلام فقسم خالد القوات إلى قسمين: القسم المنسحب وهو القسم الرئيس من القوات، وقسم الحماية وهو المؤخرة القوية، ونشبت اشتباكات الإعاقة لإحباط مطاردة العدو، وإنقاذ القسم الأكبر من قوات العرب المسلمين من التطويق وقد أفلح خالد حين نشر مؤخرة الجيش على جبهة عريضة وأحدث ضجة هائلة وأوهم العدو بقدوم إمدادات جديدة للمسلمين وجازت الخدعة على العدو، وبذلك تمكن خالد

---

(١) ريزنيتشكنو، التكتيك ت: الدردري، وزارة الدفاع، دمشق، ١٩٦٧م، مصدر سابق، ص٥١٩.

من تنفيذ عملية الانسحاب والتملص من المعركة بنجاح ومن دون أن يكبد قوات الثورة الإسلامية خسائر تذكر(١).

إن تحليل هذه الغزوة تحليلاً علمياً يؤكد أنها حققت أهدافها الرئيسية وهي: **أولاً**: رفع روح العرب المسلمين المعنوية وجرأتهم على الروم. **ثانياً**: استطلاع العرب قتال العدو وطرق تنظيمه لقواته وأسلحته. **وثالثاً**: تدريب القوات العربية وفرسانهم على الاشتباك مع هذه القوات عملياً. وفعلاً فقد كان فاتح الشام، خالد، من قادة هذه الحملة. أما خسائر العرب البشرية فقد كانت اثنتي عشر شهيداً يقابلها أكثر من ذلك بقليل من قتلى العدو.

ثالثاً - معركة تبـوك ٩ هـ:

آ الموقف السياسي العسكري قبل المعركة:

سيطرت الثورة الإسلامية، بعد فتح مكة وإخضاع هوازن، على الجزيرة العربية كلها حتى حدود الشام والعراق، وأصبح الرسول العربي مسؤولاً عن إدارة هذه المناطق وتنظيم الحياة الاجتماعية والسياسية فيها. وعندما أطمأن الرسول القائد إلى متانة جبهته الداخلية أخذ يتطلع إلى تحرير عرب الشام من سيطرة الإمبراطورية الرومانية، كانت أحوال الإمبراطورية مضطربة، ولاسيَّما في بلاد الشام، فقد كثر تذمر الناس من ظلم حكام الرومان، وإرهاقهم بالضرائب. فأقبل كثير من القبائل العربية على اعتناق الإسلام. وقد أسلم (فروة بن عمرو الحذامي) قائد إحدى الفرق الرومانية التي قاتلت المسلمين في غزوة مؤتة، فقبض عليه بأمر من هرقل بتهمة الخيانة، وكان هرقل على استعداد للإفراج عنه إن هو عاد إلى المسيحية، ولكن فروة أصر على إسلامه، فقتله هرقل.

---

(١) العماد أول مصطفى طلاس، الرسول العربي وفن الحرب، إصدار الإدارة الـسياسية السورية سنة ١٩٧٢م. ط١، ص١١٢.

خشي هرقل من قيام المسلمين بحملة لمقتل (فروة)، فالدين الجديد وانتشاره بين نصارى العرب أخذ يقض مضاجع الدولة الرومانية، فراح يفكر بالقضاء على هذا الدين الجديد قبل أن يستفحل أمره، فقام بحشد قواته على حدود الشام الجنوبية استعداداً لمهاجمة المسلمين. كما قام بتوزيع رواتب سنة كاملة على قواته النظامية، ووزع كثيراً من المال على القبائل العربية الواقعة تحت سيطرته، تشجيعاً لها على مساعدة جيشه، وبعد أن أعد لذلك عدته، وجه طلائعه إلى البلقاء ليحول الأنظار عن التحشد الذي تم بعد ذلك في منطقة تبوك.

بلغ الرسول العربي أن هرقل ومن عنده من مناصريه العرب قد عزموا على قصده، وأنهم قد حشدوا الحشود على حدوده الشمالية فقرر أن يبادرهم القتال قبل أن يبدؤوا بمهاجمة المناطق التي تسيطر عليها الثورة الإسلامية، ولم يخف نواياه في هذه الغزوة كما كان يفعل في الغزوات السابقة[١] لأن المسافة طويلة ولا بُدَّ من تأمين النواحي الإدارية للجيش الإسلامي، لئلاً يؤدي نقصان المواد التموينية إلى إخفاق الحملة[٢] وعلى الرغم من أن السنة كانت سنة جدب[٣] والناس لا تحب أن تترك ديارها في وقت جني الثمار، فإن الرسول القائد أصر على القتال، وعلى مناجزة الروم، وأمر المسلمين بالاستعداد والتأهب للمعركة وحث الأغنياء منهم على البذل في سبيل الله لتجهيز الحملة فلم يبخلوا على المسلمين بأموالهم، ينفقونها من أجل المجهود العربي، وجادت النساء المسلمات بأقراطهن وأساورهن وحليهن، وضرب عثمان بن عفان المثل في الإنفاق على جيش العسرة (سمي جيش العسرة لأن المسلمين وعامة الناس

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية في التاريخ، ط١ عام ١٣٥١هـ -١٩٣٢م، المطبعة السلفية+ السعادة + خانجي، ج٥، ص٣.

(٢) العماد أول مصطفى طلاس، الرسول العربي وفن الحرب، إصدار الإدارة السياسية السورية سنة ١٩٧٢م، ط٢، ص١١٤.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية في التاريخ، ط١ عام ١٣٥١هـ -١٩٣٢م، المطبعة السلفية+ السعادة + خانجي ج٥، ص٤.

كانوا في ضيق وقتذاك) في غزوة تبوك، إذ دفع ألف دينار ذهبي. وعندما أصبح الجيش على أهبة المسير، غادر الرسول القائد المدينة بعد أن استخلف عليها (سباعاً بن عرفطة)[١] أخا بني غفار، كما كلف علياً بن أبي طالب أن يبقى في المدينة لرعاية أهله، وهي المرة الوحيدة التي لم يسهم فيها عليّ بن أبي طالب في الحرب مع الرسول العربي.

ب تعبئة المسلمين العسكرية:

نظم الرسول جيشه حينما أزمع السير إلى تبوك. فدفع لواءه الأعظم إلى أبي بكر الصديق ورايته العظمى للزبير، وسلم راية الأوس لأسيد بن حضير، وراية الخزرج للمنذر بن حباب.

سير الأعمال القتالية: **ترك جيش المسلمين المدينة في شهر رجب** من السنة التاسعة للهجرة. وقد قارب قوامه القتالي ثلاثين ألفاً[٢] وراح يقطع الصحراء القاحلة في الحر الشديد حتى وصل إلى تبوك، فلم يجد جموع الروم هناك لأنهم عندما علموا بضخامة جيش الثورة الإسلامية، وما يتمتع به من روح معنوية عالية، آثروا السلامة وانسحبوا بقواتهم إلى الشمال. فقرر الرسول العربي أن يعسكر بقواته الرئيسة في المنطقة، واتخذها قاعدة له يوجه منها السرايا والبعوث.

وجَّه الرسول القائد رسالة إلى يوحنا بن رؤبة، صاحب (أيلة) يطلب إليه أن ينضوي تحت راية الثورة الإسلامية أو يغزوه، فأقبل يوحنا بنفسه إلى الرسول العربي، وقدم له الطاعة واتفق الطرفان على أن يدفع صاحب أيلة جزية للمسلمين قدرها ثلاثمئة دينار ذهبي كل عام، كما تم الصلح بين المسلمين وأهل الجرباء (والجرباء قرية في منطقة عمان بالبلقاء من أرض الشام) واتفق الطرفان على أن يدفع أهل الجرباء جزية قدرها مئة دينار

---

(١) المرجع السابق نفسه، ص٢.

(٢) المرجع السابق ص٢.

ذهبي كل عام. كذلك وجه الرسول العربي خالد بن الوليد على رأس كتيبة قوامها خمسمئة فارس إلى دومة الجندل، ففاجأ خالد مليكها الأكيدر وأخاه حساناً وهما يطاردان بقر الوحش، فقتل حساناً وأسر الأكيدر، وفتح دومة الجندل. وعندما عاد خالد إلى الرسول العربي بالأكيدر والغنائم، أمر الرسول القائد بإطلاق سراح ملك دومة الجندل وصالحه على دفع الجزية وتركه يعود إلى قومه[١] بقي الرسول العربي وجيشه عشرين يوماً مرابطين في منطقة تبوك. بانتظار قدوم الجيش الروماني (الذي آثر السلامة كما نعلم) تدعيماً لهيبة الثورة الإسلامية في نفوس القبائل العربية في المنطقة، ومن أجل الدعوة الإسلامية في تلك الأرجاء. وعندما أنجز كل ذلك قفل عائداً بجيشه إلى المدينة.

جـ استنتاجات غزوة تبوك:

طبق الرسول القائد، في غزوة تبوك لأول مرة في التاريخ، مبدأ الحرب الشاملة. إذ عبأ كل قادر على حمل السلاح من المسلمين وتوجه إلى ميدان المعركة، ولم يتخلف بدون أوامر الرسول القائد سوى ثلاثة رجال فقط، باستثناء المنافقين الذين رفض الرسول العربي اصطحابهم. برهنت غزوة تبوك على اللياقة البدنية العالية التي كان يتمتع بها الجيش الإسلامي لأن قطع المسافة من المدينة إلى تبوك يعتبر أمراً عسيراً حتى في أيامنا هذه. فإذا أضفنا إلى ذلك تنظيم مسير الأرتال وانضباطها بدون وجود وسائل مواصلات متطورة، أدركنا القدرة العظيمة في التنظيم والخبرة الواسعة في فن قيادة الرجال التي كان يتمتع بها الرسول العربي (نستطيع أن نعتبر أن غزوة تبوك هي تطبيق رائع لاستراتيجية الهجوم غير المباشر التي طبقها الرسول القائد لأنه ربح المعركة بالمناورة لا بالقتال).

---

(١) العماد أول مصطفى طلاس، الرسول العربي وفن الحرب، إصدار الإدارة السياسية السورية سنة ١٩٧٢م، ط١، ص١٨٦.

أدت **النتائج التي أسفرت عنها غزوة تبوك** إلى ارتفاع معنويات العرب المسلمين لأنهم لم يكونوا سابقاً يستطيعون صد اعتداء الروم عليهم في عقر دارهم، فأصبحوا بعد معركة تبوك واثقين كل الثقة بأن المستقبل هو لهذه الأمة المجاهدة التي ستحرر أراضيها من الغزاة وتهزم في مستقبل قريب، الروم والفرس على السواء.

أدى انتصار الرسول العربي على أعدائه في غزوة تبوك إلى القضاء على تردد المتخلفين عن الالتحاق في صفوف الثورة الإسلامية من القبائل العربية، فقد أيقنوا بعد هذه الغزوة، أنهم عاجزون عن مواجهة الرسول القائد الذي يثبت سلطة الثورة الإسلامية على كل الجزيرة والذي لم تتمكن جيوش هرقل من مواجهته، لذلك أقبلت وفود القبائل العربية إلى المدينة بعد عودة الرسول العربي إليها معلنة إسلامها، ولهذا سمي هذا العام – التاسع للهجرة – بعام الوفود. استطاع الرسول القائد أن ينظم عدداً من نقاط الارتكاز على الحدود الشمالية للجزيرة التي تربطها ببلاد الشام، وذلك بعقد التحالفات مع سكان تلك المنطقة، وانضمام بعضهم إلى الثورة الإسلامية. وقد سهلت نقاط الارتكاز هذه مهمة الفتح الإسلامي على عهد الخلفاء الراشدين في صدر الإسلام. فمنها انطلقت إلى الشمال، وعليها استندت لتحقيق هدفها العظيم(١).

د بعث أسامة بن زيد :

تقديم :

علم الرسول القائد بوجود تحشدات على الحدود الشمالية بعد غزوة تبوك، فعقد لواء جديداً **لأسامة بن زيد** الذي سبق أن أمره ببعض الغزوات قبل أن يؤمّره على الجيش الذي أعده لمهاجمة الروم قبل وفاته إن هذه الإمرة مع تولية أسامة القيادة تعني إعداد أسامة ليوم قريب لا ريب فيه يلقى فيه الخصوم. فبعد عودة الرسول من حجة الوداع ومقامه بالمدينة بقية ذي الحجة والمحرم

---

(١) اللواء الركن محمود شيث خطاب – قادة فتح بلاد الشام – ص٢٨.

وصفر من السنة الحادية عشرة للهجرة (عام ٦٣٢)م، أمر بتجهيز جيش ضخم كان فيه أبو بكر وعمر وسعد بن أبي وقاص وأبو عبيدة بن الجراح، وجعل هذا الجيش بإمرة أسامة بن زيد، فتجهز الناس وأوعب مع أسامة المهاجرون الأولون (أي خرجوا جميعاً للغزو). ولكن مرض الرسول أخَّرَ خروج هذا الجيش فأتى الرسول إلى منبر **ثم قال:** «يا أيها الناس انفذوا بعث أسامة». وفعلاً تم خروج الجيش حتى نزلوا الجرف – موضع على ثلاثة أميال من المدينة – باتجاه الشمال[1] فعسكر الجيش هناك ينتظرون، نتيجة لخطورة مرض الرسول، مما أعاد الجيش بعد ذلك حين وفاة الرسول ومن ثم بُعِثَ مرة أخرى حين استُخْلِفَ أبو بكر. ويجمع المؤرخون أن معظم القبائل العربية قد ارتدت بعد وفاة الرسول، وأن جيش **أسامة** قد عاد، أما الفرس والروم فقد كانتا تستعدان لانتهاز هذه الفرصة للقضاء على الثورة الإسلامية[2] فاجتمع القائد الأعلى الخليفة أبو بكر بقيادته وأركانه وشرح لهم الموقف بدقة، وأبدى رأيه بقوله: (ليتم بعث أسامة). وبعد دراسة عميقة وافقت القيادة على الرأي بالإجماع.

١- أمر قتال القائد الأعلى للقائد أسامة:

خرج القائد الأعلى ليعطي الجيش توجيهاته، وقائد الجيش أوامره بينما جيش أسامة بن زيد لا يزال في منطقة التحشد، في الجرف تأهباً للانطلاق إلى هدفه. بينما وبعد وصوله وقف بهم خطيباً قال: (يا أيها الناس، قفوا أوصيكم بعشر فاحفظوها عني: لا تخونوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة....، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا **بعيرا** إلا لمأكلة، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له ولسوف

---

(١) ياقوت الحموي – معجم البلدان، ط. دار السعادة في مصر عام ١٣٢٣هـ، ص٨٧.

(٢) الطبري، تاريخ الأمم والملوك،مصر، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ط١، ١٩٣٩م، ج٢، ص٤٦١.

تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام فإذا أكلتم منها شيئاً" بعد شيء فاذكروا اسم الله عليها، وتلقون أقواماً قد فحصوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم بالسيف خفقاً...... اندفعوا باسم الله).

ثم أعطى أبو بكر أمر القتال للقائد أسامة حيث حدد له الطريق والهدف إذ قال له: ابدأ ببلاد قضاعة ثم ائت آبل(١) ثم أوطئ الخيل تخوم البقاء والداروم. وكذلك حدد القائد الأعلى وقت الهجوم بقوله: في عماية الصبح، وهو الوقت الذي يسمى حديثاً أول الضوء(٢)، ويجمع المؤرخون على أن أسامة بن زيد قد سار من الجرف إلى ذي المروة فالوادي ثم وصل مشارف منطقة الهدف بعد عشرين يوماً من المسير..... وأيقن أسامة أن مهمته التي يحملها هي غاية كبرى، وأيقن أيضاً أن لهذه العمليات التي سيخوضها ما بعدها..... فلجأ إلى كل طريقة يستطيع بها أن يباغت العدو باختياره الزمان وطريقة الهجوم، بينما فُرضت عليه أمور أخرى، مثل المكان وبعد مواصلاته عن قواعده وفعلاً استطاع بإغارات مفاجئة ومباغتة، سريعة وخاطفة، أن ينجز مهمته كاملة فعاد إلى قواعده بعد أربعين يوماً، بينما يقول أبو زيد البلخي في كتابه (البدء والتاريخ): «عاد أسامة بعد سبعين يوماً ممتطياً الجواد الذي استشهد عليه أبوه – زيد بن حارثة – في غزوة مؤتة، فما رئي جيش كان أسلم من ذلك الجيش».

٢ - التحليل العسكري لهذه الهجمات المباغتة:

لا بُدَّ للباحث من الوقوف بدهشة أمام هذا التفوق المعادي في كل أمر، وإقدام العرب المسلمين على الهجوم بثلاثة آلاف مقاتل على مسافة أكثر من (٧٠٠كلم) عن قواعدهم (المدينة)، والجزيرة العربية بشكل عام. إن انقلاب

---

(١) تسمى آبل وهي مدينة بالأردن من مشارف الشام (معجم البلدان) – ج١ – ص٥٢.

(٢) إبراهيم مصطفى المحمود، موسوعة السياسة والحرب عند العرب، مصدر سابق، ص١٩٢.

غالبية القبائل في الردة، في الوقت نفسه الذي أُرسل فيه أسامة بن زيد إلى الشمال يعطي تساؤلاً آخر، حيث لم يبق في المدينة إلا قلة يسيرة من الشيوخ والنساء لحمايتها، أو بعض الفرسان ممن استبقاهم أبو بكر الخليفة – القائد الأعلى – من كل ذلك نجد أنفسنا أمام التساؤل التالي، لماذا أرسل أبو بكر أسامة؟ وما الذي حققه هذا البعث من نتائج وأهداف في المجالات الاستراتيجية والعملياتية والتكتيكية... وغير ذلك؟ لا غرو في أن بعث هذا الجيش للقيام بهذه الإغارات المباغتة يحمل هدفاً نفسياً، وهو أن يحول دون تفكير الروم بغزو العرب المسلمين في ديارهم، ومنه تحقيق تأكيد رهبة العرب المسلمين في نفوس المرتدين.

ومما زادني قناعة في ذلك رواية (ابن كثير) إذ يقول: (كان خروج أسامة من أكبر المصالح والحالة تلك، فساروا لا يمرون بحي من أحياء العرب إلا أرعبوا منه وقالوا: ما خرج هؤلاء إلا وبهم منعة شديدة). ويتابع في مكان آخر: (إن المرتدين قالوا: فلندعهم حتى يلقوا الروم. فكان أن فاجأ أسامة الروم وهزمهم)[١]. والأرجح أن أسامة قد شن مجموعات من الإغارات الخاطفة الهامة على معسكرات الروم وحلفائهم في مشارف الشام. لقد حاول بعض المؤرخين من المستشرقين التقليل من شأن هذه الغارات الخاطفة فقد جاء في (دائرة المعارف الإسلامية). وقد جاء في فصل أسامة الذي حرره المستشرق (فكا) قوله: وقد بعث انتصار أسامة البِشْر في نفوس أهل المدينة بعد أن أحزنتهم حروب الردة، وأصبح الانتصار من الخطر ما لا يتفق مع قيمته الحقيقية، بل عد فيما بعد فاتحة للحملة التي وجهت لغزو الشام[٢]. ولكن إلقاء نظرة شاملة على الأحداث في تلك الفترة وطبيعة نفسية الإنسان منذ أكثر

---

(١) إبراهيم مصطفى المحمود، موسوعة السياسة والحرب عند العرب، مصدر سابق، ص١٩٢.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية – فصل أسامة بن زيد.

من ألف وثلاثمئة سنة يجعلنا نؤكد على أن هذه الغزوات الخاطفة قد حققت ثلاثة أمور: أولها ارتداع الروم عن مهاجمة الجزيرة العربية وارتداع أحلافهم أيضاً، وثانيهما خوف أهل الردة بالرغم من ردتهم، لأن مثل هذا الغزو لا يصدر إلا عن قوة وثالثهما زيادة ثقة العرب المسلمين بالنصر بعد تجرئهم على الإمبراطورية الرومية مرة أخرى.

هـ بعث خالد بن سعيد بن العاص:

خلت حدود الدولة العربية الفتية، **بعد عودة أسامة بن زيد** وانشغال العرب المسلمين بالمرتدين، مما جعل الروم والفرس يظنون بالعرب الظنون، ويعدون العدة للهجوم عليهم، ولكن القائد الأعلى للقوات العربية أبا بكر الصديق فوت عليهم الفرصة، حين عقد، بسرعة وكتمان فائقين، للقائد العربي **خالد بن سعيد بن العاص** اللواء على جيش عربي بمهمة دفاعية، وكان نص الأمر الذي أعطاه أبو بكر لخالد أن لا يتخطى حدود تيماء (وهي لا تزال قائمة حتى الآن وآثار الأبلق – حصن السموءل – فيها كما يؤكد بعضهم وهي في الجنوب الشرقي من تبوك، وقد حررها العرب المسلمون في غزوة خيبر سنة (سبع) بمصالحتها على الجزية، وعينوا يزيد بن أبي سفيان والياً عليها، وأمره الرسول (ﷺ) أن يدعو مَنْ حوله من العرب إلى الإسلام والانضمام إليه، وأن لا يقاتل إلا من قاتله انتظاراً لأمر آخر يصدر إليه[١]).

أن إرسال جيش خالد بن سعيد بن العاص، لم يكن تقديره وقيمته في حجم المعركة التي سيخوضها، ولا الانتصارات التي سيحققها، وإنما كانت هذه القوات بمثابة قرني استشعار طويلين جداً مهمتهما استطلاع المعلومات عن العدو، ثم نقلها، وقتال العدو إن أجبرت هذه القوات على ذلك هذا **كهدف أولي، هذا ما يتضح من المقارنات بين كل الروايات التاريخية وتحليلها، أما الهدف**

---

(١) إبراهيم مصطفى المحمود، موسوعة السياسة والحرب عند العرب، مصدر سابق، ص١٩٣.

الأكبر فهو هدف نفسي أيضاً في تثبيط وإحباط فكرة هجوم الروم على العرب فور ولادتها. وفعلاً فقد استطاعت هذه القوات، تحقيق مهامها، بعد أن قطعت مسافة تزيد على ثمانمئة كيلو متر، وقد حاول القائد العربي أن يستميل كل القبائل العربية إلى جانبه وقد حقق ذلك[١]. أما عن المهمة الاستطلاعية الموكلة إلى هذا القائد فقد أرسل مجموعات عديدة من الدوريات الاستطلاعية في كل الاتجاهات المحتملة لوجود العدو، فكان أن حصل على معلومات مفصلة على العدو، وكان من أهم ما وصله عن العدو أن جيشاً رومياً يشد أزره مجموعة من حلفائهم يتجمع في عمان بقيادة البطريق (باهان) قائد الروم في البلقاء لمهاجمة تيماء - مركز إقامة القوات العربية. أما عن الهدف النفسي من هذه الحملة فقد أتى أكله في ضمان الجبهة الشمالية من هجوم رومي مفاجئ وعدم وصول هذا الهجوم إلى المدينة إلا بعد قتال تأخيري..... ومن جهة أخرى فإن الروم لزموا الدفاع لا الهجوم، حتى استعد باهان للهجوم.

أرسل القائد خالد بن سعيد بن العاص معلماً أبا بكر بالمعلومات المتوفرة كافة، فأجابه أبو بكر: (أقدم ولا تقتحمن) أي أن يشن عليهم هجوماً عنيفاً دون أن يطاردهم. وقام القائد خالد بالهجوم، فانسحبت القوات الرومية ونزل في مواقعهم ثم أرسل ثانية يعلم القائد الأعلى أبا بكر بالموقف العسكري، فكان قراره: (أن أقدم بحيث لا تؤتى من خلفك). أي لا تتجاوز كثيراً في عمق العدو خوفاً من حركة التفاف معادية من خلفه[٢].

هجم العرب بقيادة خالد بن سعيد على الروم فأخذتهم غرة النصر بانسحاب الروم فتجاوزا معان ودخلوا ديرة البلقاء حتى وصلوا (الزيزاء[٣] أو الجيزة كما

---

(١) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج٢،مصدر سابق، ص٦٠٢.

(٢) أبو الحسن بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير - الكامل في التاريخ، طبعة ليدن + طبعة أوبسالا، تحقيق كارل يوهان، الطبعة المصرية الأزهرية عام ١٣٠١هـ، ص١٩٦ + الطبري ج٢ ص٥٨٧.

(٣) بركة الزيزاء هي بحيرة المزيريب.

يسمونها اليوم: إحدى محطات سكة حديد الحجاز بين عمان ومعان، وتبعد عن الأولى نحو ٦٢كم. من أعمال حكومة شرقي الأردن وفيها بركتها المشهورة والى جانبها حصن صغير ربما أقيم على أنقاض مسلحة من مسالح الرومان).

ولما وصل خالد بن سعيد واصل زحفه نحو عمان – قاعدة الروم العسكرية في البلقاء – لمهاجمتهم في قواعدهم(١). واستطاع العرب أن يحققوا نصراً قد انتزعوه من بين براثن الموت في معركة غير متكافئة بينهم وبين الروم. فكتب خالد إلى أبي بكر ثانية يعلمه بتفصيلات الموقف العسكري في الشمال ويطلب السماح له بالتوغل في أراضي الشام ويطلب إمداده بالقوات، فوافق أبو بكر على ألا يتوغل حتى تصله الإمدادات، ولكن خالداً أسرع في مطاردة العدو دون حفظ لخط رجعته، ودون انتظار للإمدادات، فوقع في الفخ المعد، حيث استمرت المطاردات حتى (مرج الصفر)، وهناك أطبقت عليه القوات الرومية القادمة من فلسطين والقوات القادمة من حوران، فوقع في معركة التطويق(٢).

وبينما قوات خالد بن سعيد بن العاص في حالة التطويق، وصلت قوات عربية أخرى بقيادة القائد العربي عكرمة بن أبي جهل على رأس قوات جديدة٣. وبدأ القائد **عكرمة** يخوض، بعد أن فك الحصار عن قوات خالد، معركة الانسحاب، ويذكرنا هذا الانسحاب، بخطة انسحاب خالد بن الوليد، الذي خرج بقيادة زيد بن حارثة فقد أخذت قوات عكرمة وضعية القتال كمجموعات تغطية في حين كانت قوات خالد بن سعيد تقوم بالانسحاب. وكان لواء خالد بن سعيد أول لواء عقده أبو بكر في الإسلام (مع العلم أن الذي عقد لأسامة بن زيد هو الرسول العربي القائد)، وقد قتل في هذه المعركة ابن خالد بن سعيد وإخوته(٤).

---

(١) أمين سعيد، حروب الإسلام والإمبراطورية الرومية، الطبعة الأولى عام ١٩٣٥م، مطبعة عيسى البابي الحلبي، مصر، ص٦٤.

(٢) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، مصدر سابق، ج١ – ص٦٠٢.

(٣) محمد حسين هيكل أبو بكر، مطبعة مصر، القاهرة، ص٣٧٣.

(٤) عبد المتعال الصعيدي، شباب قريش في العهد السري للإسلام، نشر دار الفكر العربي، ص١٥١.

رابعاً - توجيه الجيوش الأربعة وأعمالها:

لقد وجهت أربعة جيوش إلى الشام، سنرى كلا منها، ثم نحلل وندرس أسباب توجيه هذه الجيوش متتابعة، وعلى أكثر من طريق ووجهة.

١ جيش يزيد بن أبي سفيان:

بعد أن بترت الردة وقصمت، اجتمعت القيادة العربية العليا في المدينة برئاسة أبي بكر الذي افتتح الاجتماع قائلاً: «أيها الناس رحمكم الله تعالى.... اعلموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان عول أن يصرف همته إلى الشام فقبضه الله إليه، واختار له ما لديه، ألا وإني عازم أن أوجه أبطال المسلمين إلى الشام بأهليهم ومالهم»[١] فتداول أركان دولة العرب الفكرة، وقرروا بالإجماع ضرورة تحرير الشام بقولهم: يا خليفة رسول الله مرنا بأمرك، ووجهنا حيث شئت.

فوجه القائد الأعلى للقوات العربية – أبو بكر – أوامره إلى اليمن وأهل مكة والطائف وجميع العرب بنجد، وكان نص الأوامر واحداً وهو: (قد عزمت أن أوجهكم إلى بلاد الشام، انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم). فأقبلت قبائل العرب ملبية. وكانت قبيلة (حمير) أول قبيلة في سرعة الوصول، بقيادة ذي الكلاع الحميري، ثم أقبلت كتائب مذجح بقيادة قيس بن هبيرة المرادي، وتقدمت من بعده قبائل طيء بقيادة حارث بن سعد الطائي، ثم جاء من بعدهم «بنو عبس» يتقدمهم الأمير ميسرة بن مسروق العبسي، وأقبلت من بعدهم «بنو كنانة» بقيادة غيثم بن أسلم الكناني، وتابعت قبائل اليمن يتلوا بعضها بعضها الآخر، ومعم نساؤهم وأموالهم، وبذلك اكتمل الحشد العربي.

توجه القائد الأعلى، يرافقه ثلاثة هم أكبر أركانه: علي بن أبي طالب وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان، بعد اجتماع قصير عقدته القيادة العربية

---

(١) الأزدي، فتوح الشام، نشر مؤسسة سجل العرب ١٩٧٠م، ص٨٢.

العليا، حتى أشرف على القوات.... فدعا **يزيد بن أبي سفيان فعقد له**، ودعا **ربيعة بن الأسود بن عامرمن بني عامر** بن لؤي فعقد له، ثم قال له: أنت مع يزيد بن **أبي سفيان**، فلا تعصه، ولا تخالف أمره،. وقال ليزيد: إن رأيت أن توليه مقدمك فافعل، فإنه من فرسان العرب وصلحاء قومك، فقال يزيد: لقد زاده إلي حبّاً حسن ظنك به، ورجاؤك فيه. ثم إنه خرج يمشي معه. فقال يزيد: يا خليفة رسول الله: إما أن تركب وإما أن تاذن لي فأمشي معك، فإني أكره أن أركب وأن تمشي. فقال له أبو بكر: ما أنا براكب ولا أنت بنازل، إني أحتسب خطاي هذه في سبيل الله. وهكذا كان يزيد بن أبي سفيان أول القادة العرب اللذين وجههم أبو بكر بعد خالد بن سعيد بن العاص، لقتال الروم، من قواد أربعة سيذكرون بالتتالي...... وكان العقد في بدء الأمر على ثلاثة آلاف رجل، فلم يزل أبو بكر يتبعهم المدد، حتى صار مع كل أمير سبعة آلاف وخمسمئة رجل، ثم تنام جمعهم بعد ذلك فكان أربعة وعشرين ألفاً.

المهمة وتفصيل القيادة:

قِدَمُ القواد: **حين أوشك أبو بكر** على إرسال القوات إلى الشام، جمع قواده وقال لهم: إن اجتمعتم على قتال فأميركم أبو عبيدة عامر بن الجراح الفهري، وإلا فيزيد بن أبي سفيان، وإذا كان بكم قتال، فأميركم الذي تقاتلون في عمله – أي المنطقة المحددة له.

تحديد محاور الطرق:

أمر القائد الأعلى أبو بكر يزيداً أن يتحرك سالكاً طريق (تبوك) وأمر عمرواً بن العاص أن يسلك طريق (أيلة). وأمر شرحبيل أن يسلك طريق تبوك أيضاً، كما حدد لقادته هدف كل منهم. فجعل هدف يزيد الشام، وهدف عمرو بن العاص فلسطين، وهدف شرحبيل بصرى. وأمرهم أن يكتبوا إليه بالمواقف القتالية كي يصدر إليهم الأوامر المناسبة في حينها وعلى ضوئها،

وبحسب ما يستجد من أمور.

وصية القائد:

حين شيع القائد الأعلى يزيد بن أبي سفيان، أوصاه قائلاً: «لقد وليتك لأبلوك، وأجربك وأخرجك، فإن أحسنت رددتك إلى عملك وزدتك، وإن أسأت عزلتك.... وإذا قدمت على جندك فأحسن صحبتهم وأبدأهم بالخير وعدهم إياه، وإذا وعظتهم فأوجز، فإن كثير الكلام ينسي بعضه بعضاً، وأصلح نفسك يصلح لك الناس، وإذا قدم عليك رسل عدوك فأكرمهم، وأقلل لبثهم، حتى يخرجوا من عسكرك من قبلك، وكن أنت المتولي لكلامهم، ولا تجعل سرك لعلانيتك فيختلط أمرك، وإذا استشرت فأصدق الحديث تصدق المشورة، ولا تحزن عن المشير خبرك فتؤتى من قبل نفسك، واسمر بالليل في أصحابك تأتك الأخبار، وتتكشف عندك الأستار وأكثر حرسك، وبددهم في عسكرك، وأكثر مفاجأتهم في محارسهم بغير علم منهم بك، فمن وجدته غفل عن محرسه فأحسن أدبه وعاقبه في غير إفراط، وأعقب بينهم بالليل، واجعل النوبة الأولى أطول من الأخيرة فإنها أيسرهما لقربها من النهار ولا تخف عن عقوبة المستحق ولا تلجن فيها ولا تسرع إليها ولا تخذلها مدفعاً، ولا تغفل عن أهل عسكرك فتفسده، ولا تجسس عليهم فتفضحهم، ولا تكشف الناس عن أسرارهم، واكتف بعلانيتهم، ولا تجالس العابثين، وجالس أهل الصدق والعرفاء، وأصدق اللقاء، ولا تجبن فيجبن الناس، واجتنب الغلول فإنه يقرب الفقر ويدفع النصر، وستجد أقواماً حبسوا أنفسهم في الصوامع فدعهم وما حبسوا أنفسهم له». وهذا رد شامل على كل من أنقص العرب حقهم في المجال العسكري. فهذه الوصية تكاد تعتبر دستوراً عسكرياً.

- معركة تبوك:

اتخذ يزيد بن أبي سفيان ترتيباً للمسير حركياً إلى الشام، بأن جعل **ربيعة بن عامر** على مقدمته في ألف، وجعل باقي قواته – وهما – ألفان – قلباً للقوات. وأرسل يزيد طلائعه باتجاهات مختلفة. أما الروم فقد علموا بقدوم

العرب فاجتمعت هيئات أركان القيادة العسكرية الرومية في الشام لبحث الموقف بقيادة الملك هرقل وقرروا الهجوم وتدمير الدولة العربية، فجهز الملك **هرقل** ثمانية آلاف من أشجعهم بقيادة خمسة من كبارة قواده، وهم البطاريق - جرجيش، صاحب الشرطة، لوقا بن سمعان، فيليب بن حنا، صاحب غزة، وكان هؤلاء مضرب المثل في الشجاعة والبراعة ثم انطلقوا باتجاه تبوك. أما قوات العرب، فقد كانت قد وصلت إلى تبوك قبل وصول الروم بثلاثة أيام، ولما علم يزيد بقدوم الروم، أمر قائد مقدمته **ربيعة بن عامر**، أن يكمن بمن تحت إمرته، وهم ألف، في مكان خفي، ثم جمع يزيد قواته وقال: (الجنة تحت ظلال السيوف، فكأنكم بجنود الشام، وأياكم أن تطمعوا العدو فيكم). ولما أقبلت قوات الروم، شنوا على العرب هجوماً عنيفاً، ولما التحمت القوتان نفر ربيعة بن عامر من مكمنه، واستطاع بحركة التفاف خاطفة الانقضاض على العدو من الخلف، فكان هذا الالتفاف من أهم عوامل النصر الذي أحرزه العرب، ثم وجهوا كتاباً إلى أبي بكر.

- معركة داثن ووادي عربة:

أعلمت وحدة الاستطلاع العربية يزيداً بوجود حشود رومية، بعد فتح تبوك فقررت القيادة العامة برئاسة يزيد أن يدمروا قوات الروم الموجودة في غزة، حتى لا تكون هذه القوات عاملاً من عوامل قطع خط الرجعة على العرب أو على إمداداتهم، أو الالتفاف عليهم من الخلف..... وفي الطريق إلى هذه القوات أخبرت قوات الاستطلاع العربية أن هناك بالعربة، من أرض فلسطين، ثلاثة آلاف مقاتل رومي بقيادة ستة من أشهر قادة الروم، وقررت القيادة العربية إرسال **أبي أمامة** بن عجلان الباهلي إليهم لسحقهم، ومتابعة يزيد لتدمير قوات بطريق غزة التي كانت في طريقها إلى قوات الروم مدداً، وفي الواقع جرت معركتان في وقت متقارب، ففي وادي عربة، انتصر العرب بقيادة **أبي أمامة**. أما يزيد فقد التقى في معركة تصادمية مع قوات

الروم في داثن في شباط عام ٦٣٤ واستطاع أن يحقق النصر بعد قتال مرير. إن الخطة الحربية التي اتبعها يزيد بن أبي سفيان تنم عن حنكة عسكرية وخبرة حربية. فلو ترك القوات المعادية في وادي عربة، وهاجم قوات غزة، لكانت قوات وادي عربة سبباً في تدمير قوات العرب، إذا داهمتها من خلف، والعكس الصحيح، إذاً فقد كان القرار عسكرياً حكيماً[1].

ب- جيش شرحبيل بن حسنة:

هو شرحبيل بن حسنة بن عبد الله بن المطاع بن عمرو بن كنده، يمني المولد والنشأة[2]. بعد أن تلقاه فارساً مغواراً في غزوات الرسول، تجده قائداً في حروب الردة أيضاً... قاد هذا البطل قوات العرب المسلمين الأولى التي اصطدمت بقوات مسيلمة في عقرباء، ثم لا نلبث أن نعجب لبطولاته في عين التمر مع خالد بن الوليد. لم يركن مغوار الحرب إلى السكينة ويخلد إلى الراحة بعد ذلك فها هو يفد على أبي بكر، ولا يلبث أن يطلب من الخليفة بعثه لقتال الروم، فيجيبه أبو بكر: أنت أحد أمرائي، فإذا سار يزيد بن أبي سفيان، فأقم ثلاثاً، ثم تيسر للمسير..... وبعد أن أمر قائد القوات العربية الأعلى أبو بكر شرحبيل ندب معه الناس، حتى وضع تحت قيادته سبعة آلاف مقاتل، وكانت مهمة شرحبيل ما يلي: ١- سلوك طريق معان - الكرك - مأدبا - البلقاء. يجتاز هذا الطريق منطقة الشراة ويشقها شقاً، مبتدئاً من معان ويمر بإذرح، ولا تزال بقاياها قائمة وفيها ماء الجرباء الكبيرة - الجرباء الصغيرة - الشوبك - الطفيلة - الكرك - كورة بني

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية في التاريخ، إصدار المطبعة السلفية والسعادة، والخانجي، مصر، القاهرة، الطبعة الأولى ١٩٣٢م، ج٧، ص٤.

(٢) ابن عساكر، تهذيب ابن عساكر، ط. روضة الشام، ١٣٢٩هـ.+ ورد في موسوعة السياسة والحرب عند العرب، للمؤلف، ص١٩٩.

حميديات – مأدبة – الجيزة – عمان[١].

وبعد ذلك أوصى أبو بكر شرحبيل بقوله: ألم تسمع وصيتي ليزيد بن أبي سفيان؟ قال: بلى. قال: فإني أوصيك بمثلها وأوصيك بخصال أغفلت ذكرهن ليزيد.... أوصيك بالصبر يوم اليأس حتى تظفر، أو تقتل. وبعيادة المرضى، وبحضور الجنائز، وذكر الله كثيراً على كل حال[٢]. ولم يزل أبو بكر يتبعهم المدد حتى صار مع شرحبيل سبعة آلاف وخمسمئة مقاتل.

- أعمال الجيش الثاني العسكرية:

لقد كانت مهمة هذا الجيش، منازلة الجيش الرومي في البلقاء، وهي تقارب الجزء الجنوبي الغربي من إمارة شرقي الأردن الحاضرة، وتضم مقاطعة عمان والسلط وما بينهما حتى ضفة الأردن الشرقية، وتنتهي حدودها الجنوبية عند ابتداء حدود مقاطعة الكرك التي كانوا يسمونها «مؤاب». أما حدودها الشمالية فكانت تنتهي على مقربة من الزرقاء، وهي المرحلة الثانية بعد عمان للتوجه إلى دمشق، والحد الفاصل بين البلقاء وجبل عجلون، وفيها نهر الزرقاء المعلوم الذي يصب في الأردن بعد أن يفصل بين جبال البلقاء وجبال عجلون، في نحو منتصف الطريق بين عمان وجرش (جرش من أعمال جبل عجلون لا من البلقاء) ولم يلق هذا الجيش مقاومة كبيرة في تقدمه وكان يسير على الجناح الأيسر من جيش أبي عبيدة والأيمن من جيش فلسطين فأوغل في البلقاء حتى بلغ بصرى وكانت من مراكز الروم الكبرى، محصنة وذات أسوار، تدافع عنها قوة كبيرة من الروم والعرب الغسانيين، فحاصر شرحبيل هذه المدينة، ولكنه لم يوفق إلى فتحها، إلى أن تمَّ ذلك على يد خالد بن الوليد، حينما قدم من العراق.

---

(١) امين سعيد، حروب الإسلام والإمبراطورية الرومية، مطبعة عيسى البـــابي الحلبـــي، مصر، ١٩٣٥ ص٧١.

(٢) الأزدي، فتوح الشام، نشر مؤسسة سجل العرب، سنة ١٩٧٠م. ص٥.

جـ جيش أبي عبيدة بن الجراح:

هو أبو عبيدة بن الجراح القرشي الفهري، أحد العشرة السابقين في الإسلام، هاجر إلى الحبشة الهجرة الثانية ثم إلى المدينة، كما شهد بدراً[١] وشهد أحداً، حيث نزع حلقتي المغفر اللتين دخلتا في وجنتي الرسول (ص) بثنيتيه فسقطتا، وكان أبو عبيدة بين الناس أثراً، بعثه الرسول القائد مع أربعين رجلاً فأغار بهم على المشركين (في القصة). وشهد **أبو عبيدة** فتح مكة، وكان في مقدمة موكب الرسول العربي المؤلف من المهاجرين، كما شهد المشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم. أسماه الرسول أمين الأمة، هذا القائد هو **قائد الجيش الرابع** الذي وجهه القائد الأعلى أبو بكر لقتال الروم فاتبع طريق الطفيلة – الكرك – مأدبة، وحين اتجه أبو عبيدة من معان إلى مؤاب، التقى على طريق الشوبك – الطفيلة بقوة العدو فهاجمها وهزمها فخضعت له المقاطعة وصالحه أهلها. وواصل تقدمه حتى الجابية، ويطلق اسم الجابية على تل في أراضي الجيدور، من أعمال حوران. وهو اليوم في منطقة ناحية نوى وآثار الأنقاض ظاهرة على التل، وقد كانت الجابية عاصمة الجيدور. وكان يدعى يومئذ أيطور، وقد سُمّي أحد أبواب دمشق بباب الجابية لأنه الباب الذي يخرج منه من يقصد الجابية. واحتل أبو عبيدة الجابية بدون مقاومة تذكر. وتقدم منها إلى حمص سالكاً الطريق الواقع شرقي دمشق، وكان ذلك عندما انتشر جيشا يزيد وشرحبيل في حوران والغوطة، فحاصر حمص وغلبها. فدخلت في طاعة العرب المسلمين وهي أول مدينة كبيرة في سورية الوسطى دخلت في حوزتهم[٢].

---

(١) د. إبراهيم مصطفى المحمود، موسوعة السياسة والحرب عند العرب، مصدر سابق، ص٢١٠.

(٢) أمين سعيد، حروب الإسلام والإمبراطورية الرومية، مطبعة عيسى البابي الحلبي، مصر ١٩٣٥، ص٩٣.

د جيش عمرو بن العاص:

هو عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سعيد بن سهم، يكنى أبا عبد الله، أبوه العاص بن وائل، أحد أشراف قريش في الجاهلية، وزعيم بني سهم، وقائدهم في يوم (الفجار) الثاني قبل بعثة النبي · **وهو قائد الجيش الثالث** الذي وجهه القائد الأعلى أبو بكر لفتح الشام. كان هذا القائد جزاراً في الجاهلية وكان يحترف التجارة أيضاً، كما شهد غزوة أحد مع المشركين[١]. أسلم عمرو سنة ثمان للهجرة، فقد قدم مع خالد بن الوليد وعثمان بن طلحة، فلما رأى النبي صلى الله عليه وسلم عمرو وصاحبيه، **قال:** ألقت إليكم مكة أفلاذ أكبادها، يعني أنهم وجوه أهل مكة، اشترك بعد إسلامه في غزوة (ذات السلاسل) (ماء بأرض جذام يقال له: السلسل، وهي وراء وادي القرى، وبينهما وبين المدينة عشرة أيام). ولاه الرسول قيادة سرية مؤلفة من ثلاثمئة رجل من أشراف المهاجرين والأنصار، لصد جمع قبائل قضاعة الذين أرادوا مهاجمة أطراف المدينة المنورة، كما بعثه الرسول إلى سواع صنم هذيل ليهدمه، كما بعثه الرسول إلى جيفر، وعبدي بني الجلندي وهما من الأزد يدعوهما إلى الإسلام، فأجاباه إلى ذلك[٢] ولما وصل عمرو إلى المدينة، بعد وفاة الرسول، عقد أبو بكر أحد عشر لواء لحرب أهل الردة وعقد لعمرو فأرسله إلى قضاعة فعادوا إلى الإسلام، وعاد هو إلى المدينة حاملاً لواء النصر.

لما أراد القائد الأعلى للقوات العربية، أبو بكر الصديق، إرسال الجيوش لفتح أرض الشام، كتب أبو بكر لعمرو: إني كنت قد رددتك على العمل الذي ولاك رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة، ووعدك به

---

(١) د. حسن إبراهيم حسن – تاريخ عمرو بن العاص – ص١١٠.

(٢) ابن حزم، جوامع السيرة، مطبعة دار المعارف بمصر، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٢٤هـ، ص٢٠.

أخرى، إنجازاً لما وعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد وليته. وقد أحببت أن أفرغنك لما هو خير لك من الدنيا وأن لا يكون الذي أنت فيه أحب إليك: فكتب إليه عمرو: إني سهم من سهام الإسلام، وأنت بعد الله الرامي والجامع لها، فانظر أشدها وأخشاها وأفضلها، فارم به شيئاً إن جاءك من ناحية من النواحي). فعقد أبو بكر لعمرو وحدد له الطريق بقوله: (وإذا سرت بجيشك فلا تسر في الطريق التي سار فيها يزيد وأبو عبيدة، فإن كانا ظافرين بعدوهما فكن أنت لقتال من في فلسطين، وإن كانا يريدان عسكراً فأنفذ إليهما جيشاً في إثر جيش وقُدْ سَهْلَ بنَ عمرو وعكرمة بن أبي جهل والحارث بن هشام وسعيد بن خالد وإياك أن تكون وانياً عما ندبتك إليه، وإياك والوهن وأن تقول جعلني ابن أبي قحافة في نحر العدو ولا قوة بي له، وقد رأبت يا عمرو ونحن في مواطن كثيرة ونحن نلاقي من جموع المشركين، ونحن قلة من عددنا ثم رأيت يوم حنين من نصرنا الله عليهم[١].

ويروي الواقدي أن عمرو بن العاص قد بعث عبد الله بن عمر بن الخطاب أميراً على ألف فارس وأمرهم قتال طلائع قوات الروم التي وصلت أخبارها إلى عمرو بن العاص وكانت أن دارت معركة حامية الوطيس بين ألف من العرب المسلمين وعشرة آلاف من الروم وانتهت المعركة بنصر العرب وأسر ستمئة أسير. قام عمرو بن العاص باستجوابهم للحصول على المعلومات. ويعد أن قدر الموقف قرر ألا يلقى قوى العدو الرئيسية، فانسحب إلى الغور، غور الأردن، متجنباً لقاء الروم في معركة فاصلة، حتى انضم إلى القوات الأخرى.

---

(١) د. إبراهيم مصطفى المحمود، موسوعة السياسة والحرب عند العرب، مصدر سابق، ص٢٠٢.

- **التحليل:**

لقد قدمنا وصفاً موجزاً للأعمال العسكرية التي عملها العرب في المرحلة الأولى، أي توجيه **الجيوش الأربعة** قبل معركة أجنادين، وقد امتدت هذه المرحلة شهر ذي الحجة سنة ١٢ فبراير عام **٦٣٤** إلى شهر رجب ١٣ سبتمبر (أيلول) **عام ٦٣٥ أو ما يقاربه**، وانتهت بتحريرهم المقاطعات التالية: من الجنوب إلى الشمال: الشراة ومؤاب والبلقاء والجابية والغوطة. ثم محاصرة مدينة دمشق نفسها وبصرى. واحتلال حمص والتقدم في شمالها وهي نتائج لا يستهان بها. وكذلك أدرك جيش فلسطين نتائج جديرة بالذكر، فبسط نفوذه على معظم أجزاء هذا الأقليم، الجنوبية والشرقية، وكاد يحتله لولا أن عجل الروم بحشد قواتهم، وعزموا على منازلته في معركة فاصلة. ورأى قادة الجيش الرومي بعدما وصلت الحالة إلى هذا الحد، وبعد أن فقدوا القسم الجنوبي من بلاد الشام ما عدا دمشق وبصرى، وبعدما كادوا يفقدون فلسطين أن يبدأوا العمل، فزحفت قوات كبرى إلى حمص من أنطاكية بقيادة **تيودور** شقيق هيركليوس، والظاهر أنه ترك قيادة جيش فلسطين بعدما أكمل تجهيزه للبطريق **أريطبون** وجاء إلى أنطاكية طبقاً لأوامر أخيه فتولى قيادة جيشها وسار إلى حمص، وكانت خطته تقوم على ضرب جيوش العرب واحداً بعد الآخر وطردها إلى ما وراء الحدود. ومتى عرفنا أن حركة هذا الجيش بدأت وحركات جيش فلسطين في وقت واحد، أدركنا أن الروم كانوا يسيرون على خطة منظمة محكمة ترمي إلى سحق الجيوش العربية والقضاء عليها، وقد عهدوا بتنفيذها إلى جيش عظيم ما خامرهم شك في أنه سينيلهم أغراضهم، ويقضي على كل محاولة العرب لفتح الشام.

هـ خالد بن الوليد قائداً عاماً:

وضع هرقل خطة مضادة حين نميت إليه أنباء تقدم الجيوش العربية الإسلامية على أربعة محاور أدت إلى فشل كل ما رسمه أبو بكر في خطته،

فقد استغل هرقل تفوقه العددي الهائل لشغل كل جيش من الجيوش العربية بقوات تفوقه. وهكذا وقف ثيودروس (تذارق) على رأس تسعين ألفاً إزاء عمرو بن العاص. ووقف **(الفيقار بن نسطوس)** على رأس ستين ألفاً إزاء أبي عبيدة. أما شرحبيل بن حسنة فاستقبله الدراقسي على رأس أربعين ألفاً واستقبل (جرجه بن تدرا) جيش يزيد بن أبي سفيان، وقد أدت خطة هرقل إلى تثبيت جيوش المسلمين في مواضعها المتفرقة، في جنوب الشام، وبالرغم من نجاحها في إحداث الاختراقات الأولى، فقد عجزت عن القيام بعمليات التطويق الواسعة التي رسمتها. تبادل القواد العرب الرسائل والمشورة،فاتفقوا على الاجتماع كجيش واحد، وعلى أن يعلموا القائد الأعلى بالمواقف ليتخذوا قراراً بسرعة، واجتمعت القيادة العليا. وقد تداولت القيادة العربية العليا الموقف، فوجدت أنه من الصعب في تلك اللحظة تعبئة جيش جديد لأن ذلك يحتاج لدعوة المقاتلين من جميع أرجاء شبه الجزيرة وهذا بلا شك يستغرق وقتاً طويلاً. والجيوش العربية في الشام في أمس الحاجة للوقت.

لذلك قررت القيادة العليا أن أفضل الحلول هو اتخاذ وضع دفاعي في الجبهة الشمالية، فكتب القائد الأعلى أبو بكر إلى **خالد بن الوليد** يأمره بالسير بنصف قواته إلى الشام للانضمام إلى الجيوش العربية واثقاً من أن خفة حركة خالد كفيلة بوصوله بقواته إلى ميدان المعركة قبل حلول الساعة الحاسمة، وبعد انصراف خالد من الحج إلى الحيرة: كتب إليه أبو بكر رسالة جاء فيها: «..... أنْ سر بنصف الناس حتى تأتي جمع المسلمين باليرموك، فإنهم قد شجوا وأشجوا (تعبوا وأتعبوا)،...»[١]. دع أهل العراق واخلف أهله الذين قدمت عليهم وهم فيه، ثم امضِ مخففاً من أهل قوة من أصحابنا الذين قدموا معك العراق من اليمامة، وصحبوك من الطريق، وقدموا عليك من الحجاز،

---

(١) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، إصدار مطبعة الاستقامة، مصر، القـاهرة، ١٩٣٩م، الطبعة الأولى، ج٢، ص٥٨٤.

حتى تأتي الشام فتلقى أبا عبيدة بن الجراح ومن معه من المسلمين. وإذا التقيتم فأنت أمير الجماعة. واستخلف على العراق **المثنى بن حارثة** في النصف الباقي. ولا تأخذن نجداً إلا خلفت له نجداً. فإذا فتح الله عليكم، فارددهم إلى العراق وأنت معهم، ثم أنت على عملك. والسلام عليكم ورحمة الله».

كتبه في صفر ١٣هـ أبريل (نيسان) ٦٣٤. كان الوضع في الجبهة الشمالية (الشام) بحاجة إلى **خالد بن الوليد**. ففي الجبهة الشرقية سارت العمليات من نصر إلى نصر..... لم يخسر العرب معركة واحدة. واستتب لهم الأمر ما بين مدينة الرسول إلى ما يقترب من مدائن كسرى. أما في الجبهة الشمالية فالموقف جد مرتبك وليس لجيوش العرب المسلمين فيه حيلة. وإذاً فإن الجبهة الشمالية بحاجة إلى مدد جديد وإلى عقل جديد....... في حاجة إلى ذي فكر وعلم بالحرب. إذ ذاك قال أبو بكر: «**والله لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد**». وكتب إلى **أبي عبيدة بن الجراح**، قائد عام الجبهة الشمالية: «سلام الله عليك. أما بعد: فقد وليت خالداً قتال العدو فلا تخالفه، واسمع له وأطع، فإني لم أبعثك عليك ألا تكون عندي خيراً منه، ولكني ظننت أن له فطنة في الحرب، ليست لك. أراد الله بنا وبك خيراً، والسلام»[1].

شطر خالد الجيش العربي بينه وبين المثنى وانطلق من العراق في صفر سنة ثلاث وعشر للهجرة، وبتحديد أدق إنه كان في أوائل صفر، وقد أخذنا بذلك لما يؤيده من **رواية أخرى تقول:** إن خالداً حين بلغ الشام أتى مرج راهط، فأغار على غسان في يوم فصحهم، وبالبحث عن ذلك الفصح وجدنا أنه كان يوم الأحد يوم ٢٤ أبريل (نيسان) ٦٣٤ الموافق ١٩ صفر ١٣هـ، وإذاً فقد خرج خالد في صفر ١٣هـ.

خرج المثنى مع خالد يشيعه من الحيرة حتى قراقر، حيث قال له خالد:«ارجع رحمك الله، الى سلطانك غير مقصر ولا ملوم ولا وان» فعاد.

---

(١) الأزدي، فتوح الشام، نشر مؤسسة سجل العرب، سنة ١٩٧٠م. ص٨٦.

و طريق خالد:

ما زالت الطريق التي سلكها خالد مثار اختلاف الكتاب والمؤرخين والعسكريين، ولكن الواضح أنه كانت هناك طرق أربع، لابُدَّ له من سلوك إحداها في هذه المرحلة الشاقة، المحفوفة بالأخطار، **وهذا بيان عنها:**

- طريق الحيرة – عين التمر (العراق) – قراقر – سوى – أرك – تدمر – القريتين – الغوطة – بصرى.

- طريق الفلوجة – هيت – دير الزور – تدمر – حمص – النبك – القطيفة – دمشق – بصرى.

- طريق عين التمر – قراقر – هيت – كبيسه – بئر الملوحة – أبو الشامات – الضمير – عدرا – الغوطة – بصرى.

- طريق الحيرة – وادي حوران – الجوف – الزرقاء – البلقاء – اليرموك.

تلك هي الطرق التي كان على خالد أن يختار إحداها لجيشه وقد رجحنا الطريق الأولى للاعتبارات التالية:

كان خالد على عجل من أمره لنجدة قوات العرب المسلمين بالشام لذلك اختار هذه الطريق الصعبة والقصيرة. ولعله رفض الطريق الثانية على الرغم من كونها الأسهل، لوجود مراكز عسكرية معادية فيها مما يسبب له تأخيراً لا مصلحة له فيه، وإن انتصر عليها.

كما أنَّ خالداً رفض الطريق الثالثة، لأنها كانت طريق البريد الرسمي، وبالتالي فهي محشوة بالجند. ويستبعد سلوكه الطريق الرابعة لأن قطعها يحتاج إلى أيام أطول، مع أنه أسهلها وأقلها خطراً لعدم وجود قوات رومية في أنحائها. إن خالد بن الوليد لو اتبع إحدى الطرق الثلاث الأخيرة لما أتى من التعليقات ما أتى. وإن خالداً، عرف بالجرأة والجسارة دائماً.

كل هذه الاعتبارات، مع غيرها، تجعلنا نرجح سلوك خالد الطريق الأولى. ونرى أن القائلين بسلوك خالد طريق دومة الجندل، قد استندوا إلى رواية الطبري التي تقول: «ودَعَا خالد الأدلة، فارتحل من الحيرة سائراً إلى دومة، ثم طعن في البر إلى قراقر، ثم قال: كيف لي بطريق أخرج فيها من وراء جموع الروم، فإني إن استقبلتها حبستني عن غياث المسلمين...... ثم ركبوا من قراقر مفوزين إلى (سوى) وهي على جانبها الآخر من جبهة الشام».

ساروا أربعة أيام، وبعض الخامس، وفي اليوم مسيرة يومين (٤×٢×٤٥)= ٣٦٠ كيلو متراً، من قراقر إلى سوى هذه الرواية المعتمدة التي أدت إلى القول بسلوك خالد طريق دومة الجندل، ونحن لا نرى هذه الرواية حجة في هذا الشأن بل نراها على العكس من ذلك. فهي تقول: «ارتحل من الحيرة سائراً إلى دومة»، ولم تقل إلى دومة الجندل، والفارق بين دومة الجندل ودومة كبير، فدومة الجندل هي القرية ذات الحصون، على خط عرض ٣٠ شمالاً، وحوالي خط طول ٤٠ شرقاً، والتي تشرف على ملتقى طرق الحجاز إلى الشام بطرق العراق إلى الشام، والتي كان الرسول القائد قد بعث خالداً إليها من تبوك، وهي التي أعاد فتحها في أثناء في حروبه في العراق، فدومة الجندل، ذات شهرة في التاريخ الإسلامي، وهي التي انصرفت إليها الأذهان خطأ في طريق خالد من العراق إلى الشام، فحولته من الشمال إلى الجنوب، أما دومة فهي مكان آخر بصحراء العراق، وننقل هنا عبارة بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب صفحة ٢١١، وفي وصفه لبقاع بلاد العرب، قال: «ومنها دومة الجندل، كان رجل اسمه الأكيدر في بلدة قرب عين التمر في العراق تسمى دومة، وكان يزور أخوالاً له من بني كلب في أطراف الشام، فبينما هو يسير في بعض الطريق، إذ ظهرت له مدينة منهدمة لم يبق منها إلا بعض حيطانها، وكانت مبنية بأرض تسمى دومة الجندل، فأعاد الأكيدر بناءها وغرس فيها الشجر، وسماها دومة الجندل تفرقة بينها

وبين دومة العراق وكان بنو كلس ينزلون فيها وفي دومة الجندل من المباني العظيمة، «مارد»، وهو حصن كان مبنياً من حجارة سود....... الخ».

وحين فتح خالد دومة الجندل في غضون فتوحه في العراق عام ١٢هـ وقع الأكيدر بن عبد الملك في أسره فضرب عنقه. وفي رواية أخرى أن خالداً أرسله إلى المدينة، فظل بها أسيراً حتى أطلق سراحه، في خلافة عمر، فذهب إلى العراق، وأقام على مقربة من عين التمر بمكان اسمه دومة. نخلص من هذا كله إلى أنه كان هناك مكان اسمه دومة بنواحي عين التمر خلاف دومة الجندل المشهورة في التاريخ الإسلامي. دومة هذه هي التي عناها الرواة القدماء بلا ريب في سير خالد من العراق إلى الشام وليست دومة الجندل. إن دومة الجندل تقع على الطريق الطبيعي المألوف إلى الشام، ومن المعقول أن خالداً قد تجنب ذلك الطريق[1].

كما أن من يريد أن يتخذ طريقه من الحيرة إلى دومة الجندل لا يتجه شمالاً إلى عين التمر ثم إلى قراقر، وهو واد بالشمال من ناحية العراق. قال السكوني: «قراقر، وحنو ذي قار، وذات العجرم والبطحات - كلها حول ذي قار». ومن المؤكد أن «ذي قار» بنواحي العراق، وليست بنواحي دومة الجندل. ونقدر الموقع التقريبي لقراقر على خط طول ٤٢ وخط عرض ٣٣. إن خط السير من الحيرة إلى عين التمر، إلى دومة الجندل، إلى تدمر..... هذه الطريق حتى تدمر تزيد عن ألف ومئتي كيلو متر طولاً. ولا خلاف في أن خالداً بلغ نواحي تدمر في خمسة أيام، بمعنى أنه سار في اليوم الواحد مئتين وأربعين كيلو متراً على هذه الرواية، وهو رقم لا يقبله عقل، إذ إن مسيرة الإبل في اليوم أربعة وأربعون كيلو متراً. وقد ورد أن خالداً سار في اليوم قدر يومين، يعني زهاء ثمانية وثمانين كيلو متراً. وهذا أقصى ما يمكن

---

(١) ذكر ياقوت الحموي أن خالداً مرّ بدومة الجندل في طريقه من العراق الى الشام، معجم البلدان ٢/٥٥٥.

للعقل أن يقبله. كانت طريق جيوش العرب المسلمين بالشام إلى جزيرة العرب وإلى دومة الجندل طريقاً مفتوحةً متصلة. ولو أخذ بها خالد لما قال: «كيف لي بطريق أخرج فيها من وراء جموع الروم، فإني أن استقبلتها حبستني عن غياث المسلمين.....»(١) وإنما يدلنا هذا القول على أن خالداً سلك الطريق الشمالية إذ كانت الجزيرة تابعة للروم، وفيها حصون لهم وقواعد.

لقد مر بنا سابقاً اشتراكهم في معركة الفراض، وكانت الطريق المألوفة من الشمال، بين العراق والشام، تحاذي نهر الفرات، وتصعد معه إلى قرقيسيا، ثم تتجه إلى تدمر فأراد خالد أن يتلافى أي التحام بالروم قد يخرجه من هدفه، ويؤخره عن بلوغ المسلمين في الجبهة الشمالية قبل المعركة المرتقبة، ولذلك قرر الابتعاد عن طريق الفرات واجتياز المفازة.

يقول الطبري: «إن محرز بن حريش المحاربي - أحد أدلة خالد - قال له: «اجعل كوكب الصبح على جانبك الأيمن ثم أمه (اتخذه إماماً لك في سيرك، ودليلك)، تفض إلى سوى». فكان أولهم. ويقول ابن الأثير: إن محرز بن حريش، قال لخالد لما أراد أن يسلك المفازة من العراق إلى الشام: (اجعل كوكب الصبح على جانبك الأيمن ثم أمه تصبح). فجرب ذلك فوجده حقاً. ما هو كوكب الصبح هذا؟ وهل نستطيع اليوم أن نعرف أي كوكب كان؟ وإذا عرفناه فهل نستطيع أن نعرف وقت شروقه، واتجاهه في سماء العراق، بالنسبة لمن يراه من قراقر، بنواحي عين التمر، عندما انطلق خالد منها بجيشه؟ إذا عرفنا ذلك فسوف نستطيع الإفادة منه، وأن نبني عليه الكثير. يقول أحمد عادل كمال: كتبنا في ذلك إلى دائرة المعارف البريطانية نسألها، فأجابتنا مشكورة بالآتي: «إن كوكب الصبح هو كوكب الزهرة. وإنه في عام ٦٣٤م كان يرى في اتجاه الشرق، في برج الثور، لمدة ساعتين قبل

---

(١) د. إبراهيم مصطفى المحمود، موسوعة السياسة والحرب عند العرب، مصدر سابق، ص٢٠٧.

شروق الشمس، وإنهم حصلوا على هذه المعلومات المختصين بمرصد أدلر بشيكاغو لعدم وجود أي شيء عن هذا الموضوع في مراجعهم». ويقول أيضاً: وأردنا المزيد من التفصيلات، فاتصلنا بالمسؤولين في مرصد حلوان، فتفضل السادة المختصون به: الدكتور محمد خيري مدير المرصد، والدكتور حسن عبد الرحيم، والدكتور بليغ، بمقابلتنا، وشغلنا من وقتنا أكثر من ساعة. في تفاهم وتدارس، كانت حصيلته أنهم يؤيدون ما جاء في خطاب دائرة المعارف البريطانية، ثم أضافوا إليه التفاصيل الآتية:

إذا افترضنا أن خالداً بدأ رحلته، من قراقر، في الثالث عشر من إبريل (نيسان) سنة ٦٣٤م الموافق ٨ صفر ١٣هـ فإن كوكب الصبح الذي هو الزهرة، يشرق من نقطة تقع شمالي مشرق الشمس بما يقارب سبع درجات. وإن الشمس تشرق في ذلك اليوم في اتجاه يقع شمالي الشرق الجغرافي، بما يقارب ست درجات (إذا علمنا أن اتجاه الشمال الجغرافي هو زاوية صفر وتنطبق على ٣٦٠ درجة. وأن اتجاه الشرق هو ٩٠ درجة، والجنوب ١٨٠ درجة، والغرب ٢٧٠درجة، فإن شروق الشمس بناء على ما ذكرناه أعلاه يكون في اتجاه زاوية ٨٤ درجة، وشروق الزهرة في اتجاه زاوية ٧٧ درجة وذلك قبل أن نأخذ في اعتبارنا حساب تغير موضع القطب السماوي). إذ لفت الأساتذة – علماء مرصد حلوان – نظرنا إلى عامل له أثره على تلك الاتجاهات عبر الزمن الطويل، وينبغي أخذه بعين الاعتبار، وهو تغير موضع القطب السماوي، الأمر الذي تتغير معه زاوية شروق الشمس وجميع الكواكب، ولما قمنا بحساب ذلك[1] وجدنا أنه يضيف إلى الزوايا السابقة قرابة ٢٤ درجة في اتجاه شمال الشرق، بمعنى أن يكون شروق كوكب الصبح في ذلك التاريخ على حوالي زاوية ٥٣ في اتجاه الشمال الشرقي (الشمال الشرقي الجغرافي ٤٥ درجة)، بناء على ذلك، إذا أخذنا برواية ابن الأثير التي تجعل

(١) مجلة المعرفة العدد الثامن.

(الزهرة) على الجانب الأيمن، يكون خالد قد سار متجهاً إلى غرب الشمال بنحو سبع وثلاثين درجة، يعني في الاتجاه الذي تقيسه البوصلة المغناطيسية اليوم برقم ٣٢٣ إلى الشمال الغربي. وهو اتجاه معقول يطابق المسار الذي حددناه سابقاً ورسمناه على الخريطة(١).

هذا الدليل الفلكي الذي أورده أحمد عادل كمال جعلنا نميل إلى تحديد موقع قراقر داخل الصحراء، شرقي خط طول ٤٢ درجة بجهة ذي قار (كما ذكر السكوني) ويؤيدنا في ذلك قول الرواة كالطبري مثلاً..... «ثم طعن في البر إلى قراقر»، وهو تعبير فيه معنى الإيغال داخل الصحراء من عين التمر إلى قراقر. ويتفق هذا مع بعض أجزاء رواية الواقدي التي ذكرناها سابقاً، إذ يقرر أن خالداً خرج من سوى إلى الكواثل، ثم أتى إلى قريسياء، فخرج إليه صاحبها في خلق، فتركه وانحاز إلى البر، ومضى لوجهه وأتى أرك..... الخ، إذاً فإن الاستدلال السابق بكوكب الصبح يقودنا إلى ناحية قرقيسياء. أما إذا أخذنا برواية الطبري التي تجعل كوكب الصبح على الجانب الأيمن فإن هذا يقودنا إلى أن خالداً قد سار متجهاً إلى شرقي الشمال بزاوية قدرها ٥٤ درجة، وهذا يقود إلى داخل العراق، وليس إلى الشام. ولذلك نرى إلزاماً أن نستبعد هذه الرواية، وأن نعتبر روبية (الجانب الأيمن) هي الصحيحة. وهناك شاهد آخر لا يرقى إلى درجة الدليل، ولكنه قرينة، لها دلالتها في هذه الرواية، وهي أن محرز بن حريش، ينتسب إلى بني محارب، وهم من بني ربيعة، وقد كانت منازل بني ربيعة بشرقي شبه الجزيرة من سواحل الخليج جنوباً إلى نحو حيت بشاطئ الفرات شمالاً. فإذا كان الدليل – محرز بن حريش – من أهل تلك المنطقة فهو أمر طبيعي ومنطقي ويساير ما ذهبنا إليه. ولكنه من غير الطبيعي أو المنطقي أن يستخدم خالداً دليلاً من ربيعة في مرحلة تمر بدومة الجندل.

---

(١) أحمد عادل كمال، الطريق إلى المدائن، الطبعة الأولى، إصدار دار النفائس، بيروت عام١٩٧٢م، ص٢٠١.

إن ما أثبتناه. في البحث يتطابق في الرأي مع ما أورده أحمد عادل كمال في كتابه الطريق إلى المدائن، كما يتشابه مع ما أورده أمين سعيد في كتابه (حروب الإسلام مع الإمبراطورية الرومية)، ويختلف كلياً مع ما أورده كل من الجنرال كلوب في كتابه الفتوحات العربية الكبرى، واللواء خطاب في كتابه خالد بن الوليد، وما صمت عنه الدكتور شكري فيصل في كتابه حركة الفتح الإسلامي، كما اختلفنا في خط سير خالد بن الوليد مع الدكتور محمد أسعد طلس في كتابه (الخلفاء الراشدون) وهو القسم الثاني من كتابه تاريخ الأمة العربية، وإلا فماذا يعني إهماله لموقع دومة، في ذكر خط سير القائد خالد مع وجوده في الطبري، وهو مرجعه في كتابه.

خامساً - معركة أجنــاديــن:

كانت الجيوش العربية موزعة في مناطق أعمالها قبل معركة أجنادين، فأبو عبيدة في حمص، بعد أن حررها، وكذلك بقية القواد. كانت جيوش الروم تتقدم إلى بلاد الشام، فبعد أن تكاتب القواد وتشاوروا، وصلوا إلى القرار، وهو الانسحاب من مناطقهم والالتقاء في اليرموك، في حين أعادت القوات الرومية احتلال حمص ودمشق. تولى خالد بن الوليد قيادة القوات العربية في الجبهة الشمالية وقام بتقدير الموقف بناء على المعلومات المتوفرة لديه عن العدو. فهذا سيرجيوس يتعقب عمرو بن العاص الذي انسحب على محاذاة ضفة نهر الأردن الغربية قاصداً غور الأردن، وهذه جيوش الروم قادمة من الشمال.

آ تقدير الموقف واتخاذ القرار:

أدرك خالد – القائد العام للجبهة الشمالية – أنه أمام قوتين معاديتين: قوة قادمة من الشمال، وقوة قادمة من الجنوب، فأصبح أمام إحدى خطتين:

فإما أن يسرع فينحدر من جبال حوران وينضم إلى جيش عمرو بن العاص ويخوض وإياه معركة فاصلة بلقاء جيش سرجيوس والقضاء عليه. فيعزز بذلك مركز جناح الجيش العربي الأسير ويصون خط رجعته، ويوطد مركز العرب المسلمين في فلسطين وحوران وإما أن يجمع الجيوش العربية، ويوعز إلى عمرو بالانضمام إليه ويقف في مكانه بانتظار قدوم الروم فينازلهم مجتمعين. ويبذل جهده في التفوق عليهم، لكن خالداً قرر الأخذ بالخطة الأولى، لأن التغلب على جيش الروم في فلسطين وتشتيته يحفظ للعرب خط رجعتهم، ويعزز مركزهم وفي آن واحد يجعلهم في موقف يستطيعون فيه أن يهددوا جناح الروم الأيمن. وقد انحدر خالد من اليرموك إلى الجنوب بعدما أصدر أمراً إلى عمرو بن العاص، بأن يعدل خط مسيره، ويستدرج جيش الروم في فلسطين، ثم يأتيه من الخلف فيحمل عليه ويشتركان في النزال. ونفذ عمرو الخطة بإحكام، إذ ارتد نحو أجنادين.

التقت جموع العرب في أجنادين، فاتخذ قائد الجبهة الشمالية ترتيباً قتالياً وفق ما يتطلبه الموقف، وما لديه من إمكانات، فجعل معاذ بن جبل قائداً للميمنة، وسعيد بن عامر بن جزيم القرشي على المسيرة، وسعيد بن زيد بن عمر بن نفيل على الخيل، وجعل أبا الدرداء على الساقة[١]. وأمر خالد نساء العرب أن يحتركن (أي حرمن على الرجال ما كان مباحاً لهم معهن) ويقمن يدعين الله ويستغثنه، فلما مر بهن رجل من المسلمين دفعن أولادهن إليه، وقلن له قاتلوا دون أولادكم ونسائكم.

فعلاً فقد شمست خيل العرب من النشاب، إلى أن صدرت الأوامر من القائد العام للجبهة الشمالية بالهجوم بوساطة الخيالة على شكل سهم على العدو، وقيام المشاة العرب باستغلال الفرجة التي سيفتحها الخيالة. وفعلاً

---

(١) الأزدي، فتوح الشام، نشر مؤسسة سجل العرب، سنة ١٩٧٠م. ص٩٠.

انتصر العرب بتقديرهم الصحيح للأمور، وبخططهم العسكرية الناجحة، وبشجاعتهم الأسطورية، وعقولهم الراجحة، وعبقرياتهم الفذة.

ب آراء بعض المفكرين في أجنادين:

يقول «**روم لاندو**» **في كتاب (الإسلام والعرب)**: وبعد معركة أجنادين الدموية في الثلاثين من تموز عام ٦٣٤، فتحت أبواب فلسطين كلها في وجه الغزاة، وفي أيلول من عام ٦٣٥، وبعد حصار دام ستة أشهر، سقطت العاصمة السورية – دمشق – في أيديهم، وبذلك أمسى أول انتصار من انتصارات العرب على البيزنطيين حقيقة واقعة. ويقول «جون باجوت كلوب» في كتابه (الفتوحات العربية الكبرى): وقعت معركة عظيمة في شهر تموز من عام ٦٣٤ في أجنادين التي تقع بين الرمثة وبين بيت جبرين، ومني الروم بهزيمة كاملة، هكذا طاش سهم هرقل في معركة أجنادين، وتحطمت خطته السوقية لشن هجوم معاكس.

أما رأي الدكتور (شكري فيصل) في كتابه «حركة الفتح الإسلامي» فيتضح في قوله: «كان اللقاء الثاني في تموز من عام ٦٣٤ في أجنادين، وقد انتصر فيها المسلمون على قوات بيزنطة، والتي يقودها «أرطبون»، واضطروها إلى التراجع إلى القدس ويقول البلاذري في كتابه (فتوح البلدان): ولما انتهى خبر هذه الوقعة إلى هرقل، نحب قلبه وسقط في يده، وملئ رعباً، فهرب من حمص إلى إنطاكيا أمّا الدكتور (نبيه عاقل) فيقول في كتابه «الإمبراطورية البيزنطية»: ولم تأت سنة ٦٣٤م حتى كان العرب يشقون طريقهم في قلب ممتلكات الإمبراطورية البيزنطية، هذه الممتلكات المسترجعة حديثاً من أيدي الفرس.

جـ أسباب توجيه جيوش أربعة:

وزع القائد الأعلى للقوات العربية قواته على أربع فرق، ولم يجعلها في بادئ الأمر جيشاً واحداً لاعتبارات عدة أهمها: ضرورة تموينية: فقد

كان كل جيش يقوم بمؤونة نفسه من المنطقة التي يتجه إليها، فلم يشأ القائد الأعلى أبو بكر أن يزحمهم في منطقة واحدة، كي لا يحرجهم مدة طويلة في تموينهم(١).

- تشتيت جموع الروم:

إن الهجوم على أكثر من اتجاه يجعل العدو مجبراً على توزيع قواته إلى أكثر من جيش وبحركة سريعة تستطيع قوات العرب أن تجتمع لتقضي على العدو متفرقاً، أو تكون قوات العدو قد أنهكت من تنقلاتها الصعبة، بينما لن تغير هذه الحركات من العرب شيئاً، فهم خفاف ثقال بوقت واحد، ولا سيَّما والصحراء، سرهم، خلفهم.

- منع العدو من تطويق العرب:

فلو كان العرب منذ توجههم إلى الشام، جيشاً واحداً، لكان بوسع القيادة الرومية أن تقوم بحركة التفاف وتطويق فتستطيع بذلك القضاء على الجيش العربي. ولو كان، منذ تحركه، جيشاً واحداً لما أضحت تحركات الروم كمن يخبط خبط عشواء، ولأغناهم وضوح خط سير الجيش العربي الواحد والكبير، مع صعوبة إخفاء تحركاته، عن كثير من التحركات التي اضطروا إلى القيام بها في منطقة العمليات.

- سهولة تصعيد القتال في المكان المحدد:

وفي توزيع القوات العربية إلى أربعة أقسام يكون القائد الأعلى أبو بكر أكثر قدرة على المناورة بهذه الأقسام الأربعة، بالإضافة إلى منع الالتفاف عليها، إذ تستطيع الجيوش العربية أن يمد بعضها بعضها الآخر.

---

(١) اللواء الدكتور إبراهيم مصطفى المحمود، موسوعة السياسة والحرب عند العرب، ط١، دمشق ٢٠٠٨،ص٢١٢.

- **توزيع العمل وسرعته:**

يتيح هذا التوزيع للقوات العربية سرعة أكبر، لقلة أعدادها إذ ما قورنت بقوات الروم، بالإضافة إلى وضوح المهام وتعددها وتحقيقها في وقت واحد.

- **تدمير حاميات العدو:**

والهدف الكبير هو تدمير حاميات الروم في كل من فلسطين والأردن في نفس الزمن قبل وصول جيش الروم من قواعده في الشمال. فبعد القضاء على هذه الحاميات لن تكون عاملاً من عوامل الالتفاف والضرب من الخلف على القوات العربية.


الهيئة العامة
السورية للكتاب

الفَصْلُ الثَّانِي

العمليات الحربية الكبرى في بلاد الشام

اليرموك وعمورية

آ - تنظيم معركة اليرموك

تفرغ العرب، بعد معركة أجنادين، لحرب الجيش الأكبر القادم من الشمال بقيادة (تيودور). فقد كانت أجنادين معركة فاصلة، إذ تشتت بعدها جموع الروم في الجنوب، ولم يبق للروم ما يعلقون عليه آمالهم إلا أكبر جيوشهم وهو جيش (تيودور).

١ - خالد يقدر الموقف:

لقد كان قرار خالد نابعاً عن تصور وتقدير سابقين للموقف، فقد رأيناه في الفصل السابق، يقرر مهاجمة جيش الجنوب، وقد شتته في أجنادين كي يتفرغ لجيش الشمال، بعد أن أصبح مطمئناً لطرق تموينه وانسحابه إذا اقتضى الأمر، كما أصبح مطمئناً إلى عدم الغدر به على حين غرة من الخلف أو الجنب. إذاً فالقائد العام للجبهة الشمالية – خالد بن الوليد – لم يكن قراره وليد صدفة أو تسرع، بل كان قراراً مدروساً باللقاء الحاسم فهو يعلم أنه أمام جيش معاد متفوق عليه بالقوى والوسائل، ولكنه يعلم أنه قادر على الانتصار

عليه، فقد سبق له أن دحر جيوشاً أكبر من جيشه وبتفاوت كبير. كما يدرك أن قواته مؤهلة بعد أن تمرست بالقتال، تمرسها الطبيعي على شظف العيش، فهي ربيبة المعارك في ميادين العراق وميادين فلسطين. أما الأرض فهي عامل مساعد له، فالصحراء – حبيبة العرب – حامية لظهره وانسحابه وإمداده، وقد أمن المؤخرة والأجناب. من كل هذا نبع قراره باللقاء في اليرموك.

٢ - تيودور يقدر الموقف ويتخذ القرار:

إن المهمة الملقاة على عاتق تيودور، قد حددت له صفة مكان اللقاء، كما حددت ترتيب القتال، إذ كتب له هرقل: (أن اجتمعوا لهم، وانزلوا بالروم منزلاً واسع الطعن واسع المطرد ضعيف المهرب). وهكذا لم يجد تيودور مكاناً يحقق هذه الشروط أفضل من اليرموك والواقوصة. لقد علم تيودور أنه أمام عدو أقل منه عدداً، ولكن أخباره انتصارات دائمة، وهو يعلم أن لديه جيشاً كبيراً، كثيفاً مدرباً، وذا خبرات عالية، فهو الجيش المنتصر على جيوش كسرى منذ سنوات، ولكن تيودور أراد أن يتخذ الاحتياطات.

٣ - ترتيب قتال القوات الرومية والعربية:

لقد حدد ترتيب القتال في أمر المهمة، التي بعث بها هرقل إلى تيودور إذ قال له: على الناس: (التذارق – تيودور) وعل المقدمة (جرجه) وعلى مجنبتيه (باهان والدارقص)، وعلى الحرب (الفيقار) وأبشروا فإن (باهان) في الأثر مداداً لكم، ففعلوا[١]. والحقيقة أن اختيار المكان (اليرموك) كان من الجانبين معاً. إذ تثبت الروايات التاريخية أن قادة العرب قد تواعدوا اللقاء فيه مسبقاً، كما أمر هرقل قائده أن يقبع فيه. وقدبقي الروم نحو خمسة أسابيع باليرموك ينظمون صفوفهم ويعبئون قواعدهم، ويأخذون أهبتهم.

---

(١) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، مطبعة الاستقامة، القاهرة عام ١٩٣٩، ج٢، ص٥٩٠ س السطور ٢٢، ٢٣، ٢٤.

من المعروف، أن خالداً قد أبدع نظام الكراديس في فن الحرب عند العرب، إذ يقول الطبري: وخرج خالد في تعبئة لم تعبئها العرب قبل ذلك، فخرج في ستة وثلاثين كردوساً إلى أربعين[١] وجعل أبا عبيدة قائداً لكراديس القلب، وعمرو بن العاص قائداً لكراديس الميمنة، ويزيد بن أبي سفيان قائداً لكراديس الميسرة، وقباث بن أشيم على الطلائع. أما خالد نفسه فقد بقي في الوسط تحت راية العقاب، راية رسول الله، وحشد الرماة على الجناحين. وجعل أبا الدرداء قاضياً وأبا سفيان قاصاً، وعبد الله بن مسعود على الأقباض، والمقداد بن الأسود الكندي قارئاً (سورة الأنفال)[٢] كما جعل القائد العام النساء في الخلف وأمرهن أن يضربن من ينوي الفرار بأعمدة الخيام. والطبري يفصل أسماء قادة الكراديس.

- المفاوضات:

يذكر الطبري أن العرب قد فاوضوا الروم بحسب الشريعة الإسلامية، وهي عرض ثلاثة أمور هي:

الدخول في الإسلام - دفع الجزية في حالة الرفض - القتال في حالة رفض المطلبين. وقد ترأس وفد العرب أبو عبيدة وصحبه يزيد بن أبي سفيان والحارث بن هشام، وضرار بن الأزور، وأبو جندل بن سهيل. وكان من جانب الروم تيودور أخو الملك، وهو القائد العام الرومي، وأركانه، وكان قد أعد لهم ثلاثين سرادقاً من الحرير والديباج، فرفضوا الدخول، واكتفوا بعرض شروطهم.. فرفضها تيودور، فاستعدوا للقتال حتى جاءهم الفتح.

---

(١) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، مطبعة الاستقامة، القاهرة عام ١٩٣٩،ج٢، ص ٥٩٣ + البلاذري، فتوح البلدان، نشر الدكتور صلاح الدين المنجد. القسم الثاني ص١٨٤.

(٢) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، مطبعة الاستقامة، القاهرة عام ١٩٣٩، ج٢، ص٥٩٢ + ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ط١٣٠١هـ المطبعة الأزهرية ص٢٠٠ - ٢٠١.

- **وصف وادي اليرموك:**

وادي اليرموك هو أحد أودية حوران، يسير فيه ماء من أراضي الثريان – أراضي قرية إنخل – ويسمى بنهر السهرير ويمر بين شيخ مسكين ونوى، ثم بأراضي داعل، فطفس، ثم بجانب قرية قديمة تدعى تل الأشعري، وهناك ينحدر ماء نهر السهرير في وادٍ يقرب عمقه من ٥٠م ويزداد انخفاضه بالتدريج، مشكلاً شلالاً يُعرف بشلال اليرموك، يسير في هذا الوادي إلى جسر سكة حديد الحجاز بين محطتي زيزون والمقارن، وهو إلى المقارن أقرب. ويلتقي في جانب المقارن بمياه شلالي زيزون، وتل شهاب وبمياه وادي الشلال المنحدرة من أراضي ناحية (الرمثا) في الأردن. وهذا هو سر تسمية المحطة بمحطة المقارن، ويتابع نهر اليرموك سيره في هذا الوادي الذي يطلق عليه من محطة المقارن اسم اليرموك، أما من تل شهاب إلى المقارن فيسمى وادي تل شهاب، فوادي زيزون أو وادي الذهب، ويمر اليرموك بمحطتي وادي خالد ثم بأراضي سمخ إلى أن يصل إلى جسر المجامع فيصب هناك في نهر الأردن. وهناك المكان الذي أقيم فيه مشروع روتمبرلنغ الصهيوني لتنوير فلسطين[1]. والوادي الآخذ من تل شهاب إلى سمخ يبلغ طوله نحو ٥٨ كم ويقطع نهر اليرموك في محطة المقارن إلى جسر المجامع نحو٦٢ كم. أما من تل الأشعري حيث شلال اليرموك إلى جسر الدورة فلا يزيد طوله على ٨كم، وفي وادي اليرموك الآن محطة اسمها وادي خالد، تقع على بعد ١٨٠ كيلو متر من دمشق. يقولون إنها قد تكون أضيفت إلى خالد لأسباب لم نستطع كشفها بعد، ولا يمكن أن يحشد في جهات المحطة إلا بعض السرايا القليلة تتراوح بين خمسين ومئة وخمسين جندياً أو أكثر بقليل، وفيه آثار أحراش صغيرة،

---

(١) أمين سعيد، حروب الإسلام والإمبراطورية الرومية، إصدار مطبعة عيسة البابي الحلبي، مصر، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٣٥م، ص١١١.

وجبال وادي اليرموك، وتلاله صغيرة. والوادي ضيق، لا يمكن أن تجري فيه حركات عسكرية وهو لايصلح إلا لحرب العصابات والأفراد،(وقد كانت الحكومة العثمانية تعجز عن تعقب الجناة الذين يلجؤون إلى هذا الوادي). ويتصل بشماليه بأراضي الزاوية، ولا تزيد المسافة بين الوادي وغوطة دمشق في خط مستقيم عن ٨٠كم، وليس في الوادي سكان لضيقه، ومعظم القرى على طرفيه، ولا نذكر أن فيه مزرعة عامرة إلا المخيبة الواقعة على محطة الحمة. وفي جوار الوادي عرب يدعون المناظرة، ولعلهم أقيموا للمناظرة على الأمن والمحافظة على الطريق. والوادي من تل شهاب إلى سمخ يؤلف الحد الفاصل بين سورية وشرقي الأردن في هذه الأيام، فالأراضي الواقعة على ضفته اليمنى لسورية والأراضي الواقعة على ضفته اليسرى لشرقي الأردن(١).

- توزيع المهام القتالية لقوات العرب:

نستطيع أن نعتبر كل كردوس كتيبة وكل عشرة كراديس فرقة، وفقاً لمعطيات العلم العسكري الحديث، من هذا المنطلق أعط القائد العام المهام لفرق جيشه إذ جعل مهمة فرقة القلب التي يقودها أبو عبيدة قتال قلب العدو، ومهمة فرقة الجناح الأيمن التي يقودها عمرو بن العاص قتال جناح العدو الأيسر، كما أوكل لها مهمة الالتفاف حوله. ومهمة الفرقة اليسرى التي يقودها يزيد بن أبي سفيان قتال جناح العدو الأيمن. كما أعطى المهام لبقية الشخصيات الأخرى وهم: سعيد بن زيد وهو في المؤخرة، ومهمته حماية الظعن بخمسمئة مقاتل، والقصاص أبو سفيان والقاضي أبو الدرداء – وعلى الأقباض عبد الله بن مسعود، والقارئ المقداد بن الأسود الكندي.

---

(١) أمين سعيد – حروب الإسلام والإمبراطورية الرومية، مصدر سابق، ص١١١.

ب - سير الأعمال القتالية:

عبر مقارنات تشمْل جميع أسفار التاريخ التي كتبت عن معركة اليرموك، نستطيع أن نرجح أنها امتازت بخمس مراحل رئيسية:

١ - الهجوم العربي الأول وهجوم الروم المعاكس:

يجمع أغلب المؤرخين أنه لما عاد وفد أبي عبيدة من معسكر تيودور يحمل جوابه برفض الروم لما قدمه العرب من شروط، وفشل المفاوضات قام خالد بتوزيع المهام على الوحدات، وأعطى تعليمات قتالية مفصلة ملخصها أن يبدأ العرب الهجوم على محورين متباعدين من اليمين واليسار فيقوم الروم بهجوم معاكس شامل حيث يُفْسَح لهم في المجال قليلاً بينما تقوم فرقة عمرو بن العاص بمعركة التفاف على جناح العدو الأيسر يزداد معها تصعيد الهجوم على الجناح المعادي الأيمن. في هذه الأثناء تزداد المسافة بين مشاة العدو وخيالتهم فيختل عامل تفوق الروم الرئيسي حيث يتم سحقهم. تقوم مجموعات المشاة العربية بمعركة تطهير ومطاردة المشاة، وفي الوقت ذاته، تقوم فرق الخيالة بمطاردة خيالة العدو وهكذا أعطى خالد إشراة البدء لكتيبتي الاقتحام وهما كتيبة عكرمة بن أبي جهل وكتيبة القعقاع بن عمر التميمي (كردوسين) واستطاعا أن يتقدما في جناحي العدو، وهكذا تحققت الخطوة الأولى من الخطة العامة.

بعد فترة وجيزة من الوقت أعطيت إشارات الهجوم الرومي على قلب القوات العربية،وكان تقدير الروم أن القلب قد انكشف، واستطاعوا أن يحققوا شيئاً من التقدم حتى كادوا أن يصلوا إلى مقر القيادة العربية العامة، كما استطاع الروم أن يردوا هجوم كتيبة الاقتحام التي يقودها **عكرمة بن أبي جهل** حتى قلب القوات العربية. عند ذاك تحولت هذه الكتيبة مع مشاهير مقاتلي العرب إلى كتيبة استشهادية، إذ بايع ٤٠٠ فارس عكرمة على الموت واستطاعت الكتيبة الاستشهادية أن تغير مجرى القتال بعد أن سقط معظم فرسانها، وعلى رأسهم عكرمة.

٢ - حركة الالتفاف العربي وفصل المشاة عن الخيالة:

في هذا الوقت، وبالتزامن مع انكسار حدة هجمات الروم المعاكسة، قامت فرقة عمرو بن العاص بحركة التفافية عميقة في الجناح الأيسر، وفي الوقت ذاته صعدت هجمات العرب على الجناح الأيمن للعدو. فكان أن تفاعلت مبادئ الحرب وهي تخلق للعرب انتصاراتهم بعد أن ضربوا في المناورة والحركية العالية مثلاً يحتذى، كما فوجئ العدو بإبداع طرق عربية جديدة للقتال. كما استطاع العرب أن يحققوا وبشكل ممتاز مبدأ الاقتصاد بالقوى والوسائط ومبدأ الحشد.

إن العلم العسكري الحديث حين يدرس الحربين العالميتين الأولى والثانية، وبعض الحروب الصغرى، يركز على عملية فصل المشاة عن الدبابات، ولكن هذه الظاهرة قديمة في الحروب، وقد طبقها العرب في اليرموك، حيث أفسحوا في المجال لخيل الروم والتفوا على مشاتهم، فتحقق الفصل بين المشاة والخيالة، فأسقط في يد العدو.

٣ - المطاردة والانسحاب:

إن نجاح حركة الالتفاف، ونجاح حركة الهجوم العنيف على الجناح الأيمن بالإضافة إلى النجاح في فصل مشاة الروم عن خيالتهم، رفع من معنويات العرب، فبدؤوا هجومهم الحاسم، ففر خيالة الروم وطاردتهم خيالة **خالد** وفي الوقت ذاته هاجمت مشاة العرب من الجانبين مشاة الروم المقترنين بالسلاسل. فكان قرن المقاتلين وبالاً عليهم. **ويصف الطبري** عملية الفصل هذه وعملية المطاردة بالتالي: (ولما رأى المسلمون خيل الروم مقبلة، أفرجوا لها ولم يحرجوها، فذهبت، فتفرقت، وأقبل خالد والمسلمون على الرجّل ففضوهم، فكأنما هدم بهم حائط فاقتحموا في خندقهم، فاقتحم عليهم، فعمدوا إلى الواقوصة حتى هوى فيها المقترنون وغيرهم، فمن صبر من المقترنين للقتال هوى به من جشعت نفسه، فيهوى الواحد بالعشرة لا يطيقونه كلما هوى اثنان

كانت البقية أضعف، فتهافت في **الواقوصة** عشرون ومئة ألف مقترن، وأربعون ألف مطلق سوى من قتل في المعركة من الخيل والرجّل[١].

٤ - نظرة تحليلية:

لا شك في أن التفوق في العدد والعدة كانت موازينه لصالح الروم، فقد كان مجمل عدد الجيش العربي **ستة وأربعين** ألف فارس وفق أعلى أرقام المؤرخين، بينما كانت جيوش الروم تفوق العرب بخمسة أضعاف، فقد كانوا أكثر من مئتي ألف مقاتل بين فارس وراجل، ولكن العرب استطاعوا أن يربحوا المعركة بمجموعة من العوامل أهمها تفوقهم الساحق بالقدرة على المناورة والحركية العالية، بالإضافة إلى الروح المعنوية العالية جداً. إن المقاتل العربي قد امتاز عن المقاتل الرومي بميزات أهمها التعود على شظف العيش، فهم أبناء الصحراء، كما أن العربي يدفعه إيمان مطلق بفراديس النعيم بعد الشهادة كما أن العرب قد فاجؤوا الروم باختراع الركاب وبوساطته كان الفارس العربي أكثر قدرة على الثبات والحركة بوقت واحد.

كما أن الفرق ظاهر في العدة، إذ كان تجهيز الروم أكثر ثقلاً مما جعله عاملاً في التقليل من قدرتهم على الحركة وبالتالي حد من قدرة جيوش الروم على المناورة أيضاً **وكان للمرأة العربية دور كبير في هذه الحرب التحريرية،** فقد قامت بالعناية بالجرحى والمرضى، بالإضافة إلى توزيع الماء وإنشاد الأناشيد لإثارة حمية الفرسان العرب، كما كن يشتركن في القتال أخيراً، ولا نعرف بالضبط عدد نساء العرب اللواتي شهدن اليرموك وإنما نقول في مقدمتهن أسماء بنت أبي بكر الصديق وزوجة الزبير بن العوام وهند بنت عتبة زوجة أبي سفيان ووالدة معاوية وأم أبان زوجة عكرمة بن أبي

---

(١) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، مطبعة الاستقامة، القاهرة عام ١٩٣٩، ج٢، ص ٥٩٦ السطور السبعة الأخيرة.

جهل، ونسيبة بنت كعب، وغرة بنت عامر بن عاصم العمزي، ورملة بنت طلحة الزبيري، وإمامة، وزينب، وهند، ويعمر، وسمية بنت عاصم الخولاني، وعفيرة بنت غفار وغيرهن.

٥ - عمر قائد أعلى وأبو عبيدة قائد عام لجبهة بلاد الشام:

توفي القائد الأعلى أبو بكر الصديق ليلة الثلاثاء ٢٢ جمادى الآخر عام ١٣هـ الموافق ٢٣ آب عام ٦٣٤م بين المغرب والعشاء وهو ابن ثلاث وستين سنة، وكان قد سمه اليهود في أرز، وقيل في حريرة وهي الحساء فأكل هو والحارث بن كندة وقال لأبي بكر أكلنا طعاماً مسموماً بسم سنة، فمات بعد سنة ومرض خمسة عشر يوماً، فقيل له: لو أرسلت إلى الطبيب. فقال: قد رآني، قالوا: فما قال لك؟ قال لي: إني أفعل ما أشاء[١].

استخلف أبو بكر عمر بن الخطاب وبهذا أصبح عمر قائداً أعلى لقوات العرب وكان تاريخ تولية عمر هو تاريخ وفاة أبي بكر ذاته. ويقول الطبري: كان أول كتاب كتبه عمر حين ولي إلى أبي عبيدة يوليه على جند خالد: «أوصيك بتقوى الله الذي يبقى، ويفنى ما سواه الذي هدانا من الضلالة وأخرجنا من الظلمات إلى النور، وقد استعملتك على جند خالد بن الوليد، فقم بأمرهم الذي يحق عليك. ولا تقدم المسلمين إلى هلكة رجاء غنيمة ولا تنزلهم منزلاً قبل أن تستريده لهم وتعلم كيفما أتاه، ولا تبعث سرية إلا في كثف من الناس وإياك إلقاء المسلمين في الهلكة، وقد أبلاك الله بي وأبلاني بك، فاغمض بصرك عن الدنيا وأله قلبك عنها، وإياك أن تهلكك كما أهلكت من قبلك، فقد رأيت مصارعهم»[٢] وقد قدم بوفاة أبي بكر إلى الشام (شداد بن

---

(١) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، مطبعة الاستقامة، القاهرة عام ١٩٣٩، ج٣، ص٦١١، ٦١٢، + ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ط١، ١٣٠هـ، ج٢، ص٢٠٤.

(٢) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، مطبعة الاستقامة، القاهرة عام ١٩٣٩، ج٢، ص٦٢٢ + الأزدي، فتوح الشام ط١٩٧٠م نشر دار سجل العرب ص١٠٣.

أوس بن ثابت الأنصاري). ونرى أن عمراً قد عين أبا عبيدة لقناعته بقدرته وأسبقيته في الإسلام، ويؤكد بعض المؤرخين على خوف عمر من افتتان الناس بخالد بن الوليد.

جـ - خطة العرب العامة بعد اليرموك:

كتب القائد الأعلى إلى أبي عبيدة: أما بعد فابدؤوا بدمشق فانهدوا لها، فإنها حصن الشام وبيت مملكتهم، وأشغلوا عنكم أهل فحلٍ بخيل تكون في نحورهم، وأهل فلسطين، وأهل حمص، فإن فتحها الله قبل دمشق، فذاك الذي نحب وإن تأخر فتحها حتى يفتح الله دمشق فلينزل في دمشق من يمسك بها ودعوها. وانطلق أنت وسائر الأمراء حتى تغيروا على فحل، فإن فتح الله عليكم فانصرف وخالد إلى حمص، ودع شرحبيل وعمرو، وأخلهما بالأردن وفلسطين، وأمِّر كل بلد، وجند على الناس حتى يخرجوا من إمارته[١].

نستنتج من كتاب عمر بن الخطاب - القائد الأعلى - أن الخطة تتضمن النقاط التالية:

- البدء بمهاجمة دمشق لتحريرها. إرسال قوة حربية لمشاغلة الروم في فحل حين مهاجمة دمشق.
- إرسال قوة حربية لمشاغلة الروم في حمص زمن محاصرته لدمشق.
- في حال تأخر تحرير دمشق وامتداد زمن الحصار، يدع أبو عبيدة حولها قوة كافية ويقصد فحل فينجز أمرها بالاشتراك مع الجيش الذي يحاصرها - يقصد بعد تحرير فحل مع خالد وسائر القادة، حمص لتحريرها ويدع عمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة في فلسطين والأردن.

---

(١) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، مطبعة الاستقامة، القاهرة عام ١٩٣٩، ج٢، ص٦٢٥.

- إقامة نظام الإدارة في كل بلد، ويقيم فيه حامية عسكرية.

١ - معركتا فحل ومرج الصفر:

فحل إحدى المدن العشر التي بناها الإسكندر المقدوني، مثلها مثل فلادلفيا التي أصبحت الآن عمان، وفحل على مقربة من بيسان، وهذه واقعة على القرب من شاطئ البحيرة الجنوبي الغربي، ويؤيد ذلك ما رواه المؤرخون، وهو أن المسلمين ساروا من فحل إلى بيسان ففتحت لهم. نرجح أنَّ قسماً من الجيش العربي، قد توجه وفقاً للخطة الحربية العامة السابقة إلى فحل لتحريرها، أو شل القوات الموجودة فيها لحماية طرق الإمداد العربية، وقطع احتمالات إمداد الروم عن الطريق نفسه لاسيَّما من جهة البحر. قام الروم ببثق المياه، فأصبحت الأرض مستنقعاً. والقصد من ذلك عرقلة حركات العرب في هذا الميدان، إن لم يكن الهدف إيقاع العرب في هذا المستنقع.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن المارشال «هند برج» قد طبق هذه الخطة في بطاح مازوريا (بروسيا الشرقية) حينما غزى الروس تلك البقاع في الحرب العظمى في شهر آب عام ١٩١٥، فقد ظل يستدرجهم، حتى أوقعهم فيها، ثم أعمل في رقابهم السيف، وتسمى هذه المعركة معركة **تانبرج الكبرى**. أما العرب فقد وصلت خيولهم حين طرقوا المستنقعات ولقوا فيها عناء ولكنهم سلموا وحتى الروم فإنهم لم يقوموا بالهجوم على العرب في أثناء معاناتهم، وإنما اكتفوا بالاختفاء وراء حصونهم. ضرب العرب المسلمون الحصار على فحل، ونزلوا حولها حتى حرروها في شباط ٦٣٥م.

عندما غزا الجيش البريطاني دمشق عام ١٩٤١ قام الجنرال فيشي بمحاولة لإنقاذها، فدارت معركة مرج الصفر على بعد عشرين ميلاً إلى الجنوب من دمشق. كذلك لما تقدم العرب نحو دمشق حاول الروم الدفاع عنها

في مرج الصفر في شباط عام ٦٣٥ وانهزم الروم، واستمر العرب في تقدمهم نحو دمشق حتى وصلوها في أواسط آذار عام ٦٣٥[١].

٢ - تحرير دمشق:

لقد فتح النصر في معركة مرج الصفر طريق دمشق في وجه العرب، فزحفوا ولكنهم واجهوا تفوقاً رومياً في الهندسة العسكرية وبناء الحصون، في حين لم يكن العرب قد ألموا بمعدات الحصار إلماماً يتيح لهم فتح الدن الكبيرة مثل دمشق وهكذا كانوا أمام عائقين الفيلة في الشرق في حروبهم ضد الفرس، والحصون في الشمال والغرب في حروبهم ضد الرّوم. وقد واصل العرب الزحف إلى الغوطة عن طريق المزة، أي عن طريق الجنوب الغربي، فاكتسحوها حتى بلغوا، في تقدمهم، المدينة في أواسط **آذار عام ٦٣٥،** فضربوا نطاقاً حولها، فحاصروها وأقاموا القوى حول خمسة من أبوابها، وهي **الباب الشرقي – باب توما** (في الشمال الشرقي) **باب الفراديس** (الشمالي) – **باب الجابية** (حوران) – **الباب الصغير** (الجنوبي) **ويقول ابن عساكر:** إن أبا عبيدة نزل حول باب الجابية، وإن خالداً نزل حول الباب الشرقي، ومعه خمسة آلاف مقاتل، وإن أبا الدرداء كان ببرزه (أي أنه كان قرب حي الأكراد الحالي من أعلى دمشق) وإن المقاتلين العرب كانوا منتشرين حول أبوابها.

دام حصار دمشق زهاء ستة أشهر (محرم – رجب) حتى استطاع خالد أن يعبر خندق الماء وأن يرتقي الأسوار بوساطة السلالم مع مجموعة اقتحام، كان على مقدمتها **القعقاع بن عمرو التميمي ومذعور بن عدي،** ثم تسللت مجموعة الاقتحام الأبواب ففتحتها أمام قوات العرب. فلما أيقن الروم

---

(١) أمين سعيد، حروب الإسلام والإمبراطورية الرومية، مطبعة عيسى البابي الحلبي، ط١، مصر ١٩٣٥، ص١١٣.

أن لا مفر من الاستسلام فتحو الباب أمام **عبيدة بن الجراح** صلحاً، بينما كان دخول خالد بن الوليد عنوة. التقى القائدان في سوق النحاسين في وسط المدينة. حيث أبلغ أبو عبيدة خالداً أن قراره هو وقف القتال نظراً لتوقيعه عهداً لأهل المدينة بالصلح. وقد استسلمت المدينة على الغالب في شهر **آب وأيلول من عام ٦٣٥م**.

٣ - تحرير حمص:

لم يكن أمام قوات الروم إلا طريقان للانسحاب: الأول وهو سلوك طريق حمص شمالاً، والثاني وهو سلوك طريق (وادي بردى - البقاع) غرباً. وفعلاً فقد انسحبت قواتهم في هذين الاتجاهين. وبعد أن تم تحرير دمشق ولى أبو عبيدة يزيد بن أبي سفيان إدارتها. وكتب القائد العام للجبهة الشمالية إلى القائد الأعلى للقوات العربية عمر بن الخطاب يعلمه بتحقيق تحرير دمشق، وهو الهدف المحدد له سابقاً، ويطلب منه تعليمات جديدة عما تقتضيه خطة القيادة العربية العليا، فأمره الخليفة أن يمضي إلى الشمال ويواصل فتح البلاد ومطاردة الروم وأن يعيد الفرقة التي قدمت من الجبهة الشرقية إلى الجبهة الشمالية، نظراً لاحتياج تلك الجبهة لها، فقد أوشكت معركة القادسية على الوقوع. **ويؤكد الطبري وابن كثير القرشي** أن قوات العرب قد تابعت التقدم إلى حمص وفقاً لتعليمات القائد الأعلى، ووصلتها **في خريف ٦٣٦م** الموافق ١٥ هـ . وقد دام حولها الحصار طوال الشتاء حتى استسلمت صيفاً[1]. **وينفرد الواقدي** بذكر قتال أبي عبيدة إذ يقول: فلما اقترب من حمص من موضع يقال له الزراعة، وجه على مقدمة جيشه **ميسرة بن**

---

(١) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، مطبعة الاستقامة، القاهرة عام ١٩٣٩م، ج٣، ص٩٧ +ابن كثير القرشي، البداية والنهاية في التاريخ، ط مطبعة السعادة، ج٧، ص٢٤١ +محمد كرد علي، خطط الشام، ط١٩٦٩م، ص٨٨ + الواقدي، فتوح الشام، ج١، ص١٣٠، ١٣٤.

مسروق العبسي، وعقد له راية سوداء معلمة بالبياض، وضم إليه خمسة آلاف فارس...... وأرسل بعده **ضراراً بن الأزور** في خمسة آلاف فارس، وبعث بعده **عمرو بن معد يكرب الزبيدي**، وقدم أبو عبيدة ببقية الجيش (هذا في ص١٣٠).

ويقول في صفحة ١٣١: وقسم الأمير أبو عبيدة عسكر المسلمين إلى أربع فرق، فبعث فرقة مع المسيب بن نجية الغزاوي فنزل بهم على باب الجبل مما يلي الصغير، وبعث فرقة أخرى مع المرقال بن هشام بن عقبة بن أبي وقاص، فنزل بهم على باب الرستن، وبعث فرقة أخرى مع يزيد بن أبي سفيان، فنزل على باب الشام، ونزل الأمير أبو عبيدة وخالد على باب الصغير.

٤ - تحرير الرستن:

بعد أن فتحت حمص، سار الأمير أبو عبيدة بالعسكر حتى نزل على الرستن فرآها حصناً منيعاً، وفيها ماء غزير، وهي مشحونة بالرجال والعدد العديد، فبعث إليهم رسولاً رفضوا شروطه[١] عند ذلك دعا أبو عبيدة أهل الرأي والمشورة، واتفقوا أن ليس لهم من سبيل لفتح الرستن إلا بالحيلة والخديعة. ورسم قائد الجبهة الشمالية خطة، ملخصها أن أبا عبيدة طلب من بطريق الرستن **(نقيطاس)** أن يستودعه أحمالاً فوافق، فجعل من فرسانه عشرين فارساً في عشرين صندوقاً، وجعل أقفال الصناديق من الداخل، وأمرهم بالانقضاض من أماكنهم، وفتح الأبواب ليلاً، وكان أول من دخل الصناديق: ضرار بن الأزور – المسيب بن نجيبة – وذو الكلاع الحميري – وعمرو بن معد يكرب الزبيدي – والمرقال – وهاشم بن نجعة – وقيس بن هبيرة – وعبد الرحمن بن أبي بكر الصديق – ومالك بن الأشتر – وعوف بن سالم – وصابر بن كلكل – ومازن بن عامر – والأصيد بن سلمة –

---

(١) الواقدي،فتوح الشام، ص١٣٢ – ١٣٥.

وربيعة بن عامر..... وغيرهم. وارتحل الأمير أبو عبيدة وسار حتى نزل قرية يقال لها: (السودية)، فلما أظلم الليل بعث خالد بن الوليد بجيش الزحف إلى الرستن، وسار على رأسه، فكان أن نجحت الخطة، وتم تحرير الرستن.

٥ - تحرير قنسرين وحلب:

قنسرين هي من قواعد الروم العسكرية الكبرى في الشمال، ويبدو أن قوات الروم العسكرية قد حشدت بشكل كبير فيها استعداداً لمعركة كبيرة قرروا خوضها مع العرب. لأن خالداً كان قد انفصل عن أبي عبيدة وسار إلى قنسرين فالتقى في (الحاضر)، وهو مكان بجوار قنسرين، بجند كبير للروم بقيادة **ميناس**، من كبار رجالهم العسكريين، وكان الروم يطمعون أن يصدوا العرب في هذا الميدان، ويمنعوهم من الاستيلاء على قنسرين لأنَّ الاستيلاء عليها معناه فتح طريق إنطاكيا وهي في غرب حلب الشمالي، وفتح المنطقة الشرقية الواسعة حولها (منطقة الفرات)، والمنطقة الساحلية[١] وقد دارت معركة عنيفة بين الفريقين انتهت بانتصار العرب[٢] فاستولوا على الحاضر وقنسرين وحلب وذلك عام ١٧هـ، وصالحتهم على مثل صلح دمشق وحمص، ودانت لهم قواعد الشمال الكبرى، كما أصبح في استطاعتهم أن يتصلوا بجيشهم في جنوبي العراق من هذه الناحية.

٦ - فتح ساحل الشام:

تقدمت القوات العربية لتحرير ساحل الشام من إسكندرون وحتى صور تمشياً مع الخطة العامة للجبهة الشمالية وأوامر القائد الأعلى، على محورين وهما:

---

(١) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، مطبعة الاستقامة، القاهرة عام ١٩٣٩، ج٣، ص٩٨.

(٢) الجنرال جون باجوت كلوب – الفتوحات العربية الكبرى، تعريب خيري حمّاد، الطبعة الأولى، العراق. مكتبة المثنى، بغداد عام ١٩٦٣، ص٣١٤.

محور الطريق الرومي القديم الممتد بين حلب وطرطوس، ويبلغ طوله ٢٩٨كم، ماراً بالمناطق التالية: معرة مصرين – سرمين – بوقا – جبلة – بانياس – الخراب – طرطوس. وهذا هو الطريق الذي اتبعه أبو عبيدة بن الجراح.

المحور الثاني: ويبدأ من دمشق – بيروت – صيدا – صور، وهذا هو الطريق الذي اتبعه يزيد بن أبي سفيان الذي عاد أيضاً باتجاه الشمال حتى وصل بيروت ثانية، ثم تابع شمالاً حتى فتح طرابلس أما إنطاكية التي بناها سلوقس عام ٣٠٠ق.م في سفح جبل سيليبوس إحياء لاسم أبيه أنطيوخس. والتي تقع في شمال حلب الغربي وتبتعد عنها حوالي ١١٢كم. فقد فتحها أبو عبيدة بعد فتح حلب وقنسرين. فاستولى عليها صلحاً بعد حصار لم يدم طويلاً. بين جبل أمانوس وجبل قزل طاع – الجبل الأحمر – أمّا مضيق بيلان أو (بفراس) وهو يبتعد عن إسكندرونة نحو ١٣كم وعن إنطاكية ١٥كم. فلم يلق العرب مشقة في احتلاله، وهزموا القوات التي رابطت فيه، وبذلك تم فتح شمالي بلاد الشام.

٧- فتح كيليكيا:

تقع هذه المنطقة في السهل القائم بين جبل اللكام (أمانوس) وجبال طوروس، ويحدها المتوسط من الجنوب. ومن أشهر مدنها «أذنة» و«مصيصة» و«حاجيل» و«أياس» وسكانها العرب – الآن – ممنوعون من التخاطب بلغتهم. فتح العرب كيليكيا عام ٢١هجرية بقيادة أبي عبيدة بن الجراح إذ يروي الواقدي أنه قد أرسل مسيرة بن مسروق العبسي، وقد اتبع الطريق التالية:

(حلب – عمورية – أذنة). كما تابع فتحها هاشم بن عتبة عام ٢١هـ.

٨ - تحرير كامل فلسطين:

لقد أوضحنا سابقاً أن القائد العام للجبهة الشمالية، أبا عبيدة بن الجراح، قد وجه الجناح الرئيس لجيشه إلى الشمال لتحرير دمشق – حمص – حلب.... وغيرها، كما وجه الجناح الآخر إلى الجنوب لتحرير فلسطين بقيادة عمرو بن العاص وقد عبأ **عمرو بن العاص قواته على المنوال التالي:**

ــ معاوية بن أبي سفيان، الذي كان في جيش أخيه يزيد، كلِّف بقيادة حملة لمحاصرة قيسارية لمنازلة حاميتها، وقتالها ومنعها من إنجاد حصون أجنادين.

ــ علقمة بن حكيم ومسروق بن فلاك العكي كلفا بمهمة حصار القدس.

ــ أيوب بن المالكي كلف بمهمة حصار الرملة.

ــ علقمة بن محرز كلف بقيادة الحملة إلى غزة.

ــ عمرو بن العاص، قائد الجناح الجنوبي من الجيش العربي، وقد تولى محاصرة أجنادين.

ودارت بين العرب والروم معارك طاحنة في المناطق التي نزلوها. فقد قاومت حامية أجنادين بالدفاع عنها بقيادة «أريطيون» حتى استسلمت في منتصف السنة الخامسة عشرة، حيث انسحب قائد الحامية، وانضم للقوات الرومية في القدس، وتولى عمرو بن العاص القيادة من علقمة بن حكيم ومسروق بن فلاك العكي، ودام الحصار حتى جنح الروم إلى السلم ولكنهم اشترطوا أن يتم على يد القائد الأعلى الخليفة عمر بن الخطاب.... وكان ذلك.

أما أيوب المالكي فقد استمر في حصار الرملة حتى جنحت للسلم على يد عمر بن الخطاب فكان ذلك أيضاً. أما قيسارية مع عسقلان فقد بقيتا تقاومان حتى استسلمت قيسارية عام ٢٢هجرية. وفي عام ٢٣هجرية فتحت

عسقلان. ولقد كان فتح عسقلان خاتمة فتح فلسطين وانتهاء الأعمال الحربية في الجبهة الشمالية في تلك الفترة.

٩ - حملة عمورية في القرن التاسع للميلاد ٢٢٣ هـ الموافق ٨٣٧ م:

حين انتهى المعتصم من محق بابك، عزم على قصد إمبراطور الروم بكل قواته، ليثأر لهزيمة السنة الماضية. وكان الغرض الأول غزو عمورية، ويروي مؤرخو العرب أن المعتصم سأل، حين انتصر على بابك، أي حصون الروم أمنع وأقوى. فقيل له: عمورية، فإنه لم يقصدها مسلم منذ ظهور الإسلام، وهي عين الروم، وهي عند الروم أشهر من قسطنطينية. وتنبأ المنجمون أن وضع الكواكب ينبئ بفشل الحملة، ولكن الخليفة لم يعر ذلك اهتماماً أو أي إصغاء، وغادر المعتصم عاصمته سامراء أول إبريل عام ٨٣٨ على رأس قوات كبيرة لم يجتمع لخليفة من قبل مثلها – فيما يروي الطبري – ولا مثل سلاحها ومؤونتها ومساقيها المستقلة وبغالها ودوابها وقربها المختلفة والآلات الحديدية والنفط، ويتراوح تقدير الجيش بين مئتي ألف فارس وخمسمئة ألف.

كان على مقدمة الجيش أشناس وهو تركي، ومحمد بن مصعب، وعلى الميمنة **أيتاخ** التركي، وعلى الميسرة **جعفر بن دينار** بن عبد الله الخياط، وعلى القلب **عجيف بن عنبسة**، ونقش المعتصم الألوية والتروس: «عمورية». ووقف الجيش على مسيرة يوم من طرسوس على نهر اللامس، وكان هذا النهر موضع تبادل الأسرى عادة بين الروم والعرب. وفي أثناء ذلك كان تيوفيل قد غادر قسطنطينية ووقف عند دروليه على مسيرة ثلاثة أيام من عمورية، وبلغته الأنباء بعظمة الجيش العربي، فحمل ذلك كثيراً من كبار الموظفين والقواد على نصح الإمبراطور بإخلاء عمورية من سكانها إلى مكان آخر منعاً لسفك الدماء، ولكن **تيوفيل** رأى في ذلك جُبناً لا يليق به، وآثر أن يحصن عمورية وأن يعهد حمايتها إلى قائد مجرب وهو **أيتيوس**،

وكان حينئذ البطريرك الاستراتيج لجند أناطولية، وبعث إلى عمورية أمداداً جعل عليها الخصي **تيودور كراتيروس**[1].

وقرر المعتصم غزو أرض الروم من جهات مختلفة، فبعث الأفشين حيدر بن كاوس مع قسم من الجيش نحو مدينة سروج الواقعة على ثلاثة عشر فرسخاً من سميساط وأمره أن يدخل من ناحيتها أرض الروم، في يوم محدد، عن طريق درب الحدث، ويظهر أن انضم لهذا الجيش جند من الأرمن وأمير ملطية، وكان الترك أكثر مَنْ مع أشناس، واجتمعت كل هذه الجنود وعسكرت عند سهل داسيموس الخصب – وهو اليوم (كازا أوفا) – قرب طرخال على نهر إيريس.

أما الخليفة فكان يتهيأ في الوقت نفسه للسير إلى أنقرة. فإذا أخذها اتجه إلى عمورية، وفي يوم الأربعاء ٢٢ رجب سنة ٢٢٣ هـ (١٩ يونيو ٨٣٨) أمر الخليفة أشناس أن يتقدم في درب طرسوس إلى مدينة الصفاف الواقعة قرب لؤلؤة – على الطريق الموصل بين أبواب كيليكيا والطوانة. ثم سار المعتصم، يوم الجمعة ٢٤ رجب (٢١يونيو)، وبلغه وقتئذ أن جيش الروم قرب الهليس – ويقول الطبري: قرب اللامس – على أهبة عبور هذا النهر ومفاجأة العرب. فبعث المعتصم خطاباً إلى أشناس، وكان وقتئد قد بلغ مرج الأسقف يبلغه عن جيش الروم، ويأمره أن يتقدم (يعني ألا يعبر الهليس ما دامت الساقة وقافلة الأمتعة والبالست والمؤن لم تلحق به) ولم تكن الساقة ومن معها قد خرجت من الدرب بعد. ومضت ثلاثة أيام ثم تسلم أشناس كتاباً من المعتصم وجيشه. فبعث أشناس لذلك عمر الفرغاني على رأس مئتي ألف فارس جابوا حول حصن قره، الذي عرفناه، ولكن قائد الحصن علم بالأمر فاستقر بفرسانه على جبل عال محيط برستاق قره ودره، وترقب فيه العرب،

---

(١) الدكتور إبراهيم مصطفى المحمود، موسوعة السياسة والحرب عند العرب، مصدر سابق، ٢٢٦.

وعلم عمر الفرغاني في الوقت المناسب بالكمين الذي وضع له، فقصد دره. فلما جاء الفجر قسم جيشه ثلاثة أقسام، جعل لكل قسم دليلين وأمرهم بتصيد أسرى من الروم ففعلوا ما أمرهم به، وأخذوا كثيراً من جند الروم وسكان الناحية، وعلموا منهم أخباراً هامة أدلى بها فارس رومي. عبر اعترافه بأن الإمبراطور معسكر بجيشه فيما وراء الهليس على أربعة فراسخ منه، وأن قائده قره يتهيأ في هذه الليلة لإعداد كمين في الجبل ليفاجئ به العرب. وخشي عمر أن تقع بعوث الطلائع في هذا الكمين، فأنزل أدلاء لإنذارهم بما يتهددهم، وأمرهم بالقفول إليه. فاجتمعت البعوث وعادت نحو أشناش، بعد أن أخذت عدداً كبيراً من أسرى الروم فأفضت إليه بما جمعت من المعلومات، وفيما يلي مضمونها:

إن الإمبراطور معسكر منذ ٣٠ يوماً وراء الهليس يترقب مرور المعتصم للوثوب عليه. وأنه علم حديثاً أن تيوفيل بلغه أن جيشاً عربياً دخل أرض الروم من ناحية جند أرميناك وهو الجيش الذي كان قد اتجه إلى سروج – كما عرفنا – ولذلك عين الإمبراطور أحد قرابته على الجيش المعسكر على الهليس، وسار بنفسه بجزء من الجيش للقاء الأفشين. ولما بلغ أشناس هذا الخبر الهام، أسرع فأداه إلى المعتصم، وأراد المعتصم أن ينذر الأفشين بسير إمبراطور الروم إليه. فأرسل لذلك طلائع من جيشه، وأمر أشناس أن يفعل مثل ذلك. وجعل عشرة آلاف درهم لمن يبلغ الأفشين خطاب الخليفة الذي ينذر فيه الأفشين بسير جيش تيوفيل، ويأمره أن يتوقف حيث هو لا يتحول.

ولكن الأفشين كان قد توغل في أرض الروم فلم يبلغه أي كتاب. وفي أثناء ذلك أمر الخليفة أشناس أن يتقدم بعد أن ضم إليه ما وعده من مدد. وسار الخليفة وراءه، وبينهما مسيرة يوم، ولم يكن عندهما أي خبر عن مصير الأفشين. وكان جيش الخليفة لا يجد ما يكفيه من الماء؟ تقول رواية

انفرد بها ميشيل السوري إن أشناس استولى على (نيسيا) المتهدمة، فهدم قلعتها، وهي بين الصفاف وأنقرة، والمقصود كما يقول بيوري هي مدينة نيسا الواقعة جنوبي الهليس. فلنا أن نفرض أن نيسا كانت المرحلة الأولى.

وقصد أشناس بعد ذلك أنقرة، فلما كان على ثلاثة أيام منها جاء شيخ من بين الأسرى كان يتوقع القتل، فقال له: (ما تنتفع بقتلي وأنت وعسكرك في ضيق، ومعنا قوم قد هربوا من أنقرة خوفاً من أن يحاصرها ملك العرب، وهم بالقرب منا، معهم الطعام والشعير وغيرهما، فوجه معي قوماً لأسلمهم إليهم وخل سبيلي). فسير معه خمسمئة فارس من أهل القوة، ودفع الشيخ إلى مالك بن كيدر وقال له: متى أراك هذا الشيخ سبباً كثيراً أو غنيمة كثيرة فخل سبيله، وسار هو بعد ذلك إلى أنقرة وكان بها موعده مع مالك بن كيدر وكانت أنقرة في ذلك الوقت حصناً قوياً. وسار بهم الشيخ فأوردهم في الماء على واد سرح فيه الجند دوابهم وأكلوا وشربوا، وقادهم الشيخ في جبل ليلاً، فأوجس الجند خيفة، وظنوا أن الشيخ يضللهم، وقالوا ذلك لمالك بن كيدر، فسأل ابن كيدر الشيخ، **فأجابه:** «هم على حق فإن من نسعى للقائهم ليسوا في الجبل، ولكني أخشى إن خرجنا من الجبل ليلاً أن يسمع العدو وقع حوافر الخيل في الصخر فيهربوا، فإذا خرجنا من الجبل ولم نجد أحداً فلك أن تقتلني ولكني سأقود الناس إلى الجبل حتى الصبح، فإذا كان الفجر قصدناهم ودللتك عليهم، وأمنت القتل».

وقر الرأي على الراحة في الجبل ليلاً وفي الصباح أرسلوا الشيخ مع أربعة رجال يصعدون الجبل فوجدوا رجلاً وامرأة. سألوهما عن أهل أنقرة وأين قضوا ليلهم؟ فأجابوا طلب الشيخ شرط أن يطلقهما. وأسرع جند مالك قاصدين مناجم الملح القريبة بعد أن عرفوا أن سكان أنقرة يختبئون فيها، فلما رأى رجال أنقرة قرب الجيش منهم، أمروا الأطفال والنساء بالاختباء في المناجم، وتقدموا بأنفسهم للقتال فهزمهم العرب واستخرجوا من أسراهم

معلومات هامة. فعلموا أن كثيراً من أهل أنقرة اشترك في معركة نشبت بين الإمبراطور والأفشين.... وكانت أخبار الأفشين منقطعة منذ زمن طويل. أما وقعته مع الإمبراطور فقد وقعت كما يأتي:

كان الإمبراطور على أربعة فراسخ من الهليس إذ بلغه أن جيشاً عربياً دخل أرض الروم من ناحية جند أرميناك. فجعل على قيادة جيشه - كما رأينا من قبل - أحد قرابته وأمره ألا يتحول وألا يجهد نفسه ليوقف تقدم العرب إلا إذا دعا ذلك إلى شيء وأن يتجنب إنشاب معركة نظامية. وسار الإمبراطور بنفسه على رأس جيش من الروم والفرس، وقصد لقاء الأفشين في جند أرميناك. وكان مع توفيل، منويل، وكان معه أيضاً تيوفوب الفارسي. ووقف جيشه غير بعيد من دازيمون، وهي درمانا القريبة من ترخال اليوم، على كثب من جبل يسميه جينزيوس وصاحب الصلة (أنزن).وفي اليوم السابق على الاشتباك استشار أصحابه في أي الأمرين أحسن: إنشاب المعركة ليلاً أم نهاراً وانقسمت الآراء وكان منويل وتيوفيل يفضلان الليل، ومع ذلك انتصر الرأي المعاكس، وابتدأت المعركة في أولى ساعات الصبح من يوم الخميس ٢٥ شعبان (٢٢يوليو) وهبت ريح النصر أول الأمر على الروم، فأوقعوا برجال العرب المسلمين خسائر كبيرة حتى هربوا، ولكن ما إن حل الظهر حتى حول فرسان العرب الموقف، فانهزم الروم وهربوا وانقطع نظامهم، وطالت المعركة حتى الليل وكان أكثر الروم لا يعلمون أين كان الإمبراطور، وافتقده بعضهم في المعسكر فلم يجدوه. فارتد قسم من الجيش نحو الهليس، وهناك علموا بنبأ محزن، وهو أن الجيش الذي تركه تيوفيل هناك لم يطع قائده قريب الإمبراطور، وتفرق[١].

---

(١) الدكتور إبراهيم مصطفى المحمود، موسوعة السياسة والحرب عند العرب، مصدر سابق، ٢٢٨.

أما تيوفيل فإنه مكث في ميدان القتال زمناً بعد هرب جنده، ولم يكن معه إلا رؤساء جيشه وعلى رأسهم منويل والحلفاء الفرس - ولم يوقف العرب هجومهم، مع أنهم لم يكونوا لينالوا من وراء الهجوم شيئاً، وذلك أن المطر أرخى أوتار سهام المطاردين من الترك - وعلم **تيوفوب** آخر المفاوضات بين الفرس والعرب، وكان الغرض منها أن يخذل الفُرس **تيوفيل**، فلما سمعها دعاه وفاؤه إلى جمع جماعة ممن تمّ إخلاصهم للإمبراطور فأقنعوه بالهرب. فأفسح الإمبراطور لنفسه طريقاً بين جند العدو، وسار حتى بلغ (خليوكومن) وهو سهل شمالي أمازيا، فجمع به فلول جيشه الهارب، وتروي بعض التواريخ الرومية أن القواد الذين هربوا من المعركة سجدوا عند قدمي تيوفيل وتجردوا من سيوفهم وحكموا على أنفسهم بالموت. ولكن الإمبراطور كان يحس أنه - نفسه - لم ينج من الخطر إلا برحمة ربانية فرحمهم وعفا عنهم.

ثم عاد الإمبراطور مع جنده ليسير إلى موضع جيشه الذي تفرق، فأمر بقتل قائده، وأرسل أمره إلى المدن والحصون أن يقبضوا على الهاربين ويجلدوهم ويبعثوا بهم لحرب العرب وأرسل خصياً من خصيانه إلى أنقرة لحماية أهلها إذ جاءها المعتصم محاصراً. ولكن الخصي وصل متأخراً وذلك بعد فوات الفرصة وبعد أن خرج أهل أنقرة من مدينتهم والتجؤوا إلى الجبال.

فلما سمع الإمبراطور ذلك أمر الخصي بقصد عمورية. أما هو فارتد إلى درولیه (ويروي جنزيوس أنه ارتد إلى نيقيه) وأمر أن تأتيه الأنباء عن مدينته التي ولد بها (**عمورية)**. كانت تلك الأنباء هي ما سمعه مالك ممن أسر من أهل أنقرة، فلما علمها أطلق سراحهم وسراح نسائهم وأطفالهم، وأطلق سراح الشيخ كذلك.

ويضيف ميشيل - المؤرخ السرياني - واقعة دقيقة وهي أن نبأ موت الإمبراطور ذاع في القسطنطينية، بعد أن هزم الأفشين توفيل فهمَّ الشعب

لاختيار ملك جديد، وجاء تيوفيل نذير من أمه، فعاد مسرعاً إلى قسطنطينية فنكل بمن اشترك في هذه المكيدة. وهذه الرواية في رأينا قريبة القبول، ويرجح ذاك عندنا إذا تذكرنا رواية جينزيوس التي تقول إن تيوفيل ارتد بعد هزيمته بقليل إلى نيقيه، يعني أنه كان يقترب من العاصمة. ونحن نفترض أن هذه الثورة التي أوشكت على الظهور، إنما كانت ثورة جند الفرس - وهم الذي أرادوا تتويج تيوفوب - بحسب رواية رومية. والواقع أن صاحب صلة تيوفان يروي أن تيوفيل أوجس خيفة من تيوفوب بعد معركة أنزن.

ويضيف جنزيوس إلى ذلك شيئاً ذا خطر، وهو أن الفرس ثاروا فعلاً حين عاد الإمبراطور إلى العاصمة وساروا عندئذ إلى سينوب في بفلاجونية، أو إلى أماستريس في قول آخر، وتوجوا **تيوفوب** على كره منه. ويروي جنزيوس هذه الواقعة بعد معركة أنزن، ولكن ذلك لا يعتبر مخالفاً للروايات الأخرى لأن **جنزيوس روى** كل ما يخص تيوفوب مرة واحدة من دون انقطاع ومن دون النظر في التوقيت. أما صاحب الصلة فيراعي التوقيت، فلا شك إذاً أن الواقعة كانت بعد هزيمة أنزن. ويؤيد ذلك قول اللوجوتيت وهو خير مصدر رومي. كما أن ذلك لا يتعارض مع رواية **ميشيل السوري** **ويضيف جنزيوس** أن تيوفوب أقنع الإمبراطور ببراءته ونال حظوته من جديد، وهو قول لا يتعارض مع رواية ميشيل السوري: وهي رواية تقول إن الثورة لم تتم.

أما جنزيوس وصاحب صلة تيوفان فيقولان إن شكوك تيوفيل في أمر تيوفوب إنما قامت بعد ذلك في آخر أيام تيوفيل، فأمر في آخر لحظة بقتل تيوفوب، وهو قول نظنه أسطورة خلقها الحقد، ولا يتفق مع ما نعرفه من سلوك تيوفيل، وأغلب الظن أن تيوفوب مات بعد عمورية في حرب مع أبي سعيد وبشير[١] كما يروي ميشيل السوري.

---

(١) انظر الأصل الفرنسي ص١٧٦.

ولقي مالك بن كيدر في أنقرة أشناس وأخبره ما فعل الشيخ وما سمعه من الأسرى، ثم وصل المعتصم في اليوم التالي إلى المدينة نفسها. وفي اليوم الثالث جاءت أنباء من الأفشين تخبر بقدومه نحو أمير المؤمنين. وفي اليوم التالي وصل هازم بابل إلى أنقرة منضماً إلى المعتصم فحرروا تلك المدينة، وأثر نصر الأفشين وكارثة الجيش الرومي بالإمبراطور أثراً بالغاً بطبيعة الحال فانكسرت شجاعته، ونسي حملته الظافرة في العام الماضي وبعث إلى المعتصم رسلاً وأمرهم بالشرح، وبذل الوعود المذلة. وادّعى تيوفيل أن قواده تجاوزوا أوامره عند أخذ زبطرة، ووعد ببناء المدينة المخربة على نفقته وأن يعيد إلى الخليفة سكان زبطرة مضافاً إليهم كل مَنْ كان عنده يومئذ مِنْ أسرى الحرب. وأن يسلم البطارقة الذين سلكوا سلوكاً مخزياً عند أخْذ زبطرة فلم يصغ المعتصم لتوسلات الإمبراطور وهزئ برسله وأتهم الروم بالجبن وحجز الرسل إلى أن أخذ عمورية.

وكان الخليفة قد قصد عمورية بعد تحرير أنقرة. وقسم جيشه إلى ثلاثة أقسام وجعل بين كل قسم وآخر فرسخين. وجعل نفسه بالقسم الأوسط، وجعل أشناس على الميسرة، والأفشين على الميمنة. وأمرهم أن يأخذوا كل الناس من دون نظر إلى سنهم أو جنسهم. وكانت عمورية يومئذ في أزهر أيامها. وكانت موطن الأسرة الحاكمة في القسطنطينية، والراجح أن ميشيل الثاني كان قد رفع بلده إلى أسقفية رئيسية مستقلة، ثم رفعت بعد عام ٨٨٦ إلى مطرانية، وكانت عمورية إلى ذلك حصناً منيعاً. فإن سورها كان يشمل أربعة وأربعين برجاً. واستغرق السير إلى عمورية سبعة أيام. وكان أشناس أول من وصل فنزل على بُعد ميلين من المدينة ووصل بعده المعتصم، ثم وصل الأفشين في اليوم الثالث، وجعل لكل قائد جزءاً معيناً من سور المدينة يهاجمه من ناحية ويروي الطبري أن كل واحد أصابه من برجين إلى عشرين.

بدأ الحصار أول أغسطس، وكان العرب قد أحسنوا الاستعداد له. أما أهل عمورية فعقدوا العزم على المقاومة، وأبلوا أحسن بلاء في دفع جند الخليفة. فظل الخليفة وقتاً طويلاً لا ينال منهم شيئاً. ويقول ميشيل السوري إن الملك حين رأى مناعتها حفر عندها خنادق يحتمي بها. ابتدأ الهجوم بأن قذف المهاجمون من مجانيقهم أحجاراً ضخمة، وحجبت ظلال سهامهم الشمس، وقتلوا جميع من كانوا على الأسوار. وكان رماة آخرون يرمون من عجلات مغطاة، تحمي الموكَّلين بالنقب تحت السور. وكذلك كان أهل المدينة يقذفون المحاصرين بأحجار مقاليعهم ومجانيقهم وسهامهم فيقتلونهم، ويهدمون عليهم الأحجار، فتدركهم وتقتل من يقترب من السور، ويثيرون عليهم بما يلقون من التراب سحاباً كثيفاً. فمات من الجانبين آلاف من الناس في الأيام الثلاثة الأولى من القتال. ولعل العرب تشاوروا حينئذ في رفع الحصار والارتداد لولا أن وجد من أهل عمورية مواطن أسلم المدينة إلى الخليفة. وقد كان مسلماً أسره الروم فدخل المسيحية وتزوج رومية. فلما كان الحصار غادر المدينة سراً ولحق بالخليفة ودله على مكان من السور يسهل دكه بسهولة.

وذلك أن المطر أحدث سيلاً هبطت منه الأرض فوقع قسمٌ من السور، فلما سمع الإمبراطور الخبر أمر قائد عمورية ببنائه، فأهمل القائد أوامر الإمبراطور، حتى علم أن تيوفيل غادر القسطنطينية، فخاف غضبه، فبنى الثغر بناء غير متين، وجعل على السور أسناناً شبيهة بالأسنان الأولى. فلم يكد المعتصم يجمع مجانيقه في هذه الناحية حتى وقع قسم من الحائط. فلما رأى الروم الثغرة أرادوا سدها بالخشب وبطنوه بالجير لتخفيف دفع الأحجار.

وظلوا على ذلك زمناً حتى أحدث تكرار الضرب المتواصل كسراً في الخشب فتداعى السور من هذه الناحية. فعزم قائد عمورية **أيتيوس**، والخصي الذي كان **تيوفيل** قد أرسله أن يكتبا إلى الإمبراطور كتاباً يخبرانه فيه بتهدم السور وموقف الروم الخطير وبقوة الجيش العربي المحاصر وبعزم

أيتيوس على الخروج ليلاً، وافتتاح طريق بين الأعداء للاتصال بالإمبراطور، وأضاف أيتيوس في الكتاب: ليكن ما يكن، ولينج من يستطيع النجاة، ويهلك من يلقاه الهلاك. وسلموا خطاب تيوفيل إلى رجلين، أحدهما عبد رومي والآخر رجل يتقن العربية، فخرجا من المدينة وما كادا أن يتجاوزا الخندق حتى وقعا على جند عمرو الفرغاني فسألوهما من أين جاءا؟ فأجابا: نحن من رفاقكم، ولكنهما عجزا عن ذكر شيء من أسماء قواد العرب وعجزا عن الإجابة على السؤال الثاني وهو: من أي كتيبة هما؟ فعرفوا أنهما جاسوسان. وأمر عمرو الفرغاني بإرسالهما إلى المعتصم، ففتشهما، ووجد خطاب أيتيوس.

فلما قرأ الخليفة الكتاب أهدى لرسولي الروم هدايا، فدخلا في الإسلام. ثم ألبسهما في اليوم الثاني أغلى الثياب وأمر بعرضهما على طول الأسوار، وتقريبهما من البرج الذي ظن أن فيه أيتيوس. وسير أمامهما رجلين يحملان المال وفي يديهما الكتاب. فلما رأى أيتيوس ومن معه من الروم المنظر غير المتوقع، تعالت أصواتهم حنقاً وحزناً وكدراً.

وعمد المعتصم، بعد ذلك، إلى الجد في الحرب ليحرم على المحاصرين أية فرصة للخروج من المدينة، وجعل عسكره حرساً دائماً من الخيالة. وخصص جماعة لا ينامون إلا على خيولهم. وكان المعتصم حين اقترب من عمورية عاين اتساع خندقها، وعلو أسوارها، فعزم على المدينة بالطريقة الآتية: أمر ببناء عرادات عالية على الأسوار يديرها أربعة رجال. ثم اتخذ العدة لردم الخندق، وإنما أمر بهذا ليمتلئ الخندق إلى حافته حتى إذا استوت الأرض قربت الأبراج السيارة من الأسوار ليسهل بذلك الاستيلاء على المدينة، وذلك بعد أن وضع العرادات على منصات محمولة على عجلات، وجعل مع العرادات أبراجاً تتحرك على عجل وتتسع لعشرة رجال. ولكن الروم قذفوا أحجارهم فالقى العرب الجلود كيفما اتفق، ولم يمتلئ الخندق، فأمر المعتصم بإلقاء التراب فوق الجلود، وقرب برجاً من الأسوار، ولكنه

فسد عند منتصف الخندق، لم يجاوزه، وكاد يهلك من فيه من الجند. وهكذا انتهت بالفشل التام محاولة بذلها المعتصم للاستيلاء على عمورية.

وفي اليوم التالي أمر المعتصمم بالهجوم. وكان أشناس وجنده أول مهاجم. فلم ينل أي نصر ظاهر، لأن اللقاء كان غير ممكن إلا على مسافة الثغرة الصغيرة. أمر المعتصم بإحضار المجانيق وجعل يقذف بها أطراف الثغرة،،مضى اليوم الأول من الهجوم من دون الوصول إلى نتيجة حاسمة. وفي اليوم التالي هاجم الأفشين وجنوده، فأبلوا في القتال وتقدمهم المعتصم يرقبهم من أعلى فرسه وحوله أشناس وقواد آخرون على خيولهم، وترجل حوله من دونهم من القواد. فقال المعتصم مظهراً رضاه: ما أجمل القتال اليوم. وكان عمرو الفرغاني غير بعيد فأضاف: هو خير منه بالأمس(١).

فلما سمع أشناس هذا الكلام، وكان قائد الأمس، أحس بأنه المقصود بالإهانة ولكنه كظم غيظه، فلما كان الظهر تفرق المعتصم وقواده ليأكل كل منهم في خيامه، فجرى عند خيمة أشناس حديث ذو مغزى، لأنه كما يرويه **الطبري** يكشف عن مؤامرة دُبرت حينئذ بين عدد من القواد لاغتيال المعتصم والمقربين منه لصالح العباس بن المأمون الخليفة السابق. فلما اتجه أشناس إلى خيمته، قال بصوت الحانق لمن كان يمشي أمامه من القواد، وكان منهم عمرو الفرغاني وأحمد بن هشام: (يا أولاد الإماء ما مشيكم أمامي؟ أما كان عليكم أن تحسنوا القتال أمس، فلما وجدتم أمام الخليفة قلتم ما أحسن القتال اليوم، كما لو كان غيركم الذي قاتل بالأمس. اذهبوا إلى خيامكم). فلما ابتعد عنه عمرو الفرغاني وأحمد بن هشام، دار بينهما الحديث التالي: قال أحمد: (ما ترى هذا العبد ابن الفاعلة – يعني أشناس – ما صنع بنا اليوم. أليس الدخول إلى بلاد الروم أهون من هذا الذي سمعناه). قال عمرو الفرغاني

---

(١) الدكتور إبراهيم مصطفى المحمود، موسوعة السياسة والحرب عند العــرب، مــصدر سابق، ٢٣٣.

لأحمد بن هشام الخليلي، وكان عند عمرو: (يا أبا العباس سيكفيك الله أمره عن قريب، أبشر). فأوهم أحمد أن عنده خبراً، فألح عليه أحمد يسأله، فأخبره بما هم فيه. قال إنَّ العباس بن المأمون قد تم أمره، وسنبايع له ظاهراً ونقتل المعتصم وأشناس وغيرهما عن قريب، ثم قال له أشير عليك أن تأتي العباس، فتقدم، فتكون في عداد من مال إليه.

واقتنع أحمد، فأرشده عمرو الفرغاني إلى الحارث السمرقندي قرابة ابن عبيد الله بن الوضاح، وكان المتولي لإيصال الرجال إلى العباس وأخذ البيعة عليهم. فقال له أحمد: أنا معكم، إن كان يتم هذا الأمر فيما بيننا وبين عشرة أيام، وإن جاوز ذلك، فليس بيني وبينكم عمل. ولكن **العباس نفسه قال:** (ما كنت أحب أن يطلع الخليلي على شيء من أمرنا. أمسكوا عنه ولا تشركوه في شيء من أمركم). فأمسك أصحاب العباس عنه. فلما كان في اليوم الثالث كانت الحرب على المعتصم وأصحابه.، وكانت مهمتهم ثقيلة، وكان معهم المغاربة والأتراك. وتحولت الحرب لصالح العرب. ولم يزل الأمر كذلك والروم يدافعون عن الثغرة وهي تتسع يوماً بعد يوم، وهم يفقدون كثيراً من رجالهم، وكان الموكل، بالموضع المنثلم من السور، رجلاً اسمه: (وندو) وقد أثقله الهجوم، حتى أصبح غير قادر على الاستمرار في صد اندفاع العدو عليه بما بقي معه من الجند ولم يمده أحد بمدد من الروم. فطلب منهم **المدد وقال لهم:** (إن الحرب علي وعلى أصحابي، ولم يبق معي أحد إلا جرح، فصيروا أصحابكم على الثلمة يرمون قليلاً وإلا افتضحتم وذهبت المدينة).

فلم يدهشه إلا رفضهم فقد أغلظوا الرفض، وقالوا: سلم السور من ناحيتنا، ولسنا نسألك أن تمدنا، فشأنك وناحيتك، فليس لك عندنا مدد. فقلَّب الأمر هو وأصحابه بعد هذا الرد، ولم يجد مخرجاً إلا أن يعزم الخروج إلى المعتصم ويسأل الأمان لذريته على أن يسلمه الحصن بما فيه من السلاح والمتاع وغيره، فلما أصبح خرج حتى وصل إلى المعتصم، وقال لأصحابه ألا يحاربوا حتى يعود.

ولكن العرب اتبعوا عندئذ خطة الخديعة الحربية. فبينما (ويندو) يكلم المعتصم بدأ الجند المسلمون يتقدمون من الأسوار شيئاً فشيئاً حتى بلغوا الثلمة، على حين أمسك الروم عن الحرب طاعة لأمر رئيسهم، ولم يتحركوا للدفاع، بل اقتصروا على الإشارة إلى المتقدمين أن يكفوا. وخرج المعتصم وندو حينئذ من الخيام وقد انتهى الحديث. وإذ عبد الوهاب بن علي – أحد أخصاء الخليفة – يومئ إلى الناس فجأة بيده أن ادخلوا المدينة، فدخل العرب مدينة عمورية من دون مقاومة، ولجأت طائفة من المنهزمين إلى الكنيسة الكبيرة من دير عمورية، فقاتلوا قتالاً شديداً أمداً طويلاً إلى أن انهزموا في نهاية الأمر.

واجتمع آخرون في برج ياطس. فركب المعتصم عند ذلك حتى جاء فوقف حذاء برج ياطس، فصاح العرب: يا ياطس هذا أمير المؤمنين، فصاح الروم من فوق البرج: ليس ياطس ها هنا. فمضى المعتصم في طريقه وقد ملأه الغيظ، وإذا الروم يصيحون من فوق البرج: هذا ياطس هذا ياطس، فرجع المعتصم إلى حيال البرج، ثم أمر بسلم وصعد عليه الحسن الرومي وهو غلام لأبي سعيد محمد بن يوسف، ليفاوض ياطس، فأقنعه أن ينزل على حكم الخليفة، فقبل يأطس أن ينزل، وخرج متقلداً سيفاً حتى وقف على البرج، فخلع سيفه من عنقه ودفعه إلى الحسن، ثم نزل ياطس فوقف بين يدي المعتصم وهو محنق وأمر أن يوتى به إلى خيمته.

أخذت عمورية على الأرجح في ١٢ أغسطس ٨٣٧م الموافق ٢٥ شعبان ٢٢٣هـ، ثم استولى الجيش الفاتح على عدد كبير من الأسرى من النساء والأطفال والغنائم المختلفة. وقد وقع في الأسر من الأشراف غير ياطس، تيوفيل، والبطريرك الاستراتيج وتيودور الخصي الأسباطير الأول الملقب بلقب كراتيروس، يعني القوي، وقسطنطين الدرنجار السباق، وباسيوس وغيرهم. ثم أسر بعد ذلك والي تورما قلونية واسمه كالتوس مليسوس[١].

---

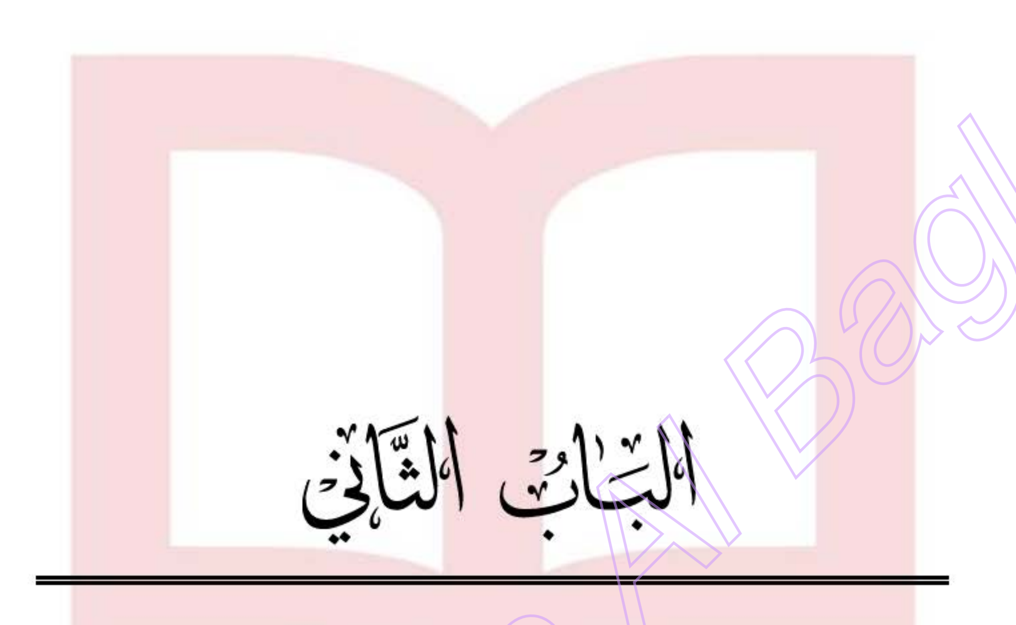
(١) راجع ابن الأثير ٤٤/٦+ ابن الأثير ٢٥٩/١٤.

وكان ملك الروم قد وجه رسلاً إلى المعتصم، كما رأينا حين انتصر الأفشين، فحجزهم المعتصم حتى أخذ عمورية ثم سرحهم بالازدراء والمهانة. ولم ير المعتصم أن الحملة انتهت بعد أن أخذ **عمورية** وذلك أنه بلغه أن ملك الروم يريد الخروج في إثره، أو يريد العبث بالعسكر على الأقل. ولذلك مضى حتى لم يُبْقِ عدواً. فرجع إلى عمورية. وهدّم أسوارها وأبوابها. ثم أمر بترميم زبطرة وتحصينها وإقامة حصون أخرى حولها هي طبارجي، والحسينية، وبنو المؤمن، وابن رحوان أو رجوان. وقد زار هذه الأماكن الجغرافي المشهور أبو الفدا عام ١٣١٥ وكانت زبطرة أيامه خراباً ليس فيهل إلا أثر التحصينات القديمة. وقد استقى الرحالة الإنكليزي وليم هاملتون حوالي عام ١٨٣٠، من مدينة شفري، بعض المعلومات عن خرائب هرجان - قلعة، وهو اسم زبطرة عند الترك، وهي خرائب قريبة من قرية حاجي حمزة، فلما رأى خرائبها ورأى فيها الأكربول وبقايا أسوار الأبراج، وآثار المدينة التي كانت تمتد قديماً حول الأكربول - أعتقد أنها مدينة عمورية أو أموريا القديمة.

وذاع رأيه وأيدته الأبحاث التي أجريت في آسية الصغرى من بعد. و يعرف أهل الإقليم اليوم باسم هرجان قلعة. وفي صيف عام ١٨٩٩م زار مؤلف «الروم والعرب» هذه الخرائب، ولم يكن معه حينئذ ما شاء من المعلومات الضرورية، وكان كتابه على وشك الظهور فأجل وصف رحلته، ثم لم ينشر هذا الوصف.

ويسمي أهل الإقليم خرائب عمورية: أسار لا (أسار قلعة) كما يزعم دليل موراي للسفر..


الهيئة العامة
السورية للكتاب



الباب الثاني

السياسة والحرب في بلاد الشام

حروب الفرنجة والمغول


الهيئة العامة
السورية للكتاب

الفَصْلُ الأَوَّلُ

السياسة والحرب في بلاد الشام في حروب الفرنجة والمغول

أولاً - العرب والعالم في القرن الثاني عشر:

أ - في المشرق العربي:

يكاد القرن الثاني عشر أن يغرب، والعرب أشتات مفرقة، بين دويلات وإمارات وبقايا حكم الخلفاء العباسيين في بغداد، والفاطميين في مصر ففي العراق: كانت بغداد تنوء بحكم المستضيء، الخليفة العباسي الضائع، وقد بدأت الموصل في انسلاخ جديد، بتأسيس الدولة الزنكية بقيادة عماد الدين زنكي(١) الذي استطاع في سنة ١١٤٤م أن يحرر شمال العراق وسورية من الاحتلال الصليبي وأن يزيل (كونتيه الرها)(٢) الصليبية من الوجود، ثم أعقبه ابنه نورالدين سنة (١١٤٦)م الذي جعل عاصمته حلب، ثم انضمت إليه دمشق في عام ١١٥٤م فكانت إمارة الموصل أولى دول

---

(١) محمد عمارة – معارك العرب ضد الغزاة، نشر المؤسسة العربية للدراسات والنشر د.ت، ص٢٩ س١٤.

(٢) المصدر السابق ص٣٠، س٧.

الأتابكة[١]. وفي سورية: كان الأمير إسماعيل يحكم حلب. سنة ١١٧٦م في العقد السابع من القرن الثاني عشر الميلادي، بينما كان معين الدين أُنر أحد خلفاء طغتكين يحكم دمشق التي استسلمت من دون قتال في عام (١١٥٤م) للأمير نور الدين زنكي[٢] فكان ذلك بداية حكم الدولة الزنكية في سورية التي بدأت في أطراف وشمال سورية، وتلا حكمَ الدولة الزنكية النورية الدولةُ الأيوبية، التي تربى رجالها في كنف الدولة الزنكية[٣]. وفي مصر: العبيدية مملكة الخلافة الفاطمية في مصر، بؤرة الخلاف والصراع على السلطة، بين الخلافة ممثلة بالعاضد والوزراء والخليفة وهو في دوامة الضعف والانجراف. وحين تناهت أخبار ثور العرب في سورية إلى المصريين ضغطت الجماهير العربية في مصر – ولاسيَّما فرسانها – على العاضد كي يتعاضد مع نور الدين زنكي لرد الصليبيين الذي ما فتئوا يتدخلون في شؤون مصر ويهمون باحتلالها مما حدا بالخليفة إلى إرساله رسالة إلى نور الدين زنكي يطلب فيها أن يرسل جيشه الذي يقوده (أسد الدين شيركوه) وابن أخيه صلاح الدين الأيوبي، وأرفق رسالته بخصلات من شعر نسائه قائلاً: (هذا شعور نسائي من قصري يستغثن بك لتنقذهن من الفرنج[٤]. وفي اليمن: كانت الدولة الحمدانية تحكم اليمن، وهي تصطرع من دعي جديد هو (عبد النبي بن

---

(١) الدكتور فيليب حتي + الدكتور أدوار جرجي + الدكتور جبرائيل جبور، تاريخ العرب (مطول)، نشر دار الكشاف، الطبعة الثانية، لبنان، ط، ٢ بيروت سنة ١٩٥٣، الصفحة ٧٦٢ س ٢١.

(٢) المصدر السابق، ص٧٦٣، السطر الرابع عشر.

(٣) الدكتور نظير حسان السعداوي – التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين الأيوبي، نشر مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٥٧، الصفحة الثانية، السطر الأول.

(٤) محمد عمارة – معارك ضد الغزاة، نشر المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت، ص٢١، س١٠ – ١٤.

المهدي)[١] الذي ادعى النبوة واستطاع أخيراً القضاء على الدولة الحمدانية واحتلال صنعاء[٢] عام ١١٧٣م. كما كانت الدولة النجاحية في زبيد، وقد قضى عليها هذا المدعي، أما عدن فقد كانت إمارة قائمة بحد ذاتها. وقد استطاع (توران شاه) شمس الدولة أن يفتح كل هذه الدويلات وأن يلحقها بركب الوحدة الجديد في عام ١١٧٣م ٦٩هـ. ومن القلاقل الكثيرة في هذا القرن، أن منطقة اليمن ما كانت تعاهد صلاح الدين حتى ينقض العهد أمراء انفصاليون، فيعود ليخضعها مرة أخرى. فقد كانت اليمن مع صلاح الدين مع مد وجزر[٣].

مناطق تحت الاحتلال الصليبي:

١ الرها:

تمركزت الحملة الصليبية الأولى في القسطنطينية، ثم سارت عبر آسية الصغرى واحتل الصليبيون (نيقية) عاصمة السلاجقة في حزيران عام (١٠٩٧) واجتازوا جبال طوروس، وانقسم الزحف الصليبي إلى قسمين: قسم اتجه شرقاً برئاسة (بلدوين) ابن كانت بولونيا واحتل مدينة (الرها) في مطلع عام (١٠٩٨)م فكانت الرها المستعمرة الصليبية الأولى في بلاد العرب. والقسم الثاني اتجه إلى أنطاكية. وقد انفصل بلدوين عن الجيش الرئيسي[٤].

---

(١) ابن شداد القاضي بهاء الدين، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، نشر جمال الدين الشيّال، إصدار دار المؤيد، مصر، القاهر، عام ١٩٦٤م، الطبعة الأولى، ص٢٦٧-٢٨٠.

(٢) شمس الدين أبو العباس أحمد المعروف بابن خالكان (٦٨١هـ)، كتاب وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ط١، القاهرة مصر، ١٩٦٢م، الجزء الأول ص٢٧٣.

(٣) عبد العزيز سيد الأهل – أيام صلاح الدين، نشر المكتب التجاري بيروت، طبعة آب ١٩٦١ ص٨٣، س١١.

(٢) ستيفن رنسمان – تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة د. الباز العريني – ط دار الثقافة بيروت سنة ١٩٦٧م، ص٢٨٦، السطر الأخير.

٢ أنطاكية:

حوصرت أنطاكية حصاراً طويلاً مستمراً من (٢١ تشرين الأولى حتى ٣ حزيران ١٠٩٨) وسقطت بعد مقاومة شعبنا العربي وقد حاول الأمير (رضوان) أن يزحف ليسعف أنطاكية فلم يتح له ذلك. كما حاول أمير الموصل (كربوقا) أن ينقذها في ٢٣ حزيران سنة ١٠٩٨ فأخفق وأصبحت أنطاكية المستعمرة الصليبية الثانية، وقد تآمر عليها (بوهمند) وبقيت بعد ذلك قرابة مئة وخمسين سنة تحت سيطرة الاستعمار الصليبي.

٣ المعرة وقلعة الحصن وطرطوس:

احتل مسقط رأس أبي العلا القائد الصليبي (ريموندده تولوز)، أغنى إقطاعيي فرنسة في أخلاها في ١٣ كانون الثاني من عام من عام ١٠٩٩ بعد أن قتل ما يزيد على مئة ألف من أهلها وسلموا للنار، ثم تابع ريمون غرباً فاحتل حصن الأكراد (قلعة الحصن حالياً)[١] ثم احتل طرطوس كذلك.

٤ القدس:

كانت الرملة أول مستعمرة لاتينية في فلسطين[٢] وقد استُخدِمت كقاعدة للانطلاق إلى القدس وفي ٧ حزيران عام ١٠٩٩م توجه الصليبيون إلى بيت المقدس وعددهم نحو ٤٠ ألفاً، ولقد صمد العرب، رغم قلة عددهم في القدس ثلاثين يوماً حتى انتهى الأمر بمذبحة غريبة، قليل مثلها في التاريخ.

---

(١) ابن الأثير – الكامل في التاريخ، الطبعة المصرية الأزهرية، القـاهرة، ١٣٠١هـ، ج١٠، ص١٩٠.

(٢) أبو يعلى حمزة (بن القلانسي)، تاريخ دمشق، مصر، القاهرة، الطبعة الأولى النيل عام ١٩٥٦م. ص١٣٦ + حتي تاريخ العرب، ص٧٥٦.

٥ طرابلس وبنت جبيل:

تقع طرابلس – رئة سورية آنذاك – على البحر الأبيض المتوسط، وقد تجنبها الكونت (ريموند) بعملية مراوغة بزحفه الطويل من أنطاكية إلى القدس. وبعد أن سقطت القدس عاد إلى حصارها عام ١١٠٩ وصمد العرب في طرابلس أيضاً صموداً أذهل العدو فقد استمر ثباتهم البطولي ثماني سنوات من عام (١١٠١ حتى ١٢تموز من عام ١١٠٩) وحتى بعد أن سقطت بنت جبيل في سنة ١١٠٤. وفي عام ١١٠٤ على الأرجح تمركزت قوات الغزاة الصليبين في أربع مستعمرات هي مستعمرة الرها ومستعمرة أنطاكية مع اللاذقية والمعرة ومستعمرة طرابلس ومعها طرطوس والمرقب وجبيل ومستعمرة القدس هي أهمها وتمتد من ميناء أم الرشراش (إيلات حالياً) والكرك والقدس ويافا وقيسارية ونابلس وعكا وصور وصيدا[١].

الاستعمار النورماندي:

في هذا التردي الذي انتهى إليه وطننا العربي في القرن الثاني عشر كشر المتربصون بناعن أنياب أطماع دفينة، فإذا الوطن العربي تجتاحه الغزوات المريعة خلال هذا القرن، فالصليبيون من الشمال والنورمنديون يستغلون حالة المغرب العربي من التفرق والضعف وينزلون على ساحل تونس غزاة في عهد الحسن الذي تولى في عام ١١٢١م، واستمروا في استعمارهم حتى طردهم منها الموحدون بعد ذلك، وهكذا أصبح الوطن مهيض الجناحين مشرقه ومغربه[٢].

---

(١) العماد – الكاتب الاصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي، تقديم وشرح، محمد محمود صبح، مصر، القاهرة، الدار القومية للطباعة والنشر والتوزيع، مطبعة الموسوعات، عام ١٩٦٥م، مقدمة المحقق، ص١٨، س١٧ وما بعد.

(٢) شفيق غربال الموسوعة العربية الميسرة، مصدر سابق،ص ٥٦٥.

جـ - العالم الأجنبي في القرن الثاني عشر

١ الغرب:

كانت أوربا منهمكة في صراعات داخلية، ففي فرنسا دار صراع مرير بين ملوك أسرة (كابيه) وبين طبقة الإقطاعيين واللصوص حتى جاءت الحروب الصليبية. وحكم الأباطرة الدوقيات الألمانية الكبرى إلا أن الإمارات الصغيرة والمدن الحرة كانت تجعل من ألمانيا دولة مفككة يحكمها الأباطرة بدرجات متفاوتة من القوة، ويختلط تاريخ هذه الفترة بتاريخ الإمبراطورية الرومانية المقدسة، أما إيطاليا فكانت في القرن الثاني عشر للميلاد من ولايات الإمبراطورية المقدسة كذلك. ورومانيا الحالية كانت عبارة عن مقاطعة داسيا القديمة، التي كانت بدورها ولاية من ولايات الإمبراطورية الرومانية، أما روسيا فكانت تحكمها (الكييفية) التي انقسمت إلى إمارات عديدة في عام ١١٥٤م.

٢ الشرق:

كانت أفغانستان والبنجاب في القرن الثاني عشر مملكة للغزنويين وقد استمر حكمهم من عام ٩٩٧ حتى ١١١٩م وكانت الإمبراطورية السلجوقية في هذا القرن تتفتت بفعل الأطماع الشخصية بعد المنعة، وخلفتها دول متفرقة منها الدولة الزنكية المجاهدة ضد الغزو الصليبي والتي انتهت أيضاً في القرن الذي تلا وهو القرن الثالث عشر[١] بعد أن اجتاحها هولاكو. أما في بورما فقد وحد (أناوراشا) بورما وجعل عاصمته في باجان في القرن الثاني عشر وظلت موحدة حتى القرن الثالث عشر. أما أفغانستان في هذا القرن فقد كانت تابعة للدولة الغزنوية المذكورة.

---

(١) الدكتور إبراهيم مصطفى المحمود – عين جالوت، مجلة جيش الشعب السورية ص٤٢ حتى ٤٥.

ظهور صلاح الدين الأيوبي:

كانت تكريت بلدة قديمة أقرب إلى بغداد منها إلى الموصل، وقد قامت في طرفها الأعلى قلعة حصينة تشرف على دجلة، بناها ملوك الفرس منذ القديم على حجر عظيم، وجعلوها مخازن الذخيرة ومراقب تكون بينهم وبين الروم لئلا يدهمهم، من جهة الروم، أمر على حين غرّة..... ثم فتحها العرب في السنة السادسة عشرة للهجرة أيام الخليفة الراشدي الثاني عمر بن الخطاب[1]. تلك المدينة شهدت ولادة غيرت مسار التاريخ في عام ١١٣٨[2]. فقد ولد في هذا العام، البطل صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب، ثم ارتحل محمولاً في رحل والديه من قلعة (تكريت) إلى مدينة الموصل في الليلة التي ولد فيها[3]، وهل لوليد القلاع وربيب الترحال أن يركن إلى الدعة ويستسلم لملذة؟ وها هو صلاح الدين ينتقل ثانية إلى دمشق حين أسند إليه منصب قائد الشرطة الذي كان يسمى آنذاك منصب (الشحنة). ومما زاد صلاح الدين شهرة سفره - على كره منه[4] - في حملة عمه الأولى على مصر في عام ١١٤٧م حيث أسندت إليه الوزارة بمصر، فقوض خلال عامين

---

(١) أبو عبد الله الملقب بشهاب الدين المعروف بياقوت الحموي الرومي (٦٢٦هـ) - كتابة معجم البلدان، مصر، القاهرة، الطبعة الأولى، دار السعادة، ١٣٢٣هـ،الجزء الثاني، الصفحة، ٣٨، ويقول: عبد العزيز سيد الأهل: إنَّ صلاح الدين قد ولد سنة (٥٣٢هـ - ١١٣٧م) في كتابه أيام صلاح الدين ص٣٢ - س١٣.

(٢) د. فيليب حتي + د. أدوار جرجي + د. جبرائيل جبور، تاريخ العرب المطول، الطبعة الثانية سنة ١٩٥٣م، طبع دار الكشاف، بيروت. الجزء الثالث، الصفحة، ٥٤٤، السطر، ١٢

(٣) أيام صلاح الدين، ص٩، س٩، ١١.

(٤) شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن بن إسماعيل المعروف بأبي شامة (٦٦٥هـ) الروضتين في أخبار الدولتين، مصر، القاهرة، مطبعة وادي النيل، ١٣٨٧هـ، ج١، ص١٥٥، ورد نفس كتاب النجوم الزاهرة لأبي الفداء، ج٣، ص٤٧.

خلافة (الفاطميين) ثم وحّد مصر وسورية بعد معركة (قرون حماه). كذلك ضم أخوه (توران شاه) اليمن كما ضمَّ بلاد الحجاز بعد عشر سنوات، فحقق الهدف الأول في محاصرة العدو. ثم حاصر البطل صلاح الدين الأيوبي قلعة مصياد معقل (راشد الدين سنان) ولكنه ارتد عنها بعد عهد قطعه له الشيخ راشد شيخ الجبل في أن لا يتعرض له فيما بعد.

ثانياً - أسباب الحروب الصليبية وإعداد البلاد للحرب:

آ - أسباب حروب الفرنجة:

يرجع المؤرخون والباحثون حروب الفرنجة إلى أسباب اختلفت فيها آراؤهم باختلاف أزمنتهم وأمكنتهم وجنسياتهم فمن المؤرخين من يرجعها إلى أسباب دينية، وآخرون إلى المطامع الفردية والغرور الشخصي، وغيرهم إلى أسباب اقتصادية فقط، والأرجح أن الدين استغل ليخدم المطامع الاقتصادية والثانوية التي نتجت عنها حروب الفرنجة، ويبدو لي أن هناك هدفاً رئيسياً واحداً هو الاستعمار الذي ليس وراءه سوى الدوافع والأسباب الاقتصادية. فقد كانت التجارة العالمية قائمة بين آسيا وأوربا، وكانت جميع طرق هذه التجارة تمر عبر العالم العربي، من الصين وجزر الهند إلى الخليج العربي، فأرض العراق وسورية وحتى ساحل البحر الأبيض المتوسط، أو من هذه البلاد عبر البحر الأحمر فخليج السويس فالنيل ثم البحر المتوسط وفي كل الحالات كانت هذه التجارة بيد العرب تدر عليهم الأرباح، وتجعل لهم ثقلهم في الموازين الدولية، وتشد طرقها وقوافلها خيوط وحدة هذا الوطن الكبير، وهذا ما أثار المطامع البرجوازية التجارة الأوربية ورأسماليتها التي كانت قد أقامت المدن التجارية المزدهرة في أوربا، مثل: «جنوة، نابولي، بيزا، البندقية»..... الخ نتج عن هذا الوضع تعاضد البرجوازية التجارية الأوربية مع أمراء الإقطاع. وينضوي في ذلك الحلف الذي أقامه البابا لغزو الشرق وتقديم القروض

لتمويل وتسليح جيوش الفرنجة الغازية. ولي على وجهة نظري هذه عديد من الأدلة أهمها:

الدليل الأول: استهدفت الإمارات الصليبية أول ما استهدفت احتلال منافذ التجارة العالمية التي كانت تمر عبر أراضي هذا الوطن، ففي الشمال «كونتيه الرها» وعلى الساحل السوري الفلسطيني تمتد إمارات (أنطاكية وطرابلس والقدس) من لبنان حتى ميناء إيلات على خليج العقبة، والتي حكمها (جون فري) تحت لقب (بارون القبر المقدس وحاميه) فانقسم بذلك الوطن العربي إلى مشرق ومغرب في هذا (الأسفين الغريب).

الدليل الثاني: الاستغلال البشع لبلادنا أثناء الاحتلال، فقد فرضت مملكة بيت المقدس الضرائب على قوافل التجارة العربية بين كل من مصر وسورية والحجاز. وكذلك فعلت إمارات أخرى.

الدليل الثالث: أن المؤرخين الذين أرجعوا الحروب الصليبية إلى أسباب دينية فقط قد ضلوا عن جادة الصواب لأنه لو كانت الأسباب دينية فقط في الاحتلال الاستعماري الصليبي لفلسطين فبماذا نفسر غزوات (١١٦٣ - ١١٦٦ - ١١٦٨) ميلادية على مصر؟ وماذا يعني اغتصاب الغزاة لمبلغ مليون دينار مصري لقاء ارتدادهم عن احتلال مصر؟ مستغلين شيخوخة نظامها وانجرافه في صراعات مريرة بين الوزراء والأمراء والخليفة العاضد.

الدليل الرابع: لم يكتف الغزاة في فرض الضرائب على التجارة وغيرها، بل فرضوا (الجزية والأتاوة) على شعبنا ويقول أبو شامة، مؤرخ تلك الفترة، شارحاً كيفية إحصاء أرض مصر وقراها وأعداد الفرنجة ذاكراً خصبها وغلاتها وكيفية توزيع هذه الغلات على الجنود عندما ذهبوا إليها غزاة عام ١١٦٨م. فيقول: «كان ملكهم - لعنه الله - لما دخل ديار مصر قد أقام من أصحابه من كتب قرى أسماء مصر جميعها ويعرف له خبر ارتفاعها (دخلها).... وأحضر وزيره، وأمره بإقطاع بلاد مصر لخيالته وفرق قراها على أجناده[١]».

---

(١) أبو شامة - كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النووية والصلاحية، مصدر سابق، ج١ ص٤٣٠.

الدليل الخامس: جاء في كتاب (تاريخ حرب الصليب[١]) - الجزء الثاني -: كانت خزائن مصر تحت تصرفنا، وسلطنة أورشليم كانت آمنة من جهة البر المصري، ومسلك البحر كان حراً، كما أن موانئ أقاليم مصر كلها كانت مفتوحة لقبول مراكبنا. وتجارها كانوا ينقلون إلى موانئ بلادنا غلات أراضيها، وهذه المتاجر كانت كلية الفوائد لنا..... وكانت الجزية والخراجات توفى لنا بانتظام.

ونلمس بجلاء أن بعض المؤرخين الأجانب يقرون ببعض الحقائق ويكشفون عن الأسباب الحقيقية الرئيسية معترفين بأنها المطامع الاقتصادية واستغلال خيرات البلاد، والتي لا سبيل لتحقيقها آنذاك إلا بالاحتلال والاستعمار.

استنتاجات:

تدلنا الدراسات التاريخية العلمية. إذا ما قورنت بمعظم أسفار التاريخ متوخية وضع حروب الفرنجة في مكانها الصحيح، على أن لهذه الحروب جذوراً تاريخية أكثر عمقاً، وأن لها اتصالاً ما بتلك الحروب التي سبقتها بين الشرق والغرب في الصراع على الثروات والمكاسب كما أن لها اتصالاً تاريخياً بتاريخ الحضارة. وما دفعني إلى هذا، هو أخبار حروب طروادة ثم حروب الفرنجة ثم الغزو الاستعماري الحديث. إننا نلمس بلا شك وجود تشابه بين أسباب هذه الحروب ونتائجها ونهاياتها، فليس كل من حمل شارة الصليب قد دفعته إلى ذلك عوامل روحية فقط. فالزعيم (بوهمند) قد قصد من غزوه أن يفتح أراضي جديدة له كما فعل غيره من الأمراء.

وقد دفع تجار (بيزا والبندقية وجنوة) إلى هذه المغامرة فهو مصالحهم التجارية وهكذا فقد تضاعف أكثر من عامل ثانوي مع العامل الاقتصادي مثل أطماع المغامرين بالإضافة إلى بعض المتعصبين دينياً. والشيء الأفدح هو وجود عدد كبير من المجرمين مثل الذين أرادوا أن ينخرطوا في هذا التيار لأسباب إجرامية وللكسب الشخصي.

---

(١) تاريخ حرب الصليب، ج٢، ص٧٦.

يقول الدكتور فيليب حتي: وفي أثناء إقامة الإفرنج في بلاد الشرق اكتسبوا أسواقاً جديدة أهمها ما يتعلق بالروائح والتوابل والحلويات وسواها من حاصلات البلاد الحارة التي تمتاز بها بلاد العرب والهند، والتي كانت أسواق سورية زاخرة بها. ثم إن هذه الأسواق الجديدة أدت فيما بعد إلى إنعاش التجارة في المدن الإيطالية ومدن البحر المتوسط. فراجت أنواع البخور وسواها من صموغ الجزيرة العربية الزكية الرائحة وماء الورد الدمشقي والروائح العطرية التي امتازت بها دمشق وأنواع من الزيوت والعطور الخفيفة الزكية الرائحة التي اشتهرت بها فارس واستطييت كلها، ومن العقاقير الجديدة التي أخذوا يعرفونها حجر الشب والند، وعند الاستيلاء على **قيسارية في عام ١١٠١م** استلب الجنويون - **فيما يروي** - أكثر من ستة عشر ألف ليبرة من الفلفل كحصة من الغنائم التي أصابتهم، وقد أخذ يشيع استعمال كبش القرنفل بأنواعه التوابل الزكية والطيوب وسواها من التوابل في الغرب خلال القرن الثاني عشر، ومنذ ذلك العهد أصبحت ألوان الطعام لا تستقيم في أية مأدبة دون أن يكون بينها مأكولات دخلت فيها التوابل. وعلى ساحل سورية تعرف الإفرنج على نبات قصب السكر الذي أخذ منذ ذلك الحين دوراً هاماً في الحياة الاقتصادية وفي تركيب الوصفات الطبية[١]. نقل الغزاة عنا كثيراً من العلوم والاختراعات، ومن الأمثلة على ذلك أن (قيصر بن مسافر تعاسيق) المخترع العربي المصري قد طور اختراع النواعير لحاكم حماه، كما اخترع أو صنع كرة سماوية، وهي الآن في المتحف الوطني بنابولي[٢]، كما نقلو عنا (الحك) وهو الإبرة المغناطيسية - البوصلة حالياً. العالمية عبر بلاد العرب، كما فرضت الضرائب على التجارة العربية الداخلية والخارجية، واغتصب مليون دينار مصري عبر التهديد بالاحتلال، ولم يكتفوا بكل هذا بل

---

(١) د. حتي - تاريخ العرب المطول، مصدر سابق، ج٣، ط٢، سنة ١٩٥٣ ص٧٨٨، ٧٨٩.

(٢) يشير بن بطوطة إلى وجود النواعير في مدينة (كانتون) جمهورية الصين الشعبية حالياً، ج٤، ص ٢٥٥، وقد ورد هذا في حاشية تاريخ العرب المطول للدكتور حتي ص٧٨٩.

فرضوا الضرائب والأتاوات على شعبنا. استعمروا بلادنا ونهبوا خيراتنا بأساليب متعددة ومتنوعة كالديون والربا.... الخ.

ب - إعداد البلاد للحرب

ظلت القاهرة عاصمةَ الحكومة الأيوبية ثماني سنوات، قبل انضمام الشام وليبيا، ثم انتقلت عاصمة صلاح الدين إلى دمشق، ويبدو أن هذا الانتقال كان لضرورات الحرب[١]، ومما يدل على انصراف صلاح الدين الأيوبي لتقوية مصر علمياً واقتصادياً وعسكرياً منجزاتٌ أهمها:

١ - سور القاهرة:

تكونت القاهرة من أربع مدن هي (الفسطاط) التي أنشأها عمرو بن العاص والعسكر التي بناها صالح بن علي العباسي (والقطائع) التي أنشأها (أحمد بن طولون) (والقاهرة) التي أنشأها جوهر الصقلي وقد أمر صلاح الدين أن يشاد سور حول المدن الأربع (القاهرة اليوم) ووكل أمور الإشراف على البناء إلى صاحبه بهاء الدين قراقوش - ويجدر بنا أن ننوه إلى أن بدر الجمالي بنى سوراً آخر قبل صلاح الدين - ولكن هذا السور (سور صلاح الدين) لم يتم في عهده، ولما تم كان طوله سبعة أميال ونصف الميل، كما شيدت له أبراج مستديرة ليرمى منها بالقذائف ولتتخذ منافض للمراقبة، ولا تزال بقاياه شاهدة على عظمته.

٢ - قلعة صلاح الدين الأيوبي:

المقطم، جبل متوسط الارتفاع، مشرف على القاهرة القديمة، بحيث يستطيع أن يحميها بحامية إن وجدت فيه[٢]. وصلاح الدين الأيوبي وليد

---

(١) عبد العزيز سعيد الأهل - أيام صلاح الدين، إصدار المكتب التجاري، لبنان، بيروت، الطبعة الأولى، عام ١٩٦١م، ص١٣.

(٢) يضم المقطم (قبر ومسجد بدر الجمالي، في سفحه) تاريخ العرب المطول د. حتي ص٧٤٧، س ٧ + وقد بنى الحاكم الشغوف بحسابات المنجمين مرصداً في الجبل وكان يركب بغلته الشهباء إليه ، فيخلو بنفسه للرصد والتنجيم ، المرجع السابق =

القلاع وربيب الترحال، وقد رأى القلاع على ربى الشام تتحكم في المدن والأقاليم والطرق[١]، ولم يكن هذا معروفاً في مصر. وقد اختار لها المهندسون العرب مكاناً بارزاً من المقطم. وقد استخدم محاجر الإهرامات الخالدة. وقد بنى قلعة أخرى تحمل الاسم نفسه وتقع على بعد (٣٣) كم شرقي اللاذقية – بلدة الحفة.

بناء الأسطول والموانئ

في تموز عام ١١٦٩م قام الفرنج بحملة على دمياط[٢] ، وكان هذا كافياً لإقناع صلاح الدين بضرورة أسطول قوي، على بقايا (عشر قطع بحرية فيها عشرة آلاف مقاتل) على عهد العاضد ومن سبقه[٣].

وكان لها ديوان عرف بديوان الأسطول ويقال له أحياناً (ديوان الجهاد، أو ديوان العماير)[٤]. الحاجب الشيخ (حسام الدين لؤلؤ) رئيس عارف بالريح

= ص٧٤٧، س٨ وعلى هذا الجبل قتل الحاكم الذي قال بألوهيته، وكان قتله في (١٣ شباط سنة ١٠٢١). ويقال إن أخته (ست الملوك). دست عليه من يقتله وكان الخليفة الحاكم قد اتهمها بسوء السيرة، المرجع السابق، ص٧٣٦.

(١) ستانلي لينبول – سيرة القاهرة، ترجمة حسن إبراهيم وآخرون، نشر مكتبة النهضة في القاهرة، سنة ١٩٥١، ص١٥٣.

(٢) انظر الكامل لابن الأثير ٩/٣٥٠ ومصادره الكثيرة.

(٣) تقي الدين أحمد بن علي – المعروف بالمقريزي (٨٤٥هـ)، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، طبعة النيل بمصر سنة ١٣٢٤هـ.الجزء الأول، ص١٥٢

(٤) ناصر الدين بن عبد الرحيم علي (٨٠٧هـ) المعروف بابن الفرات، تاريخ الدول والملوك، وهو مخطوط مصور من خزانة فيينا سنة ١٣٤٣هـ، بدار الكتب المصرية الجزء السابع، ص٥٦٧، وهذا ما يخالف قول (مفلح علي) في كتابه (حطين) بأن صلاح الدين هو الذي أنشأه في ص٣٨ س٨ وقول ابن الفرات وارد في كتاب (التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين الأيوبي) تأليف الدكتور نظير السعداوي، طبعة عام ١٩٥٧م ص٢٤ – ٢٥.

والمجاذيف والإساء والدراية بمسالك البحر ومجاريه[١]، اصطفاه صلاح الدين أميراً للبحار ولقبه (مقدم الأسطول). وكان من المقدمين عبد السلام المغربي وبدران الفارسي، وعلى أسطول بيروت يعقوب الحلبي وزوده بمخصصات من موارد فريضة الزكاة، وموارد القرظ والمراكب الديوانية واشنا وطنطدي. استخدم صلاح الدين في الأسطول عرب المغرب نظراً لخبرتهم بسواحل العدو وموانئه ومهارتهم البحرية.

غزوات الأسطول العربي:

غزا الأسطول العربي ميناء عكا في يوم ١٨ تشرين الأول عام ١١٧٩. استولى على عدد من مراكب العدو وانتصر عليهم انتصاراً ساحقاً، وقد وصف صلاح الدين هذا النصر في كتابه إلى دار الخلافة في بغداد قائلاً: إنه لم يعهد من الأسطول الإسلامي مثله في سالف الدهر [٢] وقد سبق في ذلك في أيار من سنة ١١٧٠ أن أغار على طرطوس التي كانت تحت سيطرة الاستعمار الصليبي على الساحل العربي السوري، مما أجبر (بلدوين) ملك القدس على طلب الصلح، فاضطر رايموند، أمير طرابلس إلى مهادنة صلاح الدين أيضاً.

ميناء المقس:

(باب البحر) هو اليوم مساكن مزدحمة وأسواق للتجارة قريبة من باب الحديد عند محطة القاهرة العسكرية. في هذا المكان، ومنذ ثمانية قرون أنشئ ميناء (المقس)، الذي طمره النيل في الأزمنة المتعاقبة وانحرف عنه. والمقس اسم لميناء (نيلي) الذي كان حوضاً للأسطول

---

(١) عبد الرحمن بن عمر المعروف بابن خلدون – المقدمة، ٨٦٠هـ، ط الأزهرية سنة ١٩٣٠، ص٢١٢.

(٢) أبو شامة – الروضتين، مصدر سابق، ج٢، ص١٤.

الفاطمي. وقد فضل على الإسكندرية ودمياط لسبب هام في ذلك العصر، وهو وجود الميناء في مكان بعيد حيث تدفع الأخشاب إلى النيل ثم باب البحر «ميناء المقس» كي تعد فيه السفن الحربية والتجارية ثم تدفع إلى النيل تسير إلى البحر. (وكان المقس ميناء القاهرة النهري)[١]. اهتم صلاح الدين بهذا المكان فجعله مصنعاً للسفن لبعده ومأمنه، كما فعلت الدولة الفاطمية سابقاً[٢].

النهضة العلمية والتربوية:

تأثر صلاح الدين بطراز المدارس النظامية وأنظمتها التي أنشأها نظام الملك للدولة السلجوقية. فأدخل هذا الطراز وهذه الأنظمة إلى دولته حتى أصبحت منارة في تاريخ التربية. وقد أنشئت هذه المدارس في أرجاء البلاد كلها لاسيَّما في حلب والقدس والإسكندرية وبعلبك ودمشق والقاهرة. وقد أشار بن جبير إلى وجود عشرين مدرسة في دمشق عام ١١٨٤م وفيها مرستانان (المرستان النوري والمرستان الدقاقي) ورباطات أو خوانق عديدة[٣] (مفرده خانقاه في العربية)، وأصلها في الفارسية (خامكاه)[٤]. وهكذا لم تنقض الدولة الأيوبية حتى تركت في أرجاء البلاد ومدنها آثاراً علمية لا تعد ولا تحصى.

---

(١) فيليب حتي وصاحباه – تاريخ العرب المطول، مصدر سابق، ص٧٣٧.

(٢) عبد العزيز سيد الأهل، أيام صلاح الدين ـــ، ط آب ١٩٦١م – ص١٠٧، ١٠٨ نـشر المكتب التجاري، طبع مطابع دار الكتب ببيروت. ص١٠٧، ١٠٨.

(٣) أبو الحسن محمد بن أحمد الأندلسي – المعروف بابن جبير، ٦١٤هـــ، رحلـة ابـن جبير، طبعة السعادة ١٣٣٦هــ.، ص٢٨٣.

(٤) الحافظ جلال الدين عبد الرحمن – المعروف بالسيوطي، ٩١١هــ، حسن المحاضـرة في أخبار مصر والقاهرة ج٢، مصر، القاهرة، إصدار مطبعـة الخـانجي، الطبعـة الأولى، عام ١٩٤٢م، ص١٥٨.

النهضة الاقتصادية

آ الزراعة والتجارة:

اشتهرت بلاد العرب بمنتجاتها الزراعية من الحبوب والخضار والفاكهة وبالإنتاج الحيواني والطيور والأسماك وأثرت الحروب الصليبية على الزراعة في بلاد الشام لقلة اليد العاملة وندرة الناس في بعض المناطق بسبب هذه الحروب، اعتنى الأيوبيون، ولاسيَّما صلاح الدين (بنظام الري) عناية فائقة، لا تقل عن عنايتهم بغيرها من المرافق الاقتصادية، وقد خلت تدوينات المقريزي في كتابه (كشف الغمة) من الإشارة: إلى أي جدب أو قحط في عهده فظلت الأمطار تسكب في شتاء الشام، وظل النيل معتدل القياس في مصر. وكم نامت أجيال حموية (نسبة إلى حماه) على أنين النواعير التي طورها ابن مسافر تعاسيف المتوفى سنة (١٢٥١م). وكانت عنوان أنظمة الري في شمال الدولة الأيوبية[١].

على الرغم من قيام الحروب الصليبية استمرت التجارة بين البلاد العربية والجمهوريات الإيطالية، وبعض دول الساحل الشمالي للبحر المتوسط وبلاد الروم، ولم يؤد اشتعال الحروب بين العرب والفرنجة إلى انقطاع هذه التجارة انقطاعاً تاماً. إلا حينما كانت تشتد المحن وتشتعل الخصومات. وكانت أثمان السكر والأسلحة والأزياء والمصنوعات تدر على الشرق أموالاً طائلة[٢].

ب الصناعة:

ازدهرت صناعات الحديد والنحاس والأصباغ والأنسجة في كثير من

---

(١) تاريخ العرب المطول، ص٧٨٩، ٧٩٠، ج٣. تاريخ العرب المطول، ص٧٨٩، ٧٩٠، ج٣.

(٢) عبد العزيز سيد الأهل – أيام صلاح الدين، ص١١٥، بعد السطر السادس، مصدر سابق.

(مدن الشام) والزجاج الملون في (صور) وأنواع الزيوت والبخور والطيب. أما معاصر السكر وطواحينه، فقد كانت صناعة متقدمة في بلادنا في القرن الثاني عشر ولاسيَّما في عهد الدولة الأيوبية. لأن مزارعه كانت واسعة، ولاسيَّما عند طرابلس الشام، وقد كان الفرنجة قبل اتصالهم بالمشرق في الحروب لا يعرفون السكر. وقد أنشأ صلاح الدين معاصر السكر التي كلف بها الأمير (يزكوج) الناصري في بلدة على ساحل النيل الشرقي اسمها (بيج) والعرب هم الذين ركبوا بالسكر الأشربة والجلاب ومربيات الأعشاب والفواكه[١].

صناعة الأسلحة:

ليست الدبابات والمنجنيقات أسلحة حديثة لا جذور تاريخية لها، فقد حارب بها العرب والعجم في الجاهلية، وظلت بعد تقويتها وتحسينها من أسلحة الحروب الصليبية وهما لحروب الأسوار والقلاع، وينصب منها على المدينة بحسب اتساعها ومنعة أسوارها، وتنصب في الليل، وتعمل المنجنيقات في البر والبحر. واهتم صلاح الدين في مهاجمة الأسوار والقلاع بتفقد نصبها بنفسه، فإذا لم يخرج، واصلته الرسل بأخبارها – حارب النبي أهل الطائف بالدبابات – وكانت الدبابات عبر التاريخ تتألف من طبقة أو اثنتين أو عدة طبقات، ويقربونها من الأسوار ثم يقذفون منها النفط الملتهب والأحجار الضخمة، وهي تندفع، أو ربما كان اندفاعها على دواليب، فتدق جدران الأسوار والقلاع لتثقبها بحركتها وتوهي بناءها، ولكن هنالك طرق أخرى

---

(١) حيدر بامات – مجالي الإسلام، ترجمة عادل زعيتر، طبع دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، سنة ١٩٥٦م + ياقوت الحموي – معجم البلدان، ج١، ص٢٥٣ + زكي النقاش – العلاقات بين العرب والإفرنج خلال الحروب الصليبية، ط مطبعة الكتاب اللبناني ص١٨٢.

لحركتها بوساطة الأعمدة الأسطوانية الخشبية التي توضع بالتناوب أمامها بعد دفعها عليها. وقد ورد عن الأسطول البحري العربي كسلاح ثقيل، الكثير من المراجع المذكورة سابقاً.

ولكن يجب علينا أن ننوه بالاختلاف الشاسع بين البحرية العربية في المتوسط والبحرية العربية في البحر الأحمر، لأن بحرية البحر الأحمر كانت تخاط بحبال الليف، ولا يستعمل فيها مسمار البتة، لكثرة الشعاب المغناطيسية المعترضة في هذا البحر[١]، ويشرح النويري كيفية عملها الخاص. ويجدر بنا أن ننوه إلى ذلك الخبير العربي السوري في النحاس والكيمياء واسمه على حيث اخترع سلاحاً دمر به أبراج الفرنجة.

(الزيارات) أقواس ترمي أشد السهام رمياً وأعظمها جرماً. وكانت تنصب على الأبراج وتحتاج في قذفها إلى عدد من الرجال، ولا يكاد يثبت أحد أمامها. وهذه الأقواس تستخدم في البر. أما الأقواس البحرية فكانت تسمى (الزمبوركات) وهي سهام تختص بالبحر لأنها طويلة ثقيلة، لتكون أكثر ثباتاً عند انطلاقها. فإذا نفذ النشاب والنبال. التحم الطرفان بالأحجار، ثم بالرماح والسيوف والمدي أو تشابكوا بالأيدي. أحكم وأجود التراس والرماح في القرن الثاني عشر التراس والرماح الموصلية. وكانت تصل من الموصل أيضاً أحمال من النفط الأبيض[٢]. أما مصانع

---

(١) محمد بن قاسم بن محمد المالكي – الإسكندري المعروف بالنويري (٧٦٧هـ) الإلمام بما جرت بها الأحكام المقضية في وقعة الإسكندرية الواقع بها سنة ٧٦٧هـ، وهذا الكتاب مخطوط بدار الكتب المصرية، ج١، رقم ١٤٤٩، تاريخ ١٠، ص٣٧٦.

(٢) ابن واصل، ٦٩٧هـ، مفرج الكروب، ط القاهرة ١٩٥٧ الأميرية، ج٢، ص١٥٠، ٢٤٣، ٢٦٢، ٣٠٧.

السيوف فكانت في القاهرة ودمشق[1]. لقد وصلت البلاد العربية الموحدة في القرن الثاني عشر إلى مرحلة الاكتفاء الذاتي في صناعة الأسلحة، فقد كانت تستخرج الحديد من جبال لبنان[2].

جـ قناطر الجيزة:

أفردت لمشروع القناطر فقرة خاصة لأهميته، رغم قصر عمره، فمكانه الطبيعي في فقرة (الزراعة والثروة الحيوانية). إن قناطر الجيزة مرتبطة، كعمل، ببناء السور حول القاهرة، لأن هذا المشروع استهدف غرضاً جماهيرياً وزراعياً وعسكرياً في آن واحد وهو الاستفادة من الماء المحجوز أمام السور في ري أراضي الجيزة، وآية ذلك أن تصميم بهاء الدين قراقوش أسفر عن إقامة ما ينوف على أربعين قنطرة على الحائط[3]. وفي عام ١١٩٣ قدم ابن جبير القاهرة زائراً فشهد العمل جارياً، فوصف هذا المشروع بقوله: (إن صلاح الدين كان له في ذلك تدبير عجيب من تدابير الملوك الحازمة إعداداً لحادثة تطرأ من عدو يدهم جهة ثغر الإسكندرية عند فيض النيل وانغمار الأرض به، وامتناع سلوك العساكر بسببه، فأعد ذلك مسلكاً في كل وقت إن احتيج إلى ذلك[4] وقيل إن قراقوش عندما شرع في بناء هذه القناطر بنى رصيفاً من الحجارة، ابتدأ به من جنب النيل بإزاء مدينة مصر (الفسطاط) كأنه جبل ممتد على الأرض مسيرة

---

(١) حسن حبيشي – نور الدين والصليبيون، دار الفكر العربي، القاهرة، ط١، عام ١٩٤٨م، ص١٥٥.

(٢) زكي النقاش – العلاقات بين العرب والإفرنج خلال الحروب الصليبية، بيروت ١٩٥٨، ص٩٦.

(٣) إبراهيم بن محمد بن إيدمر المعروف بابن دقماق – الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين، وهو مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم ١٥٢٢، تاريخ ص٨٠٩ + تاريخ مصر الحربي، ص١٥٧.

(٤) ابن جبير – رحلة بن جبير، طبعة مصر، ص٢٢.

ستة أميال حتى يتصل بالقناطر التي اتخذ حجارتها من أهرام الجيزة المتهدمة[١].
ثم حدث أن تولى أمر تلك القناطر ما بين سنتي (١٢٠٠ – ١٢٠٢م) مهندس قصير النظر، دائم الإهمال. فسدها رجاء أن يحبس الماء لري الجيزة فقويت عليها جرية الماء وزلزلت منها ثلاث قناطر فانشقت ولم تعد صالحة لوقف الماء الجاري على قول السائح البغدادي[٢].

- الاستنتاج:

وهكذا نجد أن البلاد قد أعدت في الجبهة الداخلية، أمام العدو وخطره المدلهم، وعلى الصعيد الاقتصادي أعدت البلاد زراعياً وصناعياً وتجارياً، فقد أنشئ الأسطول ببنائه الجديد، وزيدت صناعة الأسلحة الثقيلة والخفيفة، كما شُيِّدتْ قلعة صلاح الدين وميناء المقس بالإضافة إلى إنشاء المدارس النظامية والنورية، كما كوفئ المخترعون فأصبحت البلاد مستعدة لخوض القتال، بعد أن أعد جيش قوي، في تسليحه وتدريبه، فتهيأ بكل ذلك، الظرف المناسب لخوض معركة من معارك التاريخ الفاصلة هي حطين.

جـ - بعث الطاقات العسكرية للأمة العربية في القرن الثاني عشر:

١ - تنظيم الجيش العربي وتسليحه في العهد الأيوبي:

لقد شمل تنظيم الجيش العربي إعداده فرقاً وأطلاباً ووحدات أدنى وأعلى اختلفت باختلاف نوعيتها من حيث الخدمة والتسليح. فمنها العسكر والجند والقبائل الرحل والأحداث المتطوعون، وفرق النشابين والنفاطين والمنجنيقيين، كما كان

---

(١) المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي، المواعظ والاعتبار في ذكر الخط والآثار، مصر، القاهرة، مطبعة النيل، الطبعة الأولى عام ١٣٢٤هـ + طبعة ١٩٢٨م، ص٣٦٨.

(٢) موفق الدين عبد اللطيف بن يوسف المعروف بالبغدادي (٦٢٩هـ) كتاب الإفادة والاعتبار في الأمور والمشاهدة والحوادث المعانية في أرض مصر، طبع مطبعة المجلة الجديدة بمصر، عام ١٩٥٨م، ص٣٦.

هنالك أدوار مشرفة لنساء العرب. أما من الناحية التنظيمية العليا، فقد أوجد ديوان للجيش وشكلت قيادة عامة لوضع الخطط القتالية سنبحثها مفصلاً.

هي الهيئة الممثلة للأركان العامة حالياً، إذ هي التي تعد خطط العمليات الحربية وتشرف على تنفيذها وقد أطلق عليها (مجلس الشورى[١])، وقوامه: صلاح الدين الأيوبي – رئيساً – والملك العادل أبو بكر (أخو صلاح الدين)، والقاضي الفاضل – العماد الكاتب الأصفهاني – بهاء الدين بن شداد وأعضاء من كبار القواد الآخرين، وتجب الإشارة هنا إلى أن الملك العادل كان نائباً للرئيس (صلاح الدين)، بينما كان العماد الكاتب الأصفهاني بمثابة (رئيس مكتب صلاح الدين أو أمين سره).

٢ - الاجتماعات الرئيسية للقيادة العامة - مجلس الشورى:

الاجتماعات الثلاثة الأولى:

وقد تمَّ هذا الاجتماع بتاريخ الجمعة الأول من محرم ٥٦٧هـ (١١٧١م) وكان موضوع الاجتماع، بحث رغبة (الخليفة العباسي) ونور الدين محمود – سلطان دمشق – في القبض على آخر الخلفاء الفاطمين، وهو العاضد وأهله، والخطبة للخليفة العباسي المستضيء[٢].

وقد تمَّ في الشهر والسنة ذاتهما وبحث فيه الحيلولة بين نور الدين ووصوله إلى مصر.

تاريخ هذا الاجتماع هو شوال ٥٨٣هـ (١١٨٧م). وكان سبب الاجتماع استعصاء مدينة صور (المحتلة) على صلاح الدين، وقد افتتحه بقوله: (هذا بلد حصين، في البحر ثلاثة أرباعها، ومن أحكام العزل تكميل الآلات وتركيب الأبراج والدبابات واستحضار كل ما يراد للحصار[٣]).

---

(١) عبد العزيز سيد الأهل – أيام صلاح الدين، ص١٦٠، س٧.

(٢) ابن الأثير – الكامل في التاريخ، ج١١، ص٢٤٢.

(٣) العماد الكاتب الاصفهاني (٥٩٧هـ) كتاب الفتح القسي في الفتح القدسي مطبعة الموسوعات ص٦٠، وللكتاب طبعة أخرى حققها محمد محمود صبح، نشر الدار القومية للطباعة، تاريخ ١/٨/١٩٦٥.

الاجتماعات الثلاثة الأخيرة:

الخميس ١٢ أكتوبر سنة ١١٨٩ – رمضان ٥٨٥. وقد بدأ صلاح الدين الاجتماع بقوله: «بسم الله والحمد لله وحده والصلاة على رسوله، اعلموا أن هذا عدو الله وعدونا قد نزل في بلدنا... إلى أن يقول: والرأي عندي مناجزة العدو قبل أن يفتح البحر، فليخبرنا كل منكم بما عنده»[(١)] وقد بحث في الاجتماع حصار الفرنجة (لعكا) وتراجع العرب عن حصارهم.

الاجتماع الخامس:

في الثلاثاء ١٠ أيلول سنة ١١٩١. وبحث فيه إقرار تخريب (عسقلان) أو عدم إقراره قبل الانسحاب منها. وقد عقب صلاح الدين الأيوبي على موافقته على تخريبها بقوله: (والله لئن أفقد أولادي بأسرهم أحب إلي من أهدم منها حجراً واحداً)[(٢)].

الاجتماع السادس:

مساء الأربعاء أول يوليو سنة ١١٩٢ (٥٨٨هـ). وقد بحث فيه عزم الصليبين على قصد القدس. وقد جرت العادة، إذا عقد صلاح الدين مشورة واتخذ قراراً سياسياً أو عسكرياً أو إصلاحياً، أن يكلف سكرتيره الخاص (القاضي ابن شداد) بتبليغه، إلى الجهات التي يعنيها الأمر لتقوم بتنفيذه. وفي هذا يقول ابن شداد: (فكتبت الرقاع وسيرت إلى الأمراء)[(٣)].

٣ - ديوان الجيش

ويسمى أحياناً (ديوان الإقطاع)[(٤)]. وهو الديوان المشرف على شؤون الجيش من تجنيد وعتاد في العهد الأيوبي في القرن الثاني عشر، وفي هذا

---

(١) الدكتور نظير حسن السعداوي – جيش مصر أيام صلاح الدين، مصر، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الأولى، عام ١٩٥٧م، ص٣٦.

(٢) عبد العزيز سيد الأهل – أيام صلاح الدين، مصدر سابق، ص١٦٠، س٧.

(٣) ابن الأثير – الكامل في التاريخ، مصدر سابق، ج١١، صر٢٤٢.

(٤) القاضي بهاء الدين – النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص١٧٩، ط المؤيد ١٣١٧هـ.

القرن سمّى الفاطميون هذا الديوان المستوفى، كما سمي فيما بعد: ديوان ناظر الجيش في عهد المماليك.

صاحب الجيش وكاتبه:

يمتاز بصلاحيات وواجبات عديدة فعليه الانتقال من صف إلى صف للتأكد من سلامة الخيل وجودة السلاح، وعدد الجنود واستعراض ملابسهم وزينتهم، وأنهم جميعاً في حالٍ مُرض[١].

أما كاتب الجيش تشمل اختصاصاته، تنظيم أرباب الإقطاعات، والنقود والمكيلات من الأفراد على اختلاف رتبهم، ويضع لذلك جريدة مقفاة على حروف المعجم، ويثبت بها أسماءهم، ويخصص الجريدة الجيشية. ويبسط جريدة ثانية خاصة بالإقطاع وصاحبه ونوعه وقدره. ويخصص جريدة ثالثة لأسماء أرباب النقود والمكيلات وقيمتها[٢]. وقد اشتهر خبير عربي في شؤون الجيوش هو القاضي ضياء الدين بن أبي الحجاج الذي وصفه أبو شامة بأنه أعلم الناس بشؤون الأخبار (وكان متولياً وظائف الدولة زمن صلاح الدين)، وقد عاش حتى صاحب ديوان الجيش، في أواخر دولة الأيوبيين، وقد استشهد في موقعة المنصورة عام ١٢٤٨م، ٦٤٧هـ.

العسكر والجند:

العسكر هم الجيش النظامي. وطريقتهم في القتال أن يحمل كل منهم جزداناً وجراوة وصولق جراب أو كيس من جلد يربط على الجانب الأيمن من الحياصة، وتوضع به حاجات السفر من الزاد[٣] وبقجة (وهي كلمة فارسية الأصل وتجمع على بِقَج، وهي الصرة من القماش، توضع بها الثياب أو النقود أو الأوراق الخاصة). وتركاش (وهو لفظ فارسي أيضاً ومعناه الكنانة أو الجعبة

---

(١) المرجع السابق، ص٢٠٧.

(٢) النويري – نهاية الأرب، ط دار الكتب، مصر، ١٩٢٨م، ج٦، ص٢٠٠،

(٣) المقريزي، السلوك، ج١، قسم ٢٧١ + قسم ٣ ص٧٨٩.

التي يوضع فيها النشاب) والجيش النظامي يخدم أفراده بصفة دائمة، ويتقاضون راتباً منتظماً، وعدد الجيش النظامي في عهد صلاح الدين لم يزد عن أربعة عشر ألفاً كما ذكر وزيره القاضي الفاضل عام ٥٦٧هـ ١١٧١م. وكان هذا الجيش مقسماً إلى مواكب وأطلاب (والأطلاب مفردها طلب وهو الأمير المقدم الذي له علم معقود وبوق مضروب وعدة ٢٠٠ أو ١٠٠ أو ٧٠ فارساً)[١] كما نظم الجيش إلى كتائب، تضم كل كتيبة زهاء ألف ومئة فارس، يقودها قائد كبير من أكابر الأمراء، أو النواب في ذلك العصر. أما السرايا فكانت تضم ما بين الأربعين إلى السبعين فارساً وقائدها يسمى (أمير البلطخانة) والفصيلة كانت تضم أربعين نفراً، منهم مقدم (وكانت تسمى الحلقة). أما الجماعة فتضم عشرين فارساً وسمي قادة الجماعات (أمراء العشرات).

أما الجند هم الجيش الاحتياطي أو الجيش الإقليمي، أي عساكر الأمراء أو أجنادهم، وعلى كل أمير إعداد ما يتطلبه حال ولايته، فإذا ذهب الأمير بجنده إلى الميدان، وإذا انتهت الحرب، عادوا أدراجهم إلى مراعيهم وخيامهم، ولا يتناولون أجراً منتظماً، ويمتاز البدو منهم بخفة الحركة ورمي السهام. وتشاهد مثل تلك الاحتياطية في مصر في نهاية القرن الحادي عشر الميلادي، على حين يرجح مشاهدتها في سورية منذ بداية القرن الثاني عشر.

تمييز الرتب:

لقد ميزت الرتب بين العسكر والجند في الجيش الأيوبي بأسماء غير واضحة في المراجع إلا كلمة (أمير) التي كان يقصد بها (رئيس القوات الحربية) و(والي) وكان يقصد بها الحاكم المدني للأقليم. ويحدث أن تجتمع الوظيفتان في شخص واحد على قول ابن الأثير والمقريزي[٢]. أما أمير

(١) المقريزي – الخطط، مصدر سابق، ج١، ص١٣٩.

(٢) ابن الأثير – الكامل، مصدر سابق،ج١٢، ص٣٤ + السلوك، ج١، قسم ١، ص٧٦، ٨٢.

الجيوش فهو القائد العام وقد يسمى (صاحب الجيش) أو (عارض الجيش) ويليه (قائد القواد) وهو رئيس القواد[1].

القبائل العربية الرّحل:

القبائل العربية البدوية جيش قائم بذاته، على الرغم من انتظام عدد من فرسانهم في جيش صلاح الدين ومنهم (بنو منقذ) أصحاب شيزر (والكنانية) وينسبون إلى قبيلة (كنانة) المهاجرة من عسقلان بعد سقوطها في أيدي الصليبيين سنة (١١٥٣) والتي حلت بعد رحيلها في (دمياط) وهي القبيلة التي دلت (صلاح الدين الأيوبي) على المسالك والطرق في غزوته لغزة وعسقلان عام ١١٧٧م[2].

الأحداث (المتطوعون):

الأحداث فرق حربية حديثة العهد في التكوين، ورئيس الأحداث يلقب بــ (المقدم)[3] وقد استعان صلاح الدين بأحداث مدينة (دمشق) للاستيلاء عليها عام ١١٥٤م فما كاد يحاصر البلد حتى ثار الأحداث على قائد الحامية، واضطروه إلى التسليم[4]، وسمي الأحداث بالمتطوعة في بداية النصف الثاني من القرن الثاني عشر، واختفت كلمة أحداث من المصادر التاريخية وحل محلها كلمة: (متطوعون). والأحداث والمتطوعون كلمتان

---

(١) النويري، ج٦، نهاية الأرب، مصدر سابق، ص٥٧ + ابن الأثير، الكامل ف يالتاريخ، مصدر سابق، ج١، ص٣٨١ + ج١١، ص٩٢.

(٢) نظير حسان السعداوي – جيش مصر، ط٢، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٩م، ص١٣.

(٣) ابن الأثير – الكامل، ج١٠، ص١٠٨، ١٧٨.

(٤) ابن القلانسي – ذيل تاريخ دمشق، ص٣١٥، ٣٢٧ + تاريخ الدولة الأتابكية ص١٩١ + جيش مصر، ص١٤.

تدلان على أن أفراد تلك الفرقة لم يكونوا قوة نظامية دائمة، بل كان في استطاعتهم العودة إلى أوطانهم أينما كانوا وحيثما شاؤوا، وعرف هؤلاء المتطوعة بالأحداث نظراً لحداثة عهدهم بالجندية، وقدر (ابن الجوزي)[(١)] الذين حضروا فتح بيت المقدس مع صلاح الدين عام ١١٨٧ من المتطوعين، زهاء عشرة آلاف من جميع البلاد. ولهؤلاء واقعة في تاريخنا مشهورة كثيرة الشبه بواقعة (حصن تهوده) في المغرب العربي هي واقعة (الغزاة المتطوعة)[(٢)].

فرقة النشابين والنفاطين والمنجنيقيين والعيارين:

النشابون هم رماة النشاب، أما النفاطون فهم رماة النفط لإحراق حصون الأعداء، بينما المنجنيقيون هم رماة المنجنيق أي آباء مدفعية هذه الأيام، والعيارون هم رماة الحجارة، وكانوا يملؤون مخالي الخيل[(٣)] بها، ويلحق هؤلاء وأولئك أتباع العسكر ويسمون سوقة.

دور النساء في الحرب:

على الرغم من خضوع المرأة العربية للتقاليد، وإرغام هذه التقاليد للكثير من المؤرخين على تجاهل الأدوار العظيمة التي أدتها المرأة العربية في ذلك العصر، فقد تناهت إلينا أسماء ومواقف مشرفة، في ميادين السياسة والإدارة والخدمات الطبية والاجتماعية في الصفوف الخلفية للجيوش العربية. فالسيدة (عصمت خاتون بنت معين الدين بن أنر) أرملة السلطان (نور الدين محمود) وزوجة صلاح الدين الأيوبي من بعده، قد وصفها المؤرخ المعاصر بحدة الذكاء ونفاذ البصيرة، وأن صلاح الدين كان يصدق

---

(١) مخطوط بن الجوزي – مرآة الزمان، ص٢٥٢.

(٢) ابن الأثير – الكامل، ج١٢، ص١٨.

(٣) جرجي زيدان.... تاريخ التمدن الإسلامي، ط الهلال سنة ١٩٠٢، ج١، ص١٢٠،

على رأيها، فلما بلغته وفاتها عام ١١٨٤م ٥٨٠هـ، وهو مريض بمدينة (حران) تزايد مرضه. وهذه المرأة هي صاحبة الفضل في بناء مدرسة (للحنفية) في دمشق وإقامة رباط (للصوفية)، و(خانقاه) معروفة باسمها على نهر بانياس(١)، وبنت تربة بقاسيون على نهر بردى بدمشق وبها دفنت، وأوقفت على هذه الأماكن أوقافاً كثيرة(٢). أما(ست الشام)، بنت أيوب وأخت صلاح الدين، فقد عرف عنها صناعتها للأشربة والأدوية والمعاجين والعقاقير في كل سنة بألوف الدنانير، وقد فرقتها على الجرحى والمرضى من المدنيين والعسكريين(٣). و(أم علي – تقية بنت أبي الفرج غيث بن عبد السلام بن محمد بن جعفر السلمي الأرمنازي)(٤)، الأديبة الخطيبة. والتي كانت تثير حماسة الجند في القتال واشتهر عنها نظمها لقصيدة حربية وصفت بها الحرب وما يتعلق بها أحسن وصف وأهدتها للملك المظفر تقي الدين عمر ابن أخ صلاح الدين عام ١١٨٣م. (وأم سلمة) التي وزعت السلاح وألبست ابنتها الخف والإزار، وأجلستها على سطح بيت مشرف على الوادي عند مهاجمة الإسماعيلية لمدينة (شيزر) أثناء غياب رجالها. فلما قدم المهاجمون دفعت بابنتها إلى الوادي لتقاتلهم، وظلت البنت تدفعهم بكل قواها حتى سقطت ميتة(٥). وهكذا نجد خليفات خولة بنت الأزور والخنساء تماضر يسطرن في القرن الثاني عشر مفخرة

---

(١) ابن الجوزي – مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، ص٢٤٥ + العيني، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، مصر، القاهرة، دار الكتب المصرية، فصل التاريخ، مخطوط مصوّر، تاريخ ١٠، ج١، ص٢٤ + ابن العماد، شذرات الذهب، ج٤، ص١٧٨.

(٢) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٦، ص٦٩.

(٣) النويري – مخطوطة نهاية الأرب،ص٢٠.

(٤) نسبة إلى قرية أرمناز من نواحي حلب، النجوم الزاهرة، ج٦ ص٦٩.

(٥) مؤيد الدين أبو المظفر (بن منقذ) الشيزري المعروف بأسامة (٦٨٤هـ) كتابه الاعتبار، نشر الدكتور، حتي، سنة ١٩٣٠ م (المقدمة).

للعرب. مما سيبقى حافزاً لنساء العرب على أخذ دورهن النضالي في سبيل التحرير فكأني بجميلة بوحيرد وليلى خالد تمثلان صرخة الرفض لواقع المجتمع العربي الحالي المتخلف الذي يحول دون مشاركة ملايين من رجالنا ونسائنا على طول الأرض العربية وعرضها في معركة التحرير.

ثالثاً - فن الحرب في بلاد الشام في القرن الثاني عشر:

فن الحرب فرع أساسي في العلم العسكري، يدرس أساليب إجراء الأعمال العسكرية الحربية، ويشمل الفن العسكري، الإستراتيجية وفن العمليات التعبوي (والتكتيك). والفن العسكري عندنا مستمد من تجارب التاريخ العسكري العربي في الماضي والحاضر، كما أنه يستقي الأساليب الحديثة الناجحة من أي مصدر كان في سبيل تطويره والاستفادة من تجارب الآخرين. وفن الحرب العربي جهاز متكامل بجميع حلقاته السوقية (الإستراتيجية) – فن العمليات التعبوي (التكتيك) – يزيد من قوانها ارتباط وتعاون وثيقان[(١)]. وقد تطرقت إلى مواضيع هي – بشكل أو بآخر – أجزاء من فن الحرب تحت عنوان (تنظيم الجيش العربي وتسليحه في العهد الأيوبي، القرن الثاني عشر). والمواضيع التي سنبحثها في قسم التكتيك **هي المواضيع التالية:**

أ تراتيب القتال وتنظيم التعاون:

إن تراتيب القتال في الجيش العربي في القرن الثاني عشر، ولاسيَّما في عهد صلاح الدين، كانت تتكون من المقدمة والميمنة والميسرة والساقة (الخلف) والقلب به السلطان. وتقسم الميمنة إلى جناحين: اليد اليمنى للجناح الأيمن، واليد اليسرى للجناح الأيمن. وكذا الميسرة تنقسم إلى الذراع الأيمن

---

(١) راجع المعجم المختصر – هيئة التديب السورية دمشق ١٩٦٣ – السطر السادس حتى الثاني عشر من الصفحة ١٨٥.

للقلب والذراع الأيسر للقلب. والتعبئة أن يقف كل عسكري في موضعه[١] وتتكون المؤخرة من المطبخ والخزينة وأدوات القتال والدواليب، والفائض من الخيول والمال، والأسرى والجرحى. وتنطبق هذه النظرية على ما جاء في الروايات المعاصرة عن التعبئة الصلاحية في إحدى المعارك الكبرى بعكا التي وقعت يوم الأربعاء (٤) أكتوبر عام ١١٨٩م ٢١شعبان عام ٥٨٥هـ.

عند بدء المعركة يكتفي بمنازلة العدو بأحد الجناحين، ويظل الآخر في مكانه لا يتحرك إلا إذا أصاب الأول الوهن (أي نزلت به خسائر كبيرة) أو أعياه الضعف. ووظيفة القلب أن يمد جناحيه بالأطلاب إذا أصابهما الضعف[٢].

لم يقتصر دور القائد في المعركة، في هذه الفترة، على القلب بل كان يطوف على الأطلاب جميعاً (السرايا)، أو أكثر من سرية بقليل يحثهم على القتال ويدعوهم إلى النزال ويحببهم إلى الاستشهاد فإذا ما اشتد القتال، طاف بين الصفوف من الميمنة إلى الميسرة، ويأمر الأطلاب بالتقدم والوقوف في مواضع يراها، وعليه أن يطوف كذلك حول العدو في كل يوم مرة أو مرتين إذا كان قريباً منه، وهو يسير ساعة وثم ينزل ليستريح، ولا ينصب له خيمة حتى لا يرى العدو ضعفاً[٣]. وكان صلاح الدين يتلو على الجنود، بوساطة قرائه، آيات من سورة الأنفال والصف والأحزاب لتذكيرهم أن الفرار إحدى الكبائر الخمس – ما دام عدد المؤمنين مثل نصف عدد العدو على الأقل – وكان العرب يتخذون من التهليل والتكبير أسلوباً لتقوية الروح المعنوية عند المجاهدين ويشترط عدم الإسراف فيه، لأن كثرته عند مقاتلة العدو تعتبر فشلاً[٤]، وفي حصار صلاح

---

(١) مقدمة بن خلدون، ط، المطبعة الأزهرية، ١٩٣٠م، ص٢٢٧، ٢٩٤.

(٢) جيش مصر في أيام صلاح الدين ص٤٢.

(٣) ابن واصل، ص٤٢٢ + ابن شداد، ص١٤، ١٩.

(٤) ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد، العبر وديوان المبتدأ والخبر، مصر، القاهرة، الطبعة الأولى الأزهرية عام ١٩٣٦م + طبعة دار الكتب المصرية، عام ١٩٣٦م، الجزء الخامس، الصفحة ٣١٤. تاريخ ابن خلدون، ج٥، ص٣١٤.

الدين لقلعة برزيه عام ١١٨٨م ٥٨٤هـ. كان تكبير المهاجمين (مع من معهم م الأسرى) عاملاً مهماً من عوامل المفاجأة، وإضعاف الرّوح المعنوية لدى المدافعين، إذ ضلل حجم التكبير العدو، فاستسلم، وسقطت القلعة.

ب اختيار الوقت والحرب الخاطفة:

كانت المعركة تجري في أي وقت، ولكن صلاح الدين، كان يؤثر الربيع أوائل الصيف في بلاد الشام مستغلاً ظروفها الجوية وجعلها سلاحاً في يده على عدوه[1] وجرت العادة أن تبدأ المعركة صباحاً (ما يسمى حديثاً أول الضوء) باكراً، وتنتهي عادة في المساء، وإذا كان الجيشان وجهاً لوجه، ولابُدَّمن الحرب فإن المعركة قد تدور ليلاً. وقد استخدم العرب في القرن الثاني عشر القتال الليلي وآثروه أحياناً لأنه يؤمن لهم التغطية لإغارتهم من رصد العدو كما يؤمن لهم ستر الانسحاب أما قبل المعركة النهارية، فتعطى الأوامر بدق الطبول حربياً، ثم ينفخ في البوق، ويكبر عند الضربة الثانية للطبول، فيأخذون أهبتهم ويمتطون جيادهم عند الضربة الثالثة[2].

وقد استخدم صلاح الدين أسلوب الحرب الخاطفة حين اتجه إلى المدن الساحلية بعد فوزه بحطين في عام ١١٨٧م إذ هاجم عكا وصفورية وقيسارية وغزة ونابلس.... وغيرها. حتى إذا استعصت عليه (صور) فضل تركها والعودة إلى الاستيلاء على بيت المقدس وما بقي من مدن. ولا شك في أن المباغتة التي كان يهيء صلاح الدين عواملها كانت أسلوباً جديداً في الحرب أثَّر تأثيراً كبيراً في القتال[3].

---

(١) ابن واصل، القاضي جمال الدين، مفرج الكروب في تواريخ بني أيوب، تحقيق الدكتور جمال الشيال، مصر، القاهرة.، المطبعة الأميرية، الطبعة الأولى، عام ١٩٥٧، الجزء الثاني، ص١٥٧.

(٢) السعداوي – جيش مصر، ص٤٦، س، ٥، ٨.

(٣) المرجع السابق ص٤٨.

جـ الاستمرار (القتال المتتابع) والإمداد:

وعندما لم تسعف خطة الحرب الخاطفة صلاح الدين في الاستيلاء على صور لمنعتها ابتكر أسلوباً جديداً في التكتيك، بأن قسم القوات إلى ثلاثة أقسام وقسم عليها الوقت بساعات صفر مختلفة، فما تنتهي الأولى إلا وتكون المجموعة الثانية قد هجمت، فيتصل بذلك القتال على المحتلين في صور. وهذه هي طريقة (التناوب) التي ابتدعها صلاح الدين، غير أنها لم تفلح في الاستيلاء على صور لسبب رئيسي هو وصول تموينها عن طريق البحر ومناعة المدينة، وتردد وتذمر بعض قادة جيش صلاح الدين ورغبتهم في الرحيل ورفع الحصار.

كان صلاح الدين قد نظم جيشه (أطلاباً) كما ذكرنا، ويضم كل طلب بين (٧١ – ٢٠٠) مقاتل تحت إمرة أمير. توزع عليهم الملابس والأسلحة (من الدرخانة) قبل خروجهم إلى الميدان. ويعطى كل واحد مبلغاً معيناً من المال لشراء ما يلزمه من ضروريات المعركة، ويحمل كل رجل إمداداته المقررة الثابتة من المؤن والعلف، وقد يشتريها على حسابه الخاص مع المواد الإضافية الأخرى من التجار (السابلة) المقيمين في سوق العسكر وقد شهدت أيام الحروب ارتفاعاً في الأسعار وانخفاضاً، بتأثير النشرات الواردة من الميدان ولم يمكن تموين العدو أحسن حالاً. بلغت غرارة الحنطة أكثر من مئة دينار صوري في سنة ١١٨٨[١].، والبيضة الواحدة ستة دنانير أي ما يعادل أكثر من خمس ليرات في هذه الأيام.

د الاتصالات (سلاح الإشارة) والاستطلاع:

لقد استخدم العرب في القرن الثاني عشر وسائل عديدة للاتصال في ظروف القتال، ومنها وسائل البريد المعروفة في عصرهم، من جوية

---

(١) ابن الأثير – الكامل، مصدر سابق، ج١٢، ص٣٥.

وبرية وبحرية وجاسوسية، وأضافوا إليها الحمام الزاجل (الهوادي) منذ عام ١١٧١. وقد وضع صلاح الدين مع رجاله في كل ثغر حماماً بحيث إذا نازل الفرنجة أحد الثغور أتاه الحمام بالخبر ليومه[١]. كما استخدم البريد المائي – بوساطة أمهر السباحين، وأشهرهم عيسى العوام. وقد انتصر العرب بفعل يقظة السباحين وسرعتهم في حمل الأنباء إلى صلاح الدين. أما الجاسوسية فقد استخدم العرب طريقتين: الأولى الاستفادة من الأسرى الصليبين ليمدوهم بالتفاصيل عن حالة جيوشهم المعنوية والمادية. والطريقة الثانية هي (بث العيون) من الفلاحين بين الوحدات الصليبية في صورة باعة متجولين للفاكهة واللحوم. وكذاك استخدم صلاح الدين أسلوباً للاتصال هو الاتصال بالإشارات النارية، كما استخدم العرب البوق في الحل والترحال، وفي أثناء اختراقهم الإمارات الصليبية بين الوديان والتلال[٢].

الاستطلاع:

الاستطلاع في العصر الحديث هو من أهم أنواع تدابير الأمن في نشاط القوات القتالي ويتضمن جمع المعلومات عن العدو ودراستها، يوزع الاستطلاع – بحسب وسائطه وتنفيذه – إلى استطلاع القوات، والاستطلاع الجوي، والاستطلاع بوسائط الاتصال، والاستطلاع السياسي، واستطلاع خاص (مدفعية، هندسية... الخ). ويعتبر التجسس النوع الرئيسي من استطلاع القوات. ومهمة الاستطلاع الرئيسية: تحديد تجمعات قوى العدو وكشف القناع عن فكرته. والمبادئ الأساسية في تنفيذ الاستطلاع هي الاستمرار والفعالية الآنية والتأكد من المعلومات المستلمة. والاستطلاع هو

---

(١) ابن شداد – النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية،مصدر سابق، ص١٦٨، ١٧٠.

(٢) أسامة بن منقذ، الاعتبار، نشر الدكتور حتي، سورية، دمشق، ١٩٦١م، ص٩، ١٠ + الدكتور السعداوي، البريد، ص٤٨.

أهم واجب يقع على عاتق جميع القادة وهيئات الأركان وتعميم المعلومات المستقاة عن العدو على هيئات الأركان المرؤوسة والقوات المجاورة والأركان الأعلى[١]. وقد تطور الاستطلاع حديثاً وتفرع بتطور العلوم فأصبح يتضمن حديثاً: سطع أرض – سطع إشعاعي – سطع أجهزة بصرية – سطع بأدوات المدفعية – سطع بوسائط الاتصال – سطع تعبوي – سطع تلفزيوني – سطع جرثومي – سطع جوي – سطع دبابات – سطع راداري – سطع لاسلكي – سطع لا سكي فني – سطع مائي (بنسبة الرطوبة) – سطع مدفعية – سطع منطقة الأعمال المقبلة – سطع هندسي – سطع قتالي.

العرب واستطلاع القوات في القرن الثاني عشر:

آ استطلاع القوات:

إن اللفظة الفارسية (اليزك)[٢] هي مصطلح الدولة الأيوبية الذي يعني الطلائع، إذ كانت أنظمة القتال الأيوبية بأن يسبق المعركة حركة استكشاف الفرقة أو المقدمة (الطلائع) المكلفة بحراسة الطرق أو عملية الاستطلاع، ويدرب أفرادها تدريباً خاصاً على استجلاب الأخبار من معسكر العدو[٣] وقد حالف النجاح الاستطلاع العربي في أداء مهمته الإخبارية والاستكشافية في أكثر من مناسبة، ولاسيَّما في أثناء حصار الصليبيين لعكا (سنة ١١٨٩ – ١١٩١)م. وفي أثناء عزمهم على مهاجمة (بيت المقدس) بعد استقرار الجيوش الأيوبية المصرية فيها سنة ١١٩٢، استطاع صلاح الدين أن يعد نفسه وجيشه لكل الاحتمالات التعبوية المتوقعة والتلاؤم معها في الدفاع عن

---

(١) المعجم المختصر للتعابير والمصطلحات العسكرية مصدر سابق، ص١٦، س ٣، ١٢.

(٢) اليزك لفظ فارسي – راجع السلوك للمقريزي،مصدر سابق، ج١، قسم ١، ص١٠٥.

(٣) المصدر نفسه، ج١ قسم١، هامش، ص١٠٥.

بيت المقدس، على ضوء التقارير التي أرسلها إليه الأمير (جورديك) رئيس (اليزك) أي الطلائع.

ب استطلاع قتالي:

وقد يسند إلى (اليزك) الطلائع مهمة مناوشة العدو بالنشاب لجذبه واستدراجه إلى معسكر العرب، وإذ ما أصدر صلاح الدين أمراً من خلال المعركة، ينقله الطواشي لجميع وحدات الجيش. ومن عمل الطواشي كذلك ملاحظة كل فردفي مكانه ومعاقبة المخالف بالموت. ويشاركه في هذا العمل الجاويش فضلاً عن الصياح والمناداة كأداة اتصال نفخاً في البوق، إيذاناً ببدء المعركة، أو لجمع العسكر حول خيمة السلطان لغرض معين[١].

ج العمل خلف خطوط العدو:

قام العرب بعمليات خلف خطوط العدو بوساطة الجماعات التي تقوم بالإغارة على معسكر العدو للتخريب ونشر الرعب في قلوب الأعداء. وقد اختار صلاح الدين أبطال هذه المهام ممن يتصفون بالخفة، وغالباً ما تحدث هذه الهجمات في الصباح الباكر. وكان الصليبيون ينتصرون حتى نصف النهار في إغارتهم على العرب، فإذا ما عادوا إلى معسكرهم وجدوه (خراباً ونهباً لعسكر العرب)[٢]. أما حرب العصابات والإغارات الليلية والكمائن، فقد أبلى العرب فيها بلاء حسناً في كل المعارك تقريباً. إذ اشتهرت الإغارات العربية الليلية على العدو مستهدفة خطف أسير أو الحصول على سلاح أو أسرار. كما كان العرب البدو يعملون كأدلاء لجيش العرب لأنهم أدرى باختراق الصحارى ومسالكها ومعرفة الدروب والمسالك المطروقة، وقد عملوا مع صلاح الدين في أماكن كثيرة واستعان بخبرتهم في كشف الوديان والطرق.

---

(١) ابن شداد، ص١٣٢، نظير سعداوي ص٤٥.

(٢) ابن شداد – النوادر السلطانية، مصدر سابق، ص١٢٥.

د الكمين :

المعنى الحديث لكلمة (الكمين) هو: إحدى طرائق العمل التعبوي للقيام بإغارة مفاجئة على العدو من مخابئ تقع على محاور تحركه. يستخدم الكمين في عمل الوحدات في الاستطلاع وأثناء المطاردة بغية إلحاق خسائر بالعدو وخطف الأسرى وتدمير الدبابات وغيرها[1]... وسندرس كمينين نفذا في حروب صلاح الدين هما كمين (جبل تبنين) وكمين لـــ (ريتشارد قلب الأسد).

كمين جبل تبنين:

الحرب خدعة – وقد استخدم صلاح الدين هذا السلاح ما استطاع إليه سبيلاً. فقد علم في عام ١١٨٨م ٥٨٥هــ. أن الصليبيين اعتادوا الخروج إلى جبل تبنين للاحتشاش والاحتطاب[2] في حراسة خيل منهم فأعد لهم كميناً بقوة تفوق قوة حراستهم. وأبلغ عسكر جبل (تبنين) بالخروج في نفر يسير من العربان، فإذا تبعهم الفرنجة ينهزمون أمامهم إلى جهة عينها لهم. وأرسل إلى قوات في عكا أن يكونوا على أهبة الاستعداد، فإذا تحرك الصليبيون في نصرة أصحابهم الواقعين في (الكمين) البعيد هجمت قوات عكا على معسكر العود. وكان أن رتب القوات ثمانية أطلاب (الطلب من ٧٠ – ٢٠٠فارس) واستخرج من كل طلب عشرين فارساً وأمرهم أن يناوشوا أمام العدو ويتظاهروا بالهزيمة بين أيديهم حتى يصل العدو إلى الكمين، وفعلوا ذلك. ووقع العدو في الكمين. وحقق العرب النصر بفنهم العسكري وانضباطهم في تنفيذه[3].

---

(١) هيئة التدريب دمشق ١٩٦٣، المعجم المختصر للتعابير والمصطلحات العسكرية ص٢١٤.

(٢) الفيروز أبادي، قاموس المحيط، لبنان بيروت، ط١ ١٩٣٣م، ج١، ص٥٦ بعير حطاب، يرعى.

(٣) أبو شامة الروضتين، مصدر سابق، ج٢، ص٢١٤١ + ابن شداد، النوادر، مصدر سابق، ص٤٢.

كمين لـ (ريتشارد قلب الأسد):

بعد معركة أرسوف (أيلول عام ١١٩١)، خرج ريتشارد إلى الصيد والاحتطاب فنصب له صلاح الدين كميناً في تشرين الأول من تلك السنة (رمضان عام ٥٨٧هـ) وكاد ريتشارد يقع فيه ويؤسر لولا أن فداه أحد خواصه الفرنسيين حين أظهر حسنُ لباسه على أنه الملك ريتشارد، وقادوه إلى صلاح الدين، فرحله إلى معتقل دمشق، وظل فيه حتى افتداه ريتشارد بإطلاق عشرة أسرى من أمراء العرب(١). ويبدو أن الكمائن العربية قد كبدت ريتشارد خسائر فادحة إذ أرسل مرة إلى الملك العادل يعاتبه على الكمين الذي نصب له في الرملة(٢).

هـ الإقامة :

حين يشاء القادة الإقامة في مكان ما، فإنهم يسعون لتوفير شروط أولها توفير المياه والحصول على الزاد والكلأ، ولم يكن من المستحب الاقتراب من الأنهر ليلاً لأنها تعرض الصورة للعدو، كما أن الصحراء ليلاً تحدث قلقلة، وهذا ما يفسر تسابق كل من العرب والفرنجة على احتلال أماكن المياه والنزول على مقربة منها والسيطرة على الوديان من تبة عالية، وبلغ هذا التسابق أشده في المعارك الدائرة حول مدينة عكا عام (١١٨٩ – ١١٩١) فقد شهدت تلك المدينة قيام معسكرين خارج أسوراها: أحدهما عربي والآخر إفرنجي يسير فيهما النشاط التجاري والصناعي حثيثاً جنباً إلى جنب مع النشاط الحربي وقعقعة السلاح. وعند إقرار مكان ما للإقامة، فأول ما كانوا يفعلونه هو ضرب فسطاط السلطان أي المركز الذي كانت تضرب حوله خيم سائر المحاربين، ثم بيوت أمراء الجيش ورباط خيل النوبة. ثم خيام الوحدات أو أماكنها.

---

(١) أبو شامة، مصدر سابق، ج٢، ص١٩٢.

(٢) بكتوت الرماح – السؤال والأمنية، ص ١٩ + فهرست الكتب، ص٥٨.

و الحصار:

لقد لجأ العرب إلى الحصار الاقتصادي على موارد العدو البرية والبحرية ليضطروهم إلى التسليم. ومن أمثلة ذلك حصار صور وبيروت وعكا والقدس – وغيرها[١].

رابعاً - الكمائن والإغارات في بلاد الشام في القرن الثاني عشر:

آ - تمهيد:

يمكن أن نتلمس نماذج حرب العصابات في صفحات التاريخ القديم والحديث.... فالتغلل والتخريب موصوفان في التوراة وفي التاريخ اليوناني القديم. هنالك مثالان قبل الميلاد هما: (حصان طروادة) عام ١٠٠٠ق.م، و(سبعة ضد طيبة) الحروب البيلوبونيزية عام ٤٣١ – ٤٠٤ق.م. ومن الأمثلة الأحدث والأقرب: عمليات المقاومة السرية ضد القوات النازية عام ١٩٤٢ – ١٩٤٥ إبان الحرب العالمية الثانية وحرب التحرير الوطنية في فيتنام الجنوبية.

..... ولكن حرب العصابات لم تدخل القاموس العسكري إلا عندما اجتاح نابليون إسبانيا عام (١٨٠٧ – ١٨٠٨). وتفكك الجيش الإسباني ثم أعيد بناؤه وتنظيمه فيما بعد على شكل وحدات صغيرة مستقلة قادرة على العمل في مجالات محدودة ومن هنا كانت التسمية (Gurilla) أي حرب صغيرة. وأستطيع القول بأن العالم بدأ يهتم جدياً بهذا اللون الجديد من طرائق القتال، لاسيَّما بعد انتصار معظم الحركات الثورية التي جاءت في أعقاب الحرب العالمية الثانية والتي اعتمدت على حرب العصابات أسلوباً وحيداً في العمل[٢].

---

(١) راجع العقيد مفلح علي – حطين، ص٢٨، ٢٩.

(٢) العماد أول مصطفى طلاس – حرب العصابات نشر دار الطليعة، ط الأولى أيلول ١٩٦٩م، ص٩، ١٠.

ب - أسباب حرب العصابات:

السبب الأول: انهيار الجبهة وتوغل قوات العدو في أرض الوطن توغلاً يصبح فيه قتال القوات النظامية التقليدي من العبث الذي لا طائل منه، ولا يمكنه أن يؤدي إلا إلى المزيد من الكوارث المفجعة التي لا مبرر لها. وهنا لابد من اللجوء إلى استخدام أسلوب حرب العصابات لإنهاك العدو وإضعاف معنوياته وذلك بشن الهجمات الجريئة والإغارات الحاسمة على مواقعه ونصب الكمائن لقوافل تموينه وأرتاله المتحركة آناء الليل وأطراف النهار مع الأخذ بعين الاعتبار عدم التورط معه بمعارك فاصلة (اضرب واهرب) حتى يحين الوقت للقيام بهجوم معاكس شامل يستهدف في النهاية القضاء على العدو المهاجم وإعادة حدود الدولة إلى ما كانت عليه. وهذه الحالة ذاتها لا تشابه حالة أمتنا العربية في القرن الثاني عشر حين لجأ العرب إلى حرب العصابات فحسب، بل تطابقها أيضاً، ولاسيَّما في الإغارات منها[١].

السبب الثاني: هو شعور فئة من الناس تتكون منهم الطليعة الرائدة في أمة خاضعة للاستعمار القديم أو الحديث يحكمها المستعمرون بأن الوقت قد حان لإعلان الكفاح المسلح للقضاء على الأوضاع الفاسدة وتحرير أرض الوطن من المستعمرين وأعوانهم. وهنا أيضاً لابد من استخدام أسلوب حرب العصابات، فتعلن الثورة في منطقة مناسبة، ثم يبدأ العمل لتوسيع المنطقة التي يسيطر عليها الثوار حتى تشمل أرض الوطن بكامله.

جـ - إغارات الكرك والشوبك:

الكرك اليوم إقليم في الأردن في مكان يقع جنوبي القدس إلى الشرق، خلف بحيرة لوط، بينما كان الكرك قديماً حصناً منيعاً يشرف على الطريق

---

(١) نفس المصدر ص١٠.

ذاته وكانت به الحج والتجارة. والشوبك في جنوب الكرك عن طريق الحج والتجارة. والشوبك في جنوبي الكرك على الطريق ذاته وكانت به قلعة حصينة كذلك، ومواضعها من الطريق يدل على قدرة تحكمها في الطريق، بين مصر والحجاز من ناحية، والشام من الناحية الأخرى(١).

تكررت اعتداءات الفرنجة على قوافل العرب، مما حدا بصلاح الدين لمرافقة هذه القوافل، وفي هذا يقول أبو شامة: « وكان لا يمكن لقافلة المرور حتى يخرج هو بنفسه يعبرها بلاد العدو(٢)». ويعبر أبو المحاسن عن نفس الحادث بقوله: (وكان على صلاح الدين نفسه أن يترك دمشق أو يترك القاهرة ليرافق كل قافلة يريد لها أن تمر من هناك٣). وكان على الكرك والشوبك فرنجي عنيد اسمه البرنس (أرنولد) أو (إرناط) كما سماه العرب. والحق أن نور الدين محمود كان له السبق في مناوشة صاحب الكرك فقد حاصرها سنة (٥٦٥هـ - ١١٦٩م) ونصب على قلعته المنجنيق وطلب إلى صلاح الدين أن يوافيه عندها فامتنع خوفاً من أن تضطرب مصر عليه، فبقي واعتذر لنور الدين(٤).

أسباب الغارات:

السبب الأول: هو إبعاد جميع البدو المقيمين حول قلعة الكرك والشوبك ليحرم الفرنجة من وجود أدلاء يرشدونهم إلى السبل الصحراوية المؤدية إلى مصر حتى انقض ملك الفرنجة لمهاجمة مصر (لا يجد بين يديه دليلاً٥ يرشده إلى معالم الطرق الصحراوية). وفعل ذلك.

---

(١) سيد الأهل – أيام صلاح الدين، ط١، ص١٨٧، س٨، ١٢.
(٢) أبو شامة – الروضتين في أخبار الدولتين، مصدر سابق، ج١، ص٢٠٦.
(٣) جمال الدين يوسف بن تغري بردى – المعروف بأبي المحاسن، ٨٤٧هـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، مصر، القاهرة، طبعة دار الكتب المصرية ط١، عام ١٩٢٩م، ج٦، ص٢٣.
(٤) الحافظ شمس الدين – دول الإسلام، نشر دار المعارف بالهند، الدكن، سنة ١٣٣٧هـ ج٢، ص٥٦.
(٥) ابن الأثير – الكامل في التاريخ، ج١١، ص١٣٧.

السبب الثاني: هو توسيع الطريق وتسهيله لوصل البلد بعضها مع بعض[1]، وذلك لتأمين المواصلات التي تحرسها القلاع والمخافر بين سورية ومصر كما سيتضح من سياق البحث.

الإغارات:

في سنة ٥٧٢هـ - ١١٧٦م، انحدر صلاح الدين مسرعاً من حلب إلى دمشق وبيسان ولحق بإمداد الكرك والشوبك المتجه إلى منطقة (عين جالوت) حيث بيَّتَ الفرنجة أمر مهاجمة العرب المجتمعين في تلك المنطقة. وكان أن التقى بها صلاح الدين فنازلها من فوره فقتل منها مقتلة عظيمة، وأسر زهاء مئة من رجالها. ويقول مؤرخو العرب إن صلاح الدين لم يفقد في هذا الاشتباك غير رجل اسمه (بهرام الشاويش) فإذا كان الأمر كذلك فقد أخذ صلاح الدين عدوه على حين غرة وأوهن قوة خصمه اللدود (أرناط)[2]، وفي عام (١١٨٢م) عاد صلاح الدين من مصر إلى دمشق واسترجع حلب وتعززت جبهته الداخلية في مصر والشام، وقرر الغارة على (الكرك) لإزالتها من خط مواصلاته بين سورية ومصر. وفي آب عام (١١٨٣م) غادر صلاح الدين حلب إلى دمشق، وكتب إلى نائبه العادل في مصر يأمره بالاستعداد لموافاته على (حصن الكرك) ولما تقابل صلاح الدين والعادل على الحصن في تشرين الأول (١١٨٣) نصب عليه سبعة منجنيقات لقذفه ليلاً نهاراً. غير أن صلاح الدين أدرك قلة ما معه من آلات الحصار، كما علم بتحشدات الفرنج لطرده من الكرك. وقبل أن يصلوا إليه، فك صلاح الدين الحصار عن الكرك، كي لا يشتبك مع الفرنجة في معركة حاسمة لم يستعد لها بعد، فعاد إلى دمشق[3].

---

(١) الروضتين، ج١، ص٢٦.

(٢) أيام صلاح الدين، مصدر سابق، ص١٨٨، ١٨٩.

(٣) مفلح علي – حطين، مصدر سابق، ص ٣٦، س، ٥، ١٣.

وفي أيلول عام (١١٨٤م) توجه صلاح الدين بجيش من دمشق قاصداً الكرك والشوبك من الشام وكان ابنه (المظفر) قد أطبق عليها من الجنوب، وضرب الحصار على حصن الكرك في يوم (١٣ آب من نفس السنة). وكان بجانب السور خندق عمقه ستون ذراعاً، وقرر صلاح الدين ردم هذا الخندق. فأمر بصنع اللبن وجمع الأخشاب لبناء قنطرة على الخندق، وتم إنشاء ثلاث قناطر على الخندق من هذا القبيل، مسقفة بالخشب من أعلى لتكون طرقاً آمنة يسير الجنود من تحتها، إلى السور لنقبه، وبهذه الطريقة تمكن من ثقب السور، وهدمه. ولكن زوجة (رينودي شاتيون) أرسلت رسالة إلى صلاح الدين ترجوه فيها هدنة قصيرة حتى تتم حفلات زفاف ابنها وأشفعت طلبها بهدية إلى صلاح الدين(١). وقد أمر صلاح الدين على الفور بوقف الهجوم فانتهز (رينودي شاتيون) الفرصة وأرسل رسالة إلى القدس يطلب فيها نجدات لدفع صلاح الدين عن الكرك، ولما علم صلاح الدين بقرب وصول هذه النجدات التي كانت بقيادة (رايموند) أمير طرابلس و(بلدوين) – ملك القدس، قرر أن لا يشتبك مع الفرنجة بمعركة فاصلة، لذلك انسحب عن الحصن قبل الإجهاز عليه(٢). وهكذا فقد بقي (رينولد) أمير الكرك يهاجم القوافل مع أنه خسر في عملياته في معظم كتائبه(٣).

د - غارة مرجعيون وحصن بيت الأحزان والرملة:

١ غارة مرجعيون:

في المحرم سنة (٥٧٥هـ – ١١٧٩م) حدث أن رأى السلطان ومستشاروه أن يقتحموا على الفرنجة مواقعهم، ويستوعبوا في وثبة واحدة ما

---

(١) إبراهيم الحنبلي – شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، وهو مخطوط مصور عن مكتبة المجمع العلمي العربي بدمشق سنة ١٩٤٢، ص٣١.

(٢) lamb th Flam of islam – p50.

(٣) سيديو – تاريخ العرب، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، سنة ١٩٤٨م. ترجمة عادل زعيتر ص٢٦٣.

بأيديهم من الغلات، فرحلوا صوب إقليم (البقاع) شرقي (جبل لبنان)، فالتقى بهم الفرجة عند (مرجعيون) في عشرة آلاف مقاتل، وما إن التقى الجمعان حتى أسفر اللقاء الأول عن هزيمة مشاة الفرنجة ثم تبعهم الفرسان الشجعان يقعون قتلى وأسرى (في يوم ١٥ يونيو عام ١١٧٩ الأحد، محرم عام ٥٧٥) حتى حال الليل بينهم، ووقع في الأسر أيضاً مقدم (الداوية) أو الهيكليين (فرسان المعبد)، كما وقع في الأسر (ريموند) صاحب طرابلس، و(هوج القيصري) أمير طبرية وأمير (الرملة) ثم أصحاب (جبيل وجنين ويافا) وابن صاحب (مرقبة) وعدد كبير من خيالة (القدس وعكا) وقد بعث صلاح الدين إلى بغداد بجماعة من أسرى (مرجعيون) وبتحف ونفائس فوصلت قبل أن يموت الخليفة المستضيئ بقليل من الأيام[(١)]. ثم انصرف صلاح الدين عن (مرجعيون) مفرقاً جيشه إلى فرق تغزو الفرنجة من بقاع الشام وخارج حدودها[(٢)].

٢ الإغارة على حصن بيت الأحزان:

كتب صلاح الدين إلى الصليبيين يطلب إليهم هدم (حصن بيت الأحزان)، فأبوا فراجعهم مرة ثانية فطلبوا إليه أن يدفع لهم ما صرفوا عليه، فقبل، وأخذ في مفاوضتهم لتحديد المبلغ حتى وعد بدفع (مئة ألف دينار) فلم يقبلوا، فاعتبر صلاح الدين أنه في حل من وعده، ويستطيع مهاجمة الحصن، فأغار عليه مرتين، وعاد منه بالغنائم والأسرى، ثم كتب إلى أجناد البلاد الشامية وعشائرهم وقبائل التركمان يستدعيهم وحمل إليهم الأموال والخيول والتشاريف، واكتمل لدى صلاح الدين جيش كبير فسار به إلى المخاضة وخيم بالقرب منهم يوم[(٣)] ٢٥ أغسطس عام ١١٧٩م السبت ١٩ ربيع الأول عام ٥٧٥هـ.

---

(١) الحافظ شمس الدين – دول الإسلام، نشر المعارف بالهند، الدكن، سنة ١٣٣٧هـ ج٢، ص٦٥.

(٢) أيام صلاح الدين، ص١٩١، ١٩٢، ١٩٣.

(٣) تاريخ مصر الحربي،مصدر سابق، ص١١٨، س١٠، ١٩.

- **التمويه: وفي يوم الأحد ٢٦ آب من العام نفسه ركب صلاح الدين إلى ضياع (صفد) وكانت قلعتها يومئذ تحت الاحتلال الصليبي (الداوية). وبغية تمويه أسلحة العرب ومعداتهم، قاموا بقطع العديد من أشجار الكرمة وصنعوا منها ستائر للمنجنيقات العربية، كما استخدم العرب بالإضافة إلى أشجار الكرمة الكثير من الزرجون والأخشاب وتذكرنا هذه الطريقة العربية منذ ثمانية قرون بطرائق التمويه الحديثة ففي الحرب العالمية الثانية (عام ١٩٣٩-١٩٤٥) اعتنى الحلفاء ودول المحور بالتمويه عناية كبيرة ولجؤوا إليه كثيراً لاسيَّما في اليابان وبورما، حتى كان الجند يحملون فوق رؤوسهم فروع الأشجار ليختلط الأمر على العدو كل الاختلاط**[1].

طرائق القتال:

في يوم الأحد (٢٦) آب عام١١٧٩ عاد صلاح الدين إلى المخاضة وقرر قتال الحصن بتكتيك جديد. فكان أن جمع القائد صلاح الدين هيئة أركانه وشرح لهم الموقف العام والموقف الخاص بدقة وطلب إبداء آرائهم، فأشار القائد (جاولي الأسدي)، مقدم الفرقة الأسدية، بالقتال زحفاً. كما قاتل العرب في سابق تاريخهم في عدة حوادث[2] ثم نقب الأسوار بحيث تصبح الأسوار محمولة على قوائم خشبية يرقها النقابون بعد دهنها بالنفط[3]، ثم تملأ المسافة بين القوائم بالقش والحطب ونشارة الخشب، وتشعل فيها النيران، فتأكل النيران القوائم الخشبية ويتداعى السور على الفور ويجد المهاجمون طريقهم إلى الحصن. (ولم يحسن

---

(١) راجع حاشية المصدر السابق ص١١٨.

(٢) ابن خلدون المقدمة – ط الأزهرية سنة ١٩٣٠م، مصدر سابق، ص٢٢٧، ٢٢٨.

(٣) مجهول المؤلف – فهرست الكتب التي نرغب أن نبتاعها، والمسائل التي توضح جنس الكتب التي نرغب الحصول عليها إنما نجهل أسمائها – مكتبة جامعة القاهرة، رقم ب ٧٧٠، عن لندن سنة ١٨٤٠+ راجع كتاب الرتب والنياشين، ص٢٧ لعبد الرحمن زكي.

العسكريون إجادة تلك العملية كما ينبغي إلا خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين[١] وفعلاً كان اتخاذ القائد صلاح الدين للقرار بعد إجماع هيئة الأركان على رأي الأسدي، المذكور، في عصر ذلك اليوم (الأحد ٢٦ آب عام ١١٧٩) أمر صلاح الدين بالقتال زحفاً، (ويلمس الإنسان العسكري سرعة البت في القرار وتنفيذه)، وصعد أحد المقاتلين العرب إلى باشورة الحصن وتبعه غيره من أتباعه فلحق به الجند حتى ملكوا الباشورة، ولم ير الصليبيون بداً من النجاة بأنفسهم إلى أسوار الحصن ليحموا أنفسهم وحصنهم بانتظار المدد من طبرية، غير أن العرب ألحوا في القتال رغبة في الوصول إلى نتيجة حاسمة.- قبل وصول المدد – وأدرك الليل المهاجمين قبل أن تتضح النتيجة، فأمر صلاح الدين بالمبيت في الباشورة إلى الغد، وفي الصباح تقدم النقابون داخل الأبراج الخشبية (وهي ستار واقٍ أسماه الغربيون Testudo) بينما عرف عند الشرقيين بأسماء مختلفة: المتراسة والحملوتات والجنوية والطوارق والدبابة والأبراج الخشبية المجلدة. وتستخدم خوفاً من وقوع السور على النقابين فيطحنهم، ونظراً لتعرض النقابين لسهام الحامية المدافعة ونيرانها بقصد إيقاف عمليات النقب[٢]. لقد تقدم النقابون داخل الأبراج الخشبية إلى أسوار الحصن. وهي بالغة الضخامة إذ كان سمكها خمسة عشر ذراعاً بالبخارى، واستعمل في بنائها ما يزيد على عشرين ألف حجر، ويكلف بناء الحجر أربعة دنانير فما فوقها[٣] وعلى الرغم من كل هذا التخطيط والدقة في التنفيذ لم يفلح الهجوم، إذ لم يتم الاختراق فأطفأ العرب النار المشتعلة على الأسوار كي يستمر النقب، فنقب السور ووسع النقب فيه، ثم أشعل

---

(١) تاريخ مصر الحربي،مصدر سابق، ص١٢٩.

(٢) مجهول المؤلف – فهرست الكتب، ص٧٢.

(٣) أبو شامة، الروضتين، ج٢، ص١٣.

ثانية فسقط السور لساعته يوم الخميس ٣٠ آب عام ١١٧٩ (٢٤ ربيع الأول عام ٥٧٥) فدخل الجيش العربي وغنم ما بداخل السور وحرر الأسرى ثم قاموا بهدم الحصن، وردموا البئر الذي فيه بأن جُعِلَ مقبرة، ثم عاد صلاح الدين إلى دمشق منصوراً، فمدحه عدد من الأمراء والشعراء وباركوا له بالفتح[1].

٣ غارة الرملة:

خرج صلاح الدين من القاهرة في نهاية أكتوبر عام ١١٧٧ (٣ جمادى الأولى عام (٥٧٣هـ) بعد الصلاة، حتى خيم بظاهر بلبيس أمر بالمنادة في العسكر بأخذ زاد عشرين يوماً أخرى للاستظهار. ثم سار صلاح الدين شمالاً حتى اقترب من الساحل على رأس قوة من عسكره الثابت. قدرها المؤرخون بأربعة عشر ألف فارس[2]، وستة وعشرين ألف راجل، منهم ألف باللباس الرسمي للجيش المصري (سروال أصفر) وفي نهاية نوفمبر عام ١١٧٧ (الأربعاء ٢٩ جمادى الثاني عام ٥٧٣هـ) أشرف صلاح الدين على عسقلان واكتسح حصونها، وغنم، وأسر، ثم تقدم نحو الرملة فاعترضه نهر (تل الصافية) ولم يتيسر للعسكر الاحتفاظ بنظامهم استعداداً للقتال المفاجئ[*]. وبينما هم على تلك الحال أشرف عليهم الصليبيون في الأول من كانون الأول عام ١١٧٧ (الجمعة ثاني جمادى ثاني عام ٥٧٣) ومقدمهم البرنس (أرناط) صاحب الكرك – واسمه الأصلي قبل أن يأتي الشرق (Renaudchatillon) في جموع كثيرة ومعه (بلدوين) الثالث ملك (بيت المقدس) يحمي ظهره (٣٦٥) فارساً، ولم يكن

---

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١١ ص ٣٠١، ٣٠٣+ العيني، ج٢١، قسم ٣، ص٦١٤، ٦١٥+ السلوك ج١ قسم١ ص٦٩+ ابن واصل، ص٢١٢. مصادر سابقة.

(٢) يجب الانتباه إلى أن صلاح الدين في هذا بالذات لم يكن قد بقي معه من الجيش سوى عدد من الأفراد فقط لكن قد انقسم إلى وحدات عصابات صغيرة.

(*) الحافظ شمس الدين أبو عبد الله المعروف (بالذهبي)، ٧٤٨هـ، تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم، ٣٩٦،

مع صلاح الدين غير بعض العسكر لأن أكثرهم افترق في السرايا طلباً للغنيمة فلما رآهم صلاح الدين وقف لهم في من معه وتقدم بين يديه (محمد بن تقي الدين عمر) فحمل على العدو وقاتلهم وعاد سالماً بعد أن أثر فيهم أثراً كبيراً، وعاد إليهم ثانية فقاتلهم حتى قتل شهيداً. ثم برز الفقيه عيسى الهكاري، وصمدت الوحدات إلى أن رأى القادة أن الانسحاب هو الحل الأفضل، فانسحبوا باتجاه الصحراء وتاه صلاح الدين فيها حتى أسعفه القاضي وأدلاء بما كان معهم من الزاد والعلف[1]. وتابع الجيش انسحابه إلى مصر وقد لقوا في طريقهم مشقة شديدة.

خامساً - الخطط والمناورات قُبيل معركة حطين:

. طبوغرافية حطين:

يقول ياقوت الحموي: (حطين قرية بين طبرية وعكا، بينها وبين طبرية فرسخان، ويقع بالقرب منها – في قرية (جبارة) – قبر، (يقال إنه قبر النبي شعيب عليه السلام[2]). دارت رحى معركة حطين في المنطقة الواقعة ما بين طبرية شرقاً حتى صفورية غرباً في مساحة تزيد على ٤٠ ميلاً مربعاً. تتصف هذه المساحة بالوعورة والجفاف لاسيَّما المنطقة التي احتدم فيها القتال ما بين قرية (ترعان) وطبرية، وهذه المنطقة آهلة بسكان قرى (لوبية وترعان

---

(١) أبو محمد الطيب ابن عبد الله بن أحمد المشهور – بابن محزمة، قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر، ج٢، المجلد الثاني، وهو مخطوط مصور بدار الكتب المصرية رقم ١٦٧ وشاهدنا من الصفحة ٨٧٣+ ابن واصل، مفرج الكروب، مصدر سابق، ص٢٠٠+ ابن الجوزي، مرآة الزمان، مصدر سابق، ص٢١٧.

(٢) أبو عبد الله الملقب بشهاب الدين، ٦٢٦هـ، ياقوت الحموي الرومي، معجم البلدان، طبعة بيروت، الجزء السابع، الصفحة ٢٧٣، ٢٧٤.

وحطين وكفر سبت والشجرة) ويؤمن السكان ماء للشرب عن طريق الآبار وبعض الينابيع المحلية النادرة. و(ترعان) جبال وعرة، ويلي هذه الجبال قمم حطين الست يطلق عليها (قرون حطين) وحول قرون حطين والأراضي المحيطة بها كانت تكثر الأدغال والحشائش القابلة للاشتعال في فصل الصيف[1]. أما تل حطين فيقع شمال الطريق بين طبرية والناصرة، والسفح الجنوبي لهذا التل منحدرٌ جداً، حتى إن الانحدار يصل في بعض الأحيان إلى ٤٥ درجة، وأرض التل ترابية هشة غير صخرية عدا القمة التي بها بعض الصخور. وقمة تل حطين مقسومة من الوسط إلى قمتين حادتين، بينهما انخفاض منبسط يمتد من الشمال إلى الجنوب. وفي وسط هذا الانخفاض صخرتان منبسطتان بسمك ٣٠سم ومساحة كل منهما تقارب ٢×٢م. والصخرتان موضوعتان بشكل خيمة صغيرة يقول السكان هناك إن الملك (غي) أمر بوضع الصخرتين على هذا الشكل كي يحتمي بها من نبال العرب وحر الشمس، وسفح التل الشمالي منحدر على شكل قائم تقريباً يتعذر تسلقه، وإذا نظر الواقف على التل إلى الجنوب يرى الأراضي المتموجة تقطعها وديان عديدة متقاربة، والرؤية إلى قعر هذه الوديان محجوبة. والناظر إلى الشرق يرى بحيرة طبرية كأنها بجانبه وتحت أقدامه. وفي الصباح تعكس البحيرة أشعة الشمس كأنها مرآة ضخمة فتبدو للشاهد منظراً مهيباً خلاباً. وإذا نظر الواقف على تل حطين (الذي يرتفع عن سطح البحر ٣١٦م) إلى الشمال يرى تحته وادياً سحيقاً ينتهي بأرض منبسطة بعرض يبلغ زهاء كيلو مترين يمتد من الغرب إلى الشرق وهو يلاصق تل حطين وينتهي إلى بحيرة طبرية[2].

---

(١) راجع العماد – الكاتب الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق وشرح محمد محمود صبح، نشر الدار القومية للطباعة والنشر ١٩٦٥.

(٢) العقيد مفلح علي، التاريخ الحربية للأمة العربية، الجزء الثاني، منشورات الفرع الثقافي العسكري، ١٩٥٩/٥/٣٠م، ص٧٦، ٧٧.

أولاً - السبب المباشر لنشوب حطين والإعداد لها:

مرت خلال سنة ٥٨٢هـ (١١٨٦م) قافلة غنية من قوافل العرب بالقرب من الكرك، فانقض[١] عليها (رينودي شاتيون) الذي سماه العرب (أرناط) على الرغم مما هو مقيد به من العهود وشروط الهدنة المعقودة في عام (١١٨٤م) بين الغزاة والعرب، واستولى على بضاعتها ومتاعها وسجن رجالها ونساءها.[٢] وتقول بعض المصادر الأجنبية إن أخت صلاح الدين كانت في القافلة (ويكذب أبو شامة وابن الأثير هذا الادعاء، إذ يجمعان على أن أخت صلاح الدين كانت في القافلة الثانية). ولما وقعت في قبضته استهان أرناط بالنبي محمد إذ قال لهم (إن كنتم تعتقدون في محمد فادعوه الآن يفك أسراكم ويخلصكم من شر ما وقعتم فيه). وقد ورد المعنى نفسه في كتاب الجنرال ج. ف. ث. فوللر[٣] إذ يقول: إن صلاح الدين أرسل إلى البرنس أرناط[*] وفداً يذكره بنصوص الهدنة ويطلب منه إطلاق سراح رجال القافلة، ولكن أرناط قال لرجال الوفد أن يقولوا (لصلاح الدين) على لسانه (أن اسأل محمداً أن يعيدها إليك) وورد في الصفحة ذاتها أنه أوصاهم أن يبلغوا صلاح الدين أنه (سوف يرجع إلى طريق العسكر العربي ليصدهم عن الوصول إلى صلاح الدين). أي أنه سوف يقطع الاتصال بين سورية ومصر بوساطة قلعتي الشوبك والكرك ولما نمي ذلك إلى صلاح الدين أقسم لئن أسره ليقتلنه بيده وبر بقسمه فيما بعد[٤]. كان هذا سبباً مباشراً لنشوب القتال. فأخذ

---

(١) د. أحمد بيلي – حياة صلاح الدين الأيوبي، المطبعة الرحمانية، ١٩٢٦ط٢ ص١٥٥، س، ٧، ١٠.

(٢) ابن الأثير – الكامل في التاريخ،مصدر سابق، ط١ ص٣٣٨، بعد السطر ٢٠.

(٣) المعارك الحاسمة في العالم الغربي ص٤٢٢.

(*) أينما ورد اسم أمير الكرك فهو (Renaud de chatillon) رينودي شاتيون.

(٤) مفلح علي – حطين، ص٤٠ س١١+ الدكتور أحمد بيلي، حياة صلاح الدين الأيوبي، ص١٥٥، س١٦. مصدران سابقان.

الطرفان يستعدان للحرب. إلا أن رايموند صاحب طبرية بقي على علاقاته الطيبة مع صلاح الدين نظراً لخلافاته مع جوي وسبيل زوجته[١]، كما طلب المساعد من صلاح الدين ضد أتباع الملك (غي) ومستشاره (جيرارد فورد) فلبى صلاح الدين الاستنجاد وجاء صلاح الدين شخصياً إلى بانياس للمراقبة[٢].

- الإعداد للمعركة:

اجتمع صلاح الدين بقواده ومستشاريه وخرجوا بقرار (الحرب لتحرير الأرض العربية كلها) فأعلن صلاح الدين في بداية عام ١١٨٧ الجهاد في سائر أنحاء البلاد العربية. فكتب إلى مصر وسائر بلاد الشام[٣]، كما كتب إلى العراق (الموصل وديار بكر وأربيل)[٤] يستنفرهم إلى القتال، ويأمرهم بالتجهيز له فكان بذلك قد أعلن النفير العام أو التعبئة العامة في سائر بلاد العرب لطرد الغزاة.

وكان ضمن القرار اتخاذ «رأس الماء» منطقة تحشد رئيسية. إذ يقول العماد الكاتب الأصفهاني في كتابه (الفتح القسي في الفتح القدسي): وانتظر السلطان وصول العسكر المصري المستدعى ورعى منه حصول العدد المستدعى، فأبطأ عليه وروده، واختلفت في الإسراع وعوده، فأمر ولده الأكبر الملك الأفضل (نور الدين عليا)[٥] وهو أبو الحسن بن صلاح الدين ولم يزل مكانه عنده علياً، أن يقيم

---

(١) حياة صلاح الدين الأيوبي،مصدر سابق، ص١٥٤.

(٢) ابن الأثير – الكامل في التاريخ، مصدر سابق، ج١١، ص٢٣٨.

(٣) ابن الأثير، الكامل، مصدر سابق، ط١٣٠١، ج١١، ص٢٣٩، س١٣.

(٤) رينيه كروسيه – تاريخ الحروب الصليبية، ص٧٧٩+ ابن الأثير، ج١١ ص٢٣٩.

(٥) هو الملك الأفضل نور الدين علي: أبو الحسن ابن صلاح الدين، ولد بمصر سنة ٥٦٥هـ كان ملك الشام في حياة أبيه ثم من بعده، اختلف مع أخيه العزيز وعمه العادل وتقلبت به الأحوال إلى أن صار صاحب سميساط وبقي بها إلى أن مات سنة ٦٢٢هـ (راجع النجوم الزاهرة) ج٦ ص٦٢٢، ٦٢٣ طبعة دار الكتب.

على رأس الأمراء برأس الماء[١] وتجتمع العساكر الواصلة منه تحت اللواء[٢].
وبعد أن وصلت الفيالق العربية من كل الأقطار، استعرضها صلاح الدين يوم الخميس ١٦ ربيع الآخر سنة ٨٥٣ (٢٥ يونيو ١١٨٧)[٣] بوجود الجيش المصري. إن اختيار صلاح الدين لمنطقة (رأس الماء القريبة من منطقة طبرية للتحشد جعلت رايموند يشعر بالطمأنينة لوجود الجيش العربي بقربه.

- كسب الوقت:

إن اختيار (رأس الماء) الواقعة جنوب دمشق وعلى بعد (١٥كم) غرب بلدة (الصنمين) والتي تعرف اليوم باسم قرية (المال) جعل الملك (غي) يرعوي عن مهاجمة (رايموند)، مما أبقى رايموند إلى جانب العرب طوال المدة التي سبقت (حطين) وهذا مما ساعد العرب على كسب الوقت، بغية وصول الجيوش العربية إلى منطقة الحشد الرئيسية. وكان صلاح الدين قد قرر تحرير فلسطين عن طريق طبرية، إذ بوجود صديقه رايموند يستطيع التقدم بدون كبير عناء. كما أن اختيار (رأس الماء) على طريق الحج الذي كان على وشك العودة في تلك الفترة كان عملية خداع ذكية من (صلاح الدين) لحمل العدو على الظن أن هذه الجيوش، إنما أتت لحماية الحجيج، فتحقق المفاجأة. توجه صلاح الدين إلى (قصر السلامة) بجزء آخر من الجيش حيث حاصر الكرك حتى (١١ أيار عام ١١٨٧) وقفل راجعاً بعد وصول الجيش المصري بقيادة العادل نائبه في مصر ومنع رينودي شاتيون

---

(١) رأس الماء: ميدان فسيح للحرب في حوران على بعد نحو عشرين ميلاً شمالي درعا.

(٢) الفتح القسي في الفتح القدسي – العماد الكاتب الأصفهاني، طبعة الدار القوميـة سـنة ١٩٦٥ ص ٥٩ س٧، ١١.

(٣) أيام صلاح الدين الأيوبي،مصدر سابق، ص١٥٧.

من اعتراض الجيش المصري[١]. وبعد وصولهم عاد الملك العادل إلى مصر بعد أن اتفق مع أخيه صلاح الدين على مشروع تحرير فلسطين[٢].

ثانياً - الخصائص الاستراتيجية عند الصليبيين وعند العرب:

إن الاطلاع على أغلب المراجع التاريخية ومقارنتها يعطينا هذه الخصائص بوضوح وأهمها:

آ الحصون للدفاع والبحر للتموين:

إن الصليبيين، منذ البداية حتى النهاية، لم يحتلوا الأجزاء العربية الداخلية بل كان كل ما قاموا به هو احتلال الأجزاء التي تعتمد على البحر لضمان التموين من الخارج على سلسلة من القلاع الضخمة للحماية والدفاع ضد أي هجوم. فاستراتيجيتهم تنحصر في الحصون للدفاع. والبحر للتموين والإمداد.

ب الصحراء حد فاصل:

لقد جعل الصليبيون الصحراء حداً فاصلاً لمملكة بيت المقدس من البحر المتوسط إلى البحر الميت، فأرادوا بذلك الاستفادة من الخصائص الطبيعية في حالتهم القتالية.

ج بناء خطين من القلاع والحصون:

بنى الدخلاء العديد من القلاع على طول حدودهم - يشمل الخط الأول منها قلاع (ذعيرة) الواقعة على الطرف الجنوبي لبحرية طبرية،

---

(١) مفلح علي – حطين ص٤٤.

(٢) الدكتور نظير حسان السعداوي – التاريخ الحربي المصري في أيام صلاح الدين ط١٩٥٧ النهضة المصرية ص١٧٧ س١٦، ١٧.

ثم (كرك المعاب) وقلعة مونتريال، وسامو، والكرمل، وبيت جبريل، وداروم. وشمل الخط الثاني بناء قلاع بورفورت، وشطنوف، وصفد، والقسطل، وغيرها. وهي تحمل وديان بحيرة طبرية. وفي الشمال توجد حصون عكا، وحصن الكرك، وحصن باترين التي تشرف على جبال لبنان وقد خططت هذه القلاع بحيث لا تزيد المسافة بينهما عن مسيرة يوم على الدابة.[1] أما الدفاع الساحلي: فقد اتخذ صفة المدن الساحلية المجهزة للدفاع مثل أنطاكية وطرابلس وعكا وصور وطرطوس والمرقب وبيروت وعسقلان وغيره، وهي أطراف القوى الصليبية من ناحية الغرب والبحر.

د الدفاع البري بوساطة المدن:

أقام الغزاة تحصينات للمدن التي تقع على الحدود بينهم وبين العرب. فكانت النقاط الرئيسية هي مرج عيون، وبانياس الداخل، وجسر يعقوب، وبيسان وطبرية[2].

هـ طبيعة بناء القلاع والحصون والمدن:

كانت أغلب هذه القلاع دائرية، وسورها كان حائطاً ذا برج مربع[3]، وامتازت بالجمع بين خصائص العمارة الحربية الغربية والشرقية[4] من حيث ازدواج الأسوار وتعدد الأبراج ذات الطابقين وكل مستلزمات الحامية من ذخيرة وتموين ووسائل دينية وصحية. فعلى سبيل المثال: إن حصن

---

(١) المرجع السابق ص١٧٢، س١٧.

(٢) المرجع السابق نفس الصفحة.

(٣) المرجع السابق نفس الصفحة.

(٤) من يريد التوسع في هذا المجال يراجع المرجع السابق، ص١٠٧.

(المرقب). كان بداخله كنيسة وحمامات وصهريج للمياه، ومخازن مؤونة تكفي الحامية خمس سنوات، ومساكن كبيرة ارتفاعها تسعة وعشرون متراً يتألف كل منها من طابقين يسعان ألف رجل[(١)]. على حين وسع حصن الكرك، مركز قيادة الداوية، حتى أصبح يضم خمسة آلاف مقاتل، وحظيرة لألف حصان[(٢)]. وبلغت مساحة سور أنطاكية اثني عشر ميلاً مربعاً. كما بلغ عدد أبراجه مئة وستة وثلاثين برجاً. وعدد شرفاته أربعة وعشرين ألفاً (على قول ابن الجيعان)[(٣)].

و طبيعة التجنيد عند الصليبيين:

ألزمت مملكة (بيت المقدس) كل قطاع كبير في جغرافيتها بتقديم مئة فارس للخدمة، أما الإقطاعات الصغيرة مثل (مارون) فكان نصابها خمسة عشر فارساً، والأصغر منها مثل (داروم) فارسين فقط. ويبدو أن هذه الأنصبة تتفاوت بتفاوت الإقطاعات فكان نصاب (بيت المقدس) أربعين فارساً و(عكا) ثمانين فارساً، فضلاً عن تقديم عدد معين من الرجالة عددهم خمسمئة رجل من عكا، خمسون رجلاً لكلٍ من (قيصرية وحيفا) ويضاف إلى تلك القوات جميعها ما يأتي إليها من أوربة في كل ربيع وخريف من قوات صليبية وأوربية للقتال من أجل الصليب[(٤)] كما يزعمون. ويبدو أن إمارة

---

(١) المرجع السابق الصفحة نفسها.

(٢) لامب – قصة الإسلام Lamb the Flame of Islam.

(٣) شرف الدين يحيى بن المقر المعروف بابن الجيعان (٨٥٥هـ) القول المستظرف في سفر مولانا الملك الأشرف وهو مخطوط موجود بالمعهد الفرنسي بالقاهرة ص١٠ من المخطوط وهو ورد في تاريخ مصر الحربي ص١٧٢.

(٤) المرجع السابق الصفحة نفسها.

(طرابلس) الصليبية التي تملكت على مالا يقل عن عشرين إقطاعية كان نصابها مئة فارس مثلها في ذلك مثل إمارة أنطاكية[١].

ز فرص الدفاع والهجوم لدى الصليبيين:

يقول المارشال (اللورد ويفل)[٢] كان أمام الصليبيين احتمالان أولهما القيام بحرب دفاعية طويلة يعتمدون فيها على قلاعهم وهو احتمال يتفق مع طبيعة الأماكن الإستراتيجية المنيعة التي تمتاز بها منطقة القتال، إذ إن الدولة الصليبية لم تستطع البقاء في الأرض المقدسة إلا بفضل هذه القلاع الحصينة وكان في وسعهم أن يصدوا هجوم العرب بفضل القلاع على أن يقوموا بهجوم معاكس يكمل حلقة هزيمة العدو، وكان في وسع قلعة طبرية أن تصمد أمام قوات صلاح الدين بعض الوقت. يضاف إلى ذلك أنه كان في شمال طبريا وجنوبها حصنان آخران منيعان، فإذا ما اضطرت قوات المسلمين إلى قتال حصن بعد الآخر، فإن ذلك يؤدي إلى انتقال زمام المبادرة إلى أيدي الصليبيين، ولكن القيادة الصليبية سحبت القوات الموجودة في هذه القلاع وجمعتها لتقابل القوات الإسلامية في العراء.

أما الاحتمال الثاني: **فهو حل قضية الدفاع الإقليمي الإستراتيجي عن طريق القيام بعملية هجومية، والشيء الذي أثار الصليبيين وشجعهم على ذلك هو الوضع الذي كان فيه جيش صلاح الدين إذ كانت بحيرة طبريا خلفه ولذلك كان باستطاعتهم ضربه ضربة ساحقة وهناك ناحية أخرى هي أن الصليبيين كانوا يريدون الإسراع في إنقاذ عائلة رايموند أمير طرابلس والجليل إذ كانت هذه العائلة محاصرة في قلعة طبريا. إلا أنه كانت هناك**

---

(١) المرجع السابق في تاريخ مصر الحربي ص١٧٣.

(٢) المارشال ويفل – ترجمة محمد عطية، المجلة العسكرية السورية العدد الثالث، السنة السادسة تشرين أول ١٩٥٥ ص١٢.

نقطة أخرى لا تشجع على القيام بعمل هجومي هي أنه كان يجب على جيش الصليبيين أن يقطع مسافة طويلة في أرض جرداء في حر الصيف دون أن يكون هناك تنظيم في تموين الجيش بالماء. وقد دارت مناقشات عنيفة بين أمراء الصليبيين والفرسان وأخيراً، أصدر مليكهم أمراً بالزحف. وهكذا تحول الجيش الذي كان يفترض فيه أن يدافع وينتصر، إلى جيش مهاجم في ظروف سيئة جداً(١).

الخصائص الإستراتيجية العربية

أ الخصائص الطبوغرافية:

لقد امتازت بلاد العرب باتساع رقعتها وطول خطوط مواصلاتها المتصلة شرقاً وغرباً بقواعد آمنة للتموين السريع، ففي الشمال (حلب وحماة) وإلى الشرق منها الموصل وقلاع الجزيرة وكلها مدن حصينة، وفي الغرب مصر وما وراءها من بلاد المغرب والنوبة واليمن.

ب قواعد التدريب:

غدت القاهرة منذ غادرها صلاح الدين في مايو (أيار) سنة ١١٨٢ قاعدة لتدريب الجند وإعداده وتموينه، وإليها يرسل الجرحى والأسرى، ومنها يطلب الإمداد لسد النقص في ميادين القتال، على حين غدت (دمشق) منذ أن استقر بها صلاح الدين الأيوبي سنة ١١٨٢م مسرحاً لنشاط سياسي، وساحة لحركات عسكرية مستمرة وقت ذاك. فلم يتخذ منذ ذلك الحين داراً سواها حتى (يقضي الله بيننا وبين الفرنج وهو خير الحاكمين)(٢).

---

(١) المرجع نفسه ص١٣.

(٢) أبو شامة – الروضتين في أخبار الدولتين طبعة وادي النيل بمصر سنة ١٢٨٧هـ الجزء الثاني ص٧.

ج التجهيز عند العرب:

لم يكن معروفاً على وجه التحديد عدد الفرسان والرجالة التي يقدمها كل أمير إلى صلاح الدين للخدمة الحربية، ولا نوع التنظيمات العسكرية في الإقطاع العربي الشرقي، ومرجع ذلك أن أحداً من المؤرخين المعاصرين لم يفرد الجيوش العسكرية بتأليف خاص على حد قول المقريزي[١] وكان من المعروف أن شؤون الجيش من تجنيد وعتاد على عهد الأيوبيين، أشرفت عليها إدارة اسمها إدارة (ديوان الجيش) وأحياناً (ديوان الإقطاع)[٢].

د فرص الهجوم أمام العرب:

يقول المارشال (ويفل): كان أمام المسلمين عدة احتمالات منها:

١ــ الهجوم على العدو في مكان احتشاده، بدلاً من البقاء أمام بحيرة طبرية التي تؤلف طرف كماشة تساعد هجوم العدو، ولكن القيادة الإسلامية وجدت أن تقدم المسلمين من مكان احتشاد العدو في صفورية يجعل عدة عوامل عامة تعمل ضدهم وأهم هذه العوامل طول خطوط التموين وقطع مسافات من الأراضي الجرداء، كما أن المسلمين كانوا يخشون أن يتراجع العدو إلى عكا ويحتمي فيها وعند ذلك فإن القوى الإسلامية تضطر إلى اللحاق بالعدو وتصبح وسط قلاع صليبية محصنة تستطيع أن تناوشها وتقضي عليها وأهم هذه القلاع هي كوكب الهوا، صفد، بيسان، مونت فورت وغيرها[٣].

---

(١) المقريزي – المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، النيل بمصر ١٣٢٤هـ الجزء الأول ص١٤٧.

(٢) ابن فضل الله: التعريف ص٨٩+ نظير حسان العدادي تاريخ مصر الحربي ص١٧٤.

(٣) المارشال اللورد ويفل – حطين، ترجمة محمد عطية، المجلة العسكرية السورية العدد الثالث، السنة السادسة، تشرين أول سنة ١٩٥٥، ص١٣.

٢ـ إن صلاح الدين قارن بين نواحي القوة ونواحي الضعف في قوة العدوفالحرب قد عجمت عوده وأكسبته خبرة وتجربة ومراساً. هذا القائد الفذ يدرك أن تفوق الصليبيين التعبوي، لن يتحقق لهم إلا بالتعاون المجدي بين المشاة والفرسان، لأن المشاة كانوا يؤلفون محور أمان للفرسان إذ كان المشاة يحمون الفرسان من سهام المسلمين وما دام الفرسان يستندون على المشاة فإن المسلمين كانوا لا يستطيعون الاصطدام بالفرسان أما نواحي الضعف الأخرى في جيش الصليبيين فهي عدم اهتمامهم بوضع الخطط وتنظيم التموين والإدارة.

لذلك كان الاحتمال الثاني أمام المسلمين أن يستغلوا مواطن الضعف لدى العدو وأن يوهنوا نواحي القوى ومعنى هذا أنه يجب على العدو أن يتجشم مشاق الرحلة في أرض جرداء وهي مشاق تضعف قدرته وتوهن قوى مشاته[١] وتفت في عضدها، فتصبح عاجزة عن الصبر والجلد.

هذه الخطة التي لجأ إليها المسلمون كانت تعتمد على افتراض قوي هو أن جيش المسلمين الذي يحاصر قلعة طبرية ويخيم في (كفر سبت) أصبح في وضع عسكري إستراتيجي، يغري العدو ويثير مطامعه في حصره والتغلب عليه، وهكذا فإن جيش المسلمين قد تحول الآن من الهجوم إلى حالة الدفاع مستغلاً المساحات التي تفصله عن جيش العدو ليقوم فيها بمناوراته الدفاعية. وفي الوقت نفسه فقد احتفظ جيش المسلمين لنفسه باستعمال خطة الهجوم عند الضرورة[٢].

سادساً - خطط الحرب العربية والصليبية:

أولاً - خطط الحرب - خطة الحرب العربية

الاجتماع الأول:

اجتمع صلاح الدين بقيادته العامة في (عشترى) وفي هذا المجلس عرض صلاح الدين عزمه على غزو فلسطين والساحل من ناحية طبرية على قاعدة

---

(١) المرجع السابق ص١٤.

(٢) الصفحة نفسها.

البدء بالهجوم، وشرح خططه العسكرية التي تكفل تحقيق هذا الفرض وأقرت القيادة الهجوم إذ من الأرجح عسكرياً أن القيام بالهجوم قبل العدو يجعله منقاداً لرغبات المهاجم ويجعل مصائب الحرب تنصب على بلاد العدو[١].

الاجتماع الثاني:

جرى هذا الاجتماع بعد أن احتشد الصليبيون في صفورية فأشارت الأكثرية عليه بترك اللقاء واتباع (خطة الإغارات) المتكررة حتى تضعف مقاومة العدو ٢ أولاً ثم يضرب العرب الضربة القاضية. وأشار فريق الأقلية بالدخول سريعاً في معركة فاصلة لأن الأخذ بالخطة الأولى قد يزعزع ثقة الجند بالدخول سريعاً في معركة، فاتخذ صلاح الدين قراره حيث قال: (الرأي عندي أن نلقى بجمع المسلمين جمع الكفار، فإن الأمور لا تجري بحكم الإنسان ولا نعلم قدر الباقي من أعمارنا ولا ينبغي أن نفرق هذا الجمع إلا بعد الجد بالجهاد[٣].

أ الخطة الإستراتيجية:

تم وضع هذه الخطة بعد أن دمر الجيشان العربيان السوري والمصري المرافق التي تعتمد عليها قلعة الكرك والشوبك، وإن المتقصي لأغلب المراجع يستطيع أن يتبين الخطة الإستراتيجية التالية عند العرب:

ب القيادة وتوزيع القوات:

يقول (رينيه كروسيه) في كتابه تاريخ الحروب الصليبية:

---

(١) الجغرافيا العسكرية، بغداد، الطبعة الثالثة سنة ١٩٣٨ ص١٦.

(٢) ابن الأثير – الكامل في التاريخ، الطبعة الأولى بالمطبعة الأزهرية سنة ١٣٠١هـ، ج١١، ص٢٤٠ س٢٦.

(٣) المرجع السابق ص٢٤٠، ٢٤١.

تقرر أن يكون صلاح الدين القائد العام للجيوش العربية بأسرها، المصرية والسورية والعراقية وقد فرضت طبيعة الأقاليم تَكَوَّن الجيش العربي من محورين هما:

١ــ المحور الجنوبي (المصري): بقيادة العادل بحراً وبراً.

٢ــ المحور الشمالي (السوري والعراقي والجيش المصري الذي وصل بعد عملية الكرك). بقيادة الأفضل رافقه صلاح الدين(١).

ج توزيع الأهداف:

قسم صلاح الدين الأهداف على الجيشين على الشكل التالي:

أ - **المحور الجنوبي** القادم من مصر بالهجوم على العدو براً وبحراً فإن دخل الجيش البري من جهة (العريش) فسيلتقي بالأسطول المصري في ميناء عسقلان قرب يافا، وبذلك يعزل مدينة القدس عن البحر(٢).

ب - **المحور الشمالي:** يهاجم المحور الشمالي العدو من منطقة طبرية ويقوم بمعركة فاصلة في (حطين) ثم يطارد العدو ليستولي على (عكا) ليشطر دولة العدو إلى شطرين ثم يقول بالتوجه إلى الشمال ليحرر باقي الموانئ بين (عكا وبيروت) ثم يعود المحور الشمالي ليلتقي بالمحور الجنوبي في عسقلان كي تتوجه كل الجيوش لمحاصرة القدس وفتحها(٣).

---

(١) ابن الأثير - الكامل في التاريخ، المطبعة الأزهرية سنة ١٣٠١هــــ، ج١١، ص٢٣٩ س١٥+ العماد الكاتب الأصفهاني الفتح القسي في الفتح القدسي ص٥٩ س١٩ الدار القومية والنشر سنة ١٩٦٥ ميلادية.

(٢) مفلح علي - حطين، ص٤٧، س١، ٣.

(٣) المرجع السابق مفلح علي - حطين، ص٤٧.

د   الخطة العربية التكتيكية لحطين:

١ - الأسس الرئيسية للخطة العربية:

يقول العماد الكاتب الأصفهاني في كتابه (الفتح القسي في الفتح القدسي) وتحت عنوان (ذكر دخول السلطان صلاح الدين بالعسكر إلى ديار الفرنج)[١].

وقرر لكل كمين مكاناً، ولكلّ قرن قراناً[٢] ولكلّ جمر مطفئاً، ولكل جمع مكفئاً، ولكل زند مورياً ولكل حد ممهياً[٣]، ولكل قضية حكماً ولكلّ حنية[٤] سهماً، ولكل يمين مقبضاً[٥] ولكل يمان مقبضاً.

ويجب الانتباه إلى أن تعبير (العماد الكاتب الأصفهاني) لا يقصد به أن صلاح الدين قد حدد لكل كمين مكاناً في (حطين) وإنما في معسكره وفقاً لتصور سابق للمعركة، يدل على ذلك قوله بعد ذلك: (ورحل يوم الجمعة، السابع عشر من ربيع الآخر والتوفيق مسايره، والتأييد موازره، والتمكين مضافره، والسعد مظاهره والجد مكاثره.... (إلى أن يقول) وخيم على خسفين[٦] وقد أدنى الله الخسف بالعدو وخسوفه، وكسف الكفر وكسوفه، وبات والوجوه سافرة، والعيون في سبيل الله ساهرة، والأيدي لسيوف الأيد شاهرة)[٧].

---

(١) العماد الكاتب الأصفهاني – الفتح القسي في الفتح القدسي، عام ١٩٦٥ نشر الدار القومية ص٦٩، ٧٠.

(٢) القرن: الكفء في الشجاعة. والقرآن: حبل من سلك يشد في العنق والمقصود أنه جعل لكل سيد شجاع من الأعداء حبلاً يشد عنقه.

(٣) أمهى الحديدة: إحداها وسقاها.

(٤) حنية: أي القوس وتجمع حنية على حنايا وحني.

(٥) مقضب: قاطع من الأغصان للسهام.

(٦) خسفين: قرية من أعمال حوران في الطريق إلى مصر بين نوى والأردن (راجع ياقوت الحموي) ج٧، ص٣٨١، ط بيروت.

(٧) العماد الكاتب الأصفهاني: الفتح القسي في الفتح القدسي، طبعة عام ١٩٦٥ ص٧١، ٧٢.

أدركت القيادة العربية أن النصر حليف الإبداع والابتكار اللذين يحفظان المفاجأة، وعلى هذا الأساس تركزت الخطة التكتيكية العربية على النقاط الثلاث التالية:

١ــ استدراج قوات العدو بإغرائها لترك قلاعها في صفورية وقتالها في أرض مكشوفة بعيداً عن تلك القلاع والحصون.

٢ــ الهجوم على العدو من أماكن غير متوقعة وذلك بنصب الكمائن في (حطين) بين صفورية وطبرية، وهي أرض خالية من الماء في حر الصيف، فيرغمهم على الاستسلام أو الهلاك عطشاً.

٣ــ المطاردة: بعد الانتصار تقوم القوات بالمطاردة حتى عكا ومن ثم بتنفيذ سائر المراحل المحددة في الخطة المذكورة في الخطة الإستراتيجية التي سبق ذكرها أيضاً[١].

هـ التحرك من عشترى إلى الصنبرة:

في يوم ٢٦ حزيران عام ١١٧٨ تحرك صلاح الدين بجيشه من معسكره في (تل عشترى) في أشد فصول السنة حراً. وعبر نهر الأردن وعسكر في (الصنبرة)[٢] في منطقة الأقحوانة[٣] إذ يقول العماد: ثم أصبح سائراً ونزل على الأردن بثغر الأقحوانة، بعزم الصيال[٤] وعز الصيانة، وأحاط ببحيرة طبرية بحيرة المحيط وضاق ببسائط خيامه ذلك البسيط،

---

(١) مفلح علي – حطين، ص٦٥، ٦٦.

(٢) يقول ياقوت الحموي الصنبرة (مقابل عقبة فيق بينها وبين طبرية ثلاث أميال) معجم البلدان، مصدر سابق، ج٣ ص٤١٩.

(٣) ابن الأثير – الكامل في التاريخ،مصدر سابق، الطبعة الأولى بالمطبعة الأزهرية المصرية سنة ١٣٠١هــ،ج١١،ــ ص٢٤٠ س١٢.

(٤) الصيال: الذي يسطو ويستطيل على خصمه.

وبرزت الأرض في قشب أثوابها[1]، وتفتحت السماء لتنزل الملائكة من أبوابها، ورست سفن المضارب على تلك الأثباج[2+3].

ويقول ابن الأثير[4]: (وعرف كل منهم موضعه وموقفه وأمره بملازمته، وسار على تعبية فنزل بالأقحوانة بقرب طبرية ويقول الدكتور أحمد بيلي: في كتابه حياة صلاح الدين الأيوبي (وعبر يوم السبت نهر الأردن جنوبي بحيرة طبرية، وإنما اختار هذه الجهة لما كان بينه وبين صاحبها من الرابطة كما سبق، وأقام جنده الليلة الأولى هذه، عند الأقحوانة[5].

الاستطلاع:

خطط صلاح الدين لاستطلاع منطقة حطين وكفر سبت ولوبية، وهي ما يفصل بين جيشه وجيش العدو من الأرض، بين طبرية وعكا، وحدد على جوانب الطريق قرب لوبية مواضع الكمائن، وقد نفذت مرحلة الاستطلاع بمجملها، ولاسيَّما توجيه قوات الملك الأفضل ووصولها.

ز الاستدراج بالمناوشات:

يقول العماد: والسلطان صلاح الدين في كل صباح يسير إليهم، ويشرف عليهم، ويراميهم وينكل فيهم ويتعرض لهم ليتعرضوا له، ويردوا عن رقابهم سيوفه وعن شعابهم سيوله. فربضوا وما نبضوا، وقعدوا وما نهضوا. فلو برزوا

---

(١) قشب وأثوابها: أي جديدها. وسلاح قشيب: مجلو.

(٢) الأثباج: جمع ثبج وهو وسط الشيء ومعظمه.

(٣) العماد الكاتب الأصفهاني – الفتح القسي في الفتح القدسي، طبعة عام ١٩٦٥م، نشر الدار القومية ص٧٢ س٨، ١١.

(٤) ابن الأثير – الكامل في التاريخ،مصدر سابق، ط ١٣٠١هـ، ص٢٤٠ س١١، ١٣.

(٥) الدكتور أحمد بيلي – حياة صلاح الدين الأيوبي، الطبعة الثانية سنة ١٩٢٦ الطبعة الرحمانية بالخرنفش بمصر رقم ٣٥ ص٥٧ س٥، ٧.

لبرز إليهم القتل في مضاجعهم[1] وعاينوا مقام صارعهم في سوقهم إلى مصارعهم. وفزعوا مما فيه وقعوا، وجبنوا عماله تشجعوا. ويقول العماد في مكان آخر. ووصل الخبر بأن الفرنج ركبوا، وثابوا عن ثبات ثباتهم ووثبوا، وعبوا وعبوا، ودبوا حتى يذبوا، وشبوا النار، ولبوا الثار، وقدموا للنزول بالدار البدار، وذلك في يوم الجمعة رابع عشر شهر ربيع الآخر. فما كذب السلطان الخبر حتى صدق عزمه، بما سبق به حكمه، وسر حين أحاط بمسيرهم علمه. وقال: (قد حصل المطلوب وكمل المخطوب. وجاءنا ما نريد. ولنا بحمد الله الجد والجديد، والحد والحديد، والبأس والشديد، والنصر والعتيد، وإذا صحت كسرتهم[2] وقتلت وأسرت أسرتهم، فطبرية وجميع الساحل وما دونها مانع، ولا عن فتحها وازع).

ويقول ابن الأثير: (فرحلوا من معسكرهم الذي لزموه، وقربوا من عساكر الإسلام، فلما سمع صلاح الدين، بذلك عاد عن طبرية إلى عسكره وكان قريباً منه وإنما كان قصده بمحاصرة طبرية أن يفارق الفرنج ليتمكن من قتالهم)[3].

يتبين لنا من كل هذه المراجع أن صلاح الدين، قد قرر ونفذ إرسال مفارز قوية من معسكره للتحرش بجيش الفرنج المرابط في صفورية بالإضافة إلى هجومه على طبرية، فكان يقصد بذلك استدراج العدو إلى الأرض التي يريد.

ح سبق العدو ونصب الكمائن:

وضع صلاح الدين في خطته التكتيكية لمعركة حطين احتمال تحرك الفرنج من صفورية بعد هذه التحرشات وتوجههم لقتاله، فإن أقدموا على ذلك

---

(١) أي لكتب عليهم الموت، يعني المؤلف قول الله تعالى: (قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم) (آل عمران ١٥٤).

(٢) العماد الكاتب الأصفهاني – (الفتح القسي في الفتح القدسي)، طبعة ١٩٥٦ ص٧٤ س١٠، ١٣+ ص٧٧، س١٨، ٢٠.

(٣) ابن الأثير – الكامل في التاريخ، طبعة ١٢٣١هـ الطبعة الأولى المطبعة الأزهرية المصرية ص١٤١ س١٨، ٢٠.

حرك صلاح الدين جيشه من الصنبرة وسبق جيش الفرنج إلى منطقة لوبية (ويحصل بعسكره وقدامهم)[1] ويحتل مواضع الكمائن بعد أن يكون جنود صلاح الدين قد (أفنوا ما هنالك من ماء الصهاريج)[2].

ط تحقيق المفاجأة بالكمائن:

تقرر أن تقوم الكمائن العربية بمفاجأة جيش الفرنج وهو في ترتيب المسير وترغمه على الوقوف والقتال بدون ماء وقت الظهيرة، في أشد فصول السنة حراً. عند وصول الفرنج مواضع الكمائن في طريقهم إلى الجيش العربي، وقد تركوا الآبار العذبة وراءهم ودخلوا التلال الجرداء اللافحة (لجبل ترعان) الذي يبعد (٢٠ميلاً) عن بحيرة طبرية. وبعد تنفيذ هذا الجزء من الخطة سيرغم العدو على تغيير خططه، واتخاذ وضع في غير صالحه للإخلال بتوازنه ويضطره إلى إجراء تغيير شامل في ترتيب قواته للمعركة، وبذلك تتاح الفرصة للإجهاز عليه إما بالهلاك عطشاً أو التسليم، وتربح المعركة[3].

ثانياً - خطة الحرب الصليبية

الخطة الاستراتيجية

آ - اجتماع القيادة الصليبية في تموز

يقول «ج.ف.س.فوللر» في كتابه (المعارك الحاسمة في العالم الغربي) الجزء الأول من الصفحة٤٢٥: في ٢ تموز دخل «رايموند» على

---

(١) الروضتين، مصدر سابق، ص٧٦.

(٢) محمد فريد أبو حديد – صلاح الدين وعصره، مصر القاهرة، ١٩٦٢م، ص٣٤.

(٣) مفلح علي – حطين، مصدر سابق، ص٦٧.

الملك «غي» وقال له: (يجب التمسك بالعدول عن السفر إلى طبرية لأن سقوطها أهون بكثير من ضياع المملكة. فبيننا وبينها لا يوجد إلا عين ماء واحدة صغيرة، وهي لا تكفي لأي جيش مهما كان صغيراً وحالما تغادر هذا المكان سوف يزعجك المسلمون ويرغمونك على الوقوف فإذا هاجمتهم لجؤوا إلى التلال حيث لا يمكنك مطاردتهم، وإذا أرغمت أنت على التوقف، ماذا سيعمل جنودك وخيولك من دون ماء؟ كما أن كثيراً منهم سيموتون من العطش وفي اليوم التالي سيقومون بتطويقك).

وقد وافق الملك على هذا الرأي وتمَّ القرار على إلغاء الزحف إلى طبرية[1]، ولكن في منتصف الليل دخل «جيرارد» سراً على الملك في خيمته وكان يكره «رايموند» وقال له: (سيدي لا تصدق ما قاله رايموند لأنه خائن ويريد إذلالك). وقد نجح في إقناعه بتغيير رأيه وذلك لأن الملك لم يستطع مخالفة من ساعده على تنصيبه ملكاً وهكذا تم اتخاذ القرار بالتوجه إلى صفورية[2].

ب - إقرار الخطة الهجومية:

كان الصليبيون وقتذاك حيال إحدى خطتين هما:

الخطة الدفاعية:

وصاحبها «رايموند» المشكوك بولائه كما أسلفنا للصليبين، وخلاصتها:

الاجتماع في صفورية حتى يزحف صلاح الدين نحوهم إذا شاء وتنتاب جيوشه متاعب الطريق وقلة الماء في البادية ما بين طبرية وصفورية وطوله

---

(١) عبد اللطيف حمزة – أدب الحروب الصليبية، دار الفكر العربي ط١ ١٩٤٨م، ص١٧ س١٩–٢٠.

(٢) مفلح علي – حطين،مصدر سابق، ص٧٣–٧٤.

١٥ ميلاً. والواضح أن هذا الرأي لم تُشِبْهُ في الظاهر شائبة من الريب أو الخديعة، فقد قال به «رايموند» وهو عالم أن طبرية ستذهب إلى صلاح الدين وأن الحكمة تتطلب الانتظار حتى يزحف العرب. ومالت الأغلبية إلى هذا الرأي.

ـ الخطة الهجومية:

طرح هذه الخطة «أرناط» و«جيرارد» مقدم (الداوية). وخلاصتها: أن يتقدم الصليبيون من صفورية لمقابلة صلاح الدين، وحجتهم في ذلك أن رأي «رايموند» فاسد لعدم إخلاصه للفكرة الصليبية وهنا يذكر (العيني) في كتابه (عقد الجمان في تارخ أهل الزمان) بعض ما قاله أرناط إلى رايموند في صدد خطته ونصه (قد أطلت في التخويف من المسلمين، ولا شك في أنك تريدهم وتميل إليهم وقولك إنهم كثيرون فإن النار لا يضرها كثرة الحطب)[١].

ويقول في المعنى نفسه (ابن كثير القرشي) في كتابه (البداية والنهاية في التاريخ). اعترض عليه البرنس صاحب الكرك (المقصود رايموند) فقال له: لا شك في أنك تحب المسلمين وتخوفنا كثرتهم وسترى غب ما أقرن لك[٢].

---

(١) بدر الدين محمود المعروف (باليمني) ٨٥٥ هـ، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان الجزء الأول – القسم الأول ص٣٣، تاريخ مصور بدار الكتب المصرية رقم ١٥٧٤. وقد ورد هذا في تاريخ مصر الحربي ص١٨١. + أبو الحسن علي بن ابي الكرم محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني ابن الأثير، الكامل في التاريخ، طبعة المصرية الأزهرية١٣٠١ هـ،ج١١، ص٢٤١ س١٣-١٥.

(١) عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمير بن كثير القرشي الدمشقي المتوفى سنة ٧٤٤هـ البداية والنهاية في التاريخ الطبعة الأولى، سنة ١٣٥١هـ سنة ١٩٣٢م، بنفقة المطبعة السلفية ومطبعة السعادة ومكتبة الخانجي،ج١٢، ص٣٢٠ ي١٩-٢٠.

ويؤيد ويفصل ما أوردناه ابن الأثير في كتابه الكامل في التاريخ حيث يقول: (فلما سمع الفرنج بنزول صلاح الدين إلى طبرية وملكه المدينة وأخذ ما فيها وإحراقها وإحراق ما تخلف مما لا يحمل اجتمعوا لمشورة فأشار بعضهم بالتقدم إلى المسلمين وقتالهم ومنعهم عن طبرية فقال القمص إن طبرية لي ولزوجتي وقد فعل صلاح الدين بالمدينة ما فعل وبقيت القلعة وفيها زوجتي وقد رضيت أن يأخذ القلعة وزوجتي ومالنا فيها ويعود فوالله لقد رأيت عساكر الإسلام قديماً وحديثاً، وما رأيت مثل هذا العسكر الذي مع صلاح الدين كثرة وقوة وإذا أخذ طبرية لا يمكنه المقام بها فمتى فارقها وعاد عنها أخذناها وإن أقام فيها لا يقدر على المقام فيها إلا بجميع عساكره ولا يقدرون على الصبر طول الزمان عن أوطانهم وأهليهم فيضطرون إلى تركها ونفك من أسر منها[١]).

جـ - الخطة التكتيكية

وتتلخص الخطة التكتيكية بالنقطتين التاليتين:

١- الحركة من صفورية على الطريق الإستراتيجي الذي كان بين ميناء عكا وصفورية. والاعتماد على صهاريج الماء الموجودة في قرية ترعان وقرية لوبية وحطين لسد حاجة الجيش من الماء منها. فلما أقبل الفرنجة لم يقدروا على بلوغ الماء، الذي وراء المسلمين ولم يجدوا في الصهاريج التي دونهم ماء[٢].

٢- مواصلة السير على الطريق الذي يؤدي إلى نهر الأردن جنوب بحيرة طبرية وذلك لقطع خط مواصلات جيش صلاح الدين وحصره في بلادهم والقضاء عليه (خصوصاً بعد أن علموا أنه

---

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ،ج١١، ص٢٤١، س٦-١٥.

(٢) محمد فريد أبو حديد، صلاح الدين الأيوبي وعصره، مصر، القاهرة ١٩٦٢م، ص١٣٤.

ترك الأقحوانة إلى طبرية)، ثم تخليص مدينة طبرية وإنقاذ الملكة وأولادها المحصورين في قلعتها ولذلك... تحرك جيش الفرنج من صفورية قاصداً طبرية لتخليصها وما درى أن السلطان وجنده قد أضرموا النار فيها فأصبحت رماداً تذروه الرياح.

حاول الفرنجة في هجومهم هذا أن ينفذوا الخطط التي رسموها لأنفسهم ويقطعوا الطريق على السلطان وجيشه ويستولوا على ينابيع المياه، فكان من أمرهم أنهم كانوا كلما تقدموا خطوة وقعوا تحت نيران عدوهم فلم يثبتوا[١].

ترتيب التحرك أثناء المسير:

يقول: ج. ف. س. فوللر في كتابه (المعارك الحاسمة في العالم الغربي) وضعت المقدمة من الخيالة بقيادة (رايموند) أمير طرابلس. القسم الأكبر من المشاة بقيادة الملك (غي) ملك بيت المقدس. ضمن الخطة التكتيكية بشكل محدد لترتيب القتال وتوزيع القيادات.

وقد قال العماد الكاتب الأصفهاني يصف جيش الفرنجة أثناء مسيره وهم كالجبال السائرة والبحار الزاخرة، وأمواجها ملتطمة، وأفواجها مزدحمة، وفجاجها محتدمة وأعجلاجها[٢] مصطلمة[٣]، وقد جوى الجو، وضوى الضو، ودوى الدو، والفضاء منفض، والقضاء منقض[٤]، بينما يصفهم «فوللر» في المعارك الحاسمة كما يلي:

---

(١) أحمد بيلي: حياة صلاح الدين الأيوبي، الطبعة الثانية ١٩٢٦م، القاهرة، المطبعة الرحمانية ص١٥٩ س٤-٩.

(٢) أعلاج: واحدها علج وهو الرجل الضخم من كفار العجم، ويطلق على الكافر عموماً كما يطلق على الحمار الوحشي.

(٣) اصطلم: استأثر.

(٤) العماد الكاتب الأصفاني، الفتح القسي في الفتح القدسي، طبعة عام ١٩٦٥، نشر دار القومية للطباعة والنشر، ص٧٧، س١٤-١٧.

تحرك الصليبيون نحو الشرق وهم مثقلون بالمخاوف والشكوك، حيث تركوا الآبار العذبة وراءهم ودخلوا الجبال الجرداء اللافحة لجبل ترعان الذي يبعد ٢٠ ميلاً عن طبرية أرض هلاكهم[١].

د - القوات العربية

يقول أبو شامة في الروضتين:

ثم أخذ صلاح الدين في عرض عساكره النظامية وعددها اثنا عشر ألف فارس من أصحاب الإقطاعات والرواتب، على حين بلغ مشاته ثلاثة عشر ألفاً عدا جيشه الاحتياطي والمتطوعة وهم كثيرون[٢] بينما لايفصل ابن كثير سوى عدد الجيش النظامي إذ يقول: (فرتب الجيوش وسار قاصداً بلاد الساحل وكان جملة من معه من المقاتلة اثني عشر ألفاً غير المتطوعين)[٣]. ويؤيد مفلح علي رأي ابن كثير في جمعه للمتطوعين والنظاميين فيصبح عدد الجيش العربي ٢٥ ألف مقاتل ويؤيد ابن الأثير أبا شامة في العدد إذ يقول: (فبلغت عدتهم اثني عشر ألف فارس)[٤]. كما يؤيد ستانلي لين بول هذا الرقم في كتابه صلاح الدين ص٢٠٤.

---

(١) الجنرال ج.ف.س.فوللر – المعارك الحاسمة، الجزء الأول، ص٤٢٥ + مفلح علي، حطين، ص٧٥.

(٢) شهاب الدين أبي محمد عبد الرحمن بن إسماعيل أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين، النورية والصلاحية، القاهرة، وادي النيل بمصر، ١٣٨٧هـ الجزء٢، ص٧٦.

(٣) ابن كثير القرشي الدمشقي، البداية والنهاية في التاريخ،ج١٢، ص٣٢٠، س١٥-١٦.

(٤) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مصدر سابق، طبعة عام ١٣٠١هـ، ج١١، ص٢٤٠، ي١٠.

(٥) ستيفين رينسمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج٢، ص٧٣٤، س١٥-١٨ يقدر العدد بألف ومئتي ألف فارس، وما يزيد على هذا العدد من الخيالة التركبولية، ونحو عشرة آلاف من الرجالة.

هـ - القوات الصليبية[1]:

يحدّد فوللر في كتابه «المعارك الحاسمة » عدد الجيوش الفرنجة بما يلي:

٢٠٠٠ فارس ثقيل - ١٢٠٠ فارس خفيف - ٢٠,٠٠٠ ألفاً من المشاة، فيكون المجموع ٢٣,٢٠٠ مقاتل[٢]، بينما تجمع المصادر العربية أن عدد القوات الصليبية كان ٥٠,٠٠٠ مقاتل[٣]، ويحتمل العيني في كتابه (عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان) أن عدد القوات الصليبية ربما وصل إلى (ثلاثة وستين ألفاً). بينما يقدر عددهم ابن كثير القرشي في كتابه البداية والنهاية في التاريخ (مطبعة السعادة) بخمسين ألفاً إلى ثلاثة وستين ألف مقاتل[٤].

و - الاستطلاع:

لم يقدم العرب على هذه المعركة إلا بعد أن علموا ما يريدون علمه عن الأرض والعدو، فقد أرسل العرب ليلة (١ مايس) أيار من عام ١١٨٧م مفرزة استطلاع عربية بقيادة (مظفر الدين) قائد خيل الجزيرة الذي لقبه الفرنجة (الذئب الأزرق)، وقد بلغ مجموع هذه المفرزة (٧٠٠٠) خيال كما يقول فوللر[٥]، انطلقت هذ المفرزة من (بانياس) وعبرت (الأردن) ليلاً ومرت تحت أسوار طبرية وتوجهت باتجاه الناصرة - صفورية - وعكا، فمرت بكفر سبت ولوبية وترعان وتجولت في منطقة حطين إلى أن وصلت منابع

---

(١) فوللر - المعارك الحاسمة، ج ١١، ص٤١٢.

(٢) أبو شامة - الروضتين في أخبار الدولتين النورية والإصلاحية، مصدر سابق، ج٢، ص٧٦.

(٣) العيني، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، القاهرة، دار الكتب المصرية، ج١، فصل التاريخ، مخطوط مصوّر، رقم ١٥٨٤.

(٤) ابن كثير، البداية والنهاية، مصدر سابق، ج١٢، ص٣٢.

(٥) الجنرال ج.ف.س.فوللر - المعارك الحاسمة في العالم الغربي، الجزء١١، ص٤١٢.

مياه صفورية، وقد اعترض المفرزة (جيرارد) بمجموعة من (١٥٠) فارساً مع مجموعة من المشاة المتطوعين، وكان أن احتدم القتال في (عين كريسون) التي تبعد (٦) كيلومترات جنوب (كفر كنة) (وقد كانت نتيجة المعركة قطع رؤوس جميع الفرسان عدا ثلاثة بسبب هربهم)، وقد كان من قادة العرب في هذه المعركة بالإضافة إلى (مظفر الدين كوكبرى بن زين الدين) صاحب حران والرها، والقائد العربي (النجمي) والقائد (الياقوي) وهما من أكابر الأمراء[(١)]، ويضيف ابن الأثير واصفاً المعركة قائلاً (فالتقوا هناك وجرت بينهم حرب تشيب لها المفارق السود)[(٢)]، ويقول ستيفن رنسيمان في كتابه تاريخ الحروب الصليبية: (والراجح أن الخونة تسللوا من المعسكر المسيحي، وتوجهوا إلى صلاح الدين، فأخطروه أن الملك (غي) أخذ يتحرك من صفورية، على امتداد الطريق الشمالي، وعندئذٍ قاد صلاح الدين جيشه نحو خمسة أميال عبر التلال حتى بلغ حطين، حيث كان الطريق يهبط نحو البحيرة[(٣)]. نستنتج من قول هذا المؤرخ الإنكليزي أن العرب قد أحسنوا التجسس في هذه المعركة ووضعوا له خطة محكمة وفعّالة كطريقة من طرائق الاستطلاع.

ز - مفاجأة الكمائن العربية لقوات الفرنجة في قريتي ترعان ولوبية:

في ظهيرة يوم (٣ تموز ١١٨٧م) وصل القسم الأكبر من جيش الفرنج قرية ترعان وقرية لوبية بعد اجتياز المقدمة لها ففاجأتها الكمائن العربية على

---

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ط عام ١٣٠١هـ، ج١١، ص٢٣٩، س٢٤- ٢٥.
(٢) المرجع السابق نفسه ص٤١٢، السطر الأخير.
(٣) ستيفين رينسمان: تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة الدكتور الباز العريني، إصدار دار الثقافة بيروت لبنان ج٢ ص٧٣٧، س١١-١٤.

جوانب الطريق وأوقفتها عن التقدم في أرض خالية من الماء[1]. يقول الدكتور أحمد بيلي في كتابه (حياة صلاح الدين الأيوبي):

(في هذا اليوم (٣ تموز) تحرك جيش الفرنج من صفورية قاصداً طبرية لتخليصها، ومادرى أن السلطان وجنده قد أضرموا النار فيها، فأصبحت رماداً تذروه الرياح، حاول الإفرنج في هجومهم هذا أن ينفذوا الخطط التي رسموها لأنفسهم، ويقطعوا الطريق على السلطان وجيشه، ويستولوا على ينابيع المياه، فكان من أمرمم أنهم كانوا كلما تقدموا خطوة وقعوا تحت نيران عدوهم، فلم يثبتوا، أو تحيط فرق ببعض فرقهم وتسوقها إلى حيث المعتقلات وحظائر الأسرى[2]. لقد كانت هذه المفاجأة تطويراً جديداً في الحرب وبعثاً جديداً لطريقة الكرِّ والفرِّ العربية فقد قال عنها المؤرخ الإنكليزي (ستيفن رنسيمان) في كتابه (تاريخ الحروب الصليبية).

(دأب رماة المسلمين على مهاجمة مقدمة الجيش المسيحي ومؤخرته معاً، وأمطروا قلب الجيش بالسهام، وأسرعوا إلى الابتعاد، قبل أن يبادر الفرنج إلى رد الهجوم)[3].

ح - إرغام الفرنجة على تغيير هدفهم الاستراتيجي

يقول الدكتور أحمد بيلي:

كانت عناية الإفرنج متوجهة إلى قطع خط الرجعة على السلطان وجيشه حتى يحولوا بينه وبين مراكز قوته ومنابع المياه لعلمهم أن ميدان

---

(١) مفلح علي، حطين، سلسلة من التاريخ الحربي للأمم العربية، ج٢، طبع سنة ١٩٥٩، ص٧٧، س١٧ـ٢١.

(٢) أحمد بيلي، حياة صلاح الدين الأيوبي، الطبعة الثانية ١٩٢٦م، القاهرة، المطبعة الرحمانية ص١٥٩ س٤-١٠.

(٣) ستيفين رينسمان: تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة الدكتور الباز العريني، إصدار دار الثقافة بيروت لبنان ج٢ ص٧٣٨، س٤-٦.

القتال يقع في أرض قفراء لا يقوم ماتخرجه بمطالب جيش المسلمين كله[١]. إذاً فقد كان هدف القوات الدخيلة الرئيسي شطر القوات العربية إلى شطرين ثم الحيلولة بينها وبين الماء ثم القضاء عليها بعد تخليص الملكة ومدينة طبرية. وسلك الغزاة لذلك طريقاً كان مرسوماً بالانطلاق من صفورية حتى ترعان ثم لوبية ثم السير على الطريق الروماني القديم شمالي كفر سبت حتى الأقحوانة، وهكذا يحتلون منابع الماء ويقطعون طريق مواصلات العرب، ولكنهم بعد اصطدامهم بالكمائن العربية المنتشرة بين ترعان ولوبية (لم يقدروا على بلوغ الماء) الذي وراء المسلمين[٢].

طلب بعض البارونات من الملك (غي) إصدار الأوامر إلى الجيش بالإسراع وأن يشق طريقه إلى البحيرة غير أن الملك (غي)، قرر التوقف بعد أن اشتد تأثره لما حلّ برجاله من التعب والإرهاق[٣] ويقول الجنرال ج. ف. س فوللر في كتابه (المعارك الحاسمة في العالم الغربي). الجزء الأول من الصفحة ٤٢٦، أن رايموند اقترح على الملك (غي) محاولة التملص من الكمائن (والوصول بالجيش إلى نهر الأردن أو بحيرة طبرية وإلا فالجيش هالك). وهكذا تجمع المراجع التاريخية على أن الفرنجة أُجبروا على تغيير هدفهم الإستراتيجي وهو شطر القوات العربية وقطع خطوط مواصلاتها والحيلولة بينها وبين الماء وتدميرها إلى هدف ثانٍ ملحٍ وهو الوصول إلى الماء بأي طريق وطريقة.

---

(١) أحمد بيلي، حياة صلاح الدين الأيوبي، الطبعة الثانية ١٩٢٦م، القاهرة، المطبعة الرحمانية ص١٥٨ س١٣-١٦.

(٢) محمد فريد أبو حديد، حياة صلاح الدين الأيوبي وعصره، مصر، القاهرة، ص١٣٥.

(٣) ستيفين رينسمان: تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة الدكتور الباز العريني، نشر دار الثقافة بيروت، طبعة عام ١٩٦٩م ج٢، ص٧٣٨، س١١-١٣.

ويقول مفلح علي: (وهكذا نجح صلاح الدين في إرغام الفرنج على تغيير هدفهم الاستراتيجي)[١] ويصف العماد الكاتب الأصفهاني أحداث يوم ٣ تموز عام ١١٨٧، وبالتالي: فرتب السلطان في مقابلتهم أطلابه، وقصر على مقابلتهم آرابه، وحصل بعسكره قدامهم، ورتّب على الحملة أقدامهم، وحجز بينهم وبين الماء، ومنع ذمامهم[٢] على الذماء[٣] وحلاهم[٤] عن الورود، وصدعهم بالصد، ذاك واليوم قيظ وللقوم غيظ، وقد وقدت الهاجرة، فوقدتها غير هاجرة وشربت ما كان في أدواتها[٥]، فهي على الظمأ غير صابرة وحجز الليل بين الفريقين[٦].

ط - تعزيز القوات العربية في ليلة (٤ تموز عام ١١٨٧م)

يقول (ستانلي لين بول) في كتابه صلاح الدين، صفحة ٢٠٩، إن (رايموند) قائد المقدمة بعد أن رأى ما وصل إليه حال قواته صرخ بحرقة قائلاً:

(... يا إلهي، سيدي الرب، لقد انتهت الحرب، نحن في عدد الأموات لقد اندثرت المملكة). وهكذا انتهى يوم (٣ تموز ١١٨٧) وبات الفرنج بدون أن يتمكنوا من الوصول إلى الماء[٧].

---

(١) مفلح علي، حطين، مصدر سابق، الصفحة ٧٨، س١٢-١٤.

(٢) ذمام: الحق.

(٣) الذماء: أي بقية الروح.

(٤) حلا: طرد ومنع عن ورود الماء.

(٥) الأدواة: إناء صغير من الجلد.

(٦) العماد الكاتب الأصفاني، الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق محمد محمود صبح، طبعة عام ١٩٦٥، نشر دار القومية للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ص٧٨، س٤-٩.

(٧) مفلح علي، حطين، الصفحة ٨١، س ٧-١٠. + ستيفين رينسمان: تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة الدكتور الباز العريني، نشر دار الثقافة بيروت، طبعة عام ١٩٦٩م ج٢، ص٧٣٨، جاء فيه (يالله، انتهت الحرب، لقد هلكنا، وزالت المملكة)- س١٥-١٦.

لم يخلد العرب إلى الراحة أو السكينة في هذه الليلة، وإنما زاد طمعهم وجرأتهم فأكثروا التكبير والتهليل طول ليلتهم، ورتّب السلطان تلك الليلة الجاليشية وفرق فيهم النشاب[1].

يقول العماد الكاتب الأصفهاني في كتابه (الفتح والبرق) واصفاً حال القائد والجند العرب، وسهر السلطان تك الليلة حتى عين الجاليشية من كل طلب، وملأ جعابها وكنائنها بالنبال، وكان ما فرقه من النشاب أربعمئة حمل، ووقف سبعين جمازة في حومة الوغى، يأخذ منها من خلت جعابه وفرغ نشابه.

ويقول أيضاً: (وأما عساكرنا، فإنها اجترأت، ومن كل ما يعوق برئت، فهذا لسنانه شاحذ، وهذا لعنانه آخذ، وهذا شهم موفق، وهذا مكثر للتكبير ومنتظر التبكير، وهذا تاج للسعادة وهذا رأي للشهادة)[2].

فقد أمضى العرب قادة وجنداً ليلهم في الاستعداد وتفقد السلاح وتوزيع السهام واستقدام أسلحة جديدة بينما حُرِمَ الفرنج من النوم في تلك الليلة فهم بين نار العطش ونار الهجمات المستمرة مما زاد في حيرتهم وشل حركتهم ولامناص مما هم فيه ولا أمَرَّ مما هم عليه.

سابعاً: المعركة الفاصلة

حطين

أ فصل الخيالة عن المشاة ومنع الماء:

يقول الدكتور نظير حسان السعداوي: ثم جاء الغد (السبت ٤يوليو تموز- ٢٥ربيع الثاني) ونشب القتال وصبر الفريقان، وحاول الصليبيون

---

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، الجزء الحادي عشر طبعة عام ١٣٠١هـ، طبع المطبعة الأزهرية،ج١١، ص٢٤١، س٢٦-٢٧.

(٢) راجع العماد الكاتب الأصفهاني في كتابه الفتح والبرق الوارد في كتاب (أبو شامة) الروضتين ج٢ ص٧٨-٧٩ الوارد في كتاب تاريخ الحروب الصليبية لستيفن رنسيمان ص٨٠٤- ٨٠٥- ج٢.

التقدم للوصول إلى ماء البحيرة وينابيع المياه الموجودة بوادي حمام حول قرية حطين على مسافة ثلاثة أميال من الميدان فمنعهم صلاح الدين وحاصرهم.وأحدث ارتباكاً بين فرسانهم ومشاتهم وفصل مؤخرتهم عن بقية الجيش[١].

وبعد زهاء ثمانمئة سنة، تأتي الحربان العالمية الأولى والثانية لتؤكدا صحة هذا المبدأ وهو فصل المشاة عن المدرعات. فالعرب استمروا في معركة حطين بالإضافة إلى إزعاج عدوهم وإرباكه، في الالتحام مع خيالته في الأمام مع الالتحام القاصم مع القوة الصليبية الرئيسية الراجلة مما وسع الفجوة بين مشاة العدو وخيالته فكانت خطيئة تعبوية قاتلة اقترفها الغزاة الصليبيون.

يقول ابن كثير في كتابه (البداية والنهاية في التاريخ):

(فطلعت الشمس على وجوه الفرنج واشتد الحر وقوي بهم العطش، وكان تحت أقدام خيولهم حشيش قد صار هشيماً، وكان ذلك عليهم مشؤوماً، فأمر السلطان النفاطة أن يرموه بالنفط فرموه فتأجج ناراً تحت سنابك خيولهم، فاجتمع عليهم حر الشمس وحر العطش وحر النار والسلاح وحر رشق النبال)[٢].

---

(١) الدكتور نظير حسان السعداوي – تاريخ مصر الحربي، طبع مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٥٧، ص١٨٢، س٨، ١١.

(٢) عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي المتوفي سنة ٧٧٤هـ. الطبعة الأولى سنة ١٣٥١هـ ١٩٣٢م مطبعة السعادة في مصر الجزء الثاني عشر ص٣٢١، س٢، ٥.

ويؤيد ابن منكلي في كتابه (الأحكام الملوكية والضوابط الناموسية) هذا الرأي بقوله:(وأمر صلاح الدين الزراقين[١] فزرقوا هشيم الحشيش بالنار فتأججت تحت أقدام حوافر الخيل)[٢]. بينما يخالف أبوشامة في كتابه (الروضتين) هذا الرأي بقوله: (وقيل إن بعض المتطوعة ألقى النار على الحشيش)[٣].

ويحصر العيني أمر إشعال النار بمظفر الدين صاحب أربيل[٤] وهكذا أحسن العرب استثمار الخصائص والتضاريس الجغرافية الطبيعية لصالحهم وجعلها حرباً على عدوهم. فالعشب اليابس ليس في الأصل مع طرف على آخر، ولكن العبقرية الحربية هي التي تحول كل شيء لصالحها ضمن خطة متناهية الدقة آخذة بكل الاحتمالات. وعلى الرغم من لهيب الأرض والسماء، استمر العرب في منع الماء عن العدو فزادوا عوامل النصر عاملاً جديداً.

---

(١) المزراق عود خشب مجوف أو لبطة وهي القصب الفارسي، ووصفه صاحب كتاب التدبيرات السلطانية في الصناعة الحربية، وهو مخطوط مصور عن المتحف البريطاني بمكتبة جامعة القاهرة رقم ٢٦٣٣٧ مخطوط (مجهول المؤلف) ص١٦ بقوله: وهذا المزراق يمكن أن يكون من قنا يجعل بطول الرمح، وفيه سنان فيكون كهيئة رمح لكن مجوف وفيه الماء المهلك، وهذا الرمح يمكن أن يطعن به ويزرق بما فيه وهو من خدع الحرب، وإذا زرق به الزراق فلا يقصد إلا العينان ويكون الزرق كافراً. وارد في حاشية تاريخ مصر الحربي ص١٨٢.

(٢) الأمير محمد المعروف (بابن منكلي) ٧٧٨هـ، الأحكام الملوكية والضوابط الناموسية، مخطوط بدار الكتب المصرية ٢٣ فروسية تيمورية ص٥٤.

(٣) شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن بن إسماعيل المعروف (بأبي شامة) كتاب (الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية) طبعة وادي النيل بمصر سنة ١٣٨٧هـ، الجزء الثاني، ص٧٧.

(٤) بدر الدين محمود المعروف (بالعيني) ٨٥٥هـ عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان الجزء الأول القسم الأول ص٣٣ مخطوط مصور رقم ١٥٨٤ تاريخ بدار الكتب المصرية.

ب انسحاب الفرنجة إلى القرون وتطويقهم

بات الفرنجة بين نار الحريق، ورمي السهام، وحرقة الظمأ، وهجوم عربي هائل فدَّبَ الارتباك في صفوفهم، وأخذ بهم كل مأخذ. ففسد تنظيم تعاونهم، وأصبحوا كتلاً من الفوضى، (فوهنوا لذلك وهناً عظيماً، فأحاط بهم المسلمون إحاطة الدائرة بقطرها، فارتفع من بقي من الفرنج إلى تل بناحية حطين، وأرادوا أن ينصبوا خيامهم ويحموا أنفسهم به فاشتد القتال عليهم من سائر الجهات ومنعهم عما أرادوا، ولم يتمكنوا إلا من نصب خيمة ملكهم لا غير)[1].

ويصفهم ابن شداد بقوله:

وانهزمت منهم طائفة، فتبعها أبطال المسلمين، فلم ينج منهم واحد، واعتصمت الطائفة الأخرى بتل يقال له حطين[2].

أراد الفرنجة من هذا الانسحاب أمرين، أولهما محاولة استغلال وعورة الأرض وارتفاعها لدرء هجوم العرب، أملاً بأن يتاح لهم مخرج.

والثاني محاولتهم، إعادة تنظيمهم وخرق الطوق العربي، إذا ما استطاعوا الاعتصام بتل حطين. ومن الأرجح أن يكون هذا الانسحاب غير المنظم استجابة عامة لغريزة حب البقاء وليس استجابة لنداء الملك (غي) بالثبات والصمود! فقد ترك الجنود تشكيلاتهم القتالية وتسلقوا التل خلف ذلك الجندي الذي سبقهم وهو يصرخ بهلع Suvonsmous suvonsmous أي (لننقذ أنفسنا)[3].

---

(١) ابن الأثير – الكامل في التاريخ، الجزء الحادي عشر، طبعة سنة ١٣٠١ المطبعة الأزهرية. ص٢٤٢، س١٥، ١٨

(٢) ابن شداد – النوادر السلطانية والمحاسن واليوسفية، نشر جمال الدين الشيال القاهرة سنة ١٩٦٤، ص٧٧.

(٣) ج. ف. س فوللر، المعارك الحاسمة في العالم الغربي ج١، ص٤٢٧، وارد في حطين لمفلح علي ص٨٥، س ٣، ٦.

ويصف العماد الكاتب الأصفهاني وبعده ابن الأثير ذلك بما يلي:

بعد أن اعتصم الفرنجة بقرون حطين، حاولوا على الرغم من احتدام القتال، واصطلام[1] الرجال نصب ما معهم من الخيام، فلم يمكنهم العرب من ذلك وكل ما قاموا به هو نصب خيمة الملك[2]. انتهز صلاح الدين ما حل بالصليبيين (اضطرموا واضطربوا، والتهفوا والتهبوا) فأمر بتطويق جيش الفرنجة فوق التل[3] (وأحيط بالفرنج من حواليهم بما حووا إليهم)[4] وقد أكمل العرب الطوق (إحاطة الدائرة بقطرها)[5]. إن هذا التطويق المحكم قد أدى بالفرنج إلى أشد حالات القنوط فقد (أشهر آلاف من جنود الفرنج أسلحتهم وأخذوا يصلون ويبتهلون كي تحل معجزة تنقذهم فارتفعت معنوياتهم بعض الشيء)[6].

جـ محاولة الملوك الهرب

يقول العماد الأصفهاني في كتابه (الفتح القسي في الفتح القدسي):

(لما أحس القومص بالكسرة، حسر عن ذراع الحسرة، والقتال من العزيمة، واحتال في الهزيمة. وكان ذلك قبل اضطراب الجمع واضطرام الجمر، واحتداد الحرب واحتدام الحر. فخرج بطلبه الخروج، واعوج إلى

---

(١) الإصطلام: الإبادة الجماعية.

(٢) الدكتور أحمد بيلي – حياة صلاح الدين الأيوبي، الطبعة الثانية سنة ١٩٢٦ الطبعة الرحمانية، ص٦٠، س١٣.

(٣) العماد الكاتب الأصفهاني – الفتح القسي في الفتح القدسي، نشر الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة سنة ١٩٦٥، ص٧٩، س٨.

(٤) المرجع السابق ص٨٠ س الأول.

(٥) ابن الأثير – الكامل في التاريخ، طبعة مطبعة الأزهرية سنة ١٣٠٢هـ، ج١١، ص٢٤٢ س١٥.

(٦) ج. ف. س. فوللر المعارك الحاسمة في العالم الغربي، الجزء الأول ص٤٢٨.

الوادي، وماود أن يعوج[١]. ومضى كومض البرق، ووسع خطا خرقه قبل اتساع الخرق. وأفلت في عدة معدودة، ولم يلتفت إلى ردة مردودة. وغاب حالة حضور الوغى، ونابه الرعب الذي نوى الهزيمة به وما ونى)[٢].

ويؤكد ابن كثير القرشي هروب القومص صاحب طرابلس بقوله:

(وكان من جملة من أسر جميع ملوكهم سوى قومص صاحب طرابلس فإنه انهزم في أول المعركة[٣]. كما هرب رايموند بفريق من قواته إلى طرابلس حيث مات بعد ذلك بثلاثة شهور[٤] ولم يلبث باليان إبلين ورينالد سيد صيدا أن شقا لهما بعد فترة قصيرة، طريقاً إلى خارج أرض المعركة فكانا آخر من هرب[٥].

ومن هذه المراجع نجد أن الملوك والقواد الذين هربوا من ساحة الوغى هم القومص صاحب طرابلس ورايموند صاحب طبريا، وباليان إبلين، ورينالد سيد صيدا.

---

(١) يعوج: يعود.

(٢) أبو عبد الله محمد بن صفي الدين أبي الفرج محمد بن نفيس الدين أبي الرجاء حامد بن محمد بن عبد الله بن علي بن محمود بن هبة الله القرشي الأصفهاني، المعروف بـ (آلة) و(آلة اسم أعجمي معناه العقاب وهو الطائر المعروف)، وقد اشتهر (بالعماد الأصفهاني) – الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق محمد محمود صبح، نشر الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة سنة ١٩٦٥، ص٧٩، س١٤، ٢٠.

(٣) عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي المتوفي سنة ٧٧٤هـ، البداية والنهاية في التاريخ، الطبعة الأولى، سنة ١٩٣٢م، مطبعة السعادة مصر الجزء ١١، ص٣٢١، س٧، ٨+ ابن الأثير – الكامل في التاريخ، المطبعة الأزهرية، ج١١، ص٢٤٢، س١٢.

(٤) ستيفن رنسيمان – تاريخ الحروب الصليبية، الجزء الثاني، الدكتور الباز لعريني نشر دار الثقافة ببيروت ص٧٤٠، س ٦،٤ +الدكتور أحمد بيلي – حياة صلاح الدين – ص ١٦٠، س ٨.

(٥) المرجع السابق نفس الصفحة، س٦، ٨.

د   فصل مشاة الفرنجة عن خيالتهم مرة ثانية:

يقول فوللر في المعارك الحاسمة في العالم المغربي:

(وبعدئذ اتجه الملك (غي) إلى رايموند طالباً منه إنقاذه والنجاة فجمع رايموند كونت طرابلس فرسانه الذين لا يزالون ثابتين على صهوات خيولهم، وحمل على طوق المسلمين شاقاً طريقه إلى الخارج)[١]. وقد هجمت خيالة رايموند باتجاه بحيرة طبرية. (وحملوا على من يليهم من تلك الناحية: المقدم تقي الدين عمر ابن أخي صلاح الدين) فلما رأى حملة الفرنج حملة مكروب، علم أنه لا سبب إلى الوقوف في وجوههم فأمر أصحابه أن يفتحوا لهم طريقاً يخرجون منه[٢]. بينما يشرح المارشال اللورد ويغل طريقة فصل المشاة عن الفرسان قائلاً: (أما القوات الصليبية فإن مشاتها بدأت تتراجع نحو الجبل تاركة سلاح الفرسان الثقيل ولذلك فإن تشكيل الجبهة الصليبية قد تحطم بانقطاع الاتصال بين الفرسان والمشاة)[٣].

وهكذا فصلت مشاة الفرنج عن خيالتهم مرة أخرى[٤].

- **محاولة الفرنج فك طوق الحصار:**

بعد أن طوق العرب الفرنجة في القرون (ذاك واليوم قيظ، وللقوم غيظ. وقد وقدت الهاجرة. فوقدتها غير هاجرة، وشربت ما كان أدواتها فهي على الظمأ غير صابرة)[٥] فقام الفرنجة بهجمات عديدة[٦] على العرب لفك

---

(١) ج. ف. س. فوللر – المعارك الحاسمة في العالم الغربي، ج١، ص٤٢٨.

(٢) ابن الأثير – الكامل في التاريخ، الطبعة الأزهرية ج١١، ص٢٤٢، س٧، ١٠.

(٣) المارشال اللورد ويفل – حطين، ترجمة محمد عطية المنشور في المجلة العسكرية السورية العدد الثالث السنة السادسة، تشرين أول ١٩٥٥، ص١٥.

(٤) العقيد مفلح علي – حطين، ص٨٦، س٩.

(٥) هذا وصف ليوم ٣ تموز فكيف بالفرنجة في يوم ٤ تموز من القيظ والغيظ والظمأ – العماد= الفتح القسي في الفتح القدسي طبعة عام ١٩٦٥ نشر الدار القومية مصر، ص٧٨، س٧، ٩.

(٦) وهذا ما يخالف قول مفلح علي، (قام الفرنج بحملتين) حطين، ص٨٦ س١١.

الحصار. كان العرب يصدونها بهجمات معاكسة (وكان الفرنج لما حملوا تلك الحملات ازدادوا عطشاً وقد كانوا يرجون الخلاص في بعض تلك الحملات مما هم فيه فلم يجدوا إلى الخلاص طريقاً)[1] (لأنهم كلما حملوا ردوا وأردوا، وكلما ساروا وشدوا أسروا وشدوا)[*].

وقد وصل حال الفرنجة مما نالهم من العطش وشدة الحر والتعب إلى حد أن فريقاً من أتباع رايموند ذهب إلى السلطان في خيمته وقال له (... أيها السلطان ما الذي يدعوك إلى التأخر؟ انهض إلى القوم وانقض عليهم فإنهم لا يستطيعون الدفاع، إنهم أموات)[٢+٣].

هـ الهجوم العربي الفاصل:

حين أتت الفرصة المواتية أمر السلطان بالتكبير والحملة الصادقة[٤] فاطاحت بحطين بوارق البوار. ورشفتهم الظبة[٥]، وفرشتهم على الربا، ورشقتهم الحنايا، وقشرتهم المنايا وقرشتهم البلايا، ورشقتهم[٦] الرزايا،

---

(١) ابن الأثير – الكامل في التاريخ، الطبعة الأزهرية سنة ١٣٠١، ج١١،ص٢٤٣ السطران الأخيران.

(*) العماد الكاتب الأصفهاني – الفتح القسي في الفتح القدسي، طبعة عام ١٩٦٥ ص٧٩، س٧.

(٢) الدكتور أحمد بيلي حياة صلاح الدين الأيوبي= الطبعة الثانية سنة ١٩٢٦م المطبعة الرحمانية، ص١٦٠، ١٦١، السطران الأخير والأول.

(٣) يقول ستيفن رينسمان أن الفرنجة قامول بهجوم واحد لفك الطوق بينما يقول مفلح علي هجمتين في حين ابن الأثير هجمات. والأرجح أنهم قاموا بهجمات.

(٤) ابن كثير القرشي – البداية والنهاية في التاريخ، الجزء الثاني عشر الطبعة الأولى ١٩٢٢ مطبعة السعادة مصر، ص٣٢١، س٥.

(٥) الظبا: جمع ظبية بضم الظاء وسكون الباء، وهي حد السيف أو السنان.

(٦) رقش: نقش، ورقش الكلام، وكتبه وزينه.

وصاروا للردى درايا، وللقضايا رمايا[1]. وقد استخدم العرب في هذه الملحمة أروع فنون القتال وأبدع ومضات العبقرية. فقد تم قبل الهجوم الرئيسي قتال تأخيري بين لوبية وترعان أجبر العدو على تغيير هدفه الإستراتيجي ثم فصلت مشاة العدو عن خيالته للمرة الثانية، بالإضافة إلى إشعال النفاطين للنار في الأعشاب اليابسة في المنطقة مما هيأ كل الظروف المواتية لنجاحه.

وقد شهد الأفضل، من أبناء صلاح الدين الصغار، أول معركة في حياته، وهو واقف إلى جانب والده، وبعد انقضاء سنوات عديدة، أشاد الأفضل بشجاعة الفرنج إذ قال: حينما انسحب الملك إلى قمة التل، قام فرسانه بهجوم رائع وردوا المسلمين على أبي؟! وقد شهدت اضطرابه إذ تغير لونه وصار يمسك بلحيته، ثم انطلق صائحاً: «فلتشدوا على الشيطان الكاذب» وعندئذ انقض رجالنا على العدو، الذي ارتد إلى التل، وحينما رأيت الفرنج يفرّون، صرخت فرحاً مسروراً (لقد هزمناهم). غير أنهم حملوا مرة أخرى، وردوا رجالنا، مرة ثانية، إلى حيث يقف والدي، وحث والدي الرجال للمرة الثانية، على أن ينطلقوا لقتالهم، فدفعوا العدو إلى أعلى التل، فصحت مرة أخرى: (لقد هزمناهم) غير أن والدي التفت إلي وقال: فلتلتزم السكون، إذ لم نهزمهم طالما ظلت خيمة الملك قائمة بأعلى التل. وفي تلك اللحظة، هوت خيمة الملك، وعندئد ترجل والدي عن فرسه وسجد على الأرض وقد امتلأت عيناه بالدموع فرحاً جذلاً، وأخذ يشكر الله ويحمده[2].

---

(١) العماد الكاتب الأصفهاني – الفتح القسي في الفتح القدسي، طبعة عام ١٩٦٥= الدار القومية، ص٧٩، س١١، ١٣.

(٢) ستيفن رينسمان – تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة الدكتور الباز العريني، نشر دار الثقافة بيروت الجزء الثاني الصفحة ٧٤٠، ٧٤١، وما بعد مقارنة هذا الكتاب مع الكامل لابن الأثير ج١١ تبين لدي أن ستيفن قد أخذ عن ابن الأثير مع إضافة ما وضعت تحته خط.

لقد كانت هذه الهزيمة المنكرة سبباً في سقوط الإمارات اللاتينية من أساسها، وكان يوم ٢٦ ربيع الآخر سنة ٥٨٣ (٤ يوليو تموز سنة ١١٨٧) يوم مشؤوم على الإفرنج في الشام[١].

وكان من جملة الأسرى الملك (غي) وأمير الكرك (أرناط) وأخو الملك جفري، وصاحب جبيل (أوك)[٢] وهنفري بن هنفري وابن صاحب إسكندرونة، وصاحب (مرقية)، كما أسر قسم عظيم من فرسان الداوية[٣] والإسبيتارية[٤] والبرونية ومقدميهم[٥+*].

و النصر

لما بلغ العرب خيمة الملك الحمراء على قمة التل، وجدوا أن الفرسان، وبينهم الملك، قد نزلوا عن دوابهم وجلسوا على الأرض[٦] وبلغ بهم التعب والإرهاق أشده فأصبحوا عاجزين عن القتال، بل لم يكن لديهم من القوة ما تجعلهم يسلمون سيوفهم، للدلالة على الإذعان، وجرى حمل قادتهم إلى الخيمة

---

(١) الدكتور أحمد بيلي – حياة صلاح الدين الأيوبي، الطبعة الثانية سنة ١٩٢٦ ص١٦١، س٣، ٥.

(٢) أوك: اسمه Hunphrey LV, Lord of taron.

(٣) الداويه: هم فرسان المعبد tenplars.

(٤) الاسبيتارية: هم جماعة من الصليبيين يطلق عليهم باللغة الفرنسية Hospitaliers.

(٥) جمال الدين محمد بن سالم بن واصل الحموي المتوفي سنة ٦٩٧هـ المعروف (ابن واصل) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال. طبع الجزء الأول في القاهرة سنة ١٩٥٣م الجزء الثاني المطبعة الأميرية بالقاهرة سنة ١٩٥٧م. وشاهدنا من الجزء الثاني الصفحة ١٣٢.

(*) راجع التفصيلات عند أبو شامة القدسي= في كتابه – الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية. وطبع مطبعة وادي النيل بالقاهرة سنة ١٢٨٧ هجرية. الجزء الثاني من الصفحة ٧٥، ٨٠.

(٦) الروضتين ج٢ ص٧٦. مصدر سابق.

التي تقرر إقامتها للسلطان على ساحة المعركة[1] أما باقي العسكر فكان من يرى القتلى منهم لا يظن أنهم أسروا واحداً ومن يرى الأسرى لا يظن أنهم قتلوا واحداً[2].

حتى إن ابن الأثير قد اجتاز أرض المعركة بعد حدوثها بنحو سنة فرأى الأرض ملأى من عظامهم تبين على البعد منها، المجتمع بعضه على بعض ومنها المفترق هذا سوى ما جحفته السيول وأخذته السباع في تلك الأكام والوهاد[3].

أما السلطان صلاح الدين فقد استقبل في الخيمة المذكورة، الملك جاي (غي)، وشقيقه ألكسندريل أملريك، ورينالد شاتيون، وابن زوجته، همفري سيد تبنين، فضلاً عن عدد كبير من صغار بارونات المملكة. فحياهم صلاح الدين في لطف وبشاشة، وأجلس الملك جاي إلى جانبه، وإذ شهد ما حل به من الظمأ، ناوله كأساً امتلأ بالجلاب، الذي أثلجه ما وضع به من قطع الثلج الوارد من جبال الثلج (الحرمون) فشرب منه جاي ثم سلمه إلى رينالد الذي كان يجلس إلى جانبه. ووفقاً لقوانين الضيافة العربية، متى أجري بذل الطعام أو الشراب للأسير، فإن ذلك معناه، الإبقاء على حياته، ولذا بادر صلاح الدين بأن قال للمترجم:

(فلتخطر الملك أنه هو الذي أعطى ذلك الرجل الشراب، ولم أناوله أنا الشراب) ثم التفت إلى رينالد، الذي لم يغفر له ما ارتكبه من أعمال النهب

---

(١) ستيفن رينسمان – تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة الدكتور الباز العريني، نشر دار الثقافة ببيروت سنة ١٩٦٩م ص٧٤١، س٥، ١١.

(٢) ابن الأثير – الكامل في التاريخ، الطبعة الأزهرية سنة ١٣٠١هـ، ج١١ ص٢٤٣، س٥، ٦ رجع أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، طبعة وادي النيل بمصر سنة ١٢٨٧هـ الجزء الثاني ص٧٥، ٨٠.

(٣) ابن الأثير الطبعة الأزهرية ج١١ ص٢٤٣ س٢٦، ٢٧.

والسلب المنافية للدين، وأخذ يذكره بجرائمه وخيانته، وغدره وعدم التزامه بقواعد الدين، فضلاً عن نهمه وشراهته، ولما رد رينالد شاتيون في خشونة وقسوة، سل صلاح الدين سيفه وأطاح برأسه، فارتعد (جاي)، وظن أنه سوف يحل دوره، غير أن صلاح الدين طمأنه حين قال: (إن الملك لا يقتل ملكاً)، غير أن ما ارتكبه ذلك الرجل من الخيانة تجاوز كل حدّ، ثم أصدر صلاح الدين الأوامر بأن لا يتعرض للأذى البارونات العلمانيون، بل ينبغي أن يلقوا في أسرهم الاحترام والمروءة، غير أنه لم يود أن يبقي على حياة أحد من الفرسان الرهبان، باستثناء مقدم الداوية، والمعروف أنه كان في جيش صلاح الدين جماعة من المتصوفة الزهاد، تعهد إليهم صلاح الدين بالإجهاز على الأسرى من الداوية والإسبتارية، فاغتبطوا للقيام بهذا العمل. فلما تم ذلك تحرك صلاح الدين بجيشه من حطين، وما تناثر في ساحة القتال من جثث القتلى هرع إليها الضباع وابن آوى.

وجرى حمل الأسرى إلى دمشق حيث تهيأت للبارونات أسباب الراحة في معتقلهم بينما تقرر بيع باقي الأسرى في سوق الرقيق[(١)] وكان أعظم انتصار له على الفرنج في حطين والساحل الشامي يوم حطين[(٢)].

ز التحليل والخاتمة:

إن استيعاب معركة حطين بكامل أبعادها بعد مقارنة كل المصادر والأسفار التاريخية، يحمل القارئ على استنتاج ما يلي:

١- إن باستطاعة القوة المهاجمة الصليبية التحول إلى الدفاع بدون أن تفقد شيئاً من قوتها مادامت مواصلاتها مستمرة لتأمين شؤون الإمداد

---

(١) ستيفن رينسمان – تاريخ الحروب الصليبية، طبعة دار الثقافة، سنة ١٩٦٩م الجزء الثاني ص٧٤١، ٧٤٢، ترجمة الدكتور الباز العريني.

(٢) خير الدين الزركلي – الأعلام، الجزء التاسع، الطبعة الثانية سنة ١٩٥٧ مطبعة كوستاتسوماس وشركاه ص٢٩٢، س١٧، ١٩.

والتموين كاملة. ولكن بعد انقطاع مواصلاتها وانتهاء التأمين من كل نواحيه للجيش يصبح التحولُ إلى الدفاع وقوعاً في الفخ.

٢- إن الاتكال على عامل واحد من عوامل النصر أو مبدأ واحد وإهمال بقية مبادئ الحرب يؤدي إلى الهزيمة.

٣- إن الخطة التي اتبعها صلاح الدين تعتبر من أبدع الخطط الحربية ومن الواضح أنه كان مستعداً لها فهو قد هاجم مستعمرة هامة من مستعمرات الصليبيين وأطبق عليها وهددها بالهجوم بدون أن يحاول احتلالها إذ إنه لو احتلها لما وقعت معركة حطين بل إنه سمح لهذه المستعمرة أن تصمد وأظهر أنه ضعيف أمامها مما أوقع الصليبيين في الفخ فاندفعوا إلى إنقاذها وتأهب لاستقبالهم في المكان المناسب، كما أن صلاح الدين، وضع نفسه في مكان يشجع الصليبيين على الزحف نحوه، وبذلك أرغمهم على ترك حصونهم وخوض المعركة في العراء[1].

٤- لقد نجح صلاح الدين في محاولة الإنهاك واستطاع أن يدغدغ أعصاب جيش العدو إلى أن حطم معنوياته وجعل كل فريق من جيش العدو يحاول الدفاع عن نفسه ومع أن جيش صلاح الدين كان يحارب في أرض العدو إلا أنه قد نفذ خطة الإنهاك؛ تنفيذاً دقيقاً.

٥- نجحت خطّة (الأرض المحروقة) إذ أرغم صلاح الدين العدو على أن يتحمل العطش والجوع[2] (وليس مع العطش صبر ولا حرب)[3].

---

(١) المارشال اللورد ويفل – حطين، ترجمة الأستاذ محمد عطية المجلة العسكرية السورية عدد تشرين الأول ١٩٥٥ ص١٦.

(٢) – نفس المصدر.

(٣) الحسن بن عبد الله بن محمد بن عمر (حوالي القرن ٨ هجري)، آثار الأول في ترتيب الدول طبعة بولاق ١٣٩٥هـ، ص١٧٥.

كما أن ما اشتهر به العرب ولاسيَّما صلاح الدين من مروءة وشهامة جعلت (شامب دور) يقول في ترجمته لصلاح الدين:

(إن صلاح الدين كان أنقى قادة العرب وإليه يرجع الفضل لنهضة الإسلام السياسية، وإنه كان على الصليبيين أن يواجهوا في صلاح الدين حاكماً ذكياً ماهراً قوياً مرهوب الجانب، عرف كيف يفرض على خصومه التقدير والاحترام لشجاعته ونزاهته وأمانته وسمو خلقه، تلك الخصائص الخلقية التي كان الشرق قد فقدها في قادته منذ زمن بعيد).

ثم يعجب المؤرخ (شامب دور) من أن صلاح الدين الذي كان سيداً للشرق والقائم على كل ما فيه من ثروات وخيرات، قد مات فقيراً معدماً إلى حد أن أهله اضطروا إلى اقتراض المال الذي أعدوا به شؤون جنازته يوم وفاته.

ويقول المؤرخ (سوبر هاييم):

(إن صلاح الدين لم يكن متعصباً ولم يكن ليحمل ضغينة أو بغضاء للصليبيين باعتبارهم بشراً ولا للمسيحيين الخاضعين لحكمه لذلك لم يضرب الصليبيين كمسيحيين بل كان يضربهم كأعداء بادؤوا العرب العداء وجاؤوا ليضربوا الإسلام في دياره[١].

بينما يقول (غليوم دي تير) الذي أرخ للحروب الصليبية: (إن الصليبي كان يرى في الشرقي - فحسب - عدوه اللدود - مسلماً كان الشرقي أم مسيحياً يضرب هذا المؤرخ مثلاً على مذابح الصليبيين بغزوة الفرسان القساوسة لمدينة بلبيس، حيث كانت مجزرة للأقباط لاقوا فيها حتفهم على أبشع صور القسوة دون أن يرحم الفرسان القساوسة أو الشيوخ من الضحايا والأطفال الرضع والنساء الضعيفات[٢].

---

(١) محمد علي الغنثيث – الغرب والشرق من الحروب الصليبية إلى حرب السويس، الدار القومية للطباعة والنشر، ص٥٠، ٥١.

(٢) المرجع السابق ص٥٧.

ليست حطين معركة عادية وإنما معركة كبرى من معارك التاريخ الفاصلة التي غيرت مصائر الخلق وحددت معالم الدول[1].

ثامناً - الخصائص المميزة لإستراتيجية القوات المسلحة:

أثرت العوامل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والطبيعية الجغرافية والقومية تأثيراً حاسماً على تطور استراتيجية القوات العربية المسلحة في الحروب الصليبية في القرن الثاني عشر، ومن الأسباب الأساسية التي حددت مسبقاً التطور البطيء للاستراتيجية وحالتها الأولية من حيث الجوهر الانقسام الإقطاعي للدول العربية الذي أدى إلى لا مركزية القوات المسلحة والإمكانيات الاقتصادية التي كانت غير كافية لتشكيل جيش كثير العدد وجيد التجهيز، واتساع الأراضي والمسارح التي تشكل صعوبة في تنفيذ الأعمال القتالية والمناخ الحار وطرق المواصلات الضعيفة بين بعض الأقاليم التي كانت تسبب إعاقة تعبئة القوات والوسائط لصد العدوان.

ويسمح التحليل الذي أجري بالتوصل إلى استنتاج مفاده أنه تم حل بعض مسائل المهام المتعلقة بالإستراتيجية العسكرية في الحروب الصليبية خلال القرن الثاني عشر، ومن بين هذه المسائل – وقبل أي شيء – استخدام الإمكانيات العسكرية والاقتصادية للدول العربية من أجل إحراز النصر في الحرب لتنظيم وتحقيق القيادة العسكرية للقوى الاستراتيجية، وإقامة جيش قادر على تجسيد الهدف الاستراتيجي لتحرير الأراضي المحتلة من قبل العدو، وإعداد مسارح الأعمال القتالية وتجهيزها، وتحديد طرائق وأشكال الصراع المسلح الأكثر فعالية وفقاً للموقف المتشكل، والإعداد لخوض

---

(١) السيد فرج، قادة الحرب العرب، الطبعة الأولى شباط ١٩٥٨، دار الفكر العربي، ص٨٨، س١٧، ١٨.

الأعمال القتالية ذات البعد الاستراتيجي، وتنظيم التعاون الاستراتيجي بين القوات البرية والأسطول، وتأمين القوات.

فقد كانت المنطقة العربية مع بداية القرن الثاني عشر مقسمة ومجزأة إلى حد كبير، حيث تواجد على الأرض العربية ثلاث دول: مملكة القدس اللاتينية التي كانت نتيجة للحملة الصليبية الأولى، ودولة مصر الفاطمية التي قامت في نهاية القرن الحادي عشر بضم جزء كبير من الشريط الساحلي، أما الدولة الثالثة فقد كانت ذلك الجزء من دولة السلاجقة الذي يضم القسم الأكبر من سورية إضافة إلى فلسطين ولبنان والأردن، لكن هذا التقسيم كان شكلياً، فمن حيث الجوهر كانت تتألف كل دولة من الدول المذكورة من الكثير من الملكيات الإقطاعية الصغيرة.

فملك القدس لم يتمتع بأي تفوق أمام الأمراء الثلاثة الآخرين الحاكمين في طرابلس وأنتوهيا وأوديسيا الذين كانت ملكياتهم أيضاً مقسمة إلى بارونات إقطاعية صغيرة، كما أن السلجوقيين الذين كانوا يبسطون نفوذهم على أراض شاسعة، محتلة من قبلهم لم يشكلوا دولة مركزية، فالدولة السلجوقية لم تكن موجودة إلا بالاسم، وفي حقيقة الأمر لم تكن إلا عبارة عن ملكيات شبه إقطاعية متحدة بين بعضها بشكل ضعيف، وفي مصر كان هنالك صراع داخلي هدفه القضاء على الحكم الفاطمي.

وقد ترك هذا النظام السياسي بصماته على الموقف العسكري الاستراتيجي وطرائق وأشكال الأعمال القتالية التي كانت تنفذ بشكل دائم ومستمر بين مصر والسلاجقة، وعلى حدود القرن الثاني عشر شهدت الدولة العربية نهضة اقتصادية إذ انتشرت على أراضيها زراعة الحبوب والقطن والفواكه والثمار المختلفة وقصب السكر وغير ذلك، وانتشرت في كل مكان تربية دودة القز لصناعة الحرير، وبهذا احتلت الدول العربية المكان الأول في إنتاج زيت الزيتون، فكانت فلسطين لوحدها تقدم سنوياً

ثلاثمئة ألف ليتر[١] من زيت الزيتون في العام كضرائب[٢]، وكانت تربية الماشية والخيول متطورة بشكل جيد.

وتعود أسباب النجاحات الكبيرة في الميدان الزراعي إلى حد كبير إلى تطور نظام الري، فخلال القرن الثاني عشر لم يكن على أراضي الدول العربية قحط قط،، ولم تكن الزراعة بحاجة إلى الماء وخاصة في عهد الأيوبيين عندما كان مستوى ماء نهر النيل، الذي يعد المصدر الرئيسي للزراعة، ثابتاً دائماً وذلك بفضل الإنشاءات الهندسية[٣].

وخلافاً لأوروبا الغربية كان العرب يمتلكون شبكة واسعة من المدن التي كانت تشكل مراكز إنتاج مهني ومراكز تجارية سواء أكانت محلية أم للمرور (ترانزيت)، كما كان الإنتاج في ميادين التعدين وصناعة النسيج والصناعات التحويلية متطور بشكل جيد، فبالقرب من بيروت استخرجت فلزات الحديد، وبالقرب من حلب كان يتم استخراج المواد النفطية، وفي منطقة البيجا بنيت معامل السكر[٤].

وإضافة إلى ذلك كان العرب يصنعون الأسلحة والذخائر ذات المواصفات

---

(١) واحد ليتر = ٤٤٠ غرام، الباحث.

(٢) التاريخ العالمي، يقع في عشرة مجلدات رئيس التحرير العام ي. م جوكوف، إصدار دار المنشورات السياسية الحكومية، موسكو ١٩٥٧، ص ٣٣٠.

(٣) فيليب حتي وجورجي جبور، تاريخ العرب المطول، بيروت دار الكشاف ١٩٥٢ مجلد ٣ صفحة ٧٨٩.

(٤) لا بد من التنويه بأن العرب هم أول من اكتشف إنتاج السكر واستخدمه. وهم السباقون في تحضير الشرابات والخشاف المحلاة بالسكر.

انظر زكي النقاش، العلاقات بين العرب والافرنج خلال الحروب الصليبية، بيروت، دار الكتاب اللبناني ١٩٥٨ ص ٩٦.

العالية، وقد انتشرت في كل من دمشق والقاهرة ورشات لتصنيع السيوف التي اشتهرت بسمعتها العالمية.

كما اشتهرت مدينة الموصل في العراق بصناعة التروس والرماح، ومن هذه المدينة كان يورد للقوات العربية النفط الأبيض الذي استخدم كمواد حارقة[١]، وفي تلك الورشات المذكورة وغيرها من المدن الأخرى كان يتم تصنيع أدوات الحصار الثقيلة مثل المنجنيقات والدبابات، وكانت السفن تصنع في المدن الساحلية (الموانئ)، ونشطت الأعمال التجارية في الموانئ السورية وبيروت وطرابلس وصيدا وصور وعكا وقيسارية وغزة وعسقلان التي كانت تقوم بتجارة نشيطة مع موانئ إفريقيا الشمالية وبيزنطة وصقلية وإيطاليا، خاصة أن الحرب بين العرب والأوروبيين لم تؤدِّ إلى الانقطاع الكامل في العلاقات التجارية، فلم تكن هذه العلاقات تنقطع إلا أثناء الصدامات ذات المدى الواسع، وكانت تجارة السكر، والأسلحة والدبابات والغزول ومصنوعات الزينة اليدوية والمجوهرات تعطي الشرق إيرادات كبيرة[٢].

وقد سمحت هذه الإيرادات، بالإضافة إلى الوسائط التي كان يتم الحصول عليها من الضرائب المفروضة على منتجي السلع، بتغطية وتأمين وتمويل قوات مسلحة كبيرة العدد في تلك الفترة، وكان يصل تعدادها إلى ٥٠٠ فارس وجندي مشاة، فالعديد من المدن كانت الحاميات تمول فيها على حسابها الخاص.

وقد كان يعمل بهذا الأمر وفقاً لاتفاقية متبادلة بين المدن مع حكام المقاطعات الذين خفضوا نسبة الضرائب على المدن مقابل ذلك[٣].

---

(١) ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، القاهرة، مكتبة الأميرية ١٩٥٧، مجلد ٢ صفحات ٢٤٣، ٢٦٣، ٧٠٧.

(٢) عبد العزيز سيد الأهل، أيام صلاح الدين الأيوبي، بيروت، دار الكتاب ١٩٦١، ص ١٥.

(٣) ي.م. جوكوف، التاريخ العالمي، إصدار دار المنشورات السياسية الحكومية، موسكو ١٩٥٧م ج٤، ص٣٣٠.

ومن السمات المميزة لأعمال القيادة العليا وحكام الدول العربية السعي لاستخدام الإمكانيات المتوفرة كافة في الموقف الديناميكي لتجهيز الجيش والأسطول وتشكيل الاحتياطات الضرورية واللازمة لخوض الحروب الطويلة، خاصة أن العرب فقدوا في أثناء الغزوات الصليبية جزءاً كبيراً من الأراضي والكثير من المدن.

كما أن أعداداً كبيرة من السكان العرب القاطنين في المدن والأرياف تعرضت في أثناء غزو الصليبيين لسورية وفلسطين للإبادة الكاملة، وتحول قسم منهم إلى عبيد، ولذلك كان صعباً للغاية إعداد القوات المسلحة من أجل تنفيذ مهام استراتيجية في مثل تلك الظروف، فقد نفذت الأعمال العسكرية بشكل رئيسي على أراضي سورية وفلسطين.

لذا يمكن القول عند تقييم الحالة المتشكلة في النصف الثاني من القرن الثاني عشر إن المناطق الأكثر أمناً وهدوءاً، أصبحت تحتل أهمية كبيرة في إعداد القوات المسلحة، ففي عام ١١٨٢م جعل صلاح الدين الأيوبي من القاهرة قاعدة أساسية لإعداد وإمداد القوات العربية وتدريبها، إذ كان يرسل إليها الجرحى والأسرى، ومن حيث الجوهر أصبحت مدينة القاهرة قاعدة أساسية في إعداد الاحتياطات الإستراتيجية وتحضيرها، كما أصبحت جميع الطلبات الخاصة بتقديم الدعم وتعويض الخسائر التي كانت تتكبدها القوات العربية في ساحات القتال توجه إليها[١].

وقد استفاد صلاح الدين عند استلامه للسلطة من خبرة السلاجقة الذين شكلوا في دولتهم نظام المدارس العاملة الدائمة والمستمرة التي كانت تقوم بتدريس مختلف العلوم حيث قام بتأسيس وتوسيع شبكة من المدارس

---

(١) أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين، القاهرة، وادي النيل ١٢٨٧هـ، مجلد ٢، ص ٧.

كمؤسسات رئيسية لتدريب وتربية الشبان، وقد انتشرت تلك المدارس في أصقاع الدولة كافة، وكان عدد تلك المدارس كبيراً في كل من دمشق وبعلبك والقاهرة والإسكندرية، ويشير ابن جبير إلى أنه في عام ١١٨٤م كان في دمشق أكثر من ٢٠ مدرسة[١]، وكان الشبان بعد تخرجهم من تلك المدارس يشكلون الاحتياط الأساسي لتشكيل القوات النظامية.

ونتيجة لاحتلال الصليبيين للقسم الأكبر من الموانئ والمدن الساحلية وتهديدهم الدائم للمدن الساحلية العربية فارضين إعاقة تعزيز الأسطول العربي وتجهيزه اتخذ صلاح الدين الأيوبي قراراً **ببناء مرفأ لتصنيع السفن الحربية وإعدادها** لتنفيذ الأعمال القتالية بعيداً عن العدو، وقد اختار منطقة حي البحص الواقع في ضواحي القاهرة على شاطئ نهر النيل[٢] ليكون مكاناً لبناء هذا المرفأ، وقد أطلق عليه تسمية (مقس)[٣] وبذلك أصبح هذا الميناء قاعدة لقوى الأسطول إضافة إلى موانئ دمياط والإسكندرية، كما أصبح أحد الأجنحة الهامة في تجهيز مسرح الأعمال القتالية.

وقد بينت أعمال العرب القتالية ضد الصليبيين أن النجاح في الحرب يتعلق إلى درجة كبيرة بتوفر القلاع المحصنة بشكل جيد، والمتوضعة في المرتفعات المسيطرة على أهم طرق القوافل، لذا كان العرب يتخذون الإجراءات والتدابير المناسبة لتعزيز قلاعهم القديمة وبناء قلاع جديدة بغية تأمين تنفيذ الأعمال القتالية لتحرير الأراضي المحتلة، وقد أخذ هذا العمل مدى كبيراً، وبشكل خاص في عهد السلطان صلاح الدين الأيوبي الذي بنى إحدى أفضل القلاع على جبل المُقَطَّمْ، كما أمر بترميم قلعة في سورية على بعد ٣٣ كم إلى

---

(١) ابن جبير، رحلة ابن جبير، القاهرة، السعادة ١٣٣٦ هـ، ص ١٨٣.

(٢) في الوقت الراهن يوجد في هذا المكان في القاهرة محطة للسكك الحديدية وسوق محلي لأنه ومع مرور الزمن غير نهر النيل مجراه.

(٣) عبد العزيز سيد الأهل، مصدر سابق ص ١٠٧، ١٠٨.

جهة الشرق من مدينة اللاذقية في منطقة الحفة التي كانت تحت إمرته، وهذه القلعة تحمل اسمه في الوقت الحاضر[1].

وفي ذلك الوقت أيضاً تم اتخاذ التدابير اللازمة لتعزيز مدينة القاهرة، إذ كانت هذه المدينة تتألف من أربع مدن: "الفسطاط" التي بناها عمرو بن العاص، و"اسكار" التي شيدها صلاح بن علي العباس، و"قاطس" التي بناها أحمد بن طولون، والقاهرة التي بناها جوهر الصقلي.

حيث أعطى صلاح الدين الأيوبي أوامره لبناء سور حول هذه المدن المذكورة، وقام بتوحيدها في منطقة محصنة واحدة، كما ألقى السلطان صلاح الدين الأيوبي مسؤولية الإشراف المباشر والمراقبة على عاتق بهاء الدين قرقوش، وقد بلغ طول سور القاهرة ٧،٥ أميال، وكان هذا السور مجهزاً بأبراج دائرية الشكل مخصصة للمراقبة وإلقاء الحجارة والمواد الحارقة في أثناء صد أي هجوم، ولا بد من الإشارة إلى أن بناء السور حول القاهرة قد اكتمل بعد وفاة صلاح الدين الأيوبي[2].

كما اكتسب بناء المنشآت المائية الفنية الخاصة التي سميت بـقناطر الجيزة أهمية إستراتيجية، حيث بدأ السلطان صلاح الدين الأيوبي ببناء هذه المنشآت التي كانت تعمل على حجز مياه النيل بشكل جزئي، مما يسمح برفع منسوب الماء الذي كان يؤدي إلى إفاضة المياه إلى المناطق المتاخمة وغمرها، مما يشكل عوائق طبيعية يصعب على العدو اجتيازها، بالإضافة إلى الدور الذي كانت تقدمه في عملية الدفاع، وعلاوة على ذلك كان لبناء قناطر الجيزة أهمية اقتصادية كبيرة إذ أصبح بالإمكان تنظيم الاستخدام العقلاني للمياه من أجل ري الحقول وادخارها للاستفادة منها في أثناء حصار

---

(١) فيليب حتي، جوجي ي، جبور مصدر سابق ص ٧٤٧ + س. لينبول سيرة القاهرة، مكتبة النهضة ١٩٥١.

(٢) أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين، مصدر سابق مجلد ٢ ص ١٧.

المدينة من قبل العدو، وفي عام ١١٩٣م قام الكاتب المشهور ابن جبير بزيارة بناء قناطر الجيزة، ومما كتبه عن تلك القناطر: "لقد اتخذ صلاح الدين الأيوبي ذلك الملك الذكي، تدابير مدهشة لصد هجوم العدو المحتمل من جهة الإسكندرية عن طريق تطويف نهر النيل الذي كان يغمر الحقول مما يمنع تقدم قوات العدو في أي وقت"[١].

وقد بدأ بناء قناطر الجيزة ببناء الطريق المرصوفة بالحجارة التي تبدأ من شاطئ النيل قرب القاهرة وباتجاه مدينة مصر وبطول ستة أميال واتصلت بقناطر الجيزة، وقد بنيت القناطر من حجارة أهرامات الجيزة، وقام بتنفيذ البناء المهندس قرقوش في الفترة ١٢٠٠م – ١٢٠٢م، وقبل الانتهاء من البناء تم استبدال قرقوش بمهندس ليس لديه خبرة كافية، ولذلك اتخذ قراراً بإغلاق القناطر التي لم يكتمل بناؤها بعد من أجل تأمين مدينة الجيزة بالماء، ونتيجة للتخزين الكبير للماء وغير المراقب تهدمت ثلاث قناطر، وبذلك فقدت هذه المنشأة أهميتها الإستراتيجية[٢].

وكان شق طرق المواصلات بين المراكز الأساسية التي تفصل فيما بينها مسافات كبيرة والمناطق المنفصلة أَمراً مهماً وملحاً في إعداد الأعمال الإستراتيجية للعرب، فكما هو معروف كانت سورية تحتل شريطاً ضيقاً بين البحر والصحراء، وكانت تقوم عملياً بتنفيذ دور جسر يصل حضارة حوض الفرات بحضارة حوض النيل، وكان احتلال سورية بالكامل يسمح بقطع طرق المواصلات بين السلجوقيين والفاطميين وبين بغداد والقاهرة.

إلا أنه لم يتسنَّ للصليبيين احتلال الكثير من المدن السورية مثل دمشق وحلب وحماة التي اعتبرت مراكز رئيسية تقع على طرق المواصلات

---

(١) ابن جبير، مصدر سابق ص٢٢.

(٢) البغدادي، كتاب الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة في أرض مصر. القاهرة دار النشر المجلة الجديدة عام ١٩٢٨م ص٣٦.

الأساسية، وعندئذ احتل الصليبيون قلعة الرها التي كانت تقع على الطريق الواصلة بين دمشق وحلب وإيران، كما احتلوا قلعة الكرك الواقعة على الطريق بين دمشق إلى مصر.

غير أنه لم يتسنَّ للصليبيين عزل المدن السورية التابعة للعرب، فقد أوجد حكام العرب طرقاً جديدة للقوافل التي كانت تصل أراضيهم بإيران عن طريق مدن الباب وبوزو ومنبج ودمشق بأراضي حوض الفرات عن طريق مدينة الرها – الميادين حالياً – بالإضافة إلى طريق آخر عبر الصحراء، وقد استخدمت هذه الطرق لمرور القوافل المدنية والقيام بالحملات العسكرية على حد سواء.

ويذكر ابن القلانسي أنه في عام ١١٠٠م نظم الأمير العربي دقاق حملة من دمشق إلى ديار بكر عن طريق مدينة الرها[١]، ومع ذلك تبين دراسة الكتب القديمة والمخطوطات أن القوات العربية استخدمت الطرق الممتدة عبر الممالك الصليبية، فعلى سبيل المثال قامت قوة عربية تحت إمرة الأمير أرسلان في ١١٠٦م باجتياز منطقة الرها التي كان يسيطر عليها الصليبيون عدة مرات.

كما قام القادة العسكريون العرب (شيركوه وصلاح الدين الأيوبي) أكثر من مرة بحملات عبر الأردن الذي كان خاضعاً للصليبيين، وقد تمت الحملة الأولى في عام ١١٦٥م – ١١٦٩م والثانية عام ١١٧٤ – ١١٧٦م، ١١٧٨م – ١١٨١م وعام ١١٨٢م، وهناك العديد من الباحثين الذين يؤكدون هذه الحقائق[٢].

وكانت المركزية المتدرجة لقيادة القوات المسلحة السمة المميزة للإستراتيجية العسكرية عند العرب، ففي القرن الثاني عشر حصل الإقطاعيون السلاجقة في الأراضي العربية على حق جمع الضرائب في ممالكهم كمكافأة

---

(١) ابن القلانسي، تاريخ دمشق، الحروب الصليبية، القاهرة، النيل ١٩٥٦ مجلد٢، ص٥٩.

(٢) موسوعة المعرفة السويسرية، بيروت ١٩٧١م مجلد ١٢ ص٢٠٣٤، ٢٠٣٥.

لهم لقاء التزامهم بالخدمة في جيش السلطان، فوفقاً لأمر السلطان كان يتوجب عليهم إعداد قواتهم ووضعها تحت رايته.

وكان جيش السلطان الذي يتألف من قوات الأمراء التابعين قد بدأ حملته من مناطق الجزيرة وديار بكر، ولم يقم شخصياً بقيادة القوات مطلقاً ففي أغلب الأحيان كان يعين أمير الموصل قائداً للقوات العربية، وهنا لابد من التنويه إلى أن هذا التنظيم لقيادة الجيش لم يتجاوب ومتطلبات الصراع المسلح، لأن الأمراء الآخرين لم ينفذوا بقدر كاف أوامر أمير الموصل، إذ كانوا يعملون في أغلب الأحيان بشكل مستقل، مما أدى إلى انتشار الفوضى.

ومن حيث الجوهر تسنى للحكام السلاجقة خلال السنوات العشرين الأولى من القرن الثاني عشر جمع جيش كبير العدد، غير أن عدم وجود القيادة الفعالة لهذه القوات لم يسمح لها بتنفيذ المهام المسندة إليها بالشكل المطلوب[١].

وقد تحسنت قيادة القوات بعض الشيء بعد أن ضم عماد الدين الزنكي مدينة حلب في عام ١١٢٨م، وبعد أن أخضع لنفوذه عدداً من الممالك السلجوقية في بلاد ما بين النهرين العراق حالياً وشمال سورية مستخدماً القوة تارة والدبلوماسية تارة أخرى.

غير أن القيادة الإستراتيجية في عهد صلاح الدين الأيوبي أصبحت أكثر مركزية ووضوحاً، إذ كانت قادرة على إخضاع مصر وجزء كبير من بلاد ما بين النهرين وسورية بعد أن تم ضم دمشق وحماة وحلب... وغيرها، بالإضافة إلى إمارة الموصل التي أعلن أميرها الزنكي الثاني في عام ١١٨٦م ولاءه للسلطان وأصبح تابعاً له[٢]، وبالتالي لم يعد صلاح الدين الأيوبي يقود

---

(١) ار. سي سميل، فن الحرب عند الصليبيين، دمشق، مركز الدراسات العسكرية ١٩٨٢ ص١٢٧.

(٢) م. أ. زابوروف، الصليبيون في الشرق، موسكو دار العلم ١٩٨٠، ص١٥٢، ١٦٨.

القوات العربية شكلياً كما فعل الحكام الذين سبقوه، وإنما أصبح على رأس الجيش منفذاً واجبات القائد العام.

وعلاوة على الجهود المبذولة لتوحيد الدول العربية على حساب إخضاعها لنفوذهم، قام الحكام العرب بمحاولات منفصلة لإنشاء تحالف للصراع ضد الصليبيين، وأوضح مثال على ذلك التحالف مع الحكام السلاجقة في عام ١١٠١م لصد الحملة الصليبية، حيث اشترك كل من سلطان أقونيا "قلج أرسلان الأول"، والأمير "مالك غازي" والملك "رضوان" من حلب في جبهة واحدة، وعلى مسافة ٢٥٠ ميلاً من "نيكسار" قرب "ميرزقان" هزموا الغزاة الصليبيين.

ومن الجدير بالذكر أن الأمراء العرب كانوا يلجؤون في أثناء صراعاتهم الداخلية في عهد السلاجقة إلى مساعدة ملك القدس، فعلى سبيل المثال، قدم الصليبيون الدعم لعماد الدين الزنكي في حربه ضد دمشق وذلك عندما أجبر الملك "فولكا" الصليبي قوات الموصل على الانسحاب بشكل خاص(١).

وتؤكد الأبحاث والدراسات أن الدفاع كان الشكل الأساسي للنشاط العسكري عند العرب في بداية القرن الثاني عشر، إذ لم يتسنَّ للعرب نتيجة انقسامهم الإقطاعي تشكيل جبهة واحدة لصد الغزو الصليبي، حيث كان العالم الإسلامي مشتتاً، ولم يجابه الصليبيون في تلك الفترة كتلة موحدة وكاملة، وإنما جابهوا خليطاً من الإمارات الصغيرة والكبيرة التي كانت على عداء فيما بينها في بعض الأحيان.

كما كان للانقسام الديني أثر في ذلك، فالسلاجقة السنّة لم يجدوا لغة مشتركة مع المصريين الشيعة في مصر بسبب صراع المذاهب والتيارات الدينية، لذا أصبح الدفاع عن المدن والقلاع الطريقة الأساسية لتنفيذ الأعمال القتالية، ولم يكن باستطاعة الكثير من الحاميات المعزولة مجابهة قوى الصليبيين، ولذلك كانت تمنى بالهزائم الواحدة تلو الأخرى.

---

(١) م. أ. زابوروف الصليبيون في الشرق، موسكو، دار العلم ١٩٨٠، ص١٥٢.

وهكذا فقد احتل الصليبيون في عام ١١٠١م مدينة حيفا و"ارسوف" و"قيسارية"، وفي عام ١١٠٤م احتلوا عكا وفي عام ١١٠٩ احتلوا طرابلس التي صمدت في وجه الحصار الصليبي قرابة سبع سنوات، كما احتلوا صيدا وبيروت، وفي عام ١١٢٤م احتلوا مدينة صور، وقد ساعد أسطولا جنوى والبندقية في احتلال هذه المدن حيث قطع هذان الأسطولان المراسي الواقعة على الشاطئ الشرقي للبحر الأبيض المتوسط، عن أسطول مصر الذي كان يقدم العون للمدن السورية والفلسطينية، وفي الوقت نفسه وبفضل هذا العون وبفضل اقتراح الحكام العرب دفع الفدية للحكام الصليبيين بقيت بعض المدن الساحلية العربية من دون احتلالها، ففي هذه الفترة لم يقم عملياً سوى الجيش الفاطمي في مصر بتنفيذ الأعمال الهجومية ضد الصليبيين.

وقد أحبط احتلال الصليبيين للمدن الساحلية السورية والفلسطينية مخطط مصر الهادف إلى إخضاع تلك المدن لها، ولهذا بدأت مصر بشن الأعمال القتالية ضد الصليبيين، إذ كانت مصر حتى عام ١١٢١م تقع تحت سلطة "الأفدال" الذي قام شخصياً بقيادة البلاد، مما جعلها الركيزة الهامة لتنظيم الحملات السنوية التي كانت تنفذ عن طريق السهل الساحلي وطريق عسقلان إلى سورية وفلسطين، إلا أن جميع حملات القوات المصرية باءت بالفشل باستثناء حملة عام ١١٠٢م التي لم تستطع القوات المصرية الاستفادة من نتائجها رغم إحراز النصر فيها، حيث أجبرت الأعمال الهجومية الفاشلة للمصريين الأفدال بدءاً من عام ١١٠٧م على اختصار عدد الحملات العسكرية الهجومية ضد قوات الصليبيين.

وقد اقتصرت الأعمال الهجومية الفعالة ضد الصليبيين على فترة عهد صلاح الدين الأيوبي، ففي فترة حكمه أصبح الهجوم الشكل الأساسي للأعمال القتالية وأصبحت التغييرات الإستراتيجية ممكنة بفضل إقامة صلاح الدين الأيوبي دولة قوية ذات إمكانيات اقتصادية كافية لتشكيل جيش كبير العدد ومسلح ويتمتع بقيادة مركزية صارمة.

وقد كانت الصفة العامة للأعمال الهجومية للعرب أنها نظمت على شكل حملات عسكرية، وأصبح المدى الكبير سمة مميزة للحملات العسكرية عند العرب التي نفذت على مسافات تصل حتى مئات الكيلومترات، أما من حيث الزمن فكانت تستغرق الحملة الواحدة من بضعة أيام وحتى ثلاثة أشهر، وكانت تنفذ بشكل عام في جميع فصول السنة باستثناء فصل الشتاء بسبب صعوبة تحرك القوات فيه، مع العلم أن الحملات التي نفذت شتاءً لم تعطِ النتائج المرجوة، وقد أكد العديد من الباحثين أن أكبر الحملات العسكرية الشتوية التي نظمت في الفترة من ١١٢٩و١١٧٠م كانت فاشلة[١].

ولكن هذا لا يعني أن ظروف الطقس الصعبة هي وحدها السبب في العزوف عن تنظيم الحملات العسكرية في أثناء الشتاء، فقد كان القسم الأعظم من أفراد القوات العربية شبه العسكرية يُدعَون بشكل مؤقت للخدمة، إذ كان من غير الممكن الاحتفاظ بهؤلاء على مدار السنة، ومع قدوم الخريف كان هؤلاء الجنود يسعون للعودة إلى بيوتهم، كما أن محاولات الاحتفاظ بهم كانت تؤدي إلى انخفاض مستوى الانضباط والقدرة القتالية لديهم، وقد انعكس ذلك في التعب من المعارك التي نُفذت في وقت الشتاء، فالقوات كانت بحاجة إلى الراحة واستكمال التأمينات.

كما أن الأعمال القتالية لم تكن مرغوبة شتاءً نظراً لضعف سيطرة الأمراء أصحاب الملكيات الصغيرة، ففي حال غياب الأمير لمدة طويلة في الحملة كان باستطاعة السلطان أن يهدي أو ينقل ملكية الأمير إلى ملكية شخص آخر إذا كانت معرضة لأن يستولي عليها شخص آخر، لذا كان الأمراء يسعون كي لا يبتعدوا مدة طويلة عن ملكيتهم[٢]، وإضافة إلى ما

---

(١) ابن شداد، النواد السلطانية والمحاسن اليوسفية، القاهرة، ط المؤيد عام ١٣١٧ه، ص١٦٨، ١٧٠.

(٢) ابن القلانسي، مصدر سبق ذكره صفحة ٦١٧.

سبق فإن عودة الأمير إلى بيته كانت ضرورية لنقل الغنائم التي يستولي عليها في المعارك إلى ملكيته[١].

كما كانت الحملات العسكرية مختلفة الأهداف، إذ غالباً ما كانت توجه هذه الحملات لتحرير الأراضي التي احتلها الصليبيون، أو لتوسيع طرق المواصلات وتوفير الأمن لمرور القوافل التجارية، ومن أجل تحقيق الأهداف والمهام المذكورة كانت تنظم الحملات العسكرية لتدمير حاميات الصليبيين في المدن والقلاع الموجودة في المناطق القريبة من طرق القوافل، كذلك كان البدو يشنون حملات عسكرية مهمتها الأساسية إبعاد البدو القاطنين حول الحاميات الصليبية الذين كانوا يعيقون مهاجمة الصليبيين في الملكيات المصرية، وذلك لأن الصليبيين كان ينقصهم أولاً ذوو الخبرة بالطرق الصحراوية المؤدية إلى مصر ولذلك كانوا يعتمدون في ذلك على بعض البدو[٢].

ومن بين أكبر الحملات العسكرية الأولى حملة شهاب الدين محمود[٣] أمير دمشق الذي اقتحم إمارة طرابلس عام ١١٣٧م، ودمّر الفرسان الموجودين هناك، وبعد أن أسر أميرها بونتيا قام بقتله، وبعد ذلك وفي نفس العام اجتاحت قوات أمير الموصل عماد الدين الزنكي إمارة طرابلس.

وفي هذه المرة سحق السلاجقة الأمير رايموند الثاني والكثير من فرسانه، وبعد أن وطد عماد الدين الزنكي سلطته قام في تشرين الأول عام ١١٤٤م بحملة عسكرية ضد إمارة أديسيا.

وفي السادس والعشرين من تشرين الثاني فرض حصاراً حولها، وبعد الحصار مباشرة هبت قوات من الفرسان الصليبيين من مملكة القدس لتقديم

---

(١) ابن الأثير الكامل في التاريخ، القاهرة مكتبة الأزهرية ١٩٦٤، المجلد ١١، صفحة ١٣٧.
+ أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين، مجلد١، صفحة ٢٠٦.

(٢) آ. رسي سميل، فن الحرب عند الصليبيين مصدر سبق ذكره، صفحة ١٢٨.

(٣) القلانسي ص٤٠٧.

المساعدة للمدينة المحاصرة وفك الحصار عنها وتحركت هذه القوات بناء على أمر من وصية العرش ميليزا نيدا التي كانت تترأس مملكة القدس لعدم بلوغ بلدوين الثالث سن الحكم، لكن هذه القوات وصلت متأخرة، وفي الرابع والعشرين من كانون الأول من نفس العام احتل عماد الدين الزنكي المدينة ودمرها، وانتقل فيما بعد لاحتلال الكثير من مناطق الإمارة، وقد أصبح سقوط مدينة أديسيا دافعاً لعماد الدين الزنكي لتنظيم الحملة الصليبية الثانية.

واستمر تحرير الأرض من الفرنجة على يد نور الدين محمود بن الزنكي بن حاكم الموصل الذي نفذ أعمالاً هجومية ضد الفرنجة وبالتالي تمكن من تحرير سهل الفرات(١)، أما الأعمال الهجومية الحاسمة التي نفذت ضد الصليبيين فكانت مرتبطة باسم السلطان صلاح الدين الأيوبي الذي وجّه جهود قواته الأولى لاحتلال قلعتي الكرك والشوبك اللتين كان لهما أهمية إستراتيجية كبيرة، غير أن حملته الأولى التي قام بها في عام ١١٧٥م باءت بالفشل، وفي عام ١١٧٦م جهز حملة جديدة وجهها ضد القلعتين المذكورتين مستخدماً طريق حلب دمشق – بيسان، وفي طريقه إلى هدفه تلقى معلومات تفيد بأن قوات صليبية تتحرك في منطقة عين جالوت بهدف تنفيذ هجوم على العرب في تلك المنطقة، فقرر تغيير خط سير حملته، وشن هجوماً باغتاً وحاسماً ضد تلك القوات سحق من خلاله قوات الفرسان بشكل كامل، حيث قتل أغلبية الفرسان وأسر أكثر من مئة فارس صليبي.

وقد أشار المؤرخون العرب إلى أن صلاح الدين الأيوبي لم يخسر في هذه المعركة سوى فارس واحد كان يسمّى فرهاد الشاويش(٢)، لكن الهدف الأساسي لهذه الحملة والمتمثل بتدمير أو طرد الصليبيين من قلعتي الكرك والشوبك لم يتحقق.

---

(١) م. ي. زابوروف، الصليبيون في الشرق، روسيا الاتحادية، موسكو، دار العلم، ط ١٩٨٠م، ص ١٥٢.

(٢) عبد العزيز سيد الأهل، أيام صلاح الدين، صفحة ١٨٨، ١٨٩.

وفي نهاية تشرين الأول عام ١١٧٧م وصل صلاح الدين الأيوبي بقواته إلى منطقة ظهر بلبيس حيث أمر قواته بوضع احتياطات من الماء والطعام والعلف، وبعد ذلك ترأس قوة قوامها أربعة عشر ألف جندي مشاة وستة وعشرون ألف فارس، وتوجه بها في حملة عسكرية باتجاه الشمال على طول الساحل، وفي نهاية تشرين الثاني هاجم عسقلان واحتل جميع القلاع الصليبية الموجودة في تلك المنطقة، وتحرك فيما بعد باتجاه الرملة، لكن نهر تل الصافي اعترض طريقه وعرقل سيره، وعندها قرر إنهاء حملته والعودة إلى الخلف من دون المحافظة على نظام الحملة العام مستخدماً فصائل القوات بشكل مستقل.

وفي كانون الأول عام ١١٧٧م هاجم القادة العسكريون الصليبيون بجيش عرمرم صلاحَ الدين الأيوبي وما تبقى معه من فصائل قليلة العدد في قلعة الكرك، وكان ذلك بالتعاون مع ملك القدس بلدوين الثالث، وقد خاضت القوات العربية ببسالة تلك المعركة غير المتكافئة، ففي البداية هاجم فصيل عربي تحت قيادة محمود بن تقي الدين عمر الصليبيين مستخدماً المناورة السريعة موجهاً ضربته إلى مؤخرة العدو وأنزل بها خسائر فادحة.

وفي الهجمة الثانية استشهد القائد محمود بن تقي الدين عمر، وخلف الفصيل المذكور قام فصيل عربي آخر تحت قيادة عيسى الحكري بمهمة إعياء العدو وتكبيده أكبر ما يمكن من خسائر، وقد أظهر المقاتلون العرب رغم عدم التكافؤ في القوى شجاعة وبسالة نادرتين، وبعد تقييم الموقف توصل الأمراء بقيادة صلاح الدين الأيوبي إلى رأي واحد، ألا وهو أنه في مثل هذا التوزيع للقوات يكون قرار سحب القوات هو القرار الصائب، وفي أثناء الانسحاب باتجاه الصحراء تاهت قوات صلاح الدين، إلا أن البدو قدموا لها المساعدة ومن ثم رجعت القوات إلى مصر[١].

---

(١) ابن محزمة، قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر، مخطوط مصور دار الكتب المصرية، التاريخ رقم ١٦٧، الجزء ٢ صفحة ٨٧٣.

وفي عام ١١٧٩م قرر صلاح الدين الأيوبي القيام بحملة على بلاد الشام سورية، فلسطين، لبنان، الأردن، وكان على القوات العربية أن تقوم بالمعركة الرئيسية ضد الصليبيين في منطقة مدينة مرجعيون، وبما أنه لم يكن من السهل إخراج الصليبيين من القلاع والمدن المحصنة، استخدم صلاح الدين الأيوبي الخدعة العسكرية لتنفيذ هذه المهمة، لذا وجه في مقدمة القوى الرئيسية المشاركة في الحملة مفارز غير كبيرة ذات قدرة على المناورة باتجاه مدينتي صيدا ومرجعيون، وأوكل إلى هذه المفارز مهمة الإقامة في ضواحي هاتين المدينتين والقيام بغارات دائمة على القرى بغية إفقارها وتفريغها من السكان، الأمر الذي أجبر الصليبيين الذين لم يستطيعوا أن يسمحوا بإفقار وتفريغ الأرض التي يستعمرونها على إرسال قوة تعدادها ١٠٠٠٠ من المشاة والخيالة للقتال[١].

والأمر الملاحظ هنا أن الصليبيين لم يراعوا تراتيب القتال لدى ملاحقة القوات العربية، ففي ١٥ تموز عام ١١٧٩م هاجمت قوات صلاح الدين الأيوبي – التي كانت قد وصلت إلى المنطقة – الصليبيين بشكل مفاجئ وأنزلت الهزيمة بالمشاة أولاً ومن ثم بالخيالة ثم قامت بأسر القادة العسكريين لمدن طرابلس والرملة ويافا وجرايا وجنين وجبيل وغيرهم من الشخصيات الهامة، وبعد هذا الانتصار قسَّم صلاح الدين الأيوبي قواته إلى تشكيلات منفصلة دخلت إلى بلاد الشام من مختلف الجهات وقامت بمهاجمة الحاميات غير الكبيرة[٢].

وقد سمح النصر الذي أحرزه صلاح الدين بوضع شروط للصليبيين: حيث اشترط عليهم تدمير قلعة بيت الأحزان، إلا أن الصليبيين رفضوا ذلك، وللمرة الثانية أرسل صلاح الدين الأيوبي رسالة تتضمن إنذاراً نهائياً بتدمير القلعة،

---

(١) انظر الملاحق.

(٢) الحافظ شمس الدين، دول الإسلام، نشر دار المعارف بالهند، الدكن سنة ١٣٣٧هـ، المجلد ٢ ص٥٦.

وفي هذه المرة حصل على رد إيجابي بشرط تعويض الخسائر، وبعد ذلك بدأ بإجراء مباحثات مع الصليبيين وعدهم خلالها بتقديم مئة ألف دينار، غير أن الصليبيين طلبوا مبلغاً يفوق هذا بكثير، عندئذٍ تمَّ اتخاذ قرار بالقيام بحملة جديدة واحتلال القلعة بالقوة، وهذا ما تمَّ بالفعل.

وبعد ذلك فكّر صلاح الدين بتطوير نجاحه، فوجه كُتباً حاملة أوامره إلى أمراء القوات والقبائل بتعبئة القوات، فتوجهت الآلاف المؤلفة من القوات التي جمعها في ٢٤ آب عام ١١٧٩م إلى المخاضة، وقد استغرق وصول القوات حوالي يوم[١].

وفي ٢٦ آب عقد صلاح الدين الأيوبي مع الأمراء اجتماعاً وطلب منهم إبداء رأيهم حول طرائق احتلال القلعة، وقد اقترح القائد العسكري جاولي الأسدي الاقتراب من أسوار القلعة زحفاً، ومن ثم يتوجب على المقاتلين فتح ثغرات فيها، وعوضاً عن الحجارة التي تنزع من الأسوار يتم وضع دعامات خشبية في الفتحات التي تتشكل ومن ثم طليها بالنفط وإشعالها، مما يؤدي إلى انهيار السور، وعندئذٍ سيكون باستطاعة المقاتلين المهاجمة من خلال الفتحات التي تشكلت، وبعد مناقشة هذا الاقتراح تمّ قبوله، وفي ذلك اليوم وبعد الغداء أعطى صلاح الدين الأيوبي أمره بالبدء بالأعمال القتالية، حيث اقترب المقاتلون العرب بشكل متخفٍ من أسوار القلعة، وصعد أحد المقاتلين إلى باشورة[٢] القلعة ومن ثم تبعه آخرون إلى أن احتلوها.

أرسل الصليبيون إشارة الإنذار وأرسلوا رسلهم إلى طبريا لطلب العون وخرجوا إلى أسوار القلعة لخوض المعركة الدفاعية بعد أن انتهت الأعمال

---

(١) السعداوي، التاريخ الحربي المصري، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٧ ص١١٨.

(٢) باشورة القلعة: هي الساحة مع المنارة، كانت تستخدم لجميع الناس في أثناء السلم، أما في وقت الحرب فكانت تستخدم كمنطقة مراقبة، وكقاعدة كانت الباشورة تبرز عن خط السور.

القتالية، ومع بزوغ الفجر أمر صلاح الدين بتحريك عتاد الحصار إلى باشورة القلعة، وباستخدامهم للأبراج الخشبية بدأ العرب بفتح ثغرات في سور القلعة الذي كانت تبلغ سماكة جدرانه ١٩،٥ متراً[١] وباءت المحاولة الأولى بالفشل جرَّاء عدم احتراق الدعامات الخشبية بشكل كافٍ، واستمر العرب في محاولتهم توسيع الفتحات، وأدت المحاولات إلى انهيار السور فتوغل آلاف المقاتلين من خلال الممرات التي تشكلت، وفي ٣٠ آب احتلوا القلعة.

وتؤكد الدراسات والكتب والمخطوطات العربية القديمة أن العرب لم يبلغوا أهدافهم المنشودة في جميع الأعمال الهجومية، حيث انتهى العديد من هذه الحملات من دون أن تحقق أية نتيجة على الرغم من تنظيمها الجيد والكافي، ولكن هذا لا ينفي أن العدو تكبد خسائر كبيرة، بالإضافة إلى الاستيلاء على الغنائم المتنوعة، وتعود تلك النهاية السيئة للأعمال الهجومية للقوات العربية إلى الأسباب التالية:

أولاً: التنظيم الدفاعي الماهر للمدن الهامة والقلاع من الناحية الاستراتيجية من قبل الصليبيين، حيث كانت محصنة بشكل قوي وكانت لها حاميات كبيرة مؤلفة من عدة آلاف[٢].

---

(١) أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين: النورية والصلاحية، مصدر سابق المجلد ٢، ص١٣.

(٢) كان العديد من القلاع مجهزة للحصار. لأمد طويل. على سبيل المثال: كان يوجد في قلعة المرقب كنيسة وحمام وبرك ماء، ومستودعات للأغذية – تكفي احتياطاتها خمس سنوات للحامية – ومبانٍ كبيرة ذات طابقين بارتفاع ٣٠ م، وكان يعيش في كل واحد منها حتى ١٠٠٠ رجل، وكانت حامية قلعة الكرك تتألف مــن ٥٠٠٠ آلاف مقاتــل، وفيها اسطبل يتسع لألف جواد، كانت مساحة سور إنطاكية ١٢ ميلاً مربعــاً تقريبــاً، وكان له ١٣٦ برجاً و ٢٤٠٠٠ تراس (انظر ابن الجيعان، شرف الدين ابــن المقــر ٨٥٥هــ) القول المستظرف في سفر مولانا الملك الأشرف، القاهرة، المعهد الفرنسي، مخطوطة ص١٠.

ثانياً: نقص القوى والوسائط، وخصوصاً عتاد الحصار الثقيل لاقتحام القلاع.

ثالثاً: عدم إمكانية خوض حصار طويل على المدن، بسبب ابتعاد القوات العربية عن قواعدها، والخطر الكائن في شن العدو لهجمات معاكسة من الأراضي المجاورة لمكان المعركة، فقد استخدم الصليبيون في بعض الأحيان ظروفاً أخرى للمحافظة على خطوطهم في حالة عدم التماس.

فقد كانت أعمال الصليبيين في الدفاع عن قلعة الكرك - التي سبق وذكرناها - واضحة من حيث هذا المعنى، حيث استمرت حامية هذه القلعة التي كانت تحت إمرة القائد رينولد شاتيون في تكبيد القوافل العربية التي كانت تحميها فصائل من الخيالة خسائر ملموسة، وفي عام ١١٨٣م اتخذ صلاح الدين الأيوبي مرة أخرى قراراً بتنظيم حملة على هذه القلعة، ففي آب من ذلك العام جمع في دمشق القوى الضرورية، وأرسل إلى مصر رسالة يلزم فيها القوات المصرية بالدخول إلى الكرك، وفي تشرين الثاني عام ١١٨٣م اتحد القسمان من القوات العربية عند أسوار قلعة الكرك، وكان لدى العرب سبعة منجنيقات، وتم ضرب القلعة بوساطتها ليل نهار، غير أن وسائط الحصار لم تكن كافية للتحضير للاقتحام الحاسم، وخلال ذلك وصلت أنباء تفيد بأن الصليبيين يحشدون قواتهم في المناطق المتاخمة للكرك، فرفع صلاح الدين الحصار عن القلعة وتحركت القوات إلى دمشق.

وفي آب عام ١١٨٤م جهز صلاح الدين مرة أخرى حملة جديدة على الكرك والشوبك، وقد نصبت القوات التي يقودها صلاح الدين الأيوبي وابنه مظفر عدة جسور على خندق واسع وعميق حوالي ٦٠ ذراعاً(١) أمام أسوار القلعة، وقد استخدمت هذه الجسور كمخابئ أيضاً، حيث كان باستطاعة المقاتلين أن يقتربوا

---

(١) الذراع = ٠,٧ من المتر.

من سور القلعة، وخطوة بخطوة فتحوا ثغرات فيها، ومع اقتراب فك الحصار وجهت زوجة ريتوشا تينسكي رسالة لصلاح الدين الأيوبي تتوسل فيها بإعطائها هدنة قصيرة لإتمام زواج ابنها، وسلمت مع هذه الرسالة هدية إلى صلاح الدين، فأمر صلاح الدين بإيقاف الأعمال القتالية، وفي ذلك الوقت أرسل البارون الفرنجي مبعوثاً إلى القدس لتقديم المساعدة العسكرية، وبعد أن أعلم صلاح الدين باقتراب وصول القوات الصليبية بقيادة رايموند الطرابلسي وملك القدس، رفع صلاح الدين الأيوبي الحصار وأمر قواته بالانسحاب[١].

وقد اعتبر عام ١١٨٧م عاماً حاسماً في نشر الأعمال الهجومية الفعالة للعرب، بعد أن توغل صلاح الدين الأيوبي مع مقاتليه إلى المناطق الداخلية في مملكة القدس، وكان الدافع المباشر لبدء الحملة مهاجمة قطاع الطرق في عام ١١٨٦م ونهب قوات حامية قلعة الكرك بقيادة رينودي شاتيون للقافلة المتوجهة من القاهرة إلى دمشق، والإخلال بشروط الهدنة التي كانت سارية المفعول آنذاك بين مصر ومملكة القدس، وتؤكد المصادر الأوروبية أن أخت صلاح الدين الأيوبي كانت في تلك القافلة.

أما المصادر العربية فلم تكشف أية إشارات لتأكيد تلك الحقيقة، ومع كل ذلك أرسل صلاح الدين الأيوبي وفداً إلى قلعة الكرك من أجل تذكير حاكمها رينودي شاتيون بشروط الهدنة المنعقدة بينهم ومطالبته بإعادة المعدات والأموال والمعدات المنهوبة وإطلاق سراح الأسرى، لكن البارون الفرنجي رد بالجواب التالي: "بلغوا صلاح الدين الأيوبي عن لساني حرفياً، أن يدعو ربه محمداً أن يعيد له القافلة)[٢].

وعندما أبلغ الوفد العربي صلاح الدين الأيوبي بهذا الرد أقسم صلاح الدين الأيوبي بأن يقطع رأسه، وتوجه صلاح الدين الأيوبي إلى ملك القدس غي

---

(١) سيديو، تاريخ العرب، القاهرة، ط عيسى البابي الحلبي، ١٩٤٨، صفحة ٢٦٣.

(٢) ج. ف. فولر، المعارك الحاسمة في العالم الغربي بيروت ١٩٥٨ ص ٤٢٢.

لوزيان مطالباً إياه بتعويض الخسائر التي لحقت بالقافلة وإطلاق سراح الأسرى ومعاقبة الفاعلين، لكن ملك القدس لم يجازف بالقضاء على بارونه العنصري المتعصب والانتقاص من هيبته، فما كان من صلاح الدين إلا أن استغل هذا الرفض وانتقل إلى أعمال قتالية حاسمة على امتداد الجبهة،حيث ترأس حملة عسكرية حاصر من خلالها قلعة الكرك والمشارف المتاخمة لها وأفرغ المناطق المجاورة من سكانها، وبعد ذلك اتخذ قراراً بخوض الحرب حتى التحرير الكامل للأرض العربية، حيث أعلن الجهاد في جميع الأراضي العربية، وأرسلت الرسائل إلى مصر وسورية وفلسطين والعراق مطالبة بإعلان التعبئة العامة وإعداد القوات لخوض الحرب.

وقد حدد خلال اجتماع موسع عقده صلاح الدين مع الأمراء العرب منطقة التحشد الرئيسية للقوات العربية المتحدة في منطقة رأس الماء[١]، وقد عين ابنه الأمير نور الدين أميراً عاماً للقوات العربية في منطقة التحشد، وأسندت إليه مهمة استقبال القوات وإعدادها للأعمال القتالية، وفي الخامس والعشرين من أيار لعام ١١٨٧م قام بإجراء تفتيش عام على القوات العربية في منطقة التحشد[٢].

ولم يكن اختيار منطقة رأس الماء كمنطقة لتحشد القوات العربية من قبيل الصدفة، وهذا ما تبينه دراسة المصادر القديمة، فالصليبيون لم يعطوا في بادئ الأمر أهمية لتقدم القوات العربية إلى المنطقة المذكورة، وذلك لأن علاقات طيبة كانت سائدة بين رايموند الثالث حاكم حامية طبريا وبين صلاح الدين، إذ كان الصليبيون يستبعدون تحقيق هدف معين من وراء تحشيد القوات في المنطقة المذكورة.

وقد قسم صلاح الدين قواته إلى جيشين، وكلف الجيش الأول بالعمل على الاتجاه الجنوبي، وكان قوامه الأساسي يتألف من التشكيلات المسلحة

---

(١) منطقة سهلية تقع في سهل حوران على بعد عشرين ميلاً شمالي مدينة درعا.

(٢) أحمد بيلي، حياة صلاح الدين الأيوبي، القاهرة، المطبعة الرحمانية، ١٩٢٦.

المصرية تحت قيادة العادل، أما الجيش الآخر والذي يتألف أساسه من القوات السورية والعراقية فكان عليه تركيز جهوده الأساسية على الاتجاه الشمالي، وكانت هذه القوات تحت قيادة الأفضل، أما صلاح الدين الأيوبي فقد كان مع قواته على الاتجاه الشمالي[١]، وقد أسندت للجيشين المهام التالية: كلف الجيش المصري العامل على الاتجاه الجنوبي بشن الهجوم من البر والبحر، حيث تهاجم القوات البرية من اتجاه العريش وتندمج مع القوات البحرية في ميناء عسقلان، وتحاصر مدينة القدس من ناحية البحر.

أما القوات العربية المهاجمة على الاتجاه الشمالي فعليها تنفيذ المعارك الحاسمة في منطقة طبريا، وفيما بعد احتلال عكا وتحرير المدن الساحلية بين عكا وبيروت، ومن ثم التوجه إلى عسقلان من أجل الانضمام مع الجيش المصري من أجل فتح القدس[٢]، وفي السادس والعشرين من حزيران تقدمت قوات الاتجاه الشمالي إلى منطقة الانتظار الواقعة حول بحيرة طبريا[٣]، وفي نفس الفترة حشد الصليبيون قوات كبيرة في منطقة الصفورية المحصنة بشكل جيد، وكان صلاح الدين الأيوبي يدرك أن احتلال قلعة الصفورية والمدينة المعززتين بشكل جيد يعني وضع نجاح الحرب على كف عفريت، لذلك كانت فكرته الأساسية تتلخص في تنفيذ المعارك اليومية الاستفزازية والهجمات السريعة الخاطفة على الصليبيين الأمر الذي من شأنه إجبار القوات الصليبية الرئيسية المتحصنة في قلعة الصفورية على الخروج من مناطق تحصنها إلى أراضٍ مكشوفة تنقصها التحصينات، وبالتالي يصبح من السهل تنفيذ المعركة الحاسمة وإنهاك العدو من خلال اشتباكات ومعارك صغيرة ونصب الكمائن.

---

(١) ابن الأثير، المصدر السابق مجلد ١١، صفحة ٣٤٠، العماد الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي. القاهرة، دار القومية ١٩٦٥ ص ٦٩.

(٢) مفلح علي، حطين، دمشق، التوجيه المعنوي، ١٩٥٩، ص ٤٧.

(٣) العماد الكاتب الأصفهاني، الفتح القدسي، المصدر السابق ص ٧٢.

وهنا عقد صلاح الدين الأيوبي اجتماعاً ثانياً للقيادة العسكرية استمع خلاله إلى آراء الأمراء، وخلال الاجتماع اقترح أغلبية الأمراء وقف الهجوم والانتقال إلى إضعاف العدو استراتيجياً عن طريق الحملات ضد حامياته من دون الدخول في معركة حاسمة، على أن تخوض القوات العربية المعركة الحاسمة حسب آرائهم بعد أن يسيطر العرب على الجزء الأكبر من أراضي تلك المنطقة، في حين اقترحت أقلية من الأمراء الاستمرار بالهجوم والإسراع بخوض المعركة الحاسمة، حيث كانوا يرون أن عدم تنفيذ الخطة المتخذة سابقاً قد يؤدي إلى فقدان القوات للثقة بالسلطان ونسف الثقة بالنصر، وكان صلاح الدين الأيوبي مع رأي الأقلية فاتخذ قراراً بمتابعة بالهجوم مبرراً قراره بالقول: "إن رأيي هو ملاقاة الصليبيين، فالأحداث لا تجري بحكم البشر، ونحن لا نعلم كم سنعيش، ومن واجبنا تدمير تحشد العدو لا تشتيته"[١].

وبدورهم كان الصليبيون يناقشون خطط أعمالهم القتالية، وقد اقترح الأمير رايموند أمير طرابلس خطة دفاعية تعتمد مبدأ البقاء في الصفورية وانتظار هجوم العرب الذين يتوجب عليهم تنفيذ انتقال مضنٍ ومتعب عبر الصحراء إلى الصفورية مما يضعف قدرتهم القتالية، في حين طرح البارون رينيه شاتيون خطة ثانية تتلخص في أن تقوم القوات الصليبية من الصفورية بتقديم المساعدة إلى تلك القوات الموجودة في طبريا سالكة الطريق الذي يصل الصفورية بعكا، والاعتماد على خزانات المياه الموجودة في قرى ترعان ولوبيا وحطين، حيث كان الصليبيون لا يعلمون أن الأراضي الموجودة حول هذه الخزانات كانت تحت سيطرة العرب، كما تعتمد الخطة على مهاجمة مؤخرة القوات العربية وتقسيمها إلى جزئين، ومن ثم تطويقها وتدميرها[٢].

---

(١) ابن الأثير،الكامل في التاريخ، المصدر السابق، المجلد ١١ صفحة٣٤٠، ٣٤١.

(٢) ستفين رينسمان، تاريخ الحرب الصليبية، بيروت ط ١٩٦٧م دار الثقافة، مجلد ٢ صفحة ٧٣٢.

وفي الثاني من تموز عام ١١٨٧م دخل رايموند أمير إمارة طرابلس إلى ملك القدس غي لويزيان واقترح عليه تغيير التفكير بإرسال الجيش إلى طبريا، لأنه من الأفضل خسارة طبريا على خسارة كامل المملكة، لاسيما أن المحور الذي سيتحرك عليه الجيش لا يوجد فيه إلا نبع ماء واحد صغير، وهو لا يكفي أصغر جيش، حيث قال الأمير رايموند: "إذا تركتم هذا المكان فسيقوم المسلمون بإعاقتكم وإيقافكم، وإذا قام جيشكم بمهاجمتهم فإنهم سيصعدون إلى الجبال، حيث من المستحيل مطاردتهم، وإذا أجبرتكم القوات العربية على التوقف ماذا ستعمل قواتكم بدون ماء؟ وكيف ستحارب ضد العرب؟ وبكل تأكيد سيموت الكثير منا عطشاً، وفي اليوم التالي سيكون من السهل على القوات العربية تطويقنا ومحاصرتنا)[١]، فوافقه الملك رأيه، غير أن المقربين من الملك أقنعوه فيما بعد بتغيير قراره استناداً إلى عدم الثقة بـــرايموند الميال إلى العرب[٢].

وكان رد رينيه شاتيون لـــرايموند: "لطالما أخفتنا بالمسلمين، وليس هناك شك في أنك تقف إلى جانبهم وتجعلهم إنسانيين، أنت تقول إنهم كثر ولكن الحطب لا يضر النار)[٣]، وبأمر من الملك توجه الصليبيون باتجاه طبريا، وكان تعداد تلك القوات حوالي ٥٠ ألف رجل[٤]، في حين كان تعداد قوات صلاح الدين حوالي ٢٥ ألف رجل، منها ١٢ألف فارس و١٣ألف رجل مشاة[٥].

---

(١) ج. ف فولر، المصدر السابق الصفحة ٤٢٥.

(٢) عبد اللطيف حمزة، الحروب الصليبية، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٤٩ صفحة ١٧.

(٣) العيني عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، القاهرة، دار الكتـــب المـــصرية، فـــصل التاريخ دورية ١٥٨٤ صفحة ١٨١.

(٤) أبو شامة، الروضتين المصدر السابق، المجلد ٢ صفحة ٧٦.

+ ابن الكثير، البداية والنهاية في التاريخ القاهرة ١٩٣٢ الجزء ١٢ ص ١٨١.

(٥) أبو شامه، الروضتين المصدر السابق، الجزء الثاني، الصفحة ٧٦. ســتانلي لينبـــول، تاريخ مصر القاهرة، الصفحة ١٩٥١ ص٢٠٤.

وقد قرر صلاح الدين إجبار الصليبيين على تغيير خطتهم الإستراتيجية، لذلك قام بعزلهم عن مصادر الماء، ونصب كميناً لهم في كل من ترعان ولوبيا مما أدى إلى إنهاكهم وإجبارهم على الاتجاه نحو طبريا، وقد جرى كل شيء كما أراد صلاح الدين حيث قامت القوات العربية بسحق الصليبيين قرب بحيرة طبريا عند قرية حطين.

ويعد هذا النصر في معركة حطين فاتحة انتصارات العرب الرئيسية التي جاءت فيما بعد، إذ أسرع صلاح الدين باحتلال أغلبية المدن الساحلية الواقعة جنوب طرابلس عكا – بيروت – صيدا – يافا – القيصرية، وكذلك القلاع الهامة الواقعة جنوب طبريا إضافة إلى الكرك والكرك مونريال، وفي النصف الثاني من أيلول عام ١١٨٧م قامت قوات صلاح الدين التي انضمت إلى جيش مصر بحصار مدينة القدس، ولم تستطع حامية القدس أن تصمد في وجه جيش يفوق تعداده الستين ألف من المقاتلين، ففتحت مدينة القدس بواباتها ودخلها العرب في الثاني من تشرين الأول، وفي نهاية تشرين الثاني عام ١١٨٨م استسلمت حامية الكرك، لتسقط الكرك ومونريال في ربيع عام ١١٨٩م وبسقوطهما لم يبق لدى الصليبيين سوى صور وطرابلس وقلعة الحصن وعدد من التحصينات الصغيرة.

ولم تستطع الحملة الصليبية الثالثة تغيير الموقف الإستراتيجي المتشكل، حيث فشل الصليبيون ثلاث مرات في محاولتهم للوصول إلى القدس رغم احتلالهم مدينة عكا بعد حصار طويل، ولم تفضِ محاولاتهم المتكررة لاحتلال يافا وعسقلان عن أية نتائج، وعندما ظهر خطر تهديد الصليبيين لهذه المدن، قرر صلاح الدين تدميرها وفي الثاني من أيلول عام ١١٩٢م وقعت اتفاقية سلام(١).

---

(١) زابوروف، الصليبيون في الشرق، موسكو، دار العلم، ١٩٨٠، صفحة ١٨٨.

ويمكن القول: **إن تحرير الأراضي العربية ارتكز على الإستراتيجية التي اختارها صلاح الدين الأيوبي في تنفيذ الحرب الخاطفة، والتي انحصر جوهرها في تنفيذ الهجمات السريعة، وإنزال الضربات الحاسمة بقوى الحاميات الصليبية ومن ثم احتلال المناطق التابعة للنقاط الإستراتيجية من دون أية عوائق تقريباً[١]، لكن هذا لا يعني أن إستراتيجية الأعمال الخاطفة تقود إلى النجاح دائماً. فعلى سبيل المثال لم يتسنَّ للقوات العربية تدمير الصليبيين من الحركة واحتلال قلعة صور، ولذلك اتخذ صلاح الدين الأيوبي أسلوباً جديداً لخوض الأعمال القتالية، يتلخص مضمونه في تنفيذ الهجمات المتسلسلة على مواقع العدو، حيث قام صلاح الدين بتقسيم قواته إلى ثلاثة أجزاء محدداً لهم أسلوب عملهم على الشكل التالي:**

يقوم الجزء الأول من القوات في البداية بالهجوم على الصليبيين، وفيما بعد وفي الوقت المحدد (ساعة الصفر) يقوم الجزء الثاني من القوات بالهجوم، وبعد ذلك تقوم قوات الجزء الثالث بالهجوم أيضاً، وعلى الرغم من أن هذا الأسلوب المستخدم لم يؤدِّ إلى النصر بسبب الدفاع الصليبي المنظم بشكل جيد، والمساعدات التي كانت تصل إليهم عن طريق البحر، والأعمال غير الحاسمة التي كان يقدمها بعض الأمراء العرب الذين كانوا يرغبون في رفع الحصار.

وقد اعتبر هذا الأسلوب في الأعمال الهجومية أسلوباً جديداً في فن حروب القرون الوسطى[٢]، ولابد من الانتباه هنا إلى أعمال القوات العربية المسلحة في أثناء القيام بالحملات، حيث كان للقوات تنظيم صارم في ترتيب الحملات، وكان الترتيب الكامل يتألف من الطليعة والقوى الرئيسية والمؤخرة[٣]، فطليعة القوات كانت تتألف من الخيالة الخفيفة، وكانت تتحرك عادة على عدة كيلومترات أمام القوى الرئيسية مخصصة جزءاً من قوامها

---

(١) الدكتور نظير السعداوي، التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الـدين الأيـوبي، نشر مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٥٧، ص٤٨.

(٢) العماد الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي، القاهرة، المعرفة ١٩٧٥، صفحة ٤٨.

(٣) انظر الملحق رقم ٤.

على شكل فصيل استطلاعي لدراسة الأرض ومراقبة العدو، أما أعلى رأس القوات الرئيسية فكان مؤلفاً من خيالة مجنباتها محمية من قبل مشاة كانوا لا يتأخرون عن الفرسان في أثناء السير.

وكانت قوى المشاة تتبع الخيالة، وكانت الإبل المحملة بالمؤن والعتاد تتوسط - رتل المسير - وخلف المشاة كانت تسير الجمال المحملة بالعتاد والحجارة، وكانت تختتم القوات الرئيسية بمشفى ميداني، أما مؤخرة الرتل القتالي فكان محمياً بالمؤخرة، وعند توقف القوات العربية لمدة طويلة كان يجهز معسكراً محصناً محمياً من جميع الجهات بالسواتر الترابية والخنادق التي تهدف إلى حماية الجيش من الخصم إضافة إلى عدم السماح بفرار المقاتلين ورفض تنفيذ التعليمات العسكرية[١].

ويبين تحليل الأعمال القتالية للقوات المسلحة العربية أن النجاح في الحرب كان يتعلق إلى درجة كبيرة بالتدابير الخاصة بتأمين الأعمال القتالية، فقد كان نظام الإمداد لدى العرب جيداً جداً، حيث كانت القوافل تؤمن نقل السلاح والمعدات من دمشق والقاهرة إلى المدن الأخرى حيث نظمت قواعد التخزين هناك وبشكل دائم، كما كانت الأسلحة المستولى عليها على شكل غنائم تستخدم على نطاق واسع.

حيث كان السلطان والأمراء يوزعونها على مرؤوسيهم، كما كانت القوات المسلحة تقوم في أثناء سير الأعمال القتالية بتأمين نفسها بالتعيينات والأعلاف عن طريق شرائها من السكان المحليين، إضافة إلى ذلك كان يوجد في الحاميات الكبيرة مستودعات للتموين احتوت على احتياطات تكفي لعدة سنوات، إذ كانت الضرائب المأخوذة من السكان التي يجمعها حكام المناطق تشكل رأس المال اللازم لتعبئة هذه المستودعات[٢].

---

(١) دولبروك، تاريخ الفن العسكري، موسكو دار المنشورات العسكرية، ١٩٥٨ الجزء ٣، ص١٥٤.

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مصدر سابق، القاهرة، ١١٠٣هـ، الجزء ١٠، ص ١٠٠.

كما استخدم أسلوب مصادرة جزء من المحاصيل الزراعية للفلاحين بهدف استكمال الاحتياطيات، كما القوات تستكمل احتياطياتها التموينية والاحتياطيات الأخرى من المستودعات والقوافل الصليبية بعد الاستيلاء عليها.

ومن السمات التي تميز بها تأمين القوات تنفيذ الاستطلاع والحصول على معلومات ذات أهمية إستراتيجية عن العدو، حيث كان يتم إرسال الجواسيس إلى مناطق انتشار الحاميات الصليبية بعد انتقائهم بشكل خاص، وكان يتم إرسالهم في جميع الاتجاهات تحت غطاء التجار والمواليين والرحالين والدراويش بهدف جمع المعلومات المختلفة والكاملة عن العدو[١].

وتؤكد المصادر العربية أن المعلومات التي تم الحصول عليها من الجواسيس قد ساعدت مراراً السلطان والأمراء في الخروج من مواقف صعبة للغاية، فعلى سبيل المثال في أثناء الحملة الصليبية الثانية عندما حاصرت القوات العربية دمشق في ٢٣ تموز عام ١١٤٧م لم يكن يخفى على حكام دمشق الخلافات التي نشأت بين الصليبيين، مما سمح لهم بتوجيه رسالة سرية لملك القدس بودوجون الثالث، لدفع فدية ورفع الحصار عن المدينة[٢]، وهذه المعلومات تم الحصول عليها من الجواسيس، كما تشير المصادر العربية إلى أن صلاح الدين الأيوبي اطّلع على خطط قوات ملك القدس لوزيان المتمركزة في الصفورية وأوقات انطلاقها إلى منطقة طبريا[٣].

كما أولى الأمراء العرب اهتماماً كبيراً لنظام سرعة إيصال الأوامر والتعليمات لقواتهم، وكذلك الحصول الفوري على المعلومات عن العدو

---

(١) نظام الملك، السياسية التامة، بيروت ١٩٦١، ص ١٠٠.

(٢) سيد فرج، قادة الحرب العرب، القاهرة، ١٩٥٨، صفحة ١٧٨.

(٣) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، المصدر السابق، الجزء ١١، الصفحة ٣٤٣.

والأعمال القتالية، حيث كان يوجد بريد جيد بشكل كافٍ في الأراضي العربية، فالمراسلون(سعاة البريد) كانوا رجالاً يستحقون الثقة وكانوا مشاة وراكبين واستخدموا الخيول والجمال والبغال، وكان المراسلون يتقاضون رواتب شهرية، وللدلالة عليهم كانت تقص أذناب خيولهم وبغالهم، وكان يشرف على عملهم شخصيات محددة، أما المراسلون المشاة فكانوا يقطعون مسافات كبيرة وكانوا يتقاضون مقابل ذلك الوقت تعويضات كبيرة تزيد عن رواتب الناس العاديين، وتشير بعض المصادر إلى أن مراسل البريد كان يقطع المسافة بين حلب ومصر خلال أربعة أيام(١).

وبدءاً من عام ١١٧١م(٢) تم تنظيم بريد الحمام الزاجل الذي اختصر إلى حد كبير زمن إيصال المراسلات البريدية، حيث كان الحمام الزاجل يقطع خلال ٤ ساعات مسافة تحتاج إلى ٢٠ يوماً سيراً على الأقدام، وقد كان يوجد مركز البريد الزاجل في جميع الحاميات التي تقع على الحدود مع الصليبيين وفي المدن والقلاع ذات الأهمية الإستراتيجية، فبفضل الحمام الزاجل كان يطلع السلطان صلاح الدين الأيوبي على الموقف والأعمال القتالية في أية بقعة من الأرض التابعة له في نفس اليوم التي تحدث فيه الأحداث.

كما تعلق نجاح الجيش البري العربي والقسم الرئيسي من القوات المسلحة إلى حد كبير بالتعاون الناجح مع الأسطول البحري، إذ تسنى للصليبيين في بداية القرن الثاني عشر عزل الأسطول المصري الذي كان يضم عشر سفن حربية قتالية عن مرافئ شرقي البحر الأبيض المتوسط،، حيث بسط الصليبيين سيطرتهم الفعلية على كامل الشاطئ الساحلي.

---

(١) نظام الملك، المصدر السابق، صفحة ٨٩، ١٠٠.

(٢) سنة ٥٦٧هـ، ونور الدين هو أول من اتخذ الحمام الزاجل للبريد وليس صلاح الدين لأنه لم يكن سلطاناً في ذلك العام ١١٧١م – ٥٦٧هـ. انظر: الروضتين: ٢/٢٢٩.

غير أنه لم تبق مدينة ساحلية من دون أن تتعرض لهجوم السفن المصرية التي أبدت تأثيراً عليها من خلال الهجمات التي كانت تشنها عدة مرات في السنة[١]، فبعد أن أدرك صلاح الدين الأيوبي استحالة الصمود في وجه الصليبيين بقوى الجيش البري فقط في المناطق الساحلية، اتخذ تدابير خاصة بتعزيز الأسطول البحري العربي، حيث أمر ببناء سفن حربية في ميناء ماكس في مصر وعيَّن الشيخ حسام الدين لولو الأخصائي المشهور في الأمور البحرية أميراً للقوى البحرية.

كما خصص مبالغ مالية كبيرة لانتقاء مقاتلي الأسطول، على أن يكونوا في الغالب من الجزء الإفريقي العربي ومن البحارة ذوي الخبرة، وقد احتل أسطول السلطان المجدد والمفرز في عام ١١٩٠م جزيرة أرواد، وفي عام ١١٧٩ م تم احتلال عسقلان بالجهود المشتركة التي وجهها الجيش البري والأسطول، واشتركت قوى الأسطول فيما بعد في تحرير كافة المدن الساحلية.

وبهذا يمكن استخلاص الاستنتاج التالي: لقد تقيد الأمراء العرب – وكقاعدة – بحزم بمبادئ خوض الحرب التي حددتها القيادة العسكرية العليا، ففي مرحلة تقسيم الأرض العربية كان الدفاع هو الشكل الأساسي للأعمال القتالية العربية ضد الصليبيين، إذ لم يتسنَّ للمسلمين في النصف الأول من القرن الثاني عشر تشكيل جبهة موحدة لصدِّ الغزو الصليبي.

وبدءاً من عام ١١٢٦م نلاحظ توجهاً نوعياً إلى الارتقاء بتوحيد الجهود العربية في صراعهم ضد الصليبيين، وذلك عندما اخضع عماد الدين الزنكي – أمير الموصل لسلطته عدداً من الإمارات في بلاد ما بين النهرين وشمالي سورية، وقد سمح هذا بإنزال خسارة كبيرة وملموسة بالعدو الصليبي واحتلال أديسيا، كما ارتبط الانتقال إلى الأعمال الهجومية الفعالة لتحرير الأرض العربية المحتلة بالنشاط العسكري للسلطان صلاح الدين الأيوبي، فخلال فترة حكمه

---

(١) م. آ. زابوروف، الصليبيون في الشرق، مصدر سابق، موسكو، ص ١٣٨.

اعتبرت الأعمال القتالية الهجومية الشكل الأساسي للجهود العسكرية العربية، وكانت هذه الأعمال ممكنة بفضل مركزية قيادة القوات المسلحة.

كما أصبحت الحملات العسكرية الأسلوب الأساسي في خوض القوات العربية للهجوم والتي كان هدفها الأساسي احتلال المدن والقلاع الهامة من الناحية الإستراتيجية، وقد كان الإعداد للحملات العسكرية العربية يتم بشكل دقيق، إذ كان يتم تأمين القوات المشاركة في الحملات العسكرية بجميع الوسائط اللازمة لخوض الحرب، بالإضافة إلى وجود نظام اتصال دائم وحفاظ القوات العربية في أثناء قيامها بالحملات على ترتيب قتالي محدد.

وكان يسمح لها بالدخول في المعركة خلال فترات زمنية قصيرة، وكان العرب يسعون إلى معركة حاسمة وفاصلة ضد العدو على أرض مكشوفة، حيث كان باستطاعتهم استخدام المناورة العالية بالقوات ضد العدو بشكل كبير والمعرفة الجديدة لمنطقة الأعمال القتالية، لكن غالباً ما كانت القوات العربية تلجأ إلى حصار المدن والقلاع الصليبية أيضاً، معتمدة بذلك على إشراك قوى الأسطول في الأقاليم السياحية بهدف تحقيق هدفها، وقد سمح الهجوم الفعال للقوات المسلحة العربية العاملة على الاتجاهات الإستراتيجية الجنوبية والشمالي لصلاح الدين الأيوبي بتحرير الأراضي العربية من الغزاة الصليبيين باستثناء بعض المناطق الصغيرة المساحة.

تاسعاً - تكتيك الأعمال القتالية في التشكيلات المسلحة العربية:

تطور تكتيك التشكيلات المسلحة العربية بفضل ارتباطه الوثيق بتطور الإستراتيجية واشتراط ذلك بتحسين البنية التنظيمية للقوات وزيادة إمكانية تجهيزها وإمدادها، وتراكم الخبرة القتالية في الصرع ضد الصليبيين، وإظهار المقاتلين العرب للروح العالية والمهارة العسكرية.

وقد استخدمت القوات العربية في الحروب الصليبية مختلف الأساليب التكتيكية وطرق الأعمال القتالية بهدف إحراز النصر على الأعداء، حيث استخدم العرب أشكال الأعمال القتالية التالية المختلفة هجوم، دفاع، معركة تصادمية، انسحاب.

ولا بد من الإشارة إلى أنه استخدم علمياً في كبريات المعارك ضد الصليبيين الأشكال التكتيكية المذكورة آنفاً، وبما أن الخيالة العربية كانت تشكل الصنف الأساسي في القوات العربية - كما ذكرنا سابقاً - فإن المناورة العالية كانت السمة التي ميزت تكتيك القوات العربية عن غيره، هذا وتؤكد المخطوطات والكتب القديمة التي دوَّنها المشاركون في تلك المواقع والمعارك ضد الصليبيين استنتاجاً مفاده أنه - وكقاعدة - كانت تسبق المعركة أعمال محددة تهدف إلى الإعداد والتحضير لتلك المعركة، إذ كان يتوجب على أمراء الجيش تأمين المقاتلين بكل ما هو ضروري للمعركة واختبار جاهزيتهم.

ولتحقيق هذا الهدف وقبل الخروج إلى ميدان المعركة كان مقاتلو "الأطلاب" الوحدات يحصلون على السلاح واللباس من "الدرخانة" مستودعات الإمداد والتموين وعلى مبالغ محددة من المال كي يستطيع المقاتل شراء حاجياته الضرورية اللازمة في المعركة مثل المواد التموينية - الغذائية والعلف للخيول- من التجار الذين كانوا يفتحون حوانيتهم في الأسواق العسكرية المتواجدة في مناطق توضع القوات، وتجدر الإشارة هنا إلى أن أسعار السلاح والسلع التموينية الغذائية كانت متفاوتة بشكل كبير تبعاً للموقف والنجاحات القتالية لدى العرب، كما كان كل أمير مسؤولاً عن جاهزية طلبه "وحدته" للمعركة.

وبهدف رفع الروح المعنوية كان يتم تعيين مقاتلين لقراءة سور من القرآن بصوت مرتفع مذكراً الجميع بأن الله سيعاقب كل من يفر من ميدان المعركة

وكل من يبدي خوفه وتردده[1]، كما كان العرب قبل المعركة ينظمون وينفذون استطلاع الأرض والعدو، وكان البحث والكمين شكلين أساسيين للقيام بالاستطلاع، إذ كان الأمراء العرب ينفذون أحياناً الاستطلاع عنوة بغية الحصول على معطيات حول عدد القوات الصليبية وجرهم للمعركة في قطاعات الأرض غير الملائمة للصليبيين[2].

ومن أجل تنفيذ المهام المسندة تمّ تشكيل مفارز استطلاع، حيث كان القادة يحددون قوامها في كل حالة معينة تبعاً للموقف، إذ كان يُعيَّنُ في مفارز الاستطلاع مقاتلون ذوو خبرة كبيرة في العمل العسكري، وكانوا يحملون أسلحة خفيفة فقط، وكان عناصر الاستطلاع لا يرتدون الدروع ولا يأخذون معهم التروس، وإنما كان بحوزة كل منهم ما لا يزيد عن ٢٠ سهماً، وبالإضافة إلى ذلك كان يتم انتقاء الخيول بشكل خاص، حيث كان يشترط أن تكون هادئة ومن جنس واحد كي لا تصهل الخيول، كل هذه الشروط كانت ضرورية في أثناء إرسال مفرزة الاستطلاع للقيام بتنفيذ كمين، وكان يتم تعيين قائد المفرزة من بين المقاتلين الأكثر شهرة وتميزاً بالثقة والحذاقة والذكاء والجرأة.

أما المهام الأساسية للبحث فتتلخص في استطلاع الأرض وتدقيق المعطيات حول عدد قوات العدو وأماكن توضعها ونواياها وأسر أحد الغزاة أو الاستيلاء على عتاد ما أو فتح ثغرات في أسوار القلعة، أما الكمين فكان أخذ الأسرى المهمة الرئيسية له، إذ كان يتم اختيار وقت مظلم من يوم تكون فيه الرياح قوية، وكان يتم اختيار مكان الكمين بحيث تسمح

---

(١) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، القاهرة، المجلد ٥، صفحة ٣١٤.

(٢) الأصفهاني عماد الدين، الفتح القدسي، بيروت، دار الأمل الجديدة، ١٩٧٨، صفحة ٤٢.

+ الهرثمي، مختصر سياسة الحروب، القاهرة ١٢٢٣ هجري صفحة ٤٧.

+ ابن شداد النوادر السلطانية في المحاسن اليوسفية ١٣١٧ هجري، الصفحة ١٢٥.

تضاريس الأرض بتأمين التمويه كحد أقصى ويكون ملائماً لوصول المقاتلين، ويتوفر فيه الماء والعلف للخيول، وكان يحظر على عناصر مفرزة الاستطلاع القيام بالصيد أو إشعال النار.

وتصف المصادر والمراجع القديمة الكمائن التي تم تنفيذها وتخطيطها بشكل سليم، ومنها كمين جبل تبنين: حيث علم صلاح الدين الأيوبي في عام ١١٨٨م -٥٨٥هـ أن الصليبيين اعتادوا على الخروج إلى جبل تبنين لجلب الحطب وجمع الأعشاب، لذلك أمر قائد القوات الموجودة في منطقة الجبل بتنظيم كمين.

وبما أن الصليبيين كانوا يصعدون الجبل تحت حراسة مفرزة، لذلك تطلب الأمر إشراك قوة كبيرة يصعب تمويلها وذلك بهدف سحق الصليبيين وأسرهم، لذا فقد قرر صلاح الدين الأيوبي اللجوء إلى الخدعة، فأمر بتنظيم الكمين عند سفح الجبل محدداً قوة مكونة من ثمانية أطلاب لأجل ذلك، إذ كان يتوجب على عشرين مقاتلاً من قوام هذه الأطلاب بتمثيل قيامهم بأخذ أسرى من الصليبيين، ومن ثم الانسحاب أمام العدو إلى المكان الذي نصب فيه الكمين من قبل تعيين القوة، وفعلاً تم كل شيء بحسب الخطة التي وضعها العرب، أما الصليبيون المتفوقون بالقوات والذين انطلقوا لمطاردة المقاتلين العرب، فقد وقعوا في الأسر حيث تمّ سحقهم بالكامل أو أسرهم[١].

وكان يتم تجهيز مفارز خاصة، بالإضافة إلى مفارز الاستطلاع، للعمل في منطقة توضع العدو ومؤخرته، وكانت هذه المفارز تهاجم معسكرات الصليبيين وقوافلهم بغية تدميرها، وبث الذعر في صفوفها، وغالباً ما كانت تتم هذه الغارات عند الفجر أو في الليل، وعند القيام بالأعمال القتالية ليلاً كان العرب يشركون البدو الذين يعرفون المنطقة بشكل جيد بصفة أدلاء[٢].

---

(١) الفيروزأبادي، القاموس المحيط، القاهرة، الأزهرية، ١٩٣٣م، مجلد ١، صفحة ٥٦.
+ أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين المجلد ٢، صفحة ١٤١، مصدر سابق.

(٢) أبو شامة، الروضتين، المصدر نفسه، المجلد ٢، الصفحة ١٢٥.

وقد أولى الأمراء العرب جلَّ اهتمامهم لبناء تراتيب القتال لقواتهم، وكانت هذه التراتيب تتغير في أثناء سير الحروب، نتيجة للخبرة القتالية المتراكمة لديهم، والأخذ بعين الاعتبار مجريات الموقف المتشكل وطبيعة الأرض وأعمال العدو، أما في منتصف القرن الثاني عشر فقد ظهرت نزعة سعي العرب إلى المحافظة على تراتيب القتال على شكل خطوط والتي استخدمها العرب بنجاح في فترة الفتوحات الإسلامية التي جرت في الفترة الواقعة ما بين القرنين الثامن والعاشر الميلاديين[١].

وقد أشار ابن العديم في كتاباته إلى استخدام تراتيب القتال هذه[٢] غير أنه في تلك الفترة تأكد وبشكل راسخ ترتيب قتال القوات العربية الذي يحتوي على خمسة عناصر أساسية هي: المقدمة: الطليعة، الميسرة، الميمنة، القلب، والمؤخرة الساقة[٣]، وتضم المقدمة في قوامها أكثر الفرسان شجاعة وقوة، وكان من مهامها صد أول غارة معادية والعمل على نشوب المعركة، أما الميمنة والميسرة فهما الجزءان الأساسيان للقوات العربية، وكانت تسند إليها مهمة مهاجمة العدو بهدف إنزال الهزيمة به، والقاعدة العامة في ذلك أن يتم بدء الهجوم بإحداهما ثم يتبع ويُطور بهجوم الأخرى، في حين كان القلب مكان توضع القائد والأطلاب التي تتبع إلى قيادته مباشرة والأركان، وقد اعتاد العرب أن يضعوا القلب على ارتفاع مسيطر بشكل دائم حتى يتسنى للقائد مراقبة سير المعركة وتصحيح تكتيك قواته، وكان القائد يستخدم مقاتلي القلب من أجل تعزيز قوات الميمنة والميسرة، وإذا اقتضى الأمر يُشارك القائد شخصياً في المعركة[٤]، أما رايات الجيش فكانت لحماية مؤخرة القوات.

---

(١) انظر الملحق رقم ٥، المخطط رقم ١.

(٢) ابن العديم كمال الدين، زبدة الحلب في تاريخ حلب، دمشق ١٩٥١م، مجلد ٢، صفحة ٣٩١.

(٣) انظر الملحق رقم ٥، المخطط رقم ٢.

(٤) أحمد علي إسماعيل، تاريخ السلاجقة، دار الفكر بيروت، ١٩٨٢، ص١٣١.

وقد ساعد استخدام هذا الترتيب العرب كثيراً لاسيما في حال التفوق الكبير لقوات العدو، حيث كانت تتم التغطية بانسحاب المقدمة باتجاهات مختلفة، وبحسب الموقف المتشكل كان يتم بنجاح تنفيذ قوى الميمنة والميسرة موجهة ضرباتها إلى مجانب ومؤخرة قوات العدو.

وفي النصف الثاني من القرن الثاني عشر حصل تطور لاحق في هذا الترتيب القتالي الخماسي - هكذا كانوا يسمونه آنذاك[١]، حيث أصبح يتألف من المقدمة، الميمنة الميسرة، القلب والساقة، ومن حيث الجوهر كانت عناصر ترتيب القتال تتلخص في تلك الوظائف التي وُضعت في عهد السلجوقيين، أما التغيير المبدئي فقد حصل في عهد الأمويين حيث أصبحت الميمنة والميسرة تقسم إلى قسمين، وسميت باليد اليمنى للمجنبة واليد اليسرى للمجنبة، وقد زاد هذا التقسيم القدرة على المناورة إلى حد كبير، وزاد كذلك من إمكانية استخدام مختلف أساليب تنفيذ المعركة، وقبل كل شيء في تطويق العدو[٢].

وقد اعتبر المشاة دعامة الترتيب القتالي، وكانت مهمتهم الرئيسية دعم الخيالة، حيث كان تعاون المشاة والخيالة يؤمن النجاح في المعركة، كما كان العرب يسعون للقتال كالبنيان المرصوص، ومن حيث الشكل كانت تراتيب القتال تتغير في أثناء سير المعركة في الحروب الصليبية.

وهذا ما كان يعد نتيجة للخبرة المتراكمة في الصراع ضد مختلف الأعداء، وقد تحدث مخطوط عربي مجهول المؤلف، مكتوب في نهاية القرن الثالث عشر عن سبعة أشكال تبنى بموجبها تراتيب قتال القوات[٣]، ويتجسد الشكلان

---

(١) انظر الملحق رقم ٦.

(٢) يوجد وصف لهذا الترتيب القتالي في القوات العربية في مذكرات عن إحدى كبريات المعارك التي جرت في مدينة عكا عام ١١٨٩.

(٣) الطرابلسي، تحفة المجاهدين في العمل في الميادين، حلب، المكتبة الأحمدية رقم ١١٧.

الأوليان على شكل هلال، فالشكل الأول على شكل هلال مع الطرفين، أما الهلال الثاني فيتميز بأن كل قوس لكلا الصفين الجانبيين والمؤخرة كانا ذات طرفين مستقلين، أما طرفا القوس الكبير فيبرزان عن القوس الأصغر بمقدار ربع المسافة بين طرفي القوس الصغير.

أما عدد الأنساق في المركز فيجب ألا يكون كبيراً، وتقوم المجانب الحادة بتنفيذ وظائف الفصائل المفارز المخصصة للكمين، في حين كان على فصائل المجنبات أن تهاجم العدو بسرعة أكبر من سرعة المركز، وذلك لإحكام طوق الحصار حول العدو ويشتمل ترتيب القتال الهلالي على مبادئ الخدعة العسكرية بهدف تطويق العدو.

أما الشكل الثالث، فهو المربع الذي يجب أن يكون العرض فيه مساوياً للعمق فإذا كان العرض يساوي ميلين، فإن العمق يجب أن يكون على ميل واحد، وبهدف تأمين أعمال ترتيب القتال كان يخصص على المجنبات كمائن تتألف من عدة فصائل مفارز.

أما الشكل الرابع فقد كان على شكل هلال مقلوب، ويضمن هذا الترتيب القتالي سهولة تحرك الكمائن أمام المجنبات، إذ كان يهدف ذلك إلى حرمان العدو من كشف وملاحظة الكمائن التي غالباً ما تتقدم القوات.

أما الشكل الخامس فهو المعين، ويكون هذا الترتيب كبيراً في أثناء العمق غير العريض، ويمتاز هذا الترتيب القتالي ببساطة البنية وهو الأقل تعرضاً للتغيرات في أثناء بعثرة الصفوف، وقد كان يستخدم في حال التفوق العددي للعدو، أو عندما تنخفض الروح القتالية للجنود وذلك لأن الاصطفاف على صف عريض واحد يشكل انطباعاً بأن حجم القوات كبير مما كان يرهب الصليبيين ويبث الذعر في نفوسهم.

أما الشكل السادس فهو نصف المعين، ويكون فيه عرض ترتيب القتال أقل من عمقه، فإذا كان العرض ميلاً واحداً فالعمق يكون ستة أميال، لذا كان هذا

الترتيب يسمح بالصمود في الدفاع وتصعيد الجهود بشكل دائم على جبهة الهجوم.

أما الشكل السابع فهو الدائرة، وكان يستخدم في حالة محدودية ميدان المعركة والتفوق العددي الكبير للعدو، وذلك بهدف إقامة دفاع دائري، وكان هذا الشكل من ترتيب القتال يؤمن التعاون الجيد والدعم المتبادل للوحدات العربية، كما أنه كان يسمح للقوات الصغيرة بإنزال خسائر كبيرة في صفوف الصليبيين، غير أن ترتيب القتال هذا اعتبر غير ملائم مطلقاً لإحراز نصر كامل.

وقد تميزت جميع تراتيب القتال العربية بسمة مميزة وهي إمكانية تنفيذ الأعمال القتالية الفعالة، والسعي لتطويق العدو وقتاله عبر هذا التطويق، وفي الوقت نفسه كان الخروج من التطويق في وضع ترتيب القتال للقوات شبه مستحيل، ويمكن القول إن تطور تراتيب القتال عند العرب إبان الحرب الصليبية يثبت عدم صحة ودقة الرأي القائل: إن قوات الخيالة في الشرق لم تكن قادرة على خوض المعركة الصحيحة، هذا القول الذي طرحه فريدريك أنجلز (١).

كما أن دراسة الأعمال القتالية التي جرت على أراضي الخلافة العربية في عهد السلجوقيين والأيوبيين وأشكال تراتيب القتال تدحض ذلك القول، فقد_استخدمت القوات العربية مختلف أساليب خوض المعركة، كما أن الحركية العالية التي تميز بها العرب، والتي تم تحقيقها بفضل الصفات العالية للخيول العربية وخفة السلاح والعتاد مكنت العرب من اختيار الخطة المناسبة للاشتباك مع العدو، وبكلمات أخرى كانت هذه الميزات تسمح للعرب بتحديد وقت بدء المعركة، وكما ذكرنا سابقاً فإن الصليبيين كانوا يحاولون إحراز النصر على حساب زج الخيالة الثقيلة في المعركة ضمن تراتيب قتالية عميقة.

---

(١) فريدريك أنجلز مقالة من (الموسوعة الأمريكية الجديدة)،

كارل ماركس وفريدريك أنجلز، المؤلفات، الطبعة الثانية، مجلد ١٤، صفحة ٣٠٤.

لكن العرب كانوا يتحاشون مجابهة تراتيب قتال الصليبيين هذه، مستخدمين بذلك تكتيك الكر والفر وأسلوب الدمج بين الهجوم والانسحاب، فعندما كان الصليبيون يزجون بالخيالة الثقيلة في المعركة كان العرب يسارعون إلى الانسحاب السريع من ميدان المعركة في لحظة الزج المعادي، ولم يكن في مقدور الخيالة الصليبية الثقيلة القيام بالمطاردة، وعندها يلجأ الفرسان الصليبيون إلى وقف الهجوم، وهنا ينتظر العرب تبعثر تراتيب قتال الخيالة الصليبية الثقيلة أو هجومهم الحاسم والسريع على العدو[١].

وتجدر الإشارة إلى أن العرب استخدموا في تكتيكهم المناورة مثل انسحاب القوات وكانوا ينفذون ذلك بأشكال مختلفة تبعاً للموقف، ففي بعض الأحيان كان يستمر الانسحاب عدة أيام بهدف جر واستدراج قوات الصليبيين وإبعادها عن قواعدها[٢]، وتعد معركة الدربين ١١٧٦م أفضل مثال على الانسحاب المنظم للقوات العربية الناجح[٣]، حيث قام الصليبيون تحت قيادة أماليك بملاحقة القوات العربية المسلحة مدة طويلة، وكانت القوات المسلحة تحت إمرة شيركوه، وكان صلاح الدين الأيوبي في إمرة هذا القائد، حيث قرر شيركوه استخدام طبيعة الأرض من أجل إنزال ضربة بالعدو وقام بالانسحاب إلى داخل الصحراء مختفياً خلف الهضاب والمرتفعات، وعند اقتراب القوات الصليبية نفذ مناورته بالهجوم على مجانب ومؤخرة أرتال العدو في المسير مما سمح له بإنزال ضربة ساحقة بهم[٤].

---

(١) آ. ر. سي سميل، فن الحرب عند الصليبيين، دمشق مركز الدراسات العسكرية ١٩٨٢، ص١٣٤.

(٢) ابن دقماق، الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين، دار الكتب المصرية، فصل التاريخ، دورية ١٥٢٢ ص ٨٧.

(٣) انظر الملحق رقم ١٠.

(٤) ابن الفرات، تاريخ الدول والملوك، القاهرة، دار الكتب المصرية، فصل التاريخ، دورية ١٣٤٣، الورقة ١٤٧.

وغالباً ما كان الأمراء العرب يقومون بتنظيم انسحاب الكمائن، فلكي يتم إيقاع الصليبيين في كمين تمّ نصبه مسبقاً، كان هؤلاء الأمراء يرسلون قوة صغيرة من الخيالة للهجوم على العدو بهدف تحريض الرغبة لديه في تدمير هذه القوة الصغيرة بقواهم المتفوقة وملاحقتها، وبعد اشتراك الخيالة العرب في المعركة بفترة قصيرة، كانوا ينسحبون باتجاه الكمين، حيث كانت تتمركز القوى الرئيسية المموهة بشكل جيد، وفي الكثير من المعارك حقق انسحاب الكمائن نجاحات كبيرة للعرب(١).

وقد اعتبرت المناورة العالية للقوات العربية القاعدة التي سمحت للعرب القيام بالأعمال الهجومية الهادفة إلى تطويق العدو عن طريق الالتفاف حول مجنبات ومؤخرة العدو، ولتحقيق هذا الهدف بالذات – كما أشرنا سابقاً – كانت القوات الرئيسية في تراتيب القتال تتوضع على المجنبات، فبعد اختيار اللحظة المناسبة للهجوم كان العرب يبدؤون التفافهم حول مجنبات العدو وإحاطته محاولين إتمام إحكام طوق الحصار.

وقد استخدم العرب – وحسب شهادة المشاركين في الحروب الصليبية – وعلى نطاق واسع المناورة الهادفة إلى تطويق قوات العدو حتى في حال تفوق العدو بالقوى والوسائط(٢)، حيث استخدم العرب إبان حروبهم ضد الصليبيين أسلوب تطويق لم يكن معروفاً سابقاً ألا وهو مهاجمة العدو.

مهاجمة العدو بفصائل الخيالة من عدة اتجاهات في وقت واحد(٣):

ومثال ذلك التطويق معركة سحط الدامية التي وقعت في ٢٨ تموز عام ١١١٩م في منطقة جبلية تقع بين إنطاكية وحلب، حيث قامت قوة

---

(١) أسامة ابن المنقذ، الكناني، الاعتبار، دمشق ١٩٣٠، صفحة ٢٦٣، مصدر سابق.

(٢) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، القاهرة ١٩٣٦، صفحة ١٢٨، مصدر سابق.

(٣) آر. سي سميل، المصدر السابق، الصفحة ١٣٦، مصدر سابق.

سلجوقية تحت قيادة إيلغازي بحملة عسكرية باتجاه إنطاكية من مدينة ماردين، وعندما سمع روجر دوق إنطاكية عن تلك الحملة، قرر الدخول في المعركة ضد السلجوقيين على مشارف المدينة مستخدماً أسلوب المفاجأة، ومن دون أن ينتظر جميع قواته، قام على رأس قوة تتألف من ٧٠٠ فارس و٣٠٠٠ رجل مشاة بملاقاة القوة السلجوقية، حيث تم اختيار شعب جبلي مكاناً لخوض المعركة الحاسمة.

حيث اعتقد روجر أن المكان المحدود من شأنه أن يقيد إلى درجة كبيرة فعالية المناورة من قبل مجانب ومؤخرة الخيالة السلجوقية الخفيفة، وبالتالي تساعد على تنفيذ الهجوم الحاسم للخيالة الصليبية الثقيلة، وقد نظم روجر قوته في خمسة كراديس تحت إمرة قادة عسكريين أكفاء هم روبرت ديسيميو، غي، فرانكايل، رنوى منصور، الراهب بيوتر، إذ كان عليهم مهاجمة العدو على حين غرة، ومن ثم يصعّد الجهود بزج الكراديس في المعركة بشكل متتابع.

غير أن الاستطلاع السلجوقي كشف تقدم القوات الصليبية لذا أمر إيلغازي السلجوقي بتقسيم قواته إلى فصائل مستقلة، وكانت منتشرة ومموهة في الوهاد المشرفة على الشعب الجبلي المتواجد على مدخل ومخرج الشعب، وعندما دخلت القوات الصليبية في الشعب الجبلي المذكور نفذ هجوماً بالخيّالة من عدة اتجاهات، بهدف تطويق العدو وتدميره، وقد نجحت خطة إيلغازي ودمر الصليبيين وأسر الكثير منهم وقتل البقية وكان من بين القتلى روجر(١).

وغالباً ما استخدم العرب في صراعهم ضد الصليبيين أسلوب الهجوم من الحركة على العدو الموجود في أثناء المسير وإجباره على خوض معركة ضمن ظروف ليست في صالحه، ومن الجدير بالذكر أن هذا الأسلوب لم يكن معروفاً من قبل في الغرب، فالصليبيون كانوا دائماً يرغبون ببدء المعركة فقط

---

(١) ا. رس، سميل، المصدر السابق، الصفحات ٦٣، ٦٧، ٨٩، ١٢٨.

من خلال ترتيب قتال منظم بشكل مسبق، وقد تسبب حرمان الصليبيين من بناء ترتيب القتال، ومهاجمة الأرتال في المسير من الحركة، وخاصة من المجانب والمؤخرة، بمشاكل كثيرة للقادة الصليبيين ولم يجدوا لها حلاً[(١)].

وكان اعتماد العرب على النبالة السمة المميزة لتكتيكهم، حيث كانت أغلبية النبالة العرب من الخيالة الراكبين ومن كبار المهرة في رمي السهام وخاصة من وضعية الركوب، وفي حالة الدفاع كان العرب يسعون لإجبار العدو على العدول عن هجومه، أو الإخلال بتراتيب قتاله وبتنفيذ رمي السهام الفعال، كذلك كان العرب يقومون بهجماتهم تحت غطاء النبالة، فالنبالة العرب كانوا ماهرين في استخدام القوس حتى في أثناء انسحابهم ومن وضعية الركوب مهما كانت سرعة الجواد مستخدمين وضعية الالتفاف إلى الوراء ورمي السهام والنبال، وقد استخدم المدونون والمؤرخون الأوروبيون في أثناء بحثهم لعمل النبالة العرب العبارات التالية مثل: رمي السهام الغزير، رمي السهام الكثيف، أمطرونا بوابل من السهام[(٢)].

وفي الوقت نفسه التي كانت فيه السهام العربية تخترق دروع الصليبيين وزردياتهم، لم تكن تحدث في أجسامهم جراحاً مميتة، على الرغم من أنه كانت بعض اللوحات (الرسومات) تبين العديد من الجنود الصليبيين المصابين بالسهام العربية كديناصورات غرست السهام في أجسادها[(٣)].

وكان النبالة العرب يركزون جهودهم لتوجيه سهامهم ضد الجياد الصليبية التي كانت محمية من جهة، وكانت تعد أهدافاً منفصلة من جهة أخرى، وحتى المشاة العرب اعتمدوا على النبالة في بعض المعارك، حيث استطاعوا أن

---

(١) ا.رس، سميل، المصدر السابق، صفحة ١٣٦، ١٣٧.

(٢) أحمد علي إسماعيل، تاريخ السلاجقة، بيروت، دار الفكر ١٩٨٢، صفحة ٢٣٦، ٢٣٧.

(٣) آ. س سميل، المصدر السابق، صفحة ١٣٨

يقفوا بنجاح بوجه الفرسان الصليبيين، ويذكر أسامة بن المنقذ، أنه في عام ١١١٠م خاض تنكريد حاكم أنتوهيا على رأس قوة من الفرسان معركة ضد العرب، وقد شارك في هذه المعركة الكثير من المشاة العرب الذين قدموا من شيزر، حيث أنقضَّ الفرنجة عليهم، ولكنهم لم يزحزحوهم من مكانهم، وعندها غضب تنكريد وقال: أنتم فرساني وكل واحد منكم يتقاضى راتباً يعادل رواتب مئة مسلم، هم مشاة وأنتم لا تستطيعون زحزحتهم من مكانهم، فأجابه الفرسان: نحن نخاف على خيولنا، ولولا هذا لدسناهم بأرجلنا وثقبناهم برماحنا، عندئذ وعدهم تنكريد بإبدال كل جواد يُقتل بجواد آخر، وبعد ذلك قام الفرنجة من جديد بالهجوم عدة مرات على المشاة العرب ولكن المشاة لم يتحركوا قيد أنملة من مكانهم، وقتلوا سبعين جواداً للصليبيين[١].

وعند إشارة المؤرخين إلى دور النبالة العرب في اختلال تلاحم وهيكلية صفوف العدو، كانوا يلفتون الانتباه إلى تلك الخسائر الكبيرة في الجياد التي كان الصليبيون يتكبدونها بسبب النبالة العرب، مما شكل صعوبات كبيرة للصليبيين في أثناء حملاتهم التي قاموا بها في القرن الثاني عشر[٢].

وقد شكلت السهام العربية الكثيفة إلى جانب الخسائر الكبيرة توتراً نفسياً قوياً في صفوف القوات الصليبية، ونتيجة لفعالية السهام كان الصليبيون يترددون في قراراتهم في أثناء الاشتباكات التي تحدث عن قرب ضد المقاتلين العرب، لذلك كان العرب يستغلون هذا التردد في فصل بعض مجموعات الفرسان عن التشكيلات الرئيسية وبالتالي تدميرها من خلال الاستخدام الفعال للنبالة[٣].

---

(١) أسامة ابن المنقذ، الاعتبار دمشق ١٩٨٠، صفحة ١٤٨، ١٤٤.

(٢) المصدر السابق، الصفحة ٦٩، ٧٤.

(٣) أحمد إسماعيل علي، المصدر السابق، صفحة ٢٧٣، آ. ر س سميل، المصدر السابق، صفحة ١٤١.

وتدل دراسة واستقصاء المراجع العربية وتحليل كبريات المعارك مثل، معركة دورى لوما وساحة الدم ومعركة إيهاب وحطين(١)، أن عمل النبالة العرب كان موجهاً في نهاية المطاف إلى إحباط الأعمال الهجومية للخصم والإعداد لهجوم القوات الصديقة ونشوب المعركة القريبة، حيث كان يتحدد مصير المعركة العامة والمعارك القريبة والاشتباكات بالاستخدام الماهر للرمح والسيف(٢).

لم يكن العرب يسرعون – كقاعدة – في البدء مباشرة بالمعركة القريبة ضد العدو بل كانوا ينتظرون اللحظة المناسبة للاقتراب من العدو، وكانوا يحاولون خلق الظروف المواتية لمثل هذا الاشتباك مستخدمين بذلك الاستعمال الحاذق للأقواس، ومناورة خيالتهم، وكان العرب يقررون استناداً للموقف المتشكل في المرحلة الأولى من المعركة الدخول في المعركة القريبة أو انتظار تشكيل موقف أكثر ملائمة لهم منهكين العدو بالرمي الدائم بالسهام، مع العلم أن الصليبيين كانوا يحثونهم بشكل دائم للدخول في معركة قريبة من أجل حسم الموقف، غير أن العرب كانوا يعتبرون التحضير لمثل هذه المعركة والدخول فيها وفق شروط ملائمة لهم قاعدةً لا يمكن تجاوزها(٣).

ومن الجدير بالذكر أنه لم تكن جميع التشكيلات المسلحة العربية تتميز بتكتيك الأعمال الموصوف أعلاه، ففي النصف الأول من القرن الثاني عشر لم يستخدم مثل هذا التكتيك سوى القوات السلجوقية، أما القوات المصرية في عهد الدولة الفاطمية ونتيجة لتفوق عدد المشاة، لم تكن قادرة على المناورة بشكل كاف، وهذا ما أكدته معركة عسقلان، حيث استغل الصليبيون

---

(١) انظر الملحق رقم ١.

(٢) الحافظ شمس الدين الذهبي، تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والإعلام، القـاهرة، دار الكتب المصرية، فصل التاريخ، دورية ٥٩٦، ورقة ٢١٨، المصدر نفسه، صفحة ٣٣٥.

(٣) آ. ر س سميل، المصدر السابق، صفحة ١٤٠.

هذه الناحية السلبية، فكانت هذه المعركة قصيرة جداً ولم تتجاوز ساعة واحدة(١).

فقد كان النبالون في القوات المصرية خلال النصف الأول من القرن الثاني عشر في أغلبيتهم من النبالة المشاة الإثيوبيين الذين لم يكونوا يؤدون نفس الدور الذي قام به النبالة في القوات السلجوقية في عهد الأيوبيين، فالنبالة الإثيوبيون شكلوا ذلك الجزء من الجيوش الفاطمية الذي كان قد حارب ضد الجيوش الفاطمية نفسها(٢).

ولم تسمح المناورة المتدنية والتحضير السيء وعدم الثقة التي تميز بها النبالة في الجيش المصري في تلك الحقبة الزمنية بتنفيذ الهجمات الحاسمة الرامية إلى تطويق العدو وسحقه، فجميع النجاحات التي تحققت في بعض المعارك كانت في أساسها بسبب التفوق العددي للمصريين في تلك المعارك(٣).

ولم يتحقق خلق الظروف الملائمة في المعركة لدى المصريين في الغالب بفضل المناورات في ميدان المعركة والأعمال الناجحة للنبالة فقط،، بل كان بفضل استخدامهم للخدمة العسكرية، فعلى سبيل المثال، وكما يشير أسامة بن المنقذ إلى استخدام الخدمة العسكرية، كان الفارس العربي – في ذلك الوقت – الكائن في قوام فصيلة الفرسان، في موقف صعب، إذ كان يتوجب عليه مواجهة قوى معادية متفوقة، فالدخول في معركة ضمن هذا التناسب، كان يعني بالنسبة له الخسارة والهزيمة.

ويذكر أسامة ابن المنقذ ذلك قائلاً: قال لي جدي: أنت ستقف في وجه

---

(١) نظير السعداوي، التاريخ الحربي المصري، القاهرة مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٧، ص٨٢.

(٢) المصدر السابق الصفحة ٤١١.

(٣) المصدر السابق، ص٤٠٤.

خيالة كفر طابا صاداً إياها، أما نحن مع المقاتلين فسنلاقي خيالة أكفاء، وقفت أنا وعشرة فرسان في بستان زيتون، وحسب الخطة كان يتعين على ثلاثة أو أربعة فرسان منا الخروج وإظهار أنفسهم للصليبيين، ومن ثم العودة إلى بستان الزيتون بغية إشغال الصليبيين ولفت انتباههم، وعندما شاهد الصليبيون مقاتلينا لم يكن بمقدورهم تحديد فصيلتنا، وظنوا أن عددنا كبير وكانوا يقتربون منا ثم يبتعدون، أما نحن فقد ثبتنا بشجاعة في مكاننا، وبقينا ثابتين في مكاننا حتى رجع إلينا جدي ومعه التعزيزات، وعندما لاحظ الصليبيون قواتنا، لاذوا بالفرار فوراً.

كما تؤكد دراسة سير بعض المعارك أن دور القائد في المعركة كان مهماً للغاية، فقد كان إحراز النصر في المعركة في نهاية المطاف، يتعلق بمقدرة القائد على التقدير السريع للموقف، وبناء تراتيب القتال، وتحديد نقاط الضعف لدى العدو في الوقت المناسب، وكشف النواحي السلبية في أعمال قواته، والعمل على سرعة تلافيها، كما أن النصر يتعلق بحزمه وأعماله الجريئة.

لذلك أشار الكتَّاب العرب الذين عاصروا تلك الفترة، إلى أن القادة العسكريين الذين تم إحراز انتصارات تحت لوائهم، كانوا يخرجون بأنفسهم يومياً لاستطلاع العدو، وكانوا يتواجدون في أثناء سير المعركة في النقاط الساخنة زارعين الثقة في نفوس المقاتلين ومنظمين إياهم، موجهين قواتهم بمهارة عن طريق إشارات الأبواق والطبول التي حددت مسبقاً من أجل تنفيذ المناورات وإعادة تجميع القوات(١).

وكان القادة العرب يسعون لاستغلال جميع الإمكانيات لإحراز النصر، فعلى سبيل المثال أمر صلاح الدين الأيوبي في أثناء حصار قلعة برزية عام ١١٨٨م قواته والأسرى كذلك وغيرهم وبحسب إشارة معينة أن يصرخوا

---

(١) ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار ابن أيوب، القاهرة، ١٩٥٧، مجلد ١، ص٤٢٨

بأعلى أصواتهم مرددين كلمات كان يقولها العرب في أثناء هجماتهم، وقد أدى هذا الصراخ القوي إلى إضعاف الروح المعنوية لدى المدافعين عن القلعة، الأمر الذي أدى إلى احتلالها(١).

وتعد معركة حطين التي جرت في الرابع من تموز عام ١١٨٧م أوضح مثال لأفضل نماذج التكتيك الذي عرفه العرب إبان الحروب الصليبية في القرن الثاني عشر، حيث جسد صلاح الدين الأيوبي الخطة الاستراتيجية لتحرير فلسطين على أرض الواقع، عندما أرغم الصليبيين على ترك الصفورية المحصنة وتغيير خطتهم الإستراتيجية التي تلخص جوهرها في تقسيم القوات العربية إلى جزأين والوصول إلى شبكة مواصلاتها الموجودة في المؤخرة.

كما منعها من الوصول إلى مصادر المياه في بحيرة طبريا، فحسب خطة الصليبيين كان محور تحركهم يمر عبر منطقة حطين التي تقع على مسافة فرسخين عن طبريا الفرسخ ٤,٥كم، حيث جرت المعركة في منطقة تبلغ مساحتها أربعين ميلاً مربعاً، أما تضاريس هذه المنطقة فقد حددتها منطقة جبلية يبلغ ارتفاع أعلى قمة فيها ٣١٥م فوق سطح البحر.

وكانت سفوح القمة الرئيسية فيها صعبة المرور، وقد خلق كل من المكان الجبلي الصحراوي والمناخ الحار والجاف وشح المياه - كان سكان حطين يحصلون على الماء من آبار قليلة - صعوبات كبيرة جداً لخوض المعارك في المنطقة المذكورة(٢).

أمر صلاح الدين الأيوبي ليلة ٣ تموز ببدء التحضير للمعركة، بعد أن حصل من رجال الاستطلاع على معلومات تفيد بأن قوات الصليبيين تقترب من حطين، وفي بادئ الأمر قام شخصياً بتحديد ترتيب القتال للمعركة القادمة

---

(١) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، مصدر سابق، المجلد ٥ ص ٣١٤.

(٢) مفلح علي، التاريخ الحربي للأمة العربية، دمشق، التوجيه المعنوي ١٩٥٩، الجزء ٢، ص ٧٦، ٧٧.

موزعاً القوات إلى جماعات مستقلة، وألحق بكل جماعة منها مجموعة من النبالة بهدف تنفيذ الهجمات على العدو من اتجاهات مختلفة.

وكان على الجماعات القتالية أن تتخذ ترتيب القتال الخماسي، ولم تشر المصادر القديمة إلى عدد المجموعات القتالية التي شكلها صلاح الدين، إلا أن الوصف الذي نقله الشهود والمشاركون في المعركة يؤكد أنها كانت على ثلاث مجموعات متتالية كحد أقصى.

وبالإضافة إلى المجموعات القتالية الرئيسية التي ألقي على عاتقها مهمة تدمير القوات الصليبية في موقعة حطين في ٤ تموز، كما خصصت مجموعات من المقاتلين ضمن الوحدات العسكرية لتقوم بتنفيذ الهجمات الليلية على معسكر الصليبيين، وكانت المهمة الأساسية لهذه المجموعات إقلاق راحة العدو ومنع قواته من التحضير وخلق حالة من التوتر النفسي في صفوفه وإنزال أكبر الخسائر الممكنة به، أما القوات الرئيسية فكانت مهمتها إعداد وتجهيز الأسلحة والجياد، ومن ثم الاستراحة بانتظار قيام المعركة الفاصلة في الصباح(١).

ويصف الأصفهاني الأحداث قبيل المعركة قائلاً: أمضى السلطان صلاح الدين الأيوبي طوال ليله يتفقد القوات ويوزع المجموعات من كل وحدة من أجل تنفيذ الهجمات الليلية موزعاً السهام على النبّالين، حيث قام السلطان بتوزيع أربعين حمل حصان من السهام، كما وضع في ميدان المعركة سبعين كومة من السهام كي يتزود بها النشابون إذا نفذت سهامهم(٢).

---

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، القاهرة، الأزهرية ١٣٠١هـ، مجلد ١١، ص ٢٤١.

(٢) العماد الكاتب الأصفهاني، الفتح والبرق، وهذا النص وارد في كتاب، أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين، ج٢، ص٧٨، ٧٩.

+ ورود هذا النص في كتاب تاريخ الحروب الصليبية تأليف ستيفن رنسيمان، ص٨٠٤، ٨٠٥، من ج٢.

+ أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين، القاهرة، وادي النيل، ١٢٨٨هـ، الجزء ٢، ص ٧٨، ٧٩.

وهكذا أمضى القادة والمقاتلون العرب طيلة الليل الذي سبق المعركة في تفتيش السلاح والاحتياطات من السهام واستلام الأسلحة الجديدة وتجهيز الخيول، وخلدوا بعد ذلك للراحة، بينما لم يذق الصليبيون طعم الراحة لأنهم كانوا يتعرضون للهجمات الليلية المستمرة من قبل العرب من ناحية، بالإضافة إلى نار العطش بسبب عدم وجود مصادر مياه قريبة من ناحية أخرى، مما زاد حالتهم البدنية والمعنوية سوءاً.

وعند فجر الرابع من تموز كانت الجبهتان المتصارعتان جاهزتين للمعركة، وتلخصت خطة العرب في إنهاك العدو بخوض معركة دفاعية وتنفيذ هجمات معاكسة واختيار اللحظة المناسبة لتنفيذ الهجوم الحاسم بالمجموعات القتالية، ومن اتجاهات مختلفة بهدف تطويق القوات الصليبية وسحقها، أما الصليبيون فقد ركزوا ضربتهم الرئيسية باتجاه مصادر المياه الموجودة في وادي الحمام الذي يقع على بعد ثلاثة كيلومترات من ميدان المعركة بالقرب من قرية حطين، وبهذا الاتجاه بالذات بدأت الخيول الصليبية هجومها تحت قيادة رايموند[١]، وهذا ما تنبأ به صلاح الدين الأيوبي.

وبعد أن خرقت القوات العربية تراتيب قتال الصليبيين بفضل أعمال النشابين الذين أمطروا القوات الصليبية بالسهام موقعين بهم خسائر فادحة، استخدم صلاح الدين الأيوبي على اتجاه هجوم الصليبيين بالذات تكتيك الكر والفر، الأمر الذي أدى إلى عزل خيالة الصليبيين عن مشاتهم والإخلال بنظام تعاونهم، وقد استغلت الخيالة العربية هذه الفوضى في قوات الصليبيين فقامت بمناورة حاسمة على مجنبات ومؤخرة العدو وفصلت خيالته عن المشاة وطوقتها بشكل كامل، وفي نفس الوقت قام جزء من القوات العربية بهجوم على المشاة الصليبيين وأجبرهم على الانسحاب، مما أدى إلى زيادة الهوة بين

---

(١) الحافظ شمس الدين الذهبي، تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام، مخطوط القاهرة، دار الكتب المصرية، فصل التاريخ، دورية ٥٩٦، ورقة ٨٩.

المشاة والخيالة الصليبيين وإيصالهم إلى حافة الهزيمة، وقد نقلت المصادر القديمة ما قاله الأمير الصليبي رايموند في تلك اللحظة الحرجة، «يا إلهي، سيدي الرب، لقد انتهت الحرب، نحن في عداد الأموات، لقد اندثرت المملكة»[١]، إلا أن رايموند تمكن من خرق طوق الحصار والانسحاب.

وحول التطور اللاحق للمعركة يقول ابن كثير: «ارتفعت الشمس وازداد القيظ، وعانى الصليبيون أكثر فأكثر من العطش، وكان ميدان المعركة مغطى بالهشيم اليابس الذي تحول فيما بعد إلى كارثة بالنسبة لهم، عندما أمر السلطان صلاح الدين قادة الجماعات بإلقاء النفط وحرق الهشيم تحت أقدام العدو»[٢].

وقد كتب ابن منكلي حول الأمر الذي أسنده صلاح الدين الأيوبي للزراقين من الجماعات القتالية لإلقاء النفط وحرق الهشيم تحت أقدام العدو[٣]، ومع ذلك يثبت الكتاب الآخرون أن هذا لم يتم بناء على أمر من صلاح الدين الأيوبي، ومن هؤلاء العيني الذي يذكر أن حرق الهشيم صدر بأمر عن مظفر الدين حاكم أربيل[٤]، وحسب شهادة أبي شامة أن حرق الهشيم قام به بعض المتطوعين[٥].

ومهما يكن من أمر فإن الحقائق المؤكدة تثبت الاستغلال الماهر للعرب للظروف الطبيعية، حيث استخدموا العشب الجاف الطويل والرياح التي تهب

---

(١) ستانلي لينبول، سيرة القاهرة، مكتبة النهضة، ١٩٥١، صفحة ٢٠٩.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية في التاريخ، القاهرة، السعادة، ١٩٣٢، الجزء ١٢، ص ٣٢١.

(٣) ابن منكلي، الأحكام الملوكية والضوابط الناموسية، القاهرة، دار الكتب المصرية، فصل التاريخ، دورية ٢٣، ص ٥٤.

(٤) العيني، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، القاهرة دار الكتب المصرية، فصل التاريخ، دورية ١٥٧٤، الجزء ١، الصفحة ٣٣.

(٥) أبو شامة، الروضتين في تاريخ الدولتين، القاهرة، وادي النيل، ١٢٨٧هـ، الجزء ٢، ص ٧٧، مصدر سابق.

باتجاه العدو بهدف إحراز النصر في المعركة، وقد أدت ألسنة اللهب المتواصل والقيظ ومعاناة العطش وهجمات العرب التي طوقت الصليبيين من جديد إلى تشتيت تراتيب قتالهم وانتشار الفوضى فيها، وهكذا بدأ جنود الملك غي لويزيان بالانسحاب الفوضوي باتجاه جبل حطين.

وكان القادة الصليبيون يحاولون عبثاً إعادة تجميع وحداتهم، فحاولوا نصب خيامهم على قمة الجبل، وتنظيم تراتيب قتالية دفاعية بهدف إيقاف هجمات القوات العربية، محتمين بالمخابئ الطبيعية ومستغلين التفوق العددي على القوات العربية، خاصة أن القوات العربية كانت مجبرة على مهاجمة العدو وبصعوبة بالغة من جرَّاء صعودها إلى قمة الجبل[١]، لكن هذه المحاولات لم تتكلل بالنجاح، حيث أدت الأعمال القتالية التي خاضها جنود صلاح الدين الأيوبي إلى بث الذعر في صفوف الصليبيين، وانقسمت القوات الصليبية إلى قسمين، القسم الأول سارع للفرار من أرض المعركة إلا أنه سُحق تماماً، أما القسم الثاني فقد انسحب بشكل فوضوي باتجاه الجبل[٢]، ولم يتقيدوا بتنفيذ أوامر قادتهم، وإنما كانوا يأتمرون بغريزة المحافظة على حياتهم فقط[٣].

وقد استغل صلاح الدين الأيوبي هذا الموقف الملائم وأمر قواته بتطويق الصليبيين المتواجدين على قمة جبل حطين[٤]، وقد أدى هذا الحصار إلى فقدان الأمل لدى حاملي الصليب، فرفع الآلاف منهم أسلحتهم وبدؤوا يصلون للرب يرجون مساعدته وإنقاذهم من المحنة التي هم فيها، مما أدى إلى رفع الروح المعنوية لدى القوات الصليبية إلى قدر ما.

---

(١) يشير الدكتور أحمد بيلي إلى أن الصليبيين تمكنوا من نصب خيمة الملك على قمة الجبل، راجع أحمد بيلي، كتاب (صلاح الدين الأيوبي) القاهرة، الرحمانية، ١٩٢٦، ص ٦٠.

(٢) ابن شداد، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، القاهرة، ١٣١٧هـ، صفحة ٧٧.

(٣) أحمد بيلي، حياة صلاح الدين، المصدر السابق، صفحة ٦١.

(٤) العماد الكاتب الأصفهاني، الفتح القدسي، المصدر السابق، صفحة ٧٩.

وتؤكد بعض المصادر القديمة أن الروح المعنوية لدى الصليبيين لم تكن عالية، إذ غادر العديد من الأمراء من تلقاء أنفسهم ساحة المعركة لدى رؤيتهم للمأزق الذي لا يمكن لقواتهم الخروج منه، وكان من بين الفارين كوماس أمير طرابلس، والأمير فاليان ابلين ورينالد وحاكم صيدا[١].

وبلغت معاناة الصليبيين من الحر والتعب والعطش إلى درجة أجبرت إحدى جماعات المقاتلين من قوات رايموند باللجوء إلى السلطان صلاح الدين الأيوبي مباشرة لتقول له: أيها السلطان ماذا يمنعك من مهاجمتهم، إنهم ليسوا قادرين على المقاومة، فهم أموات[٢]. كما حاولت بعض المفارز من القوات الصليبية الخروج من الحصار، غير أن العرب صدوا هجماتهم وكان العرب يردون على كل هجمة بهجوم معاكس[٣].

وفي هذه اللحظة الحرجة توجه الملك غي إلى رايموند طالباً منة اتخاذ إجراءات للنجاة والخروج من الوضع المتشكل[٤]، فجمع رايموند تحت قيادته ما تبقى من الفرسان وقرر خرق طوق الحصار باتجاه بحيرة طبريا، وعلى هذا القطاع من الجبهة كانت القوات العربية منتشرة بإمرة تقي الدين عمر حفيد السلطان صلاح الدين الأيوبي، الذي قام بعد مشاهدته لتفوق الخيالة الصليبية المهاجمة في هذا الاتجاه بالسماح لها بالمرور داخل القوات العربية، ومن ثم أحكم طوق الحصار من جديد، ليتم عزل الخيالة عن المشاة الصليبية للمرة الثانية.

إلا أن رايموند لم يتخذ مع مقاتليه الذين خرجوا من الحصار أية إجراءات

---

(١) ستيفن رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، بيروت، ترجمة الدكتور الباز العريني، ط عام ١٩٦٧م، دار الثقافة، مجلد ٢، صفحة ٧٤٠.

(٢) أحمد بيلي، حياة صلاح الدين الأيوبي، القاهرة، الرحمانية ١٩٢٦، صفحة ١٦٠، ١٦١.

(٣) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، القاهرة، الأزهرية، ١٣٠١ هـ، مجلد ١١، صفحة ٣٤٣.

(٤) ابن الأثير المصدر السابق، المجلد ١١، صفحة ٢٤٢.

لإنقاذ ما تبقى من القوات في الحصار، وتوجه مع فرسانه إلى طرابلس، حيث توفي هناك بعد ثلاثة أشهر(١).

وعندما جاءت اللحظة المناسبة لتنفيذ الهجوم الحاسم، أمر صلاح الدين الأيوبي قواته بأن تصلي لله متضرعة إليه بإحراز النصر وبدء الهجوم الحاسم على الصليبيين من الاتجاهات كافة، وقد دافع الصليبيون في هذه المعركة بشجاعة رادين على الهجوم العربي بهجمات معاكسة، وقد شارك في هذه المعركة الأفضل النجل الأصغر لصلاح الدين الذي كان متواجداً طيلة فترة المعركة إلى جانب والده.

وبعد عدة سنوات على مرور المعركة تحدث الأفضل بن صلاح الدين الأيوبي عن الشجاعة التي أبداها الصليبيون في تلك المعركة إذ قال: عندما انسحب الملك الصليبي إلى قمة الجبل، شن فرسانه الخاصون هجوماً قوياً، مما أجبر جنودنا على الانسحاب إلى المكان الذي كان يقف والدي فيه، وقد لاحظت أن لون وجه والدي قد تغير، كما لاحظت القلق الذي انتابه حيث رأيته ماسكاً لحيته بيده، وعندما انسحب جنودنا صرخ والدي قائلاً: حاربوا ضد الشيطان الكاذب، وعندها هاجموا جنود العدو بضراوة وأجبروه على الانسحاب حتى الجبل، وعندما شاهدت الصليبيين، وقد بدؤوا بالفرار باتجاهات مختلفة من أرض المعركة صرخت من الفرح قائلاً: لقد غلبناهم، لكن الصليبيين عادوا من جديد وهاجموا جنودنا وأجبروهم مرة ثانية على الانسحاب إلى المكان الذي يقف فيه والدي، وهنا أصدر والدي أمراً بشن هجوم حاسم، عندئذ هجم جنودنا على العدو بحزم وشجاعة، وبدأ العدو بالتقهقر، وطارده جنودنا حتى قمة الجبل، حيث كانت خيمة الملك الصليبي منصوبة هناك، وعندها صرخت ثانية: لقد غلبناهم، لكن والدي التفت إلي وقال: اهدأ، نحن لم نغلبهم ما دامت خيمة ملكهم منصوبة على قمة الجبل،

---

(١) رانسيمان ي، المصدر السابق، المجلد ٣، صفحة ٧٤٠.

+ أحميد بيلي، المصدر السابق، الصفحة ١٦٠.

وفي تلك اللحظة، شاهدت سقوط خيمة الملك الصليبي، وعندها ترجل والدي من على ظهر حصانه وانحنى إلى الأرض والدموع تملأ عينيه من الفرح، وبدأ يشكر الله ويحمده على النصر[١]».

وعندما وصل الفرسان العرب إلى خيمة الملك الصليبي على قمة الجبل رأوا الفرسان الصليبيين بمن فيهم ملكهم جالسين على الأرض من شدة التعب والعطش وغير قادرين على القتال، لقد كانوا منهكي القوى لدرجة أنه لم يكن باستطاعتهم تسليم سيوفهم، وبعدها اقتاد الفرسان العرب القادة الصليبيين إلى خيمة السلطان صلاح الدين الأيوبي التي تم نصبها في ميدان المعركة[٢]، وكان من بين الأسرى شخصيات مشهورة مثل: جيرار دي ريد فور، والمعظم، والكونتابل أموري لويزنيان وغيرهم من البارونات المشهورين: غيليلم، مانعثيرات، ورينودي شاتيون وغيرهم.

وقد قدم صلاح الدين الأيوبي كأساً من الماء المثلج إلى ملك الصليبيين، وشرب الملك غي لويزيان نصف الكأس وأعطى ما تبقى من الماء إلى رينودي شاتيون الذي كان جالساً بقرب الملك – وحسب عادات الضيافة العربية فإن إعطاء الماء والغذاء للأسير يعني إبقاءه – وعندما شاهد صلاح الدين الأيوبي أن الملك يعطي الماء لشاتيون، قال صلاح الدين فوراً للمترجم: قل للملك بأنه هو نفسه تقاسم الماء مع بارون الكرك وليس أنا، والتفت السلطان صلاح الدين الأيوبي إلى رينودي شاتيون مذكراً إياه بالجرائم التي ارتكبها ولاسيما نهب وسلب القوافل العربية وعدم وفائه بعهده حول عدم التعرض للقوافل العربية، وغدره وتهكمه على الدين الإسلامي، وعندما أجاب رينودي شاتيون بوقاحة وخبث، استل صلاح الدين الأيوبي سيفه من غمده وقطع رأسه.

---

(١) ابن الأثير، نفس المصدر، المجلد ٢، صفحة ٧٤٠.
+ أحميد بيلي، نفس المقدر، ص ١٦٠.

(٢) ابن الأثير، المصدر السابق، مجلد ١١، صفحة ٢٤٨.

عندئذ خاف الملك غي لويزيان إلى درجة الهلع، حيث ظن أن دوره لابد آت لملاقاة الموت، غير أن السلطان صلاح الدين الأيوبي طمأنه بأن الملك لا يُقتل، أما رينودي فقد استحق الموت على تصرفاته وأفعاله.

وقد تم إعدام أكثر من ٢٠٠ مجرم من القادة الصليبيين أصحاب الجرائم الوحشية بناء على أمر السلطان صلاح الدين الأيوبي، وتم الإبقاء على حياة أغلبية الأسرى الصليبيين ومن بينهم بعض البارونات المعروفين حيث تم اقتيادهم إلى دمشق[(١)].

وبهذا الشكل انتهت هذه المعركة، التي كانت لها – كما أشرنا سابقاً – أهمية كبيرة في بلوغ العرب لأهدافهم الإستراتيجية في حربهم ضد الغزاة، هذه المعركة التي استخدم العرب فيها التكتيك الذي توطد بشكل راسخ في أعمال التشكيلات العربية المسلحة في عهد الأيوبيين، حيث استخدم الأمراء العرب التكتيك ومبادئه الأساسية – التي أشرنا إليها سابقاً – في معاركهم اللاحقة إبان صد غزو الصليبيين في الحملة الصليبية الثالثة والصراع المسلح ضد الدول اللاتينية الذي جرى على الأرض العربية، وقد حقق هذا التكتيك النجاح للعرب في معاركهم العديدة، غير أنه كانت هناك هزائم مني بها العرب، لكن هذه الهزائم لم تكن شاهداً على التكتيك المتخلف لدى العرب، وإنما كانت نتيجة للمواقف غير المتلائمة، التي كانت تتشكل آنذاك، ومنها التفوق الكبير للصليبيين في القوات، وعدم حزم الأمراء العرب، ويجب ألا ننسى أيضاً الخطط للصليبيين في بعض المعارك.

ويمكن القول: إن تحليل تكتيك التشكيلات المسلحة العربية يؤكد أن هذا التكتيك قد تحسن وتطور نتيجة للتغيرات التي جرت في تنظيم القوات المسلحة وتجهيزها، والأخذ بعين الاعتبار خصائص تكتيك الصليبيين وتراكم الخبرة

---

(١) إبراهيم الحنبلي، شفاء القلوب في مناقب ابن أيوب، دمشق مكتبة المجمع العلمي بدمشق سنة ١٩٤٢م، ص٣١ ابن الأثير، المصدر السابق، مجلد ١١، ص ٢٥٠.

القتالية في الصراع ضدهم، فمن الناحية العملية كان يستحيل إحراز النصر على الصليبيين في اشتباك قريب، حيث كان الجنود الصليبيون يصطفون بتراتيب قتالية كثيفة ومتراصة أشبه بجدار لا يمكن خرقه مهما كانت شدة الضربات الموجهة إليه، وكانت تلك الصفوف الصليبية المتراصة قادرة على تمزيق أي ترتيب قتالي وسحق الخصم، لذا ترسخ التكتيك الذي انطوى في أساسه على الخدعة العسكرية والمناورة بالوحدات في القوات العربية خلال النصف الثاني من القرن الثاني عشر.

وبفضل الاستطلاع الدقيق للعدو وطبيعة الأرض كان الأمراء يقومون - وكقاعدة عامة - بالتحضير المسبق للمعركة ويسعون إلى إنزال أفدح الخسائر بالعدو قبل بدء المعركة الحاسمة من خلال نصب الكمائن وتنفيذ الهجمات والغارات الليلية والصباحية المبكرة ومهاجمة معسكراته.

كما تقيد الأمراء العرب في أثناء بناء تراتيب قتالهم بذلك التنظيم الذي يسمح لهم بتحقيق المناورة بهدف الوصول إلى مجنبات ومؤخرة العدو ومحاصرته، وكذلك بانسحاب القوات بشكل سريع عند الضرورة، ومن أجل تحقيق هذا الأمر استخدم العرب ترتيب القتال الخماسي الذي يقتضي توضع القوى الرئيسية، والفرسان بشكل أساسي على المجنبات بهدف تكثيف القوى وتفوقها على قوات العدو الذي كان يوزع قواه بالتساوي على الجبهة.

وكان العرب في بداية المعركة يركزون جهودهم الرئيسية لإعياء العدو وإخلال تراتيب قتاله بفضل أعمال النبالين الخيالة بشكل رئيسي من أجل استفزاز الصليبيين للقيام بأعمال فعالة والمطاردة، حيث كان يعتمد العرب في ذلك على أسلوب الكر والفر والانسحاب، فقبيل الاشتباكات القريبة كان العرب يبذلون قصارى جهدهم لزعزعة التعاون فيما بين الخيالة والمشاة الصليبيين، كما تعد المعرفة الجيدة لطبيعة الأرض والظروف الطبيعية والاستفادة منها في إحراز النصر في الأغلب واحدة من أهم العوامل الحاسمة في تحقيق النجاحات العربية.

عاشراً الدروس والعبر:

لقد كانت الحملات العسكرية التي قام بها إقطاعيو أوروبا الغربية في نهاية القرن الحادي عشر وحتى القرن الثالث عشر ضد الوطن العربي حدثاً هاماً غيَّر في مجرى التاريخ العالمي، إذ حددت نتائجها العسكرية والسياسية – خلال قرون – العلاقات المتبادلة في أكبر منطقتين في العالم مختلفتين من الناحيتين الفكرية والدينية.

ويختلف المؤرخون حول منشأ وجوهر الحركة الصليبية وطبيعتها، فقد أشار علم التاريخ السوفيتي أكثر من مرة إلى الطبيعية العدوانية لتلك الحركة، إلا أن هناك وجهات نظر مختلفة حول هذه المسألة، إذ يعزو معظم المؤرخين المعاصرين في أوروبا الغربية السبب الأساسي لقيام الحركة الصليبية ضد الشرق إلى الهوس الديني المفرط لدى سكان دول أوروبا الغربية التي وجهت حشوداً ضخمة من البشر للاستيلاء على فلسطين ولاسيما القدس.

ويرى بعض المؤرخين سبباً آخر دعا إلى القيام بالعدوان خلال تلك الحقبة التاريخية على بلدان الشرق العربي ويتمثل في سياسة الطغمة اليهودية الحاكمة في بعض دول أوروبا الغربية التي سعت إلى إفقار أعدائها فيما يزعمونه "أرض الميعاد".

ولم **يقم علم التاريخ العربي ببحث ودراسة الحملات الصليبية لفترة طويلة،** وذلك بسبب التخلف الثقافي الذي سيطر على حياة المنطقة العربية حتى القرن التاسع عشر، وحتى وقتنا الراهن لا يوجد في علم التاريخ العربي أبحاث خاصة من شأنها أن تعطي تحديداً لجوهر الحروب الصليبية.

ولا بد من الإشارة إلى أن دراسة وبحث الموقف العسكري – السياسي الذي تشكل في منطقة الشرق الأوسط قبيل القرن الثاني عشر والعلاقات الاجتماعية الاقتصادية ووجهات النظر الفكرية والدينية لدى السكان في أوروبا الغربية قد ساعدت في إظهار بعض العوامل التي حددت جوهر الحملات الصليبية وطبيعتها.

ففي المجال العسكري – السياسي نلاحظ ضعف الإمبراطورية البيزنطية التي كانت تسيطر على بلاد شاسعة، وتعزيز دولتي السلجوقيين والأيوبيين اللتين كانتا تسعيان لتوطيد نفسيهما في منطقة شرق البحر الأبيض المتوسط،، وسعي الدول الفتية المركزية في أوروبا الغربية للتوسع الإقليمي عن طريق تأمين تفوقها العسكري والسياسي على الشرق الأوسط.

ويبيّن التحليل والدراسة أن الأسباب السياسية لبداية الحركة الصليبية في القرنين الحادي عشر والثاني عشر، كانت تعود إلى أساس الحركة الصليبية وسعي دول أوروبا الغربية لتأمين نفوذها السياسي في منطقة شرقي البحر الأبيض المتوسط، حيث كانت هذه الحركة تحمل من الناحية الشكلية طابع تقديم المساعدة العسكرية للإمبراطورية البيزنطية ودول الفرنجة في صراعها ضد العرب، فقد سعت كل دولة من دول أوروبا الغربية في هذه الحملات إلى تحقيق أهدافها السياسية الخاصة بها، وقد أدى هذا إلى نشوب خلافات حادة بين هذه الدول مما أثر سلباً على نجاح الأعمال القتالية.

أما في المجال الاقتصادي – الاجتماعي فقد ساعد على تنظيم الحملات الصليبية كل من الاقتصاد غير المتطور، ومرور أهم طرق المواصلات عبر الشرق التي كانت تربط الشرق بالغرب، والموقف الاقتصادي غير الملائم في أوروبا الغربية، وآمال الأغلبية الساحقة من الإقطاعيين والفرسان الصغار في الحرب كوسيلة أساسية لحل القضايا الاقتصادية.

يمكننا أن نرى في صلب الأسباب الفكرية والدينية لحركة الصليبيين ما يلي:

- **افتعال الصراعات الدينية** واختلاقها لتغطية الأهداف الاقتصادية الاستعمارية الاحتلالية.
- **تحويل مرتبة روما إلى مركز أيديولوجي رئيسي** في أوروبا الغربية وسعيها لتوحيد العالم المسيحي تحت رايتها.

- **القناعات الدينية لدى الناس** المستفيدين لخوض الصراع المسلح من أجل تلك القناعات، وقد كانت الحملة الصليبية تجسد للمشاركين فيها خدمتهم المقدمة إلى الرب الأعلى الذي سيكافئ المخلصين بالنصر والغنيمة والثراء وملكيات جديدة، وعلى هذا الوتر عزفت كنيسة روما الكاثوليكية، عندما قامت بتنظيم الحركة الصليبية ضد الشرق.

وتسمح دراسة الموقف العسكري - السياسي الذي كان سائداً قبيل الحملات الصليبية باستخلاص استنتاج مفاده أن الحملات الصليبية لم تكن في يوم من الأيام نتيجة لسعي الدول الأوروبية الأساسية لتقديم المساعدة العسكرية لشركائهم في الدين في منطقة البحر الأبيض المتوسط،، بقدر ما كانت محاولة لحل المسائل الاقتصادية لتلك الدول عن طريق احتلال أراضي الشرق، وبهذا يمكن إثبات أن الحملات الصليبية كانت حملات ذات طابع احتلالي استعماري.

فالقوة الرئيسية الضاربة التي تم بمساعدتها تحقيق الأهداف الأساسية للصليبيين كانت التشكيلات المسلحة في دول أوروبا الغربية الأساسية والدول المسيحية في دول الشرق، حيث تألف قوامها في الأساس من الفرسان المعبئة حسب التبعية الإقطاعية.

أما مجموعات المشاة التي كانت تضم في صفوفها المرتزقة والمعدمين من الفلاحين والعبيد الهاربين وقطاع الطرق والمغامرين، فقد فقدت صفاتها القتالية ولم تكن لها - من حيث الجوهر - في المعركة أية أهمية جدية، إذ سرعان ما أصبحت الخدمة ضمن قوات المشاة الصليبية أمراً مثيراً للاستهزاء والسخرية، حيث بدت كأنها واجب على العبيد وأمثالهم.

وتؤكد أبحاث المؤرخين بشكل تام وجهة نظر فريدريك إنجلز القائلة: بأنه خلال كامل فترة العصور الوسطى بقيت الخيالة الصنف الرئيسي للقوات في جميع الجيوش، وإن هذا الدور الريادي للخيالة لم يكن مشروطاً بجدارتها الخاصة، لأن الخيالة غير النظامية في الشرق كانت غير قادرة على خوض

المعركة الصحيحة، أما الخيالة النظامية الغربية فكانت غير قادرة على المناورة في حركتها، بل كان ذلك أيضاً مشروطاً بالصفات المتدنية للمشاة عند مقارنتها بالخيالة.

وقد سمح تطور معالجة الحديد وتحسينه في القرن الثاني عشر بتحسين تسليح الفرسان والمشاة ووسائط الحماية، حيث كانت حماية الفارس من الصليبيين تشكل ثقلاً كبيراً حتى أن الفارس نفسه لم يكن يستطيع ارتداء وسائط حمايته بنفسه، إذ كان يتطلب الأمر مساعدة مرافقة في ذلك، وفي حال سقوط الفارس من على ظهر الجواد كان يصبح غير قادر على حماية نفسه، ويصبح أشبه بسلحفاة مقلوبة على ظهرها فإما أن يقع في الأسر أو أن يموت تحت حوافر الخيل.

وتسمح دراسة تسليح الفرسان الصليبيين بفهم تلك الصفات المتفوقة التي تميزت بها الخيالة العربية على الخيالة الصليبية في مناورة أعمالها، كما كانت القيادة العسكرية للقوات الصليبية المسلحة تعتمد نمطاً واحداً وهو النمط الذي استخدم في فرنسا في البداية، إذ كان الملك يترأس شكلياً قيادة القوات وهو الذي كان يشرف على تنظيم الأعمال العسكرية ويصادق على خطة تنفيذ الحملات، كما أنه كان يحدد البنية التنظيمية للجيش، إلا أنه في الواقع لم يكن باستطاعته إعطاء الأوامر لاستدعاء التشكيلات وحل المسائل العسكرية الهامة الأخرى من دون اجتماع مسبق يعقده مع الأمراء، وفي فلسطين كان الصليبيون والأوروبيون القادمون لمساعدة مملكة القدس غير ميالين للاعتراف بسلطة الملك، وإبان الحملات الصليبية لم يكن في جيوش مختلف الدول الأوروبية قيادة موحدة أيضاً، فعندما تم تطويق مدينة نيقية في الحملة الصليبية الأولى وقفت قوات كل أمة في معسكرها المحصن المخصص لها، وقد رفض أمراؤها الاعتراف بأية قيادة أخرى.

ومع تطور العلاقات الإقطاعية وظهور طبقة الفرسان تغير تكتيك عمل القوات بشكل جذري، حيث أصبح الفارس مع حاشيته المسلحة يسمى بالرمح،

وكانت رماح الملاك الواحد المتوضعة إلى جانب بعضها تشكل راية، أما من حيث ترتيب قتال الفرسان فقد كان منتشراً لأمرين اثنين، أولهما: من أجل سهولة قيادة الجواد واستخدام السلاح، والأمر الثاني: من أجل رغبة الفارس الواحد في إحراز النصر بمفرده، وليس بشكل جماعي، كما كانت المؤخرة ضمن جماعات معينة تضم مسلحين لا يشاركون في معركة الفرسان، وفي حال الضرورة كان يتوجب عليهم امتلاك جياد وأسلحة احتياطية، وقد كان قائد القوة يحارب بالسيف أو الرمح مثله مثل أي جندي عادي ولم تكن هناك أية قيادة عامة للمعركة.

ومن هنا يمكن القول إن الحملات الصليبية قد أظهرت بشكل واضح وجلي سلبيات قوات الإقطاعيين، وخاصة المشاة منها التي كان يتم إعدادها بشكل جيد، ولم يكن بمقدور الفرسان الذين كانوا يفقدون جزءاً كبيراً من خيولهم خلال المرحلة الصعبة مماثلة القوات العربية بترتيب قتالهم، ولم يكتفِ العرب في مثل هذه الحالة بإمطار الفرسان الصليبيين بوابل من السهام، بل كانوا يستخدمون الرماح ضدهم أيضاً.

وعلى الرغم من أن التطبيق العملي قد طرح متطلبات التعاون الفعال بين المشاة والخيالة، إلا أنه لم يكن هناك أي اتصال وتعاون بينهما خلال قرون كاملة، وبصرف النظر عن الخبرة الكبيرة كان الفرسان – على الرغم من عدم رضاهم – يغيرون ترتيب قتالهم وينتقلون إلى ترتيب جديد والذي – حسب رأيهم – لم يعطِ إمكانية إظهار الشجاعة الفردية.

وقد تميز التنظيم العسكري العربي في القرن الثاني عشر بخصائص مميزة وَطَّدتها سلسلة من الظروف ذات طابع ديني واجتماعي واقتصادي وجغرافي وسكاني، حيث تأثر نظام استكمال القوات العربية وبنيتها التنظيمية وطرائق تدريب مقاتليها وتربيتهم، بخصوصية الحياة الاجتماعية والروحية الأخلاقية، وثقافة الشرق، والدمج بين طبيعة الأرض الصحراوية والجبلية، فقد ساعدت الأفكار الدينية الفكرية لدى المسلمين تجاه الحرب

والعمل العسكري على تنظيم استكمال القوات العربية المسلحة وقوامها، إذ لم يوجد تطور لفلسفة الحرب في أي مكان آخر كما هو الحال لدى العرب، تلك الفلسفة التي لها ارتباط وثيق مع المعتقدات الدينية، فكل شخص عند اعتناقه الدين الإسلامي يلقي على نفسه مسؤولية المشاركة في الجهاد ضد المحتلين، وبغض النظر عن وضعه الاجتماعي ومنشئه، يصبح كل من يعتنق الإسلام محارباً لدى الرسول(٠) وصحابته، وبهذا الشكل - وخلافاً لحال العالم الغربي - لا تكون لدى العرب طبقة عسكرية خاصة، وإنما يصبح كل قادر على حمل السلاح محارباً، وقد بني الإعداد القتالي للقوات آنذاك وفقاً لتعاليم الدين الإسلامي.

ومن حيث أسلوب استكمال القوات العربية قسمت الوحدات العربية إلى وحدات نظامية وشبه نظامية، وكانت القوات النظامية تتقاضى أجراً معيناً لقاء خدمتها، وكان يخدم في صفوف هذه الوحدات ممثلو الشعوب الحرة والمماليك، كما احتفظت قبائل الرحل في الجيش العربي بصفة المفارز المستقلة الخاضعة فقط لقيادتها، وكان يتم إشراكهم لتأمين الأعمال القتالية للقوى الرئيسية حيث كانوا ينفذون أعمال الاستطلاع والكمائن وغيرها.

وكانت الخيالة والمشاة تشكل الصنوف الرئيسية للقوات العربية، أما جماعات التسليح الثقيل والتأمين الهندسي للمعركة فكانت عبارة عن صنوف مساعدة، وكانت المناورة العالية السمة الأساسية التي ميزت الخيالة العربية عن الخيالة في الدول الأوروبية، وغالباً ما كانت تستخدم الخيول العربية لنقل المشاة إلى مسافات بعيدة بغية تحقيق الحركية العالية والمفاجأة في الهجوم، وفي هذه الحال كان كل خيّال يجلس خلفه عنصر من المشاة، أما قوات المشاة فكان لهم دور مساعد في المعركة، وقد قسمت المشاة إلى مشاة ثقيلة خطية وأخرى خفيفة وفقاً للمهام المسندة إليها.

وكانت القيادة العسكرية العليا للجيش ممثلة بالقيادة العامة تتألف من القائد العام للجيش ونوابه ومجلس كبار القادة وقائد الجيش وكاتب الجيش وديوانه، وكان من ضمن مهمات القيادة العامة إعداد ووضع خطط تنفيذ الحملات العسكرية وتجسيدها على أرض الواقع، بالإضافة إلى حل المسائل التنظيمية المختلفة ذات الصلة بتأمين الأعمال القتالية للقوات ونشاطها الحياتي اليومي، وبهذا الشكل فإن التنظيم العسكري في دولة الأيوبيين العربية كان متميزاً جداً عما كان عليه في القوات المسلحة للدول الغربية، وذلك عبر تلك الخصائص التي كانت تسمح للقوات العربية بالتنفيذ الناجح للمهام القتالية عن طريق الاستفادة من خصائص مسرح الأعمال القتالية.

ويسمح التحليل المنفذ باستخلاص استنتاج مفاده أنه إبان الحروب الصليبية التي جرت في خلال القرن الثاني عشر، كان يتم حل بعض المسائل والمهام ذات الصبغة العسكرية الإستراتيجية، ولا بد أن نذكر من بينها قبل كل شيء استخدام الإمكانيات العسكرية - الاقتصادية في الدول العربية لإحراز النصر في المعركة، وتنظيم وتحقيق القيادة الإستراتيجية لقوى الاحتياطات الإستراتيجية، وتشكيل الجيش القادر على تجسيد الهدف الاستراتيجي لتحرير الأراضي العربية المحتلة من قبل العدو، وإعداد مسرح الأعمال القتالية، وتحديد أكثر الأساليب والأشكال فعالية للصراع المسلح وفقاً للموقف المتشكل، وتنظيم التعاون الاستراتيجي بين الجيش البري والأسطول وتأمين القوات.

كما أن نتائج هذا البحث تسمح باستخلاص استنتاج مفاده أن الأمراء العرب، وكقاعدة عامة، كانوا يتقيدون بشكل صارم بمبادئ خوض الحرب التي كانت تحددها القيادة العليا، ففي فترة انقسام الأرض العربية كان الدفاع الشكلَ الأساسي لخوض الأعمال القتالية ضد الغزاة، ففي النصف الأول من القرن الثاني عشر لم يتسنَّ للمسلمين تشكيل جبهة موحدة لصد العدوان عن بلادهم، وبدءاً من عام ١١٦٢م ظهرت نزعة للتوحيد التدريجي للجهود في

الصراع ضد الصليبيين، وذلك عندما قام أمير الموصل عماد الدين الزنكي بإخضاع عدد من الإمارات في بلاد ما بين النهرين وشمالي سورية لسلطته، مما سمح بإنزال خسارة فادحة بالعدو واحتلال أديسيا.

كما ارتبط الانتقال إلى الأعمال الهجومية الفعالة الهادفة إلى تحرير الأراضي العربية المحتلة بنشاط السلطان صلاح الدين الأيوبي، ففي فترة ولايته، اعتبرت الأعمال الهجومية التي أصبحت ممكنة بفضل مركزية قيادة القوات المسلحة، الشكل الرئيسي للجهود العسكرية العربية، وبهذا أصبحت الحملات العسكرية الأسلوب الأساسي لتنفيذ القوات العربية للهجوم، حيث كان الهدف الأساسي لتلك الحملات احتلال القلاع والمدن ذات الأهمية الإستراتيجية الكبيرة.

وكان العرب يخططون بشكل دقيق لحملاتهم العسكرية، كما كان يتم تزويد القوات المشاركة بالحملة بجميع الوسائط الضرورية، بالإضافة إلى وجود نظام اتصال عامل في الجيش بشكل دائم، كذلك كانت القوات تحافظ على ترتيب قتال موحد في أثناء قيامها بالحملات، ذلك الترتيب الذي كان يسمح لها خلال فترات قصيرة بالبدء في المعركة، وقد سعى العرب بشكل دائم إلى أن يخوضوا المعركة الحاسمة مع العدو على أرض مكشوفة تسمح لهم باستخدام المناورة العالية للقوات والمعرفة الجيدة للمنطقة، لكن غالباً ما كانت القوات العربية تلجأ إلى حصار المدن والقلاع وذلك بإشراكها قوات الأسطول وخاصة في المناطق الساحلية، وقد سمح الهجوم الفعال للقوات العربية المسلحة العاملة على الاتجاهين الاستراتيجيين الجنوبي والشمالي للسلطان صلاح الدين الأيوبي بتحرير الأراضي العربية من الغزاة باستثناء بعض المساحات الصغيرة.

ومن خلال الارتباط الوثيق بتطور الإستراتيجية جرى تطور تكتيك التشكيلات العربية المسلحة، وقد اشترط بتحسين البنية التنظيمية للقوات وزيادة

إمكانات التسليح والتأمين وبتراكم الخبرة القتالية في التصدي للصليبيين وبإظهار المقاتلين العرب للروح القتالية العالية والمهارة العسكرية.

ومن خلال دراسة المخطوطات والكتب القديمة التي دونت عن هذه المعارك يمكن استخلاص استنتاج مفاده أن أعمالاً تحضيرية محددة كانت تسبق المعركة.

وقد أولى الأمراء العرب جلَّ اهتمامهم لبناء تراتيب قتال قواتهم التي كانت تتغير في أثناء الحروب نتيجةً للخبرة القتالية المتراكمة والموقف المتشكل بشكل فعلي وطبيعة الأرض وأعمال العدو، كما استخدمت القوات العربية مختلف أساليب خوض المعركة، فقد تحققت الحركية العالية للعرب بفضل الصفات المتفوقة للخيول العربية وخفة التسليح والعتاد مما سمح للقوات العربية باختيار الخطة المناسبة للصراع مع العدو، وبكلمات أخرى، التحديد الصحيح لوقت بدأ المعركة الذي يعد عاملاً هاماً من عوامل النصر وتقليص حجم الخسائر.

وبهذا الشكل يبين تحليل تكتيك التشكيلات العربية المسلحة، أن هذا التكتيك تطور من خلال ارتباطه مع التغيرات التي جرت في تنظيم القوات العربية وتسليحها، مع الأخذ بعين الاعتبار خصائص تكتيك الصليبيين والخبرة القتالية المتراكمة في الصراع ضدهم، لذا ترسخت الأعمال القتالية في القوات العربية خلال النصف الثاني من القرن الثاني عشر والتي اشتملت في أساسها على الخدعة العسكرية ومناورة الوحدات، فبعد الاستطلاع الدقيق للعدو والأرض كان الأمراء العرب – كقاعدة عامة – يقومون بالتحضير للمعركة بشكل مسبق، ويسعون لإنزال أكبر الخسائر الممكنة بالعدو قبل بدء المعركة الحاسمة من خلال نصب الكمائن والقيام بالهجمات الليلية والصباحية المبكرة والغارات على معسكراته.

وقد حافظ أولئك الأمراء في بناء تراتيب قتال قواتهم على ذلك التنظيم الذي كان يسمح بتحقيق المناورة الهادفة قبل كل شيء للوصول إلى مجانب العدو ومؤخرته، ومن ثم محاصرته، وتحقيق الانسحاب السريع لقواتهم في حال

الضرورة، ومن أجل هذا استخدم العرب ترتيب القتال الخامس الذي يقتضي توضع القوات الرئيسية – في مجملها الخيالة – على الجانب مؤمنين ذلك عن طريق حشد القوات في اتجاه يكون متفوقاً على الاتجاه المقابل من العدو الذي يوزع قواته بالتساوي على طول الجبهة.

وكان المحاربون العرب يركزون جهودهم الرئيسية في بداية المعركة من أجل إنهاك العدو وبعثرة تراتيب قتاله من خلال الأعمال الفعالة للنبالة، وبالأخص النبالة الخيالة، مستفيدين بذلك من استخدام تكتيك الكر والفر، أما قبيل المعركة القريبة – الاشتباك – التي كان يدخلها العرب فقط في حال توفر اللحظة الملائمة، فكان العرب يركزون جهودهم من أجل منع تعاون الفرسان والمشاة الصليبيين، كما أن المعرفة الجيدة للأرض والظروف الطبيعية والاستفادة منها في تحقيق النصر غالباً ما كانت تشكل أحد العوامل الحاسمة في مجرى النجاحات العربية.

واستناداً إلى ما سبق يمكن القول إنه نظراً لبناء القوات المسلحة يجب الاستمرار بدراسة المجالات غير المعروفة بشكل كامل في تاريخ فن السياسة والحرب إبان العصور الوسطى في المنطقة العربية مع تركيز الاهتمام **على المسائل التالية:**

- القوات المسلحة للدول العربية في القرون الوسطى – خبرة البناء والتعاون.
- الإسلام والقوات المسلحة في الشرق – الماضي والحاضر (التاريخ والحاضر).
- الاتجاهات الأساسية، أشكال وأساليب الإعداد القتالي وتربية مقاتلي القوات المسلحة العربية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر.
- مصادر وتنظيم التأمين الشامل للقوات العربية في عهد حكم صلاح الدين الأيوبي.


الهيئة العامة
السورية للكتاب

الفَصْلُ الثّانِي

السياسة والحرب عند العرب

في حرب المغول

مع إطلالة القرن الثالث عشر، كان الوطن العربي مجزءاً محتلاً، فمصر دولة مستقلة، وسورية مملكة الملك الناصر، والعراق يترنح ببقايا الخلافة العباسية، وسواحل فلسطين تنوء باحتلال صليبي. والوطن العربي تجاوره من الشرق الدولة الخوارزمية. وفي أوروبا دول أوروبية تشن علينا حرباً صليبية، وفي الشرق الأعمق تقوم دولة في منتهى القوة، هي المملكة التترية. ويعيش في هذا الوطن شعب تدب فيه حمى التخلف لأسباب شتى.

آ- إستراتيجية الصراع على الوطن العربي في القرن الثالث عشر:

يتمتع وطننا العربي بميزات جغرافية، ومواقع إستراتيجية هامة، فعلى أرضه قامت حضارة عظيمة، وفي باطنها ثروات كبيرة، سال لها لعاب الطامعين منذ الإشراقات الأولى للتاريخ. وتفيدنا كل الكتب والموسوعات التاريخية، أن هذه المنطقة من العالم، ما إن تنقسم وتضعف حتى تتعرض لغزاة من كل الجهات، فتذهب ثرواتها بين سلب ونهب. وحين تكون هذه المنطقة على جانب من المنعة والوحدة تختفي هذه الأطماع، وتصبح عبارة عن قوة كامنة لدى الدول المستعمرة على مر العصور.

حين كانت الدول الحميرية والآرامية والفينيقية والتدمرية والأموية والعباسية في أطوار القوة والمنعة العربية. كمنت هذه الأطماع الغربية تتحين الفرص، وتترقب الأحيان فكان الغزو الاستعماري لنا حين تمزقنا وتخلفنا. وكانت الحضارة والمنعة لنا حين توحدنا وتحضرنا.

والوطن العربي في القرن الثالث عشر كان بحالة تمزق كما ذكرنا وهو يتعرض للغزو الصليبي غزواً مباشراً. ولكن، لأسباب سياسية وعسكرية، مثل ضعف الصليبيين النسبي وتشنج العلاقات بين الدول الصليبية نفسها، وخلافات إماراته الصليبية وقواعده الاستيطانية في فلسطين. لم يستطع هذا الغزو أن يحقق أهدافه الرئيسية فعمد الصليبيون إلى الإستراتيجية والإستراتيجية العليا يفتشون عن مخرج لهم، فكان أن بدأت مفاوضات خبيثة بين الصليبيين والمملكة المغولية التترية مرت بخمس مراحل.

ففي المرحلة الأولى عام ١٢٤٥م شهدت عاصمة دولة التتر الشرقية قراقورم قدوم (جون ده بياني كابريني) مندوب البابا (إينوسنت الرابع) لإقناع التتار بتحويل مطامعهم عن أوربا، إلى البلاد العربية.

وفي المرحلة الثانية عام ١٢٤٨-١٢٤٩م توقفت في قبرص شتاء حملة (لويس التاسع) المتجهة إلى مصر كي تكمل استعداداتها، عند ذلك ظهرت أول نتائج المرحلة الأولى فقد استقبل (لويس المذكور) بعثة جغطاي (خاقان التتار) انتهت مباحثاتهما بتحالف صليبي تتري ضد العرب، وعادت البعثة وبصحبتهما بعثة فرنسية بغية التنسيق العسكري بين الجيشين.

ونستنتج أن هذا التنسيق كان يفترض قيام لويس بغزو مصر والتتار بغزو العراق وسورية وفلسطين فيحرم المشرق العربي من الاحتياط الإستراتيجي الأخير وهو في مصر، وفي آن واحد يحرم المصريون من هذا الاحتياط لدى السوريين.

وفي المرحلة الثالثة: هزم لويس فتحطم التخطيط الاستعماري بضربة عربية قاصمة وعاد الصليبيون للمناورة السياسية على مستوى إستراتيجي.

ففي سنة ١٢٥٢م اتجه إلى عاصمة دولة التتار الشرقية (قراقورم) وفد فرنسي برئاسة (جنيوم ودبروك) واستمرت المفاوضات خمسة أشهر كاملة في بلاط (منكوقا آن) (خان التتار) حتى وصلوا إلى الاتفاق العسكري للهجوم بعد جهود ومطارحات كبيرة.

وفي المرحلة الرابعة: لجأ الصليبيون إلى استخدام ثقل الأقليات المقيمة في دولة التتار الموالية لهم وهم الأقلية النسطورية، كما لجؤوا إلى استغلال (دوقوز خاتون) إحدى زوجات (هولاكو) وهي من النساطرة ونفوذها العاطفي عليه كبير.

وانتهت المفاوضات بين الطرفين الوفد التتري برئاسة (هولاكو) والوفد الصليبي برئاسة (هيتوم) ملك أرمينية على الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط. ويجدر بنا أن ننوه بأن (هيتوم) كان يفاوض باسمه وباسم (بوهيمند) ملك (إنطاكية) وبعد كل هذه الطرق السياسية والأساليب الدبلوماسية، نجح الصليبيون بإقامة تحالف إستراتيجي ضد العرب.

ب - الاجتياح:

العراق: اجتاح التتر الدولة الخوارزمية في فارس. وأصبحت بغداد قاب قوسين من الاحتلال، ودار الصراع بين تاج الدين بن صلايا نائب الخليفة وتاج الدين بن الدويدا والحملاوي والفدائية العربية شمس من جهة والخليفة المخدوع ووزيره العلقمي من جهة، الذي خان أمته وباع وطنه.

وانتهى الصراع بخدعة كبرى قتل فيها الخليفة وثلاثمئة قائد، وباستباحة بغداد وتدميرها وقتل ٨٠٠ ألف من سكانها[١].

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية في التاريخ، القاهرة، المطبعة السلفية والسعادة والخانجي، ط١، ١٩٣٢م، ج١٢، ص ٣٢٤.

- **بلاد الشام:**

كان للحرب النفسية دور خطير في احتلال القطر السوري، فقد سبقت أخبار هولاكو (كما سنبين في الخطط التترية) زحفه إلى بلاد الشام، وأتبعها برسالة إلى الملك الناصر يحذره فيها ويوهمه، أن احتياط بلادك الإستراتيجي (مصر) قد انتهى بقوله في رسالته: (وقد بلغنا أن تجار الشام وغيرهم انهزموا) «فروا بأموالهم إلى (كروان سراي) محط رحال المسافرين – مصر» فإن كانوا في الجبال نسفناها، وإن كانوا في الأرض خسفناها).

وأعقب رسالته بهجوم خاطف عبر الفرات، وبعد تقدير علمي للموقف، تبين للقادة العرب السوريين أن الحل الأفضل للقضاء على هذا الغزو الاستعماري هو الانسحاب إلى غزة. والتكاتف مع الاحتياط الإستراتيجي المصري فانسحبوا إلى غزة، وبدأت المشاورات العربية (السورية – المصرية) في قلعة الجبل وانتهت بتوحيد الجيش العربي (السوري – المصري) وانسحب الجيش السوري بعد أن أبقى مفارز لعرقلة تقدم التتار ويجب أن ننوه أنه (كان في القطر السوري أكثر من ملك وأمير) فالملك المعظم توران شاه أمير حلب والملك المنصور صاحب حماة والملك الناصر صاحب دمشق وغيرهم. وانضم الملك الناصر صاحب دمشق والمنصور ملك مصر أيضاً[(١)].

أما هولاكو فقد تابع اجتياز الفرات فسقطت حلب في المحاولة الثانية بعد صمود شعبي كبير سنة ٦٥٥ هجرية، وبعد أن أسر التتار من سكانها ١٠٠ألف مواطن. وحاول هولاكو أن يستخدم الأسلوب نفسه مع مصر فأرسل رسالة إلى ملك مصر (الملك المنصور).

- **الصراع في مصر:**

تولى الحكم في مصر الملك المنصور (علي بن أبي عز الدين أيبك التركماني) بعد مقتل أبية مراهقاً. فالتف حوله المماليك وأصحاب المأرب، ولكن

---

(١) جمال الدين حماد، معارك الإسلام الكبرى، طبعة مصر ١٣٧١هـــ، ص١٨٠-١٨١.

نائبه قطز كان غير ذلك فحين وصلت رسالة هولاكو إلى الملك (المنصور ملك مصر) وافق على شروطها مع مماليكه، ولكن إرادة الشعب رفضت الذل والهزيمة، وعبرت بتظاهراتها الاحتجاجية على رفض هذا الاستسلام، ووجدوا في نائب القائد العربي (سيف الدين المظفر قطز) نواة يلتمون حولها ومما ساعد المظفر قدرته الخطابية، وقدرته على القيادة، فاستولى على الحكم في مصر، واستطاع أن يحبس الملك وحاشيته في سجن القلعة، وتعاون مع كل الفئات في سبيل النصر، فضم إلى جانبه منافسه الأكبر زعيم المماليك (بيبرس)، ولعل أكبر برهان على ذكائه وقدرته القيادية ما أبداه في سياسة رائعة بأن أمَّمَ الأراضي والضّياع والمملكات والأموال وأبقاهم إلى جانبه في القتال إلى آخره.

ملحمة عين جالوت

آ الخطة اللوجستية

بعد أن أصبحت مقاليد الأمور في يد القائد (سيف الدين المظفر) أعد البلاد اقتصادياً (بأن يأخذ في أسباب جمع الأموال فأخذ من أهل مصر والقاهرة عن كل رأس من الناس ذكراً أو أنثى ديناراً واحداً وأخذ من أجرة الأملاك والأوقاف شهراً واحداً، وأخذ من أغنياء الناس والتجار زكاة أموالهم معجلاً وأخذ على الغيطان والسواقي أجرة شهر).

وأمن لكل جندي عربي صولقة (مزوّدة) تغلق على جانبه الأيمن يتناول فيها طعامه المكوّن من قطعة لحم وبقية الوجبة، واهتموا أثناء رسم الخطة الإدارية هذه بالاقتصاد بالمؤن والتعيينات لصرفها حين الحاجة وأرسل المظفر إلى المنصور صاحب حماة يقول: (لا تحتف في مد السماط (مائدة) بل كن واحداً من أصحابك يفطر على قطعة لحم في صولقة (مزود) وذلك حتى يحيا الجند حياة جدية استعداداً للقاء الأعداء[1]. ممّا يدلّ على وعي إداري علميّ.

---

(١) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، المذكور في كتاب معارك العرب ضد الغزاة للمؤلف محمد عماره، ص١٣٣.

كما أقام المصانع لصنع الأسلحة من منجنيقات وسيوف ورماح وأقواس ونبال وحول الصناعات كافة لمصلحة الحرب. فأصبحت مصر بذلك مُصنِّعاً لكل صنف، كما اشترى البغال والإبل والجياد من أصحابها لصالح المعركة فأمن لذلك أدوات النقل ووسائطه، كما رسم في خطته هذه الاستفادة من منطقة الأعمال المقبلة للتأمين الإداري والمعاشي.

ب- الخطة النفسية:

إن بداية الحرب النفسية المعاكسة ضد المغول كانت فردية في البداية مثل تقديم الفدائية العربية البطلة شمس كهدية إلى هولاكو كي تقضي عليه، وأقدمت على محاولة ضربه بخنجر كانت تخفيه في ثيابها لكنه كشفها فأمرها أن تكتب على صدر البطل العربي زنكي كلمة (عربي) بخنجر أكثر رهبة فأحجمت عن ذلك، فاندفع زنكي ومزق صدره وهو يكتب عليه كلمة عربي حتى أغمي عليه.

وتتابعت الحرب النفسية المعاكسة، في قتل المغول الخمسة الذين جاؤوا برسالة هولاكو فأسفهوا بالكلام، فقطعت رؤوسهم ووزعت على المحافظات بعد تعليقها على باب زويلة، وأبقوا واحداً منهم كي يصف للعدو التتري إصرار العرب على القتال بأن أطلقوه إلى هولاكو، وواضح أن الهدف من ذلك هو بث الرعب في قلوب العدو، وإضعاف قواه المعنوية، وتبديل الصورة في مخيلات جنده.

ولعلَّ الخدعة العربية التي أقدم عليها بيبرس عندما قتل مئة من جند الصليبيين الذين أُرسلوا إلى هولاكو كي ينضموا إليه وألبس لباسهم لمئة من جند العرب وأرسلهم مكانهم ليصبحوا بمثابة بؤر للرعب من العرب عن طريق بث الشائعات، والتحدث عن البطولات العربية، فيغرسوا بكل ذلك هيبة العرب في نفوس التتار، ثم لسبب أهم هو الإغارة على التتار من الخلف بعد أن يضرموا بالمضارب المعادية النار ويرموهم بالمنجنيقات التترية نفسها.

هذا عن الحرب النفسية المعاكسة أما عن إعداد العرب نفسياً، فقد أثيرت الحمية القومية العربية بإبراز أكبر معاني الشجاعة والوفاء والمروءة، ومآثر العرب بالمحاضرات والخطب والدروس التاريخية فأذكوا في نفوس الجند الحماس لاسيَّما حين انخرط القادة بين الوحدات يستمعون ويوجهون، حتى أتت الحملة النفسية العربية أكلها بأن أعلن العرب قرارهم إلى القادة ثم إلى الجند وهو الهجوم أولاً وعلى الفور. وقد سبق كل ذلك بث الدعاة والخطباء في المدن والقرى يدعون الشعب للتطوع والتبرع. وهكذا فقد طبَّقَ العرب منذ القرن الثالث عشر أغلب النظريات العلمية الحديثة في علم النفس فكان نجاحهم على حيز العمل أكبر من التخطيط النظري[١].

ج خطة المسير:

جهز العرب بقيادة الملك سيف الدين قطز جيشهم ورسموا خطة تحركهم وترتيب ما قبل القتال لجيشهم فأخذوا نظام الأرتال وقسّموا الجيش إلى مجموعات – كما حددوا نقاط الاستراحات للجند في – الريدانية – الصالحية – ثم حسب تطور الموقف وأرسلوا مجموعة رأس بقيادة بيبرس نفسه.

ملحمة عين جالوت

آ المرحلة الأولى:

أعد العرب جيشهم ورفعوا قواه المعنوية، وجهزوه بالسلاح والمؤن، ونظموه تنظيماً جيداً، ثم قدروا الموقف تقديراً دقيقاً وفق معطيات الزمان والمكان فقرروا الخروج لملاقاة العدو:

---

(١) جمال الدين حماد، معارك الإسلام الكبرى+ محمد عمارة، معارك العرب ضد الغزاة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، دار.ت بيروت، ص١٣٤.

أولاً لرفع الروح القتالية: وحدوا الجيشين في جيش واحد وقرروا أن تبدأ الحرب بمناوشات (كَرٍّ وفَرٍّ) لاستنزاف قوات العدو، وأن يهجموا على مجموعات صغيرة بقوات كبيرة وفقاً لأعظم مبدأ من مبادئ الحرب الحديثة وهو مبدأ الحشد والاقتصاد بالقوى والوسائط ومبدأ آخر وهو المفاجأة،وقرروا الاستعانة بالسكان المحليين في مناطق القتال العربية لا سيَّما الفلاحين والعمال الفلسطينيين في أرض العمليات المباشرة فاتفقوا معهم ونظموا أمرهم وحسبوا في المرحلة الأولى للخطة تحييد المستعمرات الصليبية المستعمرة أو الباقية في أجزاء من ساحل المتوسط الشرقي وعد قبول الصليبيين كأنصار أو معاضدين خوفاً من خياناتهم، وقرروا أيضاً الموت أو النصر، وكانت كحسابات تعدل وفق المواقف الجديدة.

ب المرحلة الثانية:

نفذت المرحلة الأولى بنجاح فقد تمّ الإعداد الكامل وانتهوا من مرحلة المسير وبدؤوا بالاشتباكات مع العدو وفق مبادئ الحرب المعروفة، ونظموا تعاونهم مع السكان المحليين وانتهت المرحلة الأولى عملياً بتحييد الصليبيين وهزائم جزئية للتتر انتهت أيضاً بتجمعهم من جديد عند نهر العاصي في البقاع وتقدموا باتجاه الجنوب بينما قرر العرب العسكرة بجيشهم البالغ تعداده (٧٧) ألف مقاتل كي يكسبوا موقعاً قتالياً ملائماً ؟! وليدبجوا جنودهم استعداداً لمرحلة القتال القادمة وبعد استطلاع القادة لمختلف الأماكن قرروا أن يعسكروا في مكان توافرت فيه ما أرادوا من شروط، حيث جعلوا مستنقعات عين جالوت ونهر الأردن يحميان جناح الجيش العربي الأيمن كحاجز مائي طبيعي وهذا ما يحول دون التفاف العدو عليهم من هذه الناحية ويضعف قدرة التتر على المناورة، وليؤمنوا مورداً مائياً للجند والخيل.

وقرروا وضع المؤخرة بعد فرجة ضيقة يمكن لخيالة التتار أن يعبروها لخلوها من المستنقعات وقرروا إقامة نقاط استناد خلفية محكمة على شكل

جيب من النبالة ورماة المنجنيقات، بحيث تطالهم قذائف العرب وسهامهم، وخلف نقاط الاستناد هذه حشد احتياط القيادة الرئيسي وهم من المشاة العرب السوريين، وهدفهم الانقضاض والإجهاز على خيالة العدو بعد دخولهم الفخ المرسوم، ووُضِعتْ الخيالة المصرية خلف هذا الاحتياط لنجدة النقاط التي يحدث فيها خرق ولزجها بحسب ضرورات المعركة.

ج المرحلة الثالثة:

كان قرار القائد العربي المظفر سيف الدين أن يلجأ إلى استراتيجية هجومية دفاعية باستخدام خطة رائعة للدفاع المتحرك، كما أشرنا سابقاً، وذلك بأن تقوم الفئة المؤلفة من مئة فارس عربي لدى العدو ببث الفوضى والتخريب في صفوف العدو ومعسكراته بالتنسيق مع القوات الرئيسية، ثم يُثبت الجناحان الأيمن والأيسر ويتيسَّر للتتار الخرق في القلب حتى إذا ما أصبحوا في النقاط المحددة، يتحرك الجناحان بشكل حلقي ويصليانهم وابلاً من مقذوفات المنجنيقات والسهام(١) والحجارة ثم الانقضاض للإجهاز على جيش العدو المحاصر وتدميره وإن فرت بقاياه، فمطاردتها بالاستعانة بالسكان المحليين. بينما قرر القائد المغولي كتبغا معلم هولاكو، وهو القائد المجرب ذو الخبرة القتالية العملية، أن يعيد تنظيم قواته لهجوم ساحق كعادته ثم يدخل القاهرة براً بوعد قطعه على نفسه لملكه هولاكو عند توديعه لدى عودته إلى بلاده بعد قيام ثورة على حكمه بعد موت أخيه (ناخومان) ويمكننا أن نصف ما كان يدور في مخيلة القائد المعادي كتبغا في هذه المرحلة:

إن كتبغا كان يعتمد على الهجوم الصاعق الذي تسبقه حرب نفسية تعادله إن لم نقل تفوقه، وفي هذه المعركة فوجيء كتبغا بانسحاب مقدمة جيشه التي تمثل مجموعة استطلاع قتالية له وأحس للمرة الأولى أنه أمام شيء آخر.

---

(١) محمد لبيب البوهي، قاهر التتار، ص٢٧١-٢٧٨.

والعامل الثاني هو انشغاله الباطني بالثورة ونتائجها في بلاده، وحاول أن يذكي شجاعة جنده بأن وعدهم بإباحة القاهرة لهم سبعة أيام، وأثار فيهم أيضاً الولاء القبلي إذ قال: (يجب علينا أن نفي بنذر هولاكو). ويعني اجتياح القاهرة. إذاً فقد قرر كتبغا استغلا العامل القبلي وعامل الترغيب بالغنائم وقرر أن يستغل كل ظرف لصالحه بحسب تطور ظروف القتال. الفرق الجوهري بين القرارين اتصاف القرار الأول بالحذر والدقة نتيجة للمقومات المتوفرة عن قوة العدو وانتصاراته، واتصاف القرار الثاني بالغرور بالإضافة إلى القلق النفسي الداخلي - نتيجة للانتصارات العديدة والقلق نتيجة لانكسار مقدمته والثورة في بلده ومعسكراته.

د المرحلة الرابعة:

حدد القائد العربي سيف الدين يوم وساعة بدء القتال في الساعة الخامسة من يوم الجمعة ٢٥ رمضان ٦٥٨ هـ الموافق الثالث من أيلول عام ١٢٦٠م(١)، وتم التنفيذ بأن قُذفت معسكرات التتر ومواقعهم بالمنجنيقات من كل جانب بالتعاون مع مجموعة القتال خلف خطوط العدو التي أفلتت الخيول المغولية وبدأت بضرب المغول أنفسهم بالمنجنيقات فذعر التتار وشنوا هجوماً عاصفاً باتجاه الجيش العربي واخترقوا الوسط، فوقعوا في الكمين المعد سابقاً تحت وابل من مقذوفات العرب تبعها هجوم عربي ساحق لقي مقاومة عنيفة جرح خلالها القائد العربي.

فاستغل كتبغا هذا الحدث لحرب نفسية جديدة فأشاع موت القائد العربي فكادت تعلق النتيجة ووصلت القلوب الحناجر واستمرت المعركة سبع ساعات متصلة، انهار فيها التتار أمام هذا التكتيك الجديد، فقرروا الانسحاب، وحين اشتد الضغط عليهم فروا من ساحة القتال بأن شقوا طريقاً في الطرف الأيمن

---

(١) انظر ذيل مرآة الزمان ٣٦١/١.

للعرب فتعقبهم العرب، ووقعوا أمام الكمائن التي أقامها العرب الفلسطينيون أي السكان المحليون. فلم ينجّ من هذه المعركة إلا عدد ضئيل إذ استمرت المطاردة حتى العراق ولم تتجاوز المطاردة ذلك خوفاً من انقضاض الصليبيين على مؤخرتهم فعادوا.

هـ الخاتمة:

إن السبب الرئيسي في هذا النصر ليس السلاح أو الخطة أو القائد بقدر ماهو الفرق بين الهدف الذي كان يقاتل من أجله الجندي العربي والهدف الذي كان يقاتل من أجله الجندي المغولي ووضوح الهدفين، فقد كان المغولي يهدف إلى كسب غنيمة ورفع شأن قبيلة، بينما كان الجندي العربي يدافع عن وطنه بكل ما في هذا الوطن من أهل وديار وأملاك، ومعانٍ عاش لها من كرامة ووطنية إلى شجاعة ومروءة ووفاء، وعامل ضم كل ماسبق وهو الوحدة التي جمعت العرب من مزق تلهو بها رياح السموم في جبهة قوية صلدة أمام كل غازٍ ورادع لكل عدو. وما عين جالوت في القرن الثالث عشر وذي قار في القرن السابع إلا نبراساً يضيء لنا طريق التحرير، فكأني بأمتي في مخاض عين جالوت جديدة لتحرير فلسطين.


الهيئة العامة
السورية للكتاب

البَابُ الثَّالِثُ

السياسة والحرب في بلاد الشام

فيما بين الحربين العالميتين


الهيئة العامة
السورية للكتاب

الفَصْلُ الأَوَّل

إعــلان الثـــورة

أولاً: مبايعة الحسين بن علي ملكاً على العرب:

كان الأتراك يعتبرون القائمين بالثورة عصاة خارجين على القانون، وكان الحلفاء ينظرون إليهم كثوار لا أكثر، وفي هذا ما فيه من الخطر على مستقبل الأمة، فكان لا بد من إعلان استقلال البلاد العربية بأجمعها والبيعة للحسين بن علي ملكاً على العرب[1]، فتذاكر الأمير عبد الله مع زملائه الوزراء[2] - ما عدا الأميرين علياً وفيصلاً اللذان كانا في الجبهة - وقد حضر المذاكرة الشيخ عبد الله سراج قاضي القضاة ونائب رئيس الوزراء، والشيخ يوسف قطان وزير النافعة، وحافظ محمد أمين أفندي ناظر الأوقاف، وعزيز علي المصري رئيس أركان الجيش العربي، وعلماء مكة ومفتيها، ومن حضر من رجالات الشام

---

(١) من اجل التوسع في هذا الموضوع يجب العودة إلى مذكرات الملك عبد الله بن الحسين في الآثار الكاملة ص ١٣١.

(٢) شكلت هذه الوزارة بعد الثورة برئاسة الأمير علي بن الحسين وكان من أعضائها: الأمير فيصل وزيراً للداخلية والأمير عبد الله وزيراً للخارجية وعزيز علي المصري وزيراً للحربية ورئيساً لهيئة الأركان، ولكن لم يمارس احد من هؤلاء مهام وظيفته ممارسة فعلية بسبب انهماكهم في الحرب. (راجع: الحركة العربية، سليمان موسى ص ٢٨١).

والعراق الذين منهم: الشيخ كامل القصاب والسيد محب الدين الخطيب وآل البكري والشيخ فؤاد الخطيب – وكان معاوناً للخارجية – وآل الداعوق والضباط العراقيون... **فوافقوا جميعهم على الرأي وألحوا على السرعة في التنفيذ.**

فدخل الأمير عبد الله على والده وعرض عليه الأمر فرفض الشريف حسين بشدة قائلاً: « أنا لا أعمل للمُلْك ولا أقبل هذا الأمر الذي تعرضونه علي ». فتقدم منه ولثم ركبته وقال: « هذه العريضة مقدمة من عظماء الحجاز ومن حضر من سائر بلاد العرب وهم يلتمسون قبول عرضهم ». فقال: « ليس عندي سوى ما قلته لك ». فقال: « لسنا جميعاً على استعداد لخدمة الثوار إلا على شرط قبول ما عرضناه، فاعمل ما تشاء مع سوانا». فقال: هل بلغت بكم الحال إلى هذه الدرجة ؟ فقال: نعم. فقال: قف، فوقف، ثم أمر بحضورهم جميعاً. فلما جاءوا سألهم: أصحيح ما يقول ؟ قالوا: لا يجرؤ أحد على أن يعرض على سيدنا ما لا صحة له. قال: هل عزمتم على عدم الاستمرار في الثورة إن لم أقبل ما عرضتموه ؟ قالوا: نعم سننسحب كلنا، فقال: أفعلوا ما شئتم والتبعة عليكم، فأنني أقبل ما عرضتموه منفذاً لرغبتكم لا موافقاً عليها. قالوا: إذن وفقك الله، وستكون البيعة يوم الاثنين أول محرم سنة ١٣٣٥ الموافق ٢٨ تشرين أول عام ١٩١٦ في المسجد الحرام، **فقال: على بركة الله.**

كانت البيعة عامة. وقف الناس يبايعونه من ضحوة النهار إلى أن أذن الظهر، أربع ساعات كاملة. وبعد أن عاد إلى القصر الملكي ودخل الحجرة الخاصة، تقدم الأمير عبد الله مهنئاً وقال: « **هذه البيعة العلنية، أما البيعة السرية** فكانت والأتراك في البلاد، وقد أخذتها من أحد عشر ألف رجل بمكة، كلهم بايعني على أن اختار لهم ملكاً هاشمياً يسير بهم على ما أمره الله ورسوله، وكانت بإذن جلالتك ». فقال: « تذكرت.. تذكرت » ثم أبرق الأمير عبد الله بصفته وزيراً للخارجية لكل وزراء الخارجية من دول الحلفاء والدول المحايدة، وأبلغهم بما تم. واستمر العمل ذلك اليوم من بعد الظهر إلى ما بعد منتصف الليل، وكان يساعده في ذلك الشيخ فؤاد الخطيب.

وفي اليوم الثاني طلب المعتمد البريطاني العقيد ولسن والمعتمد الفرنسي العقيد بريمون مقابلة الأمير عبد الله وزير الخارجية فظن أنهما سيقدمان إليه التهنئة على ما وقع، وإذا بهما على عكس ذلك يقولان: « لم فعلتم هذا الأمر قبل الرجوع إلى رأي حلفائكم ؟ » فقال لهما: «عجيب ما تقولانه... إننا نقاتل بسيوفنا في سبيل الله وإعلاء كلمته وإرجاع حقنا القومي إلى نصابه، فمن ساعدنا وأيدنا فهو صديقنا، ومن نكص عنا، وأحب أن يفت في عزائمنا فهو لا يريد بنا الخير، ونحن لا نسفك الدماء إلا في حقها، فإذا رأيتم أننا على خطأ فأنتم تضمرون لنا غير ما تعلنون. وإنني لانتظر رد حكوماتكم، لا ردودكم الشخصية، أنا أعتقد أن الترك وحلفاءهم اليوم سيقرون ما فعلناه ويقبلون الصلح وهذا أمر نحبه »... فقالوا: هل تشك سموك في إخلاصنا ؟ قال: « لا، ولكن نحن أعلم بما ينبغي لنا أن نفعله من أجل القضية العربية[١]».

وفي اليوم الثاني جاء الرد من السيد ستورمر وزير خارجية روسيا القيصرية، وقد اعترف باستقلال البلاد العربية وبملكية صاحب الجلالة الهاشمية الحسين بن علي ملكاً على الأمة العربية، مقدماً تحيات جلالة القيصر نيقولا الثاني إلى جلالته وتحياته هو إلى الأمير عبد الله وزير الخارجية وإلى الحكومة. فبلغ الأمير عبد الله هذه البرقية إلى دول الحلفاء قراءة. فقال العقيد ولسن: أتعد هذا اعترافاً منه ياسمو الأمير ؟ فقال: وكيف يكون الاعتراف أذن ؟ فقال: « تكرم إذا بقبول تهاني الشخصية على أن أقدم التهاني الرسمية بعد تلقي الإعتراف من حكومتي[٢]».

---

(١) لا شك أن الحلفاء الانكليز والفرنسيين لم يكونوا أبداً راضين كل الرضى عن المبادهات التي كان يقوم بها قادة الثورة العربية من حين لآخر والتي تخدم المصلحة العربية أو لأنهم كانوا يريدون من الثورة العربية أن تكون بالنسبة لهم مثل الصقر يصطاد الحبرية ولا يأكل منها شيئاً.... ولذلك كانت مساعداتهم للثورة أقل من القليل.

(٢) المرجع السابق ص ١٣٣.

وبعد مباحثات بين الحكومتين البريطانية والفرنسية، اتفقا على الإعتراف بالشريف ملكاً على الحجاز فقط ومخاطبته بلقب « صاحب السيادة » وليس بلقب «صاحب الجلالة» وفي ١٠ كانون الأول ١٩١٦م أرسل ولسن وبريمون جواب حكوميتها على هذا الأساس. **وقد جاء في رسالة الحكومة البريطانية ما يلي:**

« إن الحكومة البريطانية وحكومتي فرنسا وروسيا – مع أنها تعتبر وستظل تعتبر سموكم الرأس الأسمى للشعوب العربية في ثورتها ضد الحكم التركي الظالم – يسرها علاوة على هذا أن تعترف اعترافاً واقعياً بسموكم حاكماً شرعياً مستقلاً للحجاز – ولكنها في الوقت الحاضر لا ترى أن الفرصة مناسبة لاتخاذ لقب بمعنى الملك الذي قد يكون سبباً لتفريق كلمة العرب وتفكيك عرى جامعة الاتحاد بينهم في مثل هذه الظروف، ومن ثم قد يؤثر تأثيراً سيئاً على تأسيس جزيرة العرب تأسيساً سياسياً وبشكل نهائي على أساس متين ثابت الأركان[١]».

ثانياً - استئناف الجهاد:

قرر القادة العرب أن يبادروا إلى مهاجمة المدينة من الغرب والشرق بعد استسلام حامية الطائف في أيلول، وكانت هذه الخطة تقضي بأن يزحف الأمير عبد الله بقواته من الطريق الشرقي، ولكن عدم وجود المياه على تلك الطريق اضطرته إلى تأخير الزحف حتى شهر تشرين الثاني موعد نزول الأمطار.

---

(١) راجع النص الكامل للرسالة في المراسلات التاريخية عدد ٦٠ ص ٩٣ – ٩٤، وراجع أيضاً رسالة الملك حسين إلى رنجت حيث يدافع عن هذه المبايعة وهذا اللقب بتاريخ ١٣/١٢/١٩١٦ – المراسلات التاريخية – العدد ٦١ ص ٩٤ – ٩٦. وراجع رسالة الشيخ رشيد رضا إلى الملك حسين من القاهرة بتاريخ ١٨ / ١٢ / ١٩١٦ يهنئه بإعلان نفسه ملكاً على العرب – المراسلات التاريخية – عدد ٦٢ ص ٩٦ – ٩٧.

وهذا هو السبب ذاته الذي كان يضطر الأتراك إلى محاولة الزحف على مكة عن طريق الساحل حيث تتوافر المياه[١].

وعلى الرغم من تفوق القوات التركية النظامية في المدينة، فإن فخري باشا لم يستطع اختراق سلسلة التلال المشرفة على الشاطئ بسبب عجزه عن تأمين خط مواصلاته. وقد اندفع في إحدى الهجمات حتى أشرف على ينبع ولكن رجال البدوا هاجموا خطوطه الخلفية وعرقلوا مواصلاته وأخذوا ينهبون قوافله. وبعد مرور حوالي الشهرين اضطرت القوات التركية إلى الانسحاب من مواضعها بصورة تدريجية. وذلك ليأسها من التغلب على العشائر وتأمين مواصلاتها.

كما أن عجز فخري باشا عن تأمين المياه الكافية لرجاله ودوابه كان سبباً مهماً من الأسباب التي أجبرته على التراجع بل السبب الوحيد على حد قوله.

ففي تلك الحرب كان الأتراك يتفوقون على العرب بقواتهم النظامية ومدفعيتهم وأسلحتهم، ولكنهم كانوا يحاربون في بلاد وعرة صحراوية جافة لا يوجد فيها مياه إلا في أماكن متباعدة. وأهم من هذا أن أهل البلاد كلهم كانوا يقفون ضدهم وهم أعرف بالأرض منهم وأخف حركة، مما يسهل عليهم التنقل أفراداً وجماعات بين الشعاب والأودية، بينما كان الأتراك لا يستطيعون السير إلا في مجموعات كبيرة وكانت أسلحتهم الثقيلة معهم محملة على الدواب. هذا كله جعل المهمة شاقة على كلا الطرفين المتقاتلين.

اسندت إلى الأمير عبد الله مهمة قيادة الجيش الشرقي العربي مرة أخرى. وكان القوام الأساسي لهذا الجيش لواءين من الهجانة المدربين، ولواء من الخيالة ومعهم بطارية مدفعية جبلية، إضافة إلى عشائر عتيبة وعشائر مطير وعشائر حرب وعشائر هتيم، ولدى الوصول إلى بلاد جهينة وبعد إتمام التجهيزات توجه في العشرين من شهر صفر، ونزل وادي الليمون. وكانت

---

(١) راجع بالنسبة لهذه الفقرة كلها مذكرات الملك عبد الله كما جاءت في الآثار الكاملة ص ١٣٣ - ١٣٤.

قوات الأميرين علي وفيصل في رابغ وينبع تحت ضغط شديد من فخر الدين باشا. وكان الشيخ حسين بن مبيريك شيخ رابغ قد التحق بالقوى التركية وأقام ببعض عشائره في حجر – موضع بأرض وعرة شرقي رابغ وعلى طريق خلص فعسفان – وعلى هذه الصورة كانت الطريق مفتوحة لقوات فخر الدين باشا. فأسرع الأمير عبد الله بالمسير، ولما وصل إلى البركة – منزل للحجاج في الطريق الشرقي – تلقى أمراً من القائد العام، الأمير علي بن الحسين، يخبره فيه بأن الأمير فيصل في ضيق شديد بينبع. وأنه يتوقع هجوم فخري باشا عليه في أية لحظة وخاصة لدى مروره على طريق خلص إلى مكة، ولهذا يأمره بالرجوع إلى مكة، ومنها يجب أن يغذ السير إلى عسفان لتشكيل جبهة جديدة تدافع عن مكة، ويقول إنه إن لم يفعل هذا فربما قطعت عليه خط الرجعة، فيضمحل الجيش بدون أن يحقق أية مهمة ناجحة.

ولما كان الأمير عبد الله يعلم جيداً أن في تنفيذ هذا الأمر انفراط أمر العشائر التي تساند الثورة العربية الكبرى قام بما يلي وعلى مسؤوليته[١]:

بعث الشريف فوزان الحارث بألف وخمسمائة هجان مردوفة. وأمره بان لا يصبح الصبح إلا ويكون قد احتل حجر واستأصل حسين بن مبيريك واجتثه من جذوره. وبعث بجواب إلى الأمير علي مع رسول إلى رابغ يعلمه فيه بان لا حجر ولا ابن مبيريك بيد الترك بعد اليوم. وبعث الشريف عبد الله بن ثواب الحارثي بمثل تلك القوة إلى المدينة وأمره بأن يشن الغارة على

---

(١) لا شك أن هذا الإجراء الذي قام به الأمير عبد الله يعتبر خروجاً على المألوف في العلم العسكري لأن المبدأ الأساس في الانضباط (نفذ ثم أعترض) ولكن الأمير عبد الله أخذ هذا القرار الجريء على مسؤوليته اللاحقة. ولحسن الحظ أنه نجح في ذلك.... ولو حدث العكس لكان من الممكن أن يعتبر متمرداً على قرارات القائد العام وأوامره ولكن وضوح الرؤية واستشفاف آفاق المستقبل التي كان يتمتع بهما الأمير عبد الله سهلا عليه اتخاذ القرار الصحيح في الموقف الصعب والمعقد.

مخافر الترك بجبل (وعيرة) وجبل (أحد)، وأن يوقد نيراناً كثيرة بالجبال والمرتفعات ويكثر الصياح وأن يأسر كل محتطب أو ذا حاجة أو تاجر من تجار نجد ممن يخرج من المدينة أو يدخل إليها، وأن يطلق سراح الراجعين إلى المدينة بعد أن يتحقق من هوياتهم، وأن يزودهم بكتب إلى العشائر بغربي المدينة ممن التحق بالأتراك والشريف حيدرً، ويهددهم بالصياح إذا هم لم يتراجعوا إلى الأميرين بينبع ورابغ، ويقول لهم أنه في مقدمة الجيش الشرقي وقد نفذ ما عليه، وكأن حجر قد احتلت في الوقت المحدد.

وتوجه الأمير عبد الله بالقوة الرئيسة إلى ناحية (الحناكية)، وأقام بها ثلاثة أيام فالتحقت به هناك كل عشائر هتيم وحرب. وأصبحت القوى حوالي عشرين ألف مقاتل.

ثالثاً - أسر القائد التركي العميد أشرف بك:

توجه الأمير عبد الله قائد الجيش الشرقي بهذه القوى نحو الغرب ليعبر السكة الحجازية ما بين محطتي (أبا النعم) و (هدية). وفي طريقه بالحرة، ولشدة الحر يومئذ وللتخلص من وعورة الحر – [كما يروي الملك عبد الله في مذكراته][1]، تقدم ومعه هجانان، وإذا بقاع صحصح فيه دوحة عظيمة وغدير أفيْح، فأناخ وأمر بشيء من القهوة في انتظار قدوم عناصر استطلاع الجيش وكان كل من رآه هناك ينيخ أيضاً راحلته... ونظراً لتأخر القوة الأساسية قرر أن تكون الدوحة منزلة الظهيرة[2]، وكان عند الأمير عبد الله حينذاك الشريف شاكر بن زيد وخالد بن لؤي والشيخ ناهس الأويبي شيخ مشايخ حرب. وبينما

(١) راجع الآثار الكاملة للملك عبد الله بن الحسين ص ١٣٤ – ١٣٨ وما بعدها.

(٢) منزلة الظهيرة: (استراحة الظهيرة وكانت تعطى للقوات الراجلة بعد مسير ساعات الفجر الأولى وساعات الضحى « ٤ – ٦ » ساعات.

هم جالسون دخل رئيس عشيرة (ولد)، محمد رجا بن خلوي، وأشار إلى الأمير عبد الله بيده فقام إليه، فأشار إلى تل لا يبعد عن المكان بأكثر من خمسمائة متر وقال: هل ترى هذا التل ؟ قال: أراه. قال: إن به قوة تركية. قال: كيف ؟ قال اسمع من هذا الغلام..... وإذا بغلام تتقد عيناه يقول: يا سيدي عان الترك عانهم – أي انظر إلى الترك انظر إليهم باللهجة البدوية – قال: كيف ؟

قال الفتى: « **انني وأخي زمالان للشيخ رجا بن خلوي، ذهبنا في مقدمة القوم نحتش حشيشاً فألقى الترك القبض علينا،** وقال كبيرهم لنا من أنتما ومن هؤلاء القوم ؟ فقلت أنا مبادراً: هؤلاء هتيم وشيخهم سمران بن سمرة ونحن منهم قد بلغه أن الشريف عبد الله نزل الحناكية فرحل عن طريقه لاجئاً إلى خيبر. فقال: لا تكذب، فقلت ولم الكذب أطلقني إن أردت واحتبس أخي وأنا آتيك بسمران بن سمرة، فاحتبس أخي وأطلقني. ولكن عان يا سيدي الترك عانهم » !. فقال الأمير عبد الله: هل رأيت كثرتهم ؟ قال: « هم كثير ولكن نحن أكثر. ابعث بي أدل القوم ».

فانتحى الأمير عبد الله ناحية وقسم الخيل إلى ثلاثة أقسام: القسم الأوسط وعليه الشيخ هوصان بن عفار، والأيمن وعليه أخوه الشيخ راقي بن عفار، والأيسر وعليه الشيخ عبد الله بن مسفر، وأمرهم أن يحيطوا بهذه القوة وأن يوغلوا إلى ما وراءها حتى يقفوا على حقيقة الحال... هل لهؤلاء من مدد أو قوة كاملة ؟!. فتوجهت الخيل، ثم بعث بمشاة العشائر من اليمين بقيادة الشريف خالد بن منصور، وبعشائر هذيل بقيادة الشريف فائز الحارث، وبعث بعشائر ثقيف وابن الحارث وهذيل الشام بقيادة الشريف شاكر بن زيد من لمسيرة، فتبعوا الخيل. ولم تمض إلا دقائق حتى كان الاشتباك الشديد، وإذا برشاشاتهم تلعلع وأصوات الانفجارات تملأ الجو فينعكس صوتها بين وديان الحرة وهضابها، فلم يقف إنسان بمحله بل حملوا حملة صادقة فأبادوا القوة التركية عن بكرة أبيها، وأتوا بقائدها العميد أشرف بك، وبالمدافع

والرشاشات، وبغنائم لا تحصى، وبهدايا إلى الأمير ابن رشيد وإلى الأمير ابن سعود وإلى إمام اليمن، وكان من جملة الغنائم ثمانية وثلاثون ألف جنيه ذهباً عثمانياً، والأطعمة المجففة والبسكويت مما أغنى القوات العربية في الجيش الشرقي أياماً عن الزاد. في وقت كانت بحاجة ماسة إلى كل شيء حتى الملح.

سارت القوات وعبرت السكة قبل أن تأتي قوة تركية تمنع العبور وهي في مفازة خطرة. ثم احتلت القوات العربية ما بين (هدية) و (أبا النعم)، الخط إلى آبار (أبا الحلو) غربي السكة. واستمر العبور أربع ساعات ونصفاً على ثمانية موجات، ثم اقتلعت أعمدة البرق وانتزعت قضبان السكة، وقد كتب أشرف بك مصيره في تقرير علق على قضبان البرق. وكتب الأمير عبد الله كتاباً إلى فخر الدين باشا أبلغه فيه أسفه لما وقع على أشرف بك وحملته. وأبدى عجبه من إرساله تلك القوة بهذه الأموال في بلاد ثائرة، وذكر له أن الثورة ثورة قد انتقلت إلى ما بين الشام والمدينة. وفي هذه الأثناء كان فخر الدين باشا قد تراجع من (ينبع النخل) ومن (وادي الصفراء) ومن (بئر سعيد) إلى (بير درويش). وجناحه الأيمن الذي كان يعمل ضد الأمير فيصل رجع من (بير قاضي) و(سطح الغاير) ومن (برام) و(عبود)

انفجرت إحدى إطارات السيارة فتوقف الموكب لتعميرها فتوقف الموكب لتعميرها، وإذا ببدويين يمران ومعهما بعض ما اشتريا من السوق ببئر درويش، فقال أحدهما للآخر: من هؤلاء ؟ فقال الثاني: هذا عبد الله ابن سيدنا، والآخر لعله فخري بايا. ثم تقدما مسرعين نحوهما، وبعد أن سلما على الأمير عبد الله قالا عن فم واحد: هذا فخري باشا ؟ فقال لهما: « إنه هو » فالتفت إليه أحدهما وقال: « أأنت فخري باشا ؟ » قال: نعم. قال: « أمدد يدك أصافحك، فأنت الشجاع الباسل الذي صدنا عن المدينة المنورة شهوراً عديدة ». فصافحهما، ثم قال للأمير عبد الله « إن هذه لأكبر مكافأة لي من رجلين لا يؤملان مني أي صلة أو جاه، فإذا هي الحقيقة وبهما الشرف لي »، وامتلأت

عيناه بالدمع فقال له الأمير عبد الله: « إنهما من العرب، والعرب أمة شريفة تقدر الرجال حق قدرهم ».

وتم إصلاح السيارة، وتابع الموكب المسير، وإذا بقوة عربية نظامية من راكبي البغال عددها مئتان وخمسون، يقودها القائد شكري بك الشويحي، مصطفة للتحية، وقد جاءت للاستقبال من بئر درويش بأمر من سمو الأمير علي، فالتفت وقال: هذه القوة عربية ؟ قال الأمير عبد الله نعم، فوازن نفسه وزرر معطفه ثم قابل التحية بتحية عسكرية وقال بالتركية: « هرشي اولمش بتمش » أي أن كل شيء حصل وانتهى. وبدا عليه السرور مما رأى، لأنه كان يظن أن العرب لا يحسنون تنظيم أنفسهم.

وصل الموكب إلى المضرب الهاشمي في بئر درويش قبل الظهر بساعة فترجل الجميع، وكانت جموع الناس مجتمعة لترى فخري باشا، فدخل بعد أن صافح الأمير عبد الله قائلاً: إنني سعيد لقبولي في ضيافتكم. واتجه نحو الأمير علي، وكان قد عرفه قبلاً، وكان لقاؤهما مزيجاً من العتب والعداء والبرود. فانسحب الأمير عبد الله من الباب إلى خيمته، وقبل ان يغسل وجهه طلبه الأمير علي للمثول بين يديه، فلما حضر قال له: سعادة الباشا لا يسره فراقك.

وجاءت القوة، وكان في المضرب كبار الأمراء العسكريين والشرفاء ورؤساء البعثات العسكرية المحالفة. ثم جاء المضيافي وقال: إن خيام الضيف معدة. فنهض فخري باشا وهو يقول: لعلها بجوار الأمير عبد الله ؟ فقيل له: نعم. فخرج وخرج معه الأمير عبد الله وفي الطريق قال له: هل يأمر الباشا بأن نحضر إليه من يحب من الضباط الذين كان يألفهم ؟ فقال: أترك هؤلاء الخائنين، لا أريد منهم أحداً. فافترقا كل إلى خيمته. وبعد قليل طلب الأمير علي الأمير عبد الله ثانية فجاءه فقبل رأسه وقال: إن هذه خدمة لا تنسى لك... فقبل الأمير عبد الله يد أخيه الأكبر.

ورغب فخري باشا في السفر عاجلاً. وسافر في اليوم الثاني إلى ينبع بسيارته ومنها بطرادة خاصة إلى المعتقل بمصر. أما الأمير عبد الله فعاد إلى معسكره بالجفر، وأخذت معاملات التسليم تتم وفق الشروط، ثم استدعاه سمو الأمير علي وأمره بالذهاب إلى المدينة المنورة ليتولى حفظ الأمن الذي اختل هناك. فجاء إلى بئر درويش، وبعد مبيت ليلة سافر منها إلى المدينة ومعه العدد الكافي من الجيش الشرقي لاحتلال الأماكن المناسبة لحفظ الأمن. ودخل المدينة المنورة صباحاً وأم المسجد النبوي، وكان شعوره الروحي في درجة يعجز الإنسان عن وصفها.

ثم نزل في مركز القيادة العثمانية، وكان الحرس من الأتراك، وكان يجلس معهم للفطور والغداء والعشاء، وأصبح قائداً مسئولاً عن الجبهتين المسلِّمة والمستلِمة، وكأنه لم يحدث أي شيء بين الطرفين. وجرى التسليم وفق الترتيب المقرر، وكان ترحيل أفواج القوى الميدانية العثمانية من الداخل إلى الساحل يجري في الأوقات المعينة بالدقة التامة. مع تأمين كل وسائل الراحة الممكنة.

ومن الجدير بالذكر أن الأمير عبد الله حاول استبقاء العساكر في الخدمة العسكرية بالحجاز، ولكن الشوق في العودة إلى أوطانهم غلب عليهم، ولما قال لهم: لا سبيل لكم إلى الذهاب لأوطانكم فوراً إلا بالانضمام إلى الجيش العربي الهاشمي. وإن انتم لم تفعلوا هذا فستنقلون إلى المعتقلات، ومتى تتيسر لكم العودة منها عدتم، وهذا مجهول التاريخ، نكص كل واحد منهم عن السفر، وطلبوا الرجوع إلى أوطانهم، فأعيدوا مكّرمين عن طريق السكة إلى معان فالشام.

ولم يقع من الحوادث المخلة بالأمن شيء يذكر. ثم تم تنظيم أمر الإدارة المدنية وعادت المياه إلى مجاريها، وعين سمو الأمير علي بن الحسين أميراً للمدينة المنورة وشيخاً للحرم النبوي الشريف وقائداً للقوات العسكرية المرابطة فيها.

رابعاً- تحرير الأردن:

كان وصول فيصل إلى الوجه خاتمة مرحلة مهمة من مراحل الثورة وكان في الوقت نفسه مقدمة لمرحلة أهم وتعني الانطلاق إلى خارج حدود الحجاز إلى بلاد الشام. وكان لهذا الانتقال أهمية كبرى من الناحيتين العسكرية والسياسية إذ أن الثورة بدأت تتحول من حالة التوازن الاستراتيجي إلى حالة الهجوم المعاكس الاستراتيجي بغية الوصول إلى دمشق قلب العروبة النابض.

أمضى فيصل في الوجه بضعة أشهر بين كانون الثاني وتموز سنة ١٩١٧م يستعد لمعركة تحرير بلاد الشام. وبالإضافة إلى التدريبات المستمرة في معسكره كان يعمل في الوقت نفسه على كسب قبائل بلاد الشام، ولم يكن هذا بالأمر اليسير بسبب المنازعات والعداوات القبلية. ولكن سمعة فيصل وخبرته في الشؤون القبلية ساعدته على التغلب على الصعوبات وكسب أبرز زعماء القبائل في هذه المناطق **ويقول انطونيوس** «... بدأ فيصل يتألف شيوخ القبائل، فتعرف في أناة وصبر إلى تاريخ منازعاتهم واستمع إلى ظلامة كل فرد، ولم يستنكف من أن ينصت لأي واحد منهم مهما يكن حقيراً أو مهذاراً. وإذا كان النزاع يسوى بالمال قدر قيمة التعويض المطلوب وأداه لأهله. فإذا لم يكن الشرف القبلي مما يرد بالمال لجأ إلى التقاليد العربية المتعلقة بالتحكيم والوساطة ووقف من النزاع موقف الحكم المحايد الذي لا يحدوه شيء من غاية سوى مصير الجنس العربي....[1]».

واستقبل فيصل في مقره في الوجه عدداً من شيوخ القبائل أبرزهم عودة أبو تايه شيخ التوايهة وهم بطن من الحويطات قيل فيه أنه « قبيلة في رجل » وقد تم التفاهم بسرعة بين الرجلين وسمع فيصل من عودة ما كان يتمناه في

---

(١) ج أنطونيوس يقظة العرب – ص ٣١٩.

أعماقه ويتلهف إلى تحقيقه فقد عرض عودة مهاجمة العقبة وأبدى استعداده لاحتلالها برجاله[١].

لم يكتف فيصل بما كان يجريه من اتصالات في الوجه بل قرر إرسال سرية من رجاله على رأسها الشريف ناصر بن علي، أشرك معه عدداً من زعماء الشام كنسيب البكري وزكي الدروبي كما اشترك فيها لورنس. وكان لهذه السرية مهام متعددة من أهمها متابعة الاتصالات التي كان فيصل يجريها في الوجه لإعداد الناس في بلاد الشام لمعركة التحرير وجمع المتطوعين والقيام بمناوشات استطلاعية[٢].

وتشير رسالة الشريف ناصر إلى فيصل بتاريخ ٦ تموز عام ١٩١٧م إلى أن جهود هذه السرية قد تكللت بالنجاح التام بل فاق نجاحها ما كان متوقعاً فقد قامت باتصالات واسعة مع عرب بني صخر ومشايخ الكرك والدروز ونوري الشعلان وعرب حوران وبعض زعماء بلاد الشام كما قامت بتخريب عدة أجزاء من الخط الحديدي وقد امتد التخريب إلى نوى في حوران كما نجح الشريف ناصر بمساعدة عرب شرقي الأردن في احتلال العقبة دون خسائر تذكر. **وسنقدم فيما يلي وصفاً موجزاً لاحتلال العقبة**[٣].

اختار الأمير فيصل الشريف ناصر لقيادة الحملة وكممثل له لدى قبائل الشمال، وسارت الحملة تقطع الصحراء شرقاً ثم انحرفت إلى الشمال بعد أن عبرت سكة الحديد حتى بلغت وادي السرحان بعد عشرين يوماً. واتصل

---

(١) سليمان موسى: المراسلات التاريخية عدد ٦٦ ص ٩٩ من تقرير للأمير فيصل إلى ولسن المعتمد البريطاني، وعدد ٦٧، ص ١٠٠، برقية من فيصل إلى والده الملك حسين.

(٢) سليمان موسى: المراسلات التاريخية المذكورة. عدد ٧١. ص ١٠٣ – ١٠٤. تقرير من الأمير فيصل إلى الملك حسين.

(٣) المرجع السابق عدد ٨٣، ص ١٢٥ – ١٢٧.

ناصر وعودة بقبائل تلك الأنحاء وتمكنا خلال أسبوعين من تجنيد أكثر من ٥٠٠ متطوع أكثرهم من الرولة والحيوطات ثم زحفا بهم غرباً. وقد أغارت مجموعة من هذه القوة على خط سكة الحديد إلى الجنوب من معان. ولم تجد القوة أن في مقدورهما مهاجمة معان نفسها ولكنها اشتبكت يوم ٢ تموز في معركة عنيفة مع كتيبة تركية في موقع (أبو اللسن) غربي معان. ولأول مرة في تاريخ الثورة قام البدو بمهاجمة مواقع قوة نظامية جيدة التسليح هجوماً مباشراً في وضح النهار. وسرعان ما أسفرت المعركة عن مقتل ٣٠٠ من الأتراك ووقوع ١٦٠ أسيراً في أيدي العرب ولم يتمكن من النجاة إلا عدد قليل من أفراد الكتيبة التركية(١). ولا شك أن هذا النصر يعتبر نموذجاً رائعاً لأساليب العرب في حرب العصابات(٢).

وبادر العرب للسير مباشرة بعد انتهاء المعركة باتجاه الغرب على الرغم من افتقارهم إلى الطعام الكافي وكان القيظ شديداً وقاسياً وارتفع الصياح بين المتعبين اللاغبين يسألون الراحة ولكن عودة أبو تايه أصم أذنيه دون تلك الصيحات وقال إن التأخر عن مهاجمة العدو قد يؤدي إلى الموت جوعاً وحث رجاله – دون هوادة – على المسير، وخلال الأيام الثلاثة التالية استولوا على

---

(١) سليمان موسى: الحركة العربية. ص ٣٠١ – ٣٠٢.

(٢) جاء في التاريخ الرسمي للحرب في انكلتره وصفاً حسياً لهذه الإغارة: « عند الغروب جمع عودة خمسين خيالاً في جوف واد على بعد ٢٠٠ ياردة من الموقع التركي وقام بهجوم مباغت، فتضعضع الترك، وعندئذ انحدرت إليهم بقية العرب على الجمال من أعلى التل، فانتهت المعركة في خمس دقائق، وأحصى النقيب لورنس ٣٠٠ قتيل من الأتراك في الميدان واستطاع بما بذله هو والشريف ناصر من جهود أن ينقذ من الموت ١٦٠ رجلاً ويأخذهم أسرى. أما العرب فقتل منهم اثنان ووقع بضعة منهم جرحى، وذلك هو كل ما خسروه ». التاريخ الرسمي للحرب... العمليات العسكرية في مصر وفلسطين ج١ – ص ٢٤٠.

ثلاثة مواقع تركية وأسروا جنود حاميتها. وفي يوم ٦ تموز كان ثغر العقبة في أيدهم بالإضافة إلى ٧٨٠ أسيراً بينهم ٣٥ ضابطاً، ولم يكن قتلى العدو يقلون عن ٦٠٠ رجل. ودخلت القوات العربية العقبة ظامئة ساغبة منهمكة، وهي تزجي أمامها قطيعاً من الأسرى يفوق عدداً[١].

كان احتلال العقبة نقطة انعطاف في الثورة العربية إذ كانت الثورة حتى ذلك الحين تتخذ من الحجاز مسرحاً لها، وكانت الإمدادات التي تنضم عليها جميعاً من أبناء القبائل الحجازية، ولكن الميدان انتقل بعد سقوط العقبة إلى بلاد الشام، وواجه جيش فيصل تحولاً في وظيفته وتكوينه فأصبح هو الجناح الأيمن للقوات البريطانية[٢]، وفيه كتائب « نظامية» مدربة، وغدت مهمته بعد ذلك أن يحارب في بلاد الشام طبقاً لخطط **الجنرال اللنبي**.

وقرر المسؤولون البريطانيون في مصر أن يجعلوا عمليات العرب في العقبة وجهات معان ضمن المسؤولية **الجنرال اللنبي** لتنسيق الخطط العسكرية في الميدان السوري.

كان لسقوط العقبة على هذا النحو أهمية كبيرة. وكان فيصل متلهفاً على احتلالها وكان يتعجل إرسال الإمدادات العسكرية والمالية وكان إلحاحه الآن ينصب على توفير الجند العربي والنظامي من أسرى الحرب ولا سيما السوريين والعراقيين وكان طموح فيصل أن يسرع بالوصول إلى جبل الدروز ليعجل في نشوب الثورة في جميع سورية.

---

(١) سليمان موسى: المراسلات التاريخية. عدد ٨٦، ص ١٢٩ – ١٣٠ وراجع كذلك كتاب ريتشار الدنجتون: لورانس في البلاد العربية. ترجمة محمود عزت موسى، مراجعة الدكتور محمد أنيس – الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر. عام ١٩٦٦ – القاهرة ص ١٨٨ – ١٨٩.

(٢) لم تكن القوات البريطانية التي يقودها الجنرال اللنبي كلها انكليزية بل كان سكان المستعمرات التابعة للتاج البريطاني يشكلون النسبة الغالبة.

كان يريد أن يحول قواته من قوات تخريب محلية للسكة الحديدية إلى قوات تحرير. ولكن بريطانيا أمسكت يدها عن تقديم ما يلزم[١].

وكان منطلق بريطانيا ناجماً عن مفهومها لدور الثورة العربية ولغاياتها (غايات بريطانيا) السياسية التي رسمتها مع حليفتها فرنسا إذ كانت تريد لجيش الثورة العربية أن يلعب دوراً محدوداً مساعداً للدور الأساسي الذي تقوم به القوات البريطانية ولم يكن من صالح بريطانيا أن يحقق الجيش العربي انتصارات كبيرة وأن يلعب دوراً فعالاً في تحرير بلاد الشام كلي لا يتحول هذا الجيش فيما بعد إلى قوة معنوية وعسكرية تحول دون تحقيق الأهداف التي رسمتها بريطانيا في **اتفاق سايكس - بيكو** ولهذا كله عمدت إلى الإقلال ما أمكن من إمداد الجيش العربي بالسلاح والمال وإلى الحد من حركاته العسكرية ومن نمو قوته الذاتية[٢]. وكان صدمة كبيرة لبريطانيا أن يتم تحرير العقبة بقوة عربية دون مساعدة بريطانيا في الوقت الذي كانت عملياتها في شبه جزيرة سيناء تسير ببطء شديد كما أخفقت عدة هجمات قام بها الجيش البريطاني على غزة. ولهذا سرعان ما تدخلت لتجميد فيصل في العقبة حتى

---

(١) انظر سليمان موسى، المراسلات التاريخية عدد ٩٦، ص ١٤٤ - ١٤٥. تقرير من فيصل إلى الملك حسين، ولزيادة المعلومات بالتفصيل راجع سليمان موسى: الحركة العربية ص ٣٠٣ - ٣٠٥.

(٢) كان الشريف حسين يحث مكماهون حول التقدم نحو الشمال « أن الشمال هو المهم، ولكن مكماهون لم يكن متعجلاً وفي ١ آذار كتب الرائد فيكري إلى مدير المكتب العربي يقول أن فيصل مهتم أشد الاهتمام بالاستيلاء على العقبة بقواته لما سيكون لذلك من تأثير طيب على السوريين وأن قبائل الحويطات طلبوا ذلك منه، وأن فيصل يطلب أن تساعده السفن البريطانية بنقل رجاله بحراً. وأجاب كلايتون في ٨ آذار قائلاً: أن تقدم فيصل إلى العقبة غير مرغوب فيه حالياً خشية ان يتحول اهتمامه عن قطع خط السكة الحديدة الذي هو الهدف فضلاً عن أن السفن غير جاهزة ».

يتسنى لقائدها الجديد اللنبي إحراز التقدم المنشود في جنوب فلسطين كما قيدت تحركات فيصل وجيشه بأوامر اللنبي[1].

وقرر أولئك المسؤولون الاتصال بالملك حسين للحصول على موافقته من اجل نقل جيش فيصل إلى العقبة، وإخراج ذلك الجيش من نطاق عمليات الحجاز التي يشرف عليها الملك إلى نطاق مسرح عمليات **الجنرال اللنبي**. وأسندت المهمة إلى لورنس النجم الصاعد في مصلحة الاستخبارات البريطانية. وحمل لورنس رسالة من ونجت إلى الملك وسافر إلى (جيدا) فأخذ رسالة أخرى من فيصل يوصي فيها بالانتقال إلى العقبة. وواصل لورنس رحلته إلى جدة وهناك بعث ولسون بتاريخ ٢٢ تموز رسالة إلى الملك في مكة يرجوه فيها ملاقاتها في منتصف الطريق بين مكة وجدة (لتعذر وصول المسيحيين إلى مكة المكرمة) للبحث في الخطط المقبلة. وجاء الملك إلى جدة بعد يومين، ووافق على ما عرضه عليه ولسون ولورنس من مقترحات معلناً ثقته ببريطانيا واطمئنانه لنياتها الطيبة نحو العرب[2].

وأخذت قطعات الجيش الشمالي تنتقل براً وبحراً إلى العقبة ابتداءاً من أوائل آب وهي تشمل حوالي ١٥٠٠ جندي نظامي بقيادة جعفر العسكري[3] وتضم

---

(١) سليمان موسى: المراسلات التاريخية عدد ٩٦. ص ١٤٤، تقرير الشريف فيصل إلى الملك حسين.

(٢) سليمان موسى: المراسلات التاريخية. عدد ٨٧ – ص ١٣٠. تقرير من ولسن إلى الملك حسين.

(٣) جعفر العسكري (١٨٨٤ – ١٩٣٦) عراقي تخرج من المدرسة الحربية في استانبول ثم أوفد في بعثة تدريبية إلى ألمانيا. وفي سنة ١٩١٥ قاد قوات السنوسي في برقة في عدة معارك ضد القوات الانكليزية حتى وقع في الأسر. وحاول الفرار فسقط وكسرت رجله. وعندما بلغته أنباء الثورة العربية تطوع في حزيران ١٩١٧ للخدمة فيها وعينه فيصل قائداً لقواته النظامية. أثناء العهد الفيصلي، عين حاكماً لعمان ثم والياً على حلب. وفي العراق عين وزيراً للدفاع ثم رئيساً للوزراء ثم سفيراً للعراق في لندن. اغتيل غدراً في أول انقلاب عسكري في العراق سنة ١٩٣٦. كان جعفر يجيد عدة لغات وقد درس الحقوق في لندن وحصل على إجازة المحاماة. (سليمان موسى. الحركة العربية ص ٣٠٤).

مفرزة فرنسية. وفي ٢٣ آب وصل فيصل إلى العقبة وانتشرت القوات العربية في التلال الواقعة بين معان والعقبة. وكان عودة أبو تايه قد تولى مسؤولية صد الهجمات التي قام بها الأتراك حتى وصول قوات الجيش الشمالي.

فوجئ الأتراك بسقوط العقبة في أيدي العرب – والكلام لسليمان موسى ـ، فصمموا ان يبذلوا كل ما في وسعهم لاستعادتها ولعلمهم أن عودة أبو تايه هو الذي كان على رأس العملية وهو الذي نفذها. فقد أرسلوا إليه الرسل يغرونه بالانتفاض على الشريف حسين والانضمام إلى صفوفهم ويعدونه بالأموال الطائلة وبمركز مرموق. ولكن عودة رفض أن ينقض عهده مع الشريف. وأسرع الأتراك إلى حشد قواتهم في معان وجلبوا بضع طائرات، ثم زحفوا باتجاه العقبة في منتصف آب ولكن عودة أبو تايه ورجال القبائل صدوهم ولم يمكنوهم من التقدم. وبعد وصول قوات فيصل إلى العقبة أرسل مفارز منها إلى وادي موسى (البتراء) وإلى غرندل وإلى التلال المشرفة على العقبة. وفي أيلول جاء الانكليز بعدد من الطائرات التي أخذت تغير على معان رداً على طائرات الترك التي كانت تغير على العقبة.

وانتقل إلى العقبة الرائد جويس وأنشأ فيها قاعدة للتموين والإمدادات. وكانت سفينة حربية بريطانية قد رابطت في مينائها لحمايتها فيما إذا نجح الأتراك في هجومهم المعاكس وتمكنوا من اجتياز التلال المشرفة عليها من الشرق. أما لورنس فقد قام خلال شهري أيلول وتشرين الأول **بعمليتين ناجحتين ضد الخط الحديدي. الأولى** إلى الجنوب من محطة المدورة وقد نسف فيها قاطرتين وعبارة يوم ١٩ أيلول وقتل العرب وأسروا وجرحوا من الأتراك حوالي ١٧٠ رجلاً. **والثانية** على الكيلو متر ٥٠٠ جنوبي معان وقد نسف فيها قاطرة يوم ٦ تشرين الأول. وقام نفر من قبيلة بني عطية بهجوم قوي على خط السكة حول تبوك فاحتلوا مسافة من الخط خلال مدة أربعة أيام (١٨ – ٢١) تشرين الأول ونزعوا كمية من القضبان وألحقوا بالعدو خسارة ٢٥٠ رجلاً بين قتيل واسير.

ودارت عدة معارك بين الأتراك والجيش الشمالي في خريف ١٩١٧، ففي أيلول شنت كتيبة تركية هجوماً على مواقع العرب في دلاغة ولكنها اضطرت للتراجع بعد معركة عنيفة وفي أواخر الشهر ذاته استولى العرب على الشوبك ونزعوا جانباً من خط السكة الفرعي (الذي كان الأتراك ينقلون عليه خشب الأشجار التي يقطعونها من غابة الشوبك ليستعملوه وقوداً للقطارات). ولكن الأتراك قاموا بهجوم معاكس فردوهم إلى وادي موسى. وفي ٢١ تشرين الأول قاد جمال باشا حملة قوية على العرب في وادي موسى تعززها الطائرات والمدفعية الثقيلة، وبعد معركة حامية استمرت يوماً كاملاً اضطر الأتراك للانسحاب بعد أن خسروا ٤٠٠ رجل بين قتيل وأسير وجريح. وكانت القوة العربية المدافعة أصغر بكثير من قوة جمال باشا.

وفي ٢ تشرين الثاني وصل الأمير زيد إلى العقبة على رأس ١٥٠٠ جندي نظامي وظل إلى جانب أخيه فيصل في ميدان شرقي الأردن حتى انتهاء الحرب.

وعلى الرغم من شدة البرد في فصل الشتاء لتلك السنة فإن العمليات الحربية استمرت على أشدها. ففي أواخر تشرين الثاني اشتبك العرب والأتراك في معركة حامية قرب القويرة انتهت بارتداد الترك إلى الوراء. واستأنف العرب القتال فاجلوا الأتراك عن وهيدة وتمكنوا من الاحتفاظ بها على الرغم من الهجمات المعاكسة[١].

خامساً - معركة الطفيلة ومعان:

بادر الأمير فيصل يطلب إلى أبيه أن يشد أزره بأخيه زيد وبالشريفين شاكر وشرف مع القوات التي بإمرتهم عندما استولت قوات الأمير فيصل على العقبة في ١٧ تموز عام ١٩١٧م وانتقل بنفسه إليها في الشهر التالي وجعلها مقراً لقيادته، ولم يقترن هذا الطلب بموافقة القائد الأعلى للثورة العربية

---

(١) سليمان موسى: الحركة العربية ص ٣٠٤ – ٣٠٦.

الكبرى نظراً لضرورة بقاء شاكر وشرف لميدان الحجاز.... ولكنه أمر زيداً أن يلتحق بأخيه.

أبحر الأمير زيد من ثغر الوجه فبلغ العقبة (مقر قيادة الجيش الشمالي) يوم ٣ تشرين الثاني ١٩١٧م ومعه ألف وخمسمائة مقاتل. وفور وصوله تولى مسؤوليات القيادة إلى جانب أخيه فيصل وعمل كساعد أيمن له حتى انتهاء الأعمال القتالية. وكانت جبهة الجيش الشمالي يومذاك تمتد من العقبة إلى القويرة إلى دلاغه وحتى وادي موسى(١).

وفي أوائل شهر كانون الثاني ١٩١٨ تولى الأمير زيد القيادة العامة لثلاثة أرتال زحفت من القويرة باتجاه الشمال، وكان الرتل الأول بقيادة الشريف مستور يعاونه فخذ الجازي من عشيرة الحويطات وعلى رأسهم الشيخ حمد بن جازي. ووجهته الطفيلة. وكان الرتل الثاني بقيادة الشريف ناصر ومعه نوري السعيد (رئيس أركان حرب القوات النظامية) بالتعاون مع فخذ التوايهة من عشيرة الحويطات إضافة إلى عشائر بني صخر، ووجهته محطة جرف الدراويش. أما الرتل الثالث فقد كان بقيادة الشريف عبد المعين ووجهته الشوبك(٢).

بعث الأمير فيصل بتعليماته إلى الأمير زيد في ١٦ كانون الثاني ١٩١٨ ومؤداها أن يكون بنفسه على رأس القوات المتقدمة إلى الشمال، وأن يبقى في «الطفيلة» بعد الاستيلاء عليها، وأن لا يتجاوزها حتى تتوفر المبالغ الكافية من المال، كما طلب إلى أخيه زيد أن يكون حذراً من التنافس بين زعماء

---

(١) سليمان موسى: المراسلات التاريخية. عدد ٩٦ – ص ١٤٤. تقرير من فيصل إلى الملك حسين.

(٢) سليمان موسى: « الثورة العربية الكبرى » – الحرب في الأردن ١٩١٧ – ١٩١٨ مذكرات الأمير زيد. عمان الطبعة الأولى ١٩٧٦ ص ١٩ – ٢٠. ويذكر هذا الكتاب في الصفحات القادمة بعنوان « مذكرات الأمير زيد ».

الحويطات عودة أبو تايه وحمد بن جازي. كما طلب إليه أن يتحرك الشريف عبد الله بن حمزة الفعر إلى غور المزرعة للاستيلاء عليها وينزل أريحا إذا أمكن أو أية نقطة يمكنه الوصول إليها بدون خطر وأن ينسق حركاته مع حركات الأمير زيد(١).

إن نظرة فاحصة لمضمون هذه الرسالة تدلنا دلالة أكيدة على أنها توجيهات عملياتية من قائد الجبهة الشمالية في الثورة العربية الكبرى إلى قائد إحدى القطاعات الهامة وفي هذا دليل على ما كان يتمتع به الأمير فيصل بن الحسين من معرفة وحنكة في العلم العسكري. وزحفت الأرتال الثلاثة في وقت واحد تقريباً، بينما سار الأمير زيد (ومعه جعفر العسكري) قائد القوات النظامية. وعن طريق أبا اللسن باتجاه الطفيلة، ومعه قوة من المدافع والرشاشات. ويمكننا أن نعتبر هذه القوة بمثابة الاحتياط العملياتي لقائد الحملة يمكنه أن يزجه على أي اتجاه من اتجاهات الأرتال الثلاثة... ومن وادي موسى تحرك زيد إلى الشوبك (نجل). وفي الوقت نفسه كانت قوة الشريف ناصر قد استولت على محطة جرف الدراويش في الثاني عشر من كانون الثاني ١٩١٨ بعد معركة حامية سقط فيها من الأعداء ثمانون قتيلاً ومائتا أسير.

وقد وصف هذه المعركة أحد الضباط العرب الذين شاركوا فيها وهو عبد الفتاح أبو النصر اليافي، فقال ما خلاصته(٢):

هاجمنا مع الفجر. وبعد ظهور الشمس بدأ راسم سردست يقصفها بمدفعيته. وأصابت إحدى القنابل مدفعاً للأتراك فتعطل وقامت القوات العربية بالهجوم فانسحب الأتراك إلى واد منخفض شرقي المحطة، وجاء

---

(١) سليمان موسى مذكرات الأمير زيد – رقم ٣ ص ٥٢ – ٥٣ رسالة من الامير فيصل إلى الأمير زيد، القويرة ٣ ربيع الثاني ١٣٣٦ في ١٦ كانون الثاني ١٩١٨م.

(٢) عبد الفتاح أبو النصر اليافي: مذكرات قائد عربي، نشرت مسلسلة في جريدة لسان الحال في بيروت.

راسم على ظهر فرسه ففحص المدفع ووجده سليماً إلا أنه بحاجة إلى (منتاش[١]) وقد استطاع أن يعيد المدفع للعمل باستخدام قطعة من مسدسه. وكان مربض المدفع قريباً من الأتراك فأدار فوهة المدفع باتجاههم واخذ يصب نيرانه عليهم، فكان ذلك هو السبب الأكبر لاستسلامهم. ثم وصل نوري السعيد وكان عدد الأسرى نحو ٢٠٠ أسير. وحافظت القوات العربية على الأسرى ولم تلحق بهم أي أذى منفذة بذلك توجيهات قائد الجيش الشمالي الأمير فيصل بن الحسين[٢].

وقد اشترك في المعركة بنو صخر بقيادة الشيخ مفلح القمعان الذي أصيب بجرح في رجله وأصيبت فرسه كما اشترك فيها حويطات التوايهة بقيادة عودة أبو تايه. وكانت بين القبيلتين خصومة وغزوات متبادلة فآخت الثورة بينهما. وبلغ عدد القوات العربية التي شاركت بالهجوم حوالي ألف مقاتل.

أما حامية الطفيلة فكانت تتألف من مائة وخمسين جندياً، ولكن موقف هؤلاء كان مرهوناً إلى حد كبير بموقف أهل البلدة. فإذا علمنا أن قائد الحامية وهو النقيب زكي الحلبي[٣] كان على اتصال سابق مع الأمير فيصل، وأن الشيخ

---

(١) المنتاش: النازع (Extractor).

(٢) كان الأمير فيصل – بالإضافة إلى توجيهاته بعدم إلحاق الأذى بالأسرى – يدفع عشر ليرات انكليزية ذهباً لكل جندي عربي يسلمه أسيراً تركياً كحافز مادي إضافة إلى الحافز المعنوي، راجع مذكرات الأمير زيد: ص ٢٠.

(٣) زكي الحلبي (١٨٧٠ – ١٩٢٦) ولد في دمشق، وتخرج ضابطاً في الجيش العثماني من المدرسة الحربية في استانبول (الآستانة)

- تدرج في مختلف الرتب العسكرية إلى أن بلغ رتبة (قائد) عند اندلاع الحرب العالمية الأولى / ١٩١٤/، وعين حاكماً عسكرياً في اليمن.
- التحق بالثورة العربية الكبرى منذ أن أعلنها الشريف حسين بن علي وكان بذلك من أوائل الضباط الذين رافقوا الجيش العربي في زحفه لتحرير البلاد العربية من الحكم العثماني بقيادة الأمير فيصل. =

ذياب العوران كان بدوره قد أرسل أبنه عبد السلام إلى الأمير فيصل يدعوه إلى التقدم نحو البلدة، أدركنا حقيقة الموقف العسكري حينذاك ولهذا فقد اختارت الحامية التركية أن تستسلم عندما أقبل ناصر من الشرق وأقبل مستور من الغرب. ورفعت الراية العربية في الطفيلة يوم ١٥ كانون الثاني ١٩١٨.

بدأ الأمير زيد عمله في الطفيلة بتنظيم القادرين على حمل السلاح وتسجيلهم متطوعين في صفوف الثورة. وتوزيع المكافآت المالية على شيوخ الناحية وزعماء العشائر، ثم أرسل مستوراً إلى وادي الحسا لإنشاء نقطة أمامية متقدمة باتجاه الكرك، كما أرسل عدة رسائل إلى شيوخ الكرك يدعوهم فيها لمعاضدة الثورة.

أثار سقوط الطفيلة قلق الأتراك وذعرهم وصاروا يخشون أن يحدث الاتصال بين الجيش العربي والجيش البريطاني بالقرب من بلدة مأدبا وقرروا استرداد الموقع واختاروا لواء يتألف من ثلاث كتائب وهو من ملاك الفرقة ٤٨ التي تعسكر في عمان واختاروا له قائداً حامد فخري بك (بطل معركة بوخارست) وعزز اللواء بــ ٢٧ مدفعاً رشاشاً ومدفعين جبليين من أحدث ما أنتجته مصانع النمسا أطلق عليه الأتراك اسم «قدرتلي» ومدفعي ميدان (لم

= - رفع إلى رتبة عقيد بأمر من الملك فيصل بعد تتويجه ملكاً على سورية وكان مــن ضمن أعضاء قيادة الأمير زيد بن الحسين.

- اتهم من قبل سلطات الانتداب الفرنسية، حينما كان قائداً للشرطة السورية في منطقة حوران بتشجيعه للعناصر الوطنية التي قامت بقتل علاء الدين الــدروبي رئــيس وزراء سورية المعين من قبل الفرنسيين في ذلك الحين، فحــوكم وأحيــل علــى التقاعد.

- عندما نشبت الثورة العربية الكبرى عام ١٩٢٥، التحق بها، وسمي قائداً عــسكرياً في منطقة الغوطة بدمشق.

- شارك في أكثر معارك الثورة إلى أن استشهد في معركة أم الــشراطيط (غوطــة دمشق الجنوبية) عام ١٩٢٦.

يجر استعمالهما بسبب وعورة الطريق) وسرية خيالة. وقد تحركت هذه القوة نحو الطفيلة عن طريق القطرانة والكرك وعندما وصلت وادي الحسا الكبير[1] وأثناء اجتياز هذه القوة للوادي قام الشريف مستور بمناوشتها والاصطدام بطلائعها[2]. وعندما بلغت هذه القوة الجوانب العليا من الوادي صباح يوم ٢٥ كانون الثاني ١٩١٨م كان الإرهاق والإعياء قد أخذ مأخذه من رجالها، وقد فوجئوا بجماعات وحشود من القوات العربية تطلق عليهم النار من هنا وهناك... وربما يعود السبب في مفاجأة القوات التركية إلى أن العميد حامد فخري لم يكن يتصور أن العرب يمكنهم أن يتجرؤوا على الوقوف أو التصدي لقواته النظامية المجهزة بالأسلحة الفعالة... ولذلك فقد أصيب بالدهشة عندما لاحظ المزيد من المحاربين العرب يتمركزون في التلال إلى يمين قوته وغلى يسارها... ويطلقون عليها النار من خلف الصخور... ويقتربون نحوها شيئاً فشيئاً.

بينما كان الموقف العسكري على النحو الذي ذكرناه... تقدمت عند الظهيرة قوة من الجنود العرب النظاميين من الطفيلة تقدر بخمسين فارساً ومائتي متطوع من القرويين ومعهم خمسة رشاشات وأربعة مدافع ميدان ومدفع جبلي واحد وعلى رأسها الأمير زيد بن الحسين، ومن ضباطها راسم سردست وعبد الله الدليمي. وكان يساند هذه القوة ويعاضدها رجال الطفيلة والقرى المجاورة وخاصة قرية (عيمة) وكذلك فرسان الحويطات (المطالقة) وعلى رأسهم حمد العرار الجازي الذي أقسم: « أن يضحي بنفسه في سبيل القضية العربية ».

كان ميدان المعركة سهلاً صغيراً تحيط به سلاسل من التلال المخضوضرة ويمر فيها طريق طفيلة – الكرك.... كان الأتراك يسيرون على الطريق ببطء

---

(١) مذكرات الأمير زيد رسالة من الأمير فيصل إلى الملك حسين – القويرة ٦ شباط ١٩١٨ – رقم ١٣ – ص ٦٢ – ٦٣، تقرير من الأمير فيصل إلى الملك حسين.

(٢) وهو ما يطلق عليه في العلم العسكري بعمليات الإعاقة.

شديد نتيجة لتعبهم وإرهاقهم وهم يردون على النيران العربية التي كانت توجه إليهم.

تولى الأمير زيد قيادة المعركة فبعث راسم سردست على رأس الخيالة ليهاجم العدو ناحية اليمين بينما تقدم حرس زيد الخاص من العقيلات وهم من الوسط وكان على رأسهم محمد الغضيب. اما الميسرة فقد تألفت من رجال قرية عيمة وتولى قيادة مفرزة الرشاشات الضابط صبحي العمري بينما تولى قيادة المدافع عبد الله الدليمي ووضعها خلف تل مشرف يرتفع حوالي ٤٠ قدماً عن ميدان المعركة وكان يرصد بمنظاره نيران المعركة من على قمة التل..

وحملت القوة العربية على القوة التركية حملة صادقة وفوجئ الأتراك بالنيران من الخلف والأمام... فلم يعودوا يدرون ماذا يفعلون وعندما بدأ الموقف يميل إلى صالح العرب أصدر الأمير زيد أوامره إلى كافة رجاله بالهجوم... والضغط على الأتراك وحمل محمد الغضيب راية بني عقيل وصاح في رجاله الله أكبر واندفع كالسهم يمزق صفوف الأتراك وفي نفس الوقت الذي كان راسم سردست وفرسانه يرغمون العدو على التقهقر نحو الوادي كان الرجال الآخرون من القوات العربية يحصدون الجنود الهاربين من الأعداء حصداً... « وهكذا بدأت القوة الرئيسية التركية بالتراجع مذعورة من هجمات فرساننا ومشاتنا الذين كانوا يغيرون عليها بقلوب عامرة بالإيمان وثقة لا تتزعزع بالنصر...»[١].

كانت حصيلة المعركة الضارية التي أسفرت عن انتصار القوات العربية كما وردت في رسالة الأمير فيصل إلى والده الملك حسين في شباط عام ١٩١٨. **على النحو التالي:**

---

(١) مذكرات الأمير زيد – ص ٢١ – ٢٢ وتقرير الأمير فيصل إلى الملك حسين عدد ١٣ – ص ٦٢ – ٦٣.

٤٠٠ قتيل بينهم قائد الفرقة حامد فخري.

٣٢ أسير بينهم ١٧ ضابطاً ومن جملتهم قادة الكتائب.

٢٠٠ من الخيل والبغال.

٢٢ رشاشاً.

٢ مدفع نمساوي.

وخيام وآلات هاتف ومعدات أخرى مختلفة.

ولم ينج من الأتراك إلا نفر قليل استطاع الهرب نحو الخط الحديدي.

وفيما كانت القوات العربية المظفرة عائدة إلى الطفيلة أخذ الثلج يتساقط كتحية من السماء إلى الجنود العرب الأوفياء[1].

بعد ثلاثة أيام من معركة الطفيلة نظم الأمير زيد إغارة ناجحة على ميناء الكرك (غور المزرعة) الواقع على شاطئ البحر الميت، وكان الهدف الرئيس للإغارة تدمير الزوارق التركية الراسية هناك. والتي كانت تعمل على نقل المؤن عبر البحر الميت إلى القوات التركية في أريحا.

أسند الأمير زيد هذه المهمة إلى عبد الله الغير الذي اختار لمساعدته في تحقيق الهدف حوالي سبعين فارساً من بدو بئر السبع وسار على رأسهم قاطعاً الطريق الوعرة بين جبال مؤاب والساحل لكي يصل مع التباشير الأولى للفجر إلى مقربة من المركز التركي. وعلى المكسر الشمالي من الميناء كانت

---

(١) شهد النقيب لرونس هذه المعركة كمتفرج أو كمراسل صحفي - لا أكثر ولا أقل - وكان ينتقل بمنظاره من موقع إلى آخر، وما ان انتهت المعركة لصالح القوات العربية حتى أرسل تقريراً إلى رؤسائه يخبرهم فيه ببلائه الحسن وقيادته الحكيمة للمعركة وتخطيطه السليم لها فنال وسام الاستحقاق وثناء القائد العام للقوات البريطانية في الشرق الأوسط. ولكن الحقائق التاريخية وخصوصاً مراسلات الأمير زيد تدحض هذا الزعم. (راجع مذكرات الأمير زيد ص ٢٢).

ترسو الزوارق البخارية والمراكب الشراعية التابعة للأتراك، وبالقرب منها بحارتها النائمون على الشاطئ في أكواخ من القصب غير عابئين بشيء وبدون أن يضعوا أية حراسة قتالية على أنفسهم أو على عتادهم.

لم يكن هؤلاء البحارة الأتراك مستعدين أبداً لمعركة برية، فكيف بها تأتيهم على يد فرسان راكبين. لذلك ما كاد هؤلاء البحارة يفتحون عيونهم ليعرفوا ما الخبر حتى رأوا الفرسان العرب يطوقونهم ويحرقون أكواخهم ويستولون على ما في مخازنهم من مؤن وعتاد حربي... ثم قفز الفرسان العرب عن خيولهم إلى الزوارق الرأسية فثقبوها وأغرقوها...

واستسلم الأتراك دون أية مقاومة تذكر « وعاد رجالنا مكللين بالغار وهم يجرون وراءهم الغنائم بالإضافة إلى ستين أسير تركي. وهكذا تم في ٢٨ كانون الثاني ١٩١٨ تعطيل حركة النقل عبر البحر الميت قبل أسبوعين من التاريخ الذي حددته قيادة الجيش الشمالي(١)».

رفع الاستيلاء على الطفيلة من معنويات الجيش العربي وحقق بعض آماله وتشير رسالة فيصل إلى والده بتاريخ ٦ شباط ١٩١٨م إلى أنه يأمل بزيادة اتساع الجبهة بحيث تصل حركات جيشنا إلى جبل الدروز وإلى ما بين دمشق وحلب من أجل تخريب جسر الرستن على نهر العاصي كما يأمل أن يقاتل العدو هناك. وأشار إلى كثرة عدد المتطوعين(٢) ولكن رسائل فيصل وزيد كانت في الوقت نفسه تشير إلى الصعوبات الحادة التي كانت تواجه القوات العربية بسبب الافتقار إلى وسائط النقل والعتاد والمال وتقاعس البريطانيين عن تقديم ما يلزم من مساعدة أضف إلى ذلك متاعب الشتاء القاسي واستعدادات الأتراك الواسعة للقيام بهجوم معاكس.

---

(١) سليمان موسى: مذكرات الأمير زيد رقم ٧، ٩ – ص ٥٧ – ٥٨.

(٢) مذكرات الأمير زيد رسالة الأمير فيصل إلى الملك حسين ٦ شباط ١٩١٧. رقم ١٣ – ص ٦٣.

وفي شهر شباط ١٩١٨م حشد الأتراك قوة هجومية كبيرة تدعمها عناصر ألمانية وطائرات بقصد استعادة المواقع التي خسروها. وزحفت القوة التركية في رتلين بدءاً من خط سكة الحديد باتجاه الطفيلة. وبعد اشتباكات استمرت خمسة أيام استعاد الأتراك الطفيلة يوم ٧ آذار وانسحب زيد إلى الشوبك. ولكن ضغط الجيش البريطاني الذي كان قد استولى على أريحا في ٢١ شباط والذي قام بهجمات قوية على مواقع الأتراك قرب نهر الأردن في أوائل آذار، اضطرهم إلى الانسحاب من الطفيلة في ١٨ آذار فعاد العرب إليها. وقام الجيش البريطاني بهجوم على عمان والسلط فاستولى على هذه الأخيرة في ٢٥ آذار ولكنه ما لبث أن أرغم على الانسحاب منها.

في أوائل نيسان ١٩١٨م كانت استعدادات العرب لمهاجمة معان قد تمت فطلب الأمير فيصل من أخيه زيد أن يحضر إلى أبو اللسن كي يشترك في العمليات المقبلة.

بدأ هجوم العرب الكبير يوم ١١ نيسان ١٩١٨ بالتعاون مع المفرزتين البريطانية والفرنسية وقد أحرز الهجوم نجاحاً باهراً إلى الجنوب من معان، وعزلت معان من الشمال أيضاً. وقد تولى نوري السعيد قيادة الهجوم في الجنوب كما تولى جعفر العسكري قيادة الهجوم من الشمال. كما قام النظاميون بقيادة مولود مخلص بمهاجمة تلول السمنات قرب معان فاستولوا عليها وقد أصيب مولود بجرح خطيرة أثناء المعركة التي أبلى فيها بلاء حسناً. ولكن القوات العربية لم تتمكن من الاستيلاء على البلدة ذاتها لقوة تحصينات العدو من جهة ولعدم توفر الاعم المدفعي الكافي من جهة ثانية.

وتولى الأمير زيد قيادة القوات التي أخذت على عاتقها الاستيلاء على المحطات الواقعة إلى الشمال من معان، من أجل منع وصول التعزيزات والمؤن إلى حاميتها. وقامت قواته بهجمات عديدة على محطات الجردونة وعنيزة وجرف الدراويش والحسا وفريفرة والقطرانة. وفي ١٤ نيسان اتصلت القوات

العربية مع بعضها وتولى جعفر العسكري القيادة العامة. بعد هذا قرر الأمير فيصل القيام بالهجوم على معان ذاتها، وبعد تمهيد مدفعي زحفت المشاة يوم ١٥ نيسان من تلول السمنات وأحرزوا نجاحاً جيداً واستمر الهجوم في اليوم التالي. وفي يوم ١٧ نيسان وصلت القوات العربية إلى محطة سكة الحديد بعد قتال عنيف ولكنهم اضطروا إلى التراجع نتيجة نفاذ ذخيرة المدافع التي كانت تغطي الهجوم وتسانده... بالإضافة إلى الخسائر التي تكبدتها (حوالي ٣٠٠ جندي بين قتيل وجريح).

أعطى الأمير فيصل الأمر إلى قواته بالتراجع إلى تلول السمنات وقد وقع في أيدي العرب خلال هذا الأسبوع من المعارك حوالي ٤٠٠ أسير تركي.

وفي ١٩ نيسان استأنفت قوة من العرب بمساعدة البعثة العسكرية البريطانية(١) الهجوم على خط السكة جنوبي معان، وخلال بضعة أيام أمكن الاستيلاء على سبع محطات وتخريب مسافات من خط السكة الحديدية يبلغ طولها مئة كيلو متر، وبهذا قطع الاتصال نهائياً بواسطة السكة الحديدية بين معان والمدينة المنورة.

وفي هذه الأثناء قامت القوات البريطانية بحملة ثانية إلى الشرق من وادي الأردن فاستولت على السلط في ٣٠ نيسان وبلغت ضواحي عمان، ولكنها اضطرت للانسحاب يوم ٣ أيار تحت ضغط هجمات الأتراك المعاكسة.

وفي ١١ أيار سقطت محطة الجردونة للمرة الثانية في أيدي القوات العربية وكان الأمير زيد يقود بنفسه الهجوم على هذه المحطة، وتقوية للروح

---

(١) لم تلعب هذه البعثة دوراً فعالاً فقد كانت البعثة تضم عدة مدرعات بريطانية بقيت – أثناء الهجوم على محطة الجردونة في ١١ أيار بعيدة عن ساحة القتال وسرعان ما ركنت إلى الفرار راجع (مذكرات الأمير زيد من فيصل ص ٤٧ وعدد ٦٢ – ٦٣ وص ٩٤ – ٩٥). وقد طلب الأمير زيد من فيصل أخذ هذه المدرعات من الإنجليز وتسليمها له) (مذكرات الأمير زيد إلى فيصل، ٢٦ أيار ١٩١٨ العدد ٦٩ ص ٩٨).

المعنوية لرجاله تقدم إلى الخطوط الأمامية، وكان يجابه العدو وجهاً لوجه وبشكل مباشر.. وبلغ ذلك الأمير فيصل قائد الجيش الشمالي فكتب إلى أخيه: « بلغني أنك تخاطر بنفسك كثيراً.. لا شك بأن كل شيء بإرادة الله، ولكن موقعك يقتضي التمكن مهما أمكن. إن حصل عليك ولو نكشة فهي تضر جندك وتكسر عزائمهم. ولذا يلزم ان تتبصر ولا تخاطر[١]».

ويقول علي جودت (وكان أحد كبار الضباط في الجيش الشمالي) في مذكراته: « إنَّ الأمير زيداً كان يندفع اندفاعاً خطراً في الجبهة. وكنا نمانع في هذا الاندفاع لا حرصاً على سلامته فحسب بل خشية أن يؤدي هذا الاندفاع إلى مكروه ما فيؤثر في الجيش أسوأ تأثير[٢]».

أما لورنس فيقول: « إن زيداً كان يتولى قيادة نصف الجيش إلى الشمال من وهيدة، وكان يؤدي واجباته بهمة عظيمة وإن طبيعتهُ المرحة كانت تفعل في نفوس الضباط المحترفين أكثر مما تفعل شاعرية فيصل وحماسته[٣]».

وقد منحه الشريف حسين وسام النهضة والميدالية التذكارية لحرب معان، فكتب يشكر أباه ويقول: « لا شك أن الأوسمة التي ننالها في ميادين القتال، أكبر شرف لنا ولغيرنا من الذين يريدون استقلال البلاد العربية[٤]».

وظل العرب والأتراك يقومون بهجمات متبادلة على الخط والمحطات في هذا القطاع طوال أشهر أيار وحزيران وتموز ويخوضون معارك عنيفة أثناء ذلك، دون أن يتمكن أحد الفريقين من إحراز نصر حاسم.

وفي ٨ آب قامت قوة بريطانية من جيش **الجنرال اللنبي** بمهاجمة محطة المدورة والاستيلاء عليها وتدمير مواقعها الحربية.

---

(١) مذكرات الأمير زيد عدد ٦٥. ص ٩٥ – ٩٦.

(٢) سيرة ومذكرات علي جودت: « سيرة وذكريات ». بغداد سنة ١٩٧٣م – ص ٤٣.

(٣) راجع مذكرات الأمير زيد ص ٢٦.

(٤) راج مذكرات الأمير زيد ص ٢٦.

ولكن تحرير الأردن بكامله لم يتم إلا عندما تقدم **الجنرال اللنبي** بقواته من فلسطين ووجه ضربة مشتركة بالتعاون مع الجيش الشمالي الذي يقوده الأمير فيصل إلى القوات التركية ودمرها وهذا ما سنعرضه مفصلاً في الفقرة التالية.

سادساً - احتلال بريطانيا فلسطين:

إن المعارك التي خاضها الجيش البريطاني في فلسطين هي في تاريخ الحرب العالمية الأولى لا في تاريخ الثورة العربية. وما يهمنا من جهة فلسطين هو مدى الإسهام العربي في نجاح البريطانيين. وما من شك في أن الأعمال القتالية التي خاضها جيش الثورة العربية بقيادة فيصل في شرقي الأردن من جهة والدعاية العربية في صفوف سكان فلسطين وصفوف العرب المجندين في الجيش التركي من جهة ثانية كان له دور فعال في نجاح البريطانيين في هذا الميدان[١]. وما من شك في أن بريطانيا لو قدمت للجيش العربي العامل

---

(١) راجع ما قاله وزير خارجية انكلترا اللورد بلفور والملك جورج الخامس نفسه في لندن يوم استقباله في ١٢ /١٢ / ١٩١٨. (سليمان موسى: المراسلات التاريخية رقم ٢١٧ – ص ٢٥٠ – ٢٥٥). وراجع أيضاً البرقية التي أرسلها الملك جورج إلى الملك حسين في ٥ / ١٠ / ١٩١٨ (المراسلات التاريخية: رقم ١٧٦ – ص ٢١٤). «... وإني اغتنم هذه الفرصة لا عبر عن عظيم إعجابي بقيادة نجلكم الأمير فيصل وبسالة جنود سيادتكم، وحلفائكم، الذين أسهم تعاونهم الفعال إسهاما واقعياً في نجاح عمليات الحلفاء العسكرية، والتي نتج عنها تحرير دمشق، وتوسيع المنطقة العربية المحررة من أيدي الظالمين ». وراجع بهذا المعنى أيضاً برقية الجنرال اللنبي إلى الملك حسين بتاريخ ١٩١٨/١٠/٢. رقم ١٧٤ – ص ٢١٣ من المصدر السابق). راجع أيضاً مفلح علي في مجلة الفكر العسكري – العدد ١ – السنة الثالثة عام ١٩٧٥ – ص ١٥ حيث يقول في مقالة بعنوان: « التفوق الاستراتيجي والعملياتي في المعركة »: « لقد لعبت القوات المسلحة العربية دوراً حاسماً في معركة يافا ساعدت على تحقيق التفوق الاستراتيجي والعملياتي للقوات البريطانية ».

في شرقي الأردن بعض الدعم الفعال لوفرت الوقت والتضحيات توفيراً كبيراً، ولكن الأهداف البريطانية من الحرب في هذه المنطقة كانت تختلف اختلافاً جذرياً عن أهداف الجيش العربي. فأهداف الجيش العربي كانت تحرير الوطن العربي في حين كانت أهداف بريطانيا احتلال هذه البلاد لتنفيذ اتفاق **سايكس – بيكو** ووعد بلفور؛ أي تخليص هذه البلاد من احتلال تركي لإخضاعها لاحتلال بريطاني فرنسي صهيوني.

ظلت العمليات البريطانية في سيناء وجنوب فلسطين تسير ببطء ودون فاعلية حتى صيف ١٩١٧ حيث حدث تبدل هام في الأوضاع العسكرية إذ نجحت القوات العربية في احتلال العقبة التي تحولت بسرعة إلى مركز عسكري على جانب كبير من الأهمية، وفي الوقت نفسه حدث تبدل في القيادة العسكرية البريطانية حيث عين **الجنرال اللنبي** لقيادة القوات البريطانية؛ وهو واحد من ألمع القادة البريطانيين وقد أدرك فور سماعه باحتلال العقبة أهمية الدور الذي يستطيع الجيش العربي أن يلعبه على ميمنة القوات البريطانية الزاحفة على فلسطين.

ورافق التحضير للهجوم العام على فلسطين حملة دعائية واسعة النطاق لدى سكان فلسطين وقد وجه الملك حسين رسائل إلى عرب فلسطين يدعوهم فيها إلى التعاون مع القوات البريطانية الصديقة كما وجه نداء إلى الجنود العرب الذين ما زالوا يعملون في صفوف الجيش التركي ألقته الطائرات البريطانية فوق الخطوط التركية **جاء فيه:** « سمعت بمزيد الأسف أنكم تحاربوننا نحن الذين نجاهد في سبيل المحافظة على أحكام الدين الإسلامي الشريف من التغيير والتحريف، ولتحرير العرب قاطبة من حكم الأتراك. ونحن نعتقد أن الحقيقة الخالصة لم تصل إليكم لذلك أرسلنا هذا الإشعار ممهوراً بمهر لنؤكد لكم أننا سنحارب لأجل غايتين شريفتين هما: حفظ الدين وحرية العرب عامة... هلموا للانضمام إلينا

نحن الذين نجاهد لأجل الدين وحرية العرب حتى تصبح المملكة العربية كما كانت في عهد أسلافكم(١)». **وكان رسل الملك حسين وفيصل يعملون بنشاط لإقناع زعماء العشائر والوطنيين في فلسطين وشرقي الأردن والاتفاق معهم على العمل ضد الأتراك وقد لقيت هذه الجهود صدى كبيراً** تجلى في تعاون القبائل العربية في جنوب فلسطين ولا سيما في منطقة بير السبع مع القوات البريطانية، وترك الجنود العرب صفوف الجيش التركي والتحاقهم بالقوات العربية أو البريطانية، وعدم تعاون السكان مع الأتراك مما دفع القائد الألماني ليمان فون ساندرز إلى القول أن القوات البريطانية كانت تقاتل في بلاد صديقة في حين كان الأتراك يحاربون في بلاد معادية وقد **ذكر جمال باشا في مذكراته:** « أن الكراهية التي نشرتها الدعاية الإنجليزية العربية في سورية ضد الأتراك كانت أقوى في إضعاف قبضة الترك على البلاد من الخسائر العسكرية التي نجمت مباشرة عن دخول العرب الحرب ». وما من شك في أن الأعمال الحربية التي كانت تقوم بها القوات العربية في شرقي الأردن كان لها دور كبير في النجاح الذي حققه اللنبي في فلسطين.

في شهر تشرين أول عام ١٩١٧ استطاع الجنرال اللنبي اكتساح مواقع الأتراك في غزة وبئر السبع بحركة التفاف حول بئر السبع بقوات فيلق الصحراء الراكب ثم قام بمطاردة الأتراك بهذا الفيلق باتجاه مدينة القدس ماراً بمدينة الخليل وبيت لحم. وفي يوم ٨ كانون أول من تلك السنة سقطت مدينة القدس بيد القوات البريطانية ثم توقفت للدفاع على خط يمتد من شمال البحر الميت ثم يتجه هذا الخط إلى الشمال موازياً لنهر الأردن. وحين يصل هذا الخط إلى منتصف المسافة بين البحر الميت وجسر دامية

---

(١) راجع سليمان موسى: المراسلات التاريخية رقم ١٠٣. ص ١٥٤ ورقم ١٠٧، ص ١٥٧ـــ ١٥٨. ورقم ١١٨، ص ١٦٤، وراجع كتابه الحركة العربية – ص ٢٠٣ – ٣٠٧.

ينعطف إلى الغرب حتى ساحل البحر المتوسط عند ميناء أشدود شمالي ميناء يافا[١].

كانت القوات العربية تتألف من حوالي ٨٠٠٠ مقاتل من الهجانة والفرسان بقيادة الأمير فيصل تدعمه بعض المصفحات وكانت مزودة بمواد التخريب. كما كانت هذه القوات تتمركز في منطقة الأزرق في شرقي الأردن[٢]. وقد بلغ مجموع القوات (الحليفة) في هذا الخط حوالي ٥٧،٠٠٠ جندي مشاة مع ١٢,٠٠٠ جندي خيال مع ٥٤٠ مدفع من مختلف العيارات[٣].

أما القوات التركية فقد تمركزت بعد انسحابها من مدينة القدس في خط دفاعي مواز للقوات البريطانية ويمتد من أغوار الأردن إلى ساحل البحر المتوسط. وكانت القوات التركية تتألف من ثلاثة جيوش بقيادة الجنرال الألماني (فون ساندرز) ومقره مدينة الناصرة وقد بلغ مجموع القوات التركية ٣٢٠٠٠ جندي مشاة مع ٢٠٠٠ جندي خيال مع ٤٠٢ مدفع من مختلف العيارات.

وعلى هذا الأساس فقد كانت نسبة القوى تميل لصالح القوات البريطانية بنسبة ٢ إلى ١ في المشاة أما في الخيالة فقد كان التفوق ٦ إلى ١ وفي المدفعية ١,٢٥ إلى ١.

في ربيع عام ١٩١٨ وضع الجنرال اللنبي خطته لتدمير القوات التركية في فلسطين ومطاردتها إلى دمشق وحلب ثم الأراضي التركية. فإذا تحقق للجنرال اللنبي القضاء على الجيوش التركية الثلاثة المتبقية للأتراك في

---

(١) راجع كتاب مارشال ويفل « اللنبي الجندي ورجل الدولة ». لندن – ص ١١٢.

(٢) تقع منطقة الأزرق على مسافة ٥٠ كم شرقي مدينة عمان.

(٣) راجع أمين سعيد: « الثورة العربية الكبرى ». تاريخ مفصل جامع للقضية في ربع قرن. المجلد الأول – ص ٢٣٩ – ٢٤٦.

الشرق الأوسط دون أن يسمح لها بالانسحاب فإن تركية نفسها تصبح عرضة للغزو من الجنوب فترغم على طلب الصلح[١].

وكانت خطة **الجنرال اللنبي** تقوم على أساس خرق الجبهة التركية قرب الساحل مسافة ١٥ ميلاً بالفيلق ٢١. وبعد أحداث الخرق يقوم فيلق الصحراء الراكب بالاندفاع من هذا الخرق إلى الشمال وللاستيلاء على مضيق أبو شوشه ومضيق مسموس اللذين دل الاستطلاع البريطاني على ان الأتراك قد أهملوا أمر تحصينهما ومراقبتهما بشكل جيد. وبعد أن يعبر الفيلق المذكور هذين الممرين ويصل إلى سهل مرج ابن عامر يستولي الفيلق المذكور على مفرق عفولة وجنين وبيسان.

فإذا تحقق للجنرال اللنبي ذلك يكون قد قطع خط مواصلات وتموين الجيشين التركيين السابع والثامن وأرغمهما على الاستسلام دون أن يسمح لهما بالانسحاب وبعد ذلك يتفرغ لقطع خط مواصلات الجيش التركي الرابع وإرغامه على الاستسلام دون أن يسمح له بالانسحاب أيضاً. وبذلك يتمكن من الوصول إلى حدود تركية لإرغامها على الخروج من الحرب.

وقد دلت استطلاعات الانجليز قبل نشوب المعركة على أن خط الدفاع التركي المواجه للقوات البريطانية في الساحل يتألف من خطين. ويبعد الخط الأول عن الثاني حوالي ثلاثة أميال. وكانت دفاعات الخط الأول تتألف من خنادق جيدة مجهزة بموانع الأسلاك. أما خنادق الخط الثاني فكانت تستند على نهر (الفالك) وتحميها مستنقعات النهر من الغرب ولا يمكن تخطيها إلا من معابر معينة كما كانت غير مستمرة وغير مجهزة بالأسلاك[٢].

---

(١) في آذار عام ١٩١٧ سقطت مدينة بغداد بيد القوات البريطانية وشرعت بدورها بمطاردة فلول الأتراك باتجاه الموصل.

(٢) راجع. س. فوللر المعارك الحاسمة في الجنوب. لندن – انكلترا ١٩٦٥.

سابعاً: سير الأعمال القتالية[1]:

بدأت القوات العربية بتخريب سكة الحديد في محطة درعا في يوم ١٧ أيلول ١٩١٨م وقد تمكن العرب من مفاجأة الأتراك وقطع السكة في الجنوب ثم الغرب ثم الشمال.

وفي الساعة ٤,٣٠ من يوم ١٩ أيلول عام ١٩١٨م فتحت المدفعية البريطانية نيرانها لمدة ١٥ دقيقة على خط الأتراك الأول ثم تقدم الفيلق ٢١ البريطاني وقبل حلول منتصف ذلك النهار كان البريطانيون قد دمروا الخط الأول والثاني للأتراك وحل الارتباك في الجيش التركي الثامن وأخذت فلوله بالانسحاب نحو مدينة طولكرم. وبعد أن نصب البريطانيون جسراً على نهر (الفالك) تقدم الفيلق المذكور على ذلك الجسر ومن خلفه فيلق الصحراء الراكب وقبل غروب شمس يوم ١٩ كان الفيلق ٢١ المشاة البريطاني قد استولى على مدينة طولكرم، وفتح البوابة على مصراعيها حيث انطلق فيلق الصحراء الراكب على الشكل التالي:

أ **انطلقت الفرقة ٥ خيالة والفرقة ٤ خيالة باتجاه أهدافهما** الأولى من اليسار باتجاه أبو شوشه فبلغته في الساعة ٢,٣٠ من يوم ٢٠ وفاجأت حاميته واستولت عليه. وانطلقت الثانية من اليمين باتجاه مضيق مسموس وفاجأت حاميته واستولت على المضيق في الوقت نفسه تقريباً ثم دخلتا مرج ابن عامر.

وبعد أن أرسلت الفرقة ٥ خيالة لواء إلى مدينة الناصرة[2] لأسر القائد العام التركي مع ضباط أركانه توجهت الفرقتان إلى محطة عفوله وفاجأتا

---

(١) قبل يومين من بدء الهجوم البريطاني هرب إلى صفوف الأتراك عـدد مـن الهنـود المسلمين واخبروا الأتراك بزمان ومكان الهجوم البريطاني ولكن الأتراك لم يكترثـوا لتلك الأخبار ولم يخبروا القائد العام.

(٢) هو اللواء الراكب ١٣.

حاميتها في الليل واستولتا على المحطة ثم انطلقت الفرقة ٤ خيالة إلى بيسان واستولت عليها في الساعة ٤,٣٠ من يوم ٢٠ وهكذا تكون الفرقة ٤ خيالة قد قطعت ٧٠ ميلاً في ٢٤ ساعة.

وبعد سقوط عفوله وبيسان بقيت القيادة التركية تجهل الموقف تماماً كما تجهل تماماً مبلغ الدمار الذي حل بطرق تموينها واتصالها لدرجة أن أحدى الطائرات التركية وصلت ظهر يوم ٢٠ إلى مطار عفوله فهبطت في المطار وتم أسرها من قبل القوات البريطانية. أما اللواء ١٣ من الفرقة ٥ خياله الذي ذهب لأسر القائد العام التركي في مدينة الناصرة فلم يوفق في مهمته ذلك أن فون ساندرز تمكن من الهرب بأعجوبة إلى مدينة طبرية[١].

أما فرقة الخيالة الاسترالية فقد عبرت مضيق مسموس في الساعة ١١,٠٠ من يوم ٢٠ وتوجهت إلى بلدة جنين واستولت عليها. وبذلك تم أحكام الطوق حول الجيشين التركيين السابع والثامن نهائياً قبل مساء يوم ٢٠ أيلول.

أما ما جرى من قتال ومعارك بعد هذا التاريخ فلم يكن إلا أعمال تصفية للجيشين المذكورين. اللذين تقرر مصيرهما بأقل من ٣٦ ساعة من بدء الأعمال القتالية[٢].

ب تدمير الجيش التركي الرابع:

بقي الجيش الرابع التركي حول مدينة عمان مدة ثلاثة أيام دون أن يعلم بمبلغ الدمار الذي حل بالجيشين السابع والثامن. ذلك أن اللنبي استمر على مشاغلة الجيش الرابع طوال مدة القتال مع الجيشين السابع والثامن وبذلك بقي

---

(١) راجع مذكراته « خمسة أعوام تركية » – ص ٢٥٠ – برلين ألمانيا عام ١٩٢٥ النص الألماني.

(٢) راجع للتوسع في هذه المعارك كتاب: د. هود. خارج خطوط الحملات المصرية والفلسطينية عام ١٩١٤ – ١٩١٨. لندن – انكلترا – ص ٢١١.

قائد الجيش التركي الرابع جمال باشا في حيرة من أمره ولم يبدأ بالانسحاب باتجاه دمشق إلا في ٢٢ أيلول.

وقد تعرض الجيش الرابع التركي أثناء انسحابه إلى هجمات مستمرة على جانبه الأيمن من القوات العربية. وفي ٢٧ أيلول تمكنت القوات العربية من قطع الطريق على بعض وحدات هذا الجيش قرب الشيخ سعد وأسرها.

أما الجنرال اللنبي فبعد أن تحقق له تدمير الجيشين السابع والثامن قرر تدمير الجيش الرابع بالوصول إلى دمشق وقطع مواصلاته. وتتلخص خطة **الجنرال اللنبي** للاستيلاء على دمشق بفيلق الصحراء الراكب كما يلي:

في ٢٧ أيلول تحرك هذا الفيلق نحو دمشق برتلين، الأول ويتألف من فرقة ٤ خياله ويتحرك من شرقي بحيرة طبرية عن طريق بيسان – درعا – دمشق – والرتل الثاني ويتألف من الفرقة الاسترالية ويتحرك من غرب البحيرة عن طريق طبرية – قنيطرة – دمشق.

وفي ٣٠ أيلول بينما كانت فلول وبقايا الجيش الرابع تقترب من مدينة الكسوة إذ سبقتها إليها الفرقة ٤ خيالة البريطانية وسدت طريق انسحابها إلى دمشق على حين كانت القوات العربية بقيادة الأمير فيصل تشدد الخناق على مؤخراتها فأرغمت على الاستسلام في مدينة الكسوة بعد معركة صغيرة[1].

وبذلك تم تدمير القوات المسلحة التركية بأسرها في الشرق الأوسط وانفتح الطريق أمام القوات البريطانية والعربية إلى الحدود التركية نفسها.

---

(١) سنتعرض لهذه المعركة وغلى كافة العمليات الحربية التي جرت فوق الأراضي السورية بتفصيل أكثر في الفقرة التالية عند كلامنا عن تحرير سورية ولبنان، وخير مصدر لوصف هذه المعارك كتاب سليمان موسى: الحركة العربية – ص ٣١٦ وما بعدها وكتاب مارشال ويفل السابق الذكر بعنوان: « اللنبي الجندي ورجل الدولة ».

وقد بلغ مجموع خسائر الأتراك ٢٥٠٠٠ مقاتل على حين لم تتجاوز خسائر العرب والبريطانيين خمسة آلاف وتم تدمير ثلاثة جيوش تركية في مدة ١١ يوماً فقط[١].

جـ تحرير سورية ولبنان:

كان الجنرال اللنبي يعتبر الجيش الشمالي الذي يقوده الأمير فيصل بمثابة جناح أيمن لجيشه الذي كانت خطوطه في آب ١٩١٨ تمتد من يافا على شاطئ البحر إلى أريحا عند البحر الميت. وقد عمل اللنبي على تعزيز جيش فيصل الذي ارتفع عدد النظاميين فيه إلى ٤٠٠٠ (عدا البدو) **فشكل في قيادته هيئة من الضباط لكي تتولى تنظيم ما سمى بـــ « عمليات الحجاز» برئاسة العقيد داوني. وأعار فيصلاً خمس سيارات مدرعة وسرب طائرات ومدفعين** محمولين ومفرزة من ٢٠ هندياً مسلحين بالرشاشات، ومفرزة من الجمالة المصريين (بقيادة النقيب بيك) وسرية من فيلق الجمالة للنقليات، بالإضافة إلى المفرزة الفرنسية (بقيادة النقيب بيزاني) ومعها أربعة مدافع جبلية وأكثر رجالها من الجزائريين. وكل هذه الوحدات تحت قيادة العقيد جويس. وكان جيش فيصل يعتمد في تموينه وتسليحه على جيش اللنبي ولكنه لم يكن يحصل على ما يكفيه، فقد قضى الجنود شتاء ١٩١٧ / ١٩١٨ في الهضاب المرتفعة وهم يرتدون ألبسة الخاكي ووصف العقيد داوني جنود فيصل بأنهم كانوا « يعانون من نقص الطعام والذخيرة[٢]».

---

(١) راجع كتاب أدوارد ميدايرل «صانعو الإستراتيجية الحديثة». لندن انكلترا – ص ٣٢٥ وما بعدها. وكتاب الحملات الحربية في فلسطين – الصادر عن وزارة الحربية المصرية عام ١٩٤٢.

(٢) P.R.O.F.O. 882/7 تقرير الكولونيل داوني عن هجوم العرب على معان، بتاريخ ١ أيار ١٩١٨.

وكان أولئك الجنود النظاميون العمود الفقري لقوات الثورة العربية « وقد برهنوا في معان والجردونة أنهم يحاربون حتى الموت[1]» وكان جيش فيصل يعاني من النقص في دواب النقل لأن جميع المؤن والمعدات كانت تنقل من العقبة إلى مواقع القتال على ظهور الحيوانات. وقد زوده اللنبي بألفي جمل حتى يتمكن من القيام بدوره في الهجوم الكبير.

وقد أناط اللنبي بجيش فيصل مهمة خطيرة، مؤداها أن تقوم منه حملة سريعة الحركة بهجوم خاطف من الخلف على درعا ملتقى الخطوط الحديدية بين دمشق وفلسطين وشرقي الأردن، بقصد قطع خطوط مواصلات الجيوش التركية قبيل قيام اللنبي بالهجوم. وعلى الرغم من أن القوة العامة لجيش اللنبي لم تكن تقل عن مئتين وأربعين ألف رجل تقف في وجوههم – ووجوه العرب – قوات من الترك لا تزيد كثيراً على ١٠٠ ألف رجل، فإن اللنبي أعد خططه بحيث تتمكن قواته المتفوقة من إحراز النصر الحاسم. وقد طلب من الحملة العربية أن تبدأ عملياتها حول درعا في منتصف أيلول، قبل ثلاثة أيام من بداية هجوم اللنبي.

وتقرر أن تتألف الحملة من نظاميين وبدو وأن يتولى الأمير فيصل قيادتها العامة ويكون الشريف ناصر نائباً له ونوري السعيد قائداً للنظاميين. وفي ٣٠ آب و٢ أيلول غادرت أبا اللسن قافلتان من الجمال تحملان المؤن والذخائر في طريقهما إلى الأزرق التي تقرر أن تكون قاعدة أمامية للحملة...

وفي ١٢ أيلول تكاملت الحملة في الأزرق وهي تتألف من ٦٠٠ نظامي تعززها وتساندها المفرزة الفرنسية وسرية الهندسة وتضم المصريين والهنود وثلاث سيارات مصفحة وطائرتين، وكانت الحملة تضم ثلاثة من الضباط العرب الذين أصبحوا فيما بعد من رؤساء الوزارة في القطر العراقي وهم:

---

(١) الرائد السير هيوبرت يونغ في كتابه « الاستقلال العربي »، الطبعة الانكليزية، لندن، ١٩٣٣، ص: ١٩٤.

(نوري السعيد وعلي جودت وجميل المدفعي) كما ضمت من الضباط الانكليز: جويس ولورنس ولورد ونترتون ويونج وبيك وكركبرايد. وانضم للحملة حوالي ٥٠٠ من فرسان البدو بقيادة نوري الشعلان وعودة أبو تايه. وكان مجموع أفرادها ١٣٠٠ رجل.

كان الطريق المباشر من العقبة إلى دمشق يمر بمعان، عمان، درعا، وكان معظمه يقع في منطقة احتلال العدو. ولهذا كان من الضروري القيام بحركة التفاف كبيرة من الشرق ويعود الفضل في القيام بهذا الالتفاف الناجح إلى حكمة قائد الجيش الشمالي الأمير فيصل ومعرفته بمسرح العمليات الحربية.

زحفت الحملة من الأزرق في صباح ١٤ أيلول وفي مساء هذا اليوم وخلال الأيام الأربعة التالية قامت بعملياتها المرسومة على النحو التالي:

جرت إغارة على سكة الحديد بين درعا ودمشق في نقطة قريبة من تل عرار وكان الهدف نسف جسر سكة الحديد الذي تقوم على حراسته مفرزة قوامها ٤٠ جندياً وقد تم نسف الجسر بعد أسر الحامية كما تم نسف وتدمير ١٢٠٠ قطعة من السكة خلال صباح ١٥ أيلول، كما تم نسف محطة خربة الغزالة، وتم في النهار احتلال نقطة تقع على مسافة ٤ أميال فقط من المطار الألماني مما دفع العدو للتدخل. وهوجمت القوات العربية وقصفت من قبل ٩ طائرات ألمانية من درعا. تم تنفيذ العمل بنجاح وتقدم قسم من القوات خلال النهار إلى محطة سكة حديد مزيريب التي تم الاستيلاء عليها في مساء اليوم نفسه وتم إحراق هذه النقطة الهامة في خطوط موصلات العدو كما تم تدمير قطارين ونسف خزانات المياه وإخراج كمية من سكة الحديد عن الخط. وقد كان يوم عمل جيد أمضت فيه القوة العربية الليل بهدوء قرب سكة الحديد.

وفي اليوم التالي انسحبت القوة باتجاه الجنوب إلى أم المتاعبة مارة بالقرب من الرمثا ووصلت محطة نصيب على الخط الحجازي جنوب درعا بمهمة نسف الجسر الكبير وتعطيل مسافة من السكة قبل حلول الظلام. **وفي**

صباح يوم ١٩ وصل الجنود النظاميون العرب يرافقهم عدد كبير من القبائل المحلية وأبناء الريف إلى أم المتاعبة حيث تعرضوا لقصف الطائرات الألمانية التي كانت تطلب الثأر. وقد شعرت حامية درعا التركية بمرارة ورغبة شديدة في الانتقام لأن الجنود العرب قد استطاعوا خلال الــ ٤٨ ساعة قطع مواصلاتهم تماماً مع عمان. وكذلك مع الجبهة الفلسطينية ودمشق. وأسقطت الطائرات المعادية قنابلها بدون تمييز، وانتشر رجال القبائل والفلاحون المحليون في الأراضي المحيطة ولكن الجنود النظاميين للجيش العربي الذين أناخوا جمالهم، مكثوا ساكنين حتى زوال العاصفة. عاد الألمان إلى درعا للقصف من جديد. وقد انسحبت وحدات الهجانة إلى الوادي وبقيت مستورة بين الصخور البركانية هناك وبالنظر لعدم حركتهم فقد بقيت معظم هذه الوحدات غير مرئية من قبل الطائرات المعادية التي تقوم بالاستطلاع فعاد الألمان مكتئبين. وكان منظر وحدات الهجانة الحجازية يبدو أثناء الإغارة كحجارة سوداء مما يذكرنا بقصة شهرزاد في الليالي العربية[١]، وكما حدث في القصة دبت الحياة في الحجارة السوداء من جديد- بعد أن زال الخطر الجوي- وقامت بمناوشة العدو من جديد. وقد زرعت هذه العمليات الارتباك في خطوط المواصلات الرئيسية مما اضطر ليمان فون ساندرز[٢] القائد العام للجيوش التركية إلى إرسال مفارزه الاحتياطية من الجبهة لرد هجمات العرب عن درعا. بينما كان الجنرال اللنبي يتأهب لتنفيذ خطته بالهجوم الواسع على الجبهة التركية. وبعد أن قامت الحملة بتنفيذ المهام التي أسندت إليها. ابتعدت مسافة إلى الشرق بانتظار نتائج هجوم اللنبي.

---

(١) كتاب ألف ليلة وليلة.

(٢) راجع كتاب ليلمان فون ساندرز: «خمسة أعوام تركية»- ص٢٤٧ وما بعدها. من النص الألماني. برلين- برلين- ألمانيا عام ١٩٢٥. وقد استلم هذا القائد الألماني قيادة العمليات في ١٩١٨/٢/١٩ على هذه الجبهة وظل حتى نهاية شهر أيلول.

بدأ اللنبي هجومه الكبير في الصباح الباكر من يوم ١٩ أيلول. وسرعان ما اخترق رجاله خطوط الجيشين السابع والثامن التركيين- كما مر معنا- وأخذوا يتقدمون شمالاً. وأثناء هجوم اللنبي واصلت الحملة العربية نشاطها فشنت عدة هجمات ليلية على خط السكة بين درعا وعمان ونجحت في الحيلولة دون إصلاح خط السكة بينما كانت الطائرات المعادية تقصف مواقعها أثناء النهار، ويذكر كركبرايد الذي رافق الحملة ترحيب الأهالي ومساندتهم للحملة **ويقول:** «بعد أن قمنا بقطع الخط توافدت علينا جموع من القبائل السورية والأردنية بقصد الاشتراك في العمليات المقبلة، وانضم إلينا الوطنيون من سورية ولبنان بأعداد متزايدة حتى أصبح من العسير السيطرة على تلك الجموع». وعندما أخذ الجيش التركي الرابع يتراجع من السلط وعمان، لم يستطع الاستفادة من خط السكة فاضطر رجاله أن يسيروا على أقدامهم ويتركوا وراءهم أسلحتهم ومعداتهم. وأرسل اللنبي في ٢٠ أيلول رسالة إلى الأمير فيصل أنبأه فيها أنه نتيجة «لجهودنا المشتركة فقد ألحقت الهزيمة بجيش العدو، أنني أهنئك على الإنجاز العظيم لقواتك الباسلة حوالي درعا، والتي أثرت عملياتها في حدوث الارتباك في خطط مواصلات العدو تأثيراً مهماً على نجاح عملياتي[١]».

تحول الأتراك في معان إلى الهجوم أثناء قيام العرب بمهاجمة خطوط المواصلات حوالي درعا، فزحفت عناصر قوية لاحتلال الطفيلة وأخذت عناصر أخرى تشن الهجمات على تلول السمنات. ولكن الأتراك فوجئوا يوم ٢٢ أيلول بصدور الأمر إليهم بالانسحاب السريع، فبدأوا بالتراجع من معان شمالاً سيراً

---

(١) راجع كتاب الرائد السير هـــ. يونغ «الاستقلال العربي» ص٢٣٨ الهام.

كما بعث لورنس في ٢٢ أيلول ١٩١٨ برقية إلى الملك حسين قال فيها: إن عمليـــات الجيش الشمالي «تشكل أعظم إنجاز للأمة العربية خلال السبعمائة سنة الماضية».

راجع أرشيف وزارة الخارجية البريطانية .P.R.O., F.O ٣٩/٦٨٦.

على الأقدام تحت حماية مدافعهم. وكان الأمير زيد يتولى قيادة العرب في معان، فاستنفر قواته لضرب كافة القوات المتراجعة، وحث المقاتلين البدو على عرقلة انسحاب العدو. وكان من أثر ذلك أن القوات التركية اضطرت للتوقف قبل الوصول إلى عمان بعد أن حاصرها آلاف من البدو المسلحين.، ولم تستطع الوصول إلى عمان في الوقت المناسب لتأمين انسحابها فاستسلمت لكتيبة إنكليزية خرجت للقائها من عمان[١].

وكان اللنبي قبل بدء هجومه قد بعث برسالة إلى فيصل يحذره من توسيع نطاق عملياته والتوغل بعيداً داخل المناطق التي كانت القوات التركية ما تزال مسيطرة عليها، خشية أن لا يتمكن– اللنبي– من تقديم العون له إذا ما اصطدم بقوات معادية كبيرة. والحقيقة المرة أن الإنكليز والفرنسيين لم يكونوا يريدون أن يروا جيش الأمير فيصل وهو يحقق الانتصار تلو الآخر، ليس كرديف للقوات البريطانية فحسب بل كحليف لها، ومن هنا كانت تأتي النصائح بعدم المجازفة والمغامرة لكي لا تظهر للرأي العام العالمي الأهمية الحقيقية لعمليات الجيش الشمالي. وعندما أخذت القوات التركية تتراجع من فلسطين وشرقي الأردن باتجاه دمشق.

رأى بعض الضباط الإنكليز أن تلك القوات المتراجعة يمكن أن تسحق القوة العربية الصغيرة، وأن تلك القوة العربية حري بها أن تبتعد عن خط الانسحاب التركي مادامت قد أدت دورها المطلوب على أكمل وجه. وهذه الآراء أيضاً كانت بإيعاز من قادتهم حتى يظهروا للملأ أن كلَّ الضباط الإنكليز يرون نفس الرأي. ولكن الأمير فيصل كان يرى أن هذه هي الفرصة السانحة التي كان جيش الثورة ينتظرها كي يبرهن أكثر فأكثر على جدارته الحقيقية في تحرير المزيد من الأرض العربية. لهذا كله بعث الرسل إلى زعماء حوران وجبل

---

(١) سليمان موسى– مذكرات الأمير زيد. رقم ٧٩–٨٢–ص١٠٦–١٠٧ من الأمير زيد إلى الملك حسين بتاريخ ١٧، ١٨، ٢١، ٢٣ أيلول ١٩١٨.

الدروز والقبائل العربية المتواجدة في المنطقة يدعوهم ويحثهم إلى الاشتراك في شرف القتال[١].

بقيت القوات العربية بين الصخور البركانية حتى تاريخ ٢٤ أيلول وكانت تخرج في الليل أحياناً للاستيلاء على قطار مار، وفي فرصة أخرى للانقضاض نهاراً على جسر لتدميره وكذلك تدمير أجزاء من سكة الحديد. وبتاريخ ٢٤ منه بدأ الجيش التركي بالانسحاب باتجاه الشمال في محاولة يائسة لتجنب الكارثة التي تهدد قواته غربي الأردن أما وحدات الهجانة العربية التي كان يقل عددها كثيراً عن هذه القوة والتي كانت تحتفظ بقدر من التنظيم لم يكن بمقدورها إيقاف الانسحاب وقد امتنعت في اليومين التاليين عن القيام بعمليات قوية لعرقلة مرورها. وقد أخذت هذه الأعمال شكل أعمال متتابعة من الإغارة على وحدات مختارة- حرب عصابات- وكانت الإغارة تتركز بفتح نيران قوية من البنادق وتفجير ونسف ثم انسحاب سريع وكانت حصيلتها ٢٠ إلى ٣٠ قتيلاً تركياً بالإضافة إلى وقوع ما يقارب من ١٢ أسيراً بأيدي العرب. وقد كانت حصيلة الإغارات أسر ضابطين و٥٠٠ رجل و٢٥ رشاشاً.

وبتاريخ ٢٦ أيلول تقدمت وحدات الهجانة باتجاه الشمال ليلاً واستطاعت نسف سكة الحديد واحتلال محطتي ازرع وغزالة. وتقدمت القوات باتجاه الشيخ مسكين وشيخ سعد على إحدى الطرق شمالي مزيريب باتجاه دمشق. وقد أمكن هناك أسر ثلاثين ضابطاً و٥٠٠ جندي وكان أكثر هؤلاء من الألمان والنمساويين. وقد بدت على جيش العدو مظاهر معنويات منخفضة.

---

(١) وقد استجاب هؤلاء إلى دعوته بدليل ما جاء في تقرير من فيصل إلى أخيه الأمير زيد حيث يقول له بتاريخ ١٩١٨/٩/١٨: «الأحوال على ما يرام. وصل إلينا نوري الشعلان بجموع كثيفة ومعه الدروز ١٥٠٠ خيال. وكل يوم الوفود في ازدياد. أهل حوران ينتظرون أمرنا بالحركة. قد بعثنا عدة سرايا في وجهات مختلفة».

وعلى الرغم من امتلاكه ١٥ رشاشاً إضافة إلى البنادق والذخيرة المناسبة فإنه لم يبد أية مقاومة تجاه هجمات البدو والفلاحين الذين انخرطوا في صفوف الثورة من أبناء حوران وجبل العرب والقبائل العربية المتواجدة هناك مما جعل العدو في حالة صعبة بحيث كان بإمكان أي شخص أن يحرك قطعة من القماش الأبيض ويصرح قائلاً: «أنا برتبة رائد: إننا نريد أن نستسلم(١)».

وفي يوم ٢٧ أيلول أخلت آخر وحدة تركية درعا وتحركت قوة السلط إلى الشمال مارة بمزيريب وطفس، وكان يكتنف هذه القوات الذعر التام لاعتقادها باحتمال سيطرة التخريب في حوران التي كانت في وضع ثورة مكشوفة. ولهذا فقد قررت استخدام العنف الدموي ضد بعض القرى الثائرة لكي تكون عبرة لغيرها واختارت طفس ودرعا. حيث قامت بذبح ثمانين امرأة وطفلاً، وكانت الفظائع التي ارتكبها الأتراك بحق السكان المدنيين لا تصدق ولكن الساعة الأخيرة للاستعمار التركي لبلاد الشام كانت قد دقت. لم يتأثر العرب لهذا الإرهاب الوحشي الأعمى ولم يثبط من عزائمهم وإنما تفاعلوا بشدة مع هذه المجازر الوحشية التي قامت بها القوات التركية وكانت أكبر حافز لهم للأخذ بالثأر وعدم ترك العدو يمر بدون عقاب. وتمت معاقبة القوة المسؤولة عن هذه الفظائع والجرائم فوراً وبهذا لم تستطع الوحدات التركية التي تحركت من درعا ومزيريب أن تصل أبداً إلى دمشق حتى هذا التاريخ.

كان الشيخ طلال بن دباس وهو مقاتل ذو شهرة كبيرة وشخصية بارزة في حوران مع الجيش العربي. وعندما اكتشفت الفظائع التي ارتكبت في قريته هجم بمفرده على الرتل التركي ومزق شمله حتى سقط قتيلاً برصاص العدو. وفي فجر يوم ٢٧ اتجهت وحدات الهجانة العربية إلى درعا التي بقيت طويلاً نقطة استناد قوية للأتراك ثم إلى نقطة تبعد قليلاً غربي تقاطع سكة الحديد حيث

---

(١) الوثيقة رقم: ٣٧٧/٣٣٨٣ لعام ١٩٧٩ وزارة الخارجية البريطانية.

أجرت أول تماس مع القوات الهندية في جيش الجنرال اللنبي التي تبعت القوات التركية من الاتجاه الفلسطيني إلى الأردن[١].

ثم شكلت قوات الهجانة العربية الجناح الأيمن الأقصى للقوات الحليفة المتجهة إلى دمشق ودخلت هذه المدينة في ليلة ٣٠ منه وكانت القوات العربية أول من دخل المدينة.

وقد كانت الأيام الأخيرة للحكم التركي في المدينة الشهيرة تتصف بالإذلال والمهانة للجانب المنهزم. فقد رفض السكان بيع المواد التموينية حتى بالذهب. وكان من الصعب جداً الحصول على مواد تموينية للمشافي وقد وضع الألمان يدهم بالقوة على جميع وسائط النقل لاستخدامها لأغراضهم الخاصة. وفي صباح ٣٠ منه شهد الدمشقيون بسرور نشوب قتال مفاجئ بين الأتراك والألمان نتيجة لشره الألمان في وضع يدهم على العربات وعلى ما خف حمله وغلا ثمنه.. وقد سقط نتيجة هذا القتال العديد من القتلى من الجانبين. كما حدثت أيضاً مناوشات كثيرة مماثلة بين الأتراك وأسيادهم البروسيين وقد كانت حصيلة هذه المناوشات وجود عدد من جثث الألمان على امتداد خط الانسحاب. وفي المشافي انهارت الخدمات الصحية التركية تماماً خلال الأيام الخمسة الأخيرة بحيث أصبح الواجب الأول الذي تكفل به الجيش العربي النظامي بعد الاحتلال ضرورة دفن الجثث التي تركت هناك لمدة ثلاثة وحتى

---

(١) سليمان موسى: مذكرات الأمير زيد رقم ٨٣-٨٥ برقيات من الأمير زيد إلى أبيه الملك حسين بتاريخ ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٢٦ أيلول ١٩١٨- ص١٠٨. ثم رقم ٨٦ بتاريخ ١٩١٨/٩/٢٨ وهي برقية من الجنرال اللنبي إلى الملك حسين حيث يهنئه «بالانتصار الكبيرة التي حاز عليها الجيش العربي الهاشمي الذي أخذ نصيبه في قهر العدو والذي به صار تحرير الأمة العربية تحريراً تاماً». ص١٠٩. راجع أيضاً ما كتبه الجنرال الألماني ليمان فون ساندرز في كتابه (خمسة أعوام تركية) ص٣٣١-٣٣٣ و٣٧٠-٣٨٠ أي من سقوط درعا حتى مغادرة الألمان مدينة دمشق في ١٩١٨/٩/٣٠.

خمسة أيام على الأرض حيث مات أصحابها. وقد تم توفير الطعام للمرضى وطلب إلى العناصر العاملة في المستشفى ضرورة متابعة واجباتها.

وفي يوم ٣٠ أيلول ظهراً تبخرت السلطة التركية نهائياً بحيث رفع الدمشقيون المتحمسون العلم العربي على بناء قاعة المجلس البلدي. وقد خرجت آخر وحدة تركية وألمانية مجتازة هذا البناء ونظرت إلى العلم الذي يعلن عن هزيمتها ولكنها لم تتجاسر أبداً على الاعتراض.

وفي الساعة السادسة من صباح يوم ١ تشرين الأول انطلق كل من الشريف ناصر ونوري الشعلان مع أشخاص بارزين آخرين من الميدان محطة القدم إلى السرايا لتسلم إدارة المدينة التي سبق أن أعلنت تحررها من الأتراك والتي أعلنت أيضاً عن ترحابها الحار بقوات الملك حسين بتظاهرات واحتفالات قامت بها. وقد مر الموكب المشار إليه ببطء تحيط به الزهور والعطور وجميع آيات الترحاب والتعاطف تجاه الشريف حسين ورفاقه المناضلين. بينما انطلقت الصرخات ودموع الفرح الشديد وتنهدات الارتياح عند مغادرة القوات التركية الملعونة والمحتقرة من أفواه السكان الذين صلوا طويلاً لوصول الجيش العربي.

وفي الوقت نفسه كانت قوات الجنرال اللنبي تدخل المدينة من محور القنيطرة- دمشق. ولقد كان دخول القوات العربية إلى دمشق «وسط مشاهد من الحماسة الفائقة النظير من جانب أهل المدينة. كانت الشوارع حافلة بالجماهير إلى حد يكاد يتعذر المرور منها، وكانت الجماهير تهتف هتافات تشق عنان السماء وهي ترقص ابتهاجاً[(١)]..

وكان الأمير فيصل قد بعث رسلاً من قبله إلى أعوانه في دمشق يطلب إليهم تسلم زمام الأمور حال انسحاب الأتراك ورفع العلم العربي على أبنية الحكومة في المدينة. وكان وكيل الوالي التركي قبل مغادرته دمشق ظهر يوم ٣٠ أيلول قد

---

(١) تقرير لورنس إلى القيادة البريطانية بتاريخ ١ تشرين الأول ١٩١٨. أوراق ونجت.

اجتمع بشكري باشا الأيوبي وأنبأه بعزمه على الانسحاب وأن عليه أن يتسلم إدارة المدينة، فذهب هذا إلى سجن القلعة وفتح أبوابه وأخرج المسجونين منه باسم الملك حسين والحكومة العربية. وفي الوقت ذاته ذهب الأمير سعيد الجزائري إلى دار الحكومة ورفع العلم العربي الذي كان أخوه الأصغر عبد القادر قد جاء به من مكة في السنة السابقة، وأعلن تأليف حكومة عربية باسم الملك حسين.

كان الأمير سعيد الجزائري حفيد الأمير عبد القادر الكبير الذي حارب الفرنسيين في الجزائر أعواماً عديدة ثم استقر في دمشق. وقد نفاه الأتراك مع أخيه وأبيه إلى الأناضول بعد إعدام عمه الأمير عمر الجزائري. وبعد إعلان الثورة العربية فر عبد القادر من المنفى وذهب إلى مكة، فأعطاه الملك حسين علماً من أعلام الثورة وطلب إليه أن يرفعه في دمشق. وجاء عبد القادر بالعلم بعد أن مر بالعقبة واجتمع بفيصل. وعندما ذهب الأمير سعيد إلى وهيدة غربي معان رسولاً من قبل جمال باشا الصغير إلى فيصل للبحث في عقد الصلح بين الأتراك والعرب، طلب منه فيصل أن يعلن الاستقلال في دمشق حال انسحاب الأتراك وقبل وصول قوات الاحتلال الأجنبية[١]. وقد تعاون سعيد وأخوه عبد القادر مع السلطات التركية في الأشهر القليلة التي سبقت الانسحاب وأنشأ الأخوان قوة من المغاربة «لحفظ الأمن ولمساعدة الجيوش التركية». واستغل الأمير سعيد يوم ٣٠ أيلول هذه القوة لفرض نفسه رئيساً

---

(١) بعث الأمير فيصل من درعا رسالة إلى الأمير سعيد يطلب فيها منه استلام دمشق حال انسحاب الأتراك «باسم الحكومة العربية، وارفعوا الأعلام الهاشمية على جميع المباني الأميرية وبداخل البلدة. وإذا لم يسلموها إلا حرباً فعند انسحابهم من البلدة أملي وطيد بأنكم ترفعون الاعلام العربية قبل دخول أي كان إلى البلدة. وأنكم تعلنون الحكومة المؤقتة باسم جلالة ملك العرب. واستقبلوا جيوش الحلفاء الداخلين وبأيدكم الأعلام العربية». ولكن فائز الغصين الذي كان يحمل الرسالة لم يستطع الوصول إلى دمشق في الوقت المناسب لتسليم الرسالة: راجع كتاب محمد جميل بيهم، العهد المخضرم، ص ص ٧٤-٧٥.

للحكومة المؤقتة. وبادر في اليوم ذاته فبعث إلى رؤساء البلديات في المدن السورية واللبنانية البرقية التالية:

«بناء على تسليمات الدولة التركية فقد تأسست الحكومة الهاشمية على دعائم الشرف. طمنوا العموم وأعلنوا الحكومة باسم الحكومة العربية».

رئيس الحكومة العربية المؤقتة

«الأمير سعيد»

وفي صباح يوم ١ تشرين الأول. وصل الرائد آرثر أولدن من الفرقة الأسترالية إلى دار الحكومة وقال للأمير سعيد أنه يريد مساعدته في توطيد الأمن في دمشق فأجابه سعيد بأن الأمن مستتب وأنه لا حاجة لمساعدته وطلب الرائد أولدن دليلاً فأعطاه الأمير سعيد اثنين من الضباط العرب لكي يدلاه على مخارج دمشق وللحال انسحب. وبعد ذلك بقليل وصل الشريف ناصر إلى دار الحكومة فعرض عليه سعيد أن يتولى زمام السلطة بنفسه، ولكن ناصر اعتذر بأنه مريض وكلف سعيد بالاستمرار في إدارة الحكم ريثما يصل الأمير فيصل **وكتب له التفويض التالي:**

«إن سمو الأمير سعيد مكلف بإدارة الحكومة لحين حضور مولانا سمو الأمير فيصل».

ولكن لم يلبث أن وصل لورنس وعدد من أعضاء جمعية العربية الفتاة، فغاظهم تسلم الأمير سعيد زمام الحكم، لأن لورنس كان غاضباً منذ أن خذله عبد القادر وأخوه سعيد في مهمة نسف جسر اليرموك.

وأعضاء الجمعية العربية الفتاة كانوا يعتبرون سعيداً متعاوناً مع الأتراك وليس من الوطنيين القوميين. لهذا طلب لورنس من الشريف ناصر

أن يأمر سعيد بالتنحي عن الحكم ففعل. وتسلم زمام الحكم اللواء شكري باشا الأيوبي مدة يومين، حتى وصل فيصل فعين أمير اللواء رضا باشا الركابي حاكماً عسكرياً على دمشق وعين شكري الأيوبي حاكماً عسكرياً على بيروت وطلب منه التوجه إليها في الحال.

وفي ١ تشرين الأول بعث اللنبي إلى الملك حسين برقية يقول فيها: «يسرني أن أبلغ جلالتكم أن جنودنا المشتركة قد دخلوا مدينة دمشق الساعة السادسة من صباح اليوم...» كما أبرق في اليوم ذاته إلى وزارة الحربية «بأن فرقة الخيالة الأسترالية دخلت ضواحي دمشق من الشمال الغربي الليلة الماضية. وفي الساعة السادسة من صباح اليوم تم احتلال المدينة من قبل فيلق خيالة الصحراء والجيش العربي[١]».

كانت دمشق تنتظر دخول الجيش العربي الفاتح بتلهف وفخر واعتزاز. لقد كان دخول هذا الجيش العربي المبين أمنية كل مواطن عربي في بلاد الشام

---

(١) إن البرقية التي أرسلها الجنرال اللنبي إلى الملك حسين بتاريخ ١٩١٨/١٠/١ التي يهنئه فيها بالانتصارات وبدخول «الجنود المشتركة مدينة دمشق الساعة السادسة صباحاً تدل دلالة قاطعة على أن الجنود الأستراليين لم يدخلوا عاصمة سورية قبل الجيش العربي» راجع سليمان موسى: المراسلات التاريخية رقم ١٧٤ ص٢١٣ مع الحاشية وقد ناقش زين نور الدين الزين هذا الموضوع في كتابه «الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سورية ولبنان» بيروت- دار النهار للنشر ١٩٧١ ص٢١٦-٢١٧. أما الحكم الفاصل في هذه القضية فهو ما جاء في برقية الجنرال اللنبي إلى وزارة الحربية البريطانية بتاريخ ١٩١٨/١٠/٦ حيث جاء حرفياً: «أعلن العرب تأسيس حكومة عربية برئاسة الملك حسين ورفعوا العلم العربي مباشرة عند بدء إخلاء دمشق من قبل الأتراك وقبل أن تغادر القوات التركية المدينة وقد عين حاكم عربي لدمشق ولذلك عندما وصلت قواتي (يعني القوات العربية والبريطانية) المدينة كانت هناك إدارة عربية في المدينة، وكان العلم العربي يرتفع فوق الأبنية الرسمية». راجع سليمان موسى: المراسلات التاريخية رقم ١٧٩-ص٢١٥.

كلها. لقد كان الجميع يعرفون أن سقوط دمشق في يد العرب أهلها والمنافحين عن حوزتها هو بحد ذاته عمل جذري وانعطاف حاسم في تاريخ الأمة العربية منذ إعلان الثورة في حزيران عام ١٩١٦. فقد كانت دمشق على مر العصور عاصمة الدولة الأموية التي ترامت أملاكها من الصين شرقاً إلى فرنسا والبرينيه غرباً. وكأن معركة دمشق خاتمة المطاف وبدء لمرحلة جديدة كلها أمل مشرق بالمستقبل والاستقلال الوطني، والاطمئنان القومي الراسخ. لقد ناضل رجال الثورة العربية الكبرى ٢٨ شهراً ليصلوا إلى تحقيق هذا الحلم العظيم الذي يمثل الدخول إليها خاتمة عهد طويل مظلم من الحكم الأجنبي وبداية عهد جديد مشرق يصبح العرب فيه سادة أنفسهم والمسيطرين على مصائرهم، حيث يمكنهم المشاركة في الحضارة العالمية.

وفي تاريخ ٣ تشرين الأول وصل الشريف فيصل القائد الأعلى لعمليات الشمال في قوات الملك حسين إلى خارج المدينة الزاهرة التي انتقلت من جديد إلى السلطة العربية وقد وضعت سيارة تحت تصرفه لنقله خلال الحشود التي كانت بانتظاره لتقوم بتحيته والحفاوة به عند دخوله المدينة.

ولكن الشريف فيصل القائد الحكيم المتواضع الذي كان يتميز بإحساس تاريخي مرهف وباستشفاف آفاق المستقبل فضل دخول مدينة دمشق ممتطياً جواده يواكبه حوالي ١٥٠٠ شخص من أركانه ورجاله مما ترك أثراً طيباً في نفوس سكان المدينة.

وعمت دمشق موجة عارمة من الفرح والبهجة. ولم يكن من اليسير على الكثيرين أن يصدقوا بسرعة أن كابوس الظلم والفوضى الذي امتد أربعمئة عام قد زال وأن دمشق عاصمة الدولة العربية الكبرى الأولى عادت ترفل بثياب العز من جديد. وقد ذكرها موكب فيصل وصحبه الأشاوس بموكب التحرير الأول موكب أبي عبيدة وخالد.

وكان دخول اللنبي إلى دمشق في نفس اليوم فاستقبل بالحفاوة كصديق وحليف. وسرعان ما عقد بينهما أول اجتماع طويل حضره كبار القادة العرب والإنجليز. تم

فيه بحث الترتيبات العسكرية لمطاردة القوات التركية المنسحبة. أما الترتيبات ذات الطابع السياسي فقد أجملها اللنبي في برقية منه إلى وزارة الحربية:

«**لقد أبلغته (فيصل) أنني على استعداد للاعتراف بالإدارة العربية للأراضي المحتلة شرقي نهر الأردن من دمشق إلى معان،** بصفة إدارة عسكرية تحت سيطرتي العليا، وأبلغته كذلك أنني سوف أعين ضابطي ارتباط بيني وبين الإدارة العربية: أحدهما بريطاني والآخر فرنسي وأن هذين الضابطين سوف يتخابران معي عن طريق كبير ضباطي السياسيين. وقد أبلغت الشريف فيصل أن الحكومتين الفرنسية والبريطانية وافقتا على الاعتراف بمركز المحارب للقوات العربية المقاتلة في فلسطين وسورية، بصفة حلفاء ضد العدو المشترك(١)».

تم تحرير سائر سورية ولبنان قبل أن ينتهي تشرين الأول نتيجة لحركتين حربيتين متميزتين، سارت الحركة الأولى على طول الساحل مارة بصور وصيدا إلى بيروت وطرابلس، وسلكت الثانية الطريق الداخلية من خلال حمص وحماة وحلب، ولم يقم العرب بدور هام في الأولى وإنما كان لهم نصيب وافر في الثانية.

بدأ التقدم الساحلي في اليوم الثالث من حيفا وعكا اللتين احتلتا بعد أن تغلغل اللنبي في البلاد بقليل، فسارت فرقة بريطانية على طول الطريق التاريخي الجميل المتجه من عكا شمالاً واحتلت صور في اليوم الرابع وصيدا

---

(١) سليمان موسى- المراسلات التاريخية رقم ١٧٩. ص٢١٥-٢١٦. راجع أيضاً برقية اللنبي إلى ونجت في ٣ تشرين الأول. (أوراق ونجت). وكان بلفور قد بعث في ٢٨ أيلول برقية إلى ونجت قال فيها إنه اقترح على الحكومة الفرنسية «الاعتراف بصفة المحارب لحلفائنا العرب الذين يقاتلون من أجل الاستقلال من الحكم التركي». أما من كان يعنيهم بلفور بقوله إنهم حلفاء فقد ورد في الجملة التالية من البرقية ذاتها: «إن هذه الصيغة بينما تعترف بالحركة القومية العربية وتشمل جميع العرب في مضمونها، فإنها لن تعطي الانطباع بأننا نرغب فرض الملك حسين على سورية». P.R.O., CAB 27/34.

في السادس، وكأنما المسير نزهة عسكرية لأن الفرقة لم تواجه أدنى مقاومة. واستقبلت الكتائب في كل مكان بموجات من الترحيب. فدخلت بيروت في اليوم الثامن، واستمرت مفرزة تغذ السير زاحفة إلى طرابلس واحتلتها بعد خمسة أيام.

وفي الوقت نفسه كان اللنبي قد أصدر أوامره بشن هجوم من الجنوب إلى الشمال على محور دمشق حلب، وكان هذا الهجوم أصعب من سابقه، – على المحور الساحلي– إذ كانت القوات البريطانية تعاني الشعور بإرهاق الحملة القاسية، وزادها سوءاً انتشار مرض مفزع وصعوبة ضمان التموينات وهي على تلك المسافة البعيدة من القاعدة. زد على هذا كله أن فئات غير صغيرة من العدو كانت متمركزة في نقاط مختلفة على طول الطريق، وكان الاعتقاد بأن العدو قد جمع حشوداً قوية في الشمال لتدافع عن حلب، إلا أن هذه العقبات جميعاً ذللت. وهنا أيضاً كان النجاح ثمرة للتعاون بين القوات العربية والبريطانية.

وفيما كانت فرقة بريطانية تتقدم على طول الطريق الرئيسي من دمشق إلى حلب كان لواء من النظاميين العرب يحمي ميمنتها، كذلك قام الشريف ناصر على راس قوة غير نظامية لمهاجمة حمص من الشرق فوصلها في الخامس عشر من تشرين الأول، قبل وصول طلائع القوات البريطانية بيوم واحد، وقد وجد أن الأتراك قد انسحبوا.. وبعد يومين احتل حماة دون مقاومة أيضاً، إلا أنه واجه مقاومة صلبة في ضواحي حلب، حيث كان القائد مصطفى كمال على رأس فيلق قوي جيد الإعداد والتدريب مؤلف من فرقتين. ورسمت خطة هجوم مشترك تقوم به الخيالة البريطانية والنظاميون العرب في السادس والعشرين ولكن في عصر الخامس والعشرين تغلغلت القوات العربية القبلية في المدينة، وأمعنت في الحامية التركية قتلاً وتدميراً.. فأرغمت على الانسحاب وقامت القيادة التركية بتنظيم تراجع الفرقتين اللتين تحميان حلب

في الجنوب. وفي صباح السادس والعشرين سارت الخيالة البريطانية والنظاميون العرب ودخلوا المدينة بينما كن لواء من الخيالة الهندية يصد ببسالة هجوماً مصمماً عنيداً يقوم به مصطفى كمال على بضعة أميال إلى الشمال من المدينة(١).

وفي التاسع والعشرين احتلت مفرزة من قوات الشريف ناصر محطة المسلمية، ملتقى السكك الحديدية التي تتفرع إلى القسطنطينية وسورية والعراق، وكانت هي آخر مركز تحتله قوات الحلفاء شمالاً لأن تركيا وقعت في اليوم التالي هدنة مدروس (Mudros)(٢).

أثار تحرير بيروت وحلب بل وكل مدينة أخرى في سورية ولبنان مشاهد متماثلة من البهجة والفرح كالتي استقبل بها المحررون بدمشق وارتفعت العواطف المستثارة بآمال الحرية السياسية- كما حدث في دمشق أيضاً- إلى نوبة محمومة من السرور للخلاص من الآلام.

وهكذا أصبحت أربعمائة عام من الاحتلال التركي البغيض للبلاد العربية في ذمة التاريخ.



---

(١) راجع ليمان فون ساندرز: «خمسة أعوام تركية» المذكور سابقاً. ص٣٨٤ حتى ٣٩٦ راجع أيضاً دراسة المؤرخ الألماني المعاصر فريتز فيشر Friz Fischer في مقالته: «أهداف الحرب الألمانية» في المجلة التاريخية (لألمانية) سنة ١٩٥٩- المجلد ١٨٨ ص٣٠٩ وما بعدها. وقد درس هذا المؤرخ نهاية الحرب الكونية الأولى وما رافقها من مفاوضات وأحداث في كتابه الشهير «الهجوم للسيطرة العالمية»: أهداف سياسة ألمانيا القيصرية في حرب ١٩١٤-١٩١٨». الطبعة الثالثة- دوسلدورف عام ١٩٦٩.

(٢) نسبة إلى ميناء مدروس في بحر إيجه، وبها أنهيت الحرب العامة في الشرق في ٣٠ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩١٨.


الهيئة العامة
السورية للكتاب

الفَصْلُ الثَّانِي

إعلان استقلال سورية ومبايعة فيصل ملكاً

ينبغي لنا أن نعترف بأن في فرنسا عدداً كبيراً من الرجال الذين ينقصهم الفهم والعدل اللذين يتحلى بهما الأمير فيصل».

«الجنرال بريمون»[1].

أولاً- نهاية الحكم التركي:

انتهى الحكم التركي في دمشق في الثلاثين من أيلول ١٩١٨، الذي استمر زهاء أربعمائة عام.. ففي عصر ذلك اليوم رفع العلم على سارية فوق مبنى البلدية في ساحة المرجة وهي نفس الساحة التي شهدت منذ سنتين وبضعة شهور تنفيذ حكم الإعدام بأحرار الشام.. كان ذلك العلم هو علم الثورة العربية الكبرى **بألوانه المتوازية الأسود والأخضر والأبيض ويشمل الألوان الثلاثة مثلث ذو لون أحمر عنابي**[2].

---

(١) الجنرال بريمون في كتابه (الحجاز في الحرب العالمية). باريس ١٩٣١-ص٢٢.

(٢) راجع جريدة القبلة الصادرة في مكة العدد (٨٢)، ٧ شعبان ١٣٢٥ حزيران ١٩١٧.

أما اللون الأسود فهو رمز راية (العقاب) وهي راية الرسول العربي (ﷺ) المشهورة التي رفعها في غزوة خيبر كما اتخذت دولة بني العباس اللون الأسود شعاراً لها.. **أما اللون الأخضر** فهو شعار الدولة الأموية كما أن هذا اللون هو الشعار الذي اشتهر به آل البيت عليهم السلام منذ أحقاب طويلة.. **واللون الأبيض** يمثل صفاء النفس العربية وكان شعاراً للعرب في دور من أدوارهم، كما كان شعار الدولة الفاطمية.

أما اللون الأحمر الذي يشمل الألوان الثلاثة فهو لون راية الأسرة الهاشمية من عهد جدها الشريف أبي نمي وحتى الوقت الحاضر.

وقد دخل الأمير فيصل دمشق دخول الظافر ممتطياً جواداً عربياً على رأس قوة عسكرية قوامها ١٥٠٠ فارس عربي وسط أهازيج من الحماسة والابتهاج لم تشهد البلاد لها مثيلاً.. كانت دمشق (قلعة الأمة العربية) تمثل الشيء الكثير في نظر الأمير فيصل وفي نظر أبيه الشريف حسين قائد الثورة العربية الكبرى.. إنها نهاية مطامح العرب الوطنيين.. وكان تحريرها من ربقة الاستعمار التركي يشكل تحقيقاً– ولو جزئياً– لأمانيهم القومية في الاستقلال ولإنشاء الدولة العربية الواحدة[١].

ذكرنا أن الأمير فيصل عيّن أمير اللواء علي رضا باشا الركابي[٢] **حاكماً عسكرياً عاماً وأصدر التعليمات** لأمير اللواء شكري باشا الأيوبي بالذهاب إلى بيروت وتأسيس الحكومة العربية فيها بناء على طلب أهلها..

---

(١) راجع بالمعنى ذاته: زين نور الدين زين: الصراع الدولي في الشرق الأوسـط وولادة دولتي سورية ولبنان المذكور سابقاً ص ٧٩.

(٢) ولد وتوفي في دمشق (١٨٧٧–١٩٤٢). تعلم في دمشق، وتخرج من المدرسة الحربية بالآستانة. تولى وظائف عسكرية في القدس، فالمدينة عام ١٩١٢. وكان من المؤمنين بالقومية العربية وانتسب إلى جمعية العربية الفتاة والعهد السريتين. عين حاكماً لدمشق ورئيساً لوزارتها مع دخول الجيش العربي إليها عام ١٩١٨ ثم استقال ولزم بيته. ثـم التحق بإمارة شرقي الأردن في عمان عام ١٩٢٢ وتولى رئاسة الوزارة مرتين وعاد إلى دمشق إلى أن توفي.

وذلك أن أعيان بيروت بعثوا ببرقية إلى (القيادة العربية العليا) في دمشق طلبوا فيها أن ترسل دمشق إليهم ممثلاً للشريف حسين لينظم أمر الحكومة العربية في المدينة. فبعث نوري السعيد ببرقية جوابية لهم لكي يرفعوا العلم العربي (بعد أن وصف شكله وألوانه) على جميع المباني الحكمية، وأن يترقبوا وصول قوة عسكرية عربية لمساعدتهم في مهمتهم هذه. وعندما أخبر الأمير فيصل عن الوضع في بيروت وافق على إرسال شكري باشا فوراً على رأس قوة عسكرية رمزية قوامها مائة جندي عربي ومعهم ثمانية رشاشات بالإضافة إلى الأسلحة الفردية وعدد من الأعلام العربية.

غادرت هذه القوة دمشق في الثاني من شهر تشرين الأول ووصلت بيروت في الرابع منه بعد سفرة عسيرة على ظهور الجياد لأن الألمان كانوا قد خربوا الخط الحديدي بين المدينتين. وإضافة إلى ذلك فإن برقية الأمير سعيد الجزائري كانت ذات تأثير فعال.. إذ إن رئيس بلدية بيروت عمر الداعوق عندما تلقى البرقية بعد ظهر يوم ٣٠ أيلول ١٩١٨ ذهب مع ثلاثة من أعيان بيروت إلى والي ولاية بيروت إسماعيل خير بك وأطلعه على البرقية.. وبعد شيء من التردد وافق الوالي على تسليم شؤون الإدارة، وأعطى رئيس البلدية كتاباً رسمياً مؤرخاً في ١ تشرين الأول ١٩١٨ وجهه إلى جميع مأموري الحكومة العثمانية في الولاية، قائلاً أنه بسبب نشوء الوضع الخطير الناجم عن تأسيس حكومة عربية في دمشق، فإنه قرر تسليم شؤون الإدارة في بيروت إلى رئيس البلدية، وأبلغ المأمورين بانتهاء وظيفتهم مع الحكومة العثمانية..

وهكذا أصدر رئيس الحكومة العربية في بيروت بياناً بتاريخ ١/١٠/١٩١٨ نشرته الصحف البيروتية أعلن فيه تسلمه زمام السلطة. وبالفعل بدأت الإدارة العربية بممارسة عملها.. ثم اتصلت بحكومة دمشق ورفعت العلم العربي على دار الحكومة في احتفال شعبي وقامت برفع العلم العربي **المناضلة فاطمة المحمصاني** (شقيقة الشهيدين محمد ومحمود).

في السادس من تشرين الأول ١٩١٨ تسلم شكري الأيوبي زمام السلطة وأعلن انضمام لبنان إلى الحكومة العربية وعين حبيب باشا السعد حاكماً مدنياً بعد أن أقسم يمين الولاء للملك حسين.. وكان مغزى ذلك أن الحكومة العربية الجديدة اعتبرت لبنان جزءاً عادياً من أجزاء سورية.. كما اعتبرت امتيازاته القديمة بحكم الملغاة.

وحذت المدن الأخرى حذو بيروت، ففي صيدا شكل الأهلون إدارة مؤقتة ورفعوا العلم العربي، ثم وصل مندوب الحكومة العربية في دمشق على رأس ٥٠ رجلاً.. وحدث الأمر ذاته في اللاذقية وفي طرابلس وصور وبقية المدن الساحلية.

لكن الأمور لم تسر على ما يرام وكأن قدر هذه الأمة أن تكافح دائماً وأبداً ضد الاستعمار بمختلف أشكاله وصوره.. وقديماً قيل: تجري الرياح بما لا تشتهي السفن..

ذلك أن صدمة عنيفة كانت بانتظار الأمير فيصل.. ومفاجأة لم تكن متوقعة.. لأن الجنرال اللنبي[1] القائد العام للحملة البريطانية كان في ذلك اليوم (٣ تشرين أول عام ١٩١٨) يسرع الخطى للوصول إلى دمشق وهو مضطرب الخاطر قلق البال.. بسبب أخبار خطيرة كان قد تلقاها من سورية. وكان المصدر الرئيسي لاضطرابه وقلقه.. تلقيه أخباراً من مركز القيادة العامة في بير سالم، ومن المفوض السامي البريطاني في مصر ومن القنصل الفرنسي

---

(١) اللنبي أدمون هنري (١٨٦١-١٩٣٦) قائد بريطاني اشترك في حرب البوير في فرنسا في الحرب العالمية الأولى وقاد الحملة البريطانية في مصر (١٩١٧-١٩١٩) فغزا فلسطين واستولى على بيت المقدس وانتقل إلى سورية ورفع إلى رتبة فيلد مارشال ومنح لقب فيكونت للدور الذي لعبه في طلب تركيا الهدنة من الحلفاء بسبب معاركه العسكرية ضد الجيش التركي، عيّن مكان ونجت كمندوب سام في مصر إثر اندلاع ثورة ١٩١٩ واستقال من منصبه عام ١٩٢٥ وعاد إلى بريطانيا.

في القاهرة، ومن السيد بيكو، ولاسيما تلك الرسائل التي تلقاها من وزارتي الحربية والخارجية وكان النغم السائد في كل هذه الرسائل ما مؤداه: «اخنقوا حركة فيصل في مهدها.. أوقفوا السيل العربي.. تذكروا اتفاقية سايكس-بيكو[1]».

التقى الأمير فيصل والجنرال اللنبي في فندق فيكتوريا بدمشق في نفس اليوم وحضر المقابلة الرائد لورنس واتسم اللقاء بشيء من الحدة والصخب ولا غرو في ذلك فقد كان الرجلان على طرفي نقيض.. فقد كان الأمير فيصل يمثل الإنسان العربي في تواضعه ونبله وكبريائه وأصالته.. وكان الجنرال اللنبي يمثل العقلية الإنكليزية الاستعمارية المتغطرسة المتعالية.. والتي لا تألف سوى إصدار الأوامر..

بدأ الجنرال اللنبي الكلام: «وقال إن الحرب لم تنته بعد.. وأن الأرض التي احتلتها الجيوش التي تأتمر بإمرته تعتبر «أرض العدو» في الوقت الحاضر تعتبر بريطانيا نفسها مسؤولة عن إدارة هذه المناطق المحتلة.. ومهما يكن من أمر وبحسب اتفاقية عقدت مع الفرنسيين فإنه تلقى تعليمات بالسماح للفرنسيين لتولي شؤون الإدارة في المنطقة «الزرقاء» التي تمثل سورية غربي دمشق وحلب.. والتي تشمل مدينة بيروت ولبنان..» ثم التفت اللنبي إلى الأمير فيصل وشرح له أن لمنطقة (آ) المشار إليها في تلك الاتفاقية مع فرنسا والتي تضم دمشق وحمص وحماة وحلب فإن فرنسا ستكون الدولة الحامية لها. وأضاف: «ولكن فرنسا قطعت عهداً على نفسها أن تساند قيام دولة عربية مستقلة[2]».

---

(١) راجع مقالة نشرها بيكلز ويلسون في المجلة الوطنية الإنكليزية عدد أيلول ١٩٢٠- ص٤١-٥٤.

(٢) راجع سليمان موسى: المراسلات التاريخية المذكورة سابقاً رقم ١٧٩-ص٢١٥-٢١٦ عن اجتماع اللنبي بالشريف فيصل في حضور مرافقي ومرافقيه وراجع أيضاً التقرير=

وفي ذلك الحين تلقى الجنرال اللنبي برقية من وزارة الخارجية البريطانية تعلمه فيها باعترافها أن العرب يعتبرون مشتركين في هذه الحرب. وكانت التوجيهات المعطاة للجنرال اللنبي تسمح له بأن يعترف بحكومة عربية برئاسة فيصل كممثل لأبيه الملك حسين في الأراضي العربية المحررة الواقعة شرقي نهر الأردن من العقبة حتى معان بما في ذلك دمشق، على أن يحتفظ بحقه في تعيين ضابطي ارتباط، الواحد منهما بريطاني والآخر فرنسي ليكونا في مساعدته عندما يتصل بالحكومتين البريطانية والفرنسية.. فيما يتعلق بشؤون الحكم العربي في تلك المنطقة.. وعندما احتج الأمير فيصل بشدة على تولي الفرنسيين أمر سورية وعلى تعيين ضابط ارتباط فرنسي، أجابه الجنرال اللنبي بإصرار أن هذه الأوامر قد صدرت إليه بصفته القائد العام في فلسطين وسورية ويجب عليه أن يطيع أوامره كقائد لجيش حليف ونصح الأمير فيصل بأن يقبل الوضع القائم إلى حين عقد مؤتمر الصلح[(١)].

علم النقيب كولندور، نائب المندوب الفرنسي في دمشق بسفر شكري الأيوبي إلى بيروت بتاريخ ٥ تشرين الأول فاحتج أمام فيصل على إرسال الجنود العرب إلى بيروت قائلاً: إن هذا يخالف الاتفاقات المعقودة، وعندما علم الجنرال اللنبي بالأمر أبرق في ٦ تشرين الأول ببرقيتين إلى وزارة الحربية البريطانية يقول فيهما: «بعد الإشارة إلى الفقرة الثانية من اتفاقية «سايكس – بيكو» فإن العمل غير المتوقع الذي اتخذته الحكومة العربية قبل أن يحتل الحلفاء بيروت احتلالاً فعلياً، أو حتى دمشق، يضع الممثل الفرنسي

= الذي أرسله الأمير فيصل إلى أبيه الملك حسين من دمشق بتاريخ ١٩١٨/١٠/٢٠ رقم ١٨١–ص٢١٦–٢١٩.

(١) راجع زين نور الدين زين في كتابه «الصراع الدولي في الشرق الأوسط» وولادة دولتي سورية ولبنان، دار النهار، ١٩٧١، مترجم، ص٨٠– ٨٢.

في وضع صعب.. وأن معرفة العرب بالتأكيدات التي أعطيت للسوريين السبعة تجعل الموقف معقداً في بيروت لأن تلك التأكيدات أعلنت أن حكومات هذه المناطق سوف تؤسس بناء على رغبة المحكومين. كما أن الزعماء العرب لم يبلغوا رسمياً مواد الاتفاقية الإنكليزية الفرنسية(١)».

بدأ تنفيذ الخطة المرسومة بين الحكومتين الفرنسية والإنكليزية يسير بثبات وبسرعة، ففي ٩ تشرين الأول وصلت القوات الإنكليزية براً إلى بيروت ووصلت قطع من الأسطول الإنكليزي بحراً إلى بيروت، واعتبر المسؤولون البريطانيون أن الأمير فيصل خرج عن الحد المرسوم له عندما أرسل شكري الأيوبي إلى بيروت بدون استشارة وموافقة الجنرال اللنبي.. ولذلك فقد أصدر الجنرال اللنبي بصفته القائد العام للقوات المسلحة في فلسطين وسورية أمراً بتعيين العقيد بيباب Piepape الفرنسي حاكماً عسكرياً للمنطقة الغربية. وطلب قائد القوات البريطانية التي وصلت إلى بيروت من شكري الأيوبي أن ينزل العلم العربي ويغادر بيروت ولكن شكري الأيوبي رفض تنفيذ هذا الأمر وقال: إنه لن يفعل شيئاً من هذا القبيل إلا إذا تسلم أمراً مباشراً بذلك من الأمير فيصل.. ومضى كلايتون يطلب من فيصل أن يترك لبنان وشأنه وأن يبذل جهوده لتأسيس إدارة سليمة في المنطقتين (آ و ب). وأبرق اللنبي إلى فيصل يطلب منه أن يصدر أمراً لشكري الأيوبي بالانسحاب.. ولكن اللنبي لم ينتظر إجراءات فيصل بل تم بأمره ليلة ١٠/١١ تشرين الأول إنزال الأعلام العربية عن بيروت والمدن الساحلية الأخرى على الرغم من معارضة المأمورين العرب.

وأبرق اللنبي إلى وزارة الحربية في ١١ تشرين الأول قائلاً: «**إن العلم العربي أنزل ولكن فيصل لم يسحب شكري** حتى الآن «لقد حذر فيصل من أنه إذا حاول السيطرة على المنطقة الزرقاء التي يجب أن يبت مؤتمر

---

(١) راجع سليمان موسى: الحركة العربية– ص٣٩٨.

السلم في أمرها، فإنه سيلحق الضرر بقضيته» بينما أبلغ فيصل «بأن الأوامر والتصريحات الصادرة عن القائد العام تعتبر نافذة المفعول دون سواها». وكانت هذه التوجيهات كرد غير مباشر على البيان الذي أصدره فيصل في ٥ تشرين الأول بإنشاء «حكومة عربية مستقلة استقلالاً مطلقاً لا شائبة فيه باسم مولانا السلطان حسين شاملة جميع البلاد السورية[١]».

وعندما بلغ فيصل أمر إنزال الأعلام العربية أرسل برقية احتجاج طويلة إلى اللنبي بشأن «ما حصل على الراية العربية ببيروت من الحقارة. الراية التي كنتم بالأمس أخبرتموني أنها حليفة راية الحكومة البريطانية العظمى.. إن هذه الراية........ رفعت من طرف أمة اختارت هذه الراية لنفسها والتحقت بأبناء جلدتها وجنسها وطلبت منا إرسال حاكم إليها بدون أي مجبر، كما كان يفعل أهل اللاذقية وطرابلس.. إن أهل ساحل سورية أرادوا وفعلاً انضموا إلى إخوانهم العرب، فهل من العدل والإنصاف حرمانهم من أمانيهم؟ ولكني عربياً ولأنني نائب هنا عن والدي صاحب الراية المهانة من جانب حلفائه، أطلب إعادة شرف تلك الراية بإرجاعها كما كانت وتحقيق أماني أهل بيروت[٢]...».

وأبرق كلايتون في ١٢ تشرين الأول «إن الوضع في بيروت سوِّي محلياً وتولى بيباب الحكم، ولكن لم تجر تسوية الموضوع الرئيسي لأن فيصل يعلن أنه لا يستطيع رسمياً أن يستدعي شكري دون أن يفقد مكانته،

---

(١) راجع بلاغ فيصل المؤرخ في ٥ تشرين الأول ١٩١٨- أمين سعيد- المجلد الثاني - ص ٢-٣. وراجع أيضاً سليمان موسى: الحركة العربية - ص٣٩٩.

(٢) راجع سليمان موسى: المراسلات التاريخية رقم ١٨٢- ص٢١٩-٢٢٠ برقية من الأمير فيصل إلى الجنرال اللنبي. الواقع أن هذه البرقية لا تحمل تاريخاً ولكنها قد أرسلت- كما يرجح- في أواسط الشهر.

مما قد يستدعي استقالته». **ولكن فيصل اشترط شرطين لكي يأمر شكري بالانسحاب:**

١- الحصول على تأكيد من القائد العام بأن أية ترتيبات تجري الآن في المناطق الساحلية هي ذات طابع عسكري ولا تؤثر في التسوية النهائية.

٢- توافق حكومتا بريطانيا وفرنسا على تأكيد القائد العام.

وأبدى كلايتون رأيه بأن من الضروري إصدار تصريح يحدد السياسة الفرنسية لتبديد مخاوف العرب[١]. وأراد فيصل أن يقدم استقالته احتجاجاً، ولكن كورنوالس ضابط الارتباط البريطاني أقنعه بتأجيل الإقدام على هذه الخطوة إلى أن يصل اللنبي إلى دمشق[٢].

كانت السياسة البريطانية في ذلك الحين تتجه لإقناع الملك حسين بالاكتفاء بفتات المائدة الذي تقدمه اتفاقية سايكس – بيكو للعرب[٣]، فسارع الجنرال اللنبي وكلايتون إلى دمشق للاجتماع بفيصل هذا الاجتماع الذي تم في ١٦ تشرين الأول ١٩١٨. في بداية الاجتماع نقل فيصل لهما قلقه وقلة ثقته بمقاصد الضباط الفرنسيين الذين قد يستغلون المناصب الكبيرة التي سيتولونها للتأثير على مبدأ تقرير المصير لمصلحة فرنسا عندما تحين التسوية النهائية.

---

(١) البرقية رقم ١١٥ (EC. 1918) ملف ٣٤/٢٧ بتاريخ ١٠/١٢.

(٢) راجع سليمان موسى: المراسلات التاريخية رقم ١٨٠- ص٢١٦ وهي برقية من كلايتون إلى وزارة الخارجية البريطانية بتاريخ ١٩١٨/١٠/١٣ حيث يقول: «اغتم فيصل كثيراً عندما بلغه نبأ إنزال الأعلام العربية في بيروت وقد قدم استقالته ولكن ضابط الارتباط البريطاني أقنعه بتأجيل اتخاذ أية خطوة إلى أن يصل القائد العام إلى دمشق» وراجع أيضاً في هذا الموضوع ما كتبه سليمان موسى نفسه في كتابه الحركة العربية – ص٤٠٠.

(٣) رسالة ونجت إلى اللنبي بتاريخ ٣ تشرين الأول ١٩١٨ (أوراق ونجت)، ملف ٣٤/٢٧.

وكان جواب اللنبي كما أبرق به إلى لندن: «لقد أعطيت للأمير فيصل تأكيداً رسمياً بأنه مهما تكن الإجراءات التي يمكن اتخاذها خلال فترة الإدارة العسكرية، فإنها ستكون إجراءات مؤقتة، ولن يسمح لها أن تؤثر في التسوية النهائية التي سيجريها مؤتمر السلم، وهو المؤتمر الذي لا شك في أن العرب سيمثلون فيه. وقد أضفت قائلاً: «إن تعليماتي للحكام العسكريين سوف تمنعهم من التدخل في المسائل السياسية وأنني إذا وجدت أياً منهم يخالف هذه التعليمات فسأعمد إلى عزله من منصبه. وقد ذكرت فيصل بأن الحلفاء مرتبطون بشرفهم وهم سيحاولون التوصل إلى تسوية تتفق مع رغبات الشعوب ذات العلاقة، وحثته أن يضع ثقته في حسن نياتهم[١]».

وأظهر اللنبي فكرته بأنه لا يمكن القضاء على شعور عدم الارتياح الذي يحس به العرب عموماً إلا بإصدار تصريح سياسي علني من الحكومتين البريطانية والفرنسية[٢]. وفي اليوم التالي أبرق كلايتون يقول إن تأكيدات اللنبي بعثت بعض الاطمئنان في نفس فيصل، وهو الآن «يضع ثقته الكاملة في حسن نيات الحكومة البريطانية وتأكيدات القائد العام». وبناء على هذه التأكيدات سحب فيصل الحكام والممثلين الذين كان قد بعث بهم إلى لبنان وولاية بيروت. وقد أثارت تقسيمات اللنبي الإدارية اهتمام العرب من ناحية عدم وجود منفذ ساحلي للمنطقة الشرقية. وتساءل كلايتون عما إذا كان بالإمكان إعطاؤهم تأكيداً بهذا الخصوص، كما طلب من وزارة الخارجية إقناع الحكومة الفرنسية بأن توافق على إدخال أقضية بعلبك وراشيا وحاصبيا

---

(١) برقية اللنبي رقم p/٦٩٠٦ إلى وزارة الحربية بتاريخ ١٧ تشرين الأول: (EC. 2006) CAB 27/35 وفي رسالة خاصة كتبها اللنبي في اليوم ذاته قال: إن فيصل «يخشى الحلول التي ستنتج عن مؤتمر السلم. ولكنني قلت له: إن عليه أن يثق بدول الحلفاء وبأنها ستتعامله بإنصاف ؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟ «قوي الإرادة مستقيم ؟؟؟؟؟؟؟

Bnan Gardeer, Allenby, Cassen, London. 1965, p190

(٢) أوراق ونجت: برقية اللنبي بتاريخ ١٧ تشرين الأول ١٩١٨. CAB 27/35.

في المنطقة الشرقية على الرغم من أن اتفاقية سايكس- بيكو وضعتها في المنطقة الزرقاء[١].

ولكن على الرغم من تأكيدات اللنبي لم يلبث فيصل أن فوجئ بورود برقية منه يطلب فيها تسليم أقضية بعلبك والبقاع وراشيا وحاصبيا إلى المنطقة الفرنسية بعد أن كان الحكام العرب قد مارسوا مهام إدارتها أكثر من أسبوعين، على الرغم من أن الأقضية الأربعة كانت تتبع ولاية سورية في العهد العثماني. **ورد فيصل قائلاً:** إن هذا الطلب يزيد من ارتياب الأهالي في نيات فرنسا، وأن الإصرار على تنفيذه سيدفعه إلى ترك البلاد. وأشارا إلى محادثات أبيه مع سايكس وبيكو في جدة والاتفاق بينهما وبينه على أن حكومة أية منطقة «تتبع مشيئة أهلها». وطالب في برقيتين متتابعتين «بتشكيل لجنة مختلطة بأسرع ما يمكن تأخذ رأي الأهالي بخصوص مستقبلهم[٢]».

وهذه أول مرة يطالب العرب فيها بلجنة تحقيق دولية تأخذ آراء الأهالي في شكل الحكومة التي يريدونها، بناء على مبدأ تقرير المصير الذي نادى به الرئيس الأميركي تيودور ولسون ووافقته عليه دول الحلفاء.

---

(١) أوراق ونجت، برقية كلايتون رقم ١٢٩١٨ إلى وزارة الخارجية البريطانية بتاريخ ١٨ تشرين الأول ١٩١٨.

(٢) راجع سليمان موسى: المراسلات التاريخية المذكورة سابقاً رقم ١٨٩-١٩٠- ص٢٢٤-٢٢٥. وراجع أيضاً كتاب: أتوري روسيّ: وثائق حول نشوء وتطور القضية العربية المذكور سابقاً (باللغة الإيطالية) رقم ٢٦-ص٧٠. وقد جاء في برقية احتجاج ثانية أرسلها الأمير فيصل إلى الجنرال اللنبي في هذه الفترة. أي ما بين ١٥- ٢٠ تشرين الأول ١٩١٨ حيث يقول له: «إن أهل ساحل سورية أرادوا- وفعلاً انضموا- إلى إخوانهم العرب فهل من العدل والإنصاف حرمانهم من أمانيهم.. إن أعطيناهم العهد والمواثيق بأنهم سيكونون مخيرين في تعيين مستقبلهم.. وهم أحرار غير مسودين من جانب أية قوة كانت».

الواقع أن اللنبي قد اعترف بفيصل كأعلى سلطة في المسائل العسكرية والإدارية في المنطقة الشرقية، ولكن ذلك قد أوقعه في تناقض لا يمكن تفسيره إذ بينما منع قيام إدارة عربية في بيروت وثغور الساحل السوري الأخرى، وافق على الحاكم العربي الذي عينه فيصل لثغر اللاذقية، وعلى أساس أن أهل اللاذقية راضون عن النظام الذي أنشأه فيصل. وأن فرض حكم لا يقبله الأهلون قد يكون أمراً عسيراً[١]. هذا مع العلم أن موقف أهل اللاذقية من حكم فيصل لم يكن يختلف عن موقف أهل بيروت وطرابلس وصور وصيدا. وقد جاء في برقية الأمير فيصل إلى الجنرال اللنبي «أن الراية العربية لم تُرفع في بيروت بواسطتي أو بواسطة شكري أو أية سلطة عسكرية بل إنها رفعت من طرف أمة اختارت هذه الراية لنفسها و التحقت بأبناء جلدتها وجنسها وطلبت منا إرسال حاكم إليها من دون أي (منطقة) كان كما فعل أهل اللاذقية وطرابلس...»[٢].

لقد أرسل فيصل لأبيه وصفاً للوضع قال فيه: «إن جميع البلاد من بيروت إلى حد اسكندرون في الساحل أعلنت بأنها من أجزاء المملكة العربية ورفعت الرايات كما فعلت بيروت وطرابلس والشام واللاذقية وصيدا وصور». ولكن ما حدث من نزاع بشأن بيروت وإنزال الراية «جبراً» بأمر اللنبي، أدى إلى اضطراب العلاقات مع فرنسا وبريطانيا، وأن وجهة نظر اللنبي تقوم على أنه قسم البلاد إلى ثلاث مناطق عسكرية «ولا دخل للسياسة في هذه التقسيمات». وأنه لم ترفع أعلام في البلاد المحتلة باستثناء دمشق، ولذلك أمر بإنزال العلم في بيروت «ومستقبل البلاد سيكون بمؤتمر الصلح». وأضاف فيصل أنه احتج أمام اللنبي «بالمذاكرة والاتفاق الذي حصل بين جلالتكم وبين مندوبي الدولتين في جدة وهو إبقاء مستقبل البلاد على رغائب

---

(١) أوراق ملنر، برقية اللنبي بتاريخ ٢١ تشرين الأول ١٩١٨.

(٢) سليمان موسى: المراسلات التاريخية: رقم ١٨٢- ص٢١٩.

أهلها». وأنبأه أنه كان قد أرسل شكري الأيوبي والمندوبين الآخرين إلى الساحل «ليعلم العالم بأسره أن أهل ساحل سورية اختاروا مستقبل بلادهم قبل أن تلعب بهم أيادي السياسة». وأن الفرنسيين بدأوا يبثون الدعايات وقلب أفكار الناس. وطلب من أبيه التدخل وإرسال الأمير عبد الله إلى دمشق لمعالجة الموضوع[١].

وبعد أحداث بيروت، أوضحت الحكومة البريطانية للملك حسين ظروف الوضع القائم في سورية، بإرسالها برقية له تعلمه فيها أن الجنرال اللنبي هو صاحب السلطة العليا في سورية وفلسطين «بصفته القائد العام لقوة حملة الحلفاء». وأن سلطة اللنبي أنيطت:

١- **في فلسطين بإدارة قائد بريطاني.**

٢- **في منطقة معان- دمشق بالإدارة الحربية العربية** عن طريق ضابطي ارتباط فرنسي، وإنكليزي (مع القول أن حمص وحماة وحلب سوف تتبع عند احتلالها إدارة دمشق).

٣- «**وقد رئي أنه من الضروري تشكيل إدارة حكومة وقتية تحت** سلطة الجنرال اللنبي مباشرة تكون في الإقليم الساحلي الذي يجب أن يعامل في الوقت الحاضر أراضي أعداء محتلة. وتكون هذه الإدارة في يد ضباط فرنسيين تحت السلطة العليا المخولة للقائد العام البريطاني، وهو الذي يعين هؤلاء الضباط[٢]».

---

(١) راجع سليمان موسى: المراسلات التاريخية رقم ١٨١ – ص٢١٦ -٢١٩ وهو تقرير مسهب أرسله الأمير فيصل إلى أبيه الملك حسين من دمشق بتاريخ ١٩١٨/١٠/٢٠.

(٢) راجع سليمان موسى: المراسلات التاريخية رقم ١٨٣–ص٢٢٠–٢٢١ وهي رسالة من ونجت إلى الملك حسين عن طريق المعتمد البريطاني. كان ونجت هو الذي اقترح في البداية إحاطة الملك حسين علماً بالترتيبات العامة لإدارة المناطق السورية. واقترح نصاً للمخابرة لا يشتم منه وجود اتفاقية مسبقة بين فرنسا وبريطانية لأن «الملك لا علم رسمي له بالاتفاقية». وقد أخذت وزارة الخارجية بنصيحة ونجت وجاءت رسالتها إلى الملك مطابقة لما اقترحه.

ويتبين من هذه البرقية حرص الحكومة البريطانية على إفهام الملك حسين أن لا دخل للسياسة في هذه الترتيبات وأنها ذات طبيعة مؤقتة، ولكن الملك حسين استشف ما وراء العبارات المطاطة من مقاصد سياسية فأبرق إلى ونجت يقول: إن هذا الترتيب «سيكون حكماً قاضياً على مخلصكم بالانتحار بالنظر لصورة إدارة السواحل.. لكن لا يتصور أن تكون بلاد بلا سواحل، ولو بقي مقدار مساحة عش فراخ في أي نقطة منه تحت يد أجنبية تصبح منشأ حوادث وفتن واختلافات تؤدي لمحو البلاد[١]...».

وأبدى الملك رغبته في السفر إلى دمشق للإشراف على الوضع بنفسه. ولكن ونجت نصحه ألا يفعل معتذراً بأن سورية تخضع الآن لإدارة عسكرية[٢].

نقلت ونجت برقية الشريف إلى وزارة الخارجية في لندن، وأضاف إليها: «أن الشريف كما يبدو ينوي التنازل عن الملك والانسحاب من العمل في الحركة العربية». ثم حث ونجت حكومته «بأقصى تشديد» بأن ترسل للشريف دون تأخير رسالة تطمين. وقال: إنه لمن الضروري أن تُعلن فرنسا سياستها وأهدافها في سورية. **ولكن حذر من أن أي تصريح لن يجد قبولاً حسناً من لدن الملك حسين وغالبية العرب ما لم يتضمن التأكيد:**

١- على أن فرنسا لن تضم إليها أية أراض عربية أو سورية.

٢- أن الفرنسيين سيحكمون في أية منطقة يتولونها من سورية بهدف أعداد أهل البلاد كي يحكموا أنفسهم وبقصد المحافظة على المطامح العربية.

٣- أن الحكومتين البريطانية والفرنسية تعترفان بضرورة حصول حكومة دمشق على منفذ حر وميناء على البحر الأبيض المتوسط[٣].

---

(١) سليمان موسى: المراسلات التاريخية رقم ١٨٧-ص٣٢٣.

(٢) سليمان موسى: المراسلات التاريخية رقم ١٨٨-ص٢٢٤- الحاشية.

(٣) برقية ونجت بتاريخ ١ تشرين الثاني ١٩١٨ في F.O 882/13.

تضمن جواب ونجت على برقية الشريف القول: إنه بعث بمضمون برقيته إلى لندن، ثم طلب منه: «بكل إخلاص أن تعتقدوا أن قيادتكم هي من ألزم اللوازم للنهضة العربية ولمساعدة العرب كي يجنوا ثمار المحالفة ويصونوا مستقبلهم السياسي». ثم عبر عن أسفه لأن ترتيبات اللنبي أثارت شكوكه ولم تنل رضاه، ولكنه ذكر الشريف «أن هذه الترتيبات وقتية» وطلب منه أن يستعد للاشتراك في المناقشات التي ستدور حول إدارة الأراضي التي تحررت.

أعلن اللنبي ترتيباته المتعلقة بإدارة الأراضي المحتلة في يوم ٢٣ تشرين الأول، ففي ذلك اليوم أصدر بياناً جاء فيه أنه قرر إنشاء ثلاث مناطق إدارية «لأراضي العدو المحتلة».

١- المنطقة الجنوبية أي فلسطين، ويتولى إدارتها قائد بريطاني.

٢- المنطقة الغربية أي ساحل سورية، ويتولى إدارتها قائد فرنسي.

٣- المنطقة الشرقية أي سورية الداخلية مع شرقي الأردن، ويتولى إدارتها قائد عربي هو علي رضا الركابي.

ومن غرائب هذه الترتيبات أن المنطقة الشرقية ضمت منطقة (أ) التي وضعتها اتفاقية سايكس - بيكو تحت النفوذ الفرنسي ومنطقة (ب) التي وضعتها تلك الاتفاقية تحت النفوذ البريطاني. ولهذا عين اللنبي ضابطي ارتباط في دمشق: ضابطاً بريطانياً وهو الرائد كورنوالس وضابطاً فرنسياً وهو النقيب مرسييه وطلب إليهما أن يعملا متعاونين مؤكداً للإدارة العربية «الاتفاق التام القائم بين الحكومتين». وبموجب هذه الترتيبات نزعت صفد ونواحيها من المنطقة الغربية وضمت إلى المنطقة الجنوبية، كما أن الأقضية الأربعة نزعت من المنطقة الزرقاء وضمت إلى المنطقة الشرقية. **وقال اللنبي:** إنه أبقى هذه الأقضية تحت الإدارة العربية نتيجة لتصميم فيصل على الاستقالة إذا جرى ضمها للمنطقة الغربية[1].

---

(١) راجع سليمان موسى: المراسلات التاريخية رقم ١٨٣- ص٢٢٠-٢٢١ وهي برقية من ونجت إلى الملك حسين يعلمه فيها عن الترتيبات التي أخذها الجنرال اللنبي بنفسه.

وكتب فيصل إلى أبيه في هذه الأثناء يحثه على المطالبة بإعطاء أهل الساحل «الحرية التامة والفرصة لتقرير مستقبلهم والتعجيل في ذلك. أن البلاد لا تؤخذ إلا بالدم وعار علينا السكوت» وقال إن المأمورين الإنكليز «معنا قلباً وقالباً.. إنهم يلقون الخطأ على السياسة، أعني سياسة لوندره - لندن - ويأملون أملاً كبيراً بإمكان تغير الحالة السياسية». وقال: «إنه ربما يحارب فرنسا إذا لم يجد بداً من ذلك. وكرر طلب مجيء أخيه عبد الله ليتولى الشؤون السياسية لمملكتكم هذه[١]».

أرسل الملك حسين برقية إلى ونجت يصف فيها مأساة فيصل الروحية وما يجيش في نفسه من «اضطراب وحزن ويأس» من أعمال الفرنسيين والأموال التي ينفقونها. وطلب منه اتخاذ الإجراءات «التي تجدها مناسبة لمساعدتي». فرد ونجت أن اللنبي يحقق في الموضوع بنفسه «وبكل تأكيد أن جلالتكم يمكنكم أن تركنوا إلى درايته وعدم تحزّبه ضد أية إدارة في هذه الأوضاع الدقيقة[٢]».

وما أن وصلت رسائل فيصل إلى أبيه ومعها نسخ من برقيات فيصل إلى اللنبي حتى بادر الملك فبعث بها إلى المعتمد البريطاني في جدة قائلاً: «إنه لم يكن يخطر على باله أن يحدث للراية العربية ما حدث». «يجب أن نمنع فناءنا المعنوي في عيون الشعب... كل آمالنا تحطمت بعد المعاملة المهينة لعلمنا الذي اعتُبِرَ علم حليف، خاصة وأن أهل البلاد أنفسهم رفعوه.. إن أهل البلاد لم يكن بمقدورهم تقديم برهان أكثر وضوحاً من رفع العلم بمحض إرادتهم الحرة، وبهذا أظهروا مشاعرهم الطبيعية[٣]».

---

(١) المرجع السابق. رقم ١٩٣- ص٢٢٧-٢٢٨.

(٢) المصدر السابق رقم ٢٠٠- ص٢٣١.

(٣) رسالة الملك حسين رقم ٢٨٨ بتاريخ ٢٦ تشرين الثاني ١٩١٨ و F.O. 882/17.

وهكذا فقد جرى التأجيل مرة أخرى. ففي أثناء الحرب كان يقال للعرب: «اصبروا حتى تنتهي الحرب وتتاح الفرصة الملائمة لحل المشاكل. وعندما انتهت الحرب قيل للعرب: ها هو ذا مؤتمر السلم وستجد المشاكل الحل على يديه».

ثانياً- التصريح البريطاني الفرنسي:

يعود التفكير في إصدار تصريح بريطاني فرنسي مشترك إلى أوائل شهر تموز ١٩١٨م، أي بعد احتجاج الملك حسين الشديد على ما نشرته جريدة (المستقبل) عن وجود اتفاقية سرية بين الدولتين. وقد حاول سايكس إقناع زميله بيكو بإلغاء الاتفاقية. ولكن هذا أصر على التمسك بها، وعندما أخذ سايكس يحاول ربط الحكومة الفرنسية بتصريح مشترك يخفف القيود التي فرضتها الاتفاقية، بغية حصر نفوذ فرنسا في أضيق بقعة ممكنة، وتأمين «نصف الرغيف» في سورية الداخلية للعرب وإعطاء دليل للرئيس ولسون يؤكد له بأنهما تنويان السير على سياسية حرية تقرير المصير التي نادى بها. ومن هنا اشترك سايكس وبيكو في وضع نص «تصريح إلى ملك الحجاز» بحثته اللجنة الشرقية في اجتماعها يوم ١٨ تموز ولكنها لم تصل بشأنه إلى قرار حاسم[١].

---

(١) راجع ايتوري روسيّ: وثائق حول نشوء وتطور القضية العربية (١٨٧٥-١٩٤٤) المذكور سابقاً رقم ٢٧ – ص٧٠-٧١. وكان الحلفاء قد أبلغوا الملك حسين بمضمون هذا التصريح (راجع المراسلات التاريخية رقم ١٩٦ – ص٢٢٩-٢٣٠) حيث يقول ونجت للملك: «إنني على يقين تام أن جلالتكم سترون في مواد هذا القرار اعترافاً كاملاً بمبدأ القومية وحقوق الأهلين وهو ما ينطبق على السوريين وسكان العراق وسيكون من دواعي فخري وسروري إذا ما أعلنتم جلالتكم موافقتكم التامة على هذا التأكيد العلني للمبادئ التي طالما ناديتم جلالتكم بها وبذلتم جهوداً مضنية في سبيلها. وكان جواب الملك حسين إلى ونجت بتاريخ ١٩١٨/١١/٥ (راجع المراسلات التاريخية رقم ١٩٧– ص٢٣٠).

وظل موضوع التصريح مائعاً حتى اتفقت الحكومتان على نصه النهائي، وأرسلت نسخة منه إلى رئيس الولايات المتحدة الأمريكية وإلى الحكومة البريطانية. وفي ٤ تشرين الثاني وصل النص إلى ونجت من وزارة الخارجية وطلبت إيه أن يعمل على ترجمته في الحال إلى اللغة العربية وإرساله إلى الملك حسين، ونشره في أوسع نطاق في الصحف العربية. وذكرت وزارة الخارجية أن التصريح لن ينشر في بريطانيا وفرنسا إلا بعد تقديم نصه إلى الملك حسين. كما طلبت وزارة الخارجية من ونجت إرسال النص إلى اللنبي وكلايتون وطلبت إليهما توزيعه على نطاق واسع[١]. وبالفعل تلقى الملك حسين في مكة المكرمة يوم ٦ تشرين الثاني نص التصريح مع الترجمة إلى العربية.

استهلت الحكومتان تصريحهما بالمقدمة التالية:

«إن الحكومة الفرنسية بالاتفاق مع الحكومة البريطانية قد عقدت العزم على إصدار التصريح المشترك التالي من أجل أن تعطيا السكان غير الأتراك القاطنين بين جبال طوروس والخليج العربي تأكيداً بأن الحكومتين، كلا منهما في منطقتها الخاصة، تعتزمان تأمين أفضل درجات الحكم الذاتي لهم، بهدف ضمانة تحريرهم وتطوير مدنيتهم».

أما التصريح فقد أعلن بشكل حاسم أن هدف الدولتين هو: «التحرير التام النهائي للشعوب التي طال اضطهاد الترك لها، وإقامة حكومات وإدارات قومية تستمد سلطتها من المبادأة والاختيار الحر للأهالي الوطنيين». وإن الدولتين «متفقتان على تشجيع إقامة الحكومات والإدارات الوطنية ومساعدتها في الأراضي التي حررها الحلفاء في سورية والعراق، وكذلك في الأراضي التي تعملان على تحريرها». وأن الدولتين لا ترغبان في فرض أي نظام في هذه المناطق، بل إن اهتمامهما الوحيد ينصرف إلى معاضدة ومساعدة

---

(١) Telegram No. 1323 (EC. 2197): CAB. 27/35.

الحكومات والإدارات «التي يختارها الأهلون بكامل حريتهم[1]» ومن الواضح أن كلمة سورية وردت في التصريح بحيث تشمل سورية الطبيعية (سورية ولبنان وفلسطين وشرقي الأردن).

نشر التصريح يوم ٨ تشرين الثاني ١٩١٨ في لندن وباريس ونيويورك والقاهرة، وقد ظهر مع المقدمة في الصحف الفرنسية الصادرة في اليوم التالي، بينما لم تظهر المقدمة في الصحف الإنكليزية. ومعنى هذا أن الحكومة البريطانية لم تعط المقدمة للصحف، كما لم تبعث بها إلى ونجت فلم تنشر أو تعرف في بلاد العرب. ولكن التصريح ذاته نشر في مصر والعراق وسورية كلها. وقد فهم العرب أن نشره في فلسطين يعني أنه يشمل فلسطين ضمناً. وتلقى فيصل نص التصريح وهو في طريقه إلى حلب، وعند وصوله إليها ألقى خطاباً يوم ١١ تشرين الثاني قرأ خلاله نص التصريح، وقال إنه «من المستندات التاريخية العظيمة» و«أنه يدل على شعور عال وحسيات إنسانية»، واستدل بالتصريح على دفع اتهام الأتراك الاتحاديين للأشراف بأنهم «اتفقوا مع الغربيين على بيع البلاد لقاء دريهمات[2]». وعلى العموم قوبل التصريح بالترحيب البالغ في بلاد العرب واعتقد الأهلون أنه يحل محل اتفاقية سايكس- بيكو ويلغيها.

وفي ٥ تشرين الثاني أبرق ونجت إلى الملك نص التصريح قائلاً إنه يتضمن: «اعترافاً كاملاً وصادقاً بمبدأ القومية وحق الشعب فيما يتعلق

---

(١) المقدمة نقلت عن كتاب جفريز ص ٢٣٨ لأنها لم تنشر باللغة العربية وليست معروفة على نطاق واسع. وعلى رأي جفريز أن سبب عدم نشر الإنكليز لها يعود إلى أنها تنص على عروبة المنطقة المعنية ومن ضمنها فلسطين. أما نص التصريح فمنقول عن: مناقشات مجلس العموم البريطاني- السلسلة الخامسة- المجلد ١٤٥ العمود ٣٦.

(٢) راجع النص الكامل لخطاب الأمير فيصل في كتاب أمين سعيد «الثورة العربية الكبرى» المجلد ٢ ص ص(٤-٩).

بالسوريين والعراقيين...». فرد الملك في اليوم ذاته يعبر عن سروره بالتصريح ويقول: «وعلى كل حال فإن المنتظر من شهامة كمالاتكم ما هو فوق ذلك إن شاء الله[١]». والواقع أن عبارات التصريح إذا قرئت بنية حسنة، لا تترك مجالاً للشك بأن حرية العراقيين والسوريين في تقرير مصيرهم واختيار الحكومة التي تسوسهم، أصبحت مضمونة وأكيدة وغير مقيدة بأية تحفظات. ولا يلام العرب على ظنهم يومذاك بان التصريح صدر عن نية حسنة وعن دوافع مثالية، لأنه صدر بعد أن حاقت الهزيمة بالدولة العثمانية وبعد استسلامها، فلم تكن هناك ضرورة عسكرية تحدو ببريطانيا وفرنسا إلى إصداره.

وفي دمشق قامت مظاهرة بابتهاج كبيرة وأعلن قادتها لضابطي الارتباط امتنان العرب لحكومتي بريطانيا وفرنسا، وابتهج الأهلون كذلك في بيروت. وساد الانطباع بأن التصريح يشمل فلسطين، على الرغم من التساؤلات التي دارت على الألسن بسبب عدم ذكر فلسطين صراحة[٢]. **لقد كان معروفاً لدى الجميع أن سورية تعني المنطقة الممتدة من الاسكندرونة شمالاً حتى رفح جنوباً (سورية الحالية ولبنان وفلسطين وشرقي الأردن).** فلا عجب أن يبلغ التشكك من الجنرال كلايتون نفسه في حقيقة ما قصده التصريح حداً دفعه إلى أن يسأل وزارة الخارجية «لمعلوماتي الخاصة» عما إذا كان قد قصد بالتصريح أن يشمل فلسطين. وقال كلايتون إن أكثرية

---

(١) يرى الجنرال جلوب أن هذا التصريح كان أقوى وأوضح من بنود مراسلات مكماهون واتفاقية سايكس – بيكو وتصريح بلفور لأنه منح الأهلين حرية اختيار مستقبلهم: وقد ورد ذلك في كتابه «بريطانيا والعرب» دراسة خمسين عاماً من التاريخ ١٩٠٨–١٩٥٨. لندن ١٩٥٩– ص١٣٤.

(٢) البرقية رقم ١٨٥ تاريخ ١٦/١١/١٩٨١م، وهي من كلايتون إلى وزارة الخارجية البريطانية مصنف ٣٧ / ٣٦.

السكان اعتبروا أن التصريح يشمل فلسطين. وكان جواب وزارة الخارجية: «لقد صيغ التصريح قصداً بحيث يستثني فلسطين. وهذه لمعلوماتك الخاصة»[1]. وهكذا بقي العرب يعتقدون شيئاً بينما كانت الحكومة البريطانية تضمر شيئاً آخر. وبقي الحكام العسكريون البريطانيون في فلسطين أيضاً يجهلون حقيقة المقصود بالتصريح فيما يتعلق بفلسطين.

ترى ماذا كانت نية الحكومة البريطانية؟ هل كانت تنوي الوفاء بالتزاماتها للعرب أم لفرنسا؟ لا هذا ولا ذاك. كانت تريد شيئاً واحداً فقط ألا وهو توسيع البقع الحمراء على خارطة العالم وفي بلاد العرب بالذات. ولسوف نرى كيف أن اللجنة الشرقية اتخذت قراراً بأن يكون النفوذ في منطقتي (أ) و(ب) لبريطانيا دون سواها، وسوف نرى لويد جورج يأخذ وعداً من كليمنصو بتحويل الموصل وفلسطين إلى منطقة النفوذ البريطاني، أي نزع نفوذ فرنسا عن هذه المناطق وحصره في الساحل السوري فقط. ولسوف نرى أيضاً اللورد كرزون وعدداً من كبار المسؤولين البريطانيين يعلنون أن فلسطين كانت مشمولة بعهود مكماهون كقطر عربي ضمنت بريطانيا عروبته واستقلاله.

إن سلسلة العهود التي سردناها، والتي ارتبطت بها الحكومة البريطانية مع العرب، لا تدع مجالاً للشك في نفس أي عربي أنها كانت تعني تحالفاً بين أمتين، وأن بريطانيا- باعتبارها الأمة الأقوى- تعهدت بالأخذ بيد حلفائها العرب من أجل تأليف دولة كبيرة تجمع شملهم وتوحد أقطارهم، مقابل مصالح اقتصادية. وأكثر من هذا، فإن العلاقة التي عقدت أثناء الحرب بين بريطانيا والعرب كانت في أصلها ارتباطاً معنوياً مبنياً على ثقة العرب بالشرف البريطاني وبروح العدالة التي كانت معروفة عن الإنكليز في ذلك الحين. كان العرب يعتقدون أن بريطانيا التي حرضتهم على الثورة ضد

---

(١) راجع برقية كلايتون للوزارة رقم آ. ب. ٨٩٢ بتاريخ ١٩١٨/١٢/٢ وجواب الوزارة رقم ٢٧٦ بتاريخ ١٩١٨/١٢/٤ مصنف ٣٧/٢٧.

الأتراك إخوانهم في الدين، وملأت نفوسهم بالآمال، لا يمكن أن تتخلى عنهم، بل أن تعمل على تقسيم بلادهم وتقديم جزءاً غالياً من وطنهم هدية إلى أناس غرباء.

وكانت هذه الثقة العمياء ببريطانيا في غير محلها، لأنها كانت دائماً تلك الدولة الاستعمارية التي أغدقت الوعود ولم تف بها، والدليل على ذلك بادْ للعيان لاسيما من خلال سياستها القهرية في مستعمراتها الإسلامية والعربية سواء في الهند أو في مصر أو ببقية البلاد المستعمرة في أفريقيا وآسيا.

وعندما انتهت الحرب كانت نقطة الضعف في موقف بريطانيا تنبع من قوة الجشع وشهوة التملك في نفوس ساستها. رأى أولئك الساسة أن واجبهم نحو بلادهم يقضي عليهم بحصر النفوذ الفرنسي في أضيق بقعة ممكنة من البلاد العربية لكي تصبح تلك البلاد حكراً مطلقاً للنفوذ البريطاني. ومن سوء الحظ أن أولئك الساسة لم يروا في الوقت ذاته أن واجبهم نحو بلادهم والإنسانية يقضي عليهم بالوفاء بتعهداتهم للعرب والحفاظ على كلمة الشرف التي أعطوها باسم الشعب البريطاني. وقد ازدادت نقطة الضعف ضعفاً عندما رفضت فرنسا الاستجابة لمشاريع الساسة البريطانيين وإعطائهم الفرصة للتظاهر بالكرم مع العرب على حسابهم.

وفي نهاية الأمر تبين بشكل صريح وواضح أنه لم تكن هناك قيمة حقيقية للوعود والعهود ولمبادئ العدل وحق تقرير المصير. وتلفت العرب وإذا بهم سلعة على موائد المفاوضات تتناوشهم مخالب لا تقل شراً عن مخالف الوحوش، وهم أضيع من الأيتام في مأدبة اللئام.

ثالثاً- تسويات ما بعد الحرب:

كان موقف العرب يتأرجح بين الثقة بالمستقبل والتخوف مما سيأتي بعد الغد، **عندما عقدت الهدنة العامة بين ألمانيا والحلفاء يوم ١١ تشرين الثاني**

١٩١٨م، فمن جهة كانت سورية الداخلية في أيديهم وتحت حكمهم من معان والعقبة جنوباً حتى حلب شمالاً، وقد تصرف فيصل وأعوانه تصرف الحكام المستقلين وأخذوا يتولون إدارة المنطقة الشرقية على أساس أنها جزء من المملكة العربية الكبرى التي كانوا يأملون أن يؤسسوها على وجه من الوجوه. ولكن من جهة أخرى كانت آمالهم تصطدم بوجود الفرنسيين في الساحل والبريطانيين في فلسطين والعراق. وحيث أن ثقة العرب ببريطانيا كانت ما تزال متينة لم تتزعزع على الرغم من كل ما حدث حتى ذلك الحين، فقد كان العرب يعتقدون أن الخطر كامن في وجود فرنسا في الساحل. وقد تجسدت مخاوف العرب من فرنسا بحادث طرد الحكام العرب من المدن الساحلية وفي الدعاية العدائية التي أخذ ضباط فرنسا السياسيون يبثونها في المنطقة الشرقية(١). **وبالفعل فقد بدأت دسائس الفرنسيين ودعاياتهم عملها فور دخول فيصل دمشق وذلك بتحريك لمتعصبين من المسيحيين وتخويفهم من المسلمين**. كما زعمت أن جيش الثورة جيش حجازي بدوي، وأن الحكومة التي سيؤلفها هذا الجيش ستكون حتماً حكومة دينية رجعية وأنها سترجع في كل شيء إلى الشريعة الإسلامية، فستعيد الأمور إلى ما كانت عليه قبل ستين سنة، وستقضي على حقوق المسيحيين قضاء مبرماً(٢).

---

(١) أنبأ فيصل الميجر كورنوالس ضابط الارتباط البريطاني في دمشق يومذاك بأن «عملاء الكابتن مرسيه» استدعوا كبار شيوخ جبل الدروز وأبلغوهم أن «محمية فرنسية سوف تؤسس قريباً هنا وأن القوات الفرنسية سوف تصل خلال بضعة أيام...».
راجع أوراق ونجت: برقية كورنواليس بتاريخ ١٩١٨/١١/٢ رقم C١٩٨.

(٢) راجع في هذا الخصوص الرسالة المسهبة التي بعث بها الأمير فيصل إلى أبيه الملك حسين بتاريخ ١٩١٨/١٠/٢٠ في كتاب المراسلات التاريخية رقم ١٨١- ص٢١٦-٢١٩ حيث يتكلم عن الدعاية التي يبثها الفرنسيون في البلاد السورية. ومما جاء فيها: «أن فرنسا اليوم تحكم في بيروت باسمها صراحة وهي تبث الفكرة الفرنسية وأهل البلاد مستاؤون جداً خصوصاً المسلمين وفريق عظيم من المسيحيين.. الآن هم مهتمون بقلب الأفكار ضدنا ويريدون أن يكسبوا الأكثرية إلخ...».

والواقع أن جميع الأمور كانت تدل على خلاف ذلك تماماً.. إذ أن رجال الثورة لم يكونوا كلهم من البدو، بل كان بينهم عدد غير قليل من المسيحيين أيضاً، والحكومة التي تألفت في الشام لم تفكر في يوم من الأيام بأن تصطبغ بصبغة دينية، بل عهدت بكثير من الوظائف والأعمال إلى غير المسلمين.. وكان الأمير فيصل بن الحسين يقول دائماً وفي كل مناسبة: «الدين لله والوطن للجميع». وفي الخطاب الذي ألقاه في حلب يوم ١١ تشرين الثاني ١٩١٨ ركز فيصل على ضرورة الوحدة الوطنية باسم القومية العربية **معلناً أن** «العرب هم عرب قبل موسى وعيسى ومحمد» ومحذراً من إلقاء الفتن بين المواطنين باسم الدين مهدداً بأشد العقاب كل من يقدم على ذلك. **كما طمأن السوريين إلى أن والده قرر** «أن يجعل البلاد مناطق يطبق عليها قوانين خاصة بنسبة أطوار وأحوال أهلها. فالبلاد الداخلية يكون لها قوانين ملائمة لموقعها والبلاد الساحلية أيضاً يكون لها قوانين طبق رغائب أهلها». وقد قصد فيصل بهذا أن يخرس ألسنة السوء القائلة بأن سورية المتقدمة في مضمار التعليم ستتقهقر إلى الوراء إذا اتحدت مع الحجاز وخضعت لحكم الشريف حسين[١].

وقد اختط فيصل خطة التسامح لتأليف قلوب المواطنين في سورية، فلم يقصر في إسناد المناصب العليا في حكومته على أولئك الذين انضموا وقاتلوا معه، بل أراد أن يستعين بجميع الأشخاص الأكفاء، بغض النظر عن مواقفهم السابقة. كان لسان حاله يقول: عفا الله عما مضى ولنبدأ صفحة جديدة منذ اليوم. اعتقاداً منه بأن الشعور الوطني والوعي القومي كافيان لدفع كل مواطن إلى خدمة بلاده وقومه[٢].

---

(١) أمين سعيد: الثورة العربية الكبرى، المجلد الثاني، خطاب فيصل ص٤-٩.

(٢) راجع الدراسة المسهبة للدكتورة خيرية قاسمية «الحكومة العربية في دمشق بين ١٩١٨-١٩٢٠». القاهرة ١٩٧١ دار المعارف ص٦٠-٦٣.

على كل حال فإن العرب كانوا متلهفين على انعقاد مؤتمر السلم ويعلقون الآمال الكبيرة على أن يعمل ذلك المؤتمر بروح مبادئ الرئيس ولسون وتأكيدات اللنبي لفيصل. وكانت الحكومة البريطانية بدورها تسعى للتوصل إلى حل بشأن بلاد العرب، **هذا الحل الذي يحقق الأمور التالية:**

١- يحقق مصالحها ويرضي أطماعها.

٢- يرضي فرنسا بشكل أو بآخر.

٣- أن يحرز قبولاً لدى العرب.

وقد جاءت رغبة الحكومة البريطانية في دعوة العرب إلى مؤتمر السلم من رغبتها في تقوية مواقف العرب تجاه فرنسا من جهة ومن رغبتها من جهة أخرى في تحويل انتباه العرب عن اتفاقها الثنائي معهم، وتدويل قضيتهم بإشراك دول أخرى في تحمل مسؤولية ما قد يلاقونه من إخفاق.

وهكذا أبرقت وزارة الخارجية البريطانية خلال الأيام ٢-٤ تشرين الثاني إلى ونجت واللنبي وكلايتون تسأل كل واحد منهم عما إذا كان يرى أن الوقت الحاضر ملائم لدعوة الملك حسين إلى أن يرشح شخصاً ما يطرح آراءه في أي مؤتمر يعقده الحلفاء لبحث تسوية الأقطار العثمانية في آسيا، وليطرح تلك الآراء في مؤتمر السلم إذا دعت الضرورة إلى ذلك.

وقد رد ونجت قائلاً: إنه واللنبي يوصيان بتوجيه الدعوة إلى الملك لكي يرسل ممثلاً عنه، وإن فيصلاً سيكون أفضل من يقوم بهذه المهمة. كما أن اللنبي في اليوم ذاته أبرق إلى وزارة الحربية قائلاً إنه من المهم أن توجه الدعوة إلى الملك حسين كي يرسل ممثلاً له يرعى المصالح العربية في مؤتمر السلم. وأضاف اللنبي يقول: «إن التأكيد الذي أعطيته بموافقة وزارة الحربية لا يعتبر ناجزاً إلا إذا تم هذا الشرط إن العرب يثقون ثقة تامة ببريطانيا العظمى، وإذا لم نف بعهودنا فسيقضى على كل ثقة بصدق نيات الحلفاء[١]».

---

(١) راجع البرقيات الثلاث المرسلة بتاريخ ١٩١٨/١١/٤. الأولى من ونجت إلى وزارة الخارجية رقم ١٦١، والثانية من كلايتون نفسه إلى وزارة الخارجية رقم ١٦٣، والثالثة من الجنرال اللنبي إلى وزارة الحربية رقم E.A. 1843. مصنف ٣٦/٢٧.

هذا وقد وصل لورانس إلى لندن في ٢٤ تشرين الأول فاستقبل بحرارة في وزارة الخارجية وطلب إليه أن يرسل برقية في ٨ تشرين الثاني إلى الملك حسين يطلب فيها منه إرسال الأمير فيصل لحضور مؤتمر باريس الذي ستحضره الدول الحليفة بالإضافة إلى مندوبين من الولايات المتحدة وبعض الدول الأوروبية..

وفي ١١ تشرين الثاني أبلغ الملك حسين الأمير فيصل بضرورة توجهه إلى أوروبا لحضور مؤتمر باريس وأسدى إليه النصح بأن يطلب العون من بريطانيا إذا رأى ظلماً وتعنتاً من فرنسا، ولم يدر في خلد الملك حسين أن فيصل سيكون كالمستجير من الرمضاء بالنار[1].

تلقى فيصل برقية أبيه وهو في حلب فطلب من والده أن يأتي شقيقه الأمير عبد الله إلى سورية ليحل محله، ولكن الملك حسين رفض الطلب وقال بأن عبد الله يجب أن يواصل حصار المدينة حتى تسقط.

غادر فيصل حلب فمر بحمص وطرابلس وبيروت وهناك استقبله الأهلون استقبالاً حماسياً وقام شباب بيروت بسحب عربته في شوارع المدينة وهم يهتفون «ما بنرضى غيرك سلطان ولا نرضى غير العرب». وأثناء وجود فيصل في بيروت كتب إلى والده رسالة قال فيها: «إن حماسة الأهلين وارتباطهم بعرش جلالتكم هو خارج عن كل وصف وتصوير» وقبل

---

(١) والواقع أن لورانس هو الذي أخذ المبادرة وكتب إلى الملك حسين بضرورة إيفاد ابنه الأمير فيصل إلى المؤتمر «لما اكتسبه من شهرة شخصية في أوروبا» وطلب إليه أن يسرع في إرساله إلى أوروبا. (راجع المراسلات التاريخية رقم ٢٠١– ص٢٣٢). وإذ أطلع المعتمد البريطاني الملك حسين على برقية لورانس أجاب الملك وكتب إلى ونجت بتاريخ ١٩١٨/١١/١١ أنه أبلغ ابنه فيصل بسرعة سفره (رقم ٢٠٢– ص٢٣٢–٢٣٣) وأجاب ونجت الملك حسين شاكراً على هذا القرار (رقم ٢٠٣– ص٢٣٣).

مبارحته بيروت عاد فيصل إلى دمشق فقضى فيها ليلة واحدة عين فيها أخاه الأمير زيد نائباً عنه أثناء غيابه. وفي ٢٢ تشرين الثاني غادر بيروت على متن الطراد جلوسستر قاصداً فرنسا. وقد رافقه في هذه المهمة نوري السعيد ورستم حيدر والدكتور أحمد قدري وفائز الغصين[١].. وعندما نزل فيصل إلى الأرض الفرنسية في ميناء مرسيليا يوم ٢٦ تشرين الثاني وجد في استقباله العقيد لورنس موفداً من قبل الحكومة البريطانية (بناء على طلب فيصل) والسيد برتران موفداً من قبل الحكومة الفرنسية ولم يلبث عند وصوله إلى ليون أن اصطدم بمفاجأة لم يكن يتوقعها عندما أبلغه العقيد بريمون المندوب الفرنسي الثاني أن حكومته ترحب به ضيفاً عليها أثناء إقامته في فرنسا[٢]. ولكنها لا تعترف له بأي مركز دبلوماسي أو أنه يقوم بمهمة رسمية. وكانت قد دارت بين الحكومتين الإنكليزية والفرنسية مراسلات خاصة بسفر الأمير وبصفته الرسمية في المؤتمر ورغم دعم الحكومة البريطانية للملك حسين ولمندوبه الأمير فيصل اتخذت الحكومة الفرنسية موقفاً يتعارض مع مهمة ومطامح القضية العربية[٣].

---

(١) راجع سليمان موسى: «المراسلات التاريخية»- ص٢٤٦. غادر فيصل بيروت يوم الأحد في ١٩١٨/١١/٢٢ ووصل إلى ميناء مرسيليا يوم الثلاثاء في ٢٤ منه. وقد انضم إلى الوفد المرافق للأمير فيصل السيد عوني عبد الهادي.

(٢) - راجع سليمان موسى: المراسلات التاريخية رقم ٢١١- ص٢٤٦ وهي رسالة من الأمير فيصل إلى الأمير زيد مرسلة من ليون في ١٩١٨/١١/٢٦ يعلمه فيها عن وصوله إلى فرنسا وعن زيارته لمختلف مناطقها. «وكان الأمير زيد قد وصل إلى دمشق في ١٩١٨/١١/١٩ ليحل مكان الأمير فيصل خلال غيابه في أوروبا» رقم ١٩٩ -ص٢٣١.

(٣) - راجع بخصوص هذه المفاوضات بين بريطانيا وفرنسا البرقية المرسلة من وزارة الخارجية البريطانية إلى موفدها في باريس اللورد دربي في ١٩١٨/١١/٢٢ (E.C. 2523) وراجع أيضاً البرقية التي أرسلها غراهام من باريس إلى وزارة الخارجية البريطانية بتاريخ ١٩١٨/١١/٢٤ (E.C. 2485) في الملف ٣٧/٢٧.

وعلى أفضل الأحوال أرادت أن تعتبره نجل ملك الحجاز ومندوبه الشخصي القادم باسمه كي يطلب إنشاء مملكة عربية سواء أكانت مستقلة أم خاضعة لسيطرة فرنسا وإنكلترا في المناطق المتفق عليها، وأن فيصلاً لا يستطيع أن يتكلم باسم السكان العرب الذين لا يمكن أخذ آرائهم بصورة مقبولة في الوقت الحاضر، علماً بأن دول الحلفاء لم تعترف حتى الآن بمملكة عربية، ولم تعترف فرنسا وإنكلترا إلا بملك الحجاز.

ثم أبدى وزير الخارجية دهشته من مجيء فيصل بناء على نصيحة بريطانيا؟ ولكي لا ينشأ سوء تفاهم قال إنه اعتزم أن يعامل الأمير فيصل عند وصوله وخلال إقامته بمثابة أجنبي مرموق ونجل ملك الحجاز، وعند نزوله في مرسيليا سوف يبلغ بأننا لا نعترف له بصفة رسمية وأن وضعه سيكون مدار بحث بين الحلفاء وأنه لا يمكن قبوله بأي حال من الأحوال ممثلاً للعرب في أي اجتماع قبل التوصل إلى اتفاق رسمي على ذلك بين الحلفاء. وأخيراً طلب الوزير أن تقف الحكومة البريطانية الموقف ذاته وتحيط فيصلاً علماً بذلك تفادياً لنشوء مصاعب لا داعي لها.

ولم توافق وزارة الخارجية البريطانية على وجهة النظر الفرنسية، فكتبت إلى سفيرها في باريس أن يبلغ وزارة الخارجية الفرنسية طالبة عدم إساءة فهم الهدف من زيارة فيصل ومدى صلاحياته، لأن الحكومة البريطانية تعتبره دائماً كما جاء في برقيتها: «ممثل شريكنا في الحرب وحليفنا الملك حسين، أرسل ليكون حاضراً في باريس أثناء مباحثات مؤتمر السلم لكي يشرح مصالح أبيه ويتابعها(١)».

وكانت وزارة الخارجية الفرنسية قد أبدت رسمياً معارضتها لمهمة فيصل. فأرسلت إلى الملك حسين بواسطة معتمدها في جدة برقية مؤرخة في بيروت في ١٩١٨/١١/٢٩م ولكنها مرسلة من باريس بتاريخ ١١/٢٤/

---

(١) راجع البرقية رقم ٢٥٤٥ (E.C. 2482) بتاريخ ١٩١٨/١١/٢٣. الملف رقم ٣٧/٢٧.

١٩١٨م حيث أبلغ بموجبها المعتمد الفرنسي الملك حسين بأن الحكومة الفرنسية ستستقبل الأمير فيصل استقبالاً يليق بمركزه «كنجل ملك محالف وصديق». ولكنها: «تعجبت من كونها لم تشعر أصلاً بأسباب هذا السفر» (لأن مندوب الجمهورية الفرنسية في فلسطين وسورية هو الموصوف الوحيد من أجل تهيئة الجو اللازم) ولذا لا تستطيع أن تعتبر الأمير فيصل «كمكلف بمهمة لم تكن قد أشعرت بها رسمياً»[١].

وأخيراً لم يطل تردد الحكومة الفرنسية فقررت إرسال بعثة خاصة لاستقبال الأمير في مرسيليا واستضافته في فرنسا. وهيأت له برنامجاً لزيارة بعض المدن والساحات العسكرية الفرنسية. وقد عين العقيد بريمون مرافقاً للأمير خلال تجواله في فرنسا لما يربطه به من صداقة سابقة خلال تقدم الجيوش العربية عبر الصحراء. وقد أبلغت وزارة الخارجية الفرنسية السفير البريطاني في باريس بترتيباتها هذه وكررت ما قالته سابقاً بشأن وضع الأمير، **وأضافت القول:** «إن أهلية الأمير وحتى ملك الحجاز للاشتراك في مؤتمر السلم بأية صفة كانت لا وجود لها في الوقت الراهن، وسيبقى الأمر كذلك حتى تتوصل الدول الكبرى إلى اتفاقية حول هذا لموضوع[٢]».

وفي يوم ٣ كانون الأول طلب الأمير فيصل من بريمون أن يخبره بصراحة عما إذا كانت الحكومة الفرنسية لا تريد أن يذهب إلى باريس، وأنه يود أن يعود إلى دمشق إذا كانت إقامته في فرنسا لا تزيد من كونه تمضية وقت. واتصل بريمون بحكومته فوجهت الدعوة إلى فيصل لزيارة باريس

---

(١) راجع سليمان موسى: المراسلات التاريخية رقم ٢١٢–ص٢٤٧. وص٢٤٩ الحاشية.

(٢) – راجع برقية الموفد البريطاني السير دربي إلى وزارة الخارجية بتاريخ ١٩١٨/١١/٢٧. الملف ٣٧/٢٧. وقد شرح العقيد بريمون الذي أصبح لواءً فيما بعد هذه الأمور في كتابه «الحجاز خلال الحرب العالمية» ص٣١٠–٣١١ الذي نشره فيما بعد.

حيث استقبله رئيس الجمهورية يوم ٧ كانون الأول. وكان قبل ذلك بيومين قد منح وسام جوقة الشرف من رتبة ضابط كبير، وفي مساء يوم ٩ كانون الأول غادر فرنسا إلى إنكلترا(١).

وصل فيصل إلى لندن يوم ١٠ كانون الأول ١٩١٨ ومعه لورنس الذي كان قد أسرع لاستقباله ومرافقته عند مغادرته للشاطئ الفرنسي. وقد أرسل عقب وصوله إلى إنكلترا برقيتين أولاهما إلى أخيه الأمير زيد وثانيتهما إلى أبيه الملك حسين. أما **في الأولى** فإنه أطلعه على سياسة الفرنسيين تجاه القضية العربية، وتجاه أبيه. حيث قال: «ستقوم الحرب السياسية بيننا وبين فرنسا لأنها تظهر لنا العداوة رغم أنها منحتني الوسام» وأعلمه فيها أيضاً عن اتجاه السياسة الأمريكية معلناً بأن قسماً عظيماً من الأمريكيين يدعمون هذه القضية **وكان كله أملاً بأنه سينجح في مهمته.**

وفي اليوم التالي قام فيصل بزيارة السيد بلفور وزير الخارجية. ومعه لورنس ليترجم بينهما. وحسبما جاء في مذكرة بلفور عن الزيارة «فقد رد فيصل عن امتنان العرب للمساعدات التي قدمتها بريطانيا لهم ولكنه أبدى مشاعر العداء الشديدة تجاه فرنسا. وقال فيصل إن العرب يرغبون بدولة واحدة تحميهم سواء في سورية أو العراق وهذه الدولة يجب أن تكون بريطانيا لا سواها، وأن العرب لن يتحملوا حكم أية دولة أجنبية أخرى. وشكا فيصل من إجراءات اللنبي لمصلحة الفرنسيين في بيروت، وقال إنها تناقض الوعود التي أعطيت لأبيه في أوائل الحرب. وقال فيصل إنه إذا أظهر

---

(١) – ولا يخفى عن البال أن اللجنة الشرقية التابعة لوزارة الخارجية البريطانية كانت قد درست منذ قليل (أي في ١٩١٨/١١/٢٧) قضايا ذات أهمية بالغة تتعلق بمصير الأراضي العربية السورية وشبه الجزيرة العربية. كما أنها درست أيضاً التزامات بريطانيا تجاه الملك حسين. وقد أوردنا سابقاً نص هذه المداولات كما جاءت مترجمة في كتاب سليمان موسى: (المراسلات التاريخية) رقم ٢٠٤، ٢٠٥ ص٢٣٣–٢٤٢.

الفرنسيون مقاصد عدوانية فإنه سيعمد إلى مهاجمتهم في الحال دون تردد، وهو يعرف جيداً أن العرب لا يستطيعون مجابهة دولة عسكرية كبرى مثل فرنسا، ولكنه وقومه يفضلون الموت في المعركة على أن يخضعوا دون مقاومة[١]».

وقد وصف فيصل في رسالة طويلة كتبها لأبيه اجتماعه بوزير الخارجية بلفور الذي قال: «إن حكومة إنكلترا لم تعاون العرب بل إن العرب هم الذين عاونوها، ولم تحرز هذا الشرف إلا بواسطة العرب، فهي صديقة ومعاونة لكم إلى آخر الأمر»، وأن فيصلاً رد عليه بأن الفرنسيين يريدون ابتلاع سورية كلها ولولا اللنبي وجيوشكم «كنا إلى الآن تصافينا الحساب معهم. فإن لم تعاونونا فسنعلن للعالم أن الخيانة وقعت منكم وسنقاتل من يريد احتلال بلادنا». وقال فيصل: إنه طلب من بلفور تمزيق معاهدة سايكس-بيكو وأنه إما أن يعود إلى بلاده وقد حقق أهداف العرب أو يعمد إلى القتال، ورد بلفور أن إنكلترا تريد تمزيق المعاهدة على يد المؤتمر الذي سيعقد. وطلب فيصل أن يعطيه قولاً يطمئن به، فرد بلفور قائلاً: «مثلي لا يقول قبل العمل، ولكني أؤمنك بالشرف أن العرب سيخرجون من هذا المؤتمر وهم ضاحكون مسترجعون جميع ما كانوا يتمنونه من وضع أساس مجد آبائهم الذي تفتخر الإنسانية به. وهي ستشتغل معكم كأنفسكم والأمد ليس ببعيد..[٢]».

وقد استقبل الملك جورج الخامس فيصلاً ومنحه قلادة فكتوريا في اليوم ذاته. ووصف فيصل في رسالته لأبيه ما فعله الملك وقال فيها إن الملك منحه هذه القلادة «تذكاراً للدماء المشتركة التي أهرقها العرب والإنكليز في

---

(١) راجع مذكرة بلفور بتاريخ ١٩١٨/١٢/١١.

(٢) طبعاً لسنا في حاجة إلى القول إن بلفور كان أكذب من مسيلمة وكان يمثل تماماً الأخلاق الإنكليزية الاستعمارية في التعامل مع الشعوب. راجع نص رسالة فيصل إلى أبيه في كتاب سليمان موسى: المراسلات التاريخية رقم ٢١٧- ص٢٥٠-٢٥٣.

ساحات القتال جنباً لجنب»، **وأضاف إني** «أؤمل أن يكون الود بيننا دائماً إلى ما لا نهاية» **فأجاب فيصل** «إنه جاء مندوباً عن والده لتقديم الشكر على ما لقيه من مساعدة ومعاضدة من قبل الملك وحكومته، وأن أباه يتمنى «أن تبقى محبتكم نحونا مدى الأيام» فقد أعلن له الملك: «إننا لا نتخلى عن مساعدة والدكم والعرب جميعاً.. وأؤمنكم أنكم ستجدون إنكلترا معكم..». ورد فيصل بقوله: «إن والدي قام تجاه الأتراك وقاوم التيار الإسلامي بأجمعه وتحمل الطعن والتشنيع كما تعلمون اتكالاً على أقوالكم ومعتمداً في ذلك على مؤازرتكم ووفائكم. فكيف يتحمل والحالة هذه أن يرى بلاده تقسم والعرب يمزقون ثم يسكت، إن معاهدة ١٩١٦م موجودة بين أيدينا وهي دليل واضح على ما قلته». ورد الملك طالباً من فيصل إبلاغ والده «أن إنكلترا ستكون معه في كُل حال[١]». وفي هذه المقابلة كان لورنس يقوم بدور الترجمان بينهما.

رابعاً- اتفاق لويد جورج وكليمنصو:

عقد بين لويد جورج وكليمنصو اتفاق مبدئي شديد الأهمية بالنسبة لبلاد العرب أثناء زيارة فيصل للجبهة الفرنسية. ففي الأول من كانون الأول ١٩١٨م وصل السيد كليمنصو إلى لندن يرافقه المارشال فوش، كما حل فيها في اليوم ذاته أورلاندو رئيس وزراء إيطاليا وسونينو وزير خارجيته، وكان هذا الاجتماع يهدف إلى إجراء مباحثات تمهيدية تتعلق بمؤتمر الصلح المقبل والاتفاق على بعض الخطوط الرئيسة. واستمرت هذه الاجتماعات أربعة أيام طرح فيها اتفاق **سايكس- بيكو** على بساط البحث وطالب لويد جورج خلال البحث بتعديله لمصلحة بريطانيا، وقد روى لويد جورج أن كليمنصو وافق «دون تردد» على ضم ولاية الموصل إلى العراق بالإضافة إلى خضوع فلسطين من دان إلى بير السبع للحكم البريطاني[٢].

---

(١) راجع سليمان موسى: المراسلات التاريخية رقم ٢١٧- ص٢٥٣ -٢٥٥.

(٢) Lioyd George. The Truth About The Peace Treaties. Vo II. p. 1038 ـــ.

ولكن من الواضح أن الأمر لم يكن بهذه البساطة على الرغم من القول بأن ما حدث بين الرجلين كان «اتفاقاً شفهياً»[١]. ولكن كليمنصو طالب مقابل ذلك معاضدة بريطانيا الكاملة في فرض شروط صلح على ألمانيا تؤمن الأمن لفرنسا. نظراً لمعارضة الولايات المتحدة فرض شروط قاسية على الدول المغلوبة وأن تحصل فرنسا على حصة من زيت الموصل (تم الاتفاق على اقتسام الزيت مبدئياً في نيسان ١٩١٩م ونائياً في نسيان ١٩٢٠م). وطالب كليمنصو أن تحصل فرنسا على الانتداب على كيليكيا وسورية كلها (باستثناء فلسطين). وبهذا الاتفاق نسقت الدولتان موقفهما تجاه بلاد العرب وضمنت كل منهما مصلحتها دون التفات إلى مصالح العرب. واتفقت الدولتان على الاستمرار في محاورة العرب ومداورتهم ذراً للرماد في عيون المجتمع الدولي، حتى تمت التسوية النهائية بينهما بعد ذلك بستة عشر شهراً في **سان ريمو**، حسب اتفاق لويد جورج- كليمنصو هذا. ومن الواضح أن هذا الاتفاق كان أبعد ما يكون عن روح تصريح ٨ تشرين الثاني الذي لم يكن قد مضى على نشره سوى ثلاثة أسابيع وقد ساعد الدولتين على التوصل إلى هذا القرار، **أن القوات البريطانية كانت تحتل فلسطين والموصل احتلالاً فعلياً**. وأن روسيا القيصرية قد زالت وزالت معها مطامعها التوسعية واهتمامها بمصير الأماكن الدينية المسيحية في فلسطين. وتعزى السرعة التي وافق بها كليمنصو على طلبات لويد جورج إلى خشية الفرنسيين من أن تتنكر بريطانيا لاتفاق سايكس- بيكو وأن تعمد إلى إلغائه مستعينة على ذلك بالرئيس ولسون وبالجيوش البريطانية التي كانت تحتل العراق وسورية احتلالاً فعلياً وبأصدقائها العرب.

---

(١) راجع أرشيف وزارة الخارجية البريطانية. الجزء الخامس عشر. ص٢٥١ للاطــلاع على مضامين هذه الاتفاقات الشهفية بالتفصيل.

خامساً- لقاء فيصل- وايزمن:

أخذت بريطانيا تسعى لتقريب وجهات النظر بين العرب أصحاب البلاد الشرعيين وبين الصهيونيين غزاة الغد منذ أن أصدرت الحكومة البريطانية تصريح بلفور في ٢ تشرين الثاني ١٩١٧م. وكان قصد الحكومة البريطانية إقناع حلفائها العرب وأصدقائها اليهود بأنها الدولة المفضلة لحكم فلسطين. وفي نطاق مساعي بريطانيا هذه كانت تأكيدات هوجارث للملك حسين في كانون الثاني ١٩١٨م، وكان من جملة قناعات الملك حسين يومذاك أن مشاريع اليهود لا تؤلف خطراً على البلاد العربية ومن جُملتها فلسطين، تصريحه لهوجارث أنه يرحب باليهود في جميع الأقطار العربية، ونشره في جريدة القبلة مقالة يدعو فيها العرب إلى التسامح مع اليهود باعتبارهم من أهل الكتاب، وفي الوقت ذاته كتب رسالة إلى فيصل تؤكد إظهار النيات الحسنة تجاه اليهود وأبناء المذاهب الأخرى «الذين هم غرباء في بلاد العرب». **وكان من جملة مساعي بريطانيا رسالة دورية مؤرخة بتاريخ ١٦ تشرين الثاني ١٩١٧م بعث بها** سايكس إلى زعماء العرب جاء فيها أن الصهيونيين لا يقصدون الاستيلاء على فلسطين، ومما يجدر ذكره أن هذه الرسالة نشرت مباشرة بعد أن استولى الجيش الإنكليزي على مدينة غزة وتابع زحفه إلى فلسطين والقدس وقبيل نشر الصحافة السوفييتية لاتفاق سايكس – بيكو في جريدتي الازفيستيا والبرافدا.

وكان جمال باشا قد سارع بنشر نص هذا الاتفاق في بيروت في الأسبوع الأخير من شهر تشرين الثاني وأعلم فيصل والقادة العرب والملك حسين بفحوى هذا الاتفاق[1] وقد ورد في هذه الرسالة: «وغاية ما يبغيه الصهيونيون أن ينالوا حق الاستيطان في فلسطين، وأن يعيشوا في

---

(١) راجع سليمان موسى: المراسلات التاريخية رقم ٩٩، ١٠١- ص١٤٦، ١٥٢-١٥٣.

مستوطناتهم عيشتهم الخاصة». وأن «كل ما يرغبه الصهيونيون هو إعطاء الحرية لليهود للإقامة (في فلسطين) والتمتع بكامل الحقوق المدنية، وأن يشاطروا السكان الوطنيين حقوقهم وواجباتهم». وقد سعى الجنرال كلايتون لعقد اجتماع بين عدد من أعضاء جمعية الاتحاد السوري في مصر مع اثنين من أعضاء اللجنة الصهيونية، وقرروا أن يكرروا اجتماعاتهم بهما «والقصد الرئيسي من ذلك هو العمل معاً لتحرير بلادنا[1]». أما الملك حسين فلم يشأ أن يرسل مندوباً عنه للاشتراك في لجنة سايكس، على الرغم من الإلحاح عليه بذلك.

وكان مارك سايكس قد ألقى خطاباً في إنكلترا بتاريخ ١٦/١١/١٩١٧م دعا فيه إلى إنشاء تحالف عربي- أرمني- صهيوني وقد جاء في هذا الخطاب الاستعماري ما نصه: «فإن اجتمعت الصهيونية والوطنية العربية معاً فإنني متيقن من تحرير العرب. أما إذا تصارعتا فالموقف سوف لا يصبح متقداً فقط بل خارجاً عن دائرة التدبير». ومما يجدر ذكره أن فكرة سايكس هذه تلتقي مع الفكرة التي كان نجيب عجوري قد أوضحها منذ عام ١٩٠٥م في كتابه «يقظة الأمة العربية» المار ذكره[2].

ولكن البريطانيين ركزوا على الاتصال بفيصل بعد وصول الأخير إلى العقبة القريبة من فلسطين، ففي ١٠ كانون الأول ١٩١٧م تلقى فيصل من كلايتون رسالة يقول له فيها: «إن سكان فلسطين عرباً ويهوداً أبدوا ارتياحهم لانعتاقهم من النير التركي، وإن هذا لدليل على أن جميع سكان فلسطين

---

(١) رسالة جوابية بتاريخ ١٧ كانون الثاني ١٩١٨م من سليمان ناصيف أمين سر جمعية الاتحاد السوري في مصر إلى مارك سايكس. ومن أعضاء تلك الجمعية: رفيق العظم، حقي العظم، فوزي البكري، مختار الصلح، خليل أيوب وخليل زينيه. راجع حافظ وهبه، جريدة العرب في القرن العشرين، ص ص ٢٢٢-٢٢٣.

(٢) راجع سليمان موسى: المراسلات التاريخية رقم ١٢٥- ص ١٧١-١٧٢.

وسورية متحدون في رغبتهم في تحرير أنفسهم وفي التطلع نحو الاستقلال والحرية. ويجب أن نعمل جميعاً من أجل هذه الوحدة لأن العرب لا يستطيعون أن يأملوا تحقي أهدافهم إلا إذا قربوا إليهم كل طائفة وكل طبقة في البلاد[١]».

وكاتب كلايتون لورانس يحضه على التحدث إلى فيصل بشأن اليهود، فرد لورانس من مدينة الطفيلة التي كان فيها **يقول:** أنه سيحدث فيصل عندما يجتمع به «وأن موقف العرب سيكون ودياً أثناء فترة الحرب على الأقل. ولكن أرجو أن تذكر أنه يخضع للرجل العجوز ولا يستطيع وحده أن يعمل باسم المملكة العربية». وقال لورانس «إن فيصل ربما يزور القدس حيث يمكن أن يجتمع اليهود به[٢]». **وفي الحين ذاته استدعى اللنبي فيصلاً عن طريق لورانس لمقابلته في القدس وقد فسر لورانس السبب** «لأجل المذاكرة فيما يختص بفلسطين واليهود والمسلمين. ويقول فيصل من ضمن رسالة إلى والده أنه قال للجنرال اللنبي في تلك المقابلة: «لا يمكنني أن أرد جواب لا بالنفي ولا بالقبول حتى استأذن صاحب الجلالة.. وقد ذكر أن اليهود اليوم لهم تأثير كبير على الحرب من جهة النقود والجميع محتاجون لهم وربما أنتم (أي نحن العرب) تأخذون منهم خمسة عشر أو عشرين مليون جنيه إما في أثناء الحرب أو بعد الحرب لتشكيل الحكومة وتنظيم أمورها[٣]».

واستمرت حملة التأثير على فيصل فكتب مارك سايكس رسالة مطولة إلى فيصل حافلة بالنصائح عن أفضل سبيل يتبعه القادة العرب في إدارة

---

(١) راجع الوثيقة ٧/٨٨٢ في أرشيف وزارة الخارجية البريطانية.

(٢) رسالة مؤرخة بتاريخ ١٢ شباط ١٩١٨م. وفي الوقت ذاته كتب كلايتون إلى سايكس يخبره فيها بأنه حض لورانس على أن يوضح لفيصل «ضرورة توحيد مساعيه مع اليهود».

(٣) ملحق رسالة غير مؤرخة من فيصل إلى حسين (أوراق الأمير زيد).

بلادهم[1]، استهلها بحض فيصل على ضرورة قيام مساواة تامة بين المسلمين والمسيحيين «وتحطيم الحاجز الرديء الذي فرق بين الغرب والعرب خلال العديد من الأعوام»، هذا الحاجز الذي أقامه الأتراك، ثم تحول إلى وصف قوة اليهود **قائلاً:** «أن لهم قوة عالمية وأذكر أن هؤلاء الناس لا يريدون أن يقهروكم ولا يقصدون أن يطردوا عرب فلسطين.. إنهم لا يرغبون أن يذهبوا إلى هناك بالملايين، وما يرغبون فيه هو أن يكون في مقدورهم أن يشعروا بأن اليهودي في فلسطين يستطيع أن يحيا حياته ويتكلم لغته كما كان يفعل في العصور القديمة. وأن هذا شعور نبيل وصادق، وإذا رحبت به فستكون هناك سعادة ورخاء وأمل لقضيتكم، أما إذا ازدريت هذا الشعور **فستجد ضدك قوة لا تبدو للعيان ولكن فاعليتها تسري في كل مكان....** انظر إلى الحركة اليهودية بمثابة المفتاح الكبير لنجاح العرب وبمثابة ضمان القوة الوحيدة عندما يعقد مُمثلوا الأمم اجتماعهم[2]».

جاء وايزمن[3]، رئيس اللجنة الصهيونية، إلى مصر في ربيع عام ١٩١٨م واجتمع بعدد من الزعماء السوريين فيها بقصد تبريد قلقهم حول

---

(١) راجع أيضاً بهذا الخصوص ما كتبه الكولونيل باست إلى الملك حسين من جدة بتاريخ ١٩١٨/٢/٢٠ سليمان موسى: المراسلات التاريخية رقم ١٣٦- ص١٨٠. وجاءت هذه الرسالة في الفترة التي تقدمت بها الجيوش البريطانية في عمق فلسطين واقتربت من نهر الأردن.

(٢) رسالة بتاريخ ٣ آذار ١٩١٨م موجودة في الملف ٣/٨٨٢ أرشيف وزارة الخارجية البريطانية. وراجع خصوصاً سليمان موسى: المراسلات التاريخية رقم ١٣٨- ص١٨١-١٨٢.

(٣) حاييم وايزمن. عالم كيميائي وزعيم صهيوني (١٨٧٤م-١٩٥٢م) ولد في بولندا وتلقى علومه في برلين، عمل أستاذاً في جامعة جنيف. ثم عين مديراً لمختبرات الأسلحة البريطانية ١٩١٦م. كانت له اكتشافات حول إنتاج الأسيتون. كانت محادثاته مع بلفور سبباً في إعلان وعد بلفور. وترأس الوفد الصهيوني في مؤتمر فرساي للسلام. كان رئيساً للمنظمة الصهيونية العالمية. وقد عين رئيساً لمعهد وايزمن للعلوم والجامعة العبرية، انتخب أول رئيس لدولة إسرائيل وبقي في منصبه إلى أن توفى.

ما نشر عن مطامع الصهيونية، ثم جاء إلى القدس وعمل ستورز وكلايتون على عقد اجتماعات بين وايزمن وبين عدد من الزعماء الفلسطينيين حيث ألقى خطاباً **قال فيه:** إن الصهيونيين «يطلبون فقط فرصة التطور القومي الحر في فلسطين.. دون إلحاق الضرر بالسكان القاطنين في هذه البلاد بل لمصلحتهم، وأن القول بأن اليهود سيعملون على طرد العرب من البلاد إما أن يكون ناتجاً عن سوء فهم أو مختلق يختلقه أعداء الطرفين[1]». ورفض فيصل الذهاب إلى القدس، فأرسل الإنكليز وايزمن للاجتماع به، وهكذا سافر وايزمن بحراً من مصر إلى العقبة ومنها إلى وهيدة (بين معان والعقبة) مقر قيادة فيصل يومذاك حيث اجتمع به يوم ٤ حزيران ١٩١٨م حوالي ثلاثة أرباع الساعة. حيث قدم لفيصل رسالة توصية من كلايتون **قال فيها** «إن صديقه وايزمن يعمل على إيجاد التعاون الكامل بين العرب واليهود لأن مصالحهم مترابطة إلى حد أن التعاون والتعاطف بينهم سيحقق وحده النجاح الدائم لهم[2]».

وقد استهل وايزمن الاجتماع بقوله: «إن الحكومة البريطانية أرسلته للبحث في موضوع ترويج المصالح اليهودية في فلسطين وللاتصال بالزعماء العرب في محاولة للتعاون معهم». وقال فيصل «إنه يدرك أهمية التعاون بين العرب واليهود، ولكنه لا يستطيع أن يبدي رأياً يتعلق بالسياسة لأنه في القضايا السياسية لا يزيد عن كونه وكيل أبيه ولا يستطيع البحث

---

(١) راجع أمين سعيد: الثورة العربية الكبرى. مجلد ٣. ص٥٠ حيث يقول: «إن العرب رفضوا أن يوافقوا على تصريحات وايزمن وأن البعض منهم قد انسحبوا من المقابلة».

(٢) راجع مذكرات وايزمن بعنوان «مصاعب وأخطاء» الذي صدر في لندن سنة ١٩٤٩ ص٢٩٠ وما بعدها والذي ترجم للفرنسية بعنوان «نشأة دولة إسرائيل». باريس سنة ١٩٥٧.

فيها». **فأجاب وايزمن:** «إن اليهود لا يرمون إلى تأسيس حكومة يهودية ولكنهم يريدون أن يعمروا البلاد ويطوروها تحت الحماية البريطانية دون أن يتعدوا على أية مصالح مشروعة للآخرين». واعتذر فيصل مرة أخرى عن بحث مستقبل فلسطين فيما يتعلق باليهود والحماية البريطانية. **وقال وايزمن:** «إنه سيسافر قريباً إلى أمريكا وأنه سوف يستعمل نفوذ اليهود مع الرئيس ولسون لمصلحة الحركة العربية».

وقد تجدد الاتصال بين فيصل ووايزمن بعد ذلك بستة شهور. وإذا أردنا تقدير ظروف فيصل في ذلك الحين والضغوط التي كان يتعرض لها لتجديد الاتصال بوايزمن فمن المهم أن نحسب حساباً لوضع فيصل إزاء فرنسا وكذلك إزاء بريطانيا. ففي ١٠ كانون الأول ١٩١٨م وصل فيصل إلى لندن وهو في قلق نفساني عظيم من جراء موقف فرنسا السلبي منه وعدم اعترافها له بأية صفة رسمية كما وصف في رسالته إلى أبيه. لقد كانت أفكار فيصل كلها تتجه نحو حل هذه المشكلة، وقد توافرت عنده القناعة التامة بأن فرنسا هي العقبة الكؤود في وجه الاستقلال العربي منذ إخراج ممثليه من بيروت وسواحل سورية وما شاهده من تصرفات الفرنسيين العدائية(١).

كان الساسة البريطانيون يظهرون الكثير من حسن النية الخادعة تجاه العرب ولكنهم في الوقت ذاته كانوا يشجعون الصهيونية ويحرصون على تقوية التحالف مع فرنسا، ويصرون على توسيع رقعة السيطرة البريطانية في بلاد العرب. والواقع أن السياسة البريطانية اتجهت إلى محاولة التقريب بين العرب واليهود، بقصد تحقيق هدف الإنكليز النهائي وهو الحصول على موافقة جميع الأطراف المعنية على أن تخضع فلسطين لحكمهم بدلاً من أن تخضع لإدارة دولية.

---

(١) سليمان موسى: المراسلات التاريخية. رقم ٢٠٩- ص٢٤٤-٢٤٥ وهي رسالة من فيصل إلى أبيه الملك حسين. ورقم ٢١٦-ص٢٥٠ وهي رسالة من فيصل إلى أخيه زيد من لندن بتاريخ ١٢/١٢٥/١٩١٨م ورقم ٢١٧- ص٢٥٠-٢٥٣.

وكان رئيس الوزارة الفرنسية كليمنصو قد حضر إلى لندن في كانون الأول ١٩١٨م واتفق مع لويد جورج على تعديل اتفاقية سايكس – بيكو حيث وافق على أن تحتل بريطانيا لواء الموصل وأن تشرف بنفسها على فلسطين[١].

ما إن حط فيصل قدمه على أرض الجزر البريطانية حتى استقبله لورانس الذي أصبح صديقه ومستشاره وترجمانه، ووجد فيه همزة الوصل الوحيدة للتعرف على وضع سياسي كان قليل الخبرة به وللاجتماع بأشخاص لم تكن له بهم معرفة سابقة. والتصق لورانس بفيصل بتوجيهات من حكومته خلال هذه الفترة حتى كان لا يكاد يفارقه وبالشكل الذي عرف عن لورانس وذاع صيته.

في هذا الوضع وفي ظل هذه الظروف تجدد اللقاء بين فيصل ووايزمن. يوم ٦ كانون الثاني عام ١٩١٩م، في فندق كارلتون بلندن حيث كان يقيم فيصل. وقام العقيد لورانس بدور المترجم بين الطرفين.

بلغ النشاط الصهيوني في ذلك الوقت أوج قوته.. وكان يبدو جلياً أن الحكومة البريطانية عازمة عزماً أكيداً على تحقيق الأهداف الصهيونية شريطة تغيير وضع فلسطين لصالح بريطانيا وقد عملت الخارجية البريطانية جهدها للضغط على فيصل لتحصل على موافقته المبدئية على اتفاقية سايكس – بيكو ووعد بلفور.

كان فيصل واقعاً تحت تأثير الضغط البريطاني وتحت شعوره «أن بإمكانه استخدام نفوذ الصهاينة للضغط على الولايات المتحدة الأمريكية التي ستضغط بدورها على فرنسا– العقبة الكؤود– التي كانت تقف حجر عثرة دون تحقيق الأماني العربية». وبذلك يمكنه التغلب على فرنسا في مؤتمر الصلح لاعتقاده أيضاً أن بريطانيا ستكون مع العرب وليس ضدهم على حد تعبيره.. في ضوء كل هذه الخلفيات عقد فيصل مع وايزمن اتفاقاً **ينص في**

---

(١) راجع تيميرلي: «تاريخ مؤتمر السلام» المجلد السادس– ص١٤١-١٤٢.

أهم بنوده: «على القرابة العرقية والصلات القديمة بين العرب واليهود، وعلى ضرورة التعاون في سبيل تقدم الدولة العربية وفلسطين وإنشاء وكالات عربية ويهودية معتمدة في المنطقتين، وعلى أن يسود التفاهم بين الدولة العربية وفلسطين، وأن تقدم الضمانات لتنفيذ تصريح بلفور، وتشجيع الهجرة اليهودية إلى فلسطين وحرية ممارسة العقيدة الدينية».

وقد أضاف فيصل إلى مواد الاتفاقية الثماني المادة التالية بخط يده:

«إذا نالت العرب استقلالها كما طلبناه بتقريرنا المؤرخ في ٤ كانون ثاني ١٩١٩م المقدم لنظارة خارجية حكومة بريطانيا العظمى فإنني موافق على ما ذكر بباطن هذا من المواد، وإن حصل أدنى تغيير أو تبديل فلا أكون ملزماً ومربوطاً بأي كلمة كانت بل تعد هذه المقاولة شيء كلا ولا حكم لها ولا اعتبار ولا أطالب بأي صورة كانت[١]».

وقد وقَّع فيصل مباشرة تحت هذه المادة كما جاء توقيع وايزمن تحت توقيع فيصل. ومن هنا يجب اعتبار الشرط الذي أضافه فيصل مادة أساسية من صلب الاتفاقية، لا يصح التحدث عنها أو بحثها بمعزل عنه.

إننا لو نظرنا بموضوعية وتجرد إلى الوضع الذي كان يجد فيه فيصل نفسه يومذاك، وإذا أخذنا بعين الاعتبار النظرة العامة التي كان العرب في ذلك الحين يرون اليهود من خلالها: أناساً مسالمين، ضعفاء قد يجيدون الصيرفة والتجارة ولكنهم لا يعرفون الحرب- فإننا لا نجد في هذه الاتفاقية ذلك الذنب الفظيع وتلك الجناية الكبيرة التي حاولت بعض أجهزة الدعاية

---

(١) راجع بهذا الخصوص جورج أنطونيوس: «اليقظة العربية». الطبعة الإنكليزية – ص٤٣٧-٤٣٩، وسليمان موسى في كتابه «الحركة العربية» – ص٤٣٦-٤٣٩. راجع أيضاً النص الأساسي في كتاب إيتوني روسّي «وثائق» صفحة ٧٢-٧٣. وإذا أردت العودة إلى وجهة النظر الصهيونية يجب مراجعة كتاب ل. نيهير برنهايم «تصريح بلفور»- ص٣٨٩-٣٩٠.

المغرضة أن توهم بها العالم العربي. لقد حدث كل هذا عام ١٩١٩م قبل أن يشهد الناس شيئاً مما وقع في فلسطين بعد ذلك. وإن الشرط القوي الذي وضعه فيصل كان يدل على بُعد نظره وعلى تحسُّبه للعواقب والاحتمالات وكان دليلاً على أن ثقته بالإنكليز لم تكن ثقة كاملة. وربما يكون هناك مجال للوم فيصل لأنه لم يدرك أن الهدف الأساسي للحركة الصهيونية من هذه الاتفاقية هو الحصول على أية وثيقة من مسؤول أو زعيم عربي تشعر بموافقة العرب على الأهداف الصهيونية أو عدم ممانعتهم لها، لأنها تدرك أن القرار الأخير لن يكون بيد العرب.**ومن المهم القول بأن الشرط الذي أضافه فيصل جعل الاتفاقية باطلة** علمياً، لأن العرب لم يحققوا مطالبهم التي تضمنتها مذكرة فيصل[١].

أما موقف الولايات المتحدة فقد أوضحه الرئيس ولسن[٢] في الخطابات التي ألقاها سنة ١٩١٧م و١٩١٨م. وفي البنود الأربعة عشر الشهيرة التي أعلنها يوم الثامن من كانون الثاني عام ١٩١٨. ويبدو أنه كان يفكر بمشروع إنشاء اتحاد كونفدرالي للدول العربية بحماية الولايات المتحدة.

ولا نرى بأساً من أن نرجع قليلاً إلى أواخر عام ١٩١٨م أي في التاسع والعشرين من شهر كانون الأول حيث سنحت لوزير الخارجية

---

(١) «بما أنه لم يجر تنفيذ طلبات فيصل وشروطه، فإن اتفاقية فيصل- وايزمن لم يكن لها وجود قانوني أو شرعي على الإطلاق». وعندما سئل فيصل عن سبب توقيعه الاتفاقية مع وايزمن أجاب: «لقد اشترطنا لتأييدهم إنشاء مملكة عربية فإذا أنشئت لا يهمنا شيء. (أمين سعيد: الثورة العربية الكبرى، المجلد٣، ص٤٦).

(٢) ويدرد ولسن (١٨٥٦-١٩٢٤) الرئيس (٢٨ي للولايات المتحدة. انتخب للرئاسة عام ١٩١٢ وأعيد انتخابه عام ١٩١٦. بقي على الحياد في الحرب العالمية الأولى حتى عام ١٩١٧ حيث أعلنها. أصدر نقاطه الأربع عشرة عام ١٩١٨ كأساس للتسوية السلمية.

الفرنسية، السيد بيشون (Pichon) فرصة ليؤكد من جديد أن لفرنسا حقوقاً في الإمبراطورية العثمانية، وذلك في أثناء جلسة مناقشة في الجمعية الفرنسية العامة. هذه الحقوق لفرنسا هي في سورية ولبنان وكيليكيا وفلسطين، وهي حقوق قائمة على حقيقة التاريخ، وعلى اتفاقات، وعلى عهود ومواثيق. وعندما قاطعه النائب الاشتراكي السيد مارسل كاشان (Cachin) قائلاً «بأن السوريين يطالبون بالحرية والاستقلال- وهذا هو العهد الذي قطعته فرنسا على نفسها». **تابع وزير الخارجية السيد بيشون كلامه قائلاً:** «إن هذه الحقوق تصدر دوماً عن أماني سكان تلك البلدان ورغائبهم، لأنها شعوب كانت منذ زمن تشعر بالتعاطف معنا، وتطلب حمايتنا». «ومؤتمر الصلح حر في التوصل إلى استنتاجاته الخاصة فيما يتعلق بالاتفاقات التي عقدت، أما بالنسبة إلينا فإننا نعتبر اتفاقيتنا مع إنكلترا ملزمة لإنكلترا كما أنها ملزمة لنا، كما أننا نعتبر الحقوق المعترف بها لنا».

ومما لا شك فيه أن هذا الكلام الصادر عن وزير الخارجية الفرنسية كان موجهاً بالدرجة الأولى إلى حليفتها عبر مضيق المانش، إنكلترا، وفي وقت كان فيه الأمير فيصل في لندن، وكان القصد من التركيز على اتفاقية سايكس- بيكو تذكير من يلزمه التذكير بأن فرنسا لن تعترف بإجراء أي تعديل من شأنه أن يمس مصالح فرنسا في الشرق الأدنى.

في الثلاثين من شهر كانون الأول تناول الأمير فيصل وزوجته طعام الغداء على مائدة رئيس بلدية لندن في مقر رئاسة البلدية Mansion House وحضر المأدبة السير هنري مكماهون وزوجته. «وعندما شرب رئيس البلدية نخب الأمير شكره للخدمات الجلّى الممتازة التي أسدتها قواته الباسلة لهم في تحرير الأرض المقدسة من الحكم التركي البغيض. وفي رده على كلمة رئيس البلدية **قال الأمير فيصل:** «إن العرب يحاربون في سبيل مبادئ الحرية والعدل، وهي المبادئ التي يقدسها الحلفاء، والتي هي على

نقيض المبادئ التي كان يقوم عليها الحكم التركي. وعبر عن عظيم سروره إذ إن العرب، وهم يقومون بهذه المهمة، وفي الوقت الذي كانوا يحاربون فيه في سبيل هذه المبادئ، كان الشعب الإنكليزي يتعاطف معهم». وهكذا انصرم عام ١٩١٨ وفرنسا متمسكة باتفاقية سايكس- بيكو، بينما كانت إنكلترا تحاول تعديل بنودها. أما فيصل فكان يتكلم عن مبادئ الحرية والعدالة في وضع دولي لا يحترم سوى شريعة الغاب في الوقت الذي كان يزداد فيه الوضع توتراً وخطورة في الشرق الأدني.

سادساً- مؤتمر الصلح في باريس عام ١٩١٩:

كان الرئيس ويلسن وهو رئيس الولايات المتحدة قد استقطب آمال الشعوب الضعيفة في تحقيق العدالة. كما كان حامل راية مبدأ تقرير المصير. وكان الجو الذي انعقد به مؤتمر الصلح في باريس يوم ١٩١٩/١/١٨م حافلاً بالمتناقضات والمثاليات، والشك. والشره الاستعماري والأماني الوليدة، وقد حاولت بريطانيا وفرنسا إقناع ولسون بأن تتفق الدول الكبرى على حلول المشاكل القائمة وعرضها على المؤتمر العام، ولكن ولسون رسول السلام رفض الاقتراح وأصر على أن تعرض المشاكل على بساط البحث علناً. وهنا اقترح كرزون ووافق معه لويد جورج أن لا تقبل بريطانيا أن يكون ولسون الحكم الأوحد في تسويات السلم بل أن يكون طرفاً بين الأطراف الأخرى حول طاولة المؤتمر.

لم تكن المشاكل التي كان العالم يواجهها مع نهاية الحرب تقل عن المشاكل التي كانت تواجهه قبل بدئها، فالدول المهزومة كانت تتوقع شروط صلح قائمة على مبادئ ولسون، بينما كانت فرنسا بالذات تصر على فرض شروط صلح شديدة ضد الألمان. وكان على المؤتمر أن ينظر في قضايا عشرات الشعوب الصغيرة في أوروبا وآسيا التي كان كل منها يطالب بحلول

تتعارض مع الحلول التي تطالب بها شعوب أخرى. وقد كانت الدول الكبرى يومذاك هي بريطانيا وفرنسا وإيطاليا والولايات المتحدة واليابان. وكانت الدول الثلاث الأولى تصر على اقتطاف ثمار الانتصار الذي أحرزته عن طريق التوسع والحصول على التعويض والتنازلات.

وبما أن مسالة تمثيل العرب في المؤتمر لما تحل بعد فقد وجه فيصل حال وصوله إلى العاصمة الفرنسية في ١٣ كانون الثاني رسالة إلى بيشون طلب منه فيها بأن يحضر المؤتمر ممثلاً للبلاد العربية ثم اجتمع بالسيد كليمنصو فقال له هذا أنه يعد العرب من جملة الحلفاء. وقبل افتتاح المؤتمر جاءه ج. J. GOUT وهو الوزير المفوض المختص بالشؤون الشرقية في وزارة الخارجية الفرنسية **وقال له** «إن فرنسا ما تزال تعتبره بمثابة سائح وأن دول الحلفاء لم تعترف كلها بعد بالحكومة العربية (الولايات المتحدة واليابان) وأن حكومة فرنسا لا تعترف بالتأكيدات التي أعطاها له الجنرال اللنبي وأنها قوية تستطيع عمل كل شيء وقد خدعك بعض الذين ليس لهم صلاحية في الأمور الرسمية وهذا مما يستوجب الأسف، ولكن إذا أردتم التقرب من فرنسا وأخلصتم لها في سياستكم فإنها تعمل معكم ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً».

وكان واضحاً أن غو يعني تحذير فيصل من الاستمرار في التعاون مع الإنكليز. وقد رد عليه فيصل بقوله: «أعلم أن والدي لم يحارب الأتراك لأجل أن تتجزأ بلاده وتغدو طعمة للأغيار. ولا تحسبوا أنني أخاف قوة فرنسا وشديد بطشها فأسلمكم بلادي بل كن مطمئناً من هذه الجهة. **ولقد أعطتني الحكومة الإنكليزية قولاً صريحاً بتخلية العراق.** إنني عدو لمن يخالف سياستنا الوطنية ويعارضنا فيها أكان ذلك المعارض إنكليزياً أو فرنسياً[1]». وقد بادر فيصل بعد ذهاب غو فأنبأ لورنس بما قال غو وطلب إليه أن ينقل

---

(١) راجع رسالة من فيصل إلى الملك حسين بتاريخ ١٩١٩/١/١٩ (أوراق الأمير زيد).
وراجع أيضاً كتاب رسائل لورانس التي نشرها دافيد غارنت. لندن- ص٢٧٣-٢٧٤.

تفاصيل المحادثة إلى بلفور. ومضى لورنس فنقل النبأ إلى كبار أعضاء الوفد البريطاني وقابل بلفور الذي قام هو ولويد جورج بسعي مع كليمنصو وبيشون. وبعد شيء من الأخذ والرد والإلحاح وافق مجلس الحلفاء الأعلى يوم ١٧ كانون الثاني على أن يمثل العرب مندوبان. وعاد لورنس إلى فيصل في الساعة الثانية بعد منتصف الليل فوجده ما يزال ساهراً يتجول في الفندق نهب الحيرة والقلق. وبادر لورنس فيصلاً بالقول: «سيدي، لويد جورج يبلغك أنه سيكون للعرب مندوبان وليس مندوب واحد» فسر فيصل كثيراً وفي جلسة الافتتاح مثل العرب هو ومحمد رستم حيدر[١].

وقد كان هناك جانب آخر لتمثيل العرب في مؤتمر السلم فقد كان الملك حسين يعتبر نفسه ممثل العرب الآسيويين جميعاً بينما اعترفت به بريطانيا وفرنسا ملكاً على الحجاز. ووافقت فرنسا على أن يمثل في المؤتمر بهذه الصفة فقط. وقد تبدت الصعوبة عندما طلب المعتمد البريطاني في جدة من الملك أن يبعث التفويضات التامة إلى فيصل، لأن الملك رفض أن يوقع التفويضات باسم حكومة الحجاز ورفض أربع صيغ مختلفة اقترحها المعتمد. **كما أنه تردد في إعطاء تفويضات مع صلاحيات تامة بتوقيع المعاهدات وإجراء المباحثات باسمه،** بينما لم يكن يعرف من أولئك المندوبين سوى ابنه

---

(١) رسالة فيصل إلى أخيه زيد بتاريخ ١٩١٩/١/١٩م (أوراق الأمير زيد). ولد محمد رستم حيدر في بعلبك عام ١٨٨٩م وتوفي عام ١٩٤٠م، وتعلم بدمشق والآستانة والسوربون في باريس وفي مدرسة العلوم السياسية بباريس. شارك في تأليف جمعية «العربية الفتاة». حضر مؤتمر فرساي مع الملك فيصل وأقام مدة في باريس. تولى مركز سكرتير فيصل الخاص عام ١٩٢١م في العراق كان رئيساً للديوان الملكي في عهد الملك غازي. عاد إلى بعلبك بعد انقلاب بكر صدقي وعاد عام ١٩٣٧م إلى بغداد ليتولى وزارة المالية. اغتاله ضابط شرطة عراقي. له مؤلفات عديدة بالفرنسية والعربية.

فيصل. وبعد مناقشات عديدة بين الملك والمعتمد اقتنع الملك بأن توقيع التفويضات باسم «ملك البلاد العربية» والإشارة فيها إلى الأمة العربية سيثير اعتراضات الدول الأخرى عليها مما يجعلها ملغاة ويحول دون وجود ممثلين عرب في المؤتمر. وأخيراً وقع رئيس الوزراء بالنيابة ست وثائق باسم «الحكومة العربية الشريفية» وصادق الملك عليها. وقد تركت الأسماء في وثائق الاعتماد مفتوحة ليصار إلى تعبئتها في باريس من قبل فيصل. واشترط الملك في رسالة بعث بها إلى المندوب السامي مع وثائق الاعتماد أنه لا يوافق على أن يوقع مندوبوه على أية اتفاقات يمكن أن تنتقض من اتفاقه مع الحكومة البريطانية المتمثل برسائل مكماهون.

عند افتتاح المؤتمر كان فيصل يعتقد اعتقاداً جازماً أن فرنسا «تريد أن تخرج سورية من المجتمع العربي وتستحوذها لنفسها». وقد اتخذ فيصل في مساعيه السياسية القول إنه وكيل والده والجيش العربي المؤلف من جميع العرب وأنه يطالب بحقوق العرب وأن لا تحسم الدول أمراً يختص ببلاد العرب إلا بعد أن يؤخذ رأي أهلها «وأهل البلاد لهم الحق في انتخاب الحكومة التي يريدونها وعلى الحكومات أن تقبل برأيهم.. وكل قرار خالف هذا المبدأ لا نقبل به». **وأعلن فيصل أن أباه «لا يريد أن يجبر العرب على قبول سيطرته»** ولكن «سلوا أهل البلاد، هم أحق الناس بتعيين مقدراتهم وبانتخاب الحكومة التي تناسبهم. كانت تلك الحكومة فرنسا أم أميركا أم اليابان أم العرب». وقد اتصل فيصل برجال الوفد الأميركي وشرح لهم وجهة نظر العرب وحثهم على الأخذ بناصره، وأخذ يسعى للاجتماع بالرئيس ولسون ليطب منه «أخذ الرأي العام في البلاد: أعني التصويت في جميع بلاد العرب المستخلصة من أيدي الترك..».

وفي باريس قدم فيصل إلى وفود الدول الكبرى مذكرته المؤرخة بتاريخ ١ كانون الثاني ١٩١٩م التي كان قد أعدها في لندن وقدمها لوزارة الخارجية البريطانية، وفيما يلي نص المذكرة:

«جئت ممثلاً لوالدي الذي قاد الثورة العربية ضد الأتراك تلبية منه لرغبة بريطانيا وفرنسا لأطالب بأن تكون الشعوب الناطقة بالعربية في آسيا من خط الإسكندرونة- ديار بكر حتى المحيط الهندي جنوباً، معترفاً باستقلالها وسيادتها بضمان من عصبة الأمم، ويستثنى من هذا المطلب الحجاز وهو دولة ذات سيادة، وعدن محمية بريطانية[١].

وبعد التحقق من رغبات السكان في تلك المنطقة، وتعديل الحدود فيما بينها، وفيما بينها وبين الحجاز، وفيما بينها وبين البريطانيين في عدن، وإنشاء دول جديدة حسب الحاجة وتعيين حدودها. **وستتقدم حكومتي في الوقت المناسب بمقترحات تفصيلية في هذه النقاط الصغيرة**، وأني لاستند في مطلبي هذا على المبادئ التي صرح بها الرئيس ولسن وهي مرفقة بهذه المذكرة وأنا واثق من أن الدول الكبرى ستهتم بأجساد الشعوب الناطقة بالعربية وبأرواحها أكثر من اهتمامها بما لها هي نفسها من مصالح مادية».

ومما لا شك فيه أن روح المسايرة لرغبات وزارة الخارجية البريطانية تبدو واضحة وجلية في هذه المذكرة ولكن ليس في الإمكان أبعد مما كان.. وقد عبر المؤرخ الشهير «توينبي» الذي كان يعمل في وزارة الخارجية البريطانية يوم ذاك عن ارتياحه لهذه المذكرة فقال: «أرى أنها وثيقة بالغة الاعتدال وتدل على حنكة سياسية وأنه يجب منح الأمير فيصل الفرصة التامة لكي يعرض رسمياً أمام المؤتمر قضية العرب المعروضة هنا»[٢].

---

(١) راجع لويد جورج في كتابه عن مؤتمر باريس بعنوان «الحقيقة حول معاهدات السلام» لندن ١٩٢٤. المجلد الثاني- ص١٠٣٨- ١٠٤٤ وراجع أيضاً دافيد هنتر مللر (يومياتي حول مؤتمر باريس) المجلد الرابع- ص٢٩٧.

(٢) راجع الملاحظة التي كتبها حول مذكرة فيصل بتاريخ ١٦، ١٩١٩/١/١٧- أرشيف وزارة الخارجية البريطانية. الملف ٩٢/٦٠٨.

وفي هذه الأثناء رفع «قسم الاستخبارات» لوفد الولايات المتحدة لمؤتمر الصلح في باريس «توصية» بتاريخ ٢١ كانون الثاني ١٩١٩م، إلى الرئيس ولسن وإلى المفوضين المطلقي الصلاحية للدول الأخرى جاء فيها:

أولاً- إنشاء دولة سورية.

ثانياً- أن يطبق على هذه الدولة السورية نظام الانتداب. ولكن لم يرد في التوصية ذكر للدولة التي ستُختار للقيام بمهمة الانتداب هذا.

ثالثاً- ينبغي ألا توضع عراقيل من شأنها أن تحول دون دمج هذه الدولة السورية المقترحة في اتحاد عربي كونفيدرالي إذا تبين أن هناك ميلاً في البلاد نحو هذا الحل[١].

ولكن جل ما نعرفه عما اتخذ من قرارات رسمية حول سورية في أثناء الشهر الأول من سنة ١٩١٩م. هو مشروع قرار اتخذه ممثلو الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا وإيطاليا واليابان في مؤتمر خاص في الكاي دورسي[٢] في ٣٠ كانون الثاني، مؤداه: «وجوب فصل سورية فصلاً تاماً عن الإمبراطورية العثمانية[٣]».

في اليوم السادس من شهر شباط. تمكن الأمير فيصل من عرض قضيته أمام مؤتمر الصلح في مقر وزارة الخارجية الفرنسية. فأشار فيصل إلى المذكرة التي كان قد رفعها إلى المؤتمر في ٢٩ كانون الثاني، والتي طالب فيها بأن يعترف الحلفاء «بأن يكون للشعوب الناطقة بالعربية في آسيا من خط الاسكندرونة- ديار بكر حتى المحيط الهندي جنوباً اعتراف باستقلالها وسيادتها بضمان من عصبة الأمم» ثم راح يعرض الأسباب التي

---

(١) راجع ميللر «الوثائق» المجلد ٤-ص٢٦٢- وثيقة رقم ٢٤٦.

(٢) مبنى وزارة الخارجية الفرنسية.

(٣) - راجع الأوراق المتعلقة بعلاقات الولايات المتحدة الخارجية. المجلد ٣- ص٧٩٦.

من أجلها تقدم بمطلبه هذا **وقال:** «إن والده لم يعرض حياته للخطر، كما أنه لم يعرض مملكته للدمار لما اشترك في الحرب، وعندما بلغت الحرب أقصى حد من الخطورة، ليحصل على منافع مادية شخصية... إن العرب يعترفون بالجميل لبريطانيا وفرنسا ويشكرونهما على ما قدمتاه من عون في سبيل تحرير أوطانهم. والعرب يطالبون الآن أن يفي الحلفاء بالوعود التي قطعوها على أنفسهم في شهر تشرين الثاني سنة ١٩١٨م».

ثم أن تلميحاً وجه إلى فيصل- والواقع أنه لم يكن تلميحاً مبطناً بقدر ما كان أمراً واقعاً عندما التفت إليه الرئيس ولسن، بعد أن أدرك أن عصبة الأمم قد تبنت نظام الانتداب، **وسأله:** «ما إذا كان يؤثر أن يرى دولة واحدة تتولى الانتداب على شعبه، أو عدداً من الدول تتولاه». كان هذا السؤال في الواقع خروجاً صارخاً عما كان يطالب به فيصل من الاستقلال والسيادة. ولذا امتنع عن الإجابة بصورة مباشرة قائلاً إنه لا يستطيع أن يجيب عن هذا السؤال قبل أن يستشير والده وقبل أن يعود إلى العرب أنفسهم. لقد جاء إلى باريس ليطالب باستقلال شعبه، وبحقهم في اختيار مصيرهم.. **قال فيصل:** إنه «شخصياً، كان يخشى تجزئة البلاد العربية، كان هدفه وحدة العرب، وفي سبيل الوحدة حارب العرب، **وأي حل غير هذا الحل لا يمكن أن يعتبره العرب إلا نوعاً من تقاسم الأسلاب بعد المعركة**... وكان العرب يطالبون بالحرية ولا يرضون عنها بديلاً.. فقد كان العرب أمة يطالبون بالحرية ولا يرضون عنها بديلاً... فقد كان العرب أمة قديمة متحضرة منظمة في زمن لم يكن فيه للدول الممثلة في هذه القاعة الآن من وجود...[1]».

في الثالث عشر من شباط جرى بحث حول قضية سورية وذلك قبل انعقاد جلسة العشرة الكبار في مكتب بيشون (Pichon) في مقر وزارة

---

(١) راجع كتاب لويد جورج السابق الذكر «الحقيقة حول مؤتمر السلام» المجلد الثاني- ص١٠٤٣-١٠٤٤.

الخارجية واستدعى الدكتور هوارد بلس (Bliss) رئيس الكلية الإنجيلية في بيروت (وهي الآن الجامعة الأميركية في بيروت) ليدلي برأيه حول القضية. وبعد أن رحب به كليمنصو شرع بلس بقراءة البيان الذي كان قد أعده، **وهذا بعض ما جاء فيه:** «إن الالتماس الذي أرفعه إلى هذه الهيئة الموقرة عن أهل سورية هو أن ترسل فوراً لجنة حيادية مختلطة، تمثل الحلفاء، إلى سورية لتفسح في المجال أمام الأهلين في سورية، وفي لبنان أيضاً، للتعبير وبحرية ودون أي عائق عن وجهات نظرهم السياسية وعن أمانيهم بالنسبة إلى نوع الحكم الذي يرغبون فيه، وبالنسبة إلى الدولة الحامية المنتدبة إذا شاؤوا ذلك.. **وإني مقتنع أن مثل هذا الاستفتاء الحر سيكشف عن رغبة الشعب في إقامة دولة**، أو دول، تتطلع آخر الأمر إلى نيل الاستقلال التام، غير أنها الآن تسعى، إلى الحصول على وصاية تقوم بها دولة منتدبة. وفي ختام بيانه لفت الدكتور بلس انتباه مجلس العشرة الكبار إلى «ضرورة الفصل التام بين الدين والدولة» وأضاف قوله: «إنه من الأفضل للحكم أن يلازم خطاً موازياً للدين، وأن يسير الاثنان معاً نحو تحقيق غايتها الرائعة متوازيين منفصلين[(١)]».

وبحث الأربعة الكبار موضوع سورية في اجتماع خاص يوم ٢٠ آذار وفي هذا الاجتماع أكد بيشون تمسك فرنسا بسورية كلها، ورد لويد جورج قائلاً: إن احتلال فرنسا لسورية ا لداخلية يناقض الاتفاق مع العرب وأن اتفاقية **سايكس - بيكو** وضعت على أساس رسالة **مكماهون إلى الملك حسين** (٢٤ تشرين الأول ١٩١٥) وقال بيشون، أن فرنسا لم تعهد بريطانيا للعرب إلا قبل بضعة أسابيع، ورد **لويد جورج** قائلاً أن بريطانيا جندت حوالي مليون جندي ضد الأتراك وجنودها هم الذين احتلوا سورية بمساعدة العرب الذين كانت مساعدتهم لها «جوهرية» **وعزز اللنبي هذا التصريح بقوله:** إن

---

(١) راجع بيان الدكتور بليس في كتاب: الوثائق المتعلقة بالعلاقات الخارجيــة للولايــات المتحدة الأمريكية. المجلد ٣- ص١٠١٥-١٠١٨.

مساعدة العرب «لا تقدر بثمن». وعاد لويد جورج يقول إنه على أساس رسالة مكماهون وضع الملك حسين جميع موارده في ميدان الحرب وقد ساعد ذلك «مساعدة مادية قصوى لكسب الحرب» وقال إن موافقة بريطانيا على خضوع المدن السورية الأربع لنفوذ فرنسا المباشر سيكون نكثاً لعهودها للعرب وهي لا تستطيع الإقدام على ذلك. **وهنا تدخل ولسون قائلاً إن الولايات المتحدة لا تهمها مدعيات بريطانيا وفرنسا بالنسبة لأي شعب إلا إذا كان الأهلون يريدونهما**، لذلك فالسبيل الوحيد لمعالجة المسألة هي «اكتشاف رغبات أهالي هذه المناطق واقترح تعيين لجنة تحقيق من قبل الدول الأربع ترسل إلى سورية وإلى المناطق المجاورة إذا دعت الحاجة إلى ذلك بغية استطلاع الحقائق وتقديم تقرير حولها إلى مؤتمر السلم. **وقد وافق ممثلو الدول الأخرى على مقترحات ولسون**. ولكن كليمنصو قال إن التحقيق يجب أن يشمل فلسطين والعراق وأرمينيا فأجاب لويد جورج بأنه لا يعترض على ذلك(١).

ولكن الاجتماع انتهى والقلوب متنافرة حتى أن ولسون خرج «وهو يلعن كل واحد وكل شيء» قائلاً: «إنه لم يفعل طول ٤٨ ساعة إلا الكلام، وهو مشمئز من الموضوع كله(٢)».

وفي اجتماع آخر عقدة الأربعة الكبار يوم ٢٥ آذار تمت الموافقة رسمياً على إيفاد اللجنة الرباعية وعلى أن تنتدب كل دولة عضوين يمثلانها في اللجنة، وقد اختار الرئيس ولسون الدكتور نري كنج والمستر شارلس

---

(١) كان بلفور يعارض فكرة اشتمال التحقيقات لفلسطين، وقد سجل معارضته في مذكرة مؤرخة في ٢٣ قائلاً أن لجنة التحقيق لا بد أن تجد العرب يرغبون في قيام حكومة وطنية عربية، وأن تقرير اللجنة لا بد أن يتضمن رفض عرب فلسطين- وهم الأكثرية- قيام إدارة تشجع هجرة اليهود وازدياد نفودهم.

(٢) هـ. ويكهام ستيد: «خلال ثلاثين عاماً ١٨٩٢-١٩٢٢» ص٢٩٨ لندن- عام ١٩٢٤.

كرين بينما عينت الحكومة البريطانية السير هنري مكماهون والأستاذ هوجارث. ولكن فرنسا لم تعين ممثليها ولم تبد إيطاليا أي اهتمام.

ويبدو أن لويد جورج اقتنع بقوة الحجج التي ساقها بلفور، فحاول يوم ٢٧ آذار إقناع الرئيس ولسون بأن لا فائدة ترجى من إرسال اللجنة، وقال إنه تسلم من العراق عرائض تطالب بإدارة بريطانية مباشرة وعدم الرغبة في حكومة يرأسها أمير عربي[١]. ولكن الرئيس ولسون أصر على ضرورة قيام اللجنة بمهمتها.

إن اهتمام الرئيس ولسون الجدي بموضوع سورية جعل الساسة البريطانيين يميلون تدريجياً إلى فكرة التفاهم مع الفرنسيين لحل المسألة السورية بسرعة، خشية أن يؤدي الاهتمام الأميركي إلى الأضرار بمطامعهم في العراق وفلسطين وإلى زيادة الوضع المتفجر في مصر سوءاً.

وقد بذل ويكهام ستيد محرر التايمس جهوداً للتقريب بين الأطراف الثلاثة المعنية، فدبر يوم ٢٥ آذار اجتماعاً بين عدد من البريطانيين والفرنسيين (كان ممن حضره لورنس وجرترودبل وروبير دي كايي وبعد نقاش طويل توصل المجتمعون إلى أن إرسال اللجنة سيؤدي إلى إثارة الخواطر في البلاد وفتح الباب للدساسين. وقيل أن لورنس (أوضح أن الاتجاه للوحدة العربية لا يملك قيمة سياسية جدية في الوقت الحاضر أو المستقبل).

---

(١) من الواضح أن هذا جاء للسياسة الاستعمارية التي كان أرنولد ولسون الحاكم السياسي يتبعها في العراق، وكان ولسون هذا قد وصل إلى باريس في ٢٠ آذار. راجع كتابه بلاد ما بين النهرين خلال أعوام ١٩١٧-١٩٢٠ لندن ١٩٣١- ص١١٥-١١٦. وكان أرنولد ولسون وضباطه السياسيون في العراق قد استعملوا أساليب خادعة وملتوية لإقناع عدد من الشيوخ والوجهاء بتوقيع مضابط يطلبون فيها الحماية البريطانية. وفي الوقت ذاته رفض ولسون قبول المضابط التي أعدها وجهاء المدن العراقية، وفيها طلب تأسيس حكومة عربية مستقلة تحت رئاسة أحد أنجال الملك حسين. العمري، المجلد الثالث، ص ص ٢٢-٢٤.

وقال لورنس أنه يجب أن لا تكون لسورية علاقة بالملك حسين وذلك لتسهيل إيجاد التفاهم بين فيصل وفرنسا، وأنه سينصح فيصل بتأخير سفره لإعطاء الفرصة للتفاهم بينه وبين الفرنسيين مباشرة ولتفادي إرسال لجنة التحقيق[١]. ومما لا شك فيه أن موقف لورنس هذا كان بدافع من حكومته.

وظل فيصل في الوقت نفسه يحاول الاجتماع مع كليمنصو بقصد التوصل إلى تسوية مباشرة، ولكنه قيل أن فيصلاً لم يتلق جواباً فاضطر أن ينبئ لويد جورج فرتب هذا في الحال موعداً لاجتماع الاثنين (فيصل وكليمنصو). والأرجح أن لويد جورج هو الذي أقنع فيصلاً بضرورة التفاهم مباشرة مع كليمنصو ولكن هذا الأخير كان يعتقد أن الإنكليز هم الذين يحرضون فيصل سراً فأراد أن يقنعه علناً وبصورة جدية بضرورة التفاهم مع فرنسا. وعلى أية حال فقد استقبل كليمنصو فيصلاً يوم ١٣ نيسان وقال له: إن الإنكليز سينسحبون من دمشق وحلب وأود أن يحل جنودنا محلهم هناك **فرد فيصل بعدم الموافقة، قائلاً**: إن سورية لا تحتاج إلى جنود أجانب. وعندئذ قال كليمنصو: أنا لا أود احتلال البلاد، ولو كان الأمر راجعاً لي شخصياً لما أختلف معكم دقيقة واحدة، ولكن الأمة الفرنسية لا ترضى بأن لا يكون في سورية أثر يدل على الحضور الفرنسي، وهو يريد أن يرتفع العلم الفرنسي في سورية مع وجود عدد قليل من الجنود، ولا مانع أن يرفع العلم العربي إلى جانب العلم الفرنسي[٢] وكان من نتائج ذلك الاجتماع أن كليمنصو بعث في ١٧ نيسان بمسودة رسالة إلى فيل بقصد الحصول على مسودة جواب منه حتى إذا كان الجواب مرضياً تم تبادل الرسالتين رسمياً. ولكن الأمير فيصل بعث جواباً لم يرض كليمنصو فلم يبعث الرسالة. وقد تضمنت

---

(١) راجع كتاب ستيد السابق الذكر ص ٣٢٣.

(٢) نقلها ساطع الحصري عن أوراق فيصل، ولكنه ذكر أن الاجتماع وقع في ١٦ نيسان- راجع: يوم ميسلون، بيروت، طبعة جديدة ١٩٦٤، ص ص ١١٣-١١٤.

مسودة كليمنصو القول بأن الحكومة الفرنسية مستعدة «أن تعترف بحق سورية في الاستقلال عن طريق تأليف اتحاد مناطق مستقلة محلياً حسب تقاليد السكان ورغباتهم». **وتضمنت المذكرة استعداد فرنسا لتقديم مساعدتها «المادية والمعنوية لتحيق تحرر سورية»**. كما تضمنت القول بأن فيصلاً طلب أن تقوم فرنسا بتقديم العون والمستشارين لسورية. ولم تتضمن مسودة جواب فيصل (التي لم تنشر حتى الآن) ما يرضي الفرنسيين فرفضوها.

بعد أن قابل فيصل كليمنصو اقتنع فيصل بأن الفرنسيين يريدون أن يحكموا سورية حكماً مباشراً، وأن لا مجال للتوصل إلى تفاهم معقول معهم، فاعتزم أن يمضي قدماً في مسألة لجنة التحقيق اعتقاداً منه أن الولايات المتحدة وبريطانيا لن تخذلاه خذلاناً تاماً عندما تظهر نتائج التحقيق. وهكذا بعث برسالة مجاملة إلى كليمنصو في ٢٠ نيسان قال فيها إنه مضطر للعودة إلى بلاده ولذلك طلب تعيين ممثل فرنسي لمواصلة المباحثات التي بدأها مع كليمنصو.

وبعد أن أخفق فيصل في محاولته هذه، اعتزم أن يعود إلى سورية استعداداً لمجيء لجنة التحقيق إليها. وفي ٢١ نيسان زار كليمنصو مودعاً، ثم قام بزيارة هاوس(١) وأبلغه أنه والسوريين كلهم يعلقون الآمال على تمسك الأمريكيين بمبدأ تقرير المصير. ونتج عن ذلك أن الرئيس ويلسون أمر الأعضاء الأمريكيين في لجنة التحقيق بالاستعداد للسفر. وفي يوم ٢٣ نيسان غادر فيصل باريس يرافقه الكولونيل تولا ضابط الارتباط الفرنسي الجديد. وفي طريق عودته إلى بلاده زار مدينة روما واجتمع فيها بالبابا وملك إيطاليا. ثم غادر ميناء تارنتو على متن سفينة حربية فرنسية فبلغ بيروت يوم ٣٠ نيسان ١٩١٩م.

---

(١) النقيب هاوس المرافق العسكري للرئيس ولسون.

وبعد سفر فيصل أصبح الممثلان العربيان في مؤتمر السلم هما رستم حيدر وعوني عبد الهادي، بينما أصبح أمين الكسباني السكرتير العام للوفد العربي في باريس، وهو المنصب الذي كان يحتله عوني عبد الهدي قبل ذلك.

ولدى وصول فيصل إلى دمشق أصدر بياناً في اليوم الأول من أيار موجهاً إلى «أبناء سورية العزيزة» أعلن فيه أن الاتفاق على منح سورية استقلالها، وعلى إرسال لجنة تحقيق دولية قد تم مبدئياً. «وبهذا ترون أنه قد تم القسم الأعظم من المهمة الخارجية التي نعمل لأجلها. وذلك بحسن نيات الحكومات الأربع المعظمة وصدقهم في أقوالهم وتمسكهم بالمبادئ السامية التي جعلوها دستوراً لأعمالهم وطبقاً لأماني الأمة». أما المشكلات الداخلية فتقع مسؤولية معالجتها على الأمة نفسها. وعلى هذه الأمة أن تبرهن للجنة الدولية أنها خليقة بالاستقلال ولها من المؤهلات ما يمكنها من إدارة شؤونها بنفسها. ولهذا السبب ينبغي أن «تعملوا وغايتكم متحدة والصدق رائدكم في أقوالكم وأعمالكم.. متمسكين بأهداب الحزم، متخذين أسباب السكينة والتؤدة والغيرة على هذا الوطن...[(١)]».

في الخامس من أيار ألقى فيصل خطاباً في مبنى بلدية دمشق ضم جمهوراً غفيراً من أعيان البلاد وزعمائها الذين كانوا قد وفدوا إلى دمشق من سائر المناطق السورية ومن بعض المناطق اللبنانية. وبعد أن أشار باقتضاب إلى تاريخ الثورة العربية وأهدافها شرع في الكلام عن الأراضي العربية في مؤتمر الصلح المنعقد في باريس حيث كان يمثل والده. **وقال إن دفاعه كان على قسمين:**

القسم الأول- أن البلاد العربية لا يمكن تجزئتها.

---

(١) ساطع الحصري: «يوم ميسلون»، لبنان بيروت، دار الاتحاد، طبعة عام ١٩٦٤م- ٢١٧-٢١٨.

القسم الثاني- بما أن بين سكان البلاد العربية اختلافات في طبقات العلم والتعليم ليس إلا، فالظروف كافية لتجعلهم أمة واحدة وحكومة واحدة. لذلك رأيت الدفاع كما يلي:

أن سورية والحجاز والعراق أقطار عربية. وكل قطر فيها يطلب أهلها الاستقلال، وقلت: إن نجداً والبلاد المساوية للحجاز من الأقطار العربية هي تابعة للحجاز ليس إلا. وهذه يرأسها والدي. وأما سورية فيجب أن تكون مستقلة. وكذلك العراق يريد استقلاله... دافعت عن سورية بحدودها الطبيعية، وقلت أن السوريين يطلبون استقلال بلادهم الطبيعية، ولا يريدون أن يشاركهم فيها شريك...» وقال فيصل أن الأمم الغربية «بعد أن وقفوا على حقيقة الأمر وعرفوا ما هي مقاصد السوريين أذعنوا لهم وأعطوهم كل ما يطلبونه. وها أنا بين أيديكم، قد قدمت إليكم من مؤتمر السلم، أبلغكم ذلك...».

«والآن... أريد ممن حضر من ممثلي الأمة - الذين في حالتهم الحاضرة ليسوا ممثليها بالصورة الحقيقية، ولكنهم بموقفهم الأدبي يمثلون الأمة معنوياً- أطلب منهم أن يصرحوا لي بأفكارهم وأن يقولوا لي: هل ما قمنا به في السابق هو حسن أم لا؟ فأجاب الجميع الأمير على سؤاله: «حسن حسن. وأعقب بالتصفيق والهتاف».

«وهل أعمالنا مقرونة برضى الأمة أم لا؟ فأجاب الجميع: نعم، نعم وكل الرضى وفوق الرضا تصفيق وهتاف».

ولما أخذ «ممثلو الأمة» يعبرون عن آرائهم كل بمفرده، كانت أقوالهم تتراوح بين من كان يضع كامل ثقته واعتماده بالأمير فيصل وبين من كان يقول: «تفديك الأمة بأموالها وأنفسها وأرواحها».

وختم الأمير فيصل كلامه قائلاً: «أرجو أن تعتمد الأمة على الأمة التي حالفتها ونصرتها، والتي لولاها لم تستطع الاجتماع الآن...

فعلينا أن نثبت لهم أننا أمة تريد أن تستقل... هذا وأرجوكم رجاء خاصاً أدعوكم به إلى الاتحاد وجمع الكلمة فهذه وظيفة الأمة، كما هي وظيفتي الخاصة، إذ أنا فرد منكم...(١)».

سابعاً - الخلاف بين إنكلترا وفرنسا على الغنائم:

بينما كان موقف **لويد جورج** يزداد تصلباً إزاء مطالب فرنسا في سورية، كان **كليمنصو** ووزير خارجيته بيشون في باريس، يتخذان موقف الهجوم.

استدعى كليمنصو ويكهام ستيد في الرابع من أيار «وشكا له بمرارة من أن **لويد جورج** كان دوماً ينقض الوعود التي كان يقطعها على نفسه». وأضاف قائلاً: «في بادئ الأمر أبدى **لويد جورج** موافقته التامة على أن تكون فرنسا الدولة المنتدبة على سورية، إنما كان الرئيس ولسون يقف عقبة دون ذلك. **فكان لويد جورج يقول لي**: اذهب واتفق مع ولسن أولاً فتراني أقف إلى جانبك في كل أمر شريطة ألا تستولي على سورية بقوة السلاح، وشريطة أن تتخلى عن مطالبك في كيليكيا وأن تترك الموصل ضمن منطقة النفوذ البريطاني. وقد نفذت هذه الشروط كلها، ولكن بعد أن اتفقت مع ولسن ومعاونه الكابتن هوس (House) لم يفعل **لويد جورج** شيئاً(٢)».

طالبت فرنسا بحقها بالانتداب على سورية. لكن **لويد جورج**، في بادئ الأمر، رفض الموافقة على هذه الفكرة، أن وقائع مجلس الحلفاء الأعلى تظهر

---

(١) ساطع الحصري – المرجع السابق – ص ٢٢١ – ٢٢٧ وراجع أيضاً:
يوسف الحكيم «سورية والعهد الفيصلي»، المطبعة الكاثوليكية ط١، بيروت ١٩٦٦ – ص ٧٢ – ٧٣.

(٢) راجع هنري ويكهام ستيد: «خلال ثلاثين عاماً ١٨٩٠ – ١٩٢٢» رواية شخصية – لندن ١٩٢٤ – المجلد الثاني – ص٣٢٣.

أن نظام الانتداب بحث فيه لأول مرة في جلسته التي عقدها في الثلاثين من كانون الثاني عام ١٩١٩[١]، وكان بيشون، وزير الخارجية الفرنسية، أول من أوعز به في الجلسة السرية التي عقدها الكبار الأربعة في ٢٠ آذار، قال بيشون: «إذا قطع لفرنسا عهد بأن تكون الدولة المنتدبة على سورية، فإن فرنسا تتعهد ألا تقوم بعمل ما إلا بعد موافقة الدول العربية، أو اتحاد الدول العربية الفدرالي عليه. وهذا هو الدور الذي ترغب فرنسا في القيام به في سورية». وفي الحادي عشر من أيار سأل **كليمنصو** السيد ستيد «**إذا كان بإمكانه أن يحمل البريطانيين على الموافقة بإعطاء فرنسا حق الانتداب على سورية، وباستبدال الحاميات البريطانية هناك بحاميات فرنسية، وذلك بمعونة السلطات البريطانية وبرضاها**[٢]».

أثناء ذلك صارح فيصل السلطات البريطانية بحقيقة موقفه من الفرنسيين وبكل صراحة. ففي الثامن عشر من أيار جرت مقابلة بين الجنرال

---

(١) راجع د. هـ. ميللر «يومياتي في مؤتمر باريس ١٩١٨ – ١٩١٩» المجلد ١٩ – ص ٥٥٧ – ٥٦٩.

راجع حول نظام الانتداب ونشوء هذه الفكرة كتاب الجنرال سمطس بعنون «عصبة الأمم اقتراح عملي» لندن عام ١٩١٨.

وراجع أيضاً كتاب البير ميللر «الانتداب الدولي» دراسة حول المادة ٢٢ من ميثاق عصبة الأمم. باريس ١٩٢٤، وقد اعتمدت هيئة مؤتمر باريس عام ١٩١٩ مبدأ الانتداب في المادة ١٩ من الميثاق الأول لعصبة الأمم. ومن أراد تطبيق مبدأ الانتداب على مشاكل ومستقبل الولايات العربية التي فصلت عن الإمبراطورية العثمانية عليه مراجعة كتاب الدكتور أدمون رباط:«التكوين التاريخي للبنان السياسي والدستوري – محاولة لفهم تركيبه» بيروت ١٩٧٣م – ص ٣٣٠ – ٣٤٠ وما بعدها.

(٢) راجع ر. ستانارد. بيكر «وودرو ويلسون وتنظيم العالم». مراسلات غير مطبوعة وأمور شخصية. لندن ١٩٢٣ – المجلد ٣ ص ١١. وراجع أيضاً كتاب ستيد المذكور سابقاً – المجلد الثاني ص ٣٢٥.

كلاتون والأمير فيصل في دمشق. وبعد يوم نقل الجنرال كلايتون نتيجة المقابلة إلى **الجنرال اللنبي** الذي نقلها بدوره برقياً إلى **اللورد كرزون** (Curzon) في ٢١ أيار من القاهرة. وفيما يلي نص البرقية الهامة التي أرسلها اللنبي:

تلقيت البرقية التالية من رئيس المكتب السياسي الجنرال كلايتون، والتي يقول فيها:

«**اجتمعت بفيصل أمس واليوم، لقد أثار موضوع سياسته تجاه الفرنسيين،** وبلغني أنه - بناء على نصيحة لورانس - اتفق شفوياً مع **كليمنصو** بأن يبذل جهده مع الشعب لقبول الانتداب الفرنسي على سورية، شريطة أن تعترف فرنسا باستقلال سورية. لقد أعلن فيصل صراحة أنه لم يكن ينوي قط تنفيذ هذا الترتيب، وأن سورية تعارض التغلغل الفرنسي معارضة شديدة بأية صورة كانت، وقال أن بريطانيا ستلقى الترحيب كدولة منتدبة على سورية. ولكنه لا يستطيع أن يطلب الانتداب البريطاني لأنه غير واثق من أن بريطانيا ستقبل الانتداب إذا عرض عليها.

لقد سبق أنه وجه مثل هذا السؤال إلى رئيس الوزراء البريطاني. ولكنه لم يتلق جواباً مباشراً. ومن الواضح أن فيصل يتخوف من نتائج هذه السياسة الملتوية تجاه فرنسا وعندما طلب نصيحتي قلت له: أن سياسة المورابة والخديعة لن تعود بالضرر إلا عليه. ومن السهل أن تؤدي هذه السياسة إلى تعريض العلاقات بين فرنسا وبريطانيا لخطر الاحتكاك مما سيؤثر بدوره على العلاقات بين بريطانيا والعرب.

لقد عقد فيصل عزمه الآن على انتظار وصول لجنة التحقيق لكي يعرض عليها المطالب التالية:

١- إن استقلال سورية شرط أساسي في نطاق أي انتداب يقرره مؤتمر الصلح.

٢- تعطى المشورة والمساعدة للدولة السورية من قبل بريطانيا وإذا رفضت بريطانيا ذلك فأمريكا، وإذا رفضت أمريكا ذلك فتعطى تلك المشورة والمساعدة من قبل الدول الثلاث: بريطانيا وأمريكا وفرنسا، ولن تقبل سورية بأية حال من الأحوال أن تعطي فرنسا وحدها تلك المشورة والمساعدة، إن هذا يتفق مع الانطباعات التي تكونت لدي سابقاً عندما كنت في دمشق يوم ١٢ أيار[١].

إلا أن موقف الشعب العربي في سورية كان يزداد عداء نحو فرنسا، وهذا ما أثبته تقرير العقيد كورنواليس وهو ضابط الاتصال البريطاني في دمشق «حول الوضع السياسي في البلاد العربية» بتاريخ ١٦ أيار «**أن رجال السياسة في دمشق يعتنقون مبدأين أساسيين لا ثالث لهما؟ أولاً: يريدون الاستقلال، وثانياً: أنهم لا يريدون فرنسا. إن شعور العداء لدى النخبة منهم نحو الفرنسيين عنيف إلى حد يدعو إلى الاستغراب....**[٢]».

---

(١) يحسن مقارنة ما جاء في هذه البرقية بالمطالب التي قررها المؤتمر السوري وقدمها يوم ٣ تموز ١٩١٩ إلى لجنة التحقيق الأمريكية، والتي تضمنت طلب الاستقلال التام لسورية الطبيعية، فإذا لم يقبل مؤتمر الصلح هذا الطلب، توافق فرنسا على قبول المساعدة الفنية والاقتصادية من أمريكا، فإذا رفضت أمريكا توافق سورية أن تقدم بريطانيا تلك المساعدة. أما فرنسا فقد رفض المؤتمر «أن يكون لها مساعدة ويد في بلادنا بأي حال من الأحوال». (نص القرار في كتاب أحمد قدري «مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى» دمشق ١٩٥٦، ص١٢٥ - ١٢٩). فلا عجب أن تغضب فرنسا تجاه هذا الوضع وتسعى إلى الاتفاق مع بريطانيا على اقتسام سورية والعراق بالقوة، خاصة بعد أن تخلت أمريكا عن التدخل في تسوية المشاكل الدولية. (سليمان موسى: المراسلات التاريخية ١٩١٩ - المجلد الثاني رقم ٢٢ - ص ٧٤ - ٧٥).

(٢) راجع الوثائق المتعلقة بالسياسة الخارجية البريطانية. السلسلة الأولى. المجلد ٤ (١٩١٩) لندن ١٩٥٢ - ص ٢٦٥.

وهكذا فرغ صبر **كليمنصو** عند هذا الحد من المماطلة والتسويف ولا سيما أنه كان يخشى من تطور الحالة السياسية الداخلية في فرنسا نفسها بسبب النقد الذي كانت توجهه إليه أوساط المحافظين ورجال الدين من أنه لا يبدي حماسة أو اهتماماً جدياً بالقضية السورية. ولذا فقد بادر إلى أخذ موقف فيه تهجم عنيف على مناوئيه في اجتماع مجلس الأربعة الكبار في ٢١، ١٩١٩/٥/٢٢ عندما طرحت القضية السورية على بساط البحث.

ولا بأس من العودة إلى وقائع ذلك الاجتماع:

«شكا **كليمنصو** من أن **لويد جورج** لم يفِ بالعهود التي قطعها له. وعندما سأله **لويد جورج** كيف يفسر عدم الوفاء بالعهود التي قطعت؟ أجاب **كليمنصو** بأنه عندما لاحظ في خريف سنة ١٩١٨، تصرف الإنكليز في سورية ذهب إلى لندن وطلب إلى **لويد جورج** بأن يقول له بصراحة وبتحديد ماذا يريد. عندها قال له **لويد جورج: أريد الموصل وفلسطين.** ثم إنه عاد إلى باريس، وعلى الرغم من معارضة السيد بيشون ووزارة الخارجية الفرنسية، فإنه وافق على مطلب **لويد جورج.** ثم إن **لويد جورج** أكد أن الدولتين، بريطانيا وفرنسا، ستسيران بوفاق جنباً إلى جنب. كذلك شكا **كليمنصو** من التباطؤ الذي يمارسه البريطانيون في جلاء الجيوش البريطانية عن سورية وإحلال جيوش فرنسية مكانها. كما أن اللورد ميلنر (Milner) كان قد وعد أن يساعد **كليمنصو** في تقريب وجهات النظر بينه وبين الأمير فيصل، ولكنه لم يفعل شيئاً من هذا......».

ثم أن **كليمنصو** تقدم بنداء عاطفي ملتمساً من المؤتمرين الإبقاء على التضامن الإنكلو – فرنسي والتضامن الفرنسي – الأمريكي.

وقال لويد جورج: «بصدد الحنث بالوعود فإنه اتهام لا يقوم على أساس من الصحة».

وأشار كليمنصو إلى أن هناك «اتفاقاً واضحاً وصريحاً عقد بين فرنسا وإنكلترا بصدد سورية».

«**فقال لويد جورج:** أنه تم الاتفاق في لندن على أن تكون سورية من نصيب فرنسا، والموصل من نصيب بريطانيا، وبما أن الموصل جزء جغرافي طبيعي من العراق فينبغي أن تكون جزءاً لا ينفصم عن العراق ويكون البلدان من نصيب بريطانيا(١)».

ربما كانت المذكرة التي قدمها السيد **لويد جورج** أهم حدث في ذلك الاجتماع. وعنوان المذكرة: «مشروع تسوية القضية الإمبراطورية العثمانية» وينص البندان السابع والثامن منها على ما يلي:

«**البند السابع - تحصل فرنسا على انتداب مؤقت على سورية إلى أن تقدم اللجنة التي هي في طريقها الآن إلى منطقة الشرق الأدنى تقريرها**».

«**البند الثامن - وتحصل بريطانيا على انتداب مؤقت على العراق وفلسطين إلى أن تقدِّم اللجنة التي هي الآن في طريقها إلى الشرق الأدنى تقريرها**». ولكن **كليمنصو** لم يكن راضياً عن هذا التدبير. إذ أن كلمة «مؤقت» لم تعجبه وكذلك العبارة الشرطية «**إلى أن تقدم اللجنة تقريرها**» وهي لجنة عارض على تشكيلها منذ البداية، ولم يبد أي اهتمام بأمرها.

عندما اجتمع مجلس الكبار الأربعة في اليوم التالي قال لويد جورج: «**أن المنطقة التي هي موضع النزاع، بحسب ما نصت عليه اتفاقية سايكس - بيكو**، لم تكن منطقة مخصصة لفرنسا، بل كانت بأسرها منطقة عربية. وهذا ينطبق على دمشق وحلب وحمص. التي نص عليها أنها داخلة في المنطقة العربية. وبحسب منطوق اتفاقية **سايكس - بيكو** لم تكن هذه المدن من منطقة سورية، ولم يكن لفرنسا سوى المنطقة الساحلية. وإني أكون

---

(١) راجع الوثائق المتعلقة بالعلاقات الخارجية للولايات المتحدة الأمريكية المجلد الخامس (١٩٤٦) - ص ٧٥٦ - ٧٦٦ - و ص ٨٠٧ - ٨١٢ وراجع أيضاً مذكرات المترجم الفرنسي الرسمي «بويل مانتوكس». «مداولات مجلس الأربعة» باريس عـــام ١٩٥٥ المجلد ٢ - ص ١٣٧ - ١٤٣ - و ص ١٥٩ - ١٦٤.

مسروراً إذا ما كان في النية الحفاظ على هذه الاتفاقية. وذكر بأنه يوافق على القول أن هذه الاتفاقية كانت اتفاقية رديئة، ولكنه يود أن يعلم ما إذا كانت لا تزال قائمة أم لا؟..

فإذا كانت لا تزال سارية المفعول فإن فرنسا ليس لها الحق برفع راية أو وضع جندي في المنطقة العربية. إنما لفرنسا الحق أن تمد هذه المنطقة بالمستشارين».

ثم تقدم بعرض حجة ثانية – ولكنها حجة لم يكن اختيارها موفقاً من الناحية المنطقية إذ ذاك لأنها مست شعور كليمنصو – وهي أن المجهود الحربي الذي بذلته بريطانيا لقهر الإمبراطورية العثمانية وإسقاطها كان أكثر بكثير من المجهود الحربي الفرنسي. فقد بلغ عدد الضحايا من البريطانيين أنفسهم – لا من الجنود الملونين – مئة وخمسة وعشرين ألف قتيل. أما المعونة التي قدمتها فرنسا فقد كانت ضئيلة «**لا يؤبه بها**» – «**ربما ألفي قتيل من أصل مئتي ألف جندي، أي واحد بالمئة». وأضاف لويد جورج** ملاحظة أخرى حادة في إزعاجها، مؤداها: «أنه كان من الأفضل مهاجمة تركيا من الإسكندرونة. وكان اللورد كتشنر يرغب في هذه الخطة العسكرية، غير أن الفرنسيين اعترضوا عليها وقاوموها «فلم يكن الفرنسيون في وضع يمكنهم من تحقيق هذه الخطة ولم يدعونا نحققها نحن».

«**قال كليمنصو: أن اتفاقية سايكس – بيكو قائمة وسارية المفعول، وأنه يتمسك بها. فقاطعه لويد جورج** سائلاً: «وإذا كانت الاتفاقية تشمل دمشق؟..» فقال **كليمنصو:** أنه من الطبيعي عندما تنازل عن الموصل كان يعتقد بأنه سيحصل على نصيب في دمشق وحلب حسب شروط مماثلة. وهو يعترف أن دمشق كانت في المنطقة العربية... ولو أنه لم يوافق على التنازل عن الموصل في اجتماع لندن لما كنا وقعنا في هذه الورطة التي نجد أنفسنا فيها... أن البريطانيين يحتلون المنطقة عسكرياً... وهو ليس على استعداد

لأن يقبل بالمشروع المقترح الآن... كما أنه يعتقد أن **لويد جورج** على خطأ، غير أنه سيحاول جهده ألا يتمسك بوجهة نظره لئلا يسبب ذلك سوء تفاهم بين الحلفاء...[١]».

وكان موقف الرئيس ولسن وهو ذاك الرجل الذي يستطيع أن يتدخل لتهدئة الحال – إذا أراد – موقف إنسان لا يرغب في التدخل أو أنه ربما لم يكن بارعاً في أساليب المداولات الدبلوماسية الأوروبية السرية لأنه كان متمسكاً تمسكاً عقائدياً متطرفاً بالمبادئ الأربعة عشر التي أعلنها قبل دخوله الحرب والتي تطابق خطابه الشهير في مونت فرنون قبل سفره إلى أوروبا وحضوره لمؤتمر باريس في ١٩١٨/٧/٤[٢].

وقد ذكر في وقائع الاجتماع الذي عقد في ١٨ شباط ١٩١٩م والتي كشفها الوفد الأمريكي للمؤتمر ما يلي: لم تكن هاتان الاتفاقيتان تتضمنان عن طريق الصدفة، بعض الشروط التي نعتبرها شروطاً عادلة لائقة تتفق روحاً مع المبادئ التي أعلناها» وعليه عندما كان الرئيس ولسن يشعر بالسأم المضني لدى سماعه محاجة **كليمنصو** و**لويد جورج**، وعندما كان صبره ينفذ لدى إصغائه إلى الادعاءات والادعاءات المضادة لكليهما: كان يسأل – بحسب ما جاء في الوقائع المشار إليها آنفاً – «هل لي أن أعرف ما هو الدور الذي يطلب إليَّ أن أقوم به في هذه القضية؟... لأنه هو نفسه لم يكن يستطيع أن يدرك بأي حق تتذرع فرنسا وبريطانيا العظمى لتسليم البلد إلى أي واحد من الناس».

وبما أن لويد جورج كان يسعى لاستمالة الرئيس ولسن وللتحالف معه ضد كليمنصو، مع العلم أنه كان يقامر في تلك اللعبة بشيء لا يملكه،

---

(١) لا زلنا نتابع محاضر الجلسة التي أتينا على ذكرها في الحاشية السابقة.

(٢) العماد مصطفى طلاس – الثورة العربية الكبرى – طبع مطامع الأكاديمية العسكرية العليا – ص ٥١١.

أجاب فوراً: «أنه على استعداد للرضوخ لإرادة السكان كما ستنقلها اللجنة المقترحة لإجراء الاستفتاء». ويبدو أن هذا الكلام الصادر عن **لويد جورج** أعجب الرئيس ولسن فأضاف قائلاً: لا شك في أن هذا الرأي هو رأيه أيضاً.. فإنه لم يكن يرى أن تترك هذه الشعوب لذاتها، إذ أنه يعوزهم الإرشاد والوصاية الودية الرقيقة: «**ولكن الإرشاد والوصاية ينبغي لهما أن يستهدفا صالح السكان وخيرهم لا صالح الدولة المنتدبة وخيرها**». أما **لويد جورج**، عند سماعه ملاحظة الرئيس هذه، وحرصاً منه على عدم إثارة حفيظة **كليمنصو**، وتجاوباً مع نفسه لأن **لويد جورج** لم يكن متحمساً لفكرة إرسال لجنة إلى سورية – فقد قال: «**إنه لا يمكنه أن يرسل موفدين إذا امتنع الفرنسيون عن إرسال موفدين، ولكن الأميركيين يستطيعون أن يذهبوا بمفردهم**». عندها قال الرئيس ولسن: «إن الموفدين الذين سيوفدهم هم جماعة من المحايدين لا غرض لهم ولا هوى. واقترح تأجيل البحث في هذه القضية على أن يعاد النظر فيها فيما بعد».

وبعد تسعة أيام عقد مجلس الأربعة الكبار جلسة كانت سورية فيه على جداول أعماله. عقد الاجتماع في **مكتب بيشون** في مقر وزارة الخارجية الفرنسية. وفي الاجتماع «قرأ **لويد جورج** برقية كان قد تلقاها من **الجنرال اللنبي** يعلمه فيها أن الموقف في سورية ينذر بالخطر الشديد ما لم يوفد مؤتمر الصلح لجنة تحقيق إلى سورية... ولذا حانت اللحظة التي يجب فيها أن تتخذ قراراً حاسماً[1]».

غير أن **كليمنصو** ظل متصلباً في موقفه، وقد قال: ما دامت سورية كلية تحت الاحتلال العسكري البريطاني فإنه من غير المجدي إرسال موفدين

---

(١) راجع نص هذه البرقية لدى سليمان موسى: المراسلات التاريخية (١٩١٩) المجلد الثاني – ص ٧٦ (الحاشية).

فرنسيين. كذلك بقي **لويد جورج** متصلباً في موقفه. وقال: «أنه لن يرسل موفدين بريطانيين إذا امتنعت فرنسا عن إرسال موفدين من قبلها....[١]».

وقد استبشر كليمنصو بهذا الرأي، وترك للوفد الأمريكي الفرصة للتوجه إلى بلاد الشام برئاسة الدكتور هنري تشرشل كينغ وتشارلز كرين[٢].

واستمرت وزارة الخارجية تتلقى الإشارات من الممثلين البريطانيين في منطقة الشرق الأدنى وكلها تؤكد للحكومة البريطانية «**أن فيصلاً وقواته السورية ستقوم بعمل عدائي ضد فرنسا، لا بل ضد جيوشنا المتمركزة هناك**».

وخلال شهر حزيران سعى فيصل بكل ما أوتي من قدرة إلى حمل الإنكليز على البقاء في سورية منعاً للاحتلال الفرنسي للبلاد[٣].

ولكن الحكومة البريطانية كانت قد أوضحت بصورة لا يرقى إليها الشك بأنها لن تقبل بالانتداب على سورية وذلك على الرغم من توسلات فيصل الملحة بأن يقبلوا الانتداب عليها. غير أن بريطانيا حاولت أن تقلل من

---

(١) راجع الوثائق المتعلقة بسياسة الولايات المتحدة الأمريكية المتحدة الخارجية السابقة الذكر. المجلد الخامس – ص ٨١٢. وراجع أيضاً كتاب بول مونتوكس المذكور سابقاً – المجلد الثاني – ص ١٤٣ و ٢٦٣ – ٢٦٤.

(٢) المصدران السابقان. راجع أيضاً حول لجنة كرين وما رافقها من صدامات واحتياطات وتعقيدات – الدراسة المسهبة للسيد بورغل برانت في مقالته التي نشرت في كتاب «الاستعمار والاستعمار الجديد في شمال أفريقيا والشرق الأوسط» برلين الشرقية – سنة ١٩٦٤ – ص ١٩٧ – ٢٢٥.

(٣) راجع سليمان موسى: المراسلات التاريخية (١٩١٩) المجلد الثاني رقم ٢٦ – ص ٧٩ – ٨٠. برقية فيصل إلى اللنبي بتاريخ ١٩١٨/٦/١٢ وجواب اللنبي عليها. وراجع رقم ٢٧ – ص ٨١ برقية من فيصل إلى الجنرال اللنبي من دمشق في ١٩١٩/٦/١٤.

مخاوفه بتطمينه أن بريطانيا لن تخذله ولن تتخلى عن مناصرة قضية العرب لأنها «ترغب، بكل إخلاص، في أن تساند فيصلاً والعرب[1]».

إن الوثائق التالية تعطينا صورة مقتضية عما وقع من أحداث رئيسة في شهر حزيران، وعند مطلع هذا الشهر زار السفير الفرنسي السيد كرزون وتحدث له عن «الشعور المتوتر» الذي يسود العلاقات بين رئيس الوزارة الفرنسية **كليمنصو**، ورئيس الوزارة البريطانية في مؤتمر باريس فيما يتعلق بمستقبل سورية. وفي جوابه قال كرزون للسفير الفرنسي:

«**إذا كانت هناك من منطقة ينبغي لفرنسا أن تكون شديدة الامتنان في مناصرتنا لها فيا فإن تلك المنطقة هي سورية ذاتها**. إذ أن **لويد جورج** في مؤتمر باريس. لم يكتف بالتصريح العلني بأن بريطانيا لا ترغب في الانتداب على سورية ولا تقبل به في حال عرضه عليها وحسب بل إننا قد أرسلنا برقية إلى فيصل أشرنا فيها إلى موقفنا هذا».

وموقف بريطانيا هذا أشعر به فيصل بواسطة الجنرال اللنبي الذي بعث إليه ببرقية من القاهرة، بتاريخ ١٢ حزيران:

«**إن حكومة جلالته قد أعربت عن عدم رغبتها في قبول الانتداب على سورية، ولكنها ستعطي أهمية بالغة لنصائح لجنة التحقيق التابعة لمجلس الحلفاء والدول المشاركة**».

ليس هناك دليل يثبت صحة ما جاء في العبارة الأخيرة من برقية الجنرال اللنبي. والمرجح أنها عبارة أضيفت لإزالة بعض المخاوف التي كانت تساور فيصلاً. **وفي ١٤ حزيران أرسل فيصل بالجواب التالي**:

«**تسلمت برقيتكم المؤرخة بتاريخ ١٢ حزيران** وعرفت عدم رغبة بريطانيا العظمى قبول الانتداب على سورية. ولكننا جميعاً فهمنا بسرور أنها

---

(١) راجع خيرية قاسمية: «الحكومة العربية في دمشق بين ١٩١٨ – ١٩٢٠»، مصر القاهرة، دار المعارف ط١ عام ١٩٧١م، المذكور سابقاً – ص ١٠٦ – ١٠٨.

عازمة على النظر بكل اهتمام إلى توصيات لجنة التحقيق. إن السوريين سوف يعلنون للجنة بالإجماع أنهم يرغبون في انتداب بريطانيا لا سواها، بناءً على الأسباب التي سأشرحها للمؤتمر الذي سيعقد قريباً في دمشق، والذي سيكون مؤلفاً من ممثلين لكل جزء من أجزاء سورية بدعم قوي من الرأي العام السوري. أنني أرغب في إطلاع فخامتكم على هذا كله، آملاً أن هذا الشعور الوطني، شعور المحبة المتبادلة والتقدير والثقة سيبقى بيننا إلى الأبد. ولنا الثقة التامة أن شرف بريطانيا لا يسمح بأن يُلقى هؤلاء الذي يرجون مساعدتها بين الأيدي الغريبة[١]».

---

(١) تبدو من هذه البرقية رغبة فيصل في إقناع الإنكليز بتعضيده لكبح جماح الفرنسيين. ولكن الإنكليز لم يتزحزحوا عن موقفهم. وقد بدأ التباعد بين سورية وفرنسا بعيد عودة فيصل من فرنسا عندما فرضت الأحزاب الموافقة على مشروع اتفاق كليمنصو. وفي ١٨ حزيران اجتمع فيصل وبيكو، فشكا بيكو من نشاطات أخصام فرنسا، وذكر اسم الإسكندر عمون بالذات. وقال بيكو إن فرنسا اعترفت باستقلال سورية استقلالاً تاماً لا يخضع لشروط.

وأنحى بيكو باللائمة على اللنبي وقال «إن بريطانيا تطالب بفلسطين وحوران وجبل الدروز حتى العراق». ولكن فيصلاً والسوريين كانوا قد فقدوا ثقتهم بفرنسا، أو أنهم كانوا يأملون أن تختلف الدولتان فتنحاز إحداهما إليهم. وقد ازدادت هموم فيصل نتيجة الهزيمة التي لحقت بقوات الملك حسين في معركة تربه (أيار ١٩١٩) فاضطر أن يرسل إلى الحجاز مفرزة من الجنود مع بعض المدافع والرشاشات.

وفي ٢٦ حزيران أبرق إلى اللنبي جواباً على برقية فيصل المنشورة أعلاه (بأن بريطانيا مصممة أن لا تقبل الانتداب على سورية حتى لو طلب السوريون ذلك أو حتى لو أوصت به لجنة التحقيق الأمريكية). (وطلب بلفور إبلاغ فيصل أن بريطانيا لن تضيف إلى مسؤولياتها مسؤولية الانتداب على سورية!!) (الوثائق البريطانية. المجلد ٤، رقم ٢٦) – (سليمان موسى «المراسلات التاريخية ١٩١٩» المجلد ٢ – رقم ٢٧ – ص ٨١).

في هذه الأثناء وصلت «اللجنة الدولية المشتركة» التي طالب بها هوارد بلس، إلى يافا كوفد أميركي، في ١٠ حزيران. وقد جاء هذا الوفد ليشكل لجنة تحقيق تنظر في **رغائب الأهلين** الحقيقية ثم ترفع تقريراً بالنتائج إلى مؤتمر الصلح. ولكن لسوء الطالع، خلق هذا الوفد مشكلات أضيفت إلى قضية شائكة كثيرة التعقيد، وذلك بحمل الناس على ترقب رجاء خائب أو على تمسكهم بأوهام زائفة. وكان الناس يترقبون وصول هذا الوفد بفارغ الصبر إذ ظنوا أنها الوسيلة الوحيدة التي يستطيعون من خلالها أن يعبروا عن أمانيهم لدى مؤتمر الصلح. وترك الوفد في نفوس الأهلين انطباعاً بأن السوريين يستطيعون أن يعتمدوا على الرئيس ويلسن وعلى الشعب الأميركي «الذي يدرك أن عليه مسؤولية تسوية الأمور بحق وعدل تحت لواء عصبة الأمم وذلك بغية الحصول على سلام دائم[١]».

بعث الجنرال كلايتون في الثالث والعشرين من شهر حزيران بتقرير يوجز فيه الوضع القائم في سورية حتى ذلك التاريخ. وقد جاء في التقرير:

«**إن معضلته الشاقة الآن (والكلام عن فيصل)** هي موقف بريطانيا الشاذ. فإنه بعد تحرير الأقطار التي تتكلم العربية بكثير من الدم والمال، وبعد سنوات أربع من الصداقة المستمرة بين بريطانيا والأمير فيصل والشعب العربي، يجد أن إنكلترا قد أخذت تبدي فتوراً الآن، فإنها ترفض أن تعلن ما إذا كانت ستستمر في تقديم العون، فضلاً عن أنها تترك في النفوس انطباعاً بأنها قد باعت العرب لكي ترضي مقتضيات السياسة في أوربا... ويبدو جلياً أن فرنسا تعتمد على إنكلترا والولايات المتحدة وحدها من أجل مستقبلها، وهذا أمر يعرفه الأمير جيداً، ولكنه لا يستطيع أن يفهم لماذا تخشى إنكلترا أن تقوم بأي عمل من شأنه أن يسيء إلى البلد الذي ينبغي له، منطقياً، أن يكون

---

(١) راجع الوثائق المتعلقة بالسياسة الخارجية للولايات المتحدة الأمريكية المذكور سابقاً المجلد ٤ – ص ٢٩١ – ٢٩٢.

مستعداً قبول أية تضحيات من جانبه كي لا ينفر إنكلترا أو يصرفها عنه....».

«**إن انتداباً فرنسياً يعتبره الأهلون موتاً وهلاكاً للأمة.** فالانتداب يعني مقدم المستعمرين الفرنسيين والجنسية الفرنسية كما أنه يعني السيطرة الفرنسية. وما كان للأمير وللعرب أن يقوموا بهذه الثورة ليروا أجمل منطقة من البلاد العربية تسلم إلى الفرنسيين الذين يعتبرونهم أقرب إلى الأعداء منهم إلى الأصدقاء، والذين سيقاومونهم بقوة السلاح إذا ما حاولوا أن يمارسوا الحماية على سورية....».

«**وإذا كانت إنكلترا لا تنوي قبول الانتداب على سورية فمن الأفضل إعلان هذا الأمر بأسرع ما يمكن** وتعميمه على الملأ من الناس. أما إذا كانت إنكلترا تقبل الانتداب على سورية فإن السوريين سيكفون فوراً عن المطالبة بالاستقلال، وعن التجنيد. وإذا كانت بريطانيا قد وطدت العزم على عدم التورط في مسؤوليات جديدة في سورية... فإن سورية تريد استقلالاً تاماً ناجزاً[(١)]».

وعندما ظهر للعيان أن بريطانيا مصممة على البقاء في العراق، شرع فيصل ومستشاروه بالتفكير بوسيلة جديدة لحملها على البقاء في سورية وذلك باقتراح يرمي إلى توحيد البلدين، سورية والعراق: «تحت حكومة واحدة» وعليه رفع الوفد الحجازي في باريس، بتاريخ ٢٤ حزيران، إلى **لويد جورج** مذكرة مؤرخة في ٢٣ حزيران وموقعة من اللواء نوري باشا السعيد

---

(١) المرجع السابق – ص ٢٩٦ وقد صدرت جريدة «الاستقلال» الدمشقية بتاريخ ١٩١٩/٦/٢٨ في العدد ٢٣ في صفحتها الأولى بالعناوين التالية: «إرادة الشعب العربي... الشعب بأسره يطالب بالاستقلال التام الناجز بدون شرط. والاستقلال لسورية والعراق. لا انتداب ولا وصاية ولا حماية وإنما الوحدة العربية والاستقلال التام».

المعاون العسكري الأكبر للأمير فيصل، «وكانت الغاية من تقديم هذه المذكرة التدليل على ضرورة تشكيلا حكومة موحدة للقطرين العربيين المحررين سورية والعراق.. أن غالبية السكان الساحقة في سورية والعراق تتطلع إلى تشكيل حكومة واحدة تتألف من مجموعة من الدول المتحدة.. إن الرغبة التي تدفع بأولي الأمر للفصل بين سورية والعراق تقوم، إلى حد معين، على السياسة الاستعمارية التي تتبعها بعض الأحزاب في أوروبا... وأن أفضل حل لقضية العرب، وهو الحل الوحيد الذي يحظى بقبول غالبيتهم، هو تشكيل حكومة واحدة تتألف من ولايات فدرالية من نمط الفدرالية التي تتألف منها الولايات في أميركا الشمالية. ويكون لكل ولاية نوع من الحكم الذاتي الذي يتجاوب مع تقاليد السكان في تلك الولاية ومع عاداتهم ودرجة رقيهم الاجتماعي[١]».

في الوقت الذي استمر فيه فيصل يعلل النفس بأن تُغير بريطانيا رأيها فتقبل الانتداب على سورية عبر الاقتناع الذاتي، وعبر المواقف التي كان يقفها **الجنرالان اللنبي وكلايتون** اللذان لم يكونا مقتنعين اقتناعاً تاماً بأن إنكلترا ستتخلى كلياً عن سورية، نقول في هذه الأثناء بعث بلفور من باريس بالبرقية التالية إلى **الجنرال اللنبي** في القاهرة بتاريخ ٢٦ حزيران:

«**إن حكومة جلالته لم تحد عن رأيها** الذي عبرت عنه شفهياً بواسطة رئيس الوزراء – وأظن أن ذلك كان بحضورك – لدى **كليمنصو** وبحضور الرئيس ولسن والسنيور أورلندو من أن إنكلترا لا تقبل، بصورة ما وفي أي ظرف ما، الانتداب على سورية. وقد كررت الحكومة هذا الرأي بوضوح تام في برقية برقم ١٦، بعثت بها إلى كلايتون وجاء فيها:

---

(١) راجع الوثائق المتعلقة بالسياسة الخارجية للولايات المتحدة الأمريكية المذكورة سابقاً المجلد ٤ – ص ٢٩٨.

«يمكنكم أن تعطوا رداً إلى الأمير فيصل بأن حكومة جلالته قد وطدت العزم على ألا تقبل الانتداب على سورية».

«وإني لمتيقن أن فيصلاً أُطلع على هذا القرار عندما كان هنا. ولكن ليس بإمكاني الآن أن أجد سجلاً حول هذا الموضوع... ولكن... ليس هناك ما يبرر اعتقاده بأن رفضنا الانتداب يشكل تخلياً عنه نفسه، أو تلخياً عن مناصرتنا القضية العربية. إننا نرغب بكل إخلاص أن نناصره وأن نساعد العرب أيضاً[١]».

وهكذا يكون الفرنسيون قد أحرزوا انتصاراً آخر على طريق تحقيق مطامحهم في سورية: إن بريطانيا قد وطدت العزم على التخلي عن انتدابها على سورية.

والواقع أنه في الثاني من تموز بعث السيد بلفور من باريس بمذكرة إلى لويد جورج حول موضوع «**توزيعات الممتلكات التركية**» جاء فيها تبيان وجهة نظره الخاصة التي كان قد عبر عنها أكثر من مرة واحدة وعلى وضع تدبير جديد لتسوية «القضية التركية» قال بلفور: «اسمح لنفسي أن أعيد باقتضاب جوهر التسوية»:

«**أولاً:** إن الأقطار التي تقطنها الشعوب الناطقة بالعربية ينبغي فصلها نهائياً عن تركيا ووضعها تحت الانتداب. أما الدول التي ستتولى الانتداب عليها فأمر يتفق عليه فيما بعد».

«**ثانياً:** ينبغي أن يكون الانتداب على سورية لفرنسا والانتداب على العراق لبريطانيا. وعلى فلسطين للأميركيين، ويكون الانتداب على القوقاس ربما من نصيب إيطاليا».

«**ثالثاً:** ينبغي أن يشمل الانتداب الفرنسي الاسكندرونة. ومهما يكن من أمر فاني أكون آسفاً أن أرى منطقة الانتداب الفرنسي تمتد غرباً على محاذاة

---

(١) المصدر السابق. الوثائق – ص ٣٠٢ – ٣٠٣.

شاطئ الأناضول وذلك ليس لأني ضنين بها على الفرنسيين، ولكن لأن كل ربح يحصل عليه الفرنسيون في شرقي المتوسط سيكون ممسكاً لدى الإيطاليين ليتقدموا بمطالب جديدة».

«**هذه هي الخطوط العريضة لإعادة تنظيم الممتلكات العثمانية خارج أوروبا** والتي أرى أن أرفعها إليكم كتوصية. وإذا كان بالإمكان الجمع بين هذا المخطط وتسوية جميع القضايا الثانوية التي تشكل حيناً بعد آخر نقاط خلاف بين الفرنسيين والإيطاليين والبريطانيين في أفريقيا وفي الشرق، وإذا كان الحل سيسفر بالتالي عن زوال التحاسد والتنابذ والخداع بين الدول الحليفة، فإن هذه الدول الثلاث المتحالفة، والعالم بأسره سيجني منافع جمة. هذا وأني لا اعتقد أن تحقيق مثل هذه التسوية أمر بعيد المنال كلياً، وإذا ما أردنا له النجاح فينبغي لنا أن نشرع فوراً في العمل لأجل تحقيقه[١]».

وعلى الرغم من رفض بريطانيا الاشتراك في لجنة التحقيق، وعلى الرغم من إصرارها على عدم قبول الانتداب على سورية، فإن مخاوف فرنسا من عدم الاعتراف بالحقوق التي تدعيها في سورية لم تخف بشكل من الأشكال «فقد اتهم الضباط الإنكليز والموظفون البريطانيون في الشرق الأدنى علناً أنهم يحاولون التأثير في السكان ضد فرنسا» وكان الرأي العام الفرنسي، الذي كان دوماً يتطلع بشوق ناحية سورية، يرى في استمرار الاحتلال البريطاني عاملاً مشؤوماً، عاملاً كان السبب الذي حال دون استحالة حلم وطني رومنطيقي إلى حقيقة هانئة مرغوب فيها[٢]:

«**هناك بعض نقاط لا يتنازع في صحتها، منها**: الرغبة الشديدة في توحيد سورية بأكملها مع فلسطين، ونيل الاستقلال في أقرب وقت مستطاع.

---

(١) راجع تمبرلي «تاريخ مؤتمر السلام في باريس» المجلد ٦. لنـــدن. ١٩٢٠ – ١٩٢٤. المجلد السادس – ص ١٥.

(٢) راجع الوثائق المتعلقة بسياسة الولايات المتحدة الأمريكية الخارجية المذكور سابقاً – مجلد ١٢ – ص ٧٤٩.

تعبير عنيف عن الشعور الوطني لم نكن نتوقعه. رفض جازم لفكرة جعل البلاد مستعمرة لأية دولة، ورفض جازم لفكرة الانتداب الفرنسي. نستثني من هذا القول الشعور الذي لمسناه لدى أحزاب لبنانية قوية تطالب بفصل لبنان فصلاً تاماً، وبالتعاون مع فرنسا[١]».

عندما بلغ صخب الحزب الاستعماري الفرنسي المطالب بسورية حداً من العنف. وبعد أن بدا أن الخلاف حول سورية سوف يهدد التحالف القائم بين فرنسا وبريطانيا، وضع بلفور، وهو بعد في باريس، مذكرة «حول سورية وفلسطين والعراق».

إن هذه المذكرة وما انطوت عليه من نفاذ في التحليل لجوهر القضية، ومع عرض واضح للدوافع السياسية، ومن صراحة في الاعتراف بأنه «لا يمكن» الوفاء بالوعود التي قطعها الحلفاء للعرب وفاء يتفق حرفياً مع النص، ومن شجاعة في مجابهة الحقائق في وضع دقيق مستقبح، نقول أن هذه المذكرة وما انطوت عليه تحتل بين الوثائق المتعلقة بالعلاقات البريطانية الفرنسية العربية مرتبة بارزة. **ونكتفي منها باقتباس الفقرات التالية:**

«إن الأثر الذي تحدثه المشكلة السورية في العلاقات البريطانية الفرنسية أمر يحملني على القلق الشديد – قلق لا يخفف من إزعاجه أن ما قيل علناً عن المشكلة هو قليل، وأن ما يلمح إليها كثير.. وهذه الحقيقة المؤلمة تزيد من مخاوفي، اعني أن كلاً من فرنسا وإنكلترا وأمريكا تجد نفسها في وضع مضطرب معقد بسبب الورطة السورية بحيث لا أرى أن أحداً من الدول سيخرج منها بحل مرضي رتيب».

ثم إن المذكرة تتابع بحث المصاعب الناشئة عن الاتفاقيات السرية التي عقدت في أثناء الحرب، وتركز بصورة خاصة على اتفاقية **سايكس –**

---

(١) راجع وثائق سياسة بريطانية الخارجية المذكور سابقاً – السلسلة الأولى – المجلد ٤ – ص ٣١٨ – ٣٢٠.

بيكو. ويرى بلفور أن الذين وضعوا نصوص هذه الاتفاقية «كان منطلقهم من أن لفرنسا حقوقاً قديمة ومطامح في الجزء الغربي من سورية، وإن لبريطانيا مطالب واضحة المعالم في بغداد وفي جنوبي العراق... هؤلاء الذين وضعوا نصوص الاتفاقية لم يخطر قط ببالهم أنهم يعالجون شؤون ثلاثة: دولة قائمة لا تحتاج سوى إلى «اعتراف مؤقت» بها، ولا يعوزها سوى إزالة الأتراك من الوجود، والمشورة التي تسديها دولة منتدبة، وشيء من الوقت يمكنها من «الوقوف على أرجلها وحدها». كما أنه لم يخطر قط ببالهم أنه كان عليهم أن يعالجوا شؤون دول أو أمم عصرية بالمفهوم الغربي لمعنى الدولة أو الأمة أو الأمم.

ويعترف بلفور «بأن الوفاء بجميع الوعود التي صرحنا بها وأعلناها أمر لا يمكن تحقيقه. **أولاً:** لأنها وعود يناقض بعضها بعضاً. **ثانياً:** لأنها تناقض الحقائق... وكجزء من مشروع حل جديد يقترح بلفور «الإبقاء على المبادئ الأساسية التي تنطوي عليها اتفاقية **سايكس** – **بيكو** أي أن يكون لفرنسا منطقة نفوذ في سورية، ومنطقة نفوذ لبريطانيا تقع بين النهرين دجلة والفرات، وأن يكون لليهود وطن في وادي الأردن(١)».

في هذه الأثناء استمرت الصحافة الفرنسية طوال شهر آب في حملتها المعادية لبريطانيا وذلك بسبب المشكلة السورية. أما الوزارة البريطانية التي كانت هذه الهجمات الفرنسية قد أزعجتها فإنها بعثت بتعليمات السير. ج. غراهام لكي يطلب مقابلة السيد بيشون، وزير الخارجية الفرنسية، ويحاول أن «يزعزع إيمانه فيما يتعلق بالنشاط المعادي لفرنسا الذي يقوم بها الموظفون البريطانيون في سورية». ولكن **إيمان بيشون** لم يتزعزع. فبعث السير **غراهام بتقرير إلى اللورد كرزون جاء فيه:**

---

(١) وثائق السياسة البريطانية الخارجية. السلسلة الأولى المجلد ٤، ص ٣٤٩ – ٣٥٠.

«**قال السيد بيشون، في بادئ الأمر، بشيء من الحدة والغضب**، إن الملفات التي في متناوله مليئة بالتقارير عن الدعاية المعادية لفرنسا التي يقوم بها عملاء بريطانيون وسوريون. وقال أنه يتلقى مثل هذه التقارير كل يوم تقريباً، وهي تشكل أدلة ثبوتية يستحيل دحضها. وهذه التقارير مسهبة ينسجم الواحد منها مع الآخر بحيث لا يمكن للحكومة الفرنسية إلا أن تقبلها على أن تقوم على أساس من الصحة.. وهنا قاطعت سعادته لأقول له.. إن الحكومة الفرنسية لعلى خطأ جسيم إذا هي كانت تعتقد أننا نعمل ضدها في سورية.... غير أن بيشون أصغى إلى كلامي ولكنه تشبث بموقفه من أن معلومات تختلف عن المعلومات التي لديَّ تصله من مصادر وأماكن مختلفة لا يمكنه أن يتغاضى عنها[١]».

كما أن السيد بيشون كان أيضاً مقتنعاً بأن حكومة جلالته «ليست مطلعة الإطلاع الكافي على الشعور الملتهب في فرنسا بالنسبة إلى سورية» وبالنسبة إلى «المصالح الحميمة» التي يربطها الشعب الفرنسي بهذه القضية. «وإذا تعرضت الحكومة الفرنسية إلى الاتهام بأنها تتقاعس في قضية حماية المصالح الفرنسية فإنها ستخذل وتسقط، ولن تستطيع الحصول على عشرة أصوات في الجمعية العمومية إذا هي حاولت مقاومة هذا الشعور أو عارضته...[٢]».

ثامناً - الاتفاق على اقتسام الضحية:

لقد أعطى مجلس الوزراء البريطاني **اللورد كرزون** صلاحية مطلقة في تسوية القضية، **عندما بدا للحكومة البريطانية أنها لن تتمكن حتى منتصف**

---

(١) المصدر السابق – ص٣٥٠.

(٢) المصدر السابق – ص ٣٥٠.

شهر آب من إيجاد أساس لحل المسألة الشرقية فقد جاء في رسالة بعث بها اللورد كرزون، في العشرين من آب. إلى زوجته اللايدي كرزون: «لقد كلفني مجلس الوزراء، برئاسة رئيس الوزراء، بالإجماع، هذا الصباح عند نهاية جلستنا الثالثة - والتي دامت ثلاث ساعات ونصف الساعة - أن أتوجه إلى باريس لمعالجة المسألة الشرقية، وقد أولاني صلاحية مطلقة أن أسوي القضية على أي شكل أرتضيه(١)».

في الحادي والثلاثين من شهر آب بعث فيصل ببيان وجهه إلى رئيس أركان حرب القوات البريطانية العاملة في مصر، وإلى ضابط الارتباط السياسي في دمشق. وقد يكون هذا البيان، بلغته البسيطة الواضحة، أفضل عرض موجز للقضية العربية. يقول فيصل في هذا البيان(٢):

أنني أود أن أوضح آرائي حول التطورات الأخيرة:

عندما بدأت الحرب الأخيرة، أعلنت بريطانيا أنها لا تحارب العرب ولا تحارب الإسلام، ولكنها تحارب تلك المجموعة من الأتراك التي تنتمي لجمعية الاتحاد والترقي. التي جاءت بالألمان (أعداؤنا). إلى بلاد الدولة العثمانية.

وتلقى أبي الملك حسين رسالة من السير هنري مكماهون المندوب السامي في مصر، على يد رسول معيّن. وفي تلك المرحلة أعطى المندوب السامي وعداً بأن بريطانيا العظمى سوف تساعد العرب، إذا انحاز هؤلاء إلى جانبها وربطوا مصيرهم بمصيرها.

وبناء عليه، واعتماداً على هذا الوعد، فإن والدي حمل السلاح ضد الأتراك، الذين كانوا قد أعلنوا حينذاك الجهاد ضد الحلفاء بوجه العموم وضد بريطانيا العظمى بوجه الخصوص، وتقبل بملء إرادته مسؤولية الحرب.

---

(١) راجع كتاب أيرل أو ف رونالدشي: «حياة اللورد كرزون» المجلد ٣ - ص ٤ - ٢.

(٢) راجع سليمان موسى: المراسلات التاريخية (١٩١٩) المجلد الثاني - رقم ٣٣ - ص ٨٧ - ٩٠.

والآن، وفي هذه الفترة، عندما تبدو التسوية النهائية قريبة جداً، في هذا الوقت الذي يجد فيه صوت بريطانيا العظمى آذاناً صاغية أكثر من أي صوت آخر في العالم، تتجه أنظار المسلمين إلى البريطانيين والعرب لكي تشاهد ماذا ستكون مكافأة العرب، الذين كانوا الأداة الرئيسية في تدمير الإمبراطورية العثمانية المسلمة.

إن أبي لم يطالب بريطانيا العظمى بالوفاء بوعودها، ولا يرغب أبي ولا أرغب أنا أيضاً أن نذكّر بريطانيا بما بيننا من تفاهم والتزامات. لقد اعتزمنا أن ننتظر، اعتقاداً منا بأن شرف بريطانيا العظمى يكفي لتذكيرها بالتزاماتها(١).

يُعرف عن المسلمين شدة تمسكهم بدينهم، وكل مسلم يعتقد أن الأماكن الإسلامية المقدسة يجب أن تكون في حماية خليفة أو حاكم مستقل، فإذا لم يتحقق هذا الشرط فإن المسلم يشعر بأن جانباً مهماً من أحكام الدين والشريعة ما يزال غير مكتمل. وأي مسلم يشعر بأن الأماكن المقدسة في خطر أو لا تحظى بالحماية الكافية على يد حاكم مسلم مستقل، فإنه يعتبر نفسه مضطراً لمحاولة إنشاء تلك الحكومة المستقلة. وإذا تبين أن سير الأحداث يعترض سبيل هذه الحاجة الحيوية، فإن الشعور الديني سوف يتحرك في أعماقه وسيجد نفسه مرغماً على البحث عن علاج».

«**والآن نأتي إلى النقاط التالية:** سوف يسعى المسلمون لتشكيل حكومة حسب الخطوط المذكورة، وهم بطبيعة الحال سوف يواجهون مقاومة من قبل الدول الكبرى. وهذا سيؤدي إلى نشوب القتال الذي سيستمر. وبالإضافة إلى هذا. فبما أن الأكثرية الساحة من المسلمين في العالم خاضعون لحكم بريطانيا العظمى، فإن هذه الدولة سوف تكون الهدف لكراهية المسلمين».

---

(١) العماد مصطفى طلاس – الثورة العربية الكبرى ص ٥٢٨.

«**ونحن العرب، لقد كنا في السابق مع الأتراك ثم قمنا نحارب ضدهم،** لا بقصد تجزئة بلادنا وإعطاء جانب منها إلى فرنسا وجانب آخر إلى بريطانيا. ليس في مقدورنا أن نتحمل تلك الإهانة على صفحات التاريخ ولا في عيون العالم الإسلامي. وإن أسرتنا على وجه التخصيص، لا تستطيع الصبر على هذه اللطخة في تاريخها، ولسوف تنسحب».

«**أما أنا شخصياً فلن أنسحب، بل سآخذ دوراً في الدفاع عن مبادئنا، لعلمي أن هذا أمر مؤكد مهما كانت الوسائل وأن أوانه قد حان. وعندما يبدأ عمل دفاعي كهذا في بلاد يعرف عنها العالم كله الإخلاص والولاء، فليس هناك من شك في أن العالم الإسلامي في الخارج سيكون من رأيه أن العرب خذلوه ولحق بهم الغدر**».

«وكان من جراء الاتفاق الذي تم في الثالث عشر من أيلول أن عقد الرؤساء الخمسة لوفود الدول العظمى اجتماعاً في مكتب **كليمنصو** في وزارة الحربية في باريس يوم الخامس عشر من أيلول».

«**قال المسيو كليمنصو رئيس وزراء فرنسا** أنه علم أن من المقرر وصول الأمير فيصل إلى مرسيليا يوم ١٦ أيلول، وأنه أعطى تعليمات مشددة تقضي بأن يسافر الأمير فيصل مباشرة إلى لندن، وأن الضابط الفرنسي المرافق له سوف يفترق عنه في كاليه».

«**وتساءل المستر لويد جورج** عما إذا لم يكن المسيو **كليمنصو** راغباً في الاجتماع بالأمير فيصل عند مروره بباريس».

«**قال المسيو كليمنصو** أنه فهم أن المستر **لويد جورج** يرغب في الاجتماع بالأمير في الحال، دون أن يبقى في باريس أثناء مروره، أن ذلك هو السبب في الأوامر التي أصدرها».

«**قال المستر لويد جورج** أنه قد حدث شيء من سوء الفهم حول هذا الأمر. وإنه لم يطلب من المسيو **كليمنصو** إلا أن يسهل رحلة الأمير فيصل

ويساعد على سرعة سفره، لأنه كان قد بلغه أن هناك إضراباً في مرسيليا يمكن أن يؤدي إلى تأخير سفره، وليس عنده أقل مانع أن **يقضي الأمير** بعض الوقت في باريس قبل أن يواصل سفره إلى لندن، ولسوف يسره جداً إذا ما **اجتمع الأمير بالمسيو كليمنصو**. وقال أنه شخصياً تسلم برقية من بور سعيد مفادها أن الأمير أبحر يوم السبت (٩/١٣)، ويعتقد أنه سافر إلى مالطا على ظهر السفينة البريطانية (سبيدي)».

«قال المسيو كليمنصو أنه بموجب الأوامر التي أصدرها قبلاً، فإن الأمير فيصل سوف يسافر مباشرة إلى كاليه».

(وبعد أن بحث المجتمعون في عدد من المسائل الأخرى، عادوا إلى بحث موضوع سورية وكيلكيا).

«قال المستر **لويد جورج** أنه فيما يتعلق بتركيا فمن المستحيل في الوقت الحاضر بحث مسألة الانتدابات، وكل ما يمكن بحثه بصورة مجدية هو موضوع الترتيبات لاحتلال المناطق المختلفة عسكرياً. ولقد بحث هذا الموضوع مع المسيو **كليمنصو** يوم السبت ١٣ أيلول وسلم إليه (مذكرة) وهي المذكرة التي يقدمها الآن للمؤتمر. (قدمت نسخ من المذكرة إلى أعضاء الوفود)».

«**عندئذ تحدث المستر لويد جورج** فلخص ما تتضمنه المذكرة. وقال إن القوات البريطانية سوف تنسحب من سورية ابتداءً من أول شهر تشرين الثاني. وبموجب اتفاقية **سايكس** – **بيكو** فإن دمشق وحمص وحماه وحلب قد أدخلت ضمن نطاق الدولة العربية. وبناء عليه فإنه يقترح أن تسلم القوات البريطانية حاميات هذه المدن إلى الأمير فيصل. أما في أجزاء سورية الأخرى إلى الغرب من خط **سايكس** – **بيكو** فإن الحاميات سوف تسلم لقوات فرنسية. وفي الحالة الأولى فإن القوات البريطانية سوف تنسحب إلى الخط الذي تتصور الحكومة البريطانية أنه يشكل الحد الفاصل بين سورية والعراق

من جهة، وبين سورية وفلسطين من جهة أخرى. هذه الخطوط سوف تكون خطوط الحدود المؤقتة، بانتظار الاتفاق على تعيين حدود دائمة»[١].

«**لقد اتخذ (لويد جورج) على عاتقه مسؤولية دعوة الأمير فيصل إلى أوروبا**، لأن الحكومة البريطانية عقدت اتفاقيات معينة مع الملك حسين، وبناء على تلك الاتفاقيات فإن الملك حسين بذل معاضدة قوية لقواتنا. وبناء على تلك الاتفاقيات فإن العرب ضايقوا الأتراك مضايقة عظيمة وشاغلوا ثلاثين أو أربعين ألفاً من جنودهم مشاغلة مستمرة. ومنحونا مساعدة مادية كبيرة في فتح البلاد. لقد وفى العرب بتعهداتهم ونحن ملزمون بأن نفي بتعهداتنا. لقد ظهرت في الصحف الفرنسية أقوال مؤداها أن الحكومة البريطانية لم تتبئ الحكومة الفرنسية بالتزاماتها اتجاه العرب. ونتيجة لتلك الأقوال فقد وعد المسيو **كليمنصو** بأن يسلمه وثيقة توضح هذه النقطة».

«**وهنا سلم المستر لويد جورج** للمسيو **كليمنصو** وثيقة أعدتها وزارة الخارجية البريطانية، حول ما إذا كانت الحكومة الفرنسية قد تبلغت أمر الالتزامات التي عقدتها الحكومة البريطانية مع **الملك حسين**».

«**وواصل المستر لويد جورج** حديثه فقال (إن اتفاقية **سايكس – بيكو** وضعت أيضاً على أساس التزامات الحكومة البريطانية نحو العرب). وفي الحقيقة فإن الأمير فيصل أعلن أن الحكومة البريطانية أعطت لغير العرب في اتفاقية **سايكس – بيكو** شيئاً كان العرب قد حصلوا على وعد بأن يكون لهم، ولكن الحكومة البريطانية لا تستطيع أن تقبل وجهة النظر هذه، وهي تشعر بأنها تستطيع بالتأكيد أن تقنع الأمير فيصل في هذا الأمر. أن الحكومة البريطانية في مراسلاتها مع الملك حسين، أوضحت دائماً أنها تعتبر أن البلاد الواقعة إلى الغرب من مدن دمشق وحمص وحماه وحلب ليست عربية الصبغة. وهو يأمل أن يوضح للأمير فيصل أن هذه النقطة أوضحت كل

---

(١) العماد مصطفى طلاس – الثورة العربية الكبرى – مصدر سابق – ص ٥٣٢.

الإيضاح لوالد الأمير في الرسائل التي أرسلتها الحكومة البريطانية إليه. وعلى أية حال فقد كان من الضروري استدعاء الأمير فيصل إلى أوروبا، حتى يتمكن من إبلاغه بانسحاب القوات البريطانية، كما قام بإبلاغ ذلك للحكومة الفرنسية».

«**قال المسيو كليمنصو**: (إن حل المشكلة التركية يجب البحث فيه من جميع وجوهه، وإذا لم يبحثوا هذا الموضوع ككل فإن مصاعب كبيرة سوف تواجههم. وفيما يتعلق بالنقطة الأولى التي ذكرها المستر **لويد جورج**، فإن الرئيس ويلسون أعلن دائماً أنه سوف يتمكن من إعلان موقف أمريكا بشأن الانتدابات في أواخر أيلول أو في تشرين الأول. وفي رأيه الشخصي. أن مدة ستة أسابيع لا تشكل فرقاً مادياً وهو نفسه قد قرأ مذكرة المستر **لويد جورج** وهو بسبيل إعداد جواب عليها».

«**وعلى أية حال فإنه لم يجد حتى الآن متسعاً من الوقت لقراءة الوثيقة** التي سلمت إليه هذا الصباح، فيما يتعلق بالتصريح الذي أُعطي للعرب وإعلام الحكومة الفرنسية بمحتويات ذلك التصريح. وفي رأيه، أن مسألة إنشاء إمبراطورية عربية تثير مصاعب كثيرة وعلى الحكومات المعنية أن تأخذ الوقت الكافي للنظر في هذه المسألة. وهو يرغب أن يعلن أنه يحتفظ بحقه أن يبحث مذكرة المستر **لويد جورج** بمزيد من التفصيل وإمعان النظر».

«وبعد نقاش بين **لويد جورج** و**كليمنصو** حول انسحاب القوات البريطانية اتفق الطرفان على ما يلي»:

١ - **وافق المسيو كليمنصو بالنيابة عن الحكومة الفرنسية** على قبول مقترحات المستر لويد بشأن انسحاب الجيش البريطاني من سورية وكيليكيا، وحلول القوات الفرنسية مكانه في كيليكيا وفي سورية غربي خط **سايكس - بيكو**. وقد رافق هذا القبول شرط واضح محدد وهو أن الحكومة الفرنسية بقبولها الاقتراح لا تلتزم بقبول أي جزء آخر من التدبير الذي اقترحه المستر

لويد جورج في مذكرته المؤرخة في ١٣ أيلول أيلول ١٩١٩، «بشأن احتلال سورية وفلسطين والعراق حتى يتم التوصل إلى قرار حول الانتدابات».

«٢ - **لقد أخذ المؤتمر علماً بالاتفاقية المشار إليها أعلاه كتدبير ذي صفة مؤقتة تماماً يتعلق بالاحتلال العسكري لا غير**، دون أن يكون لها أي تأثير على التسوية النهائية للانتدابات أو الحدود، وهي مسائل يجب أن يتم بحثها كجزء من الموضوع العام لعقد الصلح مع تركيا(١)».

وصل فيصل لندن في ١٨ أيلول، وفي اليوم التالي دعاه رئيس الوزارة ليحضر اجتماعاً في مقر رئيس الوزارة في دوننغ ستريت (Downing Street) بغية حمله على قبول الاقتراح المتعلق بالاحتلال الذي تم الاتفاق عليه في باريس. وما أن سمع فيصل رسمياً بمضمون الاتفاقية التي تمت في الثالث عشر من شهر أيلول بين الفرنسيين والبريطانيين حتى قدم احتجاجاً معترضاً على ذلك بكل ما أوتي من قوة».

وقد أوضح الأمير فيصل امتنان أبيه جلالة الملك حسين وامتنانه هو شخصياً، بالإضافة إلى امتنان الأمة العربية إلى رئيس الوزراء نفسه **وللفيلد مارشال القائد العام وللأمة البريطانية**، لجميع ما فعلوه. وبما أن هذا الموضوع يعتمد عليه مستقبل الأمة العربية كله، فإنه يود إبداء ملاحظات معينة، عندما بدأت الثورة في أول الأمر ضد الأتراك لم يكن العرب يعرفون إلا دولة عظمى واحدة هي بريطانيا العظمى، التي تصرف ممثلها بالنيابة عن المستر اسكويث (رئيس الوزراء البريطاني ١٩٠٨ - ١٩١٦) الذي لم يعرفه الأمير معرفة شخصية. لم تكن هناك أية علاقة لا لفرنسا ولا للولايات

---

(١) في هذا الاجتماع مثل الولايات المتحدة بولك، ومثل إيطاليا تيتوني ومثل اليابان ماتسوي. المصدر: الوثائق البريطانية السلسلة الأولى (١٩١٩ - ١٩٣٩، المجلد الأول، لندن، ١٩٤٧)، راجع سليمان موسى: «المراسلات التاريخية» المجلد الثاني رقم ٤٤ ص ١٠٥ - ١٠٨.

المتحدة الأمريكية ولا لأية دولة أخرى من الدول الكبرى. بالاتفاقية التي دخل أبوه طرفاً فيها. ونتيجة لذلك. عقد أبوه اتفاقية معينة مع بريطانيا العظمى، وهي الاتفاقية التي تنتج عنها قيام العرب بالثورة ضد تركيا، اعتماداً منهم على العهد الذي قطعته لهم بريطانيا العظمى. كان العرب أمة صغيرة جداً، ولكنهم فعلوا أقصى ما في وسعهم في الحرب. **(وهنا قال رئيس الوزراء مقاطعاً: صحيح تماماً)**. وكان يحدوهم الأمل التام بأن بريطانيا العظمى سوف تساعدهم على تحقيق مطامحهم. والآن يود أن يطرح السؤال التالي(١):

- **ألا تزال بريطانيا العظمى وفرنسا والولايات المتحدة الأميركية**، أي الدول الكبرى، تحافظ على الأقوال التي تلفظت بها للأمم الصغيرة؟.. وبصورة خاصة: ألا تزال تحافظ على التصريح الإنكليزي الفرنسي الذي أعلن بتاريخ ٩ تشرين الثاني ١٩١٨؟.

إنه يود أن يعرف فيما إذا كان هذا التصريح ما يزال قائماً ومعتبراً أنه يود أن يقول أن أباه لا علاقة له بمؤتمر الصلح، ولكن هناك اتفاقيات معينة عقدها مع بريطانيا العظمى، أما فيما يتعلق بالترتيبات الجديدة المقترحة **فإنه يود أن يطرح سؤالين:**

١- هل سيستمر دفع المساعدة المالية من الخزينة البريطانية، أم لا؟.

٢- هل سيستمر القائد العام في ممارسة صلاحياته في المناطق التي ستنسحب منها قواته؟.

إنه يوجه السؤال الأخير لأن القائد العام، عندما رفع السوريون العلم العربي في مدن الساحل وأعلنوا بالفعل ولاءهم للحكومة العربية، عمد إلى تجزئة البلاد إلى مناطق وأصر على انسحاب العرب إلى مناطق معينة على أساس أن الإجراء الذي اتخذه ما هو إلا ترتيب مؤقت. لذلك، فمن المهم معرفة ما إذا كان سيستمر في ممارسة صلاحياته أم لا.

---

(١) العماد مصطفى طلاس، الثورة العربية الكبرى، مصدر سابق، ص٥٣٦.

قال رئيس الوزراء: إنه من الأفضل أن يجيب عن هذه الأسئلة في الحال. ففيما يتعلق بالسؤال الأول عما إذا كانت بريطانيا العظمى ما تزال متمسكة بتعهداتها للملك حسين - فالجواب هو أن بريطانيا العظمى تتمسك وتلتزم بكل تعهد من تلك التعهدات. حقاً لقد وفت القوات العربية بقسطها من الالتزامات تجاه بريطانيا العظمى، ويجب علينا نحن أن نفي بقسطنا. لقد هوجمت بريطانيا العظمى لهذا السبب مهاجمة عنيفة إلى حدٍ ما في الصحافة الفرنسية. وأنه كان شديد الاهتمام بالاجتماع مع الأمير فيصل لأن بريطانيا العظمى كانت تقوم بالوفاء بتعهداتها، وهو كثير الامتنان للأمير فيصل لمجيئه إلى هذه البلاد. وهو يوّد أن يوضح للأمير أن الترتيبات المتعلقة بالاحتلال العسكري يجري تنفيذها طبقاً للعهود المقطوعة.

قال الأمير فيصل أن لديه ما يقوله حول هذه التعهدات. فهناك أولاً المعاهدة التي تم عقدها مع ملك الحجاز، ثم كانت هنالك رسالة تمهيدية. وبعد ذلك جاءت المذكرة المؤرخة في ٢٤ تشرين الأول ١٩١٥ التي أشير فيها إلى مصالح فرنسا. وهناك المذكرة الرسمية التي بعث بها ملك الحجاز والتي تنص على أنه لا يوافق على تغيير الاتفاقية الأصلية، وأنه إذا أُجري فيها أي تغيير فإنه سوف ينسحب، ووعد أن يقدم نسخة من هذه المخابرة.

قال رئيس الوزراء أن هذه هي المرة الأولى التي يسمع فيها عن وجود اتفاقية قطعية مع الملك حسين، غير المراسلات التي أشار إليها سابقاً. وعلى أية حال فقد أبلغه الكولونيل كورنواليس أنه يعلم بأمر الرسالة التي بعث بها جلالة ملك الحجاز إلى السير هنري مكماهون، وقال أن السير هنري مكماهون أجاب على تلك الرسالة بأنه يتمسك بما جاء في رسالته المؤرخة في ٢٤ تشرين الأول ١٩١٥. وقد عاد ملك الحجاز إلى تكرار مطالبة ثانية، ولكن الرأي قرّ على عدم ضرورة إرسال جواب إليه.

قال الأمير فيصل أن مجموعة المراسلات كلها سوف تقدم رسمياً لرئيس الوزراء وهو على يقين بأن أباه أرسل تلك الرسالة الأخرى التي أكد فيها أنه لا يقبل مطلقاً بإدخال أية تعديلات على الاتفاقية الأصلية.

وأخيراً قال الأمير فيصل أنها هذه المرة الأولى التي يبلغ فيها بمحتوى الاتفاقية المقترحة وهو يرغب بأن يقدم احتجاجاً رسمياً ضد الترتيبات المقترحة الآن. وفي اعتقاده أن تلك الترتيبات يصعب تنفيذها كما يرغب بأن يعتبر احتجاجه رسمياً. وعندما ينزل أول فرنسي على أرض الشاطئ فستكون تعبئة عامة، وكل رجل سيحمل السلاح في وجوههم.

فقال رئيس الوزراء أنه يأسف أشد الأسف لسماعه هذا التصريح، ولكنه أعطى كلمته ويجب أن يتمسك بها. لقد أعطت بريطانيا العظمى كلمتها للملك حسين وللجمهورية الفرنسية، ويجب أن تتمسك بالكلمة التي أعطتها لكلا الجهتين.

وانقضَّ الاجتماع بعد التوصل إلى الترتيبات التالية:

١- تعقد اللجنة الوزارية اجتماعاً في الساعة ١١,٣٠ من صباح يوم الاثنين (٢٢ أيلول) في وزارة الخارجية.

٢- يجتمع الفيلد مارشال اللنبي بالأمير فيصل في الساعة الرابعة من بعد ظهر يوم الاثنين، في وزارة الخارجية[١].

في الحادي والعشرين من أيلول بعث فيصل برسالة مطولة إلى لويد جورج علق فيها على المذكرة التي قدمها له رئيس الوزارة البريطانية في الاجتماع السابق، والتي تضمنت فحوى الاتفاق الذي تم بين بريطانيا وفرنسا في الثالث عشر من أيلول، وطلب إلغاءها إلغاءً تاماً. وقد شجبها قائلاً: **(أنها**

---

(١) سليمان موسى: المراسلات التاريخية (١٩١٩) المجلد الثاني رقم ٤٥ –ص ١١٢ – ١٢٢.

ردة إلى سياسة الاستعمار الغاشمة)، وحذر رئيس الوزارة من أن العرب سيدافعون عن وحدتهم وكيانهم بكل ما أوتوا من قدرة وتنصل من كل مسؤولية تجاه الحكومة البريطانية، وتجاه العالم بأسره. وختم رسالته بقوله أنه من الأفضل كثيراً الإبقاء على الوضع كما هو الآن. أو سحب جميع الجيوش الأوروبية إلى أن تتم التسوية النهائية. «إذا كان لا بد من انسحاب الجيوش البريطانية في سورية». وكتب فيصل في رسالته إلى **لويد جورج**: «**لماذا لا تنسحب أيضاً سائر الجيوش الأوروبية وتترك المسؤولية للحكومة العربية المستعدة لقبول تلك المسؤولية لدى الحلفاء والدول المشتركة معهم، لحماية الأمن العام في البلاد ريثما يبرم مؤتمر السلام قراره بشأن مصير سورية؟**»[١].

وبعد يومين، أي في ٢٣ أيلول، بعث فيصل بمذكرة إضافية إلى رئيس الوزارة البريطانية يعلمه فيها أنه علاوة على المذكرة التي قدمها إليه بالأمس يعرض عليه ما يلي:

«**طلب مني بالأمس** – القائد العام للجيوش المتحالفة في الشرق – أن أبحث معه موضوع انسحاب الجيوش البريطانية من البلاد. وقد أنبأت فخامته بأنني أرفض البحث في هذا الموضوع، وبينت الأسباب الموجبة لذلك الرفض».

«**وها أني أذكر فخامتكم** أيضاً بأن الجنرال البريطاني في بيروت عندما أجبر القوات العربية على الانسحاب من المنطقة الساحلية كتب لقائدها العربي اللواء شكري باشا بأن الموجب لهذا التغيير عسكري محض ومؤقت، إلى إن يصدر قرار مؤتمر السلام بشأن مستقبل البلاد».

---

(١) سليمان موسى: المذكرات التاريخية – المجلد الثاني (١٩١٩) رقم ٤٩ و ٥٠ – ص ١٣٠ – ١٣٧.

إن القوات البريطانية هي التي تولت بنفسها إنزال الإعلام العربية ولقد أقنعني بالموافقة على انسحاب قواتنا من السواحل وإنزال الإعلام العربية التي رفعها الأهلون على بنايات الحكومة وفي أماكن أخرى – ثقتنا بشرف الجيش البريطاني وتصريح فخامة القائد العام في برقية أرسلها إلي مؤكداً أن البلاد جميعها سوف تبقى تحت إمرة القائد العام حتى تتم التسوية النهائية.

ولهذه الأسباب أطلب أحد أمرين: إما عودة قواتنا العربية إلى المواقف التي احتلتها في السواحل، وفي تلك الحالة أتعهد بتحمل المسؤولية التامة عن حفظ الأمن واستتباب السلام إلى أن يتم التوصل إلى القرار النهائي، وإما إبقاء الحالة الراهنة على ما هي عليه حتى تتم التسوية النهائية(١).

في التاسع من تشرين الأول بعث فيصل برسالة أخرى إلى رئيس الوزارة البريطانية، الذي لم يكن قد أجاب بعد على رسالته السابقة إليه والمؤرخة في ٢١ أيلول، ملتمساً في إلغاء الاتفاقية البريطانية الفرنسية المعقودة بينهما في ١٣ أيلول، أو على الأقل تأجيل البت في أمرها. إن انسحاب الجيش البريطاني من سورية يشكل «كارثة جسيمة» بالنسبة إلى العالم العربي. وطلب فيصل أن تطرح القضية برمتها أمام مؤتمر الصلح لتقوم لجنة بدراستها تتألف من أعضاء بريطانيين وفرنسيين وعرب برئاسة أميركي ثم ترفع نتائج مداولاتها في تقرير إلى المؤتمر. **ولكنه أكد أن الحاجة القصوى لبلوغ تسوية مرضية تتجلى بـــ:**

- **إلغاء اتفاقية باريس.**

قال فيصل في رسالته: «إنني شديد الرغبة في أن اتجنب كل ما يؤدي إلى إحراج المركز أو ما يؤول إلى اضطراب الحبل بين الحلفاء والعرب».

---

(١) نشرت هذه المذكرة أصلاً في كتاب حافظ وهبة (جزيرة العرب في القرن العــشرين) ولكن لدى تدقيق النص مع النص الإنكليزي (الوثائق البريطانية المجلــد ٤، ص ٤١٢ – ٤١٣) جرى تبديل وتصحيح عبارات كثيرة (راجع سليمان موســى: المراســلات التاريخية عام ١٩١٩ المجلد الثاني رقم ٤٩ – ص ١٣٠).

«إني اعتبر إلغاء ذلك القرار الباريسي من الأوليات الحيوية للوصول إلى حل مرضٍ. وإنه إن لم يعمل بذلك فالكارثة في سورية قريبة الوقوع، وربما تطرأ أمور تمنع استمرار المباحثات الودية ولذلك فأنا أثق بأن مطالبي هذه التي هي جوهرية لمصالح الجميع تقابل من فخامتكم بالاستحسان...»[1].

وفي اليوم ذاته بعث **اللورد كرزون** برسالة مطولة إلى الأمير فيصل جواباً على رسالته المؤرخة في ٢١ أيلول. وفي هذه الرسالة كرر **اللورد كرزون** التعهدات والالتزامات التي كانت حكومة جلالته قد قطعتها على نفسها في أثناء الحرب لكل من الشريف حسين والحكومة الفرنسية.

وبينما كان فيصل يعلل نفسه بآمال كبيرة إذ به يتلقى ضربة قوية في الرسالة التي أرسلها رئيس الوزارة **لويد جورج** حيث رفض الالتزامات التي كان قد تقدم بها بخصوص الجيوش البريطانية والفرنسية في البلاد السورية[2].

بين العاشر والثامن عشر من شهر تشرين الأول بعث كليمنصو أولاً ببرقية إلى **لويد جورج** ثم رسالة جوابية عن مفكرته المؤرخة بتاريخ ١٣ أيلول وكلتاهما تنمان عن «غضب شديد» أبداه **كليمنصو**. فقد كانت برقيته المؤرخة في ١٤ تشرين الأول، كما قال عنها **لويد جورج**، برقية «صيغت بلهجة عنيفة في ساعة استياء شديد. مليئة بالعبارات المبطنة التي تلقي ظلالاً من التهم الموجهة ضد تصرف البريطانيين[3]». وعليه فإن رئيس الوزارة البريطانية كتب رسالة طويلة، في الثامن عشر من الشهر، إلى **كليمنصو** كرر فيها ملخص تاريخ القضية السورية برمته مستعرضاً نص المواثيق. التي قطعتها بريطانيا للعرب والفرنسيين كما جاءت في المراسلات التي جرت بين الشريف حسين والسير هنري مكماهون، واتفاقية **سايكس - بيكو**، والتصريح

---

(١) المرجع السابق، المجلد ٢ رقم ٦٤ - ص ١٥٥ - ١٥٦.

(٢) المرجع السابق، المجلد ٢ رقم ٦٥ - ص ١٥٧.

(٣) راجع لويد جورج المذكور سابقاً - المجلد الثاني - ص ١٨١ - ١٨٢.

البريطاني الفرنسي الذي صدر في ٨ تشرين الأول من سنة ١٩١٨م. والتصريح البريطاني الذي أدلت به بريطانيا في جلسة الأربعة الكبار التي عقدت في ٢٠ آذار، ١٩١٩م، ومكرراً القول بأن بريطانيا لا تقبل، في أية ظروف كانت، الانتداب على سورية. وهو يرغب في أن يؤكد للسيد **كليمنصو** أن الحكومة البريطانية، عندما كانت تجري مفاوضات حول جلاء الجيش البريطاني عن سورية وإحلال جيوش فرنسية وعربية محله، «لم تتغافل عما لفرنسا من حقوق ومطالب».

وهنا جاء رئيس الوزارة على ذكر فقرة وردت في رسالة **اللورد كرزون** إلى الأمير فيصل حول الدين المترتب على العرب تجاه فرنسا في تحررهم، غير أنه يريد من رئيس الوزارة الفرنسية أن يعلم بأن الحكومة البريطانية «**كانت مرتبطة بعهود ومواثيق ملزمة نحو كل من العرب والحكومة الفرنسية**». وليس من اللياقة بشيء من أن يعامل الأمير فيصل بهذا الجفاء المتعالي. وعندما يحضر إلى باريس فإن الحكومة البريطانية تنتظر أن يعامل «**معاملة كريمة محترمة كالمعاملة التي تعامل بها أحد الحلفاء**». ويتابع رئيس الوزارة كلامه ليقول: «إن الحكومة البريطانية تود أن تذكركم أنه هو الذي بدأ الثورة ضد الحكم التركي في وقت بلغت فيه معنويات الحلفاء مستوى متدنياً، وأنه كان مخلصاً وفياً للحلفاء حتى النهاية، وإنه إلى جانب اتباعه من العرب لعبوا دوراً رئيساً لم يستغن عن دحر تركيا الذي كان فاتحة عهد جديد ينذر بسقوط ألمانيا وحلفائها. كما أن الأمير فيصل يمثل شعباً عريقاً فخوراً بنفسه، وعلى كلينا نحن البريطانيين والفرنسيين أن نتعايش مع هذا الشعب على أحسن ما يكون من حسن العلاقات والود»[١].

لم تكن محاولات لويد جورج الدفاع عن فيصل مجدية لأنه نفسه كان قد تخلى عن أمر فيصل للفرنسيين نهائياً. وكان ذلك بداية بالنسبة إلى استقلال العرب برئاسة فيصل في سورية.

---

(١) لويد جورج المصدر السابق، المجلد الثاني – ص ١٩٧.

يمكننا القول هنا أن الحكومة البريطانية كانت قد كسبت الشوط عندما أقامت حكومة عربية برئاسة الأمير فيصل في دمشق عام ١٩١٨م ولكنها تخلت عن كل ذلك للفرنسيين بعد عام. وكانت الحكومة البريطانية واقعة تحت ضغوط مختلفة بالإضافة إلى الضغوط الفرنسية جعلها تعمل بقراراتها الأخيرة على حساب العرب وفيصل وخاصة قرار ١٣ أيلول. فقد كانت الثورة قد عمت مصر، وكان الوضع في العراق آخذاً بالتدهور. ثم كانت هنالك «**القضية المراكشية**» وتهديد الفرنسيين بتدويل طنجة. وفي الوقت ذاته كان الوضع في آسيا الصغرى وفي روسيا، وفي ألمانيا، في حالة اضطراب وثورة وقد اقتصرنا على ذكر ثلاث مناطق خطرة فقط من بين عدد كبير من المناطق المضطربة، يتطلب اهتمام الحكومة البريطانية الشديد.

وفي الجبهة الداخلية، في إنكلترا نفسها كانت هناك أسباب عديدة للشكوى والتذمر، أسباب تهدد بنشوب أزمة حادة من الدرجة الأولى. وكانت المشكلة الإيرلندية تتفاقم. وقامت في إنكلترا اضطرابات مستمرة في الحقل الصناعي، كما كان التهديد الحاد بالقيام باضراب سياسي عام يهددهم. وكانت مالية البلاد في حالة سيئة فقرر **لويد جورج** أن يضغط النفقات في مختلف دوائر الحكومة دون إبطاء. وقد جئنا على ذكر هذه الأسباب لماماً بغية الإشارة إلى تشابك هذه المشكلات المتعددة الجوانب التي كان على سياسي تلك الفترة أن يبحثوها وأن يجدوا لها حلولاً في مختلف مناطق الدنيا. وهكذا كان لدى **لويد جورج** ووزارته أمور أخرى خطيرة غير القضية السورية وعليهم أن يتخذوا بشأنها قرارات حاسمة. والواقع أن الوزارة أصبحت تشعر بأنه ينبغي لها أن تنهي القضية السورية في أسرع ما يمكن من الوقت منعاً للاحتكاك الدائم ولسوء التفاهم بينها وبين الفرنسيين[١].

---

1 – راجع زين نور الدين زين – «الصراع الدولي في الشرق الأوسط» المذكور سابقاً – ص ١٣٧.

وصل فيصل إلى باريس في العشرين من شهر تشرين الأول وأقام فيها أكثر من شهرين ونصف، «محاولاً جهده» - كما قال في رسالة بعث بها إلى لويد جورج - «أن يقيم علاقات طيبة مع الحكومة الفرنسية، وإن يسعى لإزالة أي سوء تفاهم بغية الحفاظ على مصالحنا المشتركة». وفي خلال شهر تشرين الثاني أجرى محادثات مع **كليمنصو** وبرتلو (Berthelot)، وغو (Gout)، والجنرال غورو، ومع غيرهم من الرسميين الفرنسيين في مقر وزارة الخارجية الفرنسية كما أنه جرى تبادل رسائل بينه وبين **كليمنصو** عبر فيها فيصل عن تخوفه من تقسيم سورية آخر الأمر، وعن قلقه من حدوث قلاقل داخلية نتيجة هذه التجزئة.

غير أن كليمنصو طمأن الأمير فيصل قائلاً: إن مخاوفه هذه لا ترتكز على أساس من الصحة. فليس هناك من قضية سياسية، أو من قضية تتعلق بحدود سورية في المستقبل، يمكن أن يحدث خلاف من جرائها. وإذا ما حدثت اضطرابات داخلية فإن الجيش الفرنسي يهب فوراً إلى النجدة إذا ما طلب الأمير فيصل ذلك. ولكن الأمير ظل غير مقتنع. فبعث بنداء إلى المجلس الأعلى لمؤتمر الصلح يناشده فيه «إعادة النظر» في الاقتراح الرامي إلى استبدال الجيش البريطاني بجيش فرنسي. وقد أسهب في ندائه هذا في التعبير عن مخاوفه من هذا «**المشروع المقترح**» وعن التأثير الذي سيخلفه هذا الاقتراح «في النفوس الثائرة في المناطق العربية وفي الولايات الإسلامية في الإمبراطورية العثمانية الآسيوية». وتقوم مخاوفه على الاتفاقية السرية المعروفة باتفاقية **سايكس - بيكو** «التي عالجت شؤون البلاد كأنها ملك خاص أو سلعة من السلع» والتي لم يعترف بها العرب ولا الولايات المتحدة. كما أن الأمير كان يخشى تفجر ثورة طائفية بين المسلمين والمسيحيين سببها التعصب الذميم. **وكتب فيصل يقول:** «إنني. طوال الحرب كنت أسعى جاهداً لمحاربة التعصب في كل زمان ومكان... إن وحدتنا تقوم على القومية لا على الدين. وهناك عدد كبير من الأعوان الذين يعملون معي الآن في هذه القضية القومية لا ينتمون إلى الطائفة الدينية التي انتمي أنا إليها».

في التاسع من الشهر كتب كليمنصو إلى لويد جورج يشكره على إيعازه لفيصل بالمجيء إلى باريس كي يصل إلى نوع من التفاهم مع الفرنسيين. وكانت رسالة **كليمنصو هذه تحتوي عبارتين تنطويان على مغزى هام. الأولى منهما:** إشارته إلى الماضي، **والثاني:** إشارته إلى مستقبل الأمور العتيدة. قال رئيس الوزارة الفرنسية في هذه الرسالة: «الواقع هو أن هذا الإجراء لو اتخذ فوراً منذ البدء أي يوم احتلال دمشق منذ سنة، لما كان قد نشأ سوء التفاهم هذا، ولكان بالإمكان تحاشيه. وإني مغتبط الآن لأن مثل هذا الأمر لن يتكرر في المستقبل، كما إني مغتبط لأن مؤتمر الصلح لن يكون له يد بعد في هذه القضية سوى الموافقة على الاتفاق الذي تم بيننا، أعني الاتفاق على أن يكون الانتداب على سورية من نصيب فرنسا، والانتداب على العراق من نصيب بريطانيا»[١].

في هذه الأثناء كان قد وصل إلى باريس في ٢٢ آب، ١٩١٩، وفد لبناني يرئسه البطريرك الماروني «حويك»[٢]، وأخذ يعمل بنشاط للحفاظ على الاستقلال اللبناني تحت الانتداب الفرنسي وقد استقبل رئيس الجمهورية الفرنسية، السيد بوانكاره، والسيد **كليمنصو** أعضاء الوفد الذي رفع إلى مؤتمر الصلح، في السابع والعشرين من الشهر، مذكرة تضمنت أماني الشعب اللبناني. وفي رسالة بعث بها البطريرك الماروني إلى **كليمنصو**. في الخامس والعشرين من الشهر، لخص البطريرك هذه الأماني في **النقاط التالية: (أولاً):** الاعتراف باستقلال لبنان وسيادته التامة «في الداخل». **(ثانياً):** تعديل حدوده

---

(١) راجع وثائق حول سياسة بريطانيا الخارجية – السلسلة الأولى. المجلد الرابع – ص ٥١٢ – ٥٢١.

(٢) راجع أدمون رباط: «الوحدة السورية والمستقبل العربي» –ص ١٥٤ – ١٥٥. وراجع أيضاً لدى المؤلف نفسه كتابه «التكوين التاريخي للبنان السياسي الدستوري» المذكور سابقاً – ص ٢٨١ – ٢٨٧.

الطبيعية والتاريخية والاقتصادية. **(ثالثاً)**: مساعدة فرنسا ومناصرتها لنيل هذه الأماني. وفي العاشر من تشرين الثاني بعث كلمنصو برسالة جوابية إلى البطريرك يؤكد له فيها «أن فرنسا متفقة اتفاقاً تاماً مع الأماني اللبنانية وستقدم كامل العون لتحقيقها. ولكن هناك بعض القيود التي ستحد من الاستقلال اللبناني، ومن العسير الآن تحديد هذه القيود قبل أن تحصل فرنسا على حق الانتداب على سورية»[1].

بدأ جلاء القوات البريطانية عن سورية في الوقت الذي كان فيه فيصل لا يزال في باريس. وكانت تتناهى إلى أسماعه أنباء تدهور الأمور في سورية وتعاظم الحركة الوطنية المناوئة للسياسة الاستعمارية وانقلبت الأحزاب السياسية السورية والعراقية والفلسطينية إلى أحزاب معارضة لفرنسا وإنكلترا والغرب عموماً، كما أنه ظهرت «تلميحات معادية لبريطانيا». ونشطت الدعاية التركية، فقد بعث الملك حسين ببرقية إلى فيصل يؤكد له فيها أن «السكان في المناطق الواقعة إلى الشمال الغربي من حلب يجرون مفاوضات مع مصطفى كمال باشا». وعمت البلاد موجة من العطف على الأتراك وهو عطف لم يكن قد زال بعد عند نهاية الحرب - تغذيها المناشير البارعة التي كان يوزعها «**حزب كمال باشا**» في حلب، ويعمل على تشجيعها ومناصرتها الضباط العرب الذين كانوا في السابق يعملون في الجيش التركي، والذين أصبحوا يشعرون بخيبة أمل مريرة ويعتقد العملاء السياسيون من البريطانيين أن ياسين باشا الهاشمي[2] «**الروح المحركة في سورية**» كان

---

(١) المصدر السابق - السلسلة الأولى - المجلد الرابع ص ٥٢٢ - ٥٢٣.

(٢) ياسين حلمي الهاشمي (١٨٨٢م - ١٩٣٧م) ولد في بغداد وتعلم في الآستانة وبرلين وتخرج ضابط أركان حرب عام ١٩٠٥، انتسب إلى جمعية «العهد» ودخل جمعية «العربية الفتاة». ظهرت موهبته العسكرية في دفاع النمسا ضد الروس في غاليسيا. حارب العرب مع الجيش التركي بقيادته لفيلق تركي في الشونه وخرج واختبأ في =

«**يراسل كمال باشا نفسه**». ويزعم بعضهم أن **ياسين** كان يسعى إلى «**إعادة الحكم التركي في سورية**»[1].

وزاد الوضع في سورية اضطراباً اعتقال الإنكليز ياسين باشا الهاشمي[2] يوم ٢٢ تشرين الثاني أي قبل جلائهم عن دمشق بأربعة أيام. وقد قامت مظاهرات احتجاجية في دمش على هذا الإجراء الذي لم يعرف سببه يومذاك. ولكن تبين فيما بعد أن الاعتقال تم بأمر اللنبي بحجة أن ياسين «كان يبث دعاية نشيطة ضد الفرنسيين ويباشر الاستعدادات العسكرية لمقاومة احتلال الفرنسيين لمنطقة الزرقاء». وليس من شك في أن هذه الحادثة زادت من شعور العداء للفرنسيين والإنكليز على السواء. وجعلت مهمة فيصل الرامية إلى التفاهم أكثر صعوبة وعسراً.

وفي هذه الفترة بالذات وقع حادث آخر كان له أيضاً تأثيره العميق على مجرى الأحداث. ذلك أن حاكم قضاء الرقة العسكري رمضان شلاش[3]

= دمشق فعفا عنه فيصل وعينه رئيساً لديوان الشورى الحربي عام ١٩١٨م. دخل العراق مع فيصل فتولى الوزارة وأسس حزب الشعب. توفي في دمشق.

(١) راجع الوثائق حول سياسة بريطانيا الخارجية - السلسلة الأولى المجلد الرابع – ص ٤٧٨ – ٥٢٣.

(٢) كان ياسين الهاشمي رجلاً قوي الشخصية وقد أسند إليه فيصل وظيفة (رئيس ديوان الشورى الحربي) التي تعادل وظيفة رئيس أركان. وقد بلغ الإنكليز والفرنسيين أنه على اتصال مع الأتراك الكماليين فاسترابوا به وخشوا أن يتواصل إلى اتفاق معهم. وقال ماينر تزهاجن في أحد تقاريره أن تطرف الهاشمي حل محل اعتدال فيصل. وقد حاول فيصل جاهداً إطلاق سراح الهاشمي ولكن الإنكليز أبقوه قيد الاعتقال حتى منتصف أيار ١٩٢٠ بناء على الحاح الجنرال غورو. وقد أكد لويد جورج أن بريطانيا لم تعط للعرب أية أسلحة تتجاوز مدى القدرة على حفظ النظام لا غير، وذلك في مذكرته الطويلة إلى كليمنصو بتاريخ ١٨ تشرين الأول ١٩١٩. المصدر السابق – المجلد ٤ – ص ٤٨٨ – ٤٨٩.

(٣) كان رمضان شلاش عام ١٨٦٩م في قرية الشميطية على شاطئ الفرات وهو ابن الشيخ شلاش عبد الله السليمان رئيس عشائر «البوسرايا» ويرجع نسبه إلى الشاعر الشريف الرضي وهو والد الزعيم الركن شلاش (الذي كان معاوناً لرئيس الأركان =

قام بمهاجمة بلدة دير الزور (التي كان العرب قد احتلوها في كانون الأول ١٩١٨م، ثم استولى عليها الإنكليز في الشهر التالي واستعادها العرب في ١١ كانون الأول ١٩١٩). وقد أثار هذا العمل سخط الإنكليز وزاد من اعتقادهم بأن الوضع في دمشق أخذ يعكس آثاره على العراق وفلسطين وبأنه من الأفضل عدم تشجيع العرب على مقاومة الفرنسيين. وربما كان نتائج حركة **رمضان شلاش** هذه أن الحكومة البريطانية قررت بعد هذا بأيام التخلي عن لواء دير الزور بأكمله فبقي في سورية منذ ذلك الحين.

ليس بواضح كل الوضوح ما جرى في باريس في الأسابيع الثلاثة التالية بين الأمير فيصل والحكومة الفرنسية. غير أننا نعلم أن فيصلاً كان ينوي الرجوع إلى سورية ليل الأحد الواقع في الحادي والعشرين من الشهر. ولكنه لم يغادر باريس، على الرغم من أن السفير البريطاني أشار عليه بالذهاب. لدينا وثيقة واحدة حول هذه الفترة على جانب كبير من الأهمية والمغزى وقد أبلغ أمرها اللورد دربي إلى **اللورد كرزون** في العشرين من كانون الأول وأرسل إليه نسخة عنها في اليوم التالي لتسلم إليه تسليم اليد. كانت هذه الوثيقة نسخة عن اتفاقية مقترحة بين الحكومة الفرنسية والأمير فيصل. وكانت الاتفاقية تشمل ثمانية بنود **وأهم مضمونها ما يلي:**

١- تعد الحكومة الفرنسية بتقديم كل نوع من المساعدة للشعب السوري وبضمان استقلاله ضد كل اعتداء.

= لسورية في عهد الشيشكلي). كان راعياً للإبل في بادية الشام. وفي سن العاشرة سافر إلى استانبول مع عدد من أبناء العشائر لتلقي التعليم هناك برعاية من السلطان عبد الحميد. تخرج من المدرسة الحربية في الآستانة عام ١٨٩٦ برتبة يوزباشي، وعين مرافقاً فخرياً للسلطان في الآستانة ثم قائداً للسرية الخامسة في حلب. أرسل عام ١٩١١ إلى أدرنه وتقلب في المناصب العسكرية، شارك في الدعوة ضد القومية التركية. شارك في أعمال الثورة العربية وتوفي في دمشق عام ١٩٦١.

٢- يطلب الأمير فيصل من الحكومة الفرنسية، وحدها دون غيرها، تعيين مستشارين ومعلمين وتقنيين لتنظيم جميع الإدارات المدنية والعسكرية، ولتولي بعض الدوائر في هذه الإدارات مثل المالية والأشغال العامة.

٣- يكون للأمير فيصل في باريس ممثل مفوض يعمل تحت إمرته وممثل في لندن وروما وواشنطن ضمن إطار السفارة الفرنسية في هذه العواصم. أما في غيرها من البلدان فإن القناصل الفرنسيين سيرعون مصالح السوريين.

٤- يعترف الأمير باستقلال لبنان تحت الانتداب الفرنسي.

٥- يسهل الأمير تشكيل إدارة مستقلة لدروز حوران داخل الدولة السورية.

٦- تقدم سورية إلى فرنسا كل عون عسكري في جميع الحالات.

٧- يعترف باللغة العربية لغة رسمية في الإدارة وفي المدارس. وتدرس اللغة الفرنسية كلغة ثانية.

٨- تكون دمشق عاصمة سورية، ويقيم المفوض الفرنسي السامي في حلب. ولكن يكون لرئيس الدولة السورية وللمثل الفرنسي مقر شتوي في بيروت ينعم باستقلال بلدي. وفي آخر الاتفاقية ملاحظة على أن بنود هذه الاتفاقية ستبقى سرية بين الطرفين المتعاقدين إلى أن يتم التوقيع النهائي على الاتفاقية وتفاصيلها التي سيتم وضعها فور عودة الأمير فيصل إلى فرنسا، ومن ثم يجري رفعها في الوقت المناسب إلى مؤتمر الصلح[١].

---

(١) راجع سليمان موسى: «المراسلات التاريخية» (١٩١٩) المجلد الثاني رقم ١٣٠. برقية الأمير زيد باريس ١٩١٩/١١/٢٨ - ص ٢٥١. وحول الاتفاقية مع الفرنسيين ١٩١٩ راجع أيضاً رقم ١٣١ من الأمير فيصل إلى السيد برتلو باريس ١٩١٩/١١/٢٨، وجواب السيد برتلو إلى الأمير فيصل في التاريخ نفسه رقم ١٣٢ ص ٢٥١ - ٢٥٢.

وافق جميع مستشاري فيصل وأعضاء وفده على قبول مشروع الاتفاق – باستثناء الدكتور أحمد قدري – بعد أن توافرت عندهم القناعة بأن بريطانيا تخلت عن العرب وأن العرب لا يستطيعون مقاومة جيوش فرنسا، وأن الاتفاق خطوة ثابتة تتلوها خطوات في المستقبل لتحقيق الاستقلال التام. ويبدو أن فيصلاً كان ينوي توقيع الاتفاق بالحروف الأولى لولا وصول رسول من لدن أبيه **(الدكتور ثابت نعمان)** يحمل منه رسالة يحظر فيها على فيصل توقيع أي اتفاق يتنافى والعهود ويعد بأنه سيعرض مشروع الاتفاق على السوريين ويحثهم على قبوله[1]. ومن الواضح أن **فيصلاً** لم يكن في أعماق نفسه سعيداً بذلك الاتفاق الناشئ عن المساومة والتهديد فبعث إلى **أخيه زيد بالبرقية التالية:**

«منعاً لوقوع حادث ونحن على غير استعداد، عملنا الاتفاق المؤقت لحين نتمكن من الاستحضار. نحن لم نرتبط بأي شيء كان بالنظر إلى المستقبل. كونوا على عزائمكم الأولى في استحضار الجند، ولا تصدقوا ما ربما ينشر، فقط لا تتظاهروا بوجه عدائي لأي جهة كانت[2]».

وهكذا مضى عام ١٩١٩م دون جدوى، وقرر فيصل العودة إلى سورية في ١٩١٩/١٢/٧.

تاسعاً - التطورات الداخلية الثورية خلال مفاوضات الصلح في أوربا:

بينما كانت تتوالى الإشاعات في سورية حول اتفاقية كليمنصو – لويد جورج حسبما ذكرنا فتزداد الخواطر التهاباً، والنفوس قلقاً على مصير البلاد.

---

(١) راجع أحمد قدري، ص ١٥٣ و ١٥٧ – ١٥٨، وأمين سعيد، ص ١١٩.

(٢) سليمان موسى «المراسلات التاريخية ١٩١٩» المجلد الثاني – رقم ١٣٠ – ص ٢٥١.

كان فيصل أثناء غيابه في أوروبا يرسل من وقت إلى آخر، وخلال مراحل مفاوضاته في لندن وباريس برقيات مقتضبة إلى أخيه ونائبه في دمشق الأمير زيد. يطلعه فيها على سير هذه المفاوضات[١]: «لا تصغوا لأقوال الصحف... الحالة حسنة».

وقد ظهرت في الصحف بيانات لجنة الدفاع الوطني التي دعت إلى التطوع في صفوف المقاومة. وقد عارض الإنكليز هذه الحركة الوطنية الشبه عسكرية وطالبت السلطات البريطانية على لسان اللنبي لحل هذه التشكيلات، وطالب الفرنسيون بإقالة رئيس الأركان العربي وإبعاد رئيس الوزارة. واجه المؤتمر السوري المنعقد بدمشق باستمرار على: «كل قرار واتفاق يمس بوحدة البلاد واستقلالها[٢]». ودعمت هذه المطالب المظاهرات الشعبية التي كانت تندد: «بكل تسوية تخالف أهداف الحركة الوطنية الاستقلالية، وتجند الوطن اليهودي الصهيوني في جنوبي البلاد».

---

(١) ولنكتفي على سبيل المثال لا الحصر بالرجوع إلى بعض هذه البرقيات كما نجدها في كتاب سليمان موسى: المراسلات التاريخية (١٩١٩) المجلد الثاني رقم ٥١ – ص ١٣٧. لندن ٢٣ أيلول ١٩١٩ ورقم ٥٥ ص ١٤٠ من لندن في ١٩١٩/٩/٢٧.. «المخابرات جارية اخبروا الشعب أن أية حركة فجائية تقع تضر بسير الحركة...». ورقم ٥٧ – ص ١٤٤. لندن في ١٩١٩/٩/٢٧... «الجماعة خائفون من حدوث قلاقل واضطرابات في سورية. الله الله! القوة القوة، كلما كنا أقوياء هناك (أي في سورية) وكلما رأوا فينا أثر حياة عسكرية كلما احترمونا وخضعوا لمطاليبنا...». رقم ٧٩. لندن في ١٩١٩/١١/١٩ – ص ١٨٠ – ١٨١: «... المسألة مسألة قوة لاحق. نراهم اليوم خاضعين أمام مصطفى كمال، كل جرائدهم تقول بلزوم احترام العنصر التركي وتركه مستقلاً في بلاده... الاستقلال يؤخذ ولا يعطى». رقم ٨١. لندن في ١٠/٢٢ – ص ١٩٦. رقم ٨٤ من باريس ١٩١٩/١٠/٢٥ – ص ١٩٩: «... ولكن حق بلا قوة لا يحترم... أملي عظيم في تشكيل وحدة عسكرية تضم سورية والعراق». رقم ٨٨. باريس في ١٩١٩/١٠/٢٨ – ص ٢٠٦ – ٢٠٧.

(٢) راجع جريدة العاصمة ٣٠ تشرين الأول ١٩١٩. العدد رقم ٧١.

وقد نشأت فكرة اللجنة الوطنية العليا التي انبثقت منها لجان مختلف في أحياء دمشق والمدن السورية الأخرى في أوائل تشرين الثاني ١٩١٩م دعماً لمواقف فيصل في أوروبا.

وبينما كانت عملية انسحاب الجيش البريطاني تتم في شمالي البلاد وصل إلى بيروت في ١٩١٩/١١/٢١م القائد الفرنسي، والمفوض السامي العام الجديد الجنرال غورو وترأس عملية حلول الجيش الفرنسي محل الجيش البريطاني. وهكذا جلت الجيوش البريطانية عن حلب في ١٩١٩/١١/٢٠م، وعن دمشق في ١٩١٩/١١/٢٦م وعن بيروت في ١٩١٩/١٢/١٢م.

وعندما وصلت أنباء وصول الجيش الفرنسي إلى البقاع قرر مجلس المديرين الدفاع عن البلاد بأي ثمن(١). واجتمع إثر ذلك المؤتمر السوري في ١٩١٩/١١/٢٢م واتخذ قراره الشهير بعد يومين بضرورة الدفاع عن وحدة سورية التام بحدودها الطبيعية، كما طلب ذلك من لجنة كينغ - كرين الأمريكية «مع تعيين شكل الحكومة بأنها حكومة ملكية دستورية مسؤولة أمام الأمة». واعتقلت السلطات البريطانية السيد ياسين الهاشمي لأنها اعتبرته المحرض الأكبر ضد الاحتلال الأجنبي والتعاون مع الكماليين(٢). وقد أذعنت الحكومة للإتفاق الفرنسي البريطاني في بيانها الصادر في ١٩١٩/١٢/١م وأعلنت فيه أن القوات الفرنسية ستحل في مكان الجيش البريطاني في سهل البقاع. وبقي احتجاج فيصل في باريس على ذلك دون جدوى.

ولما وصلت شائعات حول مفاوضات فيصل مع الفرنسيين وتراخيه حيال مطالبهم الاستعمارية بدأ التوتر السياسي يزداد عنفاً وحدة في البلاد وقويت المعارضة ضد هذا التراخي. أمام هذه المعارضة الوطنية العارمة

---

(١) راجع ساطع الحصري: «يوم ميسلون» بيروت (طبعة جديدة) ص ١١١ - ١١٢.

(٢) راجع وثائق حول السياسة الخارجية البريطانية - السلسلة الأولى، المجلد الرابع. ص ٥٢٣.

ضمن المؤتمر قررت الحكومة تعليق جلساته في ٤ كانون الأول ١٩١٩م[١] وتابعت المعارضة عملها خارج المجلس ولاسيما في إطار اللجنة الوطنية العليا وفي غيرها من الأحزاب السياسية الوطنية. وشكلت لجان الدفاع في المدن السورية الكبرى وزادت المطالبة بالتجنيد الإجباري. وقامت أزمة حكومية بين رئيس حكومة المديرين وبين الأمير زيد اضطر معها الأول للاستقالة فأعطي إجازة بينما قوي حزب القائلين بضرورة العمل العسكري ضد الاحتلال الفرنسي.

وأصدرت الحكومة الوطنية الجديدة التي سميت «بالحكومة الدفاعية» نظام التجنيد الإجباري في ١٩/١٢/١٩١٩م وصادق على هذا النظام الأمير زيد بعد يومين. وقد بدأت المقاومة الشعبية بمناوشات حدودية ضد الفرنسيين على طول الحدود مع البقاع وكانت تدعمها الأحزاب الوطنية والأحزاب الأخرى، ولاسيما حزب الفتاة. واتهمت الحكومة الفرنسية الوزارة السورية بأنها وراء هذه **التحركات العدائية**. وانتشرت الاشتباكات مع الفرنسيين في البقاع عامة، وفي منطقة مرجعيون والقنيطرة وحتى في منطقة اللاذقية ودامت هذه الاشتباكات طوال شهر كانون الأول ١٩١٩ إلى حين رجوع فيصل إلى البلاد. وقد تلاقت هذه الأعمال الثورية مع حركات المقاومة الوطنية التركية بزعامة مصطفى كمال ضد مخططات الدول الاستعمارية لتقسيم بلاد الأناضول. وكانت مقاومة مصطفى كمال في سورية دعماً قوياً وتجاوباً كبيراً لما كانت تتحلى به الجماهير الوطنية من شعور الإعجاب بأعمال كمال أتاتورك التحررية، لاسيما وأن دعوته إلى الجهاد ضد المستعمرين الأجانب قد تسربت إلى حلب ودمشق[٢].

---

(١) راجع جريدة العاصمة: في ٨ كانون الأول ١٩١٩ – العدد ٨٢.

(٢) راجع وثائق حول سياسة بريطانيا الخارجية المذكورة سابقاً – ص ٤٧٨.

عاشراً - سورية بين الاستقلال والاحتلال ومبايعة فيصل ملكاً عليها:

تشكلت فوراً حكومة عربية في دمشق كما ذكرنا سابقاً، بعد أن دخلت جيوش الثورة العربية دمشق وتشكلت بعدها في المدن الكبرى السورية هيئات حكومية غايتها الإشراف على الإدارة المحلية ريثما يتم لفيصل توحيد البلاد وإعلان استقلالها كما وعدته بها الدبلوماسية البريطانية قبل قيام الثورة وخلال الزحف المقدس من الحجاز إلى عاصمة بني أمية.

ففي حماه شكلت هيئة عليا برئاسة بدر الدين الكيلاني وبمؤازرة بعض الأعيان.

أما في حلب فقد أعلنت الحكومة العربية ورفع علم الثورة العربية بينما كانت القوات التركية الألمانية تغادر المدينة. وقام **إبراهيم هنانو** في شمالي سورية بتأليف حكومة وجمع جيش في **كفرتخاريم**.

وفي اللاذقية فقد تأسس مجلس وطني برئاسة رشيد طليع، أشرف على الأعمال الحكومية في منطقة الساحل السوري من طرطوس إلى أنطاكية، وقد ألمحنا سابقاً إلى المشاكل والعراقل التي نجمت عن رفع الأعلام العربية على الأبنية الحكومية في بيروت وبعبدا(١) وقد بدأت هذه الحكومات المحلية المؤقتة بأعمال التنظيم والإدارة بعد مغادرة الجيوش التركية وما خلفته من اضطراب وفوضى في المؤسسات العامة. وكان الحاكم العسكري العام رأس العمود الفقري الإداري في البلاد يعاونه مدراء عامون لمختلف الإدارات. وأحدث مجلس شورى في دمشق للقيام بالتشريعات الضرورية الأساسية، كما نظمت دوائر المالية والعدلية وأخيراً أنشئ ديوان الشورى الحربي لتنظيم الجيش العربي الجديد.

---

(١) للتوسع في هذا الموضوع راجع ما كتبته الدكتورة خيرية قاسمية: «الحكومة العربية في دمشق» المذكور سابقاً ص ٥٦ – ٥٨.

وقد قامت في وجه هذه الحكومة المؤقتة ومؤسساتها عقبات كثيرة منها ما يرجع إلى نقص الموارد لسوء وعجز الجباية. كما قامت عقبة كبيرة في وجه هذه الحكومة لما واجهته من مداخلات الحكم العسكري الأجنبي.

أما من حيث التنظيمات السياسية فقد قامت جميعها بمتابعة عملها في الحقل القومي والوطني إذ حاولت أن توقظ فكرة الدولة العربية المستقلة المناهضة لكل تدخل أجنبي، وقد شهد أحد الصحافيين الذي زار دمشق يومئذ «أن الروح الوطنية العربية قد بعثت من جديد. وهي ظاهرة يجدر التوقف عليها لما كان لها من تأثير عميق في تطور الحركة القومية في سورية والبلاد العربية»[١].

سبق لنا أن درسنا نشوء الجمعيات العربية قبل نشوء الحرب وقد تابعت هذه الجمعيات نشاطاتها السياسية، بينما تطور البعض منها إلى أحزاب سياسية حاولت أن تلعب دوراً في تطور السياسة الداخلية، ونكتفي بذكر أهمها: جمعية «**العربية الفتاة**» التي أرادت أن تحافظ على نظامها السري وأن يكون لها فرع سياسي علني. وقد حددت هدفها السياسي في المادة الأولى من نظامها الأساسي وهو: «استقلال البلاد العربية استقلالاً تاماً بجميع معانيه الحقوقية والسياسية وتأييد ذلك الاستقلال بجعل الأمة العربية في مصاف الأمم الحية». وأيدت هذه الجمعية سياسة فيصل إلى أن تسربت أنباء اتفاق فيصل – **كليمنصو**. فتوقفت أعمالها بعد احتلال فرنسا لسورية.

أما «حزب الاستقلال»: فيمكن اعتباره امتداداً لجمعية العربية الفتاة من حيث التأثير الفعلي على الإدارات والمؤسسات الحكومية.

أما «النادي العربي»: فهو مؤسسة ثقافية تحولت إلى مؤسسة قيادتها المركزية في دمشق وتضم فروعاً في حلب وحمص، وقد تابع النادي العربي في سورية ما بدأ به المنتدى الأدبي في الآستانة قبل اندلاع الحرب، واستمر

---

(١) راجع جريدة المنار التي يرئس تحريرها السيد رشيد رضا سنة ١٩٢٢ – عدد ٣/٢٩.

نشاطه إلى ما بعد الاحتلال الفرنسي وأصابه الكثير من اضطهاد السلطات له لما كان يقوم به من نشاط وطني وثقافي وسياسي.

أما «حزب العهد»: فهو استمرار لجمعية العهد السرية التي ذكرناها سابقاً والتي كانت تضم عدداً كبيراً من الضباط العرب في الجيش العثماني. وكان لهذا الحزب فرع سوري وفرع عراقي وقد قام الفرعان بمقاومة التدخل الفرنسي والإنكليز في كلا القطرين.

وقد نتج عن الحركة السياسية الداخلية تطلعات إلى إقامة حكومة مستقرة تقوم بأعمال الإدارة بحكم المسؤولية الذاتية. وكان فيصل قد وعد في خطابه في ١٤/٥/١٩١٩م بدعوة السوريين إلى تأسيس مجلس يضم مندوبين عن كافة المناطق السورية كافةً، ويكون بمثابة هيئة دستورية تمثل الرأي العام السوري وتقوم بالمبادرات السياسية لنيل الاستقلال تجاه مطامع فرنسا وبريطانيا.

وانطلاقاً من هذه الأهداف انتخب أعضاء المؤتمر الوطني السوري تبعاً للقوانين المرعية في المناطق، كما ضم المؤتمر بعض الأعيان والزعماء من مناطق كان يتعذر فيها إجراء الانتخابات مثل لبنان (المنطقة الغربية حسب التعبير الأجنبي) والبلاد الفلسطينية. وهي مناطق سورية الجنوبية الواقعة تحت الإدارة العسكرية البريطانية. وكان عدد الأعضاء ٨٥ عضواً حضر منهم جلسة الافتتاح التي عقدت بتاريخ ٧/٣/١٩١٩ – ٦٩ مندوباً[١]. وكان من أهم أعمال المؤتمر تمثيل إرادة البلاد السورية تجاه المؤسسات الدولية في الاستقلال التام ضمن الوحدة العربية ورفض كل حماية أو انتداب أو وصاية كانت تفكر بها الدول الموقعة على اتفاقية **سايكس** –

---

(١) راجع جورج انطونيوس: «يقظة العرب»، تاريخ حركة العرب القومية، ترجمة ناصر الدين الأسد وإحسان عباس، لبنان بيروت عام ١٩٦٦م، ص ٤٠٤ – ٤٠٥.

بيكو، وقد قام بهذه المهمة لاسيما عندما أتت لجنة **كينغ - كراين** من قبل الهيئات الدولية للتحقيق في رغبة الشعب السوري وإرادته الحرة.

وكانت فرنسا تعارض في إرسال أية لجنة إلى البلاد السورية لأنها كانت تعلم جيداً أن الشعب هناك مع زعمائه سيعارض فكرة الانتداب التي كانت ترعاها في المحافل الدولية. أما الرئيس ولسون فإنه أخذ برأي رئيس الجامعة الأمريكية (ببيروت) الذي كان قد اقترح فكرة التحقيق. وقد فرض الرئيس ولسن هذه الفكرة على الفرنسيين والإنكليز. وأصدر التعليمات إلى أعضاء الوفد الذي ذهب إلى سورية وكان يتألف من عضوين رئيسيين هما: **هنري سي كينغ وشارلز. ر - كرين** وعرفت هذه اللجنة باسميهما.

وقد وصلت اللجنة إلى يافا في ١٠/٦/١٩١٩م وقضت في البلاد ٤٢ يوماً زارت المناطق كلها واطلعت على آراء جميع فئات الشعب وجمعياته وأعضاء بلدياته ورؤساء طوائفه ومندوبيه في المؤتمر الوطني السوري ولم تترك شخصية لها أهمية ما وطنية أو أجنبية إلا وأرادت أن تطلع على وجهة نظرها. وهكذا فقد زارت ستاً وثلاثين مدينة أو قرية واستمعت إلى وفود أتت من ١٥٢٠ قرية وضمت إلى ملفاتها ١٨٦٣ عريضة طالبت جميعها باستقلال البلاد ووحدتها ونبذ كل مشروع صهيوني في المنطقة الجنوبية أي فلسطين[١]. وعندما وصلت اللجنة إلى دمشق قدم لها وفد من المؤتمر الوطني السوري مقررات حول مستقبل البلاد[٢]. كما أدلى الأمير فيصل بآرائه حول هذه

---

(١) راجع الدراسة القيمة ليورغل.ي. برانت «حول سياسة الانتداب الفرنسي في سورية» في الكتاب الاجتماعي «حول الاستعمار والاستعمار الجديد». ص ٢٤٠ وما بعـدها. وراجع أيضاً اتينو رؤسَّي: «الوثائق»، المذكور سابقاً ص ٧٧ - ٩٠..
وراجع بالأخص كتاب هـ. هوارد: «لجنة كينغ - كرين: تحقيقات أمريكية في الشرق الأوسط». بيروت ١٩٦٣ بالإنكليزية. وهي دراسة مستفيضة حول أعمال هذه اللجنة.

(٢) راجع ساطع الحصري: «يوم ميسلون» ص ٢٦٢ - ٢٦٤ حيث يعطي نـص قـرار المؤتمر السوري إلى لجنة التحقيق الأميركية.

المواضيع الحيوية لمستقبل البلاد وشدد على وحدة بلاد الشام في حدودها الطبيعية معترضاً على ما تقوم به بعض الجهات الطائفية في لبنان والأوساط العنصرية في فلسطين.

وقد رفعت هذه اللجنة توصياتها إلى مؤتمر السلم في باريس في تقرير مستفيض بتاريخ ٢٨ آب ١٩١٩م. كما كانت قد أرسلت مسبقاً تقارير موجزة إلى باريس بتاريخ ١٠ – ١٩ تموز ١٩١٩م. وكلها تشدد على إرادة السوريين في الوحدة والاستقلال في جميع المناطق التي تضم بلاد الشام في حدودها الطبيعية أي مع **لبنان وفلسطين وشرقي الأردن.** كما أنها أعلمت الجهات المسؤولة في مؤتمر باريس عن رفض سكان البلاد لأي نوع من الانتداب، وللمشروع الصهيوني[١].

ولما كانت حالة البلاد في اضطراب متزايد لما كان يستشم من أعمال مؤتمر السلام في توطيد الحكم الأوروبي في المشرق العربي **فقد رأى الأمير فيصل** أن يذهب بنفسه إلى أوروبا ليدافع عن القضية السورية في لندن وباريس.

وقد أتينا سابقاً إلى ذكر ما قدمه من مذكرات وما قام به من اتصالات في المحافل الدولية.

أما في سورية فقد كانت التطورات الداخلية تتجه نحو توطيد الوحدة والاستقلال ونحو القيام بمبادرات دستورية تعلن للرأي العام العالمي عن إرادة الشعب وممثليه في المؤتمر الوطني. **ولما عاد فيصل إلى سورية وجد نفسه أمام تطور لا يستطيع السيطرة عليه أو إيقاف مده.**

---

(١) أما التقرير الذي وضعته اللجنة فإنه ينقسم إلى ثلاثة أجزاء، الأول: يعطي صورة واضحة عن أوضاع البلاد السياسية، والثاني: يسهب في بعض الاعتبارات الخاصة بتسوية المسألة التركية. أما الجزء الثالث: فهو يتكلم بصراحة عن توصيات اللجنة التي ذكرناها.

وقد حاول فيصل أن يهدئ من ثائرة السوريين قام بجولات في مختلف المقاطعات ليشرح ما قام به من اتصالات وما توصل إليه من نتائج. ولهذا الغرض وفي سبيل هذه الأهداف فقد خطب في حلب في ١٩٢٠/١/٢٨م وكرر ما قاله في خطاب آخر ألقاه في النادي العربي بدمشق قبل أسبوع **قال فيه:** «إنني أناضل من أجل الاستقلال الذي ترغبون ولكن الواجب يقضي بعدم التشدد في العداء لأن بيننا وبين الدول الكبرى روابط لا يمكننا أن تتجرد عنها» وكان هذا الخطاب سبباً لإثارة نقمة معارضي سياسته من الوطنيين الأحرار. وهكذا بدأ الخلاف يدب بين فيصل وبين القوى الوطنية المتشددة في الاستقلال ووحدة البلاد. حيال ذلك حاول فيصل تأليف حزب يدعم سياسته دعي «بالحزب الوطني»(١).

وتمشياً مع الرأي العام السائد في المؤتمر وفي الأوساط الشعبية قَبِل الأمير فيصل السياسة الاستقلالية التي دعت إليها غالبية الشعب السوري، وقد أفصح الأمير فيصل عن وجهة نظره هذه في الخطاب الحكومي وممثلي الشعب وعدد غفير من زعماء البلاد فتشكلت في الحال لجنة لتكريس هذا الوضع وللقيام بإعلان الاستقلال ومبايعة الأمير فيصل ملكاً على سورية٢. وفي اليوم التالي ٧ آذار أجمع الأعضاء على اتخاذ القرار التاريخي الذي ينص على استقلال سورية في حدودها الطبيعية، وعلى رفض المشروع الصهيوني للوطن القومي، وعلى تطبيق مبدأ اللامركزية الإدارية مع إعطاء

---

(١) راجع أمين سعيد في كتابه الجزء الثاني ص ٤٢ وراجع أيضاً عزت دروزه: «حول الحركة العربية الحديثة» ١٩٥٠ المجلد الأول. ص ٨٦. وقد ذكر أسعد داغر في: «مذكراتي على هامش القضية العربية». القاهرة ١٩٥٩ – ص ١١٢ وما بعدها. حوادث وأحاديث عن ردة الفعل الشعبية العارمة ضد مشروع الاتفاق بين فيصل وكليمنصو. وتركيز النقمة على نوري السعيد.

(٢) ساطع الحصري: «يوم ميسلون» ص ٢٧١ – ٢٧٤.

الضمانات الخاصة بجبل لبنان وإنشاء حكومة جديدة مسؤولة أمام المؤتمر الذي سيتخذ صفة مجلس نيابي وتأسيسي معاً وإعلان حق العراق في الاستقلال مع إيجاد اتحاد سياسي واقتصادي مع القطر الشقيق وأخيراً مبايعة الأمير فيصل ملكاً على سورية على أن تعلن المبايعة في اليوم التالي أي في ٨ آذار.

وتقرر مبايعة الأمير فيصل ملكاً على البلاد السورية في ١٩٢٠/٣/٨ في دار البلدية[١] وفي اليوم المذكور جرت حفلة مراسيم المبايعة المقررة وسط حماس الشعب والمؤتمر. وقد أطلقت المدافع ورفع العلم السوري وهو علم الثورة العربية مع نجمة بيضاء في المثلث الأحمر. وانهالت البرقيات على العاصمة من جميع أنحاء البلاد تشارك المحتفلين ابتهاجاتهم وقد شارك في هذه المبايعة كافة الطوائف ممثلة برؤسائها الروحيين[٢]. وفي اليوم نفسه اجتمع ممثلون عن الشعب العراقي وأعلنوا استقلال العراق مبايعين الأمير عبد الله شقيق فيصل ملكاً عليه ومطالبين بالاتحاد مع سورية اتحاداً سياسياً واقتصادياً[٣].

---

(١) راجع أمين سعيد: «الثورة العربية الكبرى» – ج٢ ص ١٢٨ – ١٢٩. وقد أورد أحمد قدري في كتابه «مذكراتي عن الثورة العربية» المذكور سابقاً، نص خطاب الأمير فيصل في جلسة ٦ آذار من المؤتمر ص ١٧٨ – ١٨١، وراجع أيضاً ساطع الحصري «يوم ميسلون» ٢٧٨ – ٢٨١. وقد وقع على قرار المؤتمر السوري في جلسة ٣/٧ ممثلو المدن الكبرى وهم هاشم الأتاسي (حمص)، يوسف الحكيم (طرابلس)، مرعي الملاح (بيروت)، عبد القادر كيلاني (حماه)، محمد تاج الدين حسيني (دمشق)، إبراهيم هنانو (حارم – حلب)، صبحي بركات الخالدي (أنطاكية).

(٢) راجع يوسف الحكيم: «سورية والعهد الفيصلي»، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩٦٦ ص ١٤٣.

(٣) راجع أتينو روسي «وثائق» رقم ٦٦ – ص ٩٨ – ٩٩، وراجع أيضاً أمين سعيد المذكور سابقاً – المجلد ٢ – القسم ٢ – ص ٣٤ – ٣٧، حيث تقرأ قرار المؤتمر العراقي وأسماء أعضائه. وراجع أيضاً بهذا الخصوص جريدة «القبله» في عددها – ٣٧٣ الصادر في ١٩٢٠/٤/٨.

وإلى أن يتم تأليف الوزارة الجديدة التي ستستلم إدارة أمور الحكومة بطريقة دستورية لنرى مواقف حكومتي فرنسا وإنكلترا تجاه هذه المبايعة للملك فيصل، والتأكيد على استقلال سورية الطبيعية ووحدتها – بلاد الشام بمقاطعاتها الساحلية والجنوبية. ففي ٧ آذار أبرق المندوب السامي في مصر **(الجنرال اللنبي)** إلى وزير الخارجية **اللورد كرزون** يعلمه بما يجري في دمشق من تطورات خطيرة فاتصل وزير الخارجية البريطاني بزميله الفرنسي برتلو واتفقا على موف معين أبرق به إلى **الجنرال اللنبي** وكان الموقف في غاية المرونة ريثما يتاح للدبلوماسية الفرنسية البريطانية الإطلاع الشامل على مجريات الأمور في سورية. ومما جاء في جواب **اللورد كرزون** أن على فيصل أن يحضر إلى لندن أو باريس ليعلم مؤتمر السلم بأهدافه بغية التوصل إلى حل للقضايا العربية. لأن القرار النهائي هو بيد المسؤولين في مؤتمر السلم. وتابع الوزير البريطاني قائلاً لفيصل أن مسؤوليته كبيرة وأن مستقبل سورية سيتعرض للخطر إذا ما اتخذت قرارات تتعارض مع نوايا مؤتمر السلم[١].

وعندما وصلت أنباء المبايعة اتخذت الحكومتان موقفاً صريحاً مناهضاً لقرارات المؤتمر السوري فقد أبلغ فيصل أن الحكومة البريطانية لا تستطيع الاعتراف بما جرى في دمشق لأنها تعتبر هذه القرارات وكأنها: «باطلة ولا وجود لها» فالحكومات الحليفة وحدها لها الحق في اتخاذ القرارات الخاصة بسورية والعراق وفلسطين لأنها هي وحدها التي حررت هذه البلاد من الاحتلال العثماني. وطلب من فيصل من جديد أن يرجع إلى أوروبا لعرض القضية السورية أمام مؤتمر السلم[٢]. أما موقف فيصل فقد بات واضحاً ومتماشياً مع رغبات شعبه. ولذا فقد أرسل مذكرات إلى كل من رئيس

---

(١) راجع الوثائق البريطانية، المجلد ١٣، ص ٢٢١ – ٢٢٢.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٢٥ – ٢٢٩.

الولايات المتحدة ولسن وإلى وزير الخارجية البريطانية **اللورد كرزون** وإلى المندوب السامي الفرنسي الجنرال غورو قال فيها: «**إن ما أعلنه المؤتمر في قرارات تاريخية يهدف إلى المحافظة على وحدة البلاد السورية وإلى تهدئة الخواطر العارمة في الشعب وهي علاوة على ذلك تنسجم تماماً مع تعهدات الحلف قبل وخلال الثورة العربية الكبرى**». وعلى كل حال فإن ما قام به المؤتمر المنتخب انتخاباً شرعياً هو شرعي أيضاً. وهذا لا يمنع الحكومة السورية والمسؤولين فيها من الإطلاع على مقترحات ومشورة الحلفاء مع طلب المساندة المادية والمعنوية التي لا تتنافى مع استقلال البلاد ووحدتها الشاملة(١).

وعندما حاول الجنرال اللنبي اقتراح حل وسط على حكومته في ١٨/٣ يقضي بأن يُعترف بملكية فيصل على اتحاد عربي يضم كلا من سورية والعراق وفلسطين من إبقاء الإدارة الفرنسية في سورية والإدارة البريطانية في فلسطين والعراق أجابه وزير الخارجية البريطاني **اللورد كرزون** أنه لا مجال لهذه الخطة لأن المحادثات القائمة الآن بين الحلفاء تهدف إلى فرض الانتداب على هذه المناطق(٢).

وقد أيّد الملك حسين ما قام به المؤتمر السوري من مبايعة ابنه فيصل ومن التأكيد على وحدة البلاد العربية في برقية أرسلها بواسطة ديوانه إلى رئيس المؤتمر السوري بتاريخ ٢٠/٣ وفي برقية أخرى أرسلها إلى **الجنرال اللنبي** في القاهرة بتاريخ ٢٧/٣ (٣).

---

(١) راجع الوثائق البريطانية المصدر السابق – ص٢٢٩ – ٢٣٠ وقد نشرت هذه الرسائل وقتئذ في جريدة العاصمة في ٥/٤/١٩٢٠ عدد، ١١٤.

(٢) المرجع السابق ص ٢٣١ – ٢٣٦.

(٣) المرجع السابق ص ٢٣٧ – أما البرقية لرئيس المؤتمر السوري فتجد نصها في جريدة العاصمة بتاريخ ٥/٤/١٩٢٠ العدد ١١٤.

وقد أجاب وزير الخارجية البريطاني اللورد كرزون الملك حسين عن طريق ابنه عبد الله (وزير خارجية الحجاز) أن الحكومة البريطانية لا تعترف بما قرره المؤتمر العراقي الذي انعقد بتاريخ ١٩٢٠/٣/٢٨ في دمشق لأن مؤتمر السلم وحده هو صاحب الصلاحية في تقرير مستقبل العراق والبلاد العربية[١].

أما الملك حسين فكان رده على وزير الخارجية البريطاني واضحاً يتفق مع مواقفه الثابتة من إعلان الثورة. فقد أكد أنه لا علاقة له بمؤتمر السلام لأن علاقته كانت مع بريطانيا دون سواها وكتب حرفياً: «**فبريطانيا** هي التي دعتني، وهي التي جعلتني أعلن الثورة وهي التي قبلت كل شروطي المتعلقة **باستقلال البلاد العربية...**»[٢]. وحاول **الملك فيصل** إرضاء الوزارة البريطانية بإيفاد نوري السعيد إلى لندن ولكن **وزير الخارجية كرزون** رفض الاستماع إليه لاسيما وأن الدبلوماسية الفرنسية رفضت أن تتفاوض مع فيصل بصفته ملكاً على سورية ولم ترضَ به إلا ممثلاً للشعب السوري كما في الماضي[٣]. وظل الوضع على هذه الحال إلى أن اجتمع الحلفاء في سان ريمو بين ١٨ – ٢٥ نيسان ١٩٢٠ لإقرار مبدأ الانتداب على المناطق المحررة من الدولة العثمانية.

أما في الداخل فقد استخدم الملك فيصل صلاحياته الدستورية كاملة، وعين وزارة جديدة لتحل محل مجلس المديرين السابق برئاسة السيد رضا الركابي لإدارة شؤون الدولة، ولتكون مسؤولة مباشرة أمام المؤتمر السوري

---

(١) المرجع سابق ص ٢٣٩.

(٢) الوثائق البريطانية غير المنشورة الملف ٢٣/٣٨٢، والوثائق المنشورة أيضاً المجلد ١٣ ص ٢٤٦ – ٢٤٧. رسالة الملك حسين بتاريخ ١٩٢٠/٤/٦.

(٣) راجع رسالة فيصل إلى اللورد كرزون في ١٩٢٠/٣/٢٨ في الوثائق البريطانية. المجلد ١٣ ص ٢٤٦ وموقف السفير الفرنسي في لندن – ص ٢٤٦.

حسب الأعراف الديمقراطية وكانت هذه الوزارة هي الأولى في تاريخ سورية الحديث. وقد تقدمت الوزارة إلى المؤتمر لإلقاء بيانها الوزاري في ١٩٢٠/٣/٢٧ وراعت في برنامجها الظروف الراهنة لا سيما أمام معارضة الدول الاستعمارية لمقررات المؤتمر السوري، فتحدثت عن الدفاع وعن الاستقلال السوري وعن المساواة أمام القانون وعن حماية المصالح الأجنبية وعن نشر المعارف، وعن تحسين الحالة الاقتصادية، وعن استعدادها للتعامل مع الحلفاء من أجل التطور الاقتصادي(١).

وتشكلت لجنة لوضع الدستور الجديد برئاسة هاشم الأتاسي أنهت أعمالها بعد عشرة أسابيع فجاء الدستور بمواده الـــ ١٤٨ منسجماً مع التقاليد الديمقراطية الأوروبية. وقد نص الدستور على مواد أساسية ندرج بعضاً منها: أن سورية يحكمها ملك دستوري من الأسرة الهاشمية وهو غير مسؤول. تدار البلاد على أساس اللامركزية. ينتخب مجلس النواب بالاقتراع السري على درجتين وهو يمثل السلطة التشريعية. ينتخب مجلس شيوخ من قبل مجلس النواب وقد أكد الدستور على مبدأ احترام الحريات العامة المدنية والفكرية والدينية.

وكما وضع السوريون فرنسا وإنكلترا أمام الأمر الواقع فقد قررت الدولتان وضع العرب أمام الأمر الواقع. وكانتا قد توصلتا إلى إنهاء خلافاتهما بقبول فرنسا بالتخلي لبريطانيا عن فلسطين والموصل(٢) مقابل قبول بريطانيا بالتخلي عن سورية بكاملها لفرنسا. وعقد مجلس الحلفاء اجتماعاً في سان ريمو بين ١٨ – ٢٥ نيسان عام ١٩٢٠. وبالرغم من أن الصلح مع تركيا لم يتم بعد، وأن شرعية فصل المناطق العربية عن الدولة العثمانية لا

---

(١) راجع نص البيان الوزاري في جريدة العاصمة. العدد ١١٣ بتاريخ ٢٩/ ٩/ ١٩٢٠.

(٢) حصلت فرنسا على حصة كبيرة من نفط الموصل مقابل التنازل عن الموصل (٢٣,٧٥%).

يصح إلا بعد عقد المعاهدة معها وإدماج قرار الفصل فيها، وعلى الرغم من أن نظام الانتداب لم يعرض بعد على مجلس العصبة ليصادق عليه، فقد قرر المجلس تقسيم المناطق العربية وتقرر انتداب فرنسا على سورية ولبنان وانتداب بريطانيا على العراق وفلسطين وشرقي الأردن والتزام بريطانيا بتطبيق وعد بلفور[١].

وتعتبر هذه القرارات أهم وثيقة رسمية ذات طابع دولي بتجزئة هذه المنطقة وإخضاعها للاستعمار الأوروبي. وهي بالتالي أهم سبب من أسباب قيام الثورة والانتفاضات الشعبية التالية في هذه المناطق.

تلقى الجنرال اللنبي قرارات سان ريمو من حكومته التي أكدت له أنه بإمكان فيصل المثول أمام المؤتمر في باريس في الاجتماع المقبل لعرض قضيته، وإن فرنسا ما تزال مستعدة للاعتراف به ملكاً على سورية شريطة قبوله الانتداب الفرنسي وأن بريطانيا مستعدة للاعتراف نفسه. إلا فيما يتعلق بفلسطين خاصة وأنه سبق أن قبل آراء الحكومة البريطانية التي تضمنها وعد بلفور وإنه يحتاج إلى التوصل إلى اتفاق مع فرنسة حول نصوص الانتداب، أما مع بريطانيا فأمامه بحث مسألة الحدود بين سورية وفلسطين فقط[٢].

ونقلت الحكومة الفرنسية تبليغاً مماثلاً عن قرارات سان ريمو إلى الجنرال غورو، أشارت فيه إلى قبول فرنسا المهمة التي عهد بها إليها مؤتمر

---

(١) وكان الملك فيصل قد أرسل إلى المؤتمر مندوبين عنه هم رستم حيدر ونوري السعيد ونجيب شقير ولكن أعضاء المؤتمر (فرنسا إنكلترا وإيطاليا) رفضوا الاعتراف بهم ولم يسمحوا لهم بعرض وجهة النظر العربية.

(٢) راجع برقية اللورد كرزون إلى اللنبي بتاريخ ١٩٢٠/٤/٢٦ في الوثائق البريطانية. مجلد ١٣ ص ٢٥١ – ٢٥٢. «وسارع اللنبي إلى إطلاع فيصل على هذه الأمور في ٤/٢٧» حيث نقل إليه جملة ما جاء في برقية كرزون: راجع المصدر السابق ص ٢٥٢ – ٢٥٣.

الصلح لمساعدة سورية وإرشادها، على أن تضمن استقلالها ضد كل اعتداء ضمن الحدود التي يعينها مؤتمر الصلح ناظرة بعين الاعتبار إلى الإدارات المحلية.

وقد أبرق أيضاً رئيس الوزارة ميللر إلى فيصل بالمعنى نفسه[1]. وعلى أثر هذه البرقيات ثارت الخواطر في سورية واتهم **رضا الركابي** بإتباع سياسة تميل إلى القول بالانتداب واضطر الملك فيصل إلى إعفائه من الوزارة وإلى تعيين **هاشم الأتاسي** رئيس المؤتمر السوري بدلاً عنه مع إدخال بعض العناصر الوطنية في الوزارة أمثال **الدكتور شهبندر ويوسف العظمة**[2]. وفي ٥/١٣ أجاب فيصل على برقيات **اللنبي وميلكيران** فرفض الاعتراف بمقررات **سان ريمو** إجمالاً. كما رفض فصل فلسطين عن سورية[3].

وعمد الفرنسيون إلى إثارة الرأي العام بين مختلف الطوائف في سورية ولبنان، كما بدأت الثورات الوطنية بالاشتعال ضد الاحتلال الفرنسي في المناطق الجنوبية **(لبنان)** والغربية **(الساحل السوري)**. كما سَلَّح الفرنسيون أقواماً من المسيحيين لمجابهة القوات الوطنية. فثارت ثائرة الملك فيصل وطلب من رئيس الوزارة البريطانية **لويد جورج** أن يتدخل مع الفرنسيين لإيقاف هذه العمليات. ولما وقعت الهدنة بين الفرنسيين والأتراك في كيليكية في ١٩٢٠/٥/٣٠ خلا الجو للفرنسيين لحشد قواتهم ضد المنطقة الشمالية من سورية أي ضد حكومة فيصل وتشكل هذه الهدنة منعطفاً خطراً في تاريخ العلاقات حتى يوم ميسلون.

---

(١) راجع سليمان موسى «الحركة العربية» ص ٥٥٢.

(٢) راجع أحمد قدري «مذكراتي» المذكور سابقاً ص ٢٠٣ – ٢٠٥.
ويوسف الحكيم في كتابه سورية والعهد الفيصلي ص ١٥٦ – ١٥٧ وأمين سعيد: المجلد الثاني. الجزء الأول.

(٣) راجع الوثائق البريطانية: برقية اللنبي إلى كرزون في المجلد ١٣ ص ٢٥٧ – ٢٥٨ وراجع أمين سعيد المجلد الثاني (١) ص ١٤٤ – ١٤٥.

كانت قرارات سان ريمو بمثابة إطلاق يد فرنسا في سورية، وشرع الجنرال غورو بعد تلقي الإمدادات اللازمة يستعد للزحف على دمشق. وقرر فيصل السفر إلى أوروبا ولكنه آثر أن يحصل على ضمان من إنكلترا بعدم حصول تغيير في الوضع العسكري أثناء غيابه ولكنه لم يحصل على ما يرغب به بل لم يجد تشجيعاً على القدوم. وفي ١٤ تموز يوم عيد الحرية في فرنسا **تلقى فيصل إنذار غورو الشهير** الذي كان بمثابة طلب استسلام كامل[١] وكان **غورو** قد صاغ هذا الإنذار على نحو اعتقد أنه لم يترك فيه مجالاً ليقبله فيصل، ولهذا فوجئ حين وصله أشعار فيصل بقبول الشروط الواردة في إنذاره ولكن القوات الفرنسية كانت في طريقها إلى دمشق. فادعى غورو أن القبول وصل متأخراً ولم يطرأ أي تغيير على حركة القوات الزاحفة التي شعرت بأنها تقوم بنزهة عسكرية **بعد أن قام فيصل بتسريح الجيش السوري ولم تؤثر على حركتها مقاومة جمهرة صغيرة من الجيش النظامي وبضع مئات من المتطوعين فكانت معركة ميسلون في ٢٤ تموز مجزرة أكثر منها معركة وفي ٢٥ تموز دخلت القوات الفرنسية دمشق** لتغادرها بعد ربع قرن من الصراع البطولي الذي خاضه الشعب العربي في سورية ضد الغزاة.

وكان الملك فيصل قد ترك دمشق في ١٩٢٠/٧/٢٤ إلى الكسوة مع أخيه الأمير زيد وعدد من وزرائه آملاً أن يتوصل إلى اتفاق مع الفرنسيين في آخر لحظة ولذا عين رئيساً جديداً للوزارة السيد علاء الدين الدروبي وفوض نوري السعيد بالتفاوض مع الفرنسيين. وكانوا قد أبلغوه رسمياً

---

(١) ١ – وضع سكة حديد رياق حلب تحت تصرف الجيش الفرنسي (أي السيطرة على حمص وحماه وحلب). ٢ – قبول الانتداب الفرنسي. ٣ – إلغاء التجنيد الإجباري وتسريح المجندين. ٤ – قبول الأوراق النقدية التي أصدرها البنك السوري. ٥ – معاقبة المجرمين (أي زعماء المقاومة ضد الفرنسيين) الذين استرسلوا في معاداة فرنسا.

بوجوب مغادرة العاصمة إلى الحجاز فاضطر إلى النزول عند إرادتهم[١] ولما وصل الملك مع حاشيته إلى درعا حاول أن يضمن ثورة الحوارنة ضد الفرنسيين كآخر ورقة يلعبها ضدهم. فسارع الفرنسيون بالإيعاز إلى رئيس الوزراء علاء الدروبي بإبلاغه برقياً بمغادرة البلاد وإلا قصفت الطائرات الفرنسية المدينة. وهكذا غادر فيصل سورية إلى حيفا في ٧/٢٩. وقد بقي هناك حتى ١٩٢٠/٨/١٨م حيث غادرها إلى مصر ومنها بحراً إلى إيطاليا[٢]. وقد حاول الإنكليز إقناع فيصل بالسفر إلى الحجاز فرفض وأصر على التوجه إلى أوروبا مدعياً المرض[٣]. **وقد وجه فيصل من منفاه في إيطاليا رسالة انتقد فيها انتقاداً مراً السياسة البريطانية والفرنسية حيال حكمه في سورية**[٤]. ومكث فيصل في إيطاليا في مدينة **كومو** إلى أن تلقى دعوة من الحكومة البريطانية لزيارة لندن والاجتماع بالملك جورج في ١٣ تشرين الثاني ١٩٢٠م. وهكذا بدأت صفحة جديدة من حياة الملك فيصل ستقوده إلى تولي عرش العراق تحت الانتداب البريطاني.

حادي عشر - فيصل ملكاً على العراق:

بدا وضع الجيوش البريطانية في العراق أغرب من وضعها في بلاد الشام. فقد اعتبرت البلاد «أرضاً للعدو» يسكنها أصدقاء. وأكدت الإدارة

---

(١) راجع ساطع الحصري ميسلون ص ٣١٥ – ٣١٦.

(٢) وقد ذكرت خيرية قاسمية على لسان إحسان الجابري أن المندوب السامي البريطاني في فلسطين طلب من فيصل وهو في اللد في طريقه إلى مصر أن يتنازل خطياً عن منطقة شرقي الأردن للسلطات البريطانية (راجع كتاب الحكومة العربية في دمشق – ص ٢١٠ حاشية ٢).

(٣) راجع سليمان موسى «تأسيس الإمارة الأردنية» عمان ١٩٧١، ص ١٣ – ١٤.

(٤) راجع روسي «الوثائق» ص ١٠٠ – ١٠١ راجع أيضاً حمادة وظبيان: «فيصل بن الحسين من المهد إلى اللحد» ج١ دمشق ١٩٣٣ – ص ١١٥ وما بعدها.

البريطانية للسكان أنها لا تنوي «معاملتهم كأعداء طالما حافظوا على حيادهم ومظهرهم الودي وامتنعوا عن حمل السلاح ضد جنودنا» وأنهم «سوف يتمتعون بمنافع الحرية والعدل من جهة شؤونهم الدينية والدنيوية». وأكدت بريطانيا لسكان العراق رغبتها بأن «تحرر العرب من ظلم الأتراك وتساعدهم على التقدم وازدياد الازدهار والتجارة»(١) .

وفرضت الحكومة البريطانية تغييراً جوهرياً على السياسة الرسمية في العراق، فقد أجبر القائد العام الجنرال مود على توجيه نداء إلى سكان بغداد (١٩/٣/١٩١٧م) جاء فيه:

«**لقد طرد العرب من الحجاز الترك والألمان**، ونادوا بعظمة الشريف حسين ملكاً عليهم، وعظمته يحكم بالاستقلال والحرية وهو متحالف مع الأمم التي تحارب دولتي تركيا وألمانيا.. وتصمم بريطانيا... أن لا يذهب ما قاساه العرب الشرفاء هباءً منثوراً.. وأن تسمو الأمة العربية مرة أخرى عظمة وصيتا وإن تسعى كتلة واحدة وراء هذه الغاية بالاتحاد والوئام».

ولم يكن الجنرال مود راضياً عن هذا البيان واعتبره مثيراً «في غير الوقت المناسب» لآمال العرب وطموحاتهم «وفي وقت يجب أن تبقى فيه سلطة الجيش البريطاني في الأراضي المحتلة سائدة وغير منازع فيها».

ولكن الإدارة البريطانية خرقت كل الأعراف والقوانين الدولية ولم تتقيد بالوعود والبلاغات. فهي لم تحكم البلاد حسب نصوص اتفاقيتي لاهاي مما يوجب على دولة الاحتلال اتخاذ «جميع التدابير لإعادة الأمن إلى نصابه وتأمين حالة السلم على قدر استطاعتها بشرط أن تحترم القوانين المعمول بها

---

(١) راجع بيان الجنرال مود إلى أهالي بغداد بعد احتلال عاصمة العباسيين: عبد الرحمن البزاز «العراق من الاحتلال حتى الاستقلال» الطبعة ٣ بغداد ١٩٦٧ – ص ٧٥ – ٧٧. وراجع أيضاً فيليب أيرلاند: «العراق» لندن ١٩٣٧ – ص ٨١. أما النص الكامل لبيان الجنرال مود فنجده في أيتوري روسي: «الوثائق...» ص ٦١ – ٦٣.

في البلاد». فقد تنكرت الإدارة العسكرية «للقوانين المعمول بها في البلاد» وأدخلت القوانين والأنظمة الهندية. وجيء للمنطقة بضباط وأفراد شرطة ليحلوا محل الشرطة العثمانية. وأسست محاكم على الطراز [البريطاني – الهندي] لتطبيق القوانين الهندية، واختفى القانون المدني التركي وقوانين الجزاء والإثبات وأصول المحاكمات. وهكذا لم تتصرف بريطانيا في العراق تصرف دولة احتلال بل اعتبرت العراق امتداداً لمستعمرة الهند. ولكنها لم تعامل سكان العراق كرعايا بريطانيين أو هنود، بل اعتبرتهم أصدقاء يسكنون أرضاً معادية، ثم طبقت عليهم أقسى قوانين السخرة والمصادرة والاحتكار(١).

وفوجئ المسؤولون البريطانيون في العراق بأنباء ثورة الشريف الحسين بن علي. فقد عملت الإدارة البريطانية من قبل على مطالبة العرب بالوقوف على الحياد الموالي لبريطانيا، ولم ترحب بقيام ثورة عربية على الأتراك. وعندما قام عرب كربلاء والنجف بثورتهم على الأتراك في أواخر سنة ١٩١٥ وأوائل سنة ١٩١٦ تركتهم القيادة البريطانية لمصيرهم دون أن تحاول استغلال هذه الثورة ومساعدتها(٢). واعتقد الإنجليز أن تدخل العرب في القتال إلى جانب القوات البريطانية يعقد التسوية النهائية مع العدو. كما اعتبرت الإدارة الهندية ابن سعود زعيم العرب الأصلي الذي قام بالدور المطلوب منه خلال الحرب وهو تجميد نشاطه ومنع إيصال المساعدات إلى الأتراك. **ولم تحاول القيادة البريطانية الاستفادة من العدد الكبير من الأسرى العرب الذين وقعوا بيدها لتطويعهم في الجيش العراقي** الذي تركته مؤلفاً من الهنود والإنكليز فقط بل أرسلتهم إلى فيصل لينضموا إلى الجيش العربي في

---

(١) عبد الرحمن البزاز – المرجع السابق: ص ٧٩ – ٨٨: الحكم المباشر البريطاني في العراق.

(٢) عبد الله فهد النفيسي: «دور الشيعة في تطوير العراق السياسي الحديث» بيروت. دار النهار للنشر – ١٩٧٣م – ص ٨٥ وما بعدها.

الحجاز، بينما كان الضباط العراقيون الذين اطلقت بريطانيا سراحهم يشكلون الدعامة الأولى للقوة العسكرية النظامية التي قادها **فيصل**.

وبلغ من وقاحة الحاكم العام أن أكد لحكومته «بكل ثقة» أن البلاد «لا ترغب في خطط الاستقلال الكاسحة المنوه عنها». وعاد الحاكم البريطاني عام ١٩١٨م ليؤكد من جديد: «**قد تمكنا باحتلال ما بين النهرين من أن ندق إسفيناً في العالم الإسلامي، وبذا حلنا دون تجمع المسلمين ضدنا في الشرق الأوسط. ويجب.. أن نحافظ على (هذا) الإسفين**. وأن لا تندمج (العراق) سياسياً في سائر بلاد العالم العربي أو العالم الإسلامي بل تبقى منعزلة بقدر المستطاع لتصبح مثلاً للبلاد الأخرى...»[1].

وكان القرار الذي اتخذه المؤتمر العراقي في دمشق في ٨ آذار ١٩٢٠م حول استقلال العراق ووحدته مع سورية، ومبايعة الأمير عبد الله ملكاً عليه ضربة قاسية للسياسة البريطانية، فجاء رد وزير الخارجية البريطانية كرزون قاطعاً بالنفي إذ قال في برقية أرسلها إلى الملك حسين وإلى ابنه الأمير عبد الله «أن الحكومة البريطانية لا تعتبر العراقيين التسعة والعشرين الذين اجتمعوا في دمشق ممثلين عن العراق. إن مؤتمر السلم وحده هو الذي سيقرر مستقبل العراق بعد الرجوع إلى رغبات الأهالي[2]، ونتيجة لهذا الموقف كان لابد أن تصطدم مصالح بريطانيا مع مصالح الشعب العراقي. **ومما زاد من خطورة الموقف القرارات التي اتخذت في مؤتمر سان ريمو (١٨ – ١٩٢٠/٤/٢٥) حول الانتداب على العراق ولاسيما بخصوص نفط منطقة الموصل**. إذ جاءت هذه القرارات تدعيماً دولياً للاتفاقات السرية التي أبرمت خلال الحرب بين الدولتين الاستعماريتين:

---

(١) راجع بير روسي «عراق الثورات» باريس ١٩٦٢ – ص ٨٧.

(٢) راجع «الوثائق البريطانية» المجلد ١٣ – ص ٢٣٩. برقية كرزون إلى اللنبي رقم ٢٩٢ في أول نيسان ١٩٢٠.

فرنسا وبريطانيا العظمى. وكان نظام الانتداب هذا شكلاً جديداً من الاستعمار القديم وبديلاً عنه. وقد شعر سكان العراق بخطورة هذه القرارات على مستقبل بلادهم السياسي والاقتصادي وبدأوا بالاستعداد لمعارك الاستقلال الوطني.

وتمّ التقارب بين مختلف الطوائف في العراق ولاسيما في بغداد وكربلاء ونجف والموصل. لأن الجميع قد أيقنوا أن الإنكليز لم يأتوا إلى العراق إلاّ ليبقوا فيها وليس لتحرير البلاد من الظلم التركي. وقد شعر البريطانيون بما يتهيأ من طريق المعارضة لاحتلالهم فقرروا منذ الثالث من أيار ١٩٢٠م حالة الطوارئ في بغداد. ولكن هذا التدبير لم يثن عزيمة المقاومة. بينما طلب محمد جعفر أبو تمام من رجال قبائله في منطقة **الفرات الوسطى** أن يتهيأوا للجهاد أو للمقاومة، أصدر المجتهد الأكبر منذ مطلع آذار ١٩٢٠م – **فتوى لأهل الشيعة بتحريم قبول أي وظيفة حكومية في الإدارة البريطانية ثم انتخبت لجنة مشتركة سنية – شيعية** للاتصال بالحاكم المدني البريطاني **ويلسون** وتقديم عريضة تطالب بتشكيل مجلس وطني ينتخب حسب قانون الانتخاب العثماني ويكون له السلطة التشريعية الكاملة، والصلاحيات بتشكيل حكومة وطنية حسب البلاغ الإنكليزي – الفرنسي المعروف(١). **وقد أثرت حالة الهيجان والاضطراب في سورية على الوضع في العراق لاسيما بعد أن عزم بعض الضباط العراقيين الموجودين في سورية نقل المعركة إلى أراضي العراق.** فقام جميل المدفعي مع جماعة من رجاله ومن قبيلة شمر باحتلال بلدة تل عفر الواقعة على مسافة ٤ أميال غربي الموصل في ١٩٢٠/٦/٣. فقتل الضابط السياسي مع ملازم أول وغيرهما من الضباط والجنود البريطانيين، ولما سارعت السلطات العسكرية بإرسال النجدة نصب

---

(١) راجع وثـــائق وزارة الخارجيـــة البريطانيـــة: F.O. 371/5071 و F.O.371/5228 و F.O.371/5227.

لها الكمين وقتل منها ضابطان وأربعة عشر جندياً بريطانيا ثم أرسلت قوة عسكرية جديدة من الموصل احتلت بلدة تل عفر وطردت جميع سكانها وجلهم من الأبرياء. وشكلت هذه الحادثة بادرة خطيرة للثورة التي ما لبثت أن اندلعت في جميع مقاطعات العراق[١].

فبدأت الثورة في العراق بحادثة الرّميثة التي تعتبر فاتحة الجهاد العراقي ضد الاستعمار البريطاني بتاريخ ١٩٢٠/٦/٢٩، إذ قام فريق من قبيلة الطوالم بالهجوم على سرايا الحكومة في الرميثة وأطلقوا سراح شيخهم شعلان أبي الجون المعتقل هناك. وفي الوقت ذاته قامت عشائر أخرى في **السماوة** وحاصرت الحامية البريطانية وقلعت الخطوط الحديدة المؤدية إليها فجرت معارك كبيرة بين رجال العشائر والقوات البريطانية والهندية التي أتت للنجدة ووقعت اشتباكات كثيرة في التعينة المعروفة **بالعارضيات** التي تقع على بعد ٦ أميال من **الرميثة**. وقد كان لهذه المعارك صدى كبير في العراق وفي مجلس العموم البريطاني، فقامت قبائل الشيعة في لواء الملتقق جنوبي العراق وأعلنت الجهاد المقدس. وطبعت منشورات معادية للإنكليز في مطبعة كربلاء.

وقد جاء في أحد هذه المنشورات رد عنيف على ما كان صرح به لويد جورج من أن حملة فلسطين كانت آخر حملة صليبية وأعظمها شأناً. أما في بغداد فاتبعت الثورة أسلوباً آخر في مناهضة الاستعمار البريطاني

---

(١) راجع أ. ت. ويلسون «بلاد ما بين النهرين» (١٩١٧ – ١٩٢٠). لندن ١٩٣٠ – ص ٢٧٣ – ٢٧٤. ثم راجع فيليب. و. إيرلاند: «العــراق» لنــدن ١٩٣٧ – ص ٢٥٨ – ٢٥٩. وراجع أيضاً في هذا السبيل: «الوثائق البريطانية»: F.O.371/5129، وراجــع أيضاً من الدراسات العربية: عبد الله فهد النفيسي: «دور الشيعة في تطــور العــراق السياسي الحديث». المذكور سابقاً ص ١٣٢ – ١٣٣ وخيريــة قاســمية: «الحكومــة العربية في دمشق» ص ١٨٧ – ١٨٩ مع الحواشي.

وركزت على الناحية الحقوقية الدولية. إذ طالبت بتحرير العراق من السيطرة الأجنبية طبقاً لحقوق الشعب في تقرير مصيره. وأخيراً في الموصل، كانت خسائر الجيش البريطاني كبيرة مما اضطر القيادة البريطانية إلى تقديم توصية بالانسحاب من ولاية الموصل[١] وتتابعت الأعمال العدائية ضد القوات البريطانية في العراق الجنوبي من جبهة الشامية، **فحوصرت أبو صخير في ١٣ تموز** وتم احتلال **الكوفة** بعدئذ بينما قامت دعوة واسعة لإثارة القبائل المحيطة بالحلة وكانت هذه الأعمال قائمة بينما كانت الحالة في **سورية مضطربة خلال الأزمة بين فيصل والجنرال غورو** (من منتصف تموز حتى احتلال دمشق في ٢٥ تموز ١٩٢٠م**)** ولم تقتصر الثورة على مناطق الفرات ومع أن الفرات الأوسط شكل أعظم ميادين الجهاد ضد الإنكليز فقامت أعمال ثورة كذلك في بغداد والكاظمية والنجف وكربلاء. كما جرت حوادث دامية أخرى في قضاء الفالوجة وحوصرت السامراء وثارت القبائل الكردية في الشمال واحتلت السعدية وخانقين. كما قامت حكومة مؤقتة في مندلي[٢]. واستمرت هذه الثورة خلال شهري تموز وآب اضطراب خلالها القوات البريطانية إلى التجمع في مناطق معينة كي تتهيأ فيها للهجوم وإعادة الأوضاع إلى ما كانت عليه.

وفي أواخر شهر أيلول استطاعت القوات البريطانية القضاء تدريجياً على الثورة فاستعادت المدن. وهدأت الخواطر في الألوية، وفي أواخر شهر تشرين الثاني ١٩٢٠م كانت الأمور قد عادت إلى نصابها واستتب النظام والأمن حسبما يشتهي البريطانيون.

---

(١) راجع ويلسون المرجع المذكور سابقاً ص ٢٧٧ – ٢٧٩. عبد الرحمن البزاز «العراق» المذكور سابقاً ص ١٠٢. عبد الله فهد النفسي المذكور سابقاً ص ١٣٥ – ١٤٠.

(٢) عبد الرحمن البزاز: «العراق» صفحة ١٠٣ – ١٠٥.

ويرجع الفضل في ذلك إلى الطريقة السياسية الجديدة التي اتبعتها الحكومة البريطانية ابتداء من أول شهر تشرين الأول إذ عُين السير بيرس كوكس مندوباً سامياً على العراق مزوداً بصلاحيات واسعة لانتهاج سياسة حكم غير مباشر على العراق. **وهنا يبدأ الملك فيصل بلعب الدور الأساسي في تاريخ العراق** الحديث، بعد أن كلف بإقامة حكم عربي ملكي تحت الانتداب البريطاني.

ففي ١١/١١/١٩٢٠م عين نقيب الأشراف في بغداد عبد الرحمن الكيلاني لتولي رئاسة أول حكومة عراقية وطنية تحت الإشراف البريطاني. وقامت هذه الحكومة المؤقتة **بإصلاحات إدارية منها:** تقسيم العراق إلى وحدات إدارية (محافظات وأقضية ونواحٍ) وشكلت بلديات بإشراف الحكام الإداريين. وفصل القضاء عن السلطة التنفيذية. وعين موظف عراقي لكل وحدة أدارية وإلى جانبه مستشار بريطاني. وكان **النقيب الكيلاني** معروفاً باعتداله السياسي وبمرونته الإدارية[١].

وقامت الحكومة بإصلاحات أخرى حاولت بها إعادة النظام والحياة الدستورية إلى البلاد وقد عبر المندوب السامي عن **مهمات الحكومة الأساسية منها:** إصدار قانون انتخابات، وإنشاء مجلس وطني يمثل الشعب بانتخابات حرة. كل هذا بغية إنشاء حكومة عربية دائمة. كانت هذه المهمات جميعاً غايتها تهيئة الظروف لإعلان الملكية وانتخاب فيصلاً ملكاً على العراق.

ولما دعي فيصلاً لزيارة لندن طرحت قضية الإدارة العربية في العراق كما طرحت قضية مستقبل شرقي الأردن. وكان فيصل خلال إقامته في إيطاليا. قد استفاد من خبراته السياسية السابقة في التعامل مع الإنكليز وبالتوصل إلى صورة عملية للتعامل السياسي معهم: منها الابتعاد عن العزلة

---

(١) العماد مصطفى طلاس، الثورة العربية الكبرى، مرجع سابق ص ٥٨٦.

والسلبية واتخاذ جميع الأساليب الممكنة لأخذ المطاليب الأساسية والمطالبة بما هو ممكن.

وبدأت المفاوضات بينه وبين ممثلي وزارة الخارجية البريطانية في ١٩٢٠/١٢/٢٣[١]. وفي جلسة ٦ كانون الثاني ١٩٢١م طرحت قضية العراق. وكانت هناك صعوبة أساسية تتصل بشخص شقيقه الأمير عبد الله الذي كان المؤتمر العراقي في دمشق قد بايعه بهذا العرش كما ذكرنا سابقاً، وكان موقف فيصل غاية في الوضوح والاعتدال والمرونة إذ قال للمسؤولين البريطانيين: أنه لا يذهب إلى العراق إلا إذا رغب الناس به، ورفضت الحكومة البريطانية أي تعامل مع **أخيه عبد الله** لأنه يعمل من أجل القضية العربية مع توثيق الصلات مع بريطانيا. وكان اللواء نوري السعيد قد سبق فيصلاً إلى العراق وعين رئيساً للأركان والشرطة تحت الإشراف البريطاني. **فأنشأ حال وصوله** في ١٩٢١/١/٦م **النواة الأولى للجيش العراقي.**

ومما جعل **فيصل** يقبل عرش العراق تحت ظل الانتداب البريطاني الصورة الواقعية التي توصل إليها خلال مباحثاته مع المسؤولين البريطانيين فقد كتب رسالة إلى أخيه زيد في ١٩٢١/١/٢٥م يطلعه فيها: «على أنه قد تم بينه وبين الإنكليز اتفاق على إنشاء حكومتين عربيتين في العراق والأردن. لأن السياسة في نظره هي أولاً وآخراً منافع مشتركة ولذا فقد رضي ذلك اليوم بعرش العراق تحت ظل الانتداب البريطاني بينما رفض سابقاً عرش سورية مع الانتداب الفرنسي. **وقال لأخيه حرفياً:** «فالعقل يقضي علينا أن نأخذ اليوم ما يمكننا أخذه...»[٢].

---

(١) راجع وثائق وزارة الخارجية البريطانية F.O.371/6238. وراجع أيضاً كتاب سليمان موسى: «صفحات مطوية. مفاوضات المعاهدة بين الشريف حسين وبريطانيا ١٩٢٠ – ١٩٢٤». عمان ١٩٧٧ ص ٣٤ – ٣٥.

(٢) المرجع السابق ص ٤١.

ولما عيّن تشرشل وزيراً للمستعمرات في منتصف شهر شباط ١٩٢١م أوكل إليه أمر توجيه السياسة البريطانية في الشرق الأوسط بعدما كانت تتأرجح بين دائرتي وزارة الخارجية ووزارة الهند فأنشأ في وزارته دائرة الشرق الأوسط وهيأ لمؤتمر القاهرة السبيل لتسوية قضايا العراق والعالم العربي الواقع تحت السيطرة الإنكليزية.، ففي ١٩٢١/٣/١٢م عقد مؤتمر القاهرة ودعي إليه كبار موظفي العراق البريطانيين. فحلت قضية العراق على أساس اختيار حاكم له يعالج القضايا الأساسية فيعطى للعراقيين قدراً كبيراً من الحكم الذاتي ويأخذ على عاتقهم مسؤولية الحكم وتقرر فيه تعيين فيصل حاكماً عربياً للعراق. ومما جاء في رسالة بعث بها تشرشل إلى رئيس الوزارة **لويد جورج**: إذ أن أفضل ما يمكن تتويجه ملكاً على العراق هو الأمير فيصل. ولست أشك شخصياً في أن اختيار فيصل سيوفر لنا أحسن الفرص لتخفيض نفقاتنا في العراق لأن الوضع في العراق شديد التعقيد ولاسيما من جهة عدد الذين يطالبون بالعرش... ومن بين أبناء الشريف حسين فنحن متفقون على أن الأمير فيصل يفوقهم...»[١].

وهكذا أصبح فيصل من أقوى المرشحين للعرش العراقي[٢]. فوصل فيصل إلى العراق من جدة في ١٩٢١/٦/٢٣م حيث نزل في البصرة وفي ٥ تموز أصدر المندوب السامي بلاغاً إلى العراقيين يشرح فيه سياسية بريطانيا العتيدة في العراق وبين أيضاً الأسباب التي من أجلها فضلت الحكومة البريطانية فيصلاً على بقية المرشحين.

وفي ١٩٢١/٧/١١م قررت الحكومة المؤقتة بالإجماع المناداة بفيصل ملكاً دستورياً على العراق. ولكن فيصل والمندوب السامي رغبا أن يتم

---

(١) راجع الوثائق البريطانية. F.O.371/6350.

(٢) راجع آيرلاند «العراق» المذكور سابقاً – ص ٣٠٢ – ٣١١. «والبزاز» ص ١٢١ – ١٢٣.

تصديق هذا القرار باستفتاء شعبي. وجرى التصويت فنال فيصل ٩٦% من الأصوات وتقرر تنصيبه ملكاً على العراق في ٢٣ آب ١٩٢١م يوم ذكرى الغدير. وقد شدد الملك فيصل في خطاب التتويج على أن مهمته الرئيسة هي إجراء الانتخابات والدعوة إلى انعقاد المجلس التأسيسي».

ثاني عشر - تأسيس إمارة شرقي الأردن:

تساءلت السياسة البريطانية عن مصير سورية الجنوبية الواقعة جنوبي بلدة درعا، ولم تمضِ سوى أيام معدودات على مغادرة فيصل لدمشق ودرعا، فقد أرسل المندوب السامي البريطاني في فلسطين **هربرت صموئيل الصهيوني** رسالة في ٣٠ تموز عام ١٩٢٠م إلى وزير الخارجية في لندن **اللورد كرزون** يسأله فيها عن مستقبل إدارة البلاد الواقعة شرقي نهر الأردن، وجنوبي المنطقة الفرنسية، وعن مصير بلدة درعا بالذات. فجاءه الجواب عاجلاً في ٦ آب حيث أبلغته الوزارة أن منطقة النفوذ البريطاني تتوقف عند مدينة درعا، ولكن ينبغي منع الفرنسيين من توسيع نفوذهم إلى الجنوب مر هذه المدينة لأن هناك احتمالاً باحتلال المدن الواقعة في هذه المنطقة الجنوبية. ولكن سوف لا تسمح الإدارة البريطانية للفرنسيين بممارسة سلطاتهم جنوبي الخط الفاصل بين منطقتي نفوذهم ومنطقة النفوذ البريطاني حسب اتفاقية سايكس بيكو.

ثم تطرقت البرقية إلى نقطتين هما أساس السياسة البريطانية في شرقي الأردن، **أولاً:** استقلال هذه المنطقة مع الحفاظ على صبغتها العربية وتعيين أحد أبناء الملك حسين عليها. وكانت النية تتجه آنذاك إلى تعيين الأمير زيد[١].

---

(١) سليمان موسى «تأسيس الإمارة الأردنية ١٩٢١ - ١٩٢٥». عمان ١٩٧١ ص ١٦ - ١٧.

ثانياً: وعندما وصل فيصل إلى حيفا ومكث فيها من أول آب حتى ١٨ منه جاءته وفود كثيرة من منطقة شرقي الأردن وطلبت منه أن يقبل أن يكون أميراً على الأردن رغم معارضة السلطات البريطانية لهذا الاتجاه. وكان رأي المندوب السامي البريطاني بالاتفاق مع الوزارة أن يسافر فيصل إلى عمان ومنها إلى المدينة المنورة كما ذكرنا سابقاً، ولكنه رفض هذا الاقتراح وعزم على التوجه إلى إيطاليا. وكان جواب الوزارة البريطانية بالسماح له. وأبلغ فيصل (أن حكومة بريطانيا تأمل أن تحين لها الفرصة في المستقبل كي تظهر له ودها ووفاءها لما قام به من حسن التعاون معها في الماضي).

وكانت الحكومة الفرنسية قد سعت إلى توسيع رقعة سلطتها إلى منطقة السلط وشرقي الأردن. وقد تنبهت الوزارة البريطانية إلى هذه النية بناء على معلومات وردتها في ١٩٢٠/٨/٦م من المندوب السامي البريطاني في فلسطين واعتماداً على برقيته كتبها **اللورد كرزون** إلى سفيره في فرنسا: «إن الفرنسيين لم يحتلوا القنيطرة فحسب وهي من المناطق التابعة لهم بل عينوا حكاماً **لحوران والسلط**... الخ واستدعوا جميع شيوخ الكرك للقدوم إلى دمشق... وبذلك فإنهم قد نقضوا الاتفاقية بيننا. فيجب عليك أن تلفت نظرهم في الحال إلى المسألة وتبلغهم أننا لا نستطيع الاعتراف بأية حقوق للفرنسيين في تلك المنطقة»[١].

نستنتج من هذه البرقية أن الحكومة البريطانية كانت مصممة على الاحتفاظ بهذه المنطقة وعلى إعطائها الشكل السياسي الذي تريده وقد ظلت متمسكة بهذه السياسة ورغم محاولات مندوبها السامي في فلسطين هربرت صموئيل بتوسيع رقعة الوطن القومي اليهودي إلى شرقي نهر الأردن وشمالاً إلى منابع اليرموك.

ولما وقعت فرنسا وبريطانيا معاهدة سيفر في ١٩٢٠/٨/١٠ تخلت تركيا عن حقها في المناطق العربية وخلا الجو لبريطانيا للتصرف بها في

---

(١) المرجع السابق ص ١٧.

إطار سياستها العامة. فعاد صموئيل إلى سياسته الداعية إلى احتلال شرقي الأردن وإلى دمجها بفلسطين ووضعها تحت الحكم البريطاني المباشر ولكن الوزارة البريطانية ظلت تعارض هذه الفكرة الصهيونية(١).

وعلى الرغم من هذا الموقف الرسمي حاول صموئيل أن يستميل أهالي وأعيان شرقي الأردن إلى سياسته، ولما لم يتجاوبوا معه صرح لهم بما كانت تنويه الحكومة البريطانية: أعني إنشاء إدارة منفصلة عن فلسطين غير تابعة للحكم العسكري مع وجود بعض الضباط السياسيين العرب للمشورة في الأعمال الإدارية. وعلى أثر هذا الاجتماع الذي عقد في ١٩٢٠/٨/١٦م جاء **خبر مقتل علاء الدين الدروبي وعبد الرحمن يوسف في حوران** (محطة خربة الغزالة) وتسربت أنباء تجمع الفرنسيين للزحف على المنطقة الجنوبية من سورية فعم الخوف قلوب أهالي شرقي الأردن من تشفي الفرنسيين منهم إذا دخلوا البلاد، سيما وإن الإدارة البريطانية قد وعدتهم بالإدارة المحلية الذاتية المستقلة تماماً عن إدارة فلسطين ووعدتهم خصوصاً بعدم نزع السلاح منهم وبعدم تجنيدهم في الجيش، مع تشجيع التجارة، والتلميح إلى إمكانية تنصيب أحد أبناء الملك حسين(٢). **وقد أكد وزير الخارجية البريطانية لصموئيل في ١٩٢٠/٨/٢٦ عزم الحكومة على عدم تحمل مسؤولية إدارة شرقي الأردن بصورة مباشرة وبعدم توسيع مسؤولياتها في هذه المنطقة العربية وتابع يقول:** يجب أن تصر على الالتزام بالمساعدة المحدودة جداً التي تستطيع تقديمها إلى الإدارة المحلية في شرقي الأردن(٣). وفي هذه

---

(١) راجع برقية اللورد كرزون إلى هربرت صموئيل في ١٩٢٠/٨/١١ رقم ٨٠ في المرجع السابق ص ٢٠ – ٢٣.

(٢) راجع محضر الاجتماع الذي جرى في مدينة السلط يوم ١٩٢٠/٨/٢١ في المصدر السابق ص ٢٨ – ٣٠.

(٣) راجع المصدر السابق. البرقية رقم ١١٠ ص ٣٠ – ٣١.

الأثناء أعلن الجنرال **غورو** إنشاء دولة لبنان الكبير في أول أيلول ١٩٢٠م وكانت هذه نقطة تحول في السياسة الفرنسية حيال سورية الغربية الساحلية.

وفي اليوم التالي أي في ٢/٩/ اجتمع رؤساء القبائل في منطقة عجلون مع الميجر سمرسيت في بلدة أم القيس وقدموا مطاليبهم الأساسية بمذكرة خطية أجابهم عليها المسؤول البريطاني خطياً. ومن أهم ما جاء في مذكرة الزعماء العرب: المطالبة بتأليف حكومة عربية وطنية مستقلة تضم **لواء الكرك ولواء السلط، وقضاء عجلون وقضاء جرش** (مع الإلحاح على ضم حوران وقضاء القنيطرة وذلك تحت انتداب بريطانيا العظمى **وتبعاً لشروط معينة:** أن يترأس هذه الحكومة أمير عربي وأن لا تكون لها صلة أو علاقة بحكومة فلسطين وأن تمنع الهجرة اليهودية تماماً إلى أراضيها، وأن يمنع بيع أراضيها لليهود. وأن يكون لها جيش وطني خاص. وأن تحافظ على إيواء السياسيين السوريين اللاجئين إليها. وأن يكون شعارها العلم السوري في عهد حكومة فيصل، وأن تمدها بريطانيا بالسلاح، وأن تتعهد بريطانيا بالدفاع عنها إذا حاول الفرنسيون الاعتداء على أراضيها، وأن يكون لها معتمدون في الخارج وأخيراً، أن تكون بريطانيا منتدبة على عموم سورية تأميناً للوحدة، **فأجاب الميجر البريطاني بالموافقة** على بعض هذه **الشروط منها:** تأليف حكومة عربية مستقلة تحت الانتداب البريطاني ومنع الهجرة اليهودية واستعداد بريطانيا لتقديم السلاح لقاء ثمن. أما فيما يتعلق ببقية الشروط فقد أوعز إليهم بمراجعة المندوب السامي في فلسطين[١] تألفت حكومات محلية في شرقي الأردن وفي عجلون ومركزها أربد، وفي السلط والكرك.

واستعانت هذه الحكومات المحلية بمستشارين بريطانيين وفي أثناء هذه التطورات المحلية كانت الحكومة البريطانية تلح على الملك حسين

---

(١) راجع النص الكامل لهذه الوثيقة الهامة في كتاب سليمان موسى: «تاريخ الأردن في القرن العشرين». عمان ١٩٥٩ ص ١٠٦ – ١٠٩ وراجع أيضاً: أيتوري روسي «الوثائق» ص ١٠١ – ١٠٢ السابق الذكر.

للموافقة على المعاهدات الدولية المتعلقة بالبلاد العربية. وكان رفضه حاسماً رغم حجب كافة المعونات المالية عنه. وبلغت الحالة من السوء بحيث كتب المعتمد البريطاني في جدة إلى حكومته في ١٩٢٠/٩/١٤ «يجب أن أحذركم أن الملك يتباعد عن الخط المعقول أكثر فأكثر وهو يزداد خروجاً عن حدود الإمكان يومياً. فهل هناك أي احتمال لتوجيه الدعوة إليه كي يتنازل عن الملك؟»(١).

وكانت اضطرابات سورية قد وصلت إلى أوجها فكتب عدد كبير من الوطنيين إلى الملك حسين يطلبون إليه إيفاد أحد أنجاله كي يتزعم هذه الحركة الوطنية الخارجة في مقاومة الفرنسيين وفي مقدمة هؤلاء عودة أبو تايه الشهير والأمير عادل أرسلان، وسعيد خير. وفي الخامس عشر من أيلول أنبأ الملك حسين **الجنرال اللنبي** بهذه الرسائل وما وصلت إليه الحركة الوطنية في سورية. أما في مكة فقد استقر رأي الملك حسين على إرسال ابنه عبد الله ليترأس حركة المقاومة. وأوعز إليه بالذهاب إلى معان (وكانت إلى ذلك الحين واقعة ضمن أراضي الحجاز). فغادر عبد الله مكة في أواخر أيلول مع حرس كبير ووصل معان في ١٩٢٠/١١/٢١م بينما كانت القوات البريطانية في العراق تتهيأ لاسترجاع مراكزها بعد الثورة العراقية الكبرى. وكانت دوائر الاستخبارات البريطانية قد علمت بنبأ قدوم الأمير الهاشمي وهو لا يزال في طريقه من مكة إلى معان وأعلمت القيادة البريطانية العسكرية في مصر وزارة الحربية البريطانية في لندن بذلك. بينما أبرق صموئيل من القدس إلى حكومته في اليوم التالي عن نبأ قدوم الأمير عبد الله لتنظيم حركة المقاومة ضد الفرنسيين.

---

(١) سليمان موسى: «صفحات مطوية. مفاوضات المعاهدة بين الشريف حسين وبريطانيا ١٩٢٠ – ١٩٢٤». عمان ١٩٧٧ ص ٢٦. حيث يعطي مرجع الوثيقة: وزارة الخارجية البريطانية F.O.882/22.

ولم تلبث وزارة الخارجية البريطانية أن هدأت روع صموئيل بإعلامه بحقيقة الأمر إذ أبرقت له قائلة: «إنها لا تعتقد أن الأمير عبد الله سيتجاوز معان والعقبة وأنه لن يعمد إلى إثارة الاضطرابات **بالنظر لزيارة فيصل المقبلة إلى لندن)** أما في الواقع فقد اهتمت كل من فرنسا وبريطانيا بهذه الحركة. لا بل احتجت الحكومة الفرنسية وحذرت لندن من عواقب هذه الحركة[١]. وكانت قد وجهت الدعوة للأمير فيصل لزيارة لندن بتاريخ ١٣/١١/١٩٢٠م. **ولما وصل الأمير عبد الله إلى معان** في ٢١/١١/١٩٢٠م استقبلته القبائل والعشائر بحماسة وتهليل ولاسيما **الشيخ عودة أبو تايه** كما جاء للالتحاق به عدد كبير من الضباط العرب الوطنيين. وقد أعلن الأمير نفسه نائباً عن أخيه فيصل ملك سورية الشرعي المنفي حالياً. كما أرسل الدعوة إلى جميع أعضاء المؤتمر السوري المنحل للالتحاق به وفي عزمه أن يتابع النضال وليؤلف حكومة سورية في المنفى، فأصدر منشوراً تاريخياً إلى أهالي سورية يعلمهم بما جاء لأجله **ويقول فيه:**

إلى إخواننا السوريين:

«لا أجد في نفسي أدنى ريب أو أقل شبهة، في أن أبناء الوطن السوري سيتلقون بياناتنا بقلوب ملؤها التصديق والإخلاص. فيعلم أبناء سورية أن ما أصابهم من الضياع المحزن، من اعتداء رجال الاستعمار الفرنسي على وطنهم ومبادرتهم بسرعة فظيعة غريبة لهدم عرشهم في أول سعيهم لتشكيل حكومتهم التي وضعت أساسها على سياسة الولاء والصداقة لكل الأمم على الإطلاق، قد أثر على حواس كل عربي على وجه الأرض. وفي الوقت نفسه نعلم علماً يقيناً أن أبناء سورية الكرام هم من جملة المفاخر العربية وركن من الجامعة القحطانية والعدنانية، لا يرضون بالذل ولا ينقادون إلى من جاء لإهانتهم في عقر دارهم، وأنهم لا يعذرون أبناء جنسهم إذا منعوا عنهم يد المعاونة والمدد في مثل هذه الآونة الخطيرة».

---

(١) راجع البرقيات في كتاب سليمان موسى: «صفحات مطوية» ص ٣٣ – ٣٤.

«كل عربي يعلم أنكم يا أبناء سورية تستنصرونه وتستثيرون حميته، ليأتيكم مسرعاً ملبياً مقبلاً غير مدبر. ومن حيث قد توالت علينا الدعوات وصمت آذاننا الصرخات، فها أنا قد أتيت مع أول من لباكم نشارككم في شرف دفاعكم، لطرد المعتدين على أوطانكم بقلوب ذات حمية وسيوف عدنانية هاشمية».

ليعلم من أراد إهانتكم وابتزاز أموالكم وإهانة علمكم واستصغار كبرائكم، أن العرب كالجسم الواحد إذا شكا منه عضو تداعت له جميع أطراف الجسد بالسهر والحمى. وأن الله سبحانه وتعالى لم يترك الأمة سدى، متفرقة بالباطل مغرورة بالكذب وواهن القول».

«ليعلم أبناء سورية أن هؤلاء المعتدين قد عدوكم من جملة من أدخلوه تحت عار استعمارهم ووضعوكم في مصاف الزنوج والبرابرة. وظنوا أنكم لستم من ذوي الغيرات وأصحاب الحميات. كيف ترضون بأن تكون العاصمة الأموية مستعمرة فرنسية؟!.. إن رضيتم بذلك فالجزيرة لا ترضى، وستأتيكم غضبى. وأن غايتنا الوحيدة هي، كما يعلم الله، نصرتكم وإجلاء المعتدين عنكم».

«وها أنا ذا أقول، ولا حرج، بأنني قد قبلت تجديد بيعة مليككم فيصل الأول عن الأكثرية الغالبة التي جددت تلك البيعة على يدي، وأنني سأعود أن أبقاني الله حياً إلى وطني يوم نزوح عدوكم عن بلادكم، وعلى هذا، اليمين بالشرف. وأمركم حينئذ لكم وبلادكم بين أيديكم، متعكم الله فيها بالعز والسؤدد والرفاهية والمجد».

«أتينا لبذل المهج دونكم، لا لتخريب البلاد كما يفترى علينا. وكفانا دليلاً صد بلائنا في الله والجنسية والوطن، وتعريض النفس للأخطار والمحن، وما وضعه عليكم ذلك المستعمر من الضمانات المثقلة إثر اعتدائه عليكم لدليل لا يحتاج إلى دليل».

«**أتاكم ذلك المستعمر ليسلبكم النعم الثلاث:** الإيمان والحرية والذكورية. أتاكم ليسترقكم فتكونوا غير أحرار. أتاكم ذلك المستعمر ليأخذ منكم أسلحتكم فتكونوا غير ذكور. أتاكم ليخيفكم بقوته وينسيكم أن الله بالمرصاد فتكونوا غير مؤمنين».

«لذا ندعوكم للحياة والاجتماع والذب عن الوطن، وعدم الإصغاء لكل دسيسة تفل من عزمكم أو تبدد حميتكم».

«وأستعين الله لي ولكم في ما نحن بصدده».

(عبد الله بن الحسين)

ولكن الاستجابة لم تكن مشجعة بما فيه الكفاية. ولم يلبث الأمير أن تبين «**أن الحركة إن لم تكن مؤيدة بالمال، فإنها لا تقوم لها قائمة**»[١] ولم يكن الأمير يملك مالاً حتى أنه اضطر أنه يقترض ثلاثة آلاف ليرة من عودة أبو تايه.

إن أنباء وصول الأمير إلى معان جعلت الفرنسيين في سورية والإنكليز في فلسطين يحسبون للأمر حسابه ويتخوفون من قيام فتن واضطرابات. ففي ٢٩ تشرين الثاني أبرق **صموئيل** ينبئ كرزون بوصول الأمير إلى معان، وفي اليوم التالي أبرق يقول أن «رسائل بالنيابة عن عبد الله أرسلت إلى حوران تدعو الأهلين إلى الثورة ضد الفرنسيين. وقد صدرت التعليمات لضباطي بأن يثنوا الناس في شرقي الأردن عن الانضمام لأية حركة من هذا النوع، ولكن بما أننا لا نملك قوات عسكرية في المنطقة فإننا لا نستطيع القيام بعمل مؤثر[٢].

وأبلغت وزارة الخارجية فيصلاً مضمون برقية صموئيل وطلبت إليه الاتصال بأبيه لإيقاف الحركة. وفي ٤ كانون الأول طلب الملك جورج من فيصل عند استقباله له أن يطلب من أبيه «توفيق كل حركة ضد فرنسا في جنوبي سورية». وعندما أبرق فيصل إلى أبيه بهذا الطلب أبلغه أيضاً أن

---

(١) الملك عبد الله بن الحسين: «الآثار الكاملة» ص ١٥٦ – ١٥٨.

(٢) البرقية رقم ٤٠١ المؤرخة ١٩٢٠/١١/٣٠ F.O.686/78.

«الوضعية حسنة جداً. قريباً أبشر جلالتكم إن شاء الله» وإن إيقاف الحركات العدائية ضد الفرنسيين «مهم جداً بالنسبة للمفاوضات التي يمكن أن أجريها مع الحكومة البريطانية»[١].

ونشر في مدن شرقي الأردن بيان يقول أن الحكومة البريطانية «سوف تشجب بكل شدة» أية حركة يقوم بها الجيش العربي ضد الفرنسيين[٢]. وكان قد سبق الأمير عبد الله إلى عمان **الشريف علي ابن الحسين الحارثي** ومعه عدد كبير من الأفراد السوريين والعراقيين ومن شيوخ المنطقة فطلب من الأهالي المشاركة في العمل والاستعداد للجهاد ومقاومة الفرنسيين وتخليص الوطن من استعمارهم وقال: «إنه جاء إلى عمان موفداً من قبل الأمير عبد الله (قائد الجيوش الثورية السورية) وإنه سيزحف إلى الشمال عندما تتم الاستعدادات الضرورية. وكان لا يخفى موالاته للبريطانيين ويصرح أنهم أصحاب الحركة الثورية[٣].

وهكذا وضعت المسألة السورية من جديد على بساط البحث لدى الرأي العام المحلي ولدى المحافل الدولية، وتجنباً لصعوبات سياسية وعسكرية تم الاتفاق بين المندوب السامي **صموئيل** وحكومته البريطانية على أن توزع نشرات في جميع مناطق شرقي الأردن تشجب هذه الحركة شجباً قاطعاً[٤]. وفي ١٩٢٠/١٢/٨م **جرت اتصالات بين الأمير عبد الله ومصطفى كمال أتاتورك بواسطة غالب بك الشعلان. وقد علمت المخابرات البريطانية**

---

(١) برقيتا فيصل إلى الحسين بتاريخ ٥ و ١٣ كانون الأول ١٩٢٠ – (أوراق الأمير زيد).

(٢) سليمان موسى: «تأسيس الإمارة الأردنية» ص ٥٨ – ٦٥ حيث نجد نص هذه الوثائق والبرقيات كاملة.

(٣) سليمان موسى في كتابه «تأسيس الإمارة الأردنية» ص ٦١ – ٦٢ وصفحات مطوية.. ص ٣٣.

(٤) البرقيات بين المندوب السامي صموئيل في ١٩٢٠/١٢/٣ وحكومته في ١٩٢٠/١٢/٧ سليمان موسى – المرجع السابق ص ٥٦.

بهذه الاتصالات وخشيت أن تكون وراء هذه الحركة خطط وتعليمات من البولشفيك[1]. **وعادت الدوائر البريطانية في لندن تحمل الأمير فيصل على الاتصال بوالده كيف يوقف أية حركة عدائية في شرقي الأردن** رغبة منها لتسهيل المفاوضات حول العراق. فرجا فيصل أباه أن يبرق للملك جورج أن الإجراءات السريعة قد اتخذت لإيقاف هذه الحركة[2] لأن الحكومة البريطانية عازمة على بذل كل ما في وسعها لتحقيق أماني العرب وأماني الملك حسين. وبناء على هذه الاتصالات فوض الحسين الأمير فيصل بإجراء المفاوضات مع البريطانيين: «**على أساس أن لا يؤثر ذلك على حدود البلاد والاستقلال التام الذي لا تشوبه شائبة**».

وعلى أثر ذلك أرسل الأمير فيصل أحد أعوانه وهو صبحي الخضرا إلى عمان يحمل توصياته لأخيه عبد الله. وبدأت المفاوضات بين الأمير فيصل والبريطانيين في لندن بتاريخ ١٩٢٠/١٢/٢٣[3].

واستمرت المفاوضات في لندن إلى حين تسلم تشرشل لوزارة المستعمرات التي أنيط بها حلّ المسائل العربية، وفي أثناء هذه المفاوضات حاول المندوب السامي **صموئيل** أن يحمل حكومته على احتلال شرقي الأردن لضمها لفلسطين وإبعاد الأمير عبد الله عنها فباءت محاولاته كلها بالإخفاق، وكان الأمير فيصل من ناحيته يلح على الوزارة البريطانية بضرورة التوصل إلى تفاهم مع أبيه وإلى تسوية القضية العربية والسورية تسوية مرضية للجانبين. وقد أتى خلال المفاوضات إلى ذكر الاتفاق بين الحلفاء والأتراك وقال: «**إن العرب الذين حاربوا في صفوف الحلفاء أحق من الأتراك في أن يصلوا إلى نتيجة تضمن حقوقهم ومصلحة الحلفاء**» وقد كتب فيصل أثناء

---

(١) راجع عبد الله بن الحسين: «الآثار الكاملة» ص ١٥٩ وسليمان موسى «تأسيس الإمارة الأردنية» ص ٦٢ - ٦٣.

(٢) راجع نص الوثائق لدى سليمان موسى: «صفحات مطوية» ص ٣١.

(٣) نص المفاوضات بكاملها، راجع سليمان موسى: «صفحات مطوية» ص ٣٤ وما بعدها مع مصادر الوثائق البريطانية.

هذه المفاوضات رسالة إلى أخيه زيد في ١٩٢١/١/١٩م يوضح فيها سياسته **فقال له:** «إنها تعتمد على عدم ترك الكل لأجل البعض وإنه يرى أنه لا بد من إتباع سياسة المراحل». وكتب مجدداً في ١٩٢١/١/٢٥م إلى أخيه زيد يعلمه فيه عن نتيجة المفاوضات **فقال:** «لقد تم الاتفاق مبدئياً بيننا وبين الإنكليز على إنشاء حكومتين عربيتين في العراق وشرقي الأردن»(١).

ولما قدم تشرشل إلى القاهرة لعقد مؤتمر القاهرة أبلغ الأمير عبد الله أنه سيكون مسروراً إذا أتيحت له الفرصة للاجتماع به في القدس وكان الملك عبد الله قد غادر معان ووصل إلى عمان في ١٩٢١/٣/٢م حيث استقبل رسمياً وشعبياً. وعندما اعترض **صموئيل** على قدومه أبرقت الوزارة موعزة له أن يرسل مندوباً عنه للترحيب بالأمير إذ **قالت له:** «**إن الأمير عبد الله يعتبر مبعوثاً من قبل الملك حسين ويمكن أن نفترض أن قدومه إلى عمان يهدف إلى إيقاف الدعاية الواسعة التي ينشرها مصطفى كمال ضد الفرنسيين**». وكانت هذه فاتحة سياسة جديدة تجاه الأمير وتجاه مصير شرقي الأردن. وعندما التأم مؤتمر القاهرة تقرر إنشاء دولة مستقلة، دولة عربية مستقلة في شرقي الأردن تستثنى من أحكام الانتداب وتصريح بلفور. **واتخذ القرار التالي:**

«**تؤلف شرقي الأردن مقاطعة عربية تابعة لفلسطين يحكمها حاكم عربي يستمد سلطته من المندوب السامي البريطاني**». وبعد أن انتهى مؤتمر القاهرة توجه تشرشل إلى القدس وأجرى محادثات مع عبد الله خلال ثلاثة أيام في ٢٨، ٢٩، ١٩٢١/٥/٣٠م وقد صحب الأمير عبد الله إلى القدس عدد كبير من الزعماء الاستقلاليين العرب منهم: **عوني عبد الهادي رئيس ديوانه، ورشيد طليع من كبار الإداريين السوريين وأحمد مريود وغالب الشعلان. وقد تمخضت المحادثات بين تشرشل وعبد الله عن الاتفاق على ما يلي:**

١- تؤسس في شرقي الأردن حكومة وطنية برئاسة الأمير عبد الله.

---

(١) سليمان موسى: «صفحات مطوية» ص ٤١.

٢- تكون هذه الحكومة مستقلة استقلالاً تاماً.

٣- تساعد بريطانيا هذه الحكومة مادياً لسد نفقات قوة عسكرية غايتها توطيد الأمن.

٤- تسترشد برأي مندوب بريطاني يقيم في عمان.

٥- يتعهد الأمير عبد الله بمنع الاعتداءات من شرقي الأردن ضد سورية وفلسطين.

٦- تنشئ بريطانيا مهبطي طائرات في عمان وزيزياء.

٧- تتوسط بريطانيا لتحسين العلاقات بين الأمير عبد الله والسلطة الفرنسية في سورية.

٨- يعتبر مشروع الاتفاق بمثابة تجربة مدتها ستة أشهر فإن كان ملائماً للطرفين استمر العمل به وإلاّ أعيد النظر فيه.

وكان الأمير عبد الله قد أعرب عن اعتقاده بأن أفضل سبيل لحل المشاكل في المنطقة هو توحيد فلسطين وشرقي الأردن تحت رئاسة عربي فرفض تشرشل ذلك لتنفيذ التزامات حكومته للصهاينة. فرأى الأمير ومرافقوه أن مبادئ الاتفاق هذه تشكل خطوة إيجابية في مصلحة العرب فوافقوا عليها، وعاد الأمير عبد الله إلى عمان، وهكذا أسست الإمارة الأردنية وكان تشرشل قد أعرب عن أمله في التوصل إلى إقناع الفرنسيين بقبول عبد الله في المستقبل أميراً على سورية. بعد أن يتأكدوا من نجاح إدارته وتعاونه معهم في شرقي الأردن.

الفَصْلُ الثَّالِث

الثورات الوطنية في

الشام في عهد الانتداب الفرنسي

تمهيد:

لم تسفر الحرب العالمية الأولى، وخروج العثمانيين من الأراضي العربية عن تحقيق تطلعات الحركة العربية في الاستقلال والوحدة، وعلى الأقل ضمن الحدود التي طالب بها الشريف حسين قبل إعلان الثورة العربية. فقد وثق العرب بوعود الحلفاء وبريطانية بالذات، التي خذلتهم، تنفيذاً لاتفاقها مع فرنسة في الحرب العالمية الأولى (اتفاقية سايكس - بيكو ١٩١٦م) على تقسيم البلاد المنفصلة عن الدولة العثمانية السابقة. ولم يكن بيد الحكومة العربية التي أعلنت في دمشق في مطلع تشرين الأول ١٩١٨م، إلا القسم الداخلي من سورية، في حين كانت فلسطين تحت الإدارة العسكرية البريطانية، والساحل السوري الشمالي في ظل الإدارة العسكرية الفرنسية، وقبل العرب هذا الإجراء المؤقت إلى أن تتم التسوية النهائية في مؤتمر السلم في باريس. وكانت دمشق في هذه الأثناء «جائشة بالحركة الاستقلالية الوحدوية والرافضة كل حماية ووصاية، والمطالبة باستقلال سورية الطبيعية ضمن وحدة عربية مستقلة»، كما يصفها أحد رجالها (**محمد عزة دروزة**).

وأخفق مؤتمر السلم في تحقيق الآمال القومية العربية التي دخل العرب من أجلها الحرب، بل عمد إلى توزيع الانتداب (وهو الصيغة المقنّعة للاستعمار) على الشعوب الصغيرة (بمن فيهم العرب) مخالفاً بذلك مبدأ حق تقرير المصير. ونجحت المؤامرة البريطانية الفرنسية في اغتيال استقلال سورية في ميسلون (تموز ١٩٢٠)، حين فرض الانتدابان البريطاني والفرنسي، عملاً بمقررات سان ريمو، على أجزاء المشرق العربي، وضرب بذلك الحد الأدنى من الوحدة الذي التقى عنده أمل السوريين العاملين في سبيل الاستقلال والوحدة، وانتهى الحكم العربي في دمشق.

أولاً – بدايات الثورة المسلحة (١٩١٨– ١٩٢٠م):

منذ أن وطأت أقدام الفرنسيين الساحل السوري في خريف ١٩١٨م، إثر انتهاء الحرب، واجهوا مقاومة وطنية كبيرة لم تقتصر على اتباع الطرق السياسية، من مظاهرات ومذكرات احتجاج، بل تعدى الأمر، في عدد من المناطق الريفية إلى حركات شعبية ثورية، على اعتبار أن المقاومة المسلحة للاحتلال هي الطريقة الوحيدة والمثلى للدفاع عن الوطن، والحل الحاسم بين الشعب وقوى المستعمر. وقد تفجرت ثورتان، الأولى على طول وعرض المنطقة الساحلية من الإسكندرونة إلى طرابلس بقيادة **الشيخ صالح العلي**، وتولى قيادة الثورة الثانية **إبراهيم هنانو** في شمالي وشمال غربي سورية في مناطق جبل الزاوية وإدلب وأنطاكية. وأفهمت هاتان الثورتان المحتلين بلغة السلاح أن الشعب مصمم على المقاومة، وأنه إذا لم يستطع الثوار إجلاءهم فإنهم سيجعلون مهمة فرنسة في بسط السيطرة، وهي الشرط الأول لتوطيد الانتداب، مهمة شائكة، لم يكن من السهل على قوى الاحتلال تجاوزها، ولاقت الحركات المسلحة في المنطقتين دعم حكومة دمشق العربية. وبعد سقوطها، ظلت الثورتان مشتعلتين وحدث التنسيق بينهما، فعززتا مظاهر الوحدة والتكامل وناهضتا خطط المستعمرين، وكانت تجربة رائدة ضد

المحتل الفرنسي. وجرت معارك حامية تكبدت فيها القوات الفرنسية خسائر كبيرة، قبل أن يتم القضاء عليها في أواخر عام ١٩٢١م.

وقد تضافرت عوامل كثيرة أدت إلى اضمحلال الثورتين ومن ثم نهايتهما، بعد أن نضبت مواردهما المالية والعسكرية، واستنفدت المعارك كل طاقاتهما المحدودة. وربما كان بإمكان الثورتين أن تصمدا مدة أطول لو كانت الأوضاع العامة الداخلية والخارجية تساعد في مدهما بحد أدنى من أسباب الصمود[١].

ثانياً – تنظيم الثورات وتمويلها وتسليحها (١٩١٨-١٩٢١م):

لقد تطورت تنظيمات رجال الثورة حتى أصبحت جيشاً حقيقياً لا ينقصه التنظيم وتسلسل القيادة والانضباط، بل تنقصه الأسلحة الثقيلة والدولة التي تحتضنه. ولم يسع سلطات الاحتلال إلى أن تعترف بالثورتين وكأنهما حكومة أو بقايا الحكومة العربية في دمشق، وكان هذا الاعتراف ضمنياً ومستتراً في أول أمره. وقد أصبح هذه الاعتراف الضمني علناً عندما تفاوض زعيمي الثورتين لأمر إنهاء القتال والتأثير عليهما بالألقاب والأموال والعفو والمناصب. وكان كلا الزعيمين زاهداً في المال بذل كل ما يملكه في سبيل ثورته، فلم ينقادا للمستعمر.

وكان الثوار من جانبهم يتصرفون بمسؤولية على أساس أنهم قوة نظامية مسؤولة تجاه حكومة، فكانوا يحافظون على أسراهم في معسكرات قروية خاصة، وبعد ذلك يتفاوضون مع الفرنسيون لتبادل الأسرى. وقد حُذّر قادة المفارز الثورية بعدم استعمال القوة والقسوة مع الذين يستسلمون سواء كانوا (متطوعين) أو فرنسيين، كما كان الجرحى ينقلون إلى حيث تضمد جراحهم ويعنى بهم حتى تنجلي المعركة. وعلى الجبهتين جرت مفاوضات

---

(١) هيئة الموسوعة العربية، الموسوعة العربية، المجلد الرابع، الطبعة الأولـى، سـورية، دمشق، عام ٢٠٠٣، الصفحة ٣٣٥.

ولقاءات تجلت فيها روح المسؤولية والفروسية رغم الحذر من الغدر والتحفظ(١).

كان الشيخ صالح قائد الثورة في المنطقة الساحلية، قد نظم رجال الثورة تنظيماً عسكرياً وإدارياً رائعاً ولم يترك ناحية تنظيمية لم يعرها اهتمامه الكامل، وبدت هذه التنظيمات شاملة لجميع النواحي: فقد أنشأ لجهازه ديواناً للبريد يربطه بمناطق الثورة وبالحكومة العربية قبل سقوطها لمسك السجلات والقيود من أجل تدوين الواردات مع اختلاف أنواعها وكذلك النفقات. وأقام إدارة للتموين. كما أنشأ ديواناً لبيت المال وهيئة للتفتيش وهيئة للأمن، وكذلك أنشأ فرقة من الدعاة. وفيما يتعلق بالجانب العسكري فقد كان الشيخ صالح قائداً عسكرياً فذاً فقد كان يجمع الكتائب ويعين القادة ويعفيهم من مناصبهم. وقد شكل مع مجموعة من أعوانه ما يمكن تسميته (هيئة أركان حرب الثورة) وتشمل الضباط الذين كانت حكومة دمشق العربية قد أرسلتهم كمستشارين للشيخ. وكان هناك **(العقداء)** ممن تطوعوا للثورة من الضباط القدامى. أما (الرؤساء) فقد كانوا أدنى مرتبة من العقداء اختارهم الشيخ من الوجهاء المحليين أو الشيوخ الذين برزوا في الثورة. وتلي مرتبة الرؤساء عدة مراتب أخرى مثل الملازم (المعاون) رئيس الخفراء، ولكل من هؤلاء عمل وصلاحيات معينة. وكان الجميع يرتبطون بقيادة واحدة هي الشيخ صالح وأركان حربة. وقسّم الشيخ صالح قواته إلى كتائب أو عشائر وضع على رأس كل منها عقيداً من شيوخها، وقسّم الكتائب إلى وحدات أصغر، وجعل لكل وحدة قائداً يرأسها وألحق بها مفارز من الخيالة لاستطلاع العدو(٢). وكان الهدف من إعطاء الألقاب والرتب العسكرية تأمين النظام في القوات الثائرة وقد أُشير سابقاً إلى أن للثورة علَمها الخاص هو عبارة عن قطعة من القماش الأخضر يتوسطها هلال ونجمة.

---

(١) آصف شوكت، الثورات السورية، ١٩١٨-١٩٢١م، ص١٨٥.

(٢) جميل العلواني، نضال شعب وسجل خلود، ١٩١٩-١٩٤٦م، مطبعة الآداب والعلوم، دمشق ١٩٥٣، ص١٢٧.

وفي الجبهة الشمالية والشمالية الغربية، ومنذ أن بدأت الثورة، كان أول سبعة ثوار في كفر تخاريم تحت قيادة هنانو، ثم ألفّت بعد ذلك لجنة رباعية في كفر تخاريم أطلق عليها اسم اللجنة التشريعية، كُلّفت بجمع الأموال والتبرعات لتقوية الجهاز الثوري وتغذيته بما يحتاج إليه من أسلحة وما يجب إعطاؤه لأفراده من الرواتب. وأخذت التشكيلات الثورية تتوسع عدداً وعتاداً. وقُسم الثوار إلى فرق صغيرة أو حضائر يقود كل منها نقيب وجميعهم مسؤولون أمام قيادة عليا (٧٥). ورغم أن القرى المجاورة كان لها ثوارها الخاصون الذين يشار لهم بكلمة (أبناء) كأبناء سلقين أو أبناء أرمناز، إلا أن الثوار قد انضموا إلى ما عرف بثورة كفر تخاريم التي كانت تحت الرئاسة المباشرة لنجيب عويد والقيادة العليا لهنانو. وقد امتدت ثورة هنانو لتشمل منطقة إنطاكية، والقصير بقيادة رئيس محلي هو الشيخ يوسف السعدون، ومنطقة (صهيون) بزعامة عمر البيطار. أما المنطقة الرابعة للثورة فكانت جبل الزاوية وزعيم الثورة فيها هو مصطفى الحاج حسين. وأقرت المناطق الأربعة بالقيادة العليا لهنانو الذي عهد لكل جماعة من الثوار بدورها في القتال، وتولت كل منطقة أعباء الأمور الحربية والإدارية. وهكذا أصبحت ثورة هنانو مكونة منذ أواخر آب ١٩٢٠م من أربع مناطق ثائرة.

ولما اتسع نطاق الحركات العسكرية في المنطقة الشمالية والشمالية الغربية ضد الفرنسيين وازدياد عدد الثوار، وجد هنانو من الضروري، حفاظاً للأمن في تلك المنطقة وتأميناً للمال اللازم لسد حاجات القوات المقاتلة من المؤن والعتاد، أن تؤلف حكومة للأشراف على هذه الشؤون. وتم تشكيل حكومة محلية مدنية مؤقتة مركزها قصبة أرمناز كلفت الإشراف على الأمن الداخلي وجباية الضرائب وفقاً للقواعد الأصولية المتعارف عليها. ويقول الشغوري. "كانت الضرائب تجبى من أصحاب الأملاك والمواشي ومن الزراع والمستثمرين أسوة بالحكومات وسيراً على سنّتها وعاداتها". ويذكر السعدون أنه كان يؤخذ من أهل المناطق بدل العشر ورسم الأغنام. أما العشر فمعلوم وفيه تتريل ٢٥% ورسم الأغنام، على كل دابة خمسة قروش والتتريل ٢٥%"، وقد عينت حكومة الثورة المدنية المؤقتة عدداً من جنود الدرك

والجباة لتحصيل الضرائب، وتصدت قوات الثورة لجباة الضرائب التابعين للسلطة الفرنسية الذين حاولوا جباية الضرائب من الأهلين ومنعهم من دفعها إلى حكومة الثورة، وصادر الثوار نقود هؤلاء الجباة كي يضمنوا للثورة مصدراً إضافياً للمال. وقد حرصت حكومة الثورة وخشية أن تمتد أيدي النهب والإتلاف إلى السجلات الحكومية (المدنية والعدلية والتمليك) على أخذ هذه القيود والاحتفاظ بها ريثما يستقر الأمر فتسلم إلى الجهات المختصة[١].

وكان زعماء الثورتين في الساحل والشمال حريصين على تحقيق العدالة بين أتباعهم في المناطق التي كانت تحت إشرافهم، وعمدوا إلى تنقية الثورة من المستغلين والمستهترين وغير المنضبطين لتحافظ الثورة على مصداقيتها واحترام الشعب والأعداء لها، وطبقوا ذلك حتى على القادة الأتراك. وكان زعماء الثورتين مصممين على عدم السماح بحدوث أي سلب أو نهب أو تخريب أو اعتداء. وطُلب من الثوار البطش بكل من يستحل أموال الناس أو يستغل الظروف لمصلحته الخاصة (وقد أشير سابقاً إلى التحاق بعض "الطماعة" بصفوف الثورة بتحريض من الفرنسيين لتشويه سمعة الثورة)، إذ إن مصلحة الوطن يجب أن تكون هي العليا وأن تذوب فيها كل المصالح الفردية والمنافع الخاصة. ولو امتدت أيدي البعض إلى أموال الأهلين بالنهب كانت قيادة الثورة تجرّد دوريات خاصة للضرب على أيدي الناهبين وإعادة المنهوبات، بما فيها الأموال والحيوانات إلى أهلها (مثال ذلك: ما أشير إليه سابقاً من إعادة منهوبات السقيلبية في الحادثة الأولى في تشرين الثاني ١٩٢٠م على يد الشيخ صالح، وملاحقة الشغوري بعض من سلب الأموال مستغلين حالة الفوضى بعد احتلال كفر تخاريم في ٧ آذار ١٩٢١م). ووصلت عقوبة من اقترف أعمال النهب حد الإعدام كما جرى لقائد القوة التركية في ثورة هنانو عاصم بك بعد نهب السقيلبية في حزيران ١٩٢١م وهو عمل كانت الثورة تعتبره ضاراً بسمعتها.

---

(١) آصف شوكت، الثورات السورية، ١٩١٨–١٩٢١م، مصدر سابق، ص١٨٦.

وكانت قيادات الثورة يقظة لأعمال العملاء وأتباعهم وتصرفت بحزم تجاه الجامحين وتجاه الأهالي المحليين الذين تعاونوا مع فرنسا وأوقعت بهم أشد العقوبة (مثال ما حدث مع هنانو في حادثة إسقاط فقد أعدم الثوار بعد انتهاء معركة إسقاط الجاسوس الذي أعلم الفرنسيين بوجودهم في القرية كما أعدموا الرسول الذي حمل تلك الرسالة إلى الفرنسيين).

واعتبرت الهيئات القضائية التابعة للثورتين وما يحلق بها من درك وسجون وقضاة، ضرورة ماسة إذ أنها كانت تساعد على الحفاظ على النظام في صفوف الثورة كما كانت تضفي على الثورات الاحترام أمام حلفائها وأعدائها على السواء. وقد ارتبطت بثورة الشيخ صالح محكمة عرفية عسكرية أوكلت إليها مهمة إصدار الأحكام القضائية ومحاكمة الأشخاص الذين خانوا الثورة، كما أوكل إليها القيام بالأعمال المالية والتفتيش الإداري وحلّ الخلافات بين الأهلين[١].

أما عن مصادر تمويل الثورات: فإنه إضافة إلى مساعدة حكومة دمشق والأتراك في مراحل معينة من مسار تلك الثورات، فقد ظل الأهالي في المناطق الثائرة أكبر المساهمين. ونظراً لأن الثورات كانت بمجملها خارج المدن لأن الريف والجبال المحيطة بالمدن كانت أكثر ملاءمة، إلا أن أهل المدن الكبرى كانوا يؤمنون الدعم المالي وبذلك اعتبرت مقاومتهم داعمة أكثر منها قتالية وقد أشير سابقاً إلى أن الثورات كان تجبي من الأهالي الضرائب كضريبة العشر على المنتوجات الزراعية وضريبة المواشي، وكان بعض الفلاحين في حماسهم للثورة، يدفعون ضريبة العشر مرتين. ولم يشأ زعماء الثورات الإثقال على السكان بطلباتهم المستمرة للإسهام كي لا ينقلبوا ضد الثورة، إلا أن حماس الأهالي للثورات كان يدفعهم للتبرع بالإعلانات المالية. (والملاحظ أن الزعامات كانت حريصة على مصالح الناس ولو أدي ذلك إلى

---

(١) المصدر السابق، ص١٨٧.

وقف الاشتباك مع القوات الفرنسية لفترة محدودة). وقد نشط الأغنياء على وجه الخصوص في تقديم المال ويّذكر أن المحسنين من معظم وجهاء العائلات في المناطق الساحلية كانوا يساهمون بأموال لدعم الثورة وكانت تلك الأموال تحمل باستمرار إلى الشيخ صالح وكذلك وردت الأموال إلى ثورة الشيخ صالح من المغتربين في المهاجر الأمريكية وكان فاتح المرعشي، من وجهاء حلب، الممول الأكبر لثورة هنانو وتزويدها بالسلاح والخيول من مركزه في مرعش. كما أن كثيراً من وجهاء حلب وتجارها أمدوا ثورة هنانو بالسلاح والرجال والمال.

وكان هنانو والشيخ صالح ينفقان من واردات أملاكهما على تمويل الثوار وتزويدهم بالسلاح وكانت تلك الأملاك - كما أشير سابقاً - تشمل عدة قرى وضعت كلها تحت تصرف ثورتهما وقد ضمنت هجمات الثوار ضد جباة الضرائب التابعين للحكومة ومصادرتهم للنقود مصدراً إضافياً للتمويل وكان الثوار يهاجمون مؤن القوات الفرنسية المرسلة إليها من قبل المتعهدين المحليين ويستولون عليها مثال ذلك (ما حدث لقافلة التموين في معركة دركوش في ١٩٢١/١/٢٢). وكان أولئك المتعهدون بدورهم مهددين بمصادرة قطعانهم من قبل الثوار. ونظراً لأن القوات الفرنسية كانت تقوم بتدمير المحاصيل والمؤن كي لا تقع بأيدي الثوار، اضطر الأخيرون إلى حماية مؤنهم بتخزينها في بعض القوى وأحكام الحراسة عليها.

وظلت مسألة السلاح الشاغل الرئيسي للثوار إذ لم يكونوا يملكون في البداية إلا البنادق القديمة المختلفة الأنواع مع مقدار ضئيل من العتاد كان يجري تأمينها بصعوبة ومشقة ولم يكن بأيدي المقاتلين سوى السيوف والخناجر والفؤوس (السلاح الأبيض)، فكانوا يهاجمون العدو بتلك الأدوات وينتزعون السلاح من يده عنوةً ولذا فإن جلُ ما كانت تعتمد عليه الثورة في البداية من سلاح وعتاد هو ما كانت تنتزعه من أيدي القوات الفرنسية خلال

المعارك أو ما كان يتركه الفرنسيون في ساحاتها[1] وهكذا راح الثوار يحاربون بأسلحته ويتمونون بذخائره ومعداته، ويذكر الشغوري أن العتاد الزائد الحاجة كان يوضع في أماكن جبلية وفي محلات متعددة مستورة للاستعانة به عند الحاجة إليه. ويقدر تقرير عسكري فرنسي صادر عن سنجق اللاذقية في ٦ نيسان ١٩١٩م عدد الأسلحة الموجودة بأيدي الثوار في المنطقة الجبلية الساحلية ٣٠,٠٠٠ - ٥٠,٠٠٠ قطعة.

ولم يعد من السهل على الثوار الحصول على هذه الإمدادات من هذا المصدر (أي من العدو منذ أن اتسعت رقعة الأعمال الحربية وتعددت الوقائع، وفي حين كانت الإمدادات والجنود تأتي للقوات الفرنسية تباعاً كان الثوار يفقدون كل يوم عشرات الشهداء وأقواتهم وعتادهم في تناقص مستمر. ويذكر أنه في معارك جبل الزاوية الأخير (في ٢٠ نيسان ١٩٢١م) أخذ الثوار يقسمون المشط الواحد فيما بينهم ليطلق كلٌّ منهم آخر رصاصة في صدر عدوه وفي المراحل الأخيرة من الثورتين كان تأمين العتاد اللازم للمعارك المستمرة أمراً صعباً، وجال مندوبو الثوار البلاد بحثاً وتنقيباً دونما جدوى، وكانوا يعودون بأيد فارغة أو بكميات قليلة من العتاد بأغلى الأثمان والمال غير موفور.

وحتى عشائر البادية التي كانت تعمل على جلب السلاح والعتاد من البلدان المجاورة، ويشتريه الثوار من أموالهم الخاصة، حتى هذه العشائر توقفت عن تزويد الثوار بسبب تشديد الفرنسيين قبضتهم على تلك العشائر ومصادرتهم السلاح. وقد توقف توريد السلاح للثورات من المصدرين الخارجيين: حكومة دمشق والأتراك لعوامل سياسية (سقوط حكومة دمشق وتغيير طبيعة علاقات الأتراك بالثورات السورية).

---

(١) علي رضا، قصة الكفاح الوطني في سورية، عسكريا وسياسياً حتى الجلاء، ١٩١٨م-١٩٤٦م، المطبعة الحديثة، سورية، حلب، ١٩٧٩م،ص٨٦.

ثالثاً – أساليب الثوار القتالية ووسائل الفرنسيين لمواجهتها:

برهن الثوار على مستوى عال من البسالة والإقدام وامتازوا بأهلية حربية مقرونة بالبطولات العربية الموروثة وروح الفداء وقوة العزيمة التي لا تهن ولا تقهر. ونظراً لأن الجيش الثوري كان يفتقر إلى العناصر الضرورية للقيام بهجوم عام، كالمدفعية والآليات والطائرات فقد اتسمت عمليات الثوار في المنطقتين الرئيسيتين بحرب متقطعة تقوم بها فرق صغيرة هي أشبه بالحروب التي صارت تسمى فيما بعد (بحروب الأنصار) أو (حروب العصابات). كانت هذه الفرق تعمل في كل مكان وتتنقل بسرعة بطريقة أشبه ما تكون بعمليات الإغارة التي تعتمد على التدمير والانسحاب. وكان الشيخ صالح العلي مثلاً يرى أن العدول عن الحرب النظامية إلى (حرب العصابات) هو السبيل الوحيد لإنقاذ الموقف. وكان يطلب من عقداء الكتائب أن يتجنبوا الاشتباك مع العدو المتفوق في معركة طويلة وأن يباغتوه في معارك خاطفة، وأن يوجهوا الضربة الأشد إلى الجهة الأكثر ضعفاً وينسحبوا إذا تقدم ويضربوه إذا توقف ويتعقبوه إذا تقهقر[١].

وبوجه عام استهدفت العمليات الثورية مهاجمة المراكز العسكرية المنعزلة ومحاصرتها لجذب قوات العدو إليها، وبذلك يجري تشتيت القوات وتفكيكها فتسهل مهاجمتها، وكذلك استهدفت مهاجمة أرتال العدو أثناء سيرها في الممرات الإجبارية والانقضاض على وسائل التموين والإمداد وعمدت قيادة الثورة على الجبهتين إلى إصدار الأمر لوحداتها بتجنب الاشتباك مع القوى الفرنسية الكبيرة في الأراضي المكشوفة السهلية التي تفتقد إلى حواجز وموانع طبيعية وتضاريس، كما أمرتها بالإكثار من الحركات الليلية ومباغتة العدو بكتل قوية قليلة العدد سريعة الانتقال تكيل الضربات الموجعة المتتالية،

---

(١) آصف شوكت، الثورات السورية، ١٩١٨-١٩٢١م، مصدر سابق، ص١٨٩-١٩٠.

مع الاحتراز من الدخول مع الحملات الفرنسية بمعركة طويلة على جبهة واسعة، تجرها إليها الوحدات الفرنسية في معركة غير متكافئة القوى والوسائل تسبب استهلاك العتاد الموجود لديها وخاصة خلال المعارك الأخيرة.

وكان استخدام الثوار الجيد لطبيعة الأرض في أثناء التنقل والقتال والتمركز في منطقتي الثورة وبشكل خاص في المنطقة الغربية، عوناً كبيراً للثوار. فقد كان العدو يسقط في الكمائن المتعددة لجهلة طبيعة الأرض ولوعورة المسالك وتعددها كما كان الأهلون دون استثناء يرشدون الثوار إلى تحركات العدو وتعداده وما هو عليه من خوف وترقب. ويعطي السعدون وصفاً للخطة التي كانت تتبع في معارك القصير "كانت العادة المتبعة عندما تأتي قوة من جيوش العدو عن طريق من الطرق وتصل إلى قرب منطقة الثورة يمتطي خيّال متن جواده إلى أقرب قرية ويخبرها بوجود العدو القادم ووجهته ثم يخرج من تلك القرية خيّال آخر ويخبر القرية التالي، وهكذا يعم الخبر عموم قرى القصير وكل من بلغه الخبر ممن يملك السلاح كان ملزماً أن ينكب سلاحاً ويسرع ولا ينتظر، فهكذا كنت ترى المدد يأتي متواصلاً".

وأقر الفرنسيون بصعوبة مواجهة هذا النوع من الأسلوب الثوري والعمل في ظروف طبيعية صعبة: وفي تقرير حاكم اللاذقية العسكري مينو إلى قائد القوات الفرنسية في المشرق في ٣ حزيران ١٩١٩ شكوى من التعب الشديد من العمل في بلد وعر إذ أنه يصعب إعداد رتل متكامل في معظم شهور السنة. ويعزو الجنرال دوهاي في دراسته (١٢٠) نجاح الثوار في المنطقة الغربية في مواجهة الفرنسيين إلى وعورة الجبال وصعوبة الوصول إليها وعدم وجود طرق مرصوفة مما يشكل خطورة على الحيوانات وسائقيها كما يحدث مشكلة دائمة للتموين. ويصف خطورة الذروة (الشعرة) الذي يبلغ ارتفاعه ١٥٠٠ م بأنه "منطقة خالية حيث لا يغامر المرء فيها إلا بحذر". ولا

يتوقع تقرير فرنسي وضع بعد أيار ١٩٢١ بشأن الأوضاع في المنطقة الجبلية بين أنطاكية وحماه واللاذقية نهاية العمليات الحربية في المنطقة الغربية بسبب "تكتيك حرب العصابات وصعوبات المنطقة[١].

وعندما كان يصعب على الثوار تفادي المجابهة مع العدو كانوا يتصرفون مثل الجيوش النظامية وبطرق تقليدية تنظم فيها مواقع القوات فيجعل منها قلب وجناحان (كما حدث مثلاً في معركة الشيخ بدر ١٥ حزيران ١٩١٩، ومعارك الزاوية ٨ آذار ١٩٢١).

ويبدو أن الثوار كانوا يهدفون في عملياتهم الثورية إلى برهنة أمرين: **أولاً** تأكيد تصميمهم على المقاومة، وكما ذكر أحد قادة الثوار خلال معركة كفر تخاريم "لنفهمهم بلغة السلاح التي لا يحسنون غيرها أننا مصممون على المقاومة حتى النهاية وأننا إذا لم نستطع إلقاءهم في البحر فسنكتفي بتنغيص عيشهم وجعل إقامتهم في ربوعنا أتونا من نار". أما الأمر الثاني فهو إيقاع أكبر عدد ممكن من الإصابات في صفوف القوات الفرنسية بغاية منعها من بسط حكمها ووفقاً لما تذكره إحدى وثائق وزارة الخارجية البريطانية في ١٩٢١/١/١٩ فإن خسائر الفرنسيين التي اعترفوا بها في أحدى المعارك شمال حماة في الأيام الأولى من عام ١٩٢٠ بلغت ٣٠٠ قتيل، وأن القوات التي أرسلت لتخفيف الضغط عليها فقدت نصف عددها. ورغم أن الثوار كانوا يبالغون أحياناً في تقدير إصابات الجانب الفرنسي من أجل رفع المعنويات، إلا أن هناك الكثير من الحقيقة في التقديرات المعطاة حول تلك الإصابات من قبل الثوار. ولا أدل على شدة ما أوقعه الثوار في صفوف القوات الفرنسية في الفترة ما بين ١ تشرين الثاني ١٩١٩ - ٣٠ حزيران ١٩٢١ ما أوردته وثيقة فرنسية قدرت الخسائر الفرنسية من قتلى ومفقودين في هذه الفترة على النحو الآتي:

---

(١) المصدر السابق، ص١٩١.

ضباط فرنسيون (١٣٧)، جنود فرنسيون (١٩٨٤)، شمال أفريقيون (٢١٠٨)، من أهالي المستعمرات (١٤٢١)، عناصر محلية (١٣٣).

وفي بيان للحكومة الفرنسية أمام مجلس النواب الفرنسي في جلسته بتاريخ ٥ تشرين الثاني ١٩٢٥م، وقدر عدد القتلى الفرنسيين عام ١٩٢٠م بـــ (٢٨٩٣) وفي عام ١٩٢١ بلغ عدد القتلى (٢٠٣٢)، هذا باستثناء من قتل من أفراد القوات العاملة في الجيش الفرنسي من أفريقيا الشمالية أو من العناصر (المحلية). إن الإعداد المرتفعة من قتلى القوات الفرنسية في عامي ١٩٢٠ و ١٩٢١م وفقاً لوثيقة بريطانية "تدل دلالة واضحة على الخسائر الفادحة التي أوقعتها ثورنا إبراهيم هنانو والشيخ صالح العلي وشركائهما في صفوف جيش الانتداب، كما تدل على أن تقديرات مصادر الثورة حول الخسائر التي منيت بها فرنسا تحوي الكثير من الصدق".

ولم تقتصر أساليب الثوار في مقاومة الفرنسيين على العمليات العسكرية بل تعدتها إلى قطع وتخريب خطوط المواصلات: فقد كانت المواصلات السلكية تهاجم وتعطل من قبل الثوار، إلا أن الخطوط الحديدية (على وجه الخصوص الخط الممتد بين حلب وحماه والذي يصل سورية بلبنان عن طريق رياق) كانت هدفاً رئيساً بالنسبة للثوار، نظراً لأن الجنود والمعدات العسكرية كانت تنقل بين بيروت وكيليكية عبره[1].

وقد استهدف الثوار، بمن فيهم البدو، المحطات الرئيسية كمحطة (أبو الضهور) جنوب حلب ومحطة الحمدانية ومحطة كوكب. وقد شاركت عشائر البادية وخاصة قبيلة الموالي، **في مهاجمة محطات السكك الحديدية في أيار ١٩٢١م**: فكانوا يهدمون الجسور عن طريق السكة الحديدية بين حماة وحلب. واضطر غوبو بهدف حماية طريق السكة الحديدية في أيار ١٩٢١ إلى تشكيل مفرزة خاصة تمكنت بعد فترة وبعد أن رافقتها عمليات قصف طيران إلى

---

(١) المصدر السابق، ص ١٩٢.

إخضاع الموالي ومصادرة مواشيهم. وقد نوه القنصل البريطاني في دمشق في ١٨ أيار ١٩٢١م في رسالته إلى وزير الخارجية إلى "أن الخط الحديدي وأسلاك التلغراف بين حلب ودمشق قد قطعت مرة أخرى قرب حماه من قبل قبائل بدوية وثوار المنطقة الساحلية، وأعلن ضابط فرنسي في حماه أن (العصابات) النشطة هناك يرأسها (ضباط أتراك) وأن لديهم بنادق آلية وان القطار قد أطلقت عليه النيران".

وقد أدعى الفرنسيون بأن قوات الثوار كانت تفوقهم عدداً وعدة وأن انتصاراتهم في جميع المعارك، كما يزعمون، كانت بفضل بسالة ضباطهم، وجنودهم وصلابتهم وشدة بأسهم وتمرسهم في القتال. والوقائع تثبت كذب دعواهم إذ كانوا يملكون العناصر الحربية مجتمعة من الفرق والألوية الكاملة المدربة أحسن تدريب والمنتمية إلى مختلف صنوف الأسلحة والمعززة بأفتك أنواع الأسلحة الثقيلة والمدفع والمصفحات بالإضافة إلى قوات الطيران[(١)]، وبمعين لا ينضب من النجدات وإمدادات الذخيرة والعتاد والمؤن سهلة الوصول عن طريق البحر. وشاركت النسافات والزوارف المسلحة في تعزيز عمل الحملات العسكرية وتقديم النجدات إليها وقصف القرى الثائرة بالقنابل، وهو أمر أشارت إليه إحدى الوثائق الفرنسية مبينة أن "هذه الأحداث قد بينت النفوذ الذي يحتفظ به سلاحنا البحري بين الأهالي، فوجود أي نسّافة بحرية يرعب مثيري الشغب والفوضى".

ومع أنه يبدو من عمليات القتال أن الفرنسيين كانوا يفتقدون إلى القوات الضرورية لمحاربة جميع الثوار في آن واحد، إلا أنهم تمكنوا من حشد ١٥٠٠٠ جندي، في معركة واحدة وجهت ضد كفر تخاريم في هجوم على ثلاثة محاور. كما أشير إلى أن الفرنسيين لم يستطيعوا إخماد لهب ثورة الشيخ صالح إلا بحملة تضم ٧ كتائب فرنسية عام ١٩٢١، وذكر أن عدد جنود الحملة تجاوز ثلاثة وعشرين ألفاً.

---

(١) فارس زرزور، معارك الحرية في سورية، دار الشرق، دمشق،١٩٦٢م، ص١٣٣.

وقد عمل الفرنسيون في المرحلة الأولى من نشوب الثورات والتي بدأت بشن الغارات على ثكنات الفرنسيين، على الإكثار من الدوريات ورجال الدرك، ولم يحد هذا من الهجمات. وبعد تصاعد العمليات الثورية استخدم الفرنسيون خطة هدفها قمع الثورة بأقصر وقت ممكن وتلخصت بما يأتي:

أ – إقامة مراكز منتشرة في طول البلاد وعرضها غرضها توطيد الأمن وحفظ النظام من جهة واستخدامها كمركز اتصال بين الأرتال المتحركة من جهة أخرى.

ب– تجميع القوات المتحركة في أرتال متكاملة إدارياً وتعبوياً تحميها مقدمة ومؤخرة ومجنبة وتتقدمها قوات مهاجمة قوامها الفرسان والمصفحات على مسافة أمن كبرى تغطيها استطلاعات طيران متعاقبة.

جـ– السير نهاراً بصورة دائماً والتوقف ليلاً في مخيمات محكمة الحراسة.

د – قصف تجمعات الثوار بالمدفعية والطيران.

هـ– القضاء على الثورة في المناطق السورية بالتتابع[1].

وراحت القيادة الفرنسية تستبدل فرقها العسكرية معتمدة على القوى التي تمرست على القتال في الأحوال الخاصة (قتال الليل والجبال والغابات والشوارع). واستقدمت كتائب من المستعمرات من أفريقية والهند الصينية. واتسمت العمليات التي قام بها الفرنسيون رداً على العمليات الثورية بعنف غير مألوف بهدف إرهاب السكان وإجبارهم على التخلي عن الثورة وعدم مناصرتها. وارتكب الفرنسيون على كلا الجبهتين كثيراً من الفظائع من حرق

---

(١) إحسان الهندي، كفاح الشعب العربي السوري، ١٩٠٨م –١٩٤٨م، منشورات إدارة الشؤون العامة والتوجيه المعنوي، دمشق ١٩٦٢م، ص٥٣.

وتدمير قرى وبيوت ومدن بالقنابل والطائرات وقتل الأبرياء والتنكيل بهم في المناطق الثائرة أو من يظنون أنها تساعد الثوار، بالإضافة إلى نهب جميع ما يملكه أهل القرى والأماكن التي يدخلونها وسوق المواشي ومصادرة الأموال والأثاث وفرض الغرامات بلا موجب. وكان لهذا أثر بالغ في نفوس أبناء البلاد. وتعطي مذكرات المعاصرين والكتابات المتعددة عن أحداث الثورات الأمثلة الكثيرة:

من الأمثلة على فظائع الفرنسيين في معارك الجبهة الساحلية الغربية ما حدث في معركة الشيخ بدر ١٥ حزيران ١٩١٩م، فقد كانت القرى المحاصرة تحترق تحت وقع القنابل المتفجرة وأمام سمع الثوار وأبصارهم، ومن أراد النجاة من الحريق تلقته شظايا القنابل عند الأطراف. وخلال هجوم الفرنسيين على قرية كاف الجاع في تموز ١٩١٩ (وكانت خالية من المدافعين لبعدها عن منطقة الثورة الرئيسية)، قتل الكثيرون من السكان وحشر الآخرون ضمن البيوت وجعلوا طعماً للنيران ونهبت الأموال وقطعت آلاف الأشجار إمعاناً في الدمار والتخريب.

وفي معارك السودة الكبرى (قرب طرطوس) في آذار ١٩٢٠م، اشتركت مدافع الأسطول بقصف القرى والمواقع التي يستند إليها الثوار، كما أن الثوار الذين وقعوا أسرى بيد العدو في المعارك نفسها نكّل بهم وأعدموا رمياً بالرصاص. وبعد معارك نيسان ١٩٢٠م الدامية، تمكن الفرنسيون من احتلال بعض القرى في الجبال الساحلية، التي انضم أبناؤها إلى صفوف الثوار، بعد أن هدمتها قنابل مدافعهم، وبعد أن دخلتها قواتهم أحرقت ما بقي قائماً منها حتى غدت كتلاً من رماد. ولم يخرجوا من قريتي كوكب الهوى وقلعة الخوابي في مطلع تموز ١٩٢٠م إلا بعد أن أحرقوها وخرجوا منهما وهما أطلال. وخلال هجوم الثوار على بانياس في الشهر نفسه، أخذت قطع الأسطول بقصف بيوت المدنية قصفاً همجياً، وبدأت بعض البيوت تتداعى والحرائق تشب مما اضطر الثوار للانسحاب. وبعد أن احتل الفرنسيون قرية الشيخ بدر (أواخر ١٩٢٠م) والمرتفعات المحيطة بها أحرقوا قرية المريقب

وسائر القرى القريبة منها وجعلوها أرضاً محروقة. كما قاموا باعتقال بعض زعماء المنطقة ووجوهها بتهمة تأييد الثورة ومناصرتها، وشكلوا مجلساً عرفياً لمحاكمتهم وأصدر المجلس حكمه بإعدامهم، ونفذ الحكم فيهم فوراً. كما أطلقوا يد جنودهم بالاعتداء والتخريب والنهب والسلب وقتل الأبرياء[١].

وبعد الهزائم المتوالية التي تكبدها الفرنسيون في معارك كانون الثاني ١٩٢١م في الجبال الساحلية عمدوا إلى إطلاق نيران مدافعهم على طول الساحل بين جبلة وبانياس على الجبال القريبة والقرى المطلة على الساحل بقصد منع الثوار من التمركز فيها، مما تسبب في قتل الكثيرين من العزل الأبرياء. كما كانت الطائرات تقوم بغارات متواصلة وتلقي كميات كبيرة من متفجراتها على تلك الربوع. وراح الفرنسيون يرسلون دوريات آلية تطوف بعض سفوح الجبال الغربية وتترصد الناس على الطرقات وتقتل بعضهم، وتنهب وتسلب ما يقع بيدها من أموال متبعة سبل القرصنة. وفي المراحل الأخيرة من ثورة الساحل قامت القوات الفرنسية المعززة بكل وسائل الحرب في الإطباق من كل جهة على مناطق الثورة، وأخذت في الوقت نفسه تشدد الضغط على السكان وتعتقل المزيد منهم زيادة في التنكيل وتثبيط العزائم لإجبارهم على التخلي نهائياً عن نصرة الثوار وتقديم العون لهم.

واتسمت عمليات الفرنسيين في المنطقة الشمالية والشمالية الغربية الثائرة بعنف مماثل وخاصة بعد أن تلقت القوات الفرنسية ضربات على يد الثوار في منطقة جبل صهيون (نيسان ١٩١٩م). وقد عمدت قيادة الحملة الفرنسية العاملة في منطقة جبل (صهيون) إلى الانتقام بمهاجمة القرى الآمنة والاعتداء عليها بالسلب والنهب والتنكيل بالسكان انتقاماً لما أصابها من هزائم وخسائر. وفي منطقة القصير (وإثر الإصابة حملة النجدة التي طلبها غوبو من حلب في شباط ١٩٢١م)، أمر الجنرال غوبو بمهاجمة قرى المنطقة وإيذاء أهلها لأن الكثيرين منهم يؤيدون الثورة ويساعدونها بالرجال المسلحين عندما تدعو الحاجة إلى ذلك. وانتقاماً لهزيمة حملة حلب ١٠ شباط ١٩٢١م

---

(١) آصف شوكت، الثورات السورية، ١٩١٨-١٩٢١، مصدر سابق، ص١٩٤.

(حين سيرت القيادة الفرنسية من حلب حملة بقيادة ديبيوفر لإعادة الهيبة في منطقة قضاء إدلب)، دخلت القوات الفرنسية قرية كلله من أعمال إدلب، وجمعت رجال القرية لإلقاء الذعر في نفوس الأهلين، ونهبت كل ما وصلت إليه أيدي رجالها من مال ومتاع، كما أحرقت المؤن وأتلفت ما وجدته منها عند الأهلين ليموتوا جوعاً خلال تطويق القرية. وقد انتقى قائد الحملة ٢٧ رجلاً أمر بإطلاق الرصاص عليهم فخروا شهداء.

وفي معركة جبل الزاوية الأخيرة في آذار ١٩٢١م انسحب الثوار، وفسحوا المجال للعدو أن يصعد الجبل ليجد فيه قرى خاوية وبيوتاً خالياً إلا من بعض الشيوخ والعجزة. وارتكب الفرنسيون بعد احتلال كفر تخاريم (نيسان ١٩٢١م) كثيراً من أعمال الأذى والنهب والتدمير ونالوا حتى المسجد، كما هدموا دور عدد من الثوار وعلى رأسهم نجيب عويد(١).

ولقد عمل الفرنسيون، جرياً على عادة المستعمرين في مختلف الأصقاع وبكل الأدوار، جاهدين على تفريق الكلمة وإلقاء الفتنة والبغضاء بين أبناء الوطن الواحد وإحياء الأحقاد الدفينة بينهم ليشتبكوا في منازعات تستنزف قواهم متخذين كلمة فرق تسد نبراساً للعمل وقانوناً للإدارة في البلاد المنكوبة باستعمارهم. وهم إذ يسعون وراء غايتهم هذه كانوا يبحثون عن ضعفاء النفوس، وهم قلة، لاستغلال جهلهم وتدعيم نفوذهم وإغرائهم بالوجاهة الفارغة من أجل تحقيق ما يصبون إليه إلا أن المشاعر الوطنية الصادقة ظلت وستظل هي السائدة والغالبة.

رابعاً – استمرار المقاومة المسلحة (١٩٢٠– ١٩٢٥م):

ولا تعني نهاية الثورتين نهايةً للكفاح الوطني المسلح، فقد ظن الفرنسيون أنه بإمكانهم بسط سيطرتهم على سورية عن طريق إدارة مباشرة تعضدها قوات عسكرية، واتباع سياسة الضغط وتشريد الوطنيين. إلا أن السلطة الفرنسية أخطأت في تقديرها قوة العامل القومي العربي،

---

(١) المصدر السابق، ص١٩٥.

فدخلت مباشرة في صراع مع الحركة الوطنية في سورية، وأصبحت البلاد مسرحاً للحركات الثورية التي كانت امتداداً لأعمال المقاومة المسلحة السابقة.

وإثر ميسلون، ثارت القبائل في منطقة حوران ضد سلطات الاحتلال وقامت بمهاجمة القطار الذي أقل وفداً رسمياً، قدم لتهدئة الأهالي نزولاً عند رغبة الفرنسيين، **وقتل رئيس الوزراء علاء الدين الدروبي وعبد الرحمن اليوسف** رئيس مجلس الشورى **عند خربة غزالة في أيلول ١٩٢٠م**، فجهزت سلطات الاحتلال الفرنسي حملة عسكرية لإخماد الانتفاضة في المنطقة، وتصدى لها الأهالي وكبدوها خسائر كبيرة، وردت الطائرات الفرنسية بالقصف وفُرِضْت غرامة مالية باهظة على الأهالي.

وفي ٢٣ حزيران ١٩٢١م، تعرض أول مفوض فرنسي سامي الجنرال غورو في أثناء زيارته القنيطرة **لإطلاق النار**، فقتل أحد مرافقيه، وسيَّر الفرنسيون حملة دمرت عدداً من قرى المنطقة وفرضت غرامات مالية بعد أن صادرت الممتلكات، وامتدت الثورة في تموز ١٩٢٢م إلى منطقة جبل العرب، إثر اعتقال أدهم خنجر الذي لجأ إلى سلطان باشا الأطرش زعيم الجبل، بعد إخفاق محاولة اغتيال غورو، وحاول سلطان باشا أن يحشد الريف حوله، وتصدى مع قوة من أتباعه لكتيبة فرنسية، وبعد قصف منزله اضطر إلى اللجوء إلى شرقي الأردن، وفرض الفرنسيون غرامة على الجبل.

مكن التفوق العسكري الفرنسي من إخماد الأعمال الثورية مؤقتاً في سورية، ولكن القوى الوطنية تابعت تعبيرها عن رفض الاحتلال بشتى الوسائل وفي مختلف المناسبات، بالإضرابات والمظاهرات والعمل السياسي السري داخل البلاد أو حركة في المنفى في المجال السياسي والإعلامي.

خامساً - تفجر الثورة السورية الكبرى ١٩٢٥م -١٩٢٧م:

استمرت البلاد تعيش جواً من التوتر في السنوات التي انقضت بين وضع سورية تحت الانتداب واندلاع الثورة السورية، نتيجة لأعمال القمع وسوء الوضع الاقتصادي والتجزئة السياسية. وفي **١٧كانون الثاني ١٩٢٥م**،

توجه وفد من دمشق وحلب لمقابلة المفوض السامي في بيروت، الجنرال سَراي حاملاً مطالب البلاد، ومنها: التأكيد على الوحدة السورية وتشكيل جمعية تأسيسية منتخبة تضع للبلاد دستورها، وقام رجال الحركة الوطنية بتأليف أول حزب في سورية بعد فرض الانتداب، يمارس نشاطه رسمياً هو حزب الشعب برئاسة **عبد الرحمن الشهبندر**، ومن أهم برامج الحزب العمل لتأمين استقلال سورية ووحدتها، وبرز الحزب في وقت كانت البلاد تتطلب بروز زعامة سياسية توحد الصفوف وتقودها، وعلى الرغم من الوعود التي قطعها المفوض السامي الجنرال سراي ظلت الشكاوى القديمة من غير معالجة ولاسيما في جبل العرب، وذهب وفد من زعماء الجبل وشيوخه في نيسان ١٩٢٥م لمقابلته مؤكدين أن الجبل جزء لا يتجزأ من البلاد السورية مع المطالبة بتعيين حاكم للجبل من أبنائه. وبعد رفض سراي هذه المطالب دعا سلطان باشا الأطرش إلى عقد اجتماع في السويداء، وطافت المظاهرات أنحاء الجبل، وجرى الاتصال مع عدد من الزعماء السياسيين في دمشق، معظمهم من أركان حزب الشعب، للتشاور وتنسيق المواقف. ومع أن حزب الشعب أعلن أنه يسعى لتحقيق مبادئه وبرنامجه بالطرق القانونية المشروعة، فقد تم التعاهد بين عدد من أعضائه، بصفة شخصية، ووفد من الجبل على إشعال نار الثورة في سورية لتحقيق الاستقلال والوحدة.

وفي ٢١ تموز ١٩٢٥م، وبعد اعتقال عدد من زعماء الشعب ونفيهم إلى تدمر، أقدم سلطان باشا الأطرش على إضرام نار الثورة بحرق دار المفوضية الفرنسية في صلخد وإبادة قوة فرنسية جاءت للقبض عليه، ودخل بعدها السويداء، وحاصر قلعتها. وفي آب ١٩٢٥م توجهت حملة فرنسية للانتقام من أركان الثورة كان نصيبها الإخفاق في موقعة المزرعة. ووصلت أنباء الثورة إلى مختلف مناطق سورية، وعقد في دمشق في ٢٠ آب ١٩٢٥م اجتماع سري بين وفد سلطان باشا الأطرش وبعض زعماء دمشق من حزب الشعب والاستقلاليين القدامى، وتقرر الاشتراك فعلياً بالثورة، وإرسال وفد إلى

الجبل لتبليغ زعمائه قرار دمشق، وبلغ سراي الخبر فأمر بحل حزب الشعب وملاحقة رجاله، فقبض على بعضهم بينما التحق آخرون بالثورة[١].

وامتدت الثورة إلى غوطة دمشق، ودارت فيها معارك ضارية بين الثوار والفرنسيين، وتولى الجنرال غاملان قيادة النجدات الفرنسية في ١٦ أيلول ١٩٢٥م، ورد الثوار بمهاجمة الحامية الفرنسية في قرية المسيفرة، وتكبيدها خسائر كبيرة، ثم دارت معارك بين الثوار والقوات الفرنسية الزاحفة على السويداء، واضطر الفرنسيون بعد احتلال مؤقت للمدينة إلى الانسحاب بعد أن قررت قيادة الثورة مد نطاقها إلى الشمال لتخفيف الضغط على الجبل، ودارت المعارك حول دمشق وجبل القلمون.

وفي ٥ تشرين أول ١٩٢٥م بلغت الثورة مدينة حماة بقيادة فوزي القاوقجي، الذي أوقع في صفوف الفرنسيين خسائر كبيرة، فردوا بقصف المدينة بالقنابل واعتقال الكثيرين. ومع أن ثورة حماة لم تدم طويلاً إلا أنها هددت سيطرة الفرنسيين بسرعة انتشارها إلى أقاليم حمص وحماة وطرابلس وأجبرتهم على سحب جزء من قواتهم من منطقة الجبل مما خفف الضغط على الثوار.

واتسع نطاق الثورة واتخذت شكلاً وطنياً عاماً، وتغلغلت قوات الثورة إلى أسواق دمشق وأحيائها الشعبية في تشرين الأول ١٩٢٥م، ولمع اسم كل من حسن الخراط ومحمد الأشمر رمزاً لنضال دمشق ضد الفرنسيين، وردت المدافع الفرنسية بقصف المدينة دون سابق إنذار، وزادت هذه الأحداث من إضرام الثورة، وعُهد إلى القاوقجي بالقيادة العامة لجيش الغوطة وجهات الشمال، فحاول أن يبعث الحياة في معارك الغوطة، وازداد الضغط الفرنسي على الغوطة وأُرسلت قوات فرنسية كبيرة لإجلاء الثوار عن بعض مناطقها، كما شُن هجوم على جبل العرب شارك فيه الطيران.

وقد عملت الثورة السورية منذ تفجيرها على تجنيد القوى العربية لمساعدتها بالمال والسلاح والإعلام، وأدت الثورة وانتصاراتها دوراً في

---

(١) الموسوعة العربية، الجزء الرابع، مصدر سابق، ص٣٣٦.

جعل أبناء الأمة العربية يساندون النضال السوري. ولم تقف الإجراءات البريطانية حائلاً أمام الشعب العراقي لإظهار تعاطفه مع الشعب السوري بالدعم الإعلامي والمادي ومبادرات فردية بالقتال. وأثارت الثورة السورية حماسة الفلسطينيين، وكانت فرصة لإعادة الصلة بين رجالات الحركة الوطنية في البلدين، وكان الصحفيون الفلسطينيون ينقلون أخبار الثورة السورية، وتألفت في القدس منذ تشرين أول ١٩٢٥م «**اللجنة المركزية لإعانة منكوبي سورية» برئاسة الحاج أمين الحسيني** وعدد من الزعماء الفلسطينيين والسوريين ومعظمهم من الاستقلاليين القدامى، مهمتها الإشراف على جمع الأموال وتأمين السلاح وإيصالها إلى مواقع الثورة، كما أخذت بتقديم المعونة للمجاهدين الذين لجؤوا إلى شرقي الأردن بعد انتقالهم إلى النبك وقريات الملح في أراضي نجد.

كان معظم المجاهدين السوريين، بسبب استمرار التضييق الفرنسي على حركاتهم، قد اضطروا إلى مغادرة البلاد في خريف ١٩٢٦م، ومنهم سلطان باشا الأطرش، إلى منطقة الأزرق في شرقي الأردن بغية اتخاذها قاعدة لهجماتهم على سورية، قبل أن تضطرهم السلطات البريطانية إلى الخروج إلى أراضي نجد. وتوزع عدد من القيادات السورية بين القاهرة والقدس وعمان، وتحولت الثورة بعد ذلك إلى حركات ثورية متقطعة، **قادها فوزي القاوقجي على رأس قوة ثورية صغيرة**، وظل حتى شتاء ١٩٢٧م يبحث عن قاعدة يجدد منها حياة الثورة.

أثبتت أحداث الثورة وأسبابها أنها ثورة وطنية هدفها الحصول على استقلال سورية الموحدة، وشاركت فيها كل الفئات، مع أن الفئة المتنورة كانت الروح المحركة للنضال، إلا أن عمل الثورة كانت تعرقله الخلافات بين الزعامات السورية في الخارج بشأن توجيه الثورة وجمع الإعانات وهي خلافات قديمة تعبر عن انقسامات عقائدية وصراعات شخصية، وأحدث هذا شرخاً في صفوف الوطنيين وانتقل إلى المجاهدين. ولعل السبب الحقيقي لأفول الثورة يكمن في نهاية ثورة الريف واستسلام الأمير عبد الكريم الخطابي، مما مكن الفرنسيين من إرسال النجدات الكبيرة إلى سورية، المزودة بالأسلحة المتطورة التي كان الثوار يفتقدونها.

سادساً – نتائج الثورة:

كان لنشوب الثورة نتائج انعكست على علاقة سورية مع المحتلين الفرنسيين واضطرتهم إلى إعادة النظر في سياستهم، وتقديم بعض الحلول التي تخفف من حدة الغليان الشعبي ولا تتعارض مع مصالح فرنسة الاستعمارية. وقد دفعت عوامل كثيرة فرنسة نحو إقامة نظام برلماني والارتباط بمعاهدة مع سورية، يُذكر منها الثورة السورية التي كوّنت ضغطاً قوياً على السياسة الفرنسية، والرفض الشعبي لفكرة الانتداب، وإخفاق فرنسة بالإتيان بحكومة يرضى عنها الشعب، وشعور السياسيين الفرنسيين أن وجود هيئة نيابية منتخبة يسهل على فرنسة مهمة التعامل مع جهة واحدة، كما أن وضع الانتداب في صورة معاهدة يوفر لفرنسة ما لم تستطع تأمينه بالقوة والعنف، وأخيراً تعرض فرنسة لضغوط من عصبة الأمم بسبب سياستها.

ومنذ أواخر العشرينات ظهرت الكتلة الوطنية قوة سياسية للعمل على تجديد الحركة الوطنية في سبيل وحدة واستقلال سورية بعد فتور الثورة الوطنية، وإذا كان النضال المسلح قد توقف في أواخر العشرينات، فإن النضال السياسي حل محله، ولم يكن أقل ضراوة منه، إلى أن انتهى الأمر بتحقيق الاستقلال.

إن ضراوة النضال المسلح والسياسي لم يتح لفرنسة إمكانية استغلال سورية على النحو الذي فعلته في مناطق سيطرتها الأخرى. وانتهى الاحتلال العسكري الأجنبي إلى الأبد، ولم يكن الاستقلال السياسي غاية بنفسه، بل كان وسيلة مهمة تفتح طريق الجهاد واسعاً أمام تطوير البلاد، ودفعها إلى التقدم لصيانة الاستقلال وجعله واسطة لإسعاد الأمة ورقيها(١).

سابعاً – ثورة ١٩٣٦م في فلسطين:

لم تأت ثورة ١٩٣٦م في فلسطين من فراغ، بل جاءت حلقة في سلسلة الثورات التي قام بها الفلسطينيون منذ فُرض الانتداب على بلادهم في

---

(١) الموسوعة العربية، الجزء الرابع، مصدر سابق ص٣٣٤-٣٣٧.

أعقاب الحرب العالمية الأولى، كثورات ١٩٢٠ و١٩٢٩ و١٩٣٥م التي قادها عز الدين القسام، وجميع هذه الثورات كان هدفها الحيلولة دون إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين، والحفاظ على عروبتها، والخلاص من الانتداب البريطاني وإيقاف الهجرة اليهودية(١).

إنَّ هذه الأهداف بمجملها تشكل الأسباب العميقة للثورة التي مرت بثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: وتتلخص أسبابها المباشرة بما يلي:

١- تدفق اليهود على فلسطين وعلى مرأى وتشجيع من السلطة المنتدبة التي لم تتخذ تدبيراً للحد من ذلك.

٢- تغاضي هذه السلطة عن تهريب الأسلحة والذخائر لليهود.

٣- السماح للصهاينة بإنشاء تشكيلات ومنظمات صهيونية ذات صفة عسكرية.

٤- حادثة عَنَبَا التي أسفرت عن مقتل يهودي وجرح آخر، فعمد اليهود إلى قتل عربيين في إحدى البيارات، فأعلنت يافا الإضراب، وامتدَّ إلى بقية أنحاء فلسطين.

وهناك عوامل أخرى **ساعدت على قيام الثورة منها:**

١- رغبة الفلسطينيين في الثأر للشيخ عز الدين القسام ومن استشهد من جماعته.

٢- تشكيل اللجنة العربية العليا بزعامة الحاج أمين الحسيني مفتي القدس، بعد أن وحدت الكتل والأحزاب كلمتها، وقد دعت اللجنة الفلسطينيين إلى الإضراب، وعملت على توحيد جميع التشكيلات والتنظيمات السرية تحت اسم «جيش الجهاد المقدس»، والمؤلَّف بأغلبيته من الفلسطينيين، وأُسندت قيادته لعبد القادر الحسيني، وانضم إليه عدد من المجاهدين من سورية والأردن ولبنان، ومن أبرز

---

(١) الموسوعة العربية، الجزء الرابع، مصدر سابق، ص٣٤٧.

المقاتلين السوريين سعيد العاص الذي استُشهد في معركة الخضر ١٩٣٦. وانضمت إلى الثورة كذلك القوة العسكرية التي شكَّلها العراق، وجعل قيادتها لفوزي القاوقجي وانضمَّ إليها كثير من المجاهدين، وشكَّلت لجان وجمعيات سواء في البلاد العربية أو أوربة والمهجر لجمع التبرعات للثورة والدعاية لها.

بدأت أحداث الثورة بمهاجمة عبد القادر الحسيني وفصائل المجاهدين ثكنات الجيش الإنكليزي ومخافر الشرطة والمستعمرات اليهودية، ولاقت هذه الأعمال دعماً وتجاوباً من الشعب في فلسطين، فبادر إلى حمل السلاح والمشاركة في القتال. حقَّق جيش الجهاد المقدس وقوات فوزي القاوقجي عدة انتصارات في معارك **عديدة منها: معركة نور شمس، معركة الجاعونة ومعركة بلعة...، وهاجموا عدة مدن مثل القدس، يافا، عكا، بئر السبع، الخليل، غزة، صفد...**، وقتلوا عدداً من الموظفين البريطانيين والعملاء والجواسيس وسماسرة الأراضي وباعتها.

فأعلنت السلطة البريطانية وضع قوانين الطوارئ والدفاع موضع التنفيذ، واستعانت بعدد من كبار الضباط لقمع الثورة، ولكن دون طائل. وأخيراً لجأت بريطانية إلى أصدقائها من الحكام العرب وطالبتهم بالتوسط لدى اللجنة العربية العليا لإنهاء الحرب وإيقاف الثورة.

وساطة الملوك والأمراء العرب لإيقاف الثورة: وجَّه الملك عبد العزيز آل سعود رسالة إلى اللجنة العربية العليا، يعلمها فيها موافقة بريطانية على توجيه ملوك العرب وأمرائهم نداءً إلى الفلسطينيين لإيقاف الإضراب وإنهاء الثورة، وأنها على استعداد للنظر في مقترحاتهم في مصلحة العرب بالنظر اللائق.

ثم وردت نداءات أخرى من الملك غازي ملك العراق، والإمام يحيى حميد الدين حاكم اليمن والأمير عبد الله أمير شرقي الأردن، تطالب الفلسطينيين بالإخلاد إلى السكينة اعتماداً على حسن نوايا صديقتهم بريطانية، فقبلت اللجنة العربية العليا تلك الوساطة، وأصدرت بياناً دعت فيه إلى إنهاء

الإضراب وإيقاف الثورة، كما أوقف فوزي القاوقجي الأعمال العسكرية، وبذلك انتهت المرحلة الأولى من عمر الثورة.

المرحلة الثانية (١٩٣٦ - ١٩٣٧م):

أرسلت بريطانية لجنة ملكية لتقصي الحقائق ومعرفة أسباب الثورة، عُرفت باسم «لجنة بيل»، فقامت بعدة اتصالات واستمعت إلى مئات الشهادات، ثم وضعت تقريرها الذي نشرته الحكومة البريطانية في ١٩٣٦/٧/٧، وجاء فيه أن سبب الأحداث يعود إلى رغبة العرب في الاستقلال، وإلى كره العرب وسخطهم من موقف بريطانية الهادف لإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين.

وأوصت اللجنة بتقسيم فلسطين إلى ثلاث مناطق من خلال:

أ - إنشاء دولة يهودية في المناطق التي فيها أكثرية يهودية.

ب- وضع القدس وما حولها وحيفا ومنطقتها تحت الانتداب البريطاني الدائم.

جـ- إنشاء دولة عربية في ما تبقى من فلسطين وضمها إلى شرقي الأردن.

وأعلنت بريطانية أمام مجلس العموم البريطاني أنَّها تتعهَّد بتنفيذ وعد بلفور.

أعلنت اللجنة العربية العليا رفضها للتوصيات ودعت لمقاومتها، كما رفضها اليهود، فعادت الاصطدامات من جديد، وفشلت السلطة البريطانية باعتقال الحاج أمين الحسيني، إلا أنها عزلته من منصب الإفتاء وأعلنت الأحكام العرفية[١].

---

(١) الموسوعة العربية، الجزء الرابع، مصدر سابق، ص٣٤٨.

المرحلة الثالثة (تشرين الأول ١٩٣٧-١٩٣٩م):

شملت أحداث الثورة في هذه المرحلة جميع أنحاء فلسطين، وتمكن الفلسطينيون من احتلال بعض المدن إثر معارك ضارية، منها معركة بيت لحم، بئر السبع، القدس، عكا....، وأجبرت بريطانية على إعادة اعترافها باللجنة العربية العليا، ودعتها مع ممثلي الدول العربية المستقلة، لعقد مؤتمر في لندن ١٩٣٩م، عُرف باسم «مؤتمر المائدة المستديرة»، وكانت بريطانية أصدرت كتاباً أبيض في تشرين الثاني ١٩٣٨م، تراجعت فيه عن مشروع التقسيم، وما لبثت أمام الضغط الفلسطيني والعربي أن عدَّلته ونشرته في أيار ١٩٣٩م، **وتضمَّن:**

- **وعداً بإنهاء الانتداب بعد عشر سنوات.**
- **ربط الاستقلال بشروط تضمن استمرار النفوذ البريطاني.**
- **إدخال ٧٥ ألف يهودي إلى فلسطين خلال خمس سنوات.**
- **عدم السماح بالهجرة بعد ذلك إلا بموافقة المندوب السامي، وكذلك الأمر في انتقال الأراضي من العرب إلى اليهود.**
- **لوَّحت بريطانية بإقامة دولة يكون ثلثاها من العرب.**

رفض العرب واليهود هذا الكتاب وحالت الظروف الدولية دون استئناف المفاوضات، **بسبب قيام الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩م**، والتي ستفرز معطيات وأوضاعاً جديدة متغيرة في فلسطين والمنطقة العربية[١].

---

(١) الموسوعة العربية، الجزء الرابع، مصدر سابق، ص٣٤٧-٣٤٩.


الهيئة العامة
السورية للكتاب

الفهرس

الصفحة

الصفحة

اللواء الركن المجاز

الدكتور إبراهيم مصطفى المحمود

- **ولد المؤلف في سورية** - حمص، الرستن ، عام ١٩٤٨م.
- **عمل مديراً لمدرسة** ، (أبو منديل) ، منبج ، محافظة حلب.
- **انتسب إلى الكلية الحربية** في ١٩٦٨/١٢/٢٨م.
- **عضو اتحاد الكتاب العرب**، منذ عام ١٩٧٢م.
- **عضو جمعية البحوث والدراسات السورية**، منذ عام ١٩٧٢م.
- **رئيس تحرير المجلة العسكرية السورية**، أعوام ١٩٧٢-١٩٧٤م.
- **رئيس قسم التأليف والترجمة والنشر**، أعوام ١٩٨٤ - ١٩٨٥م.
- **اتبع دورة قيادة وأركان حرب**، أعوام ١٩٨٥م - ١٩٨٧م.
- **رئيس تحرير مجلة جيش الشعب** ، أعوام ١٩٨٨م - ١٩٨٩م.
- **نال شهادة الدكتوراة في الفلسفة.** بدرجة امتياز مع مرتبة الشرف. أعوام ١٩٩١م - ١٩٩٤م.
- **حصل على شهادة ركن مجاز (دفاع وطني)** ، أعوام ٢٠٠٢م - ٢٠٠٣م.
- **رُقيّ إلى رتبة لواء** ، ٢٠٠٢/١/١م.
- **خاض حروب** عام ١٩٧٣م ، والاستنزاف عام ١٩٧٤م ، وعام ١٩٨٢م ، وكتب عنها.
- وللمؤلف زهاء أربعين كتاباً وموسوعة منشورة.
- **وشغل وظائف عسكرية أخرى.**
- **شارك في عدد كبير من المؤتمرات** العلمية والثقافية والمناظرات والمقابلات التلفزيونية

الطبعة الأولى / ٢٠١١م

عدد الطبع ١٠٠٠ نسخة

إن تاريخ الشعوب مرآة تعكس مناهج الأسلاف، لتعليل الأحداث الماضية، وإبراز أسبابها، وبيان الطرائق والوسائط التي استخدمها الأجداد لتحقيق إرادتهم في امتلاك أسباب الوجود والتطور.

فتاريخ الشعوب سر وجودها، وأحداثه منبع آلامها وآمالها، أما فهمه ودراسة تجاربه واستنباط قوانينها وأحكامها، فهو الذي يحدد نجاحها مستقبلاً أو إخفاقها.

وتأسيساً على ما سبق ينبلج النبراس، وتخلق القدوة لمن يريد أن يعتبر من الأجيال الصاعدة.



www.syrbook.gov.sy
مطابع وزارة الثقافة - الهيئة العامة السورية للكتاب - ٢٠١١م

سعر النسخة ٣٥٠ ل.س أو ما يعادلها